

دائرة معارف في سيرة النبي ﷺ

تأليف
العلامة شبلي الشنغاني
أكملهُ

العلامة / سيد سليمان الندوي

الجزء السادس

ترجمهُ	قدم له
د/ البهيم محمد	د/ علي محمد
د/ المحر محمد	مفتي الديار المصرية
جامعة الأزهر	

طبع على نفقة
د/ حسن حبشي زكي

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين، سيدنا محمد

وعلى آله وأصحابه أجمعين. وبعد

فهذه ترجمة الجزء السادس من كتاب "سيرة النبي" للعلامة شبلي النعماني، والعلامة سيد سليمان الندوي رحمة الله عليهما، وكنا قد قدمنا ترجمة الجزء الثالث قبل عدة أشهر، ويتحدث هذا الجزء عن الأخلاق في الإسلام، وتصور الإسلام لها، هذا التصور المتكامل الذي نفتقده في كل الأديان السماوية والديانات للوضع المعروفة، وقد استطاع العلامة شبلي النعماني أن يبرز الصورة للصحيحة للأخلاق الإسلامية أمام القارئ مما يزرع بداخله حباً للدين الحنيف الذي جاء إلى الناس كافة، وحتى يرث الله الأرض ومن عليها.

هذا وقد حرصنا في الترجمة على أن تكون بأسلوب ميسر وواضح يمكن للقارئ العربي على اختلاف المستويات الثقافية والعلمية من استيعابه، إذ أن الكتاب في الأصل الأردني وخاصة في الجزء السادس منه والذي نقدمه إلى القارئ يتسم بأسلوب قد يميل في بعض الأحيان إلى الفلسفة بما يتناسب مع موضوع بحثه؛ أي الأخلاق. أما الآيات القرآنية والأحاديث النبوية الشريفة فقد قمنا بتخريجها من أصولها العربية وإدراجها في هامش الكتاب والإبقاء على نص الترجمة في المتن، وذلك حتى تتضح الصورة أمام القارئ.

كما حرصنا كل الحرص على أن تخرج الترجمة بالشكل الذي يتناسب مع مكانة الكتاب الدينية والعلمية، وبذلنا قصارى جهدنا لكي تكون فائدة ترجمة الكتاب أعم وأشمل واضعين نصب أعيننا أننا نتقرب بعملنا هذا إلى الله تعالى، ونجعل منه نبراساً يضيء طريق حبنا لله ورسوله الكريم صلى الله عليه وسلم، فندعو الله أن يتغمد العالمين الجليلين بواسع رحمته، وأن يجعل هذه الترجمة في ميزان حسناتنا.

والله ولي التوفيق

المترجمان

د. أحمد محمد أحمد عبد الرحمن

د. إبراهيم محمد إبراهيم

جامعة الأزهر

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي أنزل الكتاب والحكمة، والصلاة والسلام على رسوله نبي الرحمة، وعلى آله وأصحابه أولي العزم والهمة .

يا متصف بكل الصفات ويحل اسمك عقدة كل أمر

نقدم اليوم أمام القراء الجزء السادس من سلسلة السيرة النبوية، وهو تفصيل وشرح لتلك للتعاليم الأخلاقية التي بلغها رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المسلمين وعلمهم إياها، ومن العجيب أن عامة الناس يعطون المكانة النظرية للتعاليم الأخلاقية درجة أقل من مكانتها العملية من حيث الأهمية، وذلك في مجال التنبيل على ضرورة الدين وإفادته، ولهذا حاولنا في هذه الصفحات أن نلقي الضوء بشكل مركز على كل زلوية من زوايا هذا الباب من أجل تنفيذ هذا الوهم لدى عامة الناس، وإبراز الأهمية الصحيحة للأخلاق ودورها في حضارة ورفي الأمم، ولكنا على أن للتربية الأخلاقية الصحيحة جزء هام في بناء الأمة.

وقد أشرنا في هذا الكتاب مرارا إلى قضية أن الأخلاق للحسنة بمثابة انعكاس لأسماء الله الحسنى، لكن علينا أن نتذكر دائما أنه لا يمكن لأي مخلوق أن يكون شريكا مساويا للخالق في أي صفة من الصفات، إذ أن الاعتقاد بهذا يعد شركا كاملا، وإنما الأمر هو أن اتصاف العبد بوصف يتناسب مع صفة من صفات الله تعالى يجعلنا نطلق عليه اسم هذه الصفة مجازا، ليس إلا، وعلى سبيل المثال فإن مكانة وصف العلم لدى العبد أمام صفة العلم لدى الله تعالى لا تعادل قطرة ماء أمام بحر زخار، ومع ذلك فإننا نطلق على هذا الوصف لدى العبد اسم العلم جنبا إلى جنب مع صفة علم الله، في حين أن صفة العلم الحقيقية لدى الله تعالى وليست لدى العبد، لكن لأن الله تعالى بصفة العلم لديه يخلق في العبد شأنا كاشفا، ولهذا نطلق على هذا الشأن الكاشف البسيط هذا لدى العبد اسم (علم) أيضا^(١)، وإلا فإن الحقيقة هي أنه لا نسبة بين الاثنين، وهذا الكلام ينطبق على التشارك الموجود بين باقي صفات الله تعالى وأوصاف العبد، ولهذا فإن هذا التشارك بين تلك

^١ - لمزيد من التفصيل انظر المعارف اللدنية لسيدنا "محمد الألف الثاني" رحة الله عليه، ص ٢٤٤، طبعة مدينة بجور .

الأوصاف في نظر كثيرين من أهل الحق والمحققين ليس إلا اشتراكا في أننى صورته،
ليس كمثلته شيء و هو السميع العليم " (الشورى : ٢) .

وقد عقدنا في ثنايا الكتاب موازنات بين الإسلام والأديان المختلفة، وذكرونا في
هذا الخصوص أيضا تعاليم سيدنا موسى وسيدنا عيسى عليهما السلام، والمقصود منها
هو تلك التعاليم والإرشادات الموجودة في الصحائف المنسوبة إليهما في أيامنا هذه، أو
التي ينسبها إليهما متبعوهما، وإلا فمن الواضح أن كل تعاليم الأنبياء الصادقين لا تقبل
للمشك ومبرأة من كل ما يثير الاعتراض، وأن التعاليم الربانية التي نزلت في فترة ما من
فترات النبوة كانت تتناسب تلك الفترة تماما، إلى أن تم تكميل كل هذا تماما بخاتم
المرسلين سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم.

كما وردت في أماكن متفرقة من هذا الجزء قضايا فقهية، ولأن الجانب الأخلاقي
للأحكام هو الموضوع الأصلي للكتاب، لهذا لم نتعمق في التفاصيل والجزئيات
الفقهية، فإذا كان هناك شك في أمر ما من هذه الأمور فإنه ينبغي الرجوع بشأن هذه
التفاصيل والجزئيات إلى كتب الفقه .

هذا وقد جاء ترتيب الكتاب على النحو التالي، مقدمة في البداية، وفيها أبرزنا
الأهمية الدينية للأخلاق، ثم حاولنا وضع فلسفة للأخلاق الإسلامية، وعددنا بعدها بعضا
من خصائص طرق الدعوة لدى رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم فصلنا الحديث
عن التعاليم الأخلاقية للإسلام تحت عناوين مختلفة مثل الحقوق والفضائل والردائل
والآداب.

وقد وضع رفيقي في العمل مولانا عبد السلام الندوي بعض عناوين الفضائل
والردائل والآداب، وقد شملتها كلها في الكتاب مع بعض التعديل، وأنا أشكر فضيلته على
عونه العلمي هذا، ولم يكن هناك مفر أمامي في الاستعانة بذوقي وفكري الخاص
والاسترشاد بهما في مجال شرح المصالح والحكم واستنباط الأحكام من الآيات
والأحاديث، والسهو والنسيان من فطرة الإنسان، فكيف أدعي أن فكري وذوقي كانا حريين
في هذا المجال . إنني لم أر مؤسس سلسلة السيرة النبوية السيد الأستاذ العلامة شبلي
النعماني رحمه الله عليه في المنام منذ فترة، لكنني رأيته بعد ذلك حين أوشكت الأبواب
الأخيرة في هذا الكتاب على الانتهاء، رأييت بعض الأجزاء ملقاة أمامه، وهو يطالع إحدى
صفحاته ضاحكا (رحمة الله تعالى عليه).

أدعو الله تعالى أن يتقبل مني هذه الصفحات، وأن ينظر أبناء الملة الإسلامية في هذه المرأة المحمدية فيولدوا بداخلهم الرغبة في تزيين وتجميل صورتهم الأخلاقية وأن يعلموا أن إصلاح الأخلاق والعادات في ضوء الإسلام بمثابة علامة كبرى على صلاح الإيمان والعبادة .

طالب الرحمة

سيد سليمان ندوى

٤ من ذي الحجة ١٣٥٧هـ

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين و الصلاة و السلام على سيد المرسلين و على آله و أصحابه أجمعين .

الباب الثالث من التعاليم النبوية .

الأخلاق

الباب الثالث من كتاب التعاليم النبوية بعد العقائد والعبادات هو الأخلاق، المقصود بالأخلاق تلك التعاليم التي تتعلق بالحقوق والفرائض بين العباد بعضهم البعض، والتي يكون من المناسب لكل إنسان ببل ومن الضروري له أن يقوم بأدائها، فالإنسان حين يأتي إلى هذه الدنيا يتولد بينه وبين كل شيء نوع ما من العلاقة، والقيام بواجبات هذه العلاقة على أحسن وجه هو الأخلاق، فهناك علاقة مع الوالدين ومع الأهل والأولاد، ومع الأقارب والأصدقاء، ومع الأحباب والأعزاء، ليس هذا فقط بل إن هناك علاقة له مع كل إنسان يمتهن له بعلاقة الحي أو الوطن أو القومية أو الجنسية أو أي نوع آخر من العلاقات، وأكثر من هذا أن له علاقات مع الحيوانات أيضا، وهذه العلاقات كلها تنشئ فروضا وواجبات عليه .

إن السعادة والرفاهية والأمن والأمان في الدنيا يتحقق بفضل ثروة هذه الأخلاق، ونقص هذه الثروة يجعل الحكومة والجماعة تستكملها بقانون قوتها وطاقتها، فإذا ما أدت الجماعة الإنسانية واجباتها الأخلاقية كاملة بدافع من نفسها لم تكن الحكومات في حاجة من الأصل إلى القوانين الجبرية. ولهذا فإن أفضل الأديان هو الذي يملك ضغطا أخلاقيا على متبعيه بحيث لا تضل خطاهم بعيدا عن الطريق القويم .

وقد حاولت الأديان كلها تقريبا القيام بهذا الأمر، وفعل الإسلام آخر أديان النبويا كذلك أيضا، وسوف نقوم في الأبواب التالية بتحليل محاولات الإسلام هذه ونتناول تفصيلا ما قاله رسول الله صلى الله عليه وسلم في هذا الخصوص .

الإسلام و الأخلاق الحسنة

لا شك أن أديان العالم كلها مؤسسة على الأخلاق، ولهذا كانت تعاليم جميع الأنبياء الذين بعثوا في هذه الدنيا تؤكد على أن قول الصدق أمر حسن، والكذب أمر سيء، والعدل خير والظلم شر، والتصديق حسن، والسرقة سيئة، وكانت بعثة محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم بمثابة التكميل في هذا الباب أيضا، مثلما هي مكانتها أيضا فيما

يتعلق بباقي أبواب الدين. يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إنما بعثت لأتمم حسن الأخلاق" (موطأ الإمام مالك-باب حسن الأخلاق). وهذه هي رواية موطأ الإمام مالك، بينما نجدتها في مسند أحمد والبيهقي وابن سعد ويرهم^(١) بألفاظ أكثر وضوحاً وتعبيراً. يقول صلى الله عليه وسلم "إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق".

ولهذا بدأ رسول الله صلى الله عليه وسلم في أداء هذا الفرض مع بداية بعثته النبوية. كان رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يزال في مكة حين أرسل أبو ذر رضي الله عنه أخاه إليها ليتحرى عن أحوال وتعاليم هذا النبي الجديد. ولما عاد أخو أبي ذر كان ما قاله لأخيه فيما يتعلق برسول الله صلى الله عليه وسلم كما يلي: "رأيت أنه يأمر بمكارم الأخلاق"^(٢). وحين استدعى للنجاشي المسلمين إليه أيام هجرتهم إلى الحبشة، وسألهم عن الإسلام فكان مما قاله سيدنا جعفر الطيار في رده عليه هذه الفقرات: "أيها الملك، كنما قوما جهلاء، نعبد الأصنام، ونأكل الميتة، ونفعل الفاحشة، ونظلم الجار، ويظلم الأخ، أخاه، ويأكل القوي الضعيف، ثم ولد فينا رجل علمنا أن نترك عبادة الأبحار، وأن نقول الصدق، وأن نرجع عن سفك الدماء، وأن لا نأكل مال اللئامى، وأن نهتم بالجار، ولا نقذف للنساء العفيفات ظلماً وعدواناً"^(٣).

وهكذا في بلاط قيصر الروم حين قدم أبو سفيان (وكان لا يزال كافراً) صورة مختصرة لدعوة رسول الله صلى الله عليه وسلم الإصلاحية، فاعترف فيها أنه صلى الله عليه وسلم يعلم الناس بالإضافة إلى توحيد الله وعبادته، أن يتصفوا بالعفة، ويقولوا

^١ - كر العمل - الجزء الثاني - طبعة حيدر آباد، والزرقاني يشرح الموطأ - الجزء الرابع - ص ٩٢ - مصر ١٢٨٠ هـ. حدثني عن مالك، أنه قد بلغه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال بعثت لأتمم حسن الأخلاق.

^٢ - صحيح مسلم - مناقب أبي ذر - الجزء الثاني - ص ٣٤٩ - مصر. حدثني إبراهيم بن محمد بن عرعرة السامي ومحمد بن حاتم وتقارباً في سياق الحديث، واللفظ لابن حاتم قالاً: حدثنا عبد الرحمن بن مهدي، حدثنا الثوري بن سعيد، عن أبي حمزة، عن ابن عباس، قال: لما بلغ أبا ذر بعث النبي صلى الله عليه وسلم بمكة قال لأخيه: اركب إلى هذا الوادي. فاعلم لي علم هذا الرجل الذي يزعم أنه يأتيه الخبر من السماء، فاسمع من قوله ثم اتني، فانطلق الآخر حتى قدم مكة، وسمع من قوله، ثم رجع إلى أبي ذر فقال: رأيت أنه يأمر بمكارم الأخلاق، وكلاماً ما هو بالشعر.

^٣ - ابن حنبل - الجزء الأول - ص ٢٠٢، و مستدرک الحاكم - طبعة حيدر آباد - الجزء الثاني - ص ٣١٠، و ابن هشام - ذكر واقعة الهجرة.

الصدق، ويقرروا حق القرابة" (١). وقد جاء في أماكن متفرقة من القرآن الكريم مدحاً للنبي صلى الله عليه وسلم:

"ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة" (الجمعة: ١) .

وقد جاء في هذه الآية لفظان يستحقان وقفة الأول هو الوصف بالطهر وهو الذي أطلق عليه القرآن الكريم (تزكية)، والثاني (الحكمة).

١ - التزكية: ومعناها اللغوي التطهير، للتجميل وإزالة الأوساخ والأدران. وقد استعمل القرآن الكريم هذا اللفظ بمعنى تطهير للنفس الإنسانية من كل أنواع النجاسات وإزالة التلوثات عنها، بمعنى إزالة للصدأ من علي مرآة للنفس وخلق للصفاء والشفافية فيها فجاء في سورة (الشمس):

"ونفس وما سواها، فألهمها فجورها وتقواها، قد أفلح من زكاها، وقد خاب من دساها" (الشمس) .

"قد أفلح من تزكى، ونذكر اسم ربه فصلى" (الأعلى) .

"عبس وتولى، أن جاءه الأعمى، وما يدريك لعله يزكى، أو يذكر فتنعه للذكرى" (عبس).

ويتضح لنا من الآيات السابقة ما هو مفهوم التزكية في القرآن الكريم وهو الوصف الذي جعله من خصوصيات نبي الإسلام صلى الله عليه وسلم، ونعلم منها كذلك أن أعظم فرض في نبوة ورسالة محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم كان تصفية

^١ - صحيح البخاري - كتاب الوحي وكتاب الجهاد - ١٢. حدثنا أبو اليمان الحكم بن نافع قال: أخبرنا شعيب عن الزهري قال: أخبرني عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود أن عبد الله بن عباس أخبره، أن أبا سفيان بن حرب أخبره أن هرقل أرسل إليه في ركب من قريش، وكانوا تجارا بالشام، في المدة التي كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ماد فيها أبا سفيان وكفار قريش، فأتوه وهم بالياء، فدعاهم في مجلسه، وحوله عظماء الروم، ثم دعاهم ودعى بترجمانه، فقال: أيكم أقرب نسباً بهذا الرجل الذي يزعم أنه نبي؟ فقال أبو سفيان: فقلت أنا أقربهم نسباً، فقال: أدنوه مني، وقربوا أصحابه فاجعلوهم عند ظهره، ثم قال لترجمانه: قل لهم إني سأتل هذا عن هذا الرجل، فإن كذبني فكذبوه. فوالله لولا الحياء من أن يأتروا علي كذباً لكذب عنه. ثم كان أول ما سألتني عنه أن قال: كيف نسب فيكم؟ قلت: هو فينا ذو نسب. قال: فهل قال هذا القول منكم أحد قط قبله؟ قلت: لا. قال: فهل كان من آياته من ملك؟ قلت: لا. قال: فأشرف الناس يتعنونه أم ضعفأؤهم؟ قلت: بل ضعفأؤهم. قال: أيزيدون أم يتقصون؟ قلت: بل يزدون. قال: فهل يرتد أحد منهم سخطة لدينه بعد أن يدخل فيه؟ قلت: لا. قال: فهل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ قلت: لا. قال: فهل يغدر؟ قلت: لا. ونحن منه في مدة لا ندري ما هو فاعل فيها. قال: ولم تكن كلمة أدخل فيها شيئاً غير هذا الكلمة. قال: فهل قاتلتموه؟ قلت: نعم. قال: فكيف كان قتالكم إياه؟ قلت: الحرب بيننا وبينه سجال، ينال منا وننال منه. قال: ماذا يأمركم؟ قلت: يقول: إعبدا الله وحده ولا تشركوا به شيئاً، واتركوا ما يقول آبائكم، ويأمرنا بالصلاة والصدق والعفاف والصلة ..

النفس الإنسانية وتطهيرها من العيوب والأدران والتلوثات ويجعل أخلاق الإنسان وأعماله أكثر صحة وصفاء وشفافية، وبالتالي يثبت من الأحداث التي ورد ذكرها سابقاً أن أصدقاءه وأعداءه صلى الله عليه وسلم كانوا يشهدون بخصوصيته هذه .

٢- الحكمة: واللفظ الثاني هو لفظ الحكمة، ورغم أن شرحاً كاملاً لهذا اللفظ قد مر بنا في الجزء الرابع ولكننا نقول هنا بمناسبة السياق الذي معنا أنه إذا كان لفظ الحكمة في القرآن الكريم قد استخدم للدلالة على ذلك العلم والعرفان الذي أودع صدر رسول الله صلى الله عليه وسلم في شكل النور الإلهي، والذي تظهر آثاره وآياته على لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم في شكل مصالح وأسرار أحياناً، وفي شكل سنن وأحكام أحياناً أخرى، فإن هذا اللفظ قد استخدم في القرآن أيضاً للدلالة على آثار ونتائج ذلك العلم والعرفان التي تمثل التعاليم الأخلاقية جزءاً كبيراً منه، فقد جاء في القرآن الكريم مرتين الأمور التي تدخل في هذا المعنى الثاني للحكمة فجاء التأكيد في سورة (الإسراء) على التوحيد وطاعة وبر الوالدين، والنصح بمساعدة نبي القريبى والمحتاجين وترك الإسراف والتبذير والبخل وقتل الأولاد وفعل الفاحشة وقتل الأبرياء وظلم اليتامى، وبعدها جاء التأكيد على الوفاء بالعهد وعدم التطفيف في الوزن والكيل، وعدم التكبر والغرور ثم قال الله بعد ذلك:

" ذلك مما أوحى إليك ربك من الحكمة " .

وقد قال في سورة (لقمان): " ولقد أتينا لقمان الحكمة أن أشكر الله " .

ثم جاء بعد ذلك شرح لتلك الأمور من الحكمة والتي تقول "أن لا تشرك بالله، وأن تبر الوالدين، وتقيم الصلاة، وتأمر الناس بالمعروف، وتنهاهم عن المنكر، وأن تصبر على ما أصابك، وأن لا تغتر، وأن لا تتكبر، ولا تتحدث بصوت مرتفع، ويتبين من هذه الآيات أن القرآن الكريم قد أطلق لفظ (حكمة) على أمور الخير الفطرية تلك، والتي تسلم بها الأديان والشعوب جميعاً على أنها من الفطرة، والتي يمكن أن نسميها بشكل آخر (الأخلاق) .

ويعلم من هذا التفصيل أن مكانة الأخلاق في شريعة "محمد" صلى الله عليه وسلم هو أنها يعبر عنها بلفظ (الحكمة). كما يتضح من تصريح القرآن الكريم بأن الوحي المحمدي يشتمل على الكتاب والحكمة معا أن أهمية الأخلاق في نظر الإسلام لا تقل أبداً عن أهمية للعبادات وباقي الأحكام، وقد صرح القرآن الكريم بهذا فقال :

"يا أيها الذين آمنوا اركعوا واسجدوا واعبدوا ربكم وافعلوا الخير لعلكم تفلحون" (الحج:).

وكان الروح في جسد الدعوة المحمدية هي الإيمان وزراعته هما للعبادات والأخلاق، أي الخالق والمخلوق بالإسلام هو مجموع الاثنين معا .
أهمية حقوق العباد:

فإذا ألقينا نظرة أخرى علمنا أن التعاليم للمحمدية قد زادت من أهمية الأخلاق أكثر من للعبادات، فالأخلاق هي حقوق العباد، أي العلاقات والمعاملات التي تكون بين بني الإنسان والعبادات هي حقوق الله، أي فروض الله والله تعالى، الذي هو أرحم الراحمين، والذي لا يخلق أبواب رحمته أمام عبيده للخيرين والأشرار على السواء، يغفر بفضلته ومشيئته كل ذنب ما عدا الشرك والكفر، بينما لم يجعل حق العفو عن التقصير في حقوق العباد - أي الفرائض الأخلاقية التي تكون بين بني الإنسان - في يده هو، وإنما جعله في أولئك العباد الذين حدث في حقهم التقصير والتعدي، وبديهي أن لا نتوقع من هؤلاء من الرحمة والكرم ما نتوقعه من ذات الله أرحم الراحمين، ولهذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "من كانت له عند أخيه مظلمة فليقتصها منه قبل أن لا يكون دينار ولا درهم، وإنما الأعمال فقط، فيؤخذ من حسنات للظالم ويعطي للمظلوم، فإن نفدت حسناته أخذ من سيئات المظلوم وكتب في صحيفة للظالم" (١). وجاء في حديث آخر أنه سيكون في صحيفة الأعمال ثلاثة أنواع من الذنوب، نوع لن يلتفت الله إليه، ونوع لن يترك الله منه حرفاً، ونوع لن يغفر الله منه شيئاً، فأما الذي لن يغفر الله منه شيئاً فهو للشرك، ولأما الذي لن يلتفت الله إليه فهو الظلم الذي أوقعه الإنسان على نفسه، ويكون أمره بينه وبين الله كأن لم يصم أو لم يصل، فالله تعالى يغفر له ويعفو عنه إن شاء، أما الذي لن يترك الله منه حرفاً فهو الظلم الذي يوقعه العبد بالعباد (مسند أحمد والحاكم عن عائشة رضي الله عنها)، ويعلم من هذا إلى أي مدى تكون خطورة الظلم والتعدي للذي يحدث في المعاملات الإنسانية (٢)، ولهذا فإن الله تعالى لم يلزم الشخص بالحج طالما لم يكن لديه ما يكفي أهله وعياله، وفرض الزكاة في ذلك المال الذي يزيد عن حاجة الشخص، بمعنى

١ - صحيح البخاري - كتاب الرقاق - باب القصص يوم القيامة - ص ٩٦٧. حدثنا إسماعيل قال: حدثني مالك، عن سعيد المقبري، عن أبي هريرة: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (من كانت عنده مظلمة لأخيه فليتحلل منها، فإنه ليس ثم دينار ولا درهم، من قبل أن يؤخذ لأخيه من حسناته، وإن لم يكن له حسنات أخذ من سيئات أخيه فطرح عليه) .

٢ - هذه مسألة من مسائل أصول الفقه - انظر الهداية - كتاب الحج - ص ٢١٣، إعداد مولانا المرحوم عبد الحفيظ .

أن الله تعالى لم يفرض حقوقه على العبد طالما لم تكن لديه الاستطاعة على أداء حقوق العباد و الوفاء بها .

الأركان الخمسة للإسلام و الأخلاق:

بناء على بعض الأحاديث التي تبين أن عمارة الإسلام قد أقيمت على أعمدة أربعة بعد الإيمان وهي الصلاة والحج والصيام والزكاة فإنه قد حدث بعض سوء الفهم فحواه أن الأخلاق الحسنة لم تجد لها مكانا في عمارة الإسلام، وزاد سوء الفهم هذا بما يقوله الوعاظ ناقصو الفهم، في حين أنه كما ذكرنا في بداية العبادات أنه من بين أهم أهداف العبادات هدف تكميل وتربية الأخلاق للحسنة لدى الإنسان، وقد ورد هذا اللفظ بشكل واضح في أماكن كثيرة في القرآن الكريم، فأخبر أن إحدى فوائد الصلاة أنها تنهي عن الفحشاء والمنكر والبغى، وقال عن الصوم أنه يعلم التقوى، وأن الزكاة درس كامل للشفقة والمواساة والتعاطف، والحج كذلك يعد من طرق مختلفة وسيلة لإصلاح وتحسين أخلاقنا، كما أنه وسيلة لمساعدة أنفسنا والآخرين كذلك .

ويتضح من هذا التفصيل أنه مهما كانت أسماء الأركان الأربعة في الإسلام مختلفة عن بعضها البعض إلا أن سر التعليم الأخلاقي مضمرة في مقاصدها الأساسية، فإن لم تظهر من تلك العبادات هذه الثمرة الروحانية والأخلاقية فاعلم أنها مجرد تنفيذ حرفي للأحكام الإلهية، وأنها تخلق من أي جوهر أو معنى للعبادات، إنها شجرة لا ثمار لها، وورود لا رائحة فيها، وقال لا روح فيه، وقد شرح السادة المتصوفة في تأليفهم كل الإشارات القرآنية و النبوية الواردة في هذا الباب ، فيكتب الإمام الغزالي في (إحياء علوم الدين) :

"يقول الله تعالى أن أقيموا الصلاة لذكري، وقال لا تكونوا من الساهين، وقال لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون، وكم من المصلين الذين لا يعلمون ما يقولون حال صلاتهم وإن لم يكونوا سكارى، ولقد قال صلى الله عليه وسلم إن من يصلي ركعتين لا ينشغل باله فيهما بأمر الدنيا فإن الله يغفر ذنوبه، ثم قال أن الصلاة تواضع وخشوع ورقة وحياء، وأن اعقوا أيديكم وقولوا "يا الله"، ومن لم يولد ذلك بداخله فكأن صلاته ناقصة وجاء في الكتب السابقة أن الله تعالى يقول: "أنا لا أقبل كل صلاة، إنما أقبل صلاة من تواضع بها لعظمتي، ولم يتكبر بها على خلقي، ويطعم المحتاج لأجلي" وقال صلى الله عليه وسلم : فرضت الصلاة وجعلت أركان الحج لكي يذكر الله، فإن لم تتولد

هذه الكيفية في القلب فلا قيمة للذكر الإلهي، وجاء في الحديث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر فإن مثل هذه الصلاة تبعده عن الله^(١).

وقد ذكر ابن جرير وابن أبي حاتم وغيرهما من المفسرين المحدثين هذا الحديث الأخير بسند، وجمع الحافظ ابن كثير كل هذه الروايات في تفسيره (سورة العنكبوت) وفي رواية أخرى لهذا الحديث أن: "من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر فلا صلاة له"^(٢)، وتحدث الرسول صلى الله عليه وسلم عن الصيام بمثل هذه الألفاظ أيضا فقال: "إن من لم يترك الكذب والخداع وهو صائم فليس لله حاجة في أن يترك طعامه وشرابه"^(٣). ويتضح من هذه التعاليم أن أهم أهداف العبادات هو تركية الأخلاق الأخلاق الحسنة والإيمان:

والأمر المقدم على هذا أيضا أن الإيمان وإن كان أصل أصول الدين، ولكن بناء على أنه يكون في القلب ولا يعرفه أحد، وأن كل شخص يستطيع أن يقر بالدين بلسانه ظاهريا، لهذا كانت علامات الإيمان هي نتائجه وآثاره، أي الأخلاق الحسنة، وهكذا جاء في سورة (المؤمنون) ذكر الأخلاق الحسنة كصفة ضرورية من صفات أهل الإيمان والتي يتوقف عليها فلاحهم جنبا إلى جنب مع العبادات، فقال تعالى:

"قد أفلح المؤمنون الذين هم في صلاتهم خاشعون، والذين هم عن اللغو معرضون، والذين هم للزكاة فاعلون، والذين هم لفروجهم حافظون، إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين، فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون، والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون، والذين هم على صلواتهم يحافظون" (المؤمنون: ١-٩).

فجاء في الآيات أن الصفات التي نتج عنها فلاح أهل الإيمان احتلت صفات الوفاق والإعراض عن اللغو والكرم (الزكاة) والعفة والوفاء بالعهد مكانة خاصة بينها .

^١ - الجزء الأول - باب فضيلة الخشوع .

^٢ تفسير ابن كثير - سورة العنكبوت - الآية المذكورة - ص ١٢ .

^٣ صحيح البخاري وجامع الترمذي وأبو داود وابن ماجه - كتاب الصوم - ١٢. حدثنا آدم بن أبي إياس: حدثنا ابن أبي ذئب: حدثنا سعيد المقبري، عن أبيه، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (من لم يدع قول الزور والعمل به، فليس لله حاجة في أن يدع طعامه وشرابه) .

الأخلاق الحسنة والتقوى:

إن اسم تلك للكيفية القلبية للإنسان والتي تعد محركا لكل أنواع الخير لديه هو (التقوى) في اصطلاح القرآن وقد صرح الوحي المحمدي أن أهل التقوى هم الذين يتصفون بالصفات التالية :

ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب، ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والمنكة والكتاب والنبين وأتى المال على حبه ذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفي الرقاب وأقام الصلاة وآتى الزكاة والموفون بعهدهم إذا عاهدوا والصابرين في البأساء والضراء وحين لبأس أولئك لأذن صدقوا وأولئك هم المتقون" (البقرة : ١٧٧) .

ويظهر من هذا أنه كما أن الإيمان هو النتيجة الأولى للاستقامة والتقوى فإن نتيجتها الحتمية الثانية هي أحسن الصفات الأخلاقية مثل السخاء والوفاء بالعهود والصبر والثبات وغيرها .

الأخلاق الحسنة وشرف العبودية لله:

لقد جاء في التعليم للظاهر لمحمد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن عباد الله الصالحين المقبولين هم الذين يتصفون بالأخلاق الحسنة وهذه الأمور هي نفسها علامة قبولهم عند الله تعالى، ولهذا جاء في سورة (الفرقان):

"وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا، وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما، والذين يبيتون لربهم سجدا وقياما، والذين يقولون ربنا اصرف عنا عذاب جهنم إن عذابها كان غراما، إنها ساءت مستقرا ومقاما، والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا، وكان بين ذلك قولا، والذين لا يدعون مع الله إلها آخر ولا يقتلون النفس التي حرم الله إلا بالحق، ولا يزنون، ومن يفعل ذلك يلق آفاما، والذين لا يشهدون الزور، وإذا مروا باللغو مروا كراما، والذين إذا نكروا بآيات ربهم لم يخروا عليها صما وغميانا، والذين يقولون ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين واجعلنا للمتقين إماما" (الفرقان: ٦٠) .

انظر كم من المظاهر الأخلاقية كامن في حقيقة الإيمان مثل العفو والتسامح والاعتدال وعدم القتل وعدم سفك الدماء وعدم الاشتراك في المكر والخداع وغيرها .

الصفات الأخلاقية لأهل الإيمان:

لقد جاء وصف أولئك العباد المقبولين الذين يحبهم الله تعالى على لسان محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم كالتالي :

"وعلى ربهم يتوكلون، والذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش، وإذا ما غضبوا سم يغفرون والذين استجابوا لربهم وأقاموا الصلاة وأمرهم شورى بينهم ومما رزقناهم ينفقون، والذين إذا أصابهم البعض هم ينتصرون، وجزاء سيئة سيئة مثلهما، فمن عفا وأصلح فأجره على الله إنه لا يحب الظالمين، ومن انتصر بعد ظلمه فأولئك ما عليهم من سبيل، إنما السبيل على الذين يظلمون الناس ويغيرون في الأرض بغير الحق أولئك لهم عذاب أليم، ومن صبر وغفر إن ذلك لمن عزم الأمور" (الشورى: ٤).

"أعدت للمتقين الذين ينفقون في السراء والضراء والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين" (آل عمران: ١٤).

" أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا ويدرعون بالحسنة السيئة ومما رزقناهم ينفقون، وإذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه وقالوا لنا أعمالنا ولكم أعمالكم سلام عليكم لا نبتغي الجاهلين" (القصص : ٦) .

"ويطعمون الطعام على حبه مسكينا ويتيما وأسيرا" (الإنسان : ٨) .

والشرح الذي قدمه رسول الله صلى الله عليه وسلم لهذه الآيات وغيرها في نفس الموضوع محفوظ في الأحاديث الشريفة، ونحن هنا ندرج تلك الأحاديث تحت عناوين مختلفة حتى تتبين لنا أهمية ومقام درس الأخلاق في المنهج التعليمي لرسول الله صلى الله عليه وسلم.

درجة الأخلاق الحسنة في الإسلام :

وتظهر الأهمية التي أولاها الإسلام للأخلاق من الأدعية التي كان يدعو بها رسول الله صلى الله عليه وسلم في الصلاة، وهذا اقتباس منها :

"واهدني لأحسن الأخلاق، ولا يهدي لأحسنها إلا أنت، واصرف عني سيئاتها، ولا يصوف عني سيئاتها إلا أنت" (مسلم - باب الدعاء في الصلاة) .

وتتضح أهمية هذه الألفاظ من أن الشيء الذي يطلبه النبي صلى الله عليه وسلم في أحسن أوقات القرب والاستجابة في الحضرة الإلهية هو حسن الأخلاق، وليس في

الإسلام أعظم من الإيمان لكن تكميل هذا الإيمان يكون بالأخلاق يقول صلى الله عليه وسلم :

"أكمل للمؤمنين إيماننا أحسنهم أخلاقاً" .

وقد جاء هذا الحديث عند الترمذي وابن حنبل وأبي داود والحاكم وابن حبان، ويعلم منه أن الشيء الذي جعل معياراً لكمال الإيمان في الإسلام هو الأخلاق الحسنة فهذه هي الثمرة التي تعرف بها شجرة الإيمان .

وأهمية للصلاة و الصيام في الإسلام ظاهرة واضحة ومع ذلك فإن الأخلاق الحسنة تقوم مقامهما في بعض الأحيان يقول صلى الله عليه وسلم :
"أن الرجل ليدرك بحسن خلقه درجة قائم الليل وصوم النهار" .

وقد جاء هذا الحديث مع بعض التغيير في ألفاظه بالفاظ مترافقة عند أبي داود وابن حنبل والحاكم وابن حبان والطبراني، ويظهر منه أن الدرجة التي ينالها الشخص من قيامه الليل بطوله في صلاة النوافل، وجوع وعطش النهار بطوله في صيام التطوع يمكن أن يحصل عليها من حسن الخلق، وكثرة العبادات تزيد من مكانة حسن الخلق بشكل أو بآخر .

إن الأخلاق في الإسلام هي المعيار الذي يتبين من خلاله الفرق بين رتبة الناس ومقامهم فيما بينهم يقول صلى الله عليه وسلم :
"خياركم أحاسنكم أخلاقاً" (البخاري - كتاب الأدب) .

وقال في حديث آخر: "ما من شيء يوضع في الميزان أثقل من حسن الخلق، فإن صاحب حسن الخلق ليبلغ به درجة صاحب الصوم والصلاة" . وقد جاء هذا الحديث بلفظه هذا في الترمذي، بينما جاء مختصراً في كتب الأحاديث الأخرى (الحاكم، وابن حبان، وابن حنبل، وأبي داود)، فجاءت الفقرة الأولى منه فقط، يعني "ما من شيء يوضع في الميزان أثقل من حسن الخلق" ، وقد أوضح هذا الحديث النبوي بشكل تام أنه لا شيء أثقل في ميزان الإسلام من حسن الخلق، وجاء في حديث آخر أن أفضل ما أعطى العبد من الله تعالى هو حسن الخلق: "خير ما أعطى للناس خلق حسن" .

وجاء هذا الحديث بالفاظ مختلفة عند الحاكم و النسائي وابن حنبل و الطبراني وابن أبي شيبة وقد جعلت هذه الإشارة الأخلاق الحسنة أعظم للنعم على الإنسان وفي

حديث آخر: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "أحب عباد الله إلى الله أحسنهم أخلاقاً" (الطبراني).

ويعلم منه أن حسن الخلق وسيلة حب الله والحقيقة أن هذه هي وسيلة حب الرسول صلى الله عليه وسلم أيضاً يقول صلى الله عليه وسلم: "إن أحبكم إلي وأقربكم مني في الآخرة مجلساً أحسنكم أخلاقاً وإن أبغضكم إلي وأبعكم مني في الآخرة لسأونكم أخلاقاً".

كانت هناك زوجتان صاحبتان في عهد للرسول صلى الله عليه وسلم إحداهما تصلي الليل بطوله وتصوم النهار بطوله وتتصدق ولكنها كانت تؤذي جيرانها كثيراً بسلطة لسانها، أما الثانية فكانت تصلي الفرض فقط وتتصدق على الفقراء ببعض الملابس ولكنها لم تكن تؤذي أحداً، وسئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن هاتين الستاين فقال صلى الله عليه وسلم عن الأولى إنها "ليست فيها خير، وأنها تعاقب بسبب سوء خلقها" وقال عن الثانية أنها "من أهل الجنة" (١)، والنتائج التي انتضحت من سيرة هاتين الزوجتين على لسان نبي الإسلام صلى الله عليه وسلم توضح تماماً مكانة الأخلاق في الإسلام.

يقول سيدنا البراء بن عازب رضي الله عنه جاء بدوي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال له علمني شيئاً يدخلني الجنة فقال صلى الله عليه وسلم خلص الإنسان من العبودية واعتق رقبة الإنسان من قيد الدين وكف أيدي القريب الظالم فإن لم تستطع هذا فاطعم الجائع واسق العطشان وأمر بالمعروف وأنهى عن المنكر فإن لم تستطع هذا أيضاً فأمسك لسانك إلا عن خير" أنظر إلى مدى الأهمية التي يوليها هذا الحديث للعظمة الأخلاقية.

أوصاف الإيمان ولوازمه:

وبالإضافة إلى الحديث السابق فإن هناك أحاديث كثيرة قال فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم أن صفات كذا وأخلاق كذا من لوازم وخصائص الإيمان، وبقدر ما

١ أدب المفرد - الإمام البخاري - باب من لا يؤذي جاره. حديث مسند: قال: حدثنا عبد الواحد قال: حدثنا الأعمش قال: حدثنا أبو يحيى مولى جعدة بن هيرة قال: سمعت أبا هريرة يقول: قيل للنبي: يا رسول الله إن فلانة تقوم الليل وتصوم النهار، وتفعل وتصدق، وتؤذي جيرانها بلسانها؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: لا خير فيها، هي من أهل النار. قالوا: وفلانة تضيء المكتوبة وتصدق بأقوال ولا تؤذي أحداً، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: هي من أهل الجنة.

يكون في هذه اللوازم والخصائص من زيادة ونقصان بقدر ما يكون في أصل الإيمان من زيادة ونقصان أيضا بمعنى أن أخلاقنا الظاهرية هذه هي معيار ومقياس حالتنا الإيمانية من الداخل والإيمان بداخل قلوبنا كالمصباح بداخل منازلنا يمكن لنا أن نعرف مدى نوره وضيائه من الداخل عن طريق الأشعة التي تخرج منه ظاهرا يقال صلى الله عليه وسلم :

- ١- الإيمان بضع وسبعون شعبة، والحياء شعبة من الإيمان .
- ٢- الإيمان شعب كثيرة أعظمها التوحيد وأدناها إمطة الأذى عن الطريق .
- ٣- من كانت فيه ثلاثة أمور وجد حلاوة الإيمان من كان الله ورسوله أحب إليه من نفسه، ومن يحب لا يحب إلا الله، ومن يكره أن يعود إلى الكفر كما يكره أن يلقي به في النار .
- ٤- من كانت فيه ثلاثة أمور. وجد حلاوة الإيمان أن لا يجادل في الحق، وأن لا يكذب أبدا، وأن ما أصابه لم يكن ليخطئه .
- ٥- ثلاثة أمور هي جزء من الإيمان، التصديق في فقر، وإشاعة الأمن والسلام في الدنيا، وقول الحق ولو على نفسه .
- ٦- لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه .
- ٧- المسلم من سلم الناس من لسانه ويده، والمؤمن من يثق الناس فيه حتى يضمّنونه بأموالهم وأنفسهم .
- ٨- جاء شخص إلي رسول الله صلى الله عليه وسلم وسأله يا رسول الله أي الأعمال أفضل ؟ فقال صلى الله عليه وسلم إطعام الطعام (إطعام الجائع)، وإفشاء السلام على من تعرف ومن لا تعرف .
- ٩- سأل شخص يا رسول الله ما الإسلام ؟ فقال صلى الله عليه وسلم القول الطيب وإطعام الطعام، ثم سأل: وما الإيمان ؟ فقال صلى الله عليه وسلم : الصبر وإداء المروءة الأخلاقية .
- ١٠- المؤمن الذي يألف الناس، ولا خير فيمن يألف الناس ولا يألفونه .
- ١١- ليس المؤمن باللعان ولا بالسباب ولا بالفاحش في القول .

١٢- المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسيبه، وكان الله في عون العبد ما دام للعبد في عون أخيه، ومن فك عن أخيه كربة من كرب الدنيا فك الله عنه كربة من كرب يوم القيامة .

١٣- للمؤمن من يراه الناس أميناً، والمسلم من سلم الناس من لسانه ويده، والمهاجر من هجر السيئة، والذي نفس محمد بيده لا يخلل الجنة من لا يأمن جاره بوائقه .

١٤- من كان مؤمناً فليكرم ضيفه .

١٥- آية المنافق ثلاث إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا أتمن خان (١) .

وعلياً أن نتمتع في كل حديث من الأحاديث السابقة لنرى إلى أي مدى يرتفع ويسمو التصور الأخلاقي للإيمان و الإسلام .

الأخلاق الحسنة ظل الصفات الإلهية:

لكن الإسلام قدم تصوراً آخر أرفع للأخلاق الحسنة، وهو أن الأخلاق الحسنة هي الحقيقة بمثابة ظل الصفات الإلهية، وأننى مظهر من مظاهر صفاته المطلقة، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " حسن للخلق خلق الله الأعظم " (الطبراني) .

ونحن نستحسن تلك الأخلاق التي تعكس الصفات الربانية ونستقيح تلك الأخلاق التي تنافي الصفات الإلهية، بوغنى عن البيان أن هناك بعض الصفات الخاصة بالله تعالى فقط، ولا يمكن تصورها في الآخرين مثل صفة إنه الواحد الخالق، وغيرهما من الصفات التي لا تليق إلا بالله تعالى مثل الكبرياء والعظمة، وعظمة هذه الصفات في العبد أن تتولد فيه عكس هذه الصفات، فيتولد بدخله للتواضع وللتثقل في مقابل كبرياء الله تعالى، والخضوع والعجز أمام عظمة الله، المهم أن الإسلام جعل الأخلاق معياراً للتكميل الروحي للإنسان لأنها سبب في فيوض الأنوار الإلهية، وكلما ارتقينا في هذه الفيوض كلما استمرت سلسلة رقينا الروحي، وهذا هو الهدف الأخير لرحلة حياتنا الروحية، وليس هناك تصور للأخلاق أرفع من هذا التصور .

١ - هذه الأحاديث كلها موجودة في باب الإيمان من كتب الأحاديث المحيرة والموقوف ١٤، وقد نقلناها من كتاب مجمع الفوائد وكر العمال - الجزء الأول - كتاب الإيمان، وهناك أحاديث كثيرة في كتاب كرم العمال، لكننا فضلنا اختيار الأحاديث المحيرة والموقوف ١٤ .

تميز النبي صلى الله عليه وسلم بين معلمي الأخلاق

لقد عاش في هذا العالم معلمون كبار جلست الأمم الكبرى في مدارسهم مجلس التلامذة من الأستاذ، وتعلمت منهم دروس الآداب والأخلاق التي لا تزال تذكرها حتى الآن رغم مرور مئات وآلاف السنين، والحق أنه حينما نلمح نموذجا للأخلاق الحسنة فإنه يكون مجرد ورقة في صحائف هؤلاء التعليمية، ولكن النظرية النقدية تدلنا على العلاقة التي تربط أساتذة الأخلاق هؤلاء، وما هي الأسس التي بنيت عليها مناهجهم التعليمية. ومن بين هؤلاء جميعا يتفوق " محمد " صلى الله عليه وسلم الأستاذ الأخير في مدرسة هذا العالم .

لقد كانت هناك جماعتان من معلمي الخلاق قبل النبي صلى الله عليه وسلم، واحدة هي تلك التي أسست تعاليمها على دين أخروي مثل الأنبياء عليهم السلام وبعض مؤسسي الأديان. أما الثانية فهي التي أقامت عمارتها على أسس من فلسفتها وحكمتها وتفكيرها، ونستطيع أن نطلق على الجماعة الأولى الأنبياء والمصلحين، وعلى الثانية الحكماء، وكان لكل جماعة من هاتين الجاعتين أسلوب وطريق مختلف في تبليغ تعاليمهم، فجعل الأنبياء ومؤسسو الأديان الأحكام الإلهية منبعا لتعاليمهم، وليس لتعاليمهم أساس غير أحكام وأوامر الله تعالى، ولا نجد في تعاليمهم هذه سلسلة العلة والمعلول، ولا حلولاً للدقائق الأخلاقية بل وليس هناك تصريح بالحكمة العقلية أو المصلحة الأخلاقية لأحكامهم وتعاليمهم، أما الفريق الثاني فنجد لديه البحث في العلة والمعلول، وفي الخصائص النفسية وتعيين الغاية والهدف الأخلاقي، وتحديد القوى العملية، كل هذا نجده لديه في تعاليمه، لكن درجة العمل لديهم بعيدا عن البحث والنظر لا تزيد على صفر، وإن وجد فلا طعم له، أما تعاليم المعلم الأخير للدنيا فنجد فيها امتزاجا بين أحكام الله تعالى وبين البحث العقلي بين الأوامر الإلهية والنكات الأخلاقية، بين الأوامر الربانية وحكم الفطرة، بين الكتاب وبين الحكمة .

والفارق الرئيسي بين الأنبياء والحكماء أننا نجد تأثيرهم الطاهر وأعمالهم العظيمة وحياتهم الطيبة جنبا إلى جنب مع تعاليمهم الأخلاقية، وهذا كله يمنح الخير والبركة لكل من ورد حوضهم، ويطفئ ظما العطاشى، بينما نجد حياة أعظم الحكماء ومعلمي الأخلاق الذين أدهشوا العالم بأحاديثهم عن الأخلاق وفهمهم العميق لها، ونقبوا في كل عواطف الإنسان الداخلية، وفي قوته الباطنية، وفي أخلاقه الفطرية، نجد حياته من

الناحية العملية لا تريد كثيرا عن حياة رجل سوقى، فهو وإن كان يرى الآخرين الضياع ولكنه هو نفسه لا يخرج من الظلام، ويدعى أنه يرشد الآخرين لكنه ضال في طريق العمل، يعرف كل سر من أسرار طلائع الحب والرحمة ولكنه لا يعرف للرحمة بالفقراء ولا محبة الأعداء، إنه يستطيع أن يلقي خطبة عن الصدق والاستقامة ولكنه هو نفسه غير صادق وغير مستقيم، ويكون نتيجة ذلك ألا يرتسم أي أثر لصوت فمه على صفحة قلب أحد، وإنما يضيع هذا الصوت مع أمواج للهواء، وذلك لأنه مجرد ذهن ولسان فقط وليس قلبا ويدا، أما الأنبياء عليهم السلام فلأنهم يفعلون ما يقولون وتعاليمهم هي نفسها أعمالهم، وما في قلوبهم هو الذي على ألسنتهم لهذا فإن فيوض تعاليمهم وصحبتهم تصير عطرا وتنتشر حولها وتعطر جلساءها وهذا هو للفارق الواضح بين الأنبياء كموسى وعيسى ومحمد عليهم الصلاة والسلام وسقراط وأفلاطون وأرسطو إذ لم يستطع شخص واحد أن يصبح صاحب أخلاق بقراءة مكالمات سقراط وأفلاطون وأخلاقيات أرسطو، بينما على الجانب الآخر نجد أمما كاملة تطوي أرفع مدارج الأخلاق بتعليم وتبليغ موسى وعيسى ومحمد عليهم الصلاة والسلام، واليوم حيث نلمح شعاعا للأخلاق الحسنة على الكرة الأرضية نعلم تماما أنه يخرج من أحد مطالع أنوار نبوة من النبوات .

لكن الأنبياء جميعا ليسوا متساوون في هذا الوصف وإنما تكون لهم مقامات مختلفة، إذ من الضروري أن تظهر كل حركة وسكنة منهم في شكل عمل جنباً إلى جنب مع كونهم كاملين من الناحية العملية، وذلك حتى يتأثر بهم الرفاق والصحاب كل حسب قدرته واستعداده ويبقى هذا كله محفوظاً في أوراق الروايات حتى يصير للقائمين من بعده بمثابة المرشد الذي يحذون حذوه في طريقهم إلى الهدف المنشود. المهم أنه لا بد من توفر الأمور التالية فيمن يكون المعلم الأخير للكمال للمكمل :

- ١- أن لا يكون أي جانب من جوانب حياته في طي الخفاء .
- ٢- أن يقدم المثال العملي الذي يتطابق مع كل تعاليمه الشفوية (القولية) .
- ٣- أن تنسم حياته الأخلاقية بالجامعية بحيث يملك بدخله كل المقومات التي تجعل كسل الجماعات الإنسانية تقبل على اتباعه وتقليده .

الحياة الواضحة:

فإذا ما قمنا حياة الأنبياء ومؤسسي المذاهب جميعا علي المعايير السابقة لعرفنا أن حياة أحد منهم لا تملك بداخلها تلك الكمالات الجامعة بما يتساوى مع حياة نبي الإسلام عليه الصلاة والسلام ،وليس هناك نبي أو مؤسس دين في العالم نجد كل جانب من جوانب حياته واضحا جليا كأنه يعيش بيننا فمن من أنبياء التوراة نعلم شيئا عن كمالاته الأخلاقية ولا فائدة من للتعرض لتلك القصص غير الأخلاقية عن أولئك العلماء العظماء الطاهرين والتي أدخلها الرواة إلي حياتهم المذكورة في التوراة وبرأهم القرآن الكريم من كل تلك الاتهامات السخيفة في أماكن متعددة منه ولنلق نظرة على كل الأنبياء المذكورين في التوراة من سيدنا نوح إلى سيدنا موسى عليهما السلام لننري كم من السطور كتبت عن حياتهم وهل أعطت صورة كاملة لسيرتهم وصورتهم الأخلاقية .

إننا نعرف عن ثلاثة أعوام فقط من الأعوام الثلاثة والثلاثين هي كل حياة سيدنا عيسى عليه السلام،وحتى هذه السنوات الثلاث لا نعرف عنها سوى ما حدث فيها من خوارق ومعجزات فقط،فهل تستطيع في مثل هذا الواقع أن نقول بأنه لا يوجد جانب من جوانب حياتهم في طي الخفاء ! .

وإذا أردت تحليل الحياة الأخلاقية لمؤسسي الأديان في الهند وإيران والصين علاوة على الأنبياء السابقين فسنعرف أنه لا يوجد عنها شيء في هذا العالم،إذ أن كل جوانب حياتهم الأخلاقية في طيات المجهول،إنه معلم الإسلام فقط والذي تعرف الدنيا كلها حياته بتفاصيلها وتحفظها،وقد قال(ياسورث اسميث):"وهنا(في سيرة محمد صلى الله عليه وسلم نجد ضوء النهار كله يتظهر فيه كل جوانب حياة محمد صلى الله عليه وسلم واضحة كوضوح النهار"())،والنبي صلى الله عليه وسلم نفسه قال:أربطوا بين كل عمل وقول لي،ويمستطيع العارفون بالمر أن يعلنوا على الملأ ما رأوني أفعله في خلوتي،ويمسعدوا فوق أسطح المنازل ويعلنوا بصوت مرتفع ما سمعوني أقوله في حجرتي،ألا قليبلغ الشاهد الغائب.

١- كتاب السيرة المحمدية للسيد ياسورث سميت ص ١٠٨ .

العمل (الفعل) مع القول:

والآن تمنع في الأمر بشكل آخر فإن عظمة تعاليم تلك الشخصيات المقدسة ومميزات أحكامهم الأخلاقية، وتميز نصائحهم ومواعظهم لا ينكرها أحد، فهل نعرف الدنيا شيئاً من الناحية العملية عن أخلاق أولئك للعظماء. إن الأحاديث البريئة الطاهرة لواعظ جبل الزيتون المؤثر (سيدنا عيسى عليه السلام)، ونصائحه بالاستقامة والصدق، وخطبه الممتلئة بالمحسنات اللفظية والبدعية والتشبيهات الجذابة، كل قد سمعتها الدنيا، ولا تزال حلوة فصاحتها في أذننا وعلى لسانها، ولكن هل رأت عيون الدنيا أمثلة عملية لهذا الواعظ الطاهر؟! وهل هناك أي جانب أخلاقي إيجابي أماننا علاوة على هذا الجانب السلبي؟ انلك الذي قال: "لن تدخلوا في ملكوت السماء ما لم تتفقوا كل ما تملكون في سبيل الله" (١)، هل ضحي هو بكل ما يملك في سبيل الله؟. ذلك الذي قال: "لا تحاربوا الأشرار" ألم يحارب هو نفسه الأشرار؟!، وذلك الذي قال: "أحبوا الأعداء"، هل أحب هو ذات مرة عدوا؟!، وذلك الذي قال: "أحب جارك أكثر من نفسك ومالك"، هل كان عمله هو أيضاً كذلك؟، وذلك الذي قال: "إن لطمكم أحد على الخد الأيمن فأديرُوا له الخد الأيسر"، هل فعل هو أيضاً كذلك؟، وذلك الذي قال: "إن سألكم أحد قميصكم فأعطوه عباءتكم أيضاً"، هل ظهر منه أيضاً مثل هذا الكرم؟، ونحن لا نقول بأن هذه الصفات لم تكن موجودة في سيدنا المسيح، وإنما نقول بأن الإنجيل لم يحفظ لنا شيئاً في هذا الخصوص .

لكن عظمة شأن المعلم الأخلاقي للإسلام صلى الله عليه وسلم أرفع من هذا أيضاً، لأنه فعل مثلاً قال تماماً، كان قوله هو عمله، ولقد عاب علي اليهود "أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم" (البقرة : ٥) .

ونبه المسلمين: "لم تقولون ما لا تفعلون، كبر مقتاً عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون" (الكهف) .

جاء شخص إلى أم المؤمنين السيدة عائشة رضي الله عنها وسألها ماذا كانت أخلاق النبي صلى الله عليه وسلم؟ فقالت: "ألم تقرأ القرآن، كان خلقه القرآن، إن ما جاء في القرآن في شكل ألفاظ تمثل عملياً في مسيرة حامل هذا القرآن، فإذا أمر بمساعدة الفقراء والمساكين كان أول من أدي هذا الفرض، فظل هو جائعاً وأطعم الآخرين، وإذا نصح

بالعفو عن الأعداء والقِتلة عفا هو أولاً عن الأعداء والقِتلة، وصفح عن الذين وضعوا له السم في الطعام، ولم ينتقم من أحد من أجل نفسه، فلم يرفع سلاحه على أولئك الذين لمطروه صلى الله عليه وسلم بمهامهم ورفعوا عليه سيوفهم، وخلع رداءه وأعطاه لمن سألته إياه رغم حاجته الملحة للملبس عندئذ، وقد مرت هذه الأحداث تفصيلاً في المجلد الثاني من كتاب السيرة النبوية. المهم هذا هو السبب في أن متبعي الأديان الأخرى يرون على الناس تعاليم قادتهم وزعمائهم ويدعونهم إلى إتباعها بينما لا يقدم المسلمون أقوال نبيهم صلى الله عليه وسلم ونصائحه فقط، وإنما يقدمون أعماله أيضاً، ويدعون إلى إتباعها. ولم تتحدى صحيفة نبي أو مؤسس دين في العالم المعاصرين بأخلاق هذا النبي وهذا المؤسس بينما قدمت صحيفة محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل الجميع حياة النبي صلى الله عليه وسلم الأخلاقية أمام معاصريه بغير خوف أو تردد متحدية من يستطيع نقدها أو التعليق عليها. قال تعالى: "فقد لبث فيكم عمراً من قبله أفلا تعقلون" (يونس : ٢) .

ثم خاطب القرآن رسول الله صلى الله عليه وسلم قائلاً: "وإنك لعلي خلق عظيم" (القلم:).

الكامل المكمل :

وهناك شرط آخر يجب توفره في معلم الأخلاق وهو أن يكون في تعليمه تأثير يمكن الآخرين من الاستفادة من فيوضاته، بمعنى أن يكون كاملاً، ويكمل الآخرين الناقصين أيضاً، أن يكون طاهراً، ويظهر المذنبين، ولتلق نظرة على قائمة الأنبياء جميعاً لترى فيمن تتوفر عظمة التكميل هذه؟ هل في ذلك الذي دفعته قسوة بني إسرائيل وأوجاجهم الخلقي الدائم إلى الشكوى؟ هل في ذلك الذي لم ينجده تلاميذه الأحد عشر عند الشدة، أم في ذلك الذي قالت عنه صحيفة وحيه مراراً: "يتلوا عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة" .

وفي هذا الإعلان والتحدي أمر خاص تتبغي ملاحظته أنه لم يتضمن الادعاء فيما يتعلق بمعلم الإسلام من أنه يعلم الناس الكتاب وأمور الحكمة ويتلوا عليهم أحكام الله فقط، وإنما يجعلهم هم أيضاً طاهرين أنقياء بقيضه وأثره، إنه يكمل الناقصين ويحيل المذنبين إلى صالحين، وينير أبصار العميان، كما ينير القلوب المظلمة، وهكذا استفاد من فيضه صلى الله عليه وسلم عملياً حتى وفاته ما لا يقل عن مائة ألف إنسان، ووصل

العرب الذين كانوا على أدنى نقطة من الناحية الأخلاقية إلى أوج الكمال الأخلاقى، ذلك الذي لم تستطع النجوم أن تلامسه حتى اليوم .

تنوع التعليم الأخلاقى :

فإذا كان في المعلم تأثير هذا التكميل كان علينا أن نرى أيضا أن تكميل هذا العالم وتنظيمه وإصلاح شأنه لا يحتاج إلى قوة إنسانية واحدة وإنما يحتاج إلى مئات القوى الإنسانية المختلفة، وينظرة على مدارس معلمى الأخلاق الآخرين نعرف أنها كانت توفر لطلاب العلم فيها فرعا واحدا من العلم فلم نجد في مدرسة سيدنا موسى عليه السلام درسا متميزا سوى التعليم العسكري، ولم نجد في مكتب سيدنا عيسى عليه السلام درسا متميزا سوى درس العفو والصفح، ولم نجد في خانقاهات ومعابد بوذا سوى الزهد والتجوال تسولا، لكن انظر إلى المدرسة العظمى لرسول الله صلى الله عليه وسلم فستعرف أنها جامعة عامة يتواصل فيها الرقى الإنسانى دائما، بل إن معلمها فى ذاته جامعة كاملة يتوفر بداخلها كل فروع العلوم والفنون، ويأتى إليها الطلاب من مشارب مختلفة ويحصلون الكمالات كل حسب رغبته واستعداده ومقدرته .

إن مكانة النبي صلى الله عليه وسلم هي مكانة الإنسان، والأب والزوج والصديق وصاحب البيت والتاجر والضابط والحاكم والقاضي والقائد والملك والأستاذ والواعظ والمرشد والزاهد والعباد والنبي الآخر، ولهذا تأتيه الطبقات المختلفة من البشر وتجلس منه مجلس التلميذ من الأستاذ، ويستفيدون من تعاليمه صلى الله عليه وسلم حسب تخصصاتهم وتفرعاتهم. انظر إلى هذه المدرسة العظمى لمدينة النبي صلى الله عليه وسلم بتمعن، والتي صنعت أسقفها من سعف النخيل، وأعمدتها من جذوع النخيل، والتي تسمى (المسجد النبوي) ستجد في كل ركن من أركانها جماعات إنسانية متنوعة، ففي ركن منه حكام مثل أبي بكر وعثمان وعمر وعلي رضي الله عنهم أجمعين يطلبون العلم، وفي ركن آخر طلحة والزبير ومعاوية وسعد بن الزبير من أصحاب الفكر والرأي، وفي ركن آخر خالد وأبو عبيدة وسعد بن أبي وقاص وعمرو بن العاص من القادة، وفي ركن آخر أولئك الذين صاروا فيما بعد حكاما للولايات وقضاة للمحاكم ومشرعى القوانين، وفي ركن آخر اجتمع أولئك الزهاد والعباد الذين كانوا يمضون نهارهم في الصيام، وليلهم في الصلاة، وفي ركن آخر أبو ذر وسليمان وأبو داود من الزهاد الذين كانوا يسمون بمسيحي الإسلام، وفي مكان آخر طلاب العلم أصحاب الصفة الذين كانوا يجمعون

الحطب ويبيعونه ويعيشون على ما يدره عليهم، ويقضون أيامهم منهمكين في طلب العلم، وفي ركن آخر سيدنا علي والسيدة عائشة وسيدنا ابن عباس وسيدنا ابن مسعود وسيدنا زيد بن ثابت من الفقهاء والمحدثين الذين كانوا يقومون على خدمة العلم ونشره، وفي مكان آخر جمع من العبيد، وفي مكان آخر جمع من السادة، وفي مكان ما مجلس للفقراء، وفي مكان آخر مجلس الأثرياء، لكن لا تلمح بينهم أي فرق من حيث الاحترام والتوقير، كلهم متساوون كفرشات تحوم حول شمعة واحدة، الجميع تسكره نشوة التوحيد وتثور في أعماقه أمواج حب الحق، والجميع منهمكون في محاولاتهم لكي يصيروا انعكاسا لمرآة الأخلاق والأعمال القدسية (١) .

فلسفة الأخلاق في الإسلام

يمكننا أن نخوض قليلا بين أسواق فلسفة الأخلاق لنشرح تلك المبادئ ونفصلها، فالأخلاق موجودة تأكيداً منذ أن بدأت حياة الإنسان وظهرت أعماله الذهنية والجسمانية، لكن التعرف على حقيقة هذه الأعمال والبحث عن أسبابها وعللها وتحقيق مبادئها وقوانينها وتحديد غرضها وهدفها بدأ في عهد اليونانيين، ثم تمت إعادة النظر في النظريات الفلسفية القديمة في ظل علم النفس في عهدنا الحاضر، وظهرت الاختلافات المستمرة بين الفلاسفة منذ بدأوا في البحث عن تلك للعلل والأسباب والمبادئ والقوانين والغرض والهدف، وظهرت عدة نظريات كنتيجة لإجابة كل سؤال، ثم انتهت تلك النظريات وهكذا، كما ظهرت فرق جديدة ومدارس فلسفية جديدة أيضاً، وأصبح لكل منها مسمي مختلف، ومع ذلك فإن أردنا جمعها معا لوجدنا أن كل هذه المذاهب ما هي إلا شرح لمدى قديمين يطلق عليهما في الاصطلاح اليوناني (الرواقية) (اللائتية) وفي الاصطلاح المعاصر يطلق على الأول (الضميرية) وعلى الثاني (الإفادية) ويمكن أن نطلق عليها بشكل آخر أن الفريق الأول يؤسس الأخلاق على (العواطف)، بينما يؤسسها الثاني على (العقل)، وبناء على هذا الاختلاف في الأصل من حيث الاصطلاح ظهرت فرق أخرى كثيرة، وقرر أرسطو ومتبعوه أن مبنى الأخلاق تكميل للنفس .

وهناك اختلافات لا تحصى فيما يتعلق بمصادر وأصل وحقيقة القوانين الأخلاقية، فقد أسست الفرق المختلفة لعلماء الأخلاق نظريات خاصة بهم بعضها يؤكد

١- يجب الإطلاع في هذا الخصوص على الحطبة التي ألقيتها في مدراس .

على قانون السلطة، والبعض الآخر على قانون الفطرة، والبعض الآخر على صوت الحاسة الأخلاقية، والبعض الآخر على قانون الضمير، والبعض الآخر على الوجدانية، والبعض الآخر في النهاية على العقل، ومع ذلك فإن الحقيقة هي أنها قسمان لثان فقط، وهما إما أن تكون قوانين الأخلاق مأخوذة من وحي وإلهام، وإما أن تكون مأخوذة من مصدر خارجي، وقد أراد الذين لا يؤمنون بالوحي أن يجعلوا لتلك القوانين مصدرا خارجيا ما، ثم بحث أحدهم عن هذا المصدر الخارجي في داخل الإنسان نفسه، وبحث عنه الآخر خارجه، فأما من بحثوا عنه داخل الإنسان فقد قرروا جميعا مع اختلاف الذوق بأن المصدر هو أصل فطرة الإنسان، والحاسة الأخلاقية الخاصة بدخله، ووجدانه والضمير بدخله وفي النهاية عقل الإنسان نفسه، أما الذين بحثوا عنه خارج الإنسان فقد قرروا أن المصدر هو حكم سيد القبيلة والسلطان وأعراف المجتمعات، لكن السؤال هو ماذا تكون المبادئ التي أسست عليها أعراف المجتمعات وأحكام السلطان وسيد القبيلة، ولهذا لا يكون هناك مفر من التخلي عن هذا المصدر الخارجي، والاتجاه إلى مصدر داخلي، وإلا فإننا سنقرر أن هذه المبادئ الأخلاقية مصنوعة ومتكلفة بدلا من أن تكون فطرية طبيعية، وهو ما لا يمكن قبوله ضمن أمهات القضايا الأخلاقية .

على أية حال لا يوجد دين في العالم يجعل مصدر الأخلاق شيئا آخر غير أحكام الله، لكن الإسلام مع ذلك يقول أن الله تعالى أنزل أحكامه تلك في ألفاظ الوحي وأودعها في فطرة عباده، حتى ما إذا صممت الفطرة لسبب من الأسباب ليقظها صوت الأحكام الإلهية ونبيهها، فإذا ما أمعنا النظر على الناحية العملية للفلسفة بعيدا عن دقائقها ونظرياتها عرفنا أن هذه النظريات ليست متناقضة فيما بينها بقدر ما هي مختلفة فيما بينها بحيث لا يمكن جمعها معا، وإنما من الممكن أن يكون مصدر أخلاقنا أحكام الله تعالى، ومعها المصادر المؤيدة والدافعة مثل الضمير والفطرة والوجدان والعقل، وبالتالي نجد مساحة من الاتفاق في اختلافات مقاييس الأخلاق، ومن الممكن أيضا أن يقوم الإنسان بعمل ما بدافع من صوت ضميره أو إصرار فطرته، وبدون أن تكون له مصلحة شخصية معينة، أو أن يعتبر هذا العمل فرضا عليه فيؤديه، أو يراعي أن لهذا العمل فائدة في مصلحة عامة، وهو وسيلة للتكميل الروحاني أيضا، ويمكن أن تجتمع كل هذه الأمور معا في الفلسفة الأخلاقية للإسلام .

لنفترض أن مساعدة المظلوم أمر من الله، ووديعة بداخل فطرتنا أيضاً، فالضمير لدينا يطالب بها، والوجدان بداخلنا يستحسنه مثلما أنه مضطر إلى اليقين على جمال الشيء الجميل، وبالإضافة إلى هذا فإن لهذا العمل فوائد ومصالح عامة أيضاً، ونحن نشعر بسببه بالرضا الداخلي أيضاً، والعقل كذلك يقول نفس الشيء، لكن مما لا شك فيه أن هناك بعض المواقع التي تكون فيها أحكام الله وأوامره، وضمائرنا وفطرتنا وعواطفنا ووجداننا تسير في جانب واحد، بينما تسير مصالحنا الشخصية وأنانيتنا للذاتية في جانب آخر، ولهذا فإن هذا العقل الذي يرى أن يسير عكس أوامر مجموع قوانا كلها يستحق الإصلاح .

وعلى أية حال فإن الإسلام يكون بذلك الصوت للذي هو بداخل الإنسان جنباً إلى جنب مع أحكام الله سواء أطلقنا على هذا الصوت الفطرة أو الوجدان أو حاسة الأخلاق أو الضمير، فهو لا يبحث في هذه الاختلافات الفلسفية، وبالرغم من ذلك يعتبرها مبنية على العقل والمصلحة والفائدة، وتفصيل ذلك هو أن هناك أمراً ثابتاً بالبدية وهو أن أكثر المبادئ الأخلاقية لدى الإنسان تتفق عليها قوى العالم كله وبغير حاجة إلى دليل رغم اختلاف المناخ والإقليم واللغة والدين والعادات والتقاليد وأسلوب الحكم وغيرها من مئات الاختلافات الأخرى، ولهذا علينا أن نعرف أن هذا الحس الأخلاقي وديعة بداخلنا بالفطرة، تماماً مثلما أن قوانا وحواسنا الأخرى وديعة فينا، والمحاولة إذن هي مثلما أنه بداخلنا حواس بأسماء مختلفة هي الحس البصري والحس السمعى والحس اللمسى وغيرها لتتناسب المرئيات والمسموعات والملموسات فإن بداخلنا أيضاً حاسة أخلاقية خاصة من أجل التمييز الأخلاقي، ومن خلالها نستطيع التمييز بين الحسن الأخلاقي والسوء الأخلاقي، أو أن يكون بداخلنا وجدان أخلاقي نشعر بهذه الأمور من خلاله مثلما نشعر بوجداننا بالحسن والقبیح، أو أن يكون بداخلنا صوت روحاني يذكركنا في الوقت الصحيح بفرائضنا، ويخبرنا بأن هذا الأمر حسن أو سيء، هذه المحاولة كلها ليست ذات قيمة من الناحية العملية .

ورغم أن التعاليم المحمدية قد أشارت إلى هذه المبادئ الأخلاقية بالتفصيل أحياناً وبالإجمال أحياناً أخرى، لكنها لم تنس أن تؤكد أن جمال الأخلاق ليس في علمها وفلسفتها وإنما في العمل بها، ولذا فإنه ليس للعلم بلا عمل قيمة في نظرهم، ولا تحبذ

كذلك العمل بلا علم، ولهذا فقد أشارت إلى تلك المبادئ لكنها لم تعط للبحث فيها أي أهمية تذكر .

لقد جعل الإسلام قمة الأخلاق أن تؤدي هذه الأخلاق على اعتبار أنها أوامر الله وأنها وديعة بداخلنا مثلما هو الحال مع أحكام وأوامر الله الفطرية الأخرى فكيف يكون ضميرنا ووجداننا وحاستنا الأخلاقية وعقلنا طبقاً لهذه الأوامر الإلهية أصلاً ومصدراً، أو حتى واحداً منها، بقدر ما يكون بينها جميعاً من توافق وتطابق بقدر ما تسمو كمالات الإنسانية الروحانية، وبقدر ما يكون من نقص فيها بقدر ما يكون من نقص في هذه الكمالات .

إننا نساعد مسافراً أو نطبيب مريضاً على اعتبار أنها أمر من الله ويجب أن يكون صوت ضمير من ينفذ هذه الأخلاق على هذا النحو وكذا وجدانه، إنه يشعر بسعادة روحية بداخله عندما يطبق الأخلاق على أنها فرض عليه، ويعتقد أن في إتباعه فائدة كبرى للكثيرين من بني الإنسان. المهم أنه بقدر ما يكون بين قواه هذه كلها من توافق وتطابق في هذه الخصائص بقدر ما تسمو كمالاته الروحية، وبقدر ما يكون في هذا التوافق والتطابق من نقص بقدر ما يحدث من نقص في هذه الكمالات، ومهما أدينا من أعمال على اعتبار أنها من أوامر الله، لكن إحساسنا الداخلي وضميرنا لا يعتبرها كذلك، وعقلنا يعرض علينا طريقاً مخالفاً له فإن معنى ذلك بوضوح أن يقيننا على أنها من أوامر الله لم ينضج بعد وبمعنى آخر فإن هذا نقص في إيماننا وكمالنا الروحي، وبنفس الطريقة فمهما قام شخص بعمل طيب بدافع من ضميره، أو وجدانه فقط، أو باعتباره فرضاً فقط، أو بغرض الشعور بالسعادة فقط، أو باعتبار عمومية فائدته فقط، ولم يَمَ وزن لا اعتبار أن هذا العمل من أوامر الله، فإن هذا العمل في نظر الإسلام ليس وسيلة للثواب أو لتزكية النفس .

النتزه عن الأغراض و المصالح:

ولأن الأخلاق في الإسلام تعد عبادة كباقي الأشياء الأخرى، لذلك يجب أن تكون أغراضها وأهدافها منزهة عن الأغراض والمصالح الدنيوية والذاتية والشخصية، فإن لم يكن كذلك فليس في مثل هذه الأعمال ثواب أو خير وتنفد مكانتها باعتبارها عبادة، ولنتنظر إلى الأعمال الدنيوية بعيداً عن الأعمال الدنيوية وستعرف أنه بقدر ما يكون في أعمالنا من إخلاص بقدر ما تكون هذه الأعمال قيمة، على سبيل المثال مهما قدمنا

من واجب إلى ضيفنا، ومهما وضعنا أمامه من مختلف أنواع النعم، لكن إن عرف هذا الضيف أن هناك مصلحة شخصية وراء كرم الضيافة هذا، أو إنها بدافع الرياء والتظاهر والتفاق فإن ضيافتنا والواجب الذي نقوم به والاحترام والتكريم الذي نظهره له لن يكون لأي منها قدر في نظره، بينما لو قدمنا له خبزا وملحا ونحن مخلصون له لا نبغي من وراء ضيافتنا مصلحة شخصية فإن هذا الذي قدمناه سوف يلقى عظيم التقدير لديه، فإذا كانت هذه هي آثار الإخلاص وعدم الإخلاص فيما يتعلق بالأعمال الدنيوية فكيف تكون هذه الآثار في عالم الروحانيات إذن .

النية :

ولهذا جعل الرسول صلى الله عليه وسلم في تعاليمه النية، أي الإرادة القلبية لدى الإنسان وأهدافه وغاياته الداخلية هي الأساس في كل عمل سيء و حسن على السواء، بل إن الحقيقة هي أن لا يكون العمل باعتبار القيمة الروحانية ومن حيث نتيجته سيئا أو طيبا بقدر ما يكون باعتبار النية الداخلية وحالة القلب عندها، ويمكن أن نوضح هذه الحقيقة بمثالين: دعا رجل رجلا آخر عند الليل وبإصرار شديد لأنه على يقين من أن قطاع الطرق سيقفلونه أو سيأذونه بشدة، وبالصدفة ضل هذا الرجل طريقه في الظلام وسلك طريقا آخر عثر فيه على كيس من الدنانير، فبالرغم من أن نتيجة هذا السفر لهذا الرجل طيبة، إلا أنه لا شك في سوء نية ذلك الرجل الذي استدعاه، ولا يمكن أن نقول أنه أحسن إليه عندما استدعاه عند الليل، لكن شخصا يدعو شخصا بنية الإحسان إليه عند الليل لكنه صدفة يسقط أثناء سفره في حفرة أو بئر ويموت فإن الشخص الذي دعاه ليس مذنباً، مع أن نتيجة هذا السفر كانت سيئة بالنسبة للضيف، لكن نية من دعاه لم تكن سيئة متلما هو الحال مع الشخص الأول في المثال .

ومثال آخر، لنفترض أن في جيبني حافظة نقود، وبالصدفة سقطت هذه الحافظة مني في الطريق، وعندما عدت من طريقي عثرت على حافظة نقود مقلدة أمامي، فالتقطتها وخبأتها ظنا مني أنها تخص شخصا آخر، ورغم أنني باعتبار الواقعة نفسها لم أرتكب جرما، لكنني أسأت باعتبار نيّتي، لكن افترض أنني عثرت على حافظة نقود كهذه في واقعة أخرى، والتقطتها على اعتبار أنها لي، فبالرغم من اختلاف الأمر تماما، لكنني لم ألوّث ذلي بسوء، فلو أن رجلا يسير في طريق، وبنت له امرأة منقبة فمد يده عليها باعتبار أنها أجنبية وليست من أهله، وإن كانت زوجته في الحقيقة (ولم يعرفها

بداية)، أو أنه مد يده على امرأة أجنبية معتقدا أنها امرأته بينما لم تكن كذلك، ففي الحالة الأولى أذنب قلبه، وهو في الثانية لا ذنب له، وهل هناك عمل أطيب من الصلاة، لكن إن أداها أحد تفاخرا وتظاهرا ورياء فإنها تكون سببا في عذابه بدلا من أن تكون سببا في رحمته، وبنفس الطريقة إن ساعدت معوقا ليمدحك الناس فعملك هذا ليس طيبا في نظر الإسلام، ولقد جاء في سورة (آل عمران) قوله تعالى :

"ومن يرد ثواب الدنيا نؤته منها، ومن يرد ثواب الآخرة نؤته منها" (آل عمران: ١٥) .
وجاء صراحة في آية أخرى أن العمل الذي يهدف إلى التظاهر فقط فإنه ليس سوى سراب يقول تعالى: "يا أيها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم باليمن والأذى كالذي ينفق ماله رئاء الناس ولا يؤمن بالله واليوم الآخر" (البقرة: ٢٦) .

وهناك آيات كثيرة بهذا المعنى، وقد فسرها رسول الله صلى الله عليه وسلم بألفاظ مختصرة لكنها جامعة ومأنعة يقول صلى الله عليه وسلم: "إنما الأعمال بالنيات" (صحيح البخاري - الباب الأول) .

وزاد الأمر صراحة بقوله: "ولكل امرئ ما نوى"، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة يتزوجها فهجرته إلى ما هاجر إليه .

المهم أن مدار العمل من سوء وحسن على النية، ولهذا تحتل مكانة خاصة في بحث الأخلاق ، فإن لم تتوفر النية الحسنة فإن للعمل الأخلاقي مهما كان كبيرا يخرج عن دائرة حسن الخلق والمدح والثناء الدنيوي، ويصير محروما من الثواب والخير والبركة الروحية .

تأيد فلسفة الأخلاق:

هذا هو أساس التعاليم الأخلاقية للنبي صلى الله عليه وسلم والذي تؤيده الفلسفة الحديثة للأخلاق، ولهذا يقول (جون إس ميكنزي) في الباب السادس من كتابه الأول (مجلة الأخلاق): "إن الشيء الذي يحكم عليه يكون واضحا، أي فعلا إراديا مثلما عرفنا من قبل، وهذا هو الشيء الذي نتناوله الأخلاقيات بالبحث من أوله إلى آخره، ويكون عمله كله هو الإخبار بالجهة الصحيحة للإرادة والأحكام الأخلاقية التي نضعها نحن تتعلق هي الأخرى بالإرادة، وليس للفعل الذي لا تدخله الإرادة أية مكانة أخلاقية".

ثم ضرب (ميكنزي) لذلك بعض الأمثلة ونقل بعدها رأي (كينت): ولهذا فإننا نضطر إلى تصديق الادعاء المعروف والمشهور والذي بدأ به (كينت) كتابه في الأخلاقيات، فهو يقول: "فليس في العالم كله بل ولا في خارج العالم أيضا شيء يمكن أن نطلق عليه وصف الحسن بلا قيد ولا شرط سوى الإرادة للحسنة" (١) .

الإيمان شرط للأخلاق:

أما وقد ظهر أن أساس الأخلاق كلها على الإرادة والنية، أي على عمل القلب، فإنه يكون من الضروري إذا لإصلاح أحوال القلب الداخلية أن نعتقد أن هناك ذات تتطلع على كل ركن في قلوبنا، وسواء كنا في ملأ أو بمفردنا، في الظلام أم في النور، لكن هناك ذات ترى بعينها أعماق القلب وخباياه، إن قوى العالم كله تحكم الجسم فقط، لكن هناك صاحب قوة معين هو الذي يحكم القلب، ثم إنه من الضروري الاعتقاد أيضا بأننا سنسأل أمام هذه الذات عن كل أعمالنا، وإنه سيأتي يوم سنجازي ونعاقب، وطالما لم نترسخ هاتان الفكرتان في الذهن فإنه يكون من المحال وجود أعمال حسنة بإرادة حسنة، ولهذا جعل الوحي المحمدي الإيمان بالله والإيمان بيوم القيامة أساس كل عمل طيب، وبدونه يصبح كل عمل مجرد رياء وتظاهر، قال تعالى:

"يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَبْطُلُوا صَفَاتِكُمْ بِالْمَنِ وَالَّذِي كَانُوا يُنْفِقُ مَالَهُ رِثَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ" (البقرة: ٣٦) .

وهذا هو الإيمان الصحيح الذي يخلق حسن النية وهو منبع ماء الحياة الذي لا تمثل أعمالنا في غيابه سوى سراب لا حقيقة له: "والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء، حتى إذا جاءه لم يجده شيئا" (النور: ٥) .

وهذا هو المشعل الذي يضيء سواد وظلام حياتنا، وفي غيابه لا نرى حولنا سوى الظلام، ولا نعرف هدفا لأي عمل من أعمالنا: "أو كظلمات في بحر لجي يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب، ظلمات بعضها فوق بعض، إذا أخرج يده لم يكد يراها، ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور" (النور: ٥) .

وطالما لم تكن على يقين من وجود ذات تعلم أسرار الغيب وتعرف الأسرار، وتقف على كل حركة وسكنة في القلب، وأننا سنسأل وسنؤاخذ على

^١ - علم الأخلاق - الكتاب الأول - الباب السادس - ترجمة البروفيسور عبد الباري الندي - طبعة الجامعة العثمانية عام

أعمالنا فإنه لا يمكن أن يتولد الإخلاص في قلوبنا، أو تنتزه نفوسنا عن الأغراض الدنيوية، ولا يمكن أن توجد أخلاق رفيعة منزهة عن الأغراض .

الغرض والغاية:

ولهذا لم يكن العمل في ذاته هو المطلوب في شريعة محمد صلى الله عليه وسلم الكاملة وإنما المطلوب هو العمل ذو الغاية والغرض الصحيح، فإذا كان العمل قابلاً وجسداً فإن الغرض والغاية الصحيحة هي الروح فيهما، فإذا لم يكن في الجسد روح فما فائدته، لقد صدق علماء الأخلاق حين قالوا إن فعلاً من أفعال الإنسان لا يخلو من غرض أو غاية، ولكن ما هي هذه الغاية وما هو هذا الغرض؟ لم يستطيعوا الاتفاق عليه حتى اليوم، فظهرت عشرات النظريات منذ عهد سقراط وأفلاطون وأرسطو وحتى يومنا هذا، ومع ذلك فلم يتضح هذا السر حتى الآن .

والإسلام لا يبحث في ماهية غرض وغاية الأخلاق، وإنما يبحث فيما ينبغي أن يكون غرض وغاية الأخلاق، والحقيقة أنه قد تكون لأعمالنا أغراض متعددة عليا ودنيا وشريفة ودنيئة، فنحن عندما نرفع عن كهل أحماله في الطريق، ونوصله إلى بيته في راحة فإن هدفنا من وراء هذا العمل قد يكون هو أن هذا الشيخ عنهما يصل إلى البيت سيسعد، ويعطينا أجراً وينعم علينا، وهدف آخر وهو أن يمنحنا الناس عندما يروننا نفعل هذا، وربما أعطونا أصواتهم في الانتخابات إذا تقدمنا إلى منصب عام، وهدف آخر وهو أن يعتقد الناس الذين يروننا نفعل هذا أننا طيبون ومتقنون، وغرض آخر أيضاً هو أننا عندما نساعد هذا الكهل في شبابه فإنه سيأتي من الشباب من يساعدنا، في شيخوختنا، وبعض الناس تسعد بفطرتها عندما تقوم بهذا العمل، ولهذا يقومون بمثله ليسعروا بالسعادة، وهناك بعض الناس الذين يشفقون على الكهل وهو في هذه الحال، فيثأثرون بذلك ويساعدونه، المهم أن العمل واحد، ولكن اختلاف أغراضه وغاياته يمكن أن يرجع إلى اختلاف الأشخاص واختلاف دوافعهم، ولكن عندما تمعن النظر ثانية في القائمة السابقة ستعرف أن هذه الأغراض والغايات كلها تتدرج من الأدنى إلى الأعلى، وبالقدر الذي ينتزه فيه الغرض والغاية عن الأغراض والغايات الذاتية للفاعل بالقدر الذي يصير هذا الغرض سامياً رفيعاً، فالقيام بعمل طيب في مقابل عوض مالي أو جسماني وإن كان غرضاً دنيئاً إلا أنه أرفع من ذي قبل، ثم إن إشباع الرغبة الفطرية بتحقيق السعادة الروحية أرفع مما سبق، وبمرغم هذا فلا يزال في الأمر منفعة شخصية

وحب للدنيا ومن الأمور الفطرية أنه عندما يتعامل إنسان مع إنسان آخر بأحسن ما يكون للتعامل ولكن يتبين له أن وراء هذا للتعامل الحسن غرضا شخصيا معينا فإن قيمة هذا للتعامل الحسن مستراجع في نظره، ويفقد كل أثر له .

والأكثر من هذا أن المتدينين يجعلون من طلب الجنة غرضا وغاية لأعمالهم، والحقيقة أنه بالرغم من عدم وجود الدنيا في الموضوع، ولكن هناك غرضا شخصيا فيما يتعلق بالدنيا الأخرى، ولهذا فإن هذا الغرض بالرغم من سموه ورفعته إلا أنه لا يزال مكنيا، وبالتالي فمن الضروري أن نتذكر أنه على الرغم من أنه قد جاء في التعاليم المحمدية أن الجنة نتيجة حتمية للعمل الصالح الذي يقوم به المؤمن لكنها لم تجعل منها هدفا وغاية للعمل الصالح، حتى عبر عن هذا الأمر شاعر مسلم يشرب الخمر فقال: طالما لم يبق في الطاعة خمر ولا عسل فليلق أحد بالجنة في النار إذا .

صوت الضمير:

بمعنى ذلك الإحساس الحي لحالة الإنسان النفسية والذي يميز الإنسان من خلاله بين الخير والشر، وبسببه ينهض بداخل قلبه صوت يدعو إلى العمل للصالح. إن كل إنسان يتأثر بالفطرة عندما يرى شخصا فقيرا مسكينا ويعطف عليه، وينفر بالفطرة كذلك من القتل والظالمين وهذه الإمكانية الفطرية للقلب موجودة في ضمير كل إنسان، وبأتية من أعماق قلبه صوت يمدحه عندما يقوم بعمل صالح، وينمحه عندما يقوم بعمل سيء. ولكن هذا الصوت يتولر ويختفي أثره بضغط من الصحبة السيئة أو التربية السيئة أو بسبب عاطفة أخرى أقوى ولشد هذا هو السبب في خوف الإنسان عندما يشرع في عمل شيء، فترتد فرائصه، ويشعر بأذى ذهني شديد من مجرد تخيله لنفسه وهو يفعل للذنوب، وأحيانا يفرق في بحر الندم، ويندى جبينه خجلا من مجرد ذكره، ولكنه عندما يكتم صوت ضميره مرارا فإنه يصمت فعلا، ويتحطم كأس خجله وندمه من هذه الصدمة.

فمن أين نتجت هذه الآثار إذا؟ الإجابة على هذا في ضوء مبادئ الأخلاق في الإسلام أنها نتائج الإلهيات الفطرية التي أودعها الله تعالى في كل إنسان ليميز بين الخير والشر. يقول القرآن الكريم: "فألهمها فجورها وتقواها" (الشمس).

تلك العاطفة التي تسمى للضمير والتي تنبهنا كلما أقبلنا على عمل سيء تسمى في الاصطلاح المحمدي (النفس اللوامة) وهي موجودة بداخل قلوبنا، جاء في سورة (القيامة):

ولا أقسم بالنفس اللوامة" (القيامة : ١) .

ثم قال تعالى: "بل الإنسان على نفسه بصيرة ولو ألقى معاذيره" .

لقد ظل نواس بن سميان الأنصاري عاماً كاملاً ينتظر في المدينة أن يفهم من رسول الله صلى الله عليه وسلم حقيقة الذنب والعمل الصالح، وفي النهاية سئحت له الفرصة ذات يوم فسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم فأجابته صلى الله عليه وسلم: الخير هو حسن الأخلاق والذنب ما حاك في القلب ولم تحب أن يطلع عليه أحد، وبأنفس الطريقة جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم من يدعى "وابسه بن معبد" رضي الله عنه بغرض سؤاله عن الذنب والعمل الصالح، وكان فدائيوه صلى الله عليه وسلم يحيطون به من كل جانب، فكان وابسه يبعدهم ليوصل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم والناس يمنعونهم، لكنه ظل يتقدم ولما رآه صلى الله عليه وسلم قال: اقرب يا وابسه، وحين جلس وابسه بالقرب منه صلى الله عليه وسلم قال له صلى الله عليه وسلم: يا وابسه هل أخبرك لماذا جئت هنا؟ أو تخبرني أنت وابسه: أخبرني أنت يا رسول الله، فقال صلى الله عليه وسلم: لقد جئت تسألني عن حقيقة الذنب والعمل الصالح، فقال وابسه: صدقت يا رسول الله، فقال صلى الله عليه وسلم: يا وابسه استفت قلبك واستفت نفسك، البر ما أطمان إليه للقلب، وإطمأنت إليه النفس، والإثم ما حاك في القلب وتردد في النفس، وإن أفتاك للناس (١) .

هذه هي تلك الحاسة الأخلاقية التي سماها الناس صوت الضمير، وفي البداية عندما يقول الشخص شيئاً يخالف صوت ضميره فإن نقطة سوداء تنقط على قلبه النقي الصافي، ورغم أن هذه النقطة السوداء تمحى عندما يعود الشخص إلى رشده ويستغفر الله ويتوب إليه ويندم على ما فعل، لكنه لو ظل يكرر نفس الذنب فإن هذه النقطة تزداد وتتسع حتى تسود القلب كله وتحرمه من كل إحساس وهذا هو ما عبر عنه صلى الله عليه وسلم بقوله: "إن العبد إذا أخطأ خطيئة نكتت في قلبه نقطة سوداء، فإذا هو نزع واستغفر وتاب صقل قلبه، وإن عاد زيد فيها حتى يعلو قلبه" .

^١ سنن الترمذي جزء (١١) كتاب تفسير القرآن عن رسول الله صلى الله عليه وسلم حديثاً فيية. حدثنا الليث عن ابن عجلان عن القعقاع بن حكيم عن أبي صالح عن أبي هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: إن العبد إذا أخطأ خطيئة نكتت في قلبه نقطة سوداء، وإذا هو نزع واستغفر وتاب صقل قلبه، وإن عاد زيد فيها حتى يعلو قلبه وهو الران الذي ذكر الله كلاً بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون .

ثم قال بعدها وهذا هو صدأ القلب الذي ورد في قوله تعالى: "كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون" (المطففين : ١) .

وفي مثال منه صلى الله عليه وسلم قال: أن هناك طريقا مستقيما يقود إلى الهدف المنشود، وعلى جانبي الطريق جداران يقفان، وفيهما بابان، لكن عليهما ستائر، وعلى أحد طرفي الطريق صوت ينادي أن أمش على الطريق المستقيم، ولا تلتفت هنا وهناك، وحين يزيد عبد من العابرين أن يرفع الستائر عن باب من البابين يناديه من فوقه من يقول: احذر، لا ترفع الستار، لأنك إن رفعتها دخلت الباب ثم قال صلى الله عليه وسلم هذا الطريق هو الإسلام، وهذه الأبواب هي حرمان الله، والستائر حدوده والذي ينادي على أول الطريق هو القرآن، والذي ينادي من فوق هو واعظ الله في قلب كل مؤمن " . وهل هناك من استطاع أن يشرع الضمير الأخلاقي أفضل من هذا .

المسرة و الانسباط :

إن السعادة التي يشعر بها من يفعل البر، والألم الذي يشعر به من يفعل السوء هو ما يرغبه لعمل الخير ويحثه على البعد عن السوء . ورغم أن هذا ليس صحيحا بتمامه لكنه صحيح إلى حد أن الذي يفعل الخير يشعر فعلا بالسعادة، وانشراح الصدر، ويشعر بانقباضه وبالحزن من فعل السوء، لكن هذا ليس هو المحرك للخير والشر، ولا يجب أن تكون هي غاية وغرض أعمالنا إذ أن هذا أنانية مادية أيضا، وإنما هذه هي النتائج الطبيعية والفطرية للخير والشر، إننا نسعد بلا شك حين نساعد الفقير المسكين، لكن هذه السعادة نتيجة طبيعية وحتمية لجهودنا المخلصة وليست دافعها وعلتها وغايتها وغرضها، أما الغاية والغرض في عمل للمسلم في نظر الإسلام فهي واحد فقط وهي للحصول على رضا الله .

من هذا للشرح نعلم أن تعاليم المصطفى صلى الله عليه وسلم قد أجرت بعض الترميم في نظرية جماعة حكماء الأخلاق الذين يقيمون أساس الأخلاق على مبادئ السعادة والألم الروحانيين وهذا الترميم يتركز في أن الحصول على السعادة وتجنب الحزن القلبي ليسا غرض وغاية العمل للصالح، وإنما هما نتيجة طبيعية وحتمية له، وهذا هو اتجاه جماعة كبيرة من علماء الأخلاق في أيامنا هذه، أي أن السعادة ليست هدف العمل للصالح، وقد بينت الصحيفة الإلهية هذه النكتة كما يلي: "ولكن الله حبيب إليكم

الإيمان وزينه في قلوبكم، وكره إليكم الكفر والفسوق والعصيان، أولئك هم الراشدون" (الحجرات: ١) .

وقد فصل محمد صلى الله عليه وسلم هذه الآية للكرامة بقوله "إذا سرتك حسناتك وساعتك سينتك فأنت مؤمن " (١). "من سرته حسنته وساعته سينته فهو مؤمن". "من عمل سيئة فكرها حين يعمل، وعمل حسنة فسر فهو مؤمن " (٢) .

المهم أن الإسلام جعل من السعادة والانبساط والانشراح للقيام بعمل صالح علامة على الإيمان، ومن هنا لا يكون من الخطأ أن نقول أنه بهذا الترميم سابق الذكر في مبادئ الأخلاق في الإسلام بقي هناك بالرغم من هذا مجال لفرقة للثنية لتجد لها مكاناً ولم تكن هذه النكتة خافية عن النظرة للنبوية لنبي الإسلام صلى الله عليه وسلم وإنما صحح ما في هذه النظرية من أخطاء .

الرضا الإلهي:

لقد جعل الإسلام الهدف والغاية من كل أنواع العمل الصالح واحداً وهو رضا الله تعالى وطاعته، ويجب على المسلم الصادق أن يقوم بما يقوم به من أجل هذا الغرض فقط ولا يتخذ من أي غرض آخر أساساً لأعماله وفي هذه النقطة بالذات يتضح الفارق بين مبادئ فلسفة الأخلاق ومبادئ الأخلاق الإسلامية، فعلماء الأخلاق يبحثون عن غرض وغاية الأخلاق، بينما معلم الحكمة صلى الله عليه وسلم يعلم الإنسان الغرض

^١ من الترمذي كتاب الفتن عن رسول الله صلى الله عليه وسلم حدثنا أحمد بن منيع. حدثنا النظر بن إسماعيل أبو المغيرة عن محمد بن سودة عن عبد الله بن دينار عن ابن عمر قال: خطبنا عمر بالجالية فقال: يا أيها الناس إني قمت فيكم كمقام رسول الله صلى الله عليه وسلم فإنا فقال: أوصيكم بأصحابي ثم الذين يلوهم ثم الذين يلوهم ثم يقشوا الكذب حتى يخلف الرجل ولا يستحلف، ويشهد الشاهد ولا يستشهد، ألا لا يخلون رجل بامرأة إلا كان فائسهما الشيطان، عليكم بالجماعة وإياكم والفرقة فإن الشيطان مع الواحد وهو من الاثنين أبعد من أراد بحوكة الجنة فيلزم الجماعة من سرته حسنة وساعته سينته فذلك المؤمن .

^٢ مسند أحمد بن حنبل عن أبي أمامة الباهلي - الجزء الخامس - ص ٢٥١ و ٢٥٢، ومستدرك الحاكم - كتاب الإيمان - الجزء الأول ص ٤١ - حيدر آباد، ومختصر شعب الإيمان للبيهقي ص ٥٢ - مطبعة السعادة - مصر، وابن حبان وأبو داود وعن عمر ابن الخطاب . حدثنا أبو محمد دعلج بن أحمد السجزي ببغداد، ثنا محمد بن علي بن يزيد الصايغ، ثنا سعيد بن منصور، ثنا يعقوب بن عبد الرحمن، وعبد العزيز بن محمد، عن عمرو مولى المطلب، عن المطلب، عن أبي موسى الأشعري: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: من عمل سيئة فكرها حين يعمل وعمل حسنة فسر بما فهو مؤمن . وقد احتجنا برواية هذا الحديث عن آخرهم، وهو صحيح على شرطهما ولم يخرجنا، إنما خرجنا في خطبة عمر بن الخطاب: من سرته حسنة وساعته سينته فهو مؤمن. وله شاهد بهذا اللفظ .

الذي ينبغي أن يكون لأخلاقه فقلدى الإنسان ثروتان، وعليه أن ينفقهما في سبيل الله وهما الإيثار وحسن العمل يقول القرآن الكريم فيما يتعلق بنفس المؤمن أولاً: "ومن الناس من يشري نفسه ابتغاء مرضات الله والله رعوف بالعباد" (البقرة : ٢٥) ثم يقول فيما يتعلق بماله: "ومثل الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضات الله" (البقرة : ٣٦) .

" وما تنفقون إلا ابتغاء وجه الله " (البقرة : ٣٧) .

" ومن يفعل ذلك ابتغاء مرضات الله فسوف نؤتيه أجراً عظيماً " (النساء : ١٧) .

" والذين صبروا ابتغاء وجه ربهم وأقاموا الصلاة وأنفقوا مما رزقناهم سراً وعلانية ويدعون بالحسنة السيئة أولئك لهم عقبى الدار " (الرعد : ٣) .

وجاء الحديث عن هذه الحقيقة بأوضح ما يمكن في سورة الليل: "الذي يؤتي ماله يتزكى وما لأحد عنده من نعمة تجزى إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى " (الليل) .

وقد جاء عن النبي صلى الله عليه وسلم عدة أحاديث في تفسير وشرح هذه الآية، أحد الصحابة يسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم: يا رسول الله هناك من يحارب من أجل مال الغنيمة، وآخر يحارب لكي يقال عنه شجاع، وآخر يحارب لكي يحصل على الشهرة، فمن من هؤلاء يحارب في سبيل الله؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ذلك الذي يحارب ليرفع كلمة الله (١) .

وذات مرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "رباط الخيل يوجب الأجر لأحد، والستر لآخر، والذنب لآخر، فيوجب الأجر لمن يربطها في سبيل الله، فيحصل على أجر إطعامه وسقيه وستر لمن يربطها للحاجة إذ أعطاه الله ثروة، فلا يضطر لأن يسأل الآخرين شيئاً، فهو يستخدمها برفق ورحمة، ويؤدي حقها، وتوجب الذنب لمن يربطها تفاخراً وتظاهراً " .

وأكثر أمر مؤثر في هذه التعاليم هو ما نقله الترمذي عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه حيث أغشى على سيدنا أبي هريرة ثلاث مرات وهو يرويه، وأنتحب سيدنا معاوية رضي الله عنه وهو يسمعه، فلقد أقسم أبو هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "عندما يحاسب الله الناس يوم القيامة، وتقف كل أمة في مكانها، يأتي أمر الله بأن يتقدم عالم القرآن أولاً، والذي مات في الجهاد، ثم أصحاب الثروات، فيسأل الله تعالى العالم: ألم أعلمك كل ما أنزلت على رسولي، فهل عملت

١ صحيح البخاري - كتاب الجهاد - الجزء الأول - ص ٣٩٤ .

به؟ فيقول: نعم يا رب، لقد كنت أقرأ القرآن ليل نهار، فيقول الله: لقد كذبت، وتقول الملائكة: لقد كذبت، ثم يقول الله: لقد كنت تفعل هذا حتى يقول للناس إنك عالم وقارئ للقرآن، وقد قالوا: ثم يسأل صاحب المال ألم أفتح عليك الدنيا، حتى لم تحتاج إلى أحد؟ فيقول: بلى يا رب، فيقول الله: فماذا فعلت فيما أعطيتك؟ فيجيبه: كنت أؤدي حق المستحقين وأتصدق، فيقول الله: لقد كذبت، وتقول الملائكة أيضاً: لقد كذبت، ثم يقول الله: إنك فعلت هذا لكي يقول الناس إنك مسخي، وقد قالوا: ثم بعد ذلك يأتون بمن قتل في الجهاد فيسأله الله: لأي أمر قتلت؟ فيقول: يا رب أنت أمرتني بالجهاد في سبيلك فجاهدت حتى قتلت، فيقول الله: لقد كذبت، وتقول الملائكة أيضاً: لقد كذبت، ويقول الله: إنما حاربت لكي يقول الناس أنك شجاع، وقد قالوا: ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: هؤلاء هم أول من يلقي بهم في نار جهنم (١) .

^١ جامع الترمذي - باب الزهد - باب ما جاء في الرياء والسمعة. حدثنا سويد بن نصر. أخبرنا عبد الله بن المبارك. أخبرنا حيوة بن شريح. أخبرني الوليد بن أبي الوليد أبو عثمان المدائني أن عتبة بن مسلم حدثه أن شقياً الأصمعي حدثه أنه دخل المدينة، فإذا هو برجل قد اجتمع عليه الناس، فقال: من هذا؟ فقالوا: أبو هريرة، فلدنوت منه حتى أعلدت بين يديه وهو يتحدث الناس، فلما سكث وخلا قلت له: أنشدك بحق وبحق لما حدثني حديثاً سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم علقه وعلمته، فقال أبو هريرة: أفعل، لأحدثك حديثاً حدثني رسول الله صلى الله عليه وسلم علقه وعلمته، ثم نشغ أبو هريرة نشغة، فمكث قليلاً ثم أفاق، فقال: لأحدثك حديثاً حدثني رسول الله صلى الله عليه وسلم في هذا البيت ما معنا أحد غيري وغيره، ثم نشغ أبو هريرة نشغة أخرى، ثم أفاق فمسح وجهه فقال: لأحدثك حديثاً حدثني رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا وهو في هذا البيت ما معنا أحد غيري وغيره، ثم نشغ أبو هريرة نشغة أخرى ثم أفاق ومسح وجهه فقال: أفعل، لأحدثك حديثاً حدثني رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا معه في هذا البيت ما معنا أحد غيري وغيره، ثم نشغ أبو هريرة نشغة شديدة، ثم مال خارا على وجهه فأسندته علي طويلاً، ثم أفاق فقال: حدثني رسول الله صلى الله عليه وسلم أن الله تبارك وتعالى إذا كان يوم القيامة يول إلى العباد ليقضي بينهم وكل أمة جاثية، فأول من يدعو به رجل جمع القرآن، ورجل يقتل في سبيل الله، ورجل كثير المال، فيقول الله للقارئ: ألم أعلمك ما أنزلت على رسولي؟ قال: بلى يا رب. قال: فمعاذا عملت فيما علمت؟ قال: كنت أقوم به آناء الليل وآناء النهار. فيقول الله له: كذبت. وتقول له الملائكة: كذبت. ويقول الله: بل أردت أن يقال إن فلاناً قارئ فقد قيل ذلك ويؤتى بصاحب المال فيقول الله له: ألم أوسع عليك حتى لم ادعك تحتاج إلى أحد؟ قال: بلى يا رب. قال: فمعاذا عملت فيما آتيتك؟ قال: كنت أصل الرحم وأتصدق، فيقول الله له: كذبت، وتقول له الملائكة: كذبت. ويقول الله تعالى: بل أردت أن يقال فلان جواد فقد قيل ذلك. ويؤتى بالذي قتل في سبيل الله، فيقول الله له: فيماذا قتلت؟ فيقول: أمرت بالجهاد في سبيلك فقاتلت حتى قتلت. فيقول الله تعالى له: كذبت، وتقول له الملائكة: كذبت. ويقول الله: بل أردت أن يقال فلان جريء فقد قيل ذلك، ثم ضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم على ركبتي فقال: يا أبا هريرة، أولئك الثلاثة أول خلق الله تسعهم النار يوم القيامة .

وقد بكى سيدنا معاوية كثيرا حين سمع هذا الحديث وقال صدق الله ورسوله ثم قرأ هذه الآية الكريمة: "من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف إليهم أعمالهم فيها وهم فيها لا يبخسون، أولئك الذين ليس لهم في الآخرة إلا النار وحبط ما صنعوا فيها وباطل ما كانوا يعملون" (هود : ٢) .

المهم إن كان الغرض والغاية من أفعالنا وأعمالنا هو للحصول على منفعة ذاتية أو غرض شخصي فإنها تكون خالية من روح للثواب والتعاليم الأخلاقية في الإسلام أرفع من هذا كثيرا، وإنما مقامها أحيانا لا يكون في رضا الله تعالى فقط وإنما الذات الإلهية نفسها: "وما تتفوقون إلا ابتغاء وجه الله" (البقرة: ٣). "والذين صبروا ابتغاء وجه ربهم" (الرعد: ٣). "وما لأحد عنده من نعمة تجزى إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى" (الليل).

وقال تعالى في خصوص تنفيذ الأوامر الأخلاقية والتأكيد على أداء الحقوق :
" فأت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل ذلك خير للذين يريدون وجه الله وأولئك هم المفلحون " (الروم : ٤) .

المبادئ الأساسية للأخلاق في الأديان:

إن تكميل الأخلاق و الذي تم عن طريقه صلى الله عليه وسلم نستطيع أن نستشفه من المبادئ الأساسية للأخلاق، فلقد أعلنت التوراة في مجال التعاليم الأخلاقية من شأن الأحكام السلطانية، ولم تشرح أي مبدأ لها أو غرض و غاية أو علة أو مصلحة، أما في الإنجيل فلا نجد فيه أساسا للأحكام الأخلاقية سوى الصنعة اللفظية، إلا أن هناك تأكيدا على بعض المبادئ في الدين المسيحي لكن أساسها ضعيف للغاية، وأول هذه المبادئ هو قضية أصل الخلق الإنساني، والمؤال هو هل صحيفة وجود الإنسان في أصل خلقته خالية نظيفة، أم ملطخة بالذنوب. إن المسيحية تقول أن الإنسان ولد في الأصل مذنباً، والذنوب في فطرته لأن أبويه سيدنا آدم والسيدة حواء مذنبان، وهذا الذنب الوراثي ينتقل إلى فطرة كل إنسان، ولا يمكن تجنبه، وقد زاد الغلو المسيحي في هذه القضية إلى القول بأن كل طفل يولد مذنباً إلى أن يتم تعميده، فإذا مات طفل مسيحي قبل تعميده مات مذنباً، ولن يدخل ضمن المملكة السماوية وإنما سيذهب به إلى نار جهنم، لأنه لم يحصل على النجاة باسم المسيح .

أما مبدأ الإسلام في هذا الخصوص فهو مختلف تماماً فهو يرى أن التوحيد أصل للفطرة، فطرة الله التي فطر الناس عليها، ثم إن كل إنسان قد أجاب منذ الأزل على السؤال الأزلي "أست بربكم" بقوله "بلى"، أي الاعتراف بالله، ولهذا فإن الشخص الذي يأتي على الدنيا بعد هذا الاعتراف للفطري والأزلي ولا ينكره فإن اعترافه وإقراره هذان يكفيان لبرأئته، ولهذا فإن الحروف الذهبية التي كتبها الله تعالى على لوح فطرته إما أن يبرزها ويوضحها بعد بلوغه وتمييزه، وإما أن يحوها .

يقول تعالى: "ولقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم" (التين). بمعنى أننا جعلنا خلقته في أحسن تقويم واستقامة وفي موضع آخر يقول: "الذي خلقك فسواك فعدلك في أي صورة ما شاء ركبك" (الانفطار) .

وهذه الآية من سورة الانفطار وبها بيان لليوم المحدد لإثابة الإنسان وعقابه يوم الحشر والنشر، أي يوم القيامة ثم تأتي بعدها آية تؤكد أنه أحسنه وجعله مغتدلاً، أي أنعم عليه بالاعتدال في كل أنواع القوى، وقال عن ذلك عن المفسر بن النيسابوري وغيره أنه أنعم عليه بالاستعداد الكامل لكسب الكمالات، ويثبت من هذا أن الاعتدال الروحاني والجسماني داخلان في عموم الاعتدال، وقد جاء هذا للمفهوم بشكل أكثر وضوحاً في الآيات الأخرى، فجاء في سورة الأعلى :

"سبح اسم ربك الأعلى الذي خلق فسوي، والذي قدر فهدى" (الأعلى : ١) .
ورؤية الطريق بمعنى الهداية أودعها الله تعالى في فطرة الإنسان كما أودع فيه عشرات القوى الأخرى، وجاء هذا المعنى أكثر وضوحاً في سورة (الإنسان) :
"إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبثليه فجعلناه سميعاً بصيراً، إنا هديناه شاكراً وإما كفوراً" (الإنسان : ١) .

المهم أن هذه الهداية وهذا الرشد منح له منذ اليوم الأول، وبعد بلوغ العقل والتمييز فإما أن يشكر الله أو يجده، وإما أن يعمل صالحاً أو سوءاً، هذا كله راجع إليه، وقد جاء الأمر أكثر وضوحاً في سورة الشمس :

"نفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها" .
المهم أن الإنسان من وجهة نظر تعاليم محمد صلى الله عليه وسلم ليس مذهباً وعاصياً بأصل الفطرة، وإنما على العكس من ذلك أودعت الهداية والرشد الصحيح في أصل فطرته، ولهذا قال تعالى :

" فأقم وجهك للدين حنيفا فطرت الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون " (الروم : ٤) .

هذا هو دين الفطرة الإسلام وهذه تعاليمه التي يتبوأ التوحيد فيها مكانا أساسيا، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في تفسير هذه الآية أن كل مولود يولد على الفطرة، وإنما لبواه يهودانه أو ينصرنه أو يمجسانه، مثلما يولد كل حيوان صحيحا سالما ليس مقطوع الأذن (١) ، وهكذا فإن كل طفل يولد على فطرته الصحيحة وخلقه الصالحة، وقد بين الوحي المحمدي هذه المسألة في صورة حوار أزلني، إذ سأل الله تعالى الأرواح الإنسانية قبل أن تبخل الجسد الإنساني قائلا: أأست بربكم فأجابوا بلسان حالهم أو بقولهم جميعا: بلي، وهذا الاعتراف الأزلني والفطري هو عهد الإنسان الذي ذكره به القرآن الكريم مرارا وقال له أنظر، لقد أغوى الشيطان أباك آم، فلا يغوينك .

والنتيجة الحتمية لهذه التعاليم هي عقيدة أن الإنسان بأصل فطرته معصوم طاهر، لم يأت حاملا على أكتافه عند ولادته عبء ذنب أبيه، وقد قرر القرآن أنه :

" ولا تزر وازرة وزر أخرى " (فاطر : ٣) .

" كل امرئ بما كسب رهين " (الطور : ١) .

" ألا لا يجني جان على ولده ولا مولود على والده " .

وبنفس الطريقة قررت الأديان التي ورطت الإنسان في دوامة التناسخ أن الإنسانية بالمولد مذنبه ملطخة بالذنوب، ووضعوا على ظهر الإنسانية عبئا كبيرا، وجعلت من الميلاد الثاني نتيجة للميلاد الأول والحياة الثانية نتيجة للحياة الأولى، وهكذا قيدت الإنسان بأعمال غيره في حيوات أخرى، وبمعنى آخر فإنها سودت صحيفة أعماله قبل أن يولد .

والآن تأمل في تعاليم رسول الله صلى الله عليه وسلم بأن الإنسان في أصل فطرته غير مذنب وبرئ، كم هي بمثابة البشري العظيمة للإنسان في هذا العالم الحزين، ونتيجة ذلك أن تعاليم النبي صلى الله عليه وسلم منزهة تماما عن عقيدة الظلم

^١ صحيح البخاري ومسلم - كتاب القدر - حدثنا إسحق بن إبراهيم: أخبرنا عبد الرزاق: أخبرنا معمر، عن همام، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (ما من مولود إلا يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه، وينصرانه، كما تتجوزن البهيمة، هل تجدون فيها من جدعاء، حتى تكونوا أنتم تجدونها) قالوا: يا رسول الله: أفرأيت من يموت وهو صغير؟ قال: (الله أعلم بما كانوا عاملين)

وعدم الإتصاف هذه حيث يصير الطفل البريء المعصوم خطيا لجهنم، إذ أن تعاليم النبي صلى الله عليه وسلم تقول أن كل طفل معصوم ولا ذنب له حتى يبلغ العقل والتمييز فقال صلى الله عليه وسلم: "رفع القلم عن الطفل حتى يعقل" (١) .

فهذه البراعم التي تنبل قبل أن تتفتح في حديقة الحياة هي في نظر الإسلام زهور الجنة، فقال صلى الله عليه وسلم: "أن من مات له ثلاث أطفال صغار فإنهم يكونون شفعا لوالديهم في حضرة الله تعالى، ويدخلونهم الجنة". وحين مات ابن رسول الله صلى الله عليه وسلم طفلا قال صلى الله عليه وسلم: "سيذهب إلى الجنة ويشرب من لبن مرضعاتها"، والأكثر من هذا أنه صلى الله عليه وسلم حين سأل عن أطفال المشركين يموتون صغارا، أين يذهبون بعد وفاتهم؟ فقال صلى الله عليه وسلم: الله أعلم كيف يكون هؤلاء، لكنه بعد ذلك صرح بأمرهم، فقد رأى صلى الله عليه وسلم سيدنا إبراهيم عليه السلام ذات مرة في المنام أنه في الجنة، وحوله جمع من الأطفال الصغار، فقال صلى الله عليه وسلم: كان هؤلاء هم الأطفال الذين ماتوا على دين الفطرة، فسأله الصحابة: وماذا عن أطفال المشركين؟ فقال: وأطفال المشركين أيضا، وكانت نتيجة هذا التصريح أن بعض الصحابة كان يطلق على الطفل الذي مات صغيرا أنه من أهل الجنة، ولكن لأن الحكم على ما في الغيب من اختصاص الله تعالى فقط لذا لم ير رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا التصريح فيما يخص طفل بعينه غير مناسب، ذات مرة مات طفل لأحد الصحابة، فأخبرت السيدة عائشة أم المؤمنين رسول الله صلى الله عليه وسلم بهذا الأمر قائلة: باركه يا رسول الله، فقد كان عصفورا من عصافير الجنة، لم يذنب، ولم يبلغ وقت الذنب، فقال صلى الله عليه وسلم: يا عائشة لقد خلق الله بعض الناس للجنة، وبعض الناس للنار" (١) .

^١ صحيح البخاري - كتاب الطلاق ، و الترمذي في من لا يجب عليه الحد . حدثنا محمد بن يحيى القطمي البصري حدثنا بشر بن عمر حدثنا همام عن قتادة عن الحسن البصري عن علي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: رفع القلم عن ثلاثة عن النائم حتى يستيقظ وعن الصبي حتى يشب وعن المعتوه حتى يعقل.

^٢ ابن ماجه - كتاب الجنائز . حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة وعلي بن محمد قالا: حدثنا وكيع، حدثنا طلحة بن يحيى بن طلحة بن عبيد الله ، عن عمته عائشة بنت طلحة، عن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها قالت: دعي رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى جنازة غلام من الأنصار، فقلت: يا رسول الله، طوي لهذا العصفور من عصافير الجنة، لم يعمل السوء ولم يدركه. قال: أو غير ذلك يا عائشة، إن الله خلق للجنة أهلا خلقهم لها وهم في أصلاط آبائهم، وخلق للنار أهلا خلقهم لها وهم في أصلاط آبائهم.

فالمسيحية من جانب تقنف بالأطفال الذين يموتون قبل تعميدهم إلى جهنم، والإسلام على النقيض يفتح لهم أبواب الجنة، ويعلمنا أن ندعو في صلاة الجنازة عليهم قائلين: "اللهم اجعله لي زخراً، وشافعا تقبل شفاعته". وحيثما جاء في الأحاديث نكرو لمن يعمل عملا صالحا فتغفر له جميع ذنوبه استخدم رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الفقرة فيعود كما ولدته لمة^(١).

الخوف والرجاء:

وهناك مسألة أخرى تشبه هذه المسألة كثيرا، فقد كان هناك من فلاسفة اليونان فرقتان، الأولى فلاسفة البكانيين، والثانية فلاسفة الضحاكين، يقولون أن الفرقة الأولى هي التي تخلق بأسا وإحباطا من وراء كل واقعة، فالعالم كله يبدو لهم مظلمًا مليئًا بالأمشواك، أما الفرقة الثانية فهي التي لا تفكر في الحياة في غير اللهو والعبث والسرور، وتعاليم الفرقة الأولى هي أن تصمت، وتتخذ حال الحياة شكل الموت الذي هو المنزل الأخير لهذه الدنيا، ونظرية الفرقة الثانية أن كل واشرب واسعد، ولا تهتم بالغد. الفريقان من الناحية الأخلاقية يستحقان التعديل والترميم، فإذا اعتقد الإنسان بنظرية الفرقة الأولى خمدت كل قواه، ولم يعد يستطيع أن يقوم بعمل في الدنيا، وإذا اعتقد بنظرية الفرقة الثانية سيبقى منتشيا بخمر الغفلة، ولن يكون قادرا على التمييز بين الخير والشر، وطريق تعاليم الإنسان يخرج من بين هاتين الحارتين، فهو يقص علينا أمر فناء الدنيا وزوالها مرارا حتى لا تسكرنا خمر الغفلة، وفي نفس الوقت لا يجعلنا نياس من رحمة الله تعالى، إنه يعلم الحياة بأمل في الله تعالى حتى الرمق الأخير، والياس من الله في شريعته هو والكفر واحد، إنه لا يجعل قلب المسلم يعيش بغير أمل حتى في أصعب الأوقات، فقد جاء في القرآن الكريم قول الملاك لسيدنا إبراهيم عليه السلام: "فلا تكن من القانطين" (الحجر : ٤١) .

ثم علمنا على لسان سيدنا يعقوب: "ولا تيأسوا من روح الله إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون" (يوسف : ٨٧) .

وانظر كيف خاطب عصاة هذه الأمة بكل حب: يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله " (الزمر : ٦) .

^١ صحيح مسلم - كتاب القدر .

ولهذا أكد رسول الله صلى الله عليه وسلم في أحاديثه على أن يعيش الإنسان بأمل دائما، فقال إن الله تعالى يقول "أنا عند حسن ظن عبدي بي" ^(١)، بمعنى أنه سيجدني مثلما يظن بي، والآية التالية تعكس بشكل صحيح عقيدة الإسلام في هذا الخصوص: "أمن هو قانت أثناء الليل ساجدا أو قائما يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه" (الزمر : ٩) .

بمعنى أن الحالتين موجودتان في قلبه، خوف للمواخظة على التقصير والسؤال على الذنب، والأمل في رحمة الله أيضا، وتعاليم الإسلام هي الخوف من غضب الله والأمل في رحمته، فهذا الخوف لا يسمح له بالغفلة والتبجح والتجرا، وهذا الأمل لا يسمح له بالحزن واليأس والإحباط، ولهذا فإن قلب المؤمن خائف من سوء المآل دائما، ولكنه ملئ بالأمل، ويقول القرآن الكريم لأهل الإيمان مشيرا إلى هذا الأمر: "وترجون من الله ما لا يرجون" (النساء: ١٥)

وهذا هو التناقض الذهني الذي يتولد في قلب المؤمن وقلب للكافر في دنيا المشاكل، فالكافر يقوم بأعماله طمعا في الجزاء الدنيوي، فإذا لم يجد أصابه إحباط، لأنه يعتبر النجاح ماديًا فقط، وإذا لم يلق هذا النجاح اعتمد لكن المؤمن إن يلق هذا النجاح الدنيوي فإن قلبه يظل سعيدا فرحا لأنه عمل الخير وأجر للخير لا بد أن يحصل عليه إن لم يكن في هذه الدنيا فسيكون في الآخرة، وإن لم ينجح في الدنيا فلا بأس فإنه سيحظى برضا الله وثوابه، ونتيجة هذا اليقين أنه جعل المسلمين شجعانا في عمل للخير وعلمهم للقيام به بغير غرض مادي أخلاقي، وهذا هو السبب في شيوع الانتحار في غير العالم الإسلامي فنحن نقرأ عن انتحار السيدات الهندوس في الهند كل يوم، والانتحار لفشل بسيط في أوروبا وأمريكا أصبح أمرا عاديا، وفي الوقت الذي أكتب فيه هذه السطور ينشر في الجرائد خبر عن قيام رابطة في وارسو (بولندا) وعملها هو حث الفتيات الصغيرات الفاشلات على الانتحار، بينما لا نجد هذه الميول عند أي مسلم حتى في قمة لحظات يأسه، ولا يفقد الأمل أبدا بفضل الله وكرمه، فهو دائما يمتلئ أملا سواء كان فقيرا أم غنيا، صحيحا أم مريضا، لديه أولاد أم لا، ناجح أم فاشل، مقتدر أم مفلس، لديه الأمل دائما في رحمة الله تعالى في أوقات المشاكل والمرض والعوز والفشل، دائما أبدا على يقين

^١ جامع الترمذي - كتاب الزهد - باب في حسن الظن بالله تعالى . حدثنا أبو كريب . حدثنا عن جعفر بن برقان عن يزيد بن الأصم عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إن الله يقول : أنا عند ظن عبدي بي وأنا معه إذا دعاني .

من أن الـيأس والكفر شيء واحد في دينه، وأنه وإن لم يجد أجر عمله في الدنيا فسيحصل عليه في الآخرة يقينا، فربه قد وعده: "إني لا أضيع عمل عامل منكم" (آل عمران : ٣) .

الأخلاق والرهانية :

"إنَّ الأخلاقَ في الحقيقة ما هي إلا حسن النية في العلاقات بين الناس والتعامل معهم بأسلوب طيب، أو قل أنها قيام كل شخص بأداء ما عليه من فرائض إنسانية، ويتضح من حقيقة الأخلاق هذه أن الأخلاق ضرورية من أجل قيام علاقات وروابط بين الناس بعضهم البعض، وهو ما لا نجده في الرهبانية والتجرد والاعتزال، ولهذا فإن البعد عن الناس واعتزالهم والتحرر من علاقات الأهل والأولاد والأعزاء والأقارب والأصدقاء والأحباب يضيع فرص استخدام وتطبيق الأخلاق أو يقللها. ومن الضروري مناقشة هذه القضية لأنه غالبا ما أخذ قطع العلاقة مع الخلق واعتزالهم مكانة التدين والعمل الصالح في الدين، ولقد كان الرهبان والنسك قبل الإسلام يعيشون حياتهم هكذا، ويعتبرون ذلك هم و أتباعهم منتهى التقوى والصلاح، بينما الحقيقة هي أن هؤلاء المتدينين من الأفراد والجماعات اختاروا هذا الاحتجاب لإبراز وتعظيم نفوذهم وتأثيرهم ببعدهم عن أنظار عامة الناس مثل المملطين، وبذلك يتصورون أنفسهم أعلى من الآخرين، ومن ناحية أخرى يجعلون حياتهم في الخفاء فيدعون التقوى والتقديس للكانب ويتخذون منها حرفة، وبالتالي يستطيعون بذلك التهرب من أداء حقوق وفرائض الأهل والأقارب والأصدقاء والشعب والملة، نون لوم من أحد باعتبار عزهم الواهي بالاعتزال، ولهذا لم يشجع الإسلام في مبادئه الأخلاقية على الرهبانية والتجرد والاعتزال، فلقد أمضى الرسول صلى الله عليه وسلم ثلاثة وعشرين عاما هي فترة حياته صلى الله عليه وسلم بعد النبوة بين الناس مشاركا إياهم في كفاحهم الإنساني، وظل هذا هو منهج الخلفاء الراشدين والصحابية جميعا باستثناء القليلين منهم، القرآن الكريم ملئ بالتعاليم التي تؤكد على القيام بالعمل الصالح مع الناس في إطار هذا الكفاح الإنساني، وفي نفس الوقت يخلو القرآن من أية إشارة تحض على الاعتزال والتجرد وقطع العلاقات مع الجماعة الإنسانية .

وواضح تماما أن أداء الحقوق والفرائض الإنسانية لا تتم إلا بالتواجد مع الجماعة الإنسانية ذاتها، وليس حال البعد عنها، وهل يستطيع أولئك الذين يعتزلون المجتمع بعيدا عنهم في غاية أو خلوة حل مشاكل هذا المجتمع، وهل يستطيعون القيام

بفرائض الإشراف الأخلاقي على الأمة وهل يستطيعون أن يكونوا عوناً للفقراء ورعاةً لليتامى، هل يستطيعون تقديم خدمة ما لخلق الله وهل يستطيعون إنقاذ الناس من الغواية والضلال، وهل يستطيعون كسب قوتهم بقوة أيديهم، وهل يستطيعون القيام بفرائض التبليغ والدعوة والتعليم والوعظ والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والجهاد في سبيل الله؟ في حين أن هذه هي أفضل مصارف للعبادات الأخلاقية، ولهذا فإن هذه الطريقة في طلب النجاة ليست مستحسنة في نظر الإسلام عموماً وقد جاء في القرآن الكريم: "قوا أنفسكم وأهليكم نارا" (التحريم: ١).

بمعنى أنه يجب على الإنسان أن ينقذ نفسه والآخرين أيضاً من النار، وقد خاطب النبي صلى الله عليه وسلم للمسلمين صراحة بقوله: "كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته فالأمير راع لرعيته والرجل راع لأهله وعياله والزوجة راعية لبيت زوجها" (١). وعندما تحل المصائب الجماعية فإنها لا تترك المعتزلين، إذ أن النار تحرق من بالداخل ومن بالخارج، ولهذا أوضح الوحي المحمدي هذا الأمر قائلاً: "وانقشوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة" (الأنفال: ٣).

إذ أن هذه الفتنة ستطال المذنب والبريء وذلك إذا تغافل المعتزلون عن مهمة الدعوة والتبليغ في الجماعة التي تضل الطريق، ولهذا فقد جعل القرآن الكريم في قصة أصحاب السبت أولئك للمعتزلين الذين لا يباليون بفرض التبليغ من الأئمين، فالدنيا في الحقيقة دار الكفاح والعمل، حيث يقطع أهلها طريق الحياة بالتعاون بين الجميع، ومن المؤكد أن هناك متاعب كثيرة تواجه للذين يسيرون معاً في الطريق، و يكون على فرض منهم إذا أن يعمل على إراحة الآخر، وإذا فإن الشخص الذي يخشى مواجهة مشكلات الجماعة ويحمل عبء نفسه فقط على ظهره ويرحل هو جندي فاشل في معركة الحياة، وقد نقل البيهقي في شعب الإيمان والترمذي في الجامع قول النبي صلى الله عليه وسلم: "أن المسلم الذي يخالط الناس ويصبر على أذاهم أفضل من الذي لا يخالط الناس ولا يصبر على أذاهم".

^١ - صحيح البخاري - الجزء الثاني - كتاب النكاح - باب المرأة راعية في بيت زوجها - ٧٨٣.

حدثنا عبدان: أخبرنا عبد الله: أخبرنا موسى بن عتبة، عن نافع، عن ابن عمر رضي الله عنهما، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته، والأمير راع، والرجل راع على آخر بيته، والمرأة راعية على بيت زوجها وولده، فكلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته).

لقد سمح الإسلام بالاعتزال والانفصال عن الجماعة في حالة واحدة فقط وهي أن يفسد حال الجماعة حتى لا يبقى لها نظام مركزي، وأن تشتعل نار الفتنة والفساد بحيث تخرج عن السيطرة، في مثل هذا الوقت إذا لم يجد هؤلاء الأشخاص في أنفسهم المقدرة على وقف الفساد وإطفاء النار فإنهم في هذه الحالة ينفصلون عن المجتمع والأخاديث الواردة في موضوع الاعتزال عند الفتنة تتعلق بهذه الحالة، وإلا فإنه من الفرض على كل مسلم ذي همة قوية أن يتحل قصارى جهده في مثل هذا الوقت مبلغا وأمرًا بالمعروف حتى ينقذ الجماعة، وهذا هو النموذج الذي قدمه رسول الله صلى الله عليه وسلم في الدنيا، ولاتبعه الصحابة الكبار جميعا كل في دائرته. لقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "من رأى منكم منكرا فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان" (١) .

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:

فإذا ما أخذنا في الاعتبار هذا المبدأ الأخلاقي للإسلام برز أمامنا مبدأ أخلاقي آخر بشكل تلقائي أنه هناك فرضا في التعاليم المحمدية يقضي برعاية الجماعة بقدر الاستطاعة، وهذا الفرض الأخلاقي يسمى من الناحية الشرعية (الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر)، وقد جعل القرآن الكريم هذا الأمر من الصفات المميزة للمسلمين فقال: "كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر" (آل عمران: ١١٠) . "يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر" (التوبة: ٩) . ثم أمر قائلا: "وأمر بالمعروف وإنه عن المنكر" (لقمان: ٢) . وقدم صورة المسلمين وهي: "وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر" (العصر) . "وتواصوا بالصبر وتواصوا بالمرحمة" (البلد: ١) .

هذه هي التعاليم التي تميز مبدأ الرعاية الأخلاقية في الإسلام عن أديان الدنيا جميعا، وتجعل من الفرض على كل قوي القلب قوي الهمة أن يهتم بطبيعة الجماعة ويرعى الأمة.

^١ صحيح مسلم - كتاب الإيمان. حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة، قال: حدثنا وكيع عن سفيان عن محمد بن الحسن، قال: حدثنا محمد بن جعفر، قال: حدثنا شعبة كلاهما عن قيس بن مسلم، عن طارق بن شهاب، وهذا حديث أبي بكر، قال: أول من بدأ بالخطبة، يوم العيد قبل الصلاة، مروان، فقام إليه رجل، فقال: الصلاة قبل الخطبة، فقال: قد ترك ما هنالك، فقال أبو سعيد أما هذا فقد قضى ما عليه، سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: من رأى منكم منكرا فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان.

لقد جاء في التوراة هذه الفقرة على لسان قابيل "هل أنا حارس على أخي" (١)، وصارت هذه الفقرة مبدأ أخلاقيا هاما في الدين المسيحي، وقد اتخذ هذا المبدأ في أوروبا شكل قضية قانونية تسمى (استرجاع الحرية الشخصية) بينما الأمر في الإسلام عكس ذلك، وهو أن كل شخص حارس على أخيه بشكل حقيقي، مثلما جاء في قوله صلى الله عليه وسلم: "كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته" وقد أوجب القرآن الكريم على المسلمين صراحة دعوة الناس إلى الخير وإنقاذهم وإبعادهم عن الشر حتى يصبح حياء المجتمع وخوف الجماعة ضمانا لاستقامة الناس على الخير، وأوجب على كل فرد من الجماعة الإسلامية إخراج أخيه من ظلام الضلال إلى نور الهداية .

حكى القرآن الكريم قصة من قصص بني إسرائيل جاء فيها أنه قد حرم على بني إسرائيل القيام بأي عمل دنيوي يوم السبت، وكانت هناك قرية من قرى بني إسرائيل تقع على شاطئ البحر فكان أهلها يحتالون للصيد يوم السبت، وهكذا انقسم الناس في هذه القرية إلى ثلاث فرق، واحدة كانت ترتكب ذنبا للصيد يوم السبت علانية، وواحدة تعمل على منعها من هذا الذنب، والثالثة لم تكن تمنعها منه وإن لم تشاركها فيه، وإنما كانت تقول للفرقة التي تعمل على منع الذنب ما فائدة دعوة هؤلاء الذين لا يسمعون، والذين سوف يهلكهم الله بذنوبهم هذا، وعندما جاء عذاب الله لم تنج سوى الفرقة الثانية فقط، وهي التي أدت فرض التبليغ والدعوة، أما الأولى والثالثة فقد قضى عليهما، الأولى بسبب ارتكاب الذنب، والثالثة بسبب تخليها عن فرض الدعوة، وقد ذكرت هذه القصة في إركوع العشرين من سورة (الأعراف)، وفي النهاية قال تعالى: "وإذ قالت أمة منهم لم تعظون قوما الله مهلكهم أو معذبهم عذابا شديدا قالوا معذرة إلى ربكم ولعلمهم بقولنا نسوا ما ذكروا به أنجينا للذين يهون عن السوء وأخذنا الذين ظلموا بعذاب بئيس بما كانوا يفسقون" (الأعراف: ٢١).

وهذه القصة نلنا على أهمية إنقاذ الآخرين من السقوط ومساعدة الذين سقطوا على النهوض في نظر الإسلام، وأن هذا جزء مهم من الفرائض الأخلاقية، والذي يعتبر من يتخلى عن أدائه مجتبا مثل من ارتكب الذنب نفسه، ويتكفي مهلة بعد تعريفة بالحق وإبلاغه به، وليس عليه إجبار على الطاعة، وهكذا الأمر بالنسبة لرسول الله صلى الله عليه وسلم: "ما على الرسول إلا البلاغ" (المائدة: ١٣، النور: ٧)، فإذا أدى هذا الفرض فقد

^١ سفر التكوين - (٤-٩) .

سقط للفرض من عليه، ولهذا جاء في سورة المائدة: "يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم" (المائدة: ١٤).

وقد قرأ سيدنا أبو بكر الصديق رضي الله عنه هذه الآية وقال للناس: "أيها الناس لا يخدعنكم ظاهر هذه الآية، فلقد سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: إذا رأى الناس ظالماً ولم يفعلوه، فربما يصيبهم العذاب جميعاً". وقد سأل صحابي آخر هو أبو ثعلبة عن معنى هذه الآية فقال: لقد سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن معناها فقال: كلا، وإنما أمروا مع الخير ولمنعوا بعضكم بعضاً من الشر، ولكن إذا رأيتم أتباعاً للطمع والبخل وطاعة للشهوات، وأن الدنيا يتم ترجيحها على الدين، وكل مغتر برأيه فعليكم في مثل هذا الوقت اعتزال العوام والاهتمام بأنفسكم إذ سيأتي بعدكم زمن للمتمسك فيه كالذي يقبض على النار بيديه " (١).

هذه التعاليم ألغت المبدأ الأخلاقي الخاطئ الذي يقول (هل أنا حارس لأخي)، والحقيقة أنه لا يمكن الحفاظ على التعاليم الأخلاقية طالما احتفظت بها الجماعة تحت سيطرتها، وعادات وتقاليد وآداب الأمم تقوم على هذه الأصول، والأمر الثاني أنه يبدو من هذه الأمور الأخلاقية أمور شخصية لكل شخص في الظاهر، وهي التي يقتصر نفعها وضررها على الشخص نفسه، ولكن إذا تمعنا في الأمر عرفنا أن نتائجها وأثارها تؤثر في المجتمع كله، حيث يصل تأثيرها من شخص إلى آخر، ومن آخر إلى آخر، وهكذا تنتشر في المجتمع كله ترويجياً، وثانياً إن لم يتم التحكم فيها فسوف يتضاعف

^١ هذان الحديثان جاءا في كتاب التفسير للترمذي (سورة المائدة) - ٤٩٨ ، ٤٩٩ . حدثنا أحمد بن منيع . حدثنا يزيد بن هارون . حدثنا إسماعيل بن أبي خالد عن قيس بن أبي حازم عن أبي بكر الصديق أنه قال : يا أيها الناس إنكم تقرأون هذه الآية : " يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم " ، وإن سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : إن الناس إذا رأوا ظالماً فلم يأخذوا على يديه أوشك أن يعمهم الله عقاب .

وحدثنا سعيد بن يعقوب الطالقاني . حدثنا عبد الله بن المبارك . أخبرنا عتبة بن أبي حكيم . حدثنا عمرو بن جارية اللخمي عن أبي أمية الشعباني قال : أتيت أبا ثعلبة الخشني فقلت له : كيف تصنع بهذه الآية ؟ قال : آية ؟ قلت : قوله : " يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم " قال : أما والله لقد سألت عنها خبيراً ، سألت عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : بل اتقوا بالمعروف وتناهوا عن المنكر حتى إذا رأيتم شحاً مطاعاً ، وهوى متبعاً ، ودنياً مؤثرة ، وإعجاب كل ذي رأي برأيه ، فعليك بخاصة نفسك ودع العوام فإن من ورثكم أياماً الصبر فيهن مثل القبض على الجمر ، للعامل فيهن مثل أجر خمسين رجلاً يعملون مثل عملكم .

سوءها في نظر الناس ويعتبرونها أمورا عادية، وتدرجيا ينتشر للسم حتى يشك الناس في كونها أمورا سيئة، وتكون نتيجتها أن تفسد للطباع الأخلاقية للأمة كلها في أيام قلائل، وتسقط من مستواها الرفيع إلى المستوى الأدنى. ولقد جاء في الترمذي أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لأصحابه ذات مرة: أن الاتحطاط الأخلاقي عند بني إسرائيل بدأ حين انتشر بينهم المنكر وقد منعه علماءهم في البداية وعندما لم يتوقف بدأ هؤلاء العلماء يأكلون ويشربون ويجالسون أهل المنكر فصاروا بصحبتهم مثلهم ولعنهم الله على لسان داود وعيسى ثم اعتدل رسول الله صلى الله عليه وسلم جالسا وقال: إلا أن تكفوا يد الظالم وتجبروه على الحق^(١). وهذه هي تعاليم محمد صلى الله عليه وسلم في هذا الخصوص .

بعض شروطه:

لكن هذا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ليس مفروضا على الجهلاء والعامه، لأنه إن كان كذلك فسوف يثيرون الفتن بشكل أو بآخر لكن هذا الأمر يحق على الشخص الذي يتجنب السوء بنفسه، ولقد قال القرآن الكريم :

" أتمرون الناس بالبر وتتسون أنفُسكم " (البقرة : ٥) .

وهكذا يجب أن تتم للنصيحة والدعوة بأسلوب جيد ولين ومراعاة للمصلحة، وقد قيل للنبي صلى الله عليه وسلم نفسه:

" ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة " (النحل) .

ولما أرسل الله سيدنا موسى وهارون عليهما السلام إلى فرعون قال لهما :

" فقولاً له قولاً لنا " (طه : ٢) .

وقال في موضع آخر: " وعظهم وقل لهم في أنفسهم قولاً بليغا " (النساء : ٩) .

وكل هذه الاحتياطات والتأكيدات حتى لا يعاند الناس، ولا تنتشر السيئة بدلا من الحسنة وإقامة الأمن والأمان في يد الإمام، ولهذا فإن تنفيذ نظام قوي للأمر بالمعروف

^١ جامع الترمذي - تفسير سورة المائدة . حدثنا عبد الله بن عبد الرحمن. أخبرنا يزيد بن هارون. أخبرنا شريك عن علي بن بزيمة عن أبي عبيدة عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: لما وقعت بنو إسرائيل في المعاصي فتهم علماءهم فلم ينتهوا، فجالسوهم في مجالسهم وراكلوهم وشاربوهم فغضب الله قلوب بعضهم ببعض ولعنهم على لسان داود وعيسى ابن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون قال: فجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكان متكئا فقال: لا والذي نفسي بيده حتى تأطروهم على الحق أطرا، قال عبد الله بن عبد الرحمن، قال يزيد: وكان سفيان الثوري لا يقول فيه عن عبد الله.

والنهي عن المنكر فرض على الحكومة فقط حتى لا يتولد عن منع نوع من السوء عشرات الأنواع الأخرى من العيوب .

المنع من التجسس و الغيبة:

ولأن الهدف الأصلي للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هو إصلاح المجتمع والحفاظ على أخلاق الجماعة فإن ذلك يوضح أن الإسلام منع التفتيش عن عيوب الآخرين وهو ما يسمى بالتجسس، فليس من حق أي مسلم أن يتسلل إلى بيت مسلم آخر ليتجسس على أحواله وأمواله حتى أصبح من التعبيرات السائدة في أدبيات الإسلام أن: "ماذا يفعل المحتسب داخل البيت ؟" .

والسبب في ذلك أن باب الفتنة والفساد يفتح بسبب مثل هذه الطريقة للإصلاح ولا يكون أي شخص في مأمن وهو في بيته لكن السر الأصلي في المنع من هذه الأمور هو أن الشخص الذي يفعل السوء مختبئاً في بيته ينحصر أثر ما فعل على ذاته فقط ولا يصل إلى الجماعة ولهذا لا تحتاج الجماعة إلى التداخل فيه وهناك أمر آخر في هذا الخصوص وهو أن الشخص الذي يرتكب الذنب في الخفاء إنما يعني هذا أنه لا يزال لديه رفق من الحياء والخجل وهو ما يمكن أن يكون سبباً في هدايته فيما بعد، أما إذا راقبه الناس وتجسسوا عليه فإن الخوف يكون من أن ينطفيء في قلبه هذا الضوء الخافت بسبب العناد والعزة بالإثم. إن الإسلام يمنع من الدخول في بيت أو حجرة دون استئذان، والسبب في ذلك كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إنما الإنان لأجل الرؤية".

وهناك مبدأ آخر في هذا الخصوص وهو أن لا يغتاب هذا الشخص ولا تذكر عيوبه من ورائه لأحد، إذ أن هذا لا يؤدي إلى الإصلاح بل من الممكن أنه إذا علم بهذا الأمر يستاء ممن يعظه وينصح به بل ويخالفه ويعانده، وبذا يغلق باب إصلاحه إلى الأبد، ولهذا منع النبي المحدثي من التجسس والغيبة منعاً باتاً فقال :

"يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيراً من الظن إن بعض الظن إثم، ولا تجسسوا ولا يغتاب بعضكم بعضاً أحبب أحكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً فكرهتموه واتقوا الله إن الله تواب رحيم" (الحجرات: ٢).

إن ذكر عيوب أحد من خلفه كمثل من ينهش بأسنانه لحم ميتة، فمتلماً أن الميت لا يستطيع حماية جسده فإن ذلك الذي تغتابونه لا يستطيع حماية نفسه، ولا يستطيع أن

يدافع عن نفسه وليس هناك أبلغ من تشبيه الغيبة بهذا الأمر البشع الذي يأباه بالفطرة كل إنسان وقد صارت بشاعته بهذا الشكل لأنه لا يمكن من الاستفادة بالأمر بالمعروف ولا يمكن من إصلاح ذلك الشخص الذي يغتاب وبه كذلك يظهر الضعف الأخلاقي لدى الذي يقوم بالاغتياب وهو ما لا يليق بالمسلم ولهذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إنكم إن تتبعتم عيوب الناس حطمتهم" (١) .

وتأمل كم في التعاليم الأخلاقية للنبي صلى الله عليه وسلم من لطائف ودفائق:

التوسط والاعتدال:

لقد مضى عهد اليهودية والنصرانية قبل البعثة النبوية وكان العالم ينتظر ديناً يجمع هذين الدينين معا، وجاء الإسلام ليلبي هذه الحاجة لدى البشرية، فجمع هاتين الحلفتين من سلسلة النبوة معا .

إن العدل هو الذي حفظ نظام الدنيا وزينه الإحسان والرفق واللطف، لكن هذه الأشياء في السياسة الدينية كانت أمورا منفصلة قبل الإسلام، وكانت النتيجة الحتمية لهذا هو أن نظام العالم لم يكن قد اكتمل حتى ذلك الوقت. لقد كانت شريعة سيدنا موسى عليه السلام عدلا مجسما، ولم يكن بها اهتمام كبير بالعفو والإحسان (٢)، وبنفس الطريقة كان سيدنا عيسى عليه السلام رسول المحبة الخالصة، وكان العدل والإنصاف في شريعته قليل (٣)، فوضعت شريعة موسى عليه السلام للدنيا مبادئ العدل والإنصاف، بينما أعلن سيدنا عيسى عليه السلام تعاليمه الأخلاقية قائلا :

"لقد سمعتم أن العين بالعين والسن بالسن، ولكني أقول لكم لا تقابلوا السيئة بالسيئة، وإنما من يلطمكم على خدكم الأيمن قدموا له خدكم الأيسر، ومن يمسك بتلابيبكم متساجرا معكم فقدموا له رداكم أيضا، ومن يسير معكم لمسافة ميل يشتمكم فسيروا معه لميلين، وأعطوا من يسألكم، ولا تستعبدوا القرض ممن أعطيتموه، لقد سمعتم أن أحبوا أعداءكم و أبغضوا أعداءكم، ولكني أقول أن أحبوا أعداءكم أيضا (متى - باب ٥) .

^١ سنن أبي داود - كتاب الأدب ، باب النهي عن التجسس .

حدثنا عيسى بن محمد الرملي وابن عوف، وهذا لفظه قالا: ثنا القريائي، عن مفيان، عن لور، عن راشد بن سعد، عن معاوية قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: إنك إن اتبعت عورات الناس أفسدتم أو كدت تفسدتم فقال أبو الدرداء كلمة سمعها معاوية من رسول الله صلى الله عليه وسلم فعه الله تعالى بها.

^٢ بسبب قسوة اليهود .

^٣ من أجل إصلاح تمسك اليهود باللفظ القانوني .

لقد كان ما قيل للدنيا قبل سيدنا عيسى عليه السلام هو قانون سيدنا موسى عليه السلام، والذي كان مبنيًا على العدل والإنصاف، بينما كان ما تسمعه الدنيا من عيسى عليه السلام أخلاقًا ورحمة وإحسانًا، أما الإسلام فقد مزج بين العدل والإحسان، وأكمل بذلك نظام الحكم في العالم، لقد كان ذلك تعليمًا مبنيًا جمع بين خاصيتين مستقلتين للشرعية الموسوية والشرعية العيسوية .

العدل والإحسان:

لا بد من قليل من التفصيل حتى نستطيع فهم (العدل والإحسان) بشكل صحيح، فأساس القانون في الحقيقة يكون على العدل، ومعنى العدل (التساوي) بمعنى فعل السوء مع من يفعل السوء، وهذا هو العدل، بينما يكون العفو عنه والتسامح معه (إحسانًا)، ولكل من العدل والإحسان في الإسلام مقام مستقل، وقد أعطى قانون العدل إلى الجماعة والدولة، إذ لا يستطيع فرد واحد، بينما الإحسان يستطيعه كل إنسان، وهو أمر شخصي، ونظام الجماعة والحكومة يقوم على قانون العدل، فإذا ما قضى على هذا القانون انفرط عقد الجماعة والحكومة، ولم يعد أحد آمنًا على نفسه أو ماله، ولهذا فإن القضاء على الحكومة تمامًا مثلما فعل الذي غير في المسيحية فقضى على قانون العدل في التوراة تمامًا، هذا الأمر لا يقبل التنفيذ في الدنيا، وتاريخ الممالك المسيحية كله شاهد على أنه بدون قانون العدل لا يمكن إقامة الأمن والسلام على شبر واحد من الأرض معتمداً على الأخلاق فقط، ولا يمكن كذلك القضاء على السبلبيات .

وهناك أمر آخر وهو أنه عندما يسيئ شخص في الجماعة إلى شخص آخر، فإن هذه الإساءة لا تكون لمجرد فرد واحد فقط، وإنما تكون لنظام الجماعة كلها، فإذا لم يحاسب مثل هذا الشخص من البداية فمن الممكن أن يتجرأ على ارتكاب نفس الإساءة مع فرد آخر من أفراد الجماعة، ولهذا فإن الحق الكامل في العفو عن الظالم لا يكون للمظلوم وحده، لأن المظلوم بعفوه وإحسانه على الظالم كأنما ارتكب إثماً في حق الجماعة كلها، ومن هنا ينبغي التفكير جيداً عند إحلال الأخلاق محل قانون العدل، وهو الأمر الذي التفتت إليه الشريعة المحمدية وعالجته، لأنها هي الشريعة الدائمة للعالم .

ثم إن الناس جميعاً في هذا العالم ليسوا على طبيعة وفطرة واحدة، فبعضهم طيب صالح، ذو مزاج لين، حاسب، ومتحمل، والعفو والتسامح وعدم الانتقام بالنسبة لهم أمر يسير، والبعض الآخر غضوب قاسي المزاج حاده لا يستريح إلا بالانتقام للإساءة أكثر

مما تستحقه، ومنعهم من الانتقام بهذا الشكل هو إصلاح لهم، وأن يروضوا على العمل بمبدأ أن تكون الإساءة بقدر الإساءة، ولهذا كان من الضروري للغاية لشريعة جاءت لتحكم العالم كله أن تجمع بين العدل والإحسان .

القانون والأخلاق:

وما قلناه سابقا يعني أن هناك شيئين لا بد منهما في الدنيا لإقامة الأمن والأمان والعدل والإنصاف والقضاء على الفتنة والفساد والسلبيات وهما القانون والأخلاق، ورغم أن أصل هذين الشيئين واحد لكن للوصول إلى غايتهما يأتي من طوق مختلفة، وفي كل منهما نقص يتم تلافيه بالاستعانة بالآخر، فالقانون يمنع الناس عن ارتكاب سوء، ولكنه لا يولد في القلب نفورا روحانيا تجاه هذا للسوء، ولا يمكن إجبار كل شخص بالعمل طبقا للأخلاق، ولهذا فإن من غير الممكن استئصال السوء وإقامة العدل والإنصاف عن طريقها، والتوراة مجرد قانون، والإنجيل أخلاق محضة، وإذا فإن كلا منهما ليس كافيا وحده لإقامة العدل والإنصاف والقضاء على الفتنة والفساد بشكل كامل، وقد جاء سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم بشريعة تجمع بين العدل والإحسان والقانون والأخلاق .

وهذه الجامعة في الشريعة المحمدية توجد في صورتين، الأولى أنها لم تعط الأخلاق شكل القانون مثلما فعلت اليهودية، ولم تفصل القانون عن الدين وجعلته أخلاقا مثلما فعلت المسيحية، وإنما أقامت بين القانون والأخلاق حدا فاصلا، وجعلت لكل منهما حدوده، ووضعت القانون في كتاب الشريعة في مكانه، والأخلاق في مكانها فوصلت بالإنسانية إلى الكمال .

لقد وضع الإسلام تلك المساوي التي يتعدى أثرها إلى الآخرين تحت القانون، مثل القتل والسرقة وقطع الطريق والقتل، وهكذا حدد القرآن الكريم لهذه الجرائم حدودا يمكن أن تطبقها الحكومة الإسلامية، أما الأمور التي تتعلق بالكمال الذاتي للشخص فقد وضعها الإسلام في دائرة الأخلاق مثل عدم الكذب، الشفقة، مساعدة الفقراء وغيرها، وبهذا تكون الشريعة المحمدية مجموعة من القانون والأخلاق .

والإسلام كذلك عبارة عن مجموعة من القانون والأخلاق باعتبار آخر، فمن الناحية القانونية منح المظلوم وصاحب الحق حق الاختيار إن شاء أخذ حقه كما نقول التوراة، ولكنه قدم له وضعا رفيعا آخر وهو أن يعفو عن الظالم كما يقول الإنجيل، ويقابل

سيئته بالحسنة، وبذلك وضعت هذه التعاليم كلها قانون الدولة وإدارتها وعدلها من جانب وتكميل الأخلاق الروحانية من جانب آخر كلا في مكانه، ولهذا فهي كفيلة تماما بالحفاظ على النسل الإنساني وتطوره فهي تستطيع القيام بالأمر بقوة العدل والإنصاف، وتصل بالناس عن طريق الأخلاق إلى الكمال الروحي فهي ليست جسدا ميتا مثل الشريعة اليهودية، وليست روحا غير محسوسة مثلما هو حال التعاليم المسيحية، وإنما هي جسم وروح وكيان حي محسوس .

العفو والانتقام:

إن الفارق بين التعاليم الأخلاقية الموسوية والعيسوية والمحمدية يتجلى في هذا الفصل وهذا الإجماع بين القانون والأخلاق، فقد قال أكثر المعارضين مشيرين إلى القوانين الإسلامية أن تعاليم رسول الإسلام تخلو من الروح، لكنهم لو وضعوا أمامهم الأخلاق المحمدية جنبا إلى جنب مع القانون المحمدي لم يعترهم أبدا هذا الشك، فلقد عرفنا أن أسس التوراة تقوم على الانتقام العادل، فتقول:

"ومن يقتل إنسانا يقتل ... وإذا جرح أحد جاره فيفعل معه مثل ما فعل، الكسر عوضا عن الكسر، والعين بالعين والسن بالسن" (الأخبار ١٧-٢٤، الخروج ١٢-٢١، العدد ٣١-٣٥، الاستثناء ١٩، ١٢، ١١) . بينما تعتمد تعاليم الإنجيل على العفو، فنجد هذا الوعظ الحكيم:

"لقد سمعت أنه قيل أن العين بالعين والسن بالسن، ولكنني أقول لكم لا تعادوا الظالم، ومن يلطمكم على خدكم الأيمن أديرُوا له الخد الأيسر" (متى ٥-٣٨) .

لكن هل يمكن أن يقوم نظام العالم ولو ليوم واحد على هذه الأخلاقيات الروحانية الخالصة؟ وهل استطاعت دولة مسيحية أو شعب مسيحي تطبيقها ذات يوم ؟ .

أما التعاليم التي قدمها محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم فهي مجموعة من العفو والانتقام العادل، أي من كل من الأخلاق والقانون، فالعدل قانون، والإحسان أخلاق، وهذان الأصلان نجدهما في كل أحكام الإسلام، وهكذا وصلتنا التعاليم المحمدية فيما يتعلق بالقضية التي نقلنا بخصوصها أحكام التوراة والإنجيل فيما سبق :

"يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم القصاص في القتلى الحر بالحر والعبد بالعبد والأنثى بالأنثى" (البقرة: ٢٢) . وهذا هو قانون التعويض العادل ثم يأتي بعده الحكم الأخلاقي:

"فمن عفي له من أخيه شيء فإتباع بالمعروف وأداء إليه بإحسان، ذلك تخفيف من ربكم ورحمة، فمن اعتدى بعد ذلك فله عذاب ألِيم" (البقرة: ٢٢).

ونأمل في بلاغة هذه الآيات حيث أطلقت على القاتل لفظ (أخ) بالنسبة لأقارب المقتول من أجل إثارة عاطفة الرحمة لديهم بعد أن بدأت بين أقارب المقتول والقاتل العدواة العلنية، ولأنه ليس في التوراة مسألة العفو عن القتل هذه فقد عبرت الآيات عن العفو بالرحمة، وذكر بالإحسان للقاتل، وحذر أقارب المقتول من عذاب الله فيما لو حدث انتقام بعد العفو أو القصاص، انظر كيف جمع حكم الإسلام بجمال بين التوراة والإنجيل، والقانون والأخلاق والانتقام والعفو. وقد أوضح القرآن الكريم هذه الجامعة في مكان آخر بقوله:

"وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس والعين بالعين والأنف بالأنف والأذن بالأذن والسن بالسن والجروح قصاص، فمن تصدق به فهو كفارة له، ومن لم يحكم بما أنزل الله فلأولئك هم الظالمون، وقفينا على آثارهم بعيسى ابن مريم مصدقا لما بين يديه من التوراة وآتيناه الإنجيل فيه هدى ونور ومصدقا لما بين يديه من التوراة وهدى وموعظة للمتقين" (المائدة: ٧).

كانت هذه هي الأحكام القانونية والأخلاقية فيما يتعلق بأقصى الذنوب، والإسلام يضع هذه الجامعة في اعتباره أيضا عند الحديث عن المعاملات المالية يقول الله تعالى:

"وإن تبتم فلکم رؤوس أموالکم" (البقرة: ٣٨).

هذا هو القانون، أما الأخلاق فهي:

"وإن كان ذو عسرة فنظرة إلى ميسرة، وأن تصدقوا خير لكم إن كنتم تعلمون" (البقرة: ٣٨).

كما حافظ الإسلام على هذه الجامعة في المبادئ والأسس بغض النظر عن التفاصيل:

"وإن عاقبتهم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به، ولئن صبرتم لهو خير للصابرين" (النحل).

وجاء هذا المعنى في آية أخرى:

"والذين إذا أصابهم البغي إذا هم ينتصرون، وجزاء سيئة سيئة مثلها، فمن عفا وأصلح فأجره على الله، إنه لا يحب الظالمين" (الشورى: ٤).

فالجزء الأول من الآية يعني أن لا يبدأ المسلم في ظلم أحد، لأن القانون هو الاقتصاد للسوء بقدره مثلما جاء بالتوراة، ولكن إن عفا المسلم عن هذا الظلم أخلاقا، ولم

يغفره فقط وإنما قدم الحسنه أمام السيئه فسوف يلقى أجره من الله تعالى، والبلاغة هو أنه قال في حق هذا المظلوم الصابر أن أجره و ثوابه على الله .

المهم أن اختيار أي من العفو والانتقام نقص في النظام الروحي أو الجسماني للدنيا، فإذا لم يكن هناك مبدأ للعقاب فلن يقوم للجماعة نظام، ولن يستقر الأمن والأمان في البلاد، ولن يمكن إجبار جزء كبير من الأفراد على الرجوع عن السليبيات، وإذا لم يكن هناك مبدأ للعفو فلن يبقى هناك ما نسميه طهارة الأخلاق وسمو الروح في حين أن هذا هو المطلوب بالنسبة لأي دين صادق، ولهذا فإن اختيار واحد من المبدئين وترك الآخر يكون بمثابة القضاء على نصف نظام الدنيا والإبقاء على النصف الآخر. ولهذا جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم بتعاليم تضع في اعتبارها النظام الكامل للوجود الإنساني، وعهدت بمبدأ العقاب والانتقام إلى الجماعة والحكومة، وأمرت بأن لا تكون هناك رحمة في تطبيقه، ولا تفريق فيه بين فقير وغني ولا بين كبير وصغير ولا بين بني الجلدة والأجانب، حتى يقوم للجماعة والبلد نظام، بينما جعلت التعاليم المحمدية من العفو على الجانب الآخر وسيلة لمدارج كمال الشخصية حتى يرتقي وباستمرار السمو الروحي والطهارة الأخلاقية للأشخاص.

لقد وصلت الشدة من أجل قيام نظام الجماعة أن جاء الحكم عند تطبيق حد من الحدود أن:

"ولا تأخذكم بهما رأفة في دين الله إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر" (النور: ١).

بمعنى أن عقاب هذا الذنب عند الله والذي سيكون يوم القيامة هو أقسى من هذا بمراحل، ولهذا فإن معاقبة الشخص على الذنب الذي ارتكبه في الدنيا هو في الحقيقة إحسان إليه، ولذا فإنه لا يجب التهاون في عقابه، وقد وصل الحال في موضوع عدم التفريق في تطبيق العقاب بين عظيم وحقير وغني وفقير أنه ذات مرة قبض على امرأة مسلمة شريفة بتهمة السرقة، وأرادت قريش أن لا يتم عقابها، وتوسطوا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: أيها الناس لقد هلك من كانوا قبلكم لأنهم كانوا إذا سرق الكبير تركوه، وإذا سرق الصغير عاقبوه، والذي نفس محمد بيده لو أن فاطمة بنت محمد سوت قطع محمد يدها (١) .

^١ صحيح البخاري - الجزء الثاني - كتاب الحدود - ص ٢ .

بينما وصل الحال في موضوع العفو أن السيدة عائشة تقول: أن النبي صلى الله عليه وسلم لم ينتقم من أحد أبدا لذاته، إلا أن يخالف حكما من أحكام الله (١) فإنه (قانونا) يعاقبه. كان هذا هو العمل، أما التعليم فتمثل فيما يقوله سيدنا أنس رضي الله عنه: "إنني لم أر قضية قصاص ترفع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا وأشار الرسول صلى الله عليه وسلم بالعفو والصفح" (٢). بمعنى العفو عن القصاص تماما أو أخذ الدية والعفو عنه. وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأصحابه فيما يخص الجرائم العادية البسيطة:

"اعفوا عن أخطاء بعضكم البعض فيما بينكم، ولكن عندما يصل الأمر إلي الحد فلا بد من العقاب" (٣). يعني عندما يرفع الأمر إلى الحكومة فإنه يجب الفصل في الأمر عندئذ حتى يظل احترام الحكومة في القلوب، وقد حدث ذات مرة أن أحد الناس كان ينام ملتحفا بردائه فجاء شخص آخر وسرق هذا الرداء، وقبض عليه وقدم إلى المحكمة النبوية، فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بقطع يده، فقال الرجل صاحب الرداء: هل تقطع يد إنسان

حدثنا سعيد بن سليمان: حدثنا الليث، عن ابن شهاب، عن عروة، عن عائشة رضي الله عنها: أن قریشا أہمتہم المرأة المخزومية التي سرقت، فقالوا: من يكلم رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومن يجترئ عليه إلا أسامة، حسب رسول الله صلى الله عليه وسلم، فكلّم رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: (أتشفع في حد من حدود الله). ثم قام فخطب، قال: (يا أيها الناس، إنما ضل من كان قبلكم، أنهم كانوا إذا سرق الشریف تركوه، وإذا سرق الضعیف فبہم أقاموا عليه الحد، وإیہم الله، لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها) .

^١ المرجع السابق - كتاب الحدود .

حدثنا يحيى بن بكير: حدثنا الليث، عن عقيل، عن ابن شهاب، عن عروة، عن عائشة رضي الله عنها قالت: ما خير النبي صلى الله عليه وسلم بين أمرين إلا اختار أيسرهما ما لم ياتم، فإذا كان الإثم كان أبعدهما منه، والله ما اتقمت لنفسه في شيء يؤتى إليه قط، حتى تنتهك حرمت الله، فينتقم الله.

^٢ أبو داود والنسائي - كتاب الديات .

حدثنا موسى بن إسماعيل ثنا عبد الله بن بكر بن عبد الله المزني، عن عطاء بن أبي ميمونة، عن أنس نب مالك قال: لما رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم رفع إليه شيء فيه قصاص إلا أمر فيه بالعفو.

^٣ سنن النسائي - كتاب قطع السارق - باب ما يكون إلا حرزا وما لا يكون .

أخبرنا محمد بن هاشم قال: حدثنا الوليد قال: حدثنا ابن جريج عن عمر بن شعيب عن أبيه عن جده عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: تعافوا الحدود قبل أن تكوني به، فما أتاني من حد فقد وجب .

في رداء بثلاثين درهما، إنني أبيع له هذا الرداء بثمن مؤجل، فقال صلى الله عليه وسلم: لماذا لم تفعل هذا قبل أن تأتني به ؟ ^(١) .

هذا هو العفو الذي اتخذ شكل الجرائم القانونية إلى حد ما، وبهذا الاعتبار فإن القانون المحمدي أكثر رحمة من قوانين الدول الجالية وأكثر عدلا وتطابقا مع العقل والتعاليم الأخلاقية التي تحض على العفو دائرتها في الإسلام أوسع من غيرها بكثير.

تعاليم العفو والصفح:

إن أكثر التعاليم الأخلاقية الصعبة والتي تنقل على أكثر النفوس هي التي تتعلق بالعفو والصفح وضبط النفس والتحمل، لكن الإسلام طوى هذه الأرض الصلدة بسهولة كبيرة، فالجميع يعرف أن الإسلام أظهر كراهية شديدة لعبادة الأوثان والشرك، وهو أمر يميز الإسلام، إلا أنه أكد على المسلمين أن لا تسيئوا إلى أصنام المشركين وآلهتهم حتى لا يسبوا هم الله تعالى: "ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله عدوا وبغير علم" (الأنعام: ١٣). وهذه قمة التعاليم التي تحض على التحمل والتمثلة في مخاطبة النبي صلى الله عليه وسلم بأن يصبر على أذي المشركين وظنهم وأن يعفو عنهم، وهذا الحكم يسري على المسلمين جميعا إتباعا لرسول الله صلى الله عليه وسلم: "خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلین، وإما ينزغك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله أنه سميع عليم" (الأعراف: ٢٤).

والعفو والصفح حال هدوء الإنسان وسكونه أمر سهل، ولكن من الضروري أن لا يخرج الإنسان عن طوره أثناء الغضب، ولذا قال تعالى في مدح الصحابة: "وإذا ما غضبوا هم يغفرون" (الشورى: ٤).

وقال في مدح الذين يعملون الصالحات أن كتمان الغيظ والعفو عن الناس هو السبيل لمحبة الله:

"والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين" (آل عمران: ١٤).

^١ المرجع السابق - كتاب قطع السارق - باب ما يكون إلا حرزا وما لا يكون .

أخبرنا أحمد بن عثمان بن حكيم قال: حدثنا عمرو عن أسباط عن ميمك عن حيد بن أخت صفوان عن صفوان بن أمية قال: كنت نائما في المسجد على خيصة لي فيها ثلاثون درهما، فجاء رجل فأخلسها مني، فأخذ الرجل فأتني به النبي صلى الله عليه وسلم فأمر به ليقطع، فأتته فقلت: أنقطعه من أجل ثلاثين درهما، أنا أبيعهم وأنت عنها، قال: فهلا كان هذا قبل أن تأتني به ؟

والغفر عن العدو حال المقررة عليه أمر غاية في السمو وعلو الهمة قال تعالى:
"ولمن صبر وغفر إن ذلك من عزم الأمور" (الشورى: ٤).

وقد عبر الوحي المحمدي عن هذا التحمل والعفو بلفظ (عزم) والذي جاء في
وصف الأنبياء والرسل قال تعالى:

"قاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل" (الأحقاف: ٤).

ويجب على المسلم أن يتحمل كل المشاق في سبيل نشر الخير والقضاء على
الشُر، وهذا عمل يتطلب همة وعزماً كبيرين قال تعالى:

"وأمر بالمعروف وانه عن المنكر واصبر على ما أصابك إن ذلك من عزم
الأمور" (لقمان: ٢)

ومن الشجاعة تحمل أذى المشركين وسلطة لسانهم قال تعالى:

"وإن تصبروا وتتقوا فإن ذلك من عزم الأمور" (آل عمران: ١٩).

هذه الآيات السابقة كلها تكلنا على أن التحمل والصبر والعفو والصفح من عزم
الأمور ليس هذا فقط بل إنها كذلك سبب في محبة الله ودعت الآيات المسلمين إلى العمل
بذلك، والأكثر من هذا أن القرآن أمر طبقاً للآية التالية يأمر بالعفو عن الأعداء أيضاً:
"قل للذين آمنوا يغفروا للذين لا يرجون أيام الله" (الجنائنة: ٢).

والذين لا يرجون أيام الله هم الكفار، ورغم أن الإسلام لا يحب الكفار ولا المشركين، لكنه
أكد على المسلمين أن يغفروا عن هؤلاء، ويصفحون عن أخطائهم، فهل يمكن أن نطلب من
الإسلام رقة أكثر من هذا ولكي يحض الله تعالى المسلمين على العفو والصفح جعلهما
من صفاته الخاصة وأمر للمسلمين بإتباعهما:

"إن يبدو خيراً لو تخفوه أو تغفوا عن سوء فإن الله كان عفواً غفيراً" (النساء: ٢١).

يعني إذا كان العفو عن المذنبين والأثمين من صفات الله فإنه يجب أن تتعكس صفة الله
هذه في عباده، وقد وصلت بلاغة هذه التعاليم في القرآن الكريم أن الله تعالى يقول أن
ربكم قاهر على كل شيء ومع ذلك فهو يغفو عن العباد، فيجب على الإنسان وهو
صاحب لقدره المحدودة واختياره مشروط وعجزه وقلة حيلته أمر واضح يجب عليه
أن يغفروا الآية التالية توضح هذا المعنى وتقترب منه:

"وليغفروا وليصفحوا، ألا تحبون أن يغفر الله لكم والله غفور رحيم" (النور: ٣).

بمعنى أنكم إن عفوتهم عن الآخرين فإن الله يغفو عنكم، فكم في هذه الآية من ترغيب في العفو والصفح والمغفرة.

الحسنة بالسيئة:

وهناك تعاليم أكثر أهمية من تعاليم العفو والصفح وهي أن الذي يفعل السيء تعفون عنه وتحسنون إليه وأن تحسنوا إلى عدوكم، وقد سمى الله تعالى الذين يطبقون هذه التعاليم الربانية بأنهم (نوح حظ عظيم)، وقال أن هذا هو أفضل طريق لتحويل العدو إلى صديق :

"لا تستوي الحسنة ولا السيئة، ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم، وما يلقاها إلا الذين صبروا وما يلقاها إلا نوح حظ عظيم" (السجدة: ٥).

وقد عبر الله تعالى عن هذه التعاليم العظيمة بأنها حظ عظيم، وهو ما نستطيع من خلاله التعرف على أهميتها، وقال في موضع آخر لا تغضبوا من إساءة المشركين والكفار، لأن القيام بشيء في غير موضعه بسبب الغضب لأمر من أمور الدين هو من عمل الشيطان، فإن حدث مثل هذا فادعوا الله أن ينجيكم من همزات الشيطان، وأن يحفظكم من الغضب:

"ادفع بالتي هي أحسن السيئة نحن أعلم بما يصفون، وقل رب أعوذ بك من همزات الشيطان، وأعوذ بك رب أن يحضرون" (المؤمنون: ٦).

وفي آية أخرى ذكر الله تعالى الصلاة والصنقة والصبر والعفو، ووعدهم بالجنة في مقابلها، لكنه بعد ذلك أعاد ذكر الصبر فقط من بين هذه الحسنات وجعله سببا في دخول الجنة:

"والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل ويخشون ربهم ويخافون سوء الحساب، والذين صبروا ابتغاء وجه ربهم وأقاموا الصلاة وأنفقوا مما رزقناهم سرا وعلانية ويذرعون بالحسنة السيئة أولئك لهم عقبى الدار، جنات عدن" (الرعد: ٣).

وسوف يقال لهم: "سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار" (الرعد: ٣).

أرأيت بغفي هذه البشارة بالجنة لم يرد ذكر للصلاة ولا للصنقات ولا لخوف الله وإنما بشرى بجزاء الصبر فقط، وبالإضافة إلى ذلك فإن هذه الآية تخبرنا أن مقابلة السيئة بالحسنة أمر غاية في الأهمية بحيث أنه يذكر جانبنا إلى جانب مع فرائض مثل

الصلاة والزكاة وفي آية أخرى يتحدث عن بعض اليهود الذين أسلموا حديثاً وصبروا على إذاء قومهم لهم واعتراضهم عليهم:

"أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا ويدرءون بالحسنة السيئة ومما رزقناهم ينفقون وإذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه وقالوا لنا أعمالنا ولكم أعمالكم سلام عليكم لا نبتغي الجاهلين" (القصص: ٦).

وتأمل في جزء من هذه الآيات فهي لا تؤكد على مقابلة السيئة بالحسنة فقط، والعفو عنها وإنما تذكر الدعاء بالخير في حق هؤلاء الذين أساءوا.

وجاء في صحيح البخاري أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: ليس الذي يقابل الإحسان بالإحسان هو الذي يؤدي حق القرابة وإنما هو الذي يقابل السيئة بالحسنة^(١).

وذات مرة جاء أحد الصحابة وقال: يا رسول الله لي بعض الأقارب أعاملهم معاملة حسنة، لكنهم يسيئون معاملتي، أنا أحسن إليهم وهم يسيئون لي، أنا أعاملهم بحلم وتحمل، وهم يجهلون علي، فقال صلى الله عليه وسلم: لو كان الأمر كما تقول فإنك تملأ أفواههم بالتراب، بمعنى أنك تغلق أفواههم بلقمة الخير، وطالما أنت على هذا النهج سيكون الله في عونك^(٢).

يقول حذيفة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: لا تكونوا إمعة، إن أحسن الناس أن تحسنوا وإن أساء الناس أن تسيئوا، ولكن وطنوا أنفسكم إن أحسن الناس أن تحسنوا، وإن أساءوا أن لا تسيئوا^(٣).

^١ صحيح البخاري - نقلاً عن المشكاة - باب البر والصلة.

حدثنا محمد بن كثير: أخبرنا سفيان، عن الأعمش والحسن بن عمرو وفطر، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (ليس للواصل بالمكافئ، ولكن الواصل الذي إذا قطعت رحمه وصلها).

^٢ صحيح مسلم - نقلاً عن المشكاة - باب البر والصلة.

حدثني محمد بن المثنى ومحمد بن بشار، واللفظ لابن المثنى، قال: حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبة قال: سمعت العلاء بن عبد الرحمن يحدث، عن أبيه، عن أبي هريرة: أن رجلاً قال: يا رسول الله، إن لي قرابة، أصلهم ويقطعونني، وأحسن إليهم ويسيئون إلي، وأحلم عنهم ويجهلون علي، فقال: (لئن كنت كما قلت، فكأنما تسفهم المل، ولا يزال معك من الله ظهير عليهم، ما دمت على ذلك).

^٣ جامع الترمذي - كتاب البر والصلة - ٣٣٤.

حدثنا أبو هاشم الرقاعي محمد بن يزيد، حدثنا محمد بن فضيل عن الوليد بن عبد الله بن جميع عن أبي الطفيل عن حذيفة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: لا تكونوا إمعة تقولون إن أحسن

وقد قيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم فيما يتعلق بأولئك الذين كانوا يخدعون الإسلام والمسلمين، ويعدونهم كذبا ويورطونهم في معاهدات خائنة ومهادنات صلح مأكرة:

«وَلَا تَرَالِ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ» (المائدة: ٣).

وينبغي أن نتأمل كيف أن العفو عن هؤلاء الخائنين والصفح عن تقصيرهم يعد حسنة في الإسلام، والله يبشر من يفعل هذه الحسنة بحبه ورضاه، ويتضح من هذه التفاصيل كلها مدى أهمية تعاليم المصطفى صلى الله عليه وسلم وكمالها في هذه الخصوص .

معجزة اكتمال التعاليم الأخلاقية في الإسلام

إن التطور الذي يحدث في نظام الحكم في عهد المدنية والرقى ليس سببه أن التمدن يضيف جديدا إلى أصول القانون، وإنما سببه أنه يراعى عند تنفيذ القانون في نظام الحكومات المتمدينة تلك البنود المتسعة الشاملة التي تنتشر آثاره بحيث لا يخرج عنها شيء في الدنيا، بينما في عهد البربرية ينفذ القانون بشكل ساذج، ولا يراعى الأحوال والظروف التي تحيط به من كل الجهات، فقد عدت كل الحكومات السرقة جرما، وبهذا الاعتبار فإن الحكومات غير المتمدينة تتساوى تماما مع أكثر الحكومات تمدينا، ولكن هذا لا يكفي لاستئصال هذا الجرم تماما، وإنما يمكن استئصاله عندما يتم تجريم كل أولئك الذين يعينون الآخرين على السرقة، ويبحثون عن مواقع حدوث الجريمة، ويتاجرون في الأموال المسروقة، وما إلى ذلك. على أية حال في هذا الخصوص تتميز الحكومة المتمدينة على الحكومة غير المتمدينة وتتفوق عليها والسبب في ذلك أن التمدن يوسع القانون كثيرا بينما لا توجد هذه الوسعة ولا تلك الشمولية في نظام الحكومات غير المتمدين، وتلك الإضافة غير المحدودة والتي تحدث في الضروريات الإنسانية في عصر التمدن يكمن سرها في هذه الخصوصية .

الناس أحسنا وإن ظلموا ظلمنا ولكن وطنوا أنفسكم إن أحسن الناس أن تحسنوا وإن أساءوا فلا تظلموا.

التفصيل والشمولية :

الدين أيضا مملكة روحانية عظيمة،ويمكن الاستناد إلى المعايير التي نرجح من خلالها حكومة على أخرى في المقارنة والموازنة بين الأديان بعضها البعض،على سبيل المثال تشترك أغلبية أديان العالم في أصول الشريعة،وعلى نفس المنوال نجد الأديان كلها بشكل عام منعت كل الأشياء غير الجائزة والتي تخالف المصلحة العامة سواء في العقائد أو الأعمال أو العبادات أو المعاملات أو الأخلاق،وحدث بشكل عام على الأشياء الجائزة والتي تتفق مع المصلحة العامة ولكن كل هذا مع اختلاف في أسلوب الأمر والنهي وما تحيط به من جزئيات،وهذا هو ما جعل هناك فروقا في الأحكام والشرائع بين الأديان،وبناء على هذا فإنه كما يقال بأن قانون الحكومة الفلانية هو الأفضل،ومن خلاله نستطيع القضاء على كل السلبيات،وهو يحيط بكل التفاصيل والجزئيات،يمكن بنفس الطريقة أن نقول أن التعاليم الأخلاقية الفلانية هي الأفضل،ومن خلالها نستطيع أن نستقصي المفسدات جميعا،ويمكن أن نشرحها بسهولة ويسر للناس جميعا،وكل جزء فيها واضح بحيث لا مجال لأي سوء في الفهم،وأحد الأسباب التي ترجح الإسلام على باقي الأديان هي تفاصيل أحكامه وانضباطها وعموميتها،بمعنى أن الإسلام فصل مبادئه وأحكامه باتساع وشمولية بحيث أمكن الاستئصال الكلي للمفسدات،وعمت مظاهر الخير على عكس الأديان الأخرى والتي شرحت تلك الكليات شرحا إجماليا غير كامل.

فمثلا للتوحيد هو أصل الأصول لكل الأديان،ولكن لم يحدد دين من الأديان حقيقة ومظاهره،وعلى هذا دخل الشرك بصورة أو بأخرى في كل دين إلا الإسلام،فهو الدين الوحيد الذي حدد أسباب وعلل وعواقب ونتائج للشرك كلها واستئصالها كلية،فقد كان هناك طريقة رائجة للشرك هي عبادة الأوثان،وكانت الطريقة السهلة للقضاء عليه أن تدعي الأمم للتوحيد وأن تحطم كل أصنام العرب،لكن الإسلام لم يقتصر على هذه الطريقة السهلة البسيطة،وإنما حرم كل الأثماء التي تحيي هذه الأصنام من جديد،فالتصوير بشكل عام ليس شيئا سيئا،لكنه كان مظهرا عاما من مظاهر الوثنية ولهذا حرمه الإسلام،وهكذا الغلو والمبالغة في مدح أحد والثناء عليه،فإنه وإن كان من الأخلاق السيئة،إلا أنه مع ذلك يضيف إلى نفوذ وطاقة الأشخاص إضافة غير عادية،فإن أمكن الاستفادة منه في عمل طيب فهو أمر مفيد للغاية،وكان من الممكن للإسلام أن يوظفه لنشر الدعوة وترويجها،ولكن لأنه يرمي مبدأ تقديس الأشخاص والذي اتخذ شكل

الشرك عند الأمم القديمة لهذا حرمه رسول الله صلى الله عليه وسلم بشدة ممن على المنبر فقال: "لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم، فإنما أنا عبده، فقولوا عبد الله ورسوله" (البخاري-كتاب الأنبياء).

فهذا الحكم كلي، وقد ألزم به رسول الله صلى الله عليه وسلم المسلمين دائماً، وهكذا حدد الإسلام كل شوائب الشرك وقضى عليها، وهذا هو الحال مع العبادات أيضاً، فقد شرح الإسلام كل ركن فيها ووضحه بالتفصيل، وهو الحال كذلك مع التعليم الأخلاقي، وقد أحاط بكل جزئيات الأخلاق وعرفها لكل متبعيه، ولم يبق هناك أمر يحتاج إلى سؤال وجواب، وهذا هو معنى الإكمال و التتميم الذي كانت من أجله البعثة النبوية، وقد أكمل النبي صلى الله عليه وسلم الأخلاق من ثلاثة اعتبارات :

- ١- الإحاطة بالتعاليم الأخلاقية كلها.
 - ٢- الإحاطة بتفاصيل كل سيئة وحسنة.
 - ٣- تفصيل قسمي الأخلاق من القوة واللين والمسكنة وعلو الهمة وتحديد مواقعها.
- الإحاطة بالتعاليم الأخلاقية:

إن نظرة على فهرس التعاليم الأخلاقية لمعلمي الأخلاق اليهود والمسيحيين وغيرهم توضح السر في كيف أنه لم يستطع واحد منها الإحاطة بكل الأحوال والكيفيات الأخلاقية، وإنما كل ما فعله هو أنه أعد قائمة بالإصلاحات الأخلاقية في ضوء أحوال وظروف عصره ومتبعيه، ثم اهتم بعدة مبادئ فقط وأبرزها في كل مكان من تعاليمه، فكانت الأهمية الكبرى في صحيفة سيدنا موسى عليه السلام للأحكام العشرة، يعني تلك الأحكام العشرة التي نزلت على بني إسرائيل في حوض جبل سيناء، وأول حكم من هذه الأحكام العشرة هو التوحيد، والثاني هو منع التصوير وصناعة التماثيل، والثالث كراهية الحلف كذباً باسم الله، والرابع الاستراحة يوم السبت، أما الأحكام الستة الباقية فهي على التوالي كما يلي (انظر الخروج - باب ٢٠) :

- ١- أن تكرم والديك .
- ٢- أن لا تقبل .
- ٣- أن لا تزني .
- ٤- أن لا تسرق .
- ٥- أن لا تشهد زوراً على جارك .

٦- أن لا تطمع في زوجة جارك ولا في غلامه أو أمته ولا في ثوره أو حماره، ولا في أي شيء يمتلكه .

وهذه في الحقيقة هي أبجد الدرس الأخلاقي، ثم جاءت بعد ذلك في سفر الخروج باب ٢٢ وباب ٢٣ عدة أمور جنبا إلى جنب مع الأحكام القانونية، يعني حسن معاملـة المسافرين والأرملة واليتيم، والمنع من شهادة الزور، ثم جاء تفصيل هذه الأحكام في سفر الأحبار- باب ١٩ كالتالي:

- ١- أن يظل كل منكم يخشى أمه وأباه .
- ٢- أن لا تسرقوا، ولا تكذبوا في أموركم، ولا يكذب أحد على أحد .
- ٣- أن لا تحلفوا كذبا بي .
- ٤- أن لا تخذعوا جارك، ولا تسلبوه شيئا، وأن تعطوا الأجير أجره، وأن لا تبقى أجرته حتى الصباح.
- ٥- أن لا تنهروا الأصم، وأن لا تضعوا في طريق العميان ما يتعثروا فيه .
- ٦- أن تعدلوا في حكمكم، وأن تعدلوا بين إخوانكم دون تفرقة بين فقير وغني.
- ٧- أن لا تعيش بين بني جلدتك باحثا عن عيوبهم، وأن لا تصر على قتل أخيك .
- ٨- أن لا تكن لأخيك بغضا وكرامية .
- ٩- أن لا تنتقم من أبناء بني جلدتك ولا تحقد عليهم .
- ١٠- أن تقف احتراما أمام من شاب شعره، وأن تحترم للشيوخ والكهول .
- ١١- إذا سكن مسافر معك في أرضك فلا تظلمه، وإنما عليك أن تعتبره وكأنه ولد معك وأحبه كما تحب نفسك .
- ١٢- عليك بالعدل في الحكم والكيل والوزن .

الأحكام الأخلاقية في الإنجيل:

ولم يحط الإنجيل التعاليم الأخلاقية فقط ، بل ولم يفصلها أيضا، فلقد كان الهدف من بعثة سيدنا عيسى عليه السلام في الحقيقة هو دعوة بني إسرائيل إلى التخلي عن الحرفيات والالتزام بالظاهر والتمسك بالروح والمعنى، وهذه الحقيقة تبدو في الأخلاق مثلما تبدو كذلك في الأحكام، وقد كان التجديد والإصلاح الأخلاقي لسيدنا عيسى عليه السلام هو أن يجمع التعاليم الأخلاقية السامية الخالصة المنتشرة والمتفرقة في تـوراة سيدنا موسى وزبور سيدنا داود، وأمثال سيدنا سليمان والصحف الإسرائيلية الأخرى في

وعظه الشهير ويقدمها له، وقد جاءت الأمور التالية في الوعظ الأخلاقي المشهور بالترتيب كالتالي: فقر القلب، الحزن، التحمل، والتسامح، الصدق، الشفقة، العفة، المسالمة، الصبر، العفو، الطهارة، منع الحلف، عدم مواجهة الظالم، العفو عن الدين، محبة الأعداء، منع الرياء، التوكل، عدم اتهام الآخرين، وأن تعامل الآخرين بما تحب أن يعاملوك به .

وأغلب هذه التعاليم الأخلاقية التي جاءت في الإنجيل بهذه الألفاظ مذكورة في مختلف صحف بني إسرائيل، وكان المقصود من جمع هذه التعاليم الأخلاقية بصفة خاصة وتقديمها إلى بني إسرائيل أن يقيم التوازن الأخلاقي بينهم، وأن يبرز لهم الروح الأصلي والمعنى الحقيقي لمسمى الأخلاق و لفظ الشريعة .

استقصاء الأحكام الأخلاقية في الإسلام:

إن بعثة محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم ليست محدودة بزمن أو مقتضوة على قوم بعينه، ولهذا فإن صحيفة التعليم الأخلاقية التي نزلت عليه صلى الله عليه وسلم لم تكن محصورة في إصلاح شعب أو زمن بعينه، وإنما شملت الأمم كلها والعصور جميعاً، ولهذا فقد استقصت هذه التعاليم كل السلبات الموجودة في الأمم كلها والعصور جميعاً، وكذلك السلبات التي يمكن أن تظهر فيما بعدهم، حرماً ومنعاً، وبنفوس الطريقة وضحت بشكل كامل كل المحاسن الأخلاقية وأكدت على اكتسابها، ولقد استقصى الوحي المبارك لسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم جزئيات وتفصيل كل السلبات التي منعها الصحف السابقة، وكذلك كل المكارم التي أمرت بها، وألقى عليها الضوء الذي يجعلها في غاية الوضوح، وفيما يلي نورد قائمة مجملة لتلك التعاليم الأخلاقية والتي أمر بها القرآن الكريم أو منع منها:

قائمة الأخلاق القرآنية:

قول الصدق، بوم الكذب، بوم العلم بغير عمل، بوم العفو والتسامح عموماً، بوم التوكل، بوم الصبر والشكر والاستقامة على الحق والتضحية بالروح في سبيل الحق والأمر بالجد والتصدق، بوم البخل، بوم المنع من الإسراف والتبذير، والتأكيد على الاعتدال، والإحسان إلى الأعداء والأقرباء واليتامى والمساكين والجيران، ومساعدة الفقراء والسائلين وعابري السبيل، والإحسان إلى الأسرى والعبيد، بوم التفاخر والغرور، بوم الحث على الأمانة والوفاء بالوعد والالتزام بالعهد وتنفيذ المعاهدات، وبوم الحث

على الصدقة والتصدق والخير والعمل للصالح، يوثق المحبة بين الناس، وعدم ذم الناس ومضايقتهم، وعدم ذكر الآخرين بما لا يحبون من أسماء، وخدمة الوالدين وطاعتهم، والدعاء للزائرين بالخير والسلامة، وقول الحق والعدل والشهادة الحقة وعدم كتمان الشهادة، وتأثير الشهادة على إحساس القلب بالذنب، واللين في الحديث، وعدم الفخر والتكبر، والمسالمة والتصالح والاتحاد والاتفاق والأخوة الإيمانية، والأخوة الإنسانية، والأكل الحلال وكسب للقوت، والمنع من قتل الأولاد وقتل الآخرين بغير حق، وكفالة اليتيم والمحافظة على ممتلكاته بحسن نية، وعدم للتطيف في الكيل والميزان، وعدم إثارة الفتنة والفساد، والمنع من الحديث للمجاهر بالذنب، وتحريم الزنا وغض البصر، وعدم دخول بيوت الآخرين بغير إذن منهم، والحث على الستر والحجاب، وشم الخيانة ومحاسبة العين والأذن والقلب، والعمل الصالح والإعراض عن اللغو، ومراعاة الأمانة والعهد، والحث على الإيثار والتحمل والعفو عن الآخرين والعفو عن الأعداء، ومقابلة السيئة بالحسنة، وشم الغضب، ومراعاة التأدب في مخاطبة المعارضين وأثناء حوارنا مع الآخرين، وعدم الإساءة إلى آلهة المشركين، والعدل والإنصاف في الحكم، والإنصاف مع الأعداء، وعدم المن على الناس بالصدقات، والتفكير من الفسق والفجور، والمنع من السرقة والنهب وقطع الطريق واغتصاب مال الآخرين، والحث على تقوى القلب والعفة، وشم التفاجر بهذه العفة، والوقار أثناء السير وحسن الأخلاق في المجالس، والإحسان إلى الضعفاء والسيدات، وطاعة للزوج، وأداء حق الزوجة، وعدم الحلف بغير حاجة، ومنع للغيبة والنميمة والقنف، والحث على طهارة الجسم والروح والملابس وستر العورات، وعدم نهر السائل، وعدم قهر اليتيم، والتحدث بنعمة الله وعدم الاغتياب، وعدم سوء الظن، والرحمة بالجميع، والنفور من الرياء والتظاهر، والحث على الإقراض الحسن، والعفو عن الدين والمنع من الريا والرشوة، والحث على الثبات والاستقلال والشجاعة، وعدم الإibar أثناء المعارك والمنع من شرب الخمر ولعب القمار، والحث على إطعام الجائع، وتجنب عدم الحياء في الظاهر والباطن والعمل الصالح بغير غرض شخصي، وعدم حب المال والثروة والمنع من الظلم، وعدم الإعراض عن الناس وتجنب الذنب، ومراعاة حق كل فرد على الآخر، والصدق والأمانة في المعاملات.

قائمة أخلاقيات الأحاديث النبوية:

كانت هذه هي التعاليم القرآنية، وهناك كم هائل من الأخلاقيات التي وردت في أقوال الرسول صلى الله عليه وسلم، وقد جاء تفسيرها وشرحها في الأحاديث، وقد بلغت من الكثرة بحيث أنها جاءت في مائة وسبعة وثمانين صفحة من القطع الكبير المكتوب بخط صغير في كتاب (كنز العمال) الذي يعتبر أكثر كتاب جمع لأحاديث متنوعة، وفي كل صفحة من هذه الصفحات سبعة وثلاثون سطرا، وبلغت ثلاثة آلاف وتسع مائة وستة حديث مقسمة تحت مائتين وخمسين عنوانا مختلفا تقريبا، وبعضها وإن كان مكررا إلا أننا من خلالها نعرف أنه لا يوجد جزء من أحوال وكميات الإنسان الأخلاقية والنفسية لم تشملها تعاليم داعي الإسلام سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، أو لم يكن في اعتبار أعظم معلمي الأخلاق وآخرهم في العالم صلى الله عليه وسلم، وفيما يلي ندرج تلك العناوين من التعاليم الأخلاقية للنبي صلى الله عليه وسلم والتي وردت في صحيح البخاري وسنن أبي داود وجامع الترمذي:

صلة الرحم، والبر بالوالدين، وحب الأطفال، والرحمة بالصغار واحترام الكبار، واعتبار أخيك مثلك، والإحسان إلى الجار، والإحسان إلى الخدم والعبيد، والعفو عن أخطائهم، وتربية الأهل والأولاد، والسؤال عن اليتامى والأرامل، ومساعدة المحتاجين، ومساعدة العميان، والتعاطف مع الإنسان بعامة، والإحسان إلى المدنيين، والاستماع إلى استغاثته من يستغيث، ونفع البشر، وحب الخير للمسلمين والرحمة بالحيوان، وشكر المحسنين، وحق المسلم على أخيه المسلم، وعبادة المرضى وخدمتهم، والمنع من الحسد، والمنع من الشتمات في مصائب الآخرين، والحث على الشجاعة وعدم الهروب من ميدان الحرب، وطاعة الإمام والأمير، والمواظبة على العمل، والحث على الكسب من عمل اليد، والكلمة الطيبة، والأخلاق الحسنة، وتجنب سلطة اللسان، والحث على كرم الضيافة، والحياء والحلم والوقار، وضبط النفس في الغضب، والعفو والتسامح والصبر والتحمل، ونوم التواضع والحسب والنسب، ونوم سوء الظن، وعدم دخول بيوت الآخرين بغير إذن منهم، وعدم تدقيق النظر في حالة دخول بيوت الآخرين، والدعاء للأخ يظهر الغيب، والرفق واللين والقناعة والاستغناء، ومنع التسول، وعدم المجاهر بالذنب، ومستر عيوب الآخرين، ومنع الاعتيايب، ونوم القذف واتهام الآخرين، ومنع الغيبة والبغض والحقده، وعدم النميمة، والحفاظ على السر

والتواضع، والأمانة ومنع السب والشتم، ومنع المدح والثناء في وجه من نمح به، ومنع لعن الآخرين، ومنع البخل، ومنع اللغو من الحديث، ومنع للتبذير، ومنع الغرور والتكبر والحث على المواساة والتعاطف والتوكل، ومنع الطمع، والحث على الرضا بالقضاء، ومنع لعب القمار والحث على الصدق ومنع للكذب، ومنع شهادة الزور، ومنع إثارة الفساد والفتن، والحث على الصلح، وألا يهجر للمسلم أخاه لأكثر من ثلاثة أيام، ومنع النفاق والازدواجية ومن التحايل، والمنع من خلف للوعد، ومنع الخيانة والخداع، والمنع من شرب الخمر والزنا والسرقة، والحث على الطهارة والنظافة، والحث على السلام على الأصديق والأحباب أثناء لقاءهم وتحيتهم ومصافحتهم ومعانفتهم وغيرها من آداب اللقاء، ومراعاة آداب المجالس وآداب الطعام وآداب اللباس وآداب الجلوس والقيام وآداب البيت وآداب النوم واليقظة، والأحكام الخاصة بالآداب والأخلاقيات المتعلقة بالسيدات.

ويمكننا قياسا على هذه التفصيلات كلها أن نعرف مدى الثروة العظيمة من الأخلاقيات والتي أعطيت للإنسان بوسيلة النبي صلى الله عليه وسلم .

استقصاء الجزئيات الأخلاقية:

إن الإنسان يميل إلى اختلاق الأعذار والتحايل، ولا تكفيه المبادئ الكلية للأخلاقيات، إذ سيجأ إلى التحايل على الأنفاظ والاكتفاء ببعض الأمور التقليدية الحرفية في الأخلاق، وإنما بدا له من استقصاء كل تفاصيل الأخلاق الطيبة والأخلاقيات السيئة، وتوضيحها أمامه تماما، وشرح مكانها وأعماقها، وأن يتم إرشاده إلى وسائل وطرق الوصول إليها، وتصدر له أحكام صريحة بهذا الخصوص، وقد راعت التعاليم الأخلاقية للنبي صلى الله عليه وسلم هذه الأمور بشكل كامل، ويكفينا شرحا لذلك ذكر مثالين لكل من الأمر والنهي.

فالتصدق والإحسان يعد في كل الأديان أكبر أعمال للثواب، ولكن التوراة حصرتها في العشر والزكاة، وما عدا ذلك لا نجد نكرا فيها لأي صفات أخرى، وقد استحسن الإنجيل التصديق بكل ما يملك الشخص على الآخرين حتى يصير هو نفسه محتاجا، بينما جمعت تعاليم النبي صلى الله عليه وسلم بين الاثنين، وفصلت كل جزء فيها، فلم يكن واضحا في التوراة ما هي كمية المحاصيل وللغلال أو للذهب والفضة والتي تفرض على مالكة الزكاة أو العشر، بينما حددت الشريعة المحمدية مقدارها وعددها ووقتها بشكل كامل، فعين الأجناس التي يجب فيها للعشر أو للزكاة، وحددت الطريقة التي يتم

تحصيلها بها، كما شرحت مصارفها وأوجه إنفاقها، ولم تأمر بأن ينفق الشخص كل ما يملك في سبيل الله حتى يفلس، وإنما قالت :

"يسألونك ماذا ينفقون قل العفو" (البقرة : ٢٧) .

لكنها مع ذلك أكدت من الناحية الأخلاقية على أن تتحكم في احتياجاتنا ونضغط على أنفسنا حتى نلبي حاجات الآخرين، فإذا فعلنا فإن ذلك من كمال خلقنا، وقد مدح الله تعالى الأنصار الذين تحملوا عبء إخوانهم المهاجرين قائلا:

"يؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة" (الحشر : ١) .

ومدح الصحابة قائلا:

"يطعمون الطعام على حبه مسكينا ويتيما وأسيرا" (الإنسان : ١) .

والقرآن الكريم ملئ بالحث على الإنفاق في سبيل الله، وأكثر الناس يقدمون إلى الآخرين في سبيل الله الأشياء الناقصة غير الجيدة والتي لا قيمة لها، وقد منع القرآن الكريم من هذا، فإن هذا يظهر نداء النفس وخبثها بدلا من تركيتها وتطهيرها والذي هو الهدف من هذه الصدقات، قال تعالى: "لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون، وما تنفقوا من شيء فإن الله به عليم" (آل عمران: ١) .

ثم قال: "يا أيها الذين آمنوا أنفقوا من طيبات ما كسبتم، وما أخرجنا لكم من الأرض، ولا تيمموا الخبيث منه تنفقون ولستم بأخذيه إلا أن تغمضوا فيه، واعلموا أن الله غني حميد" (البقرة: ٢٧) .

وتأمل في بلاغة نهاية هذه الآية الكريمة إذ قال الله عن نفسه أنه (غني حميد)، أي أنه أرشد عباده إلى التصديق بأفضل ما لهم، وليس هذا لأن الله تعالى والعياذ بالله يحتاج إلى أفضل مال عباده، إذ أنه غني عن كل ما يملكون، وإنما السبب في هذا هو أنه صاحب الصفات للحسنة، ولهذا فإنه يقبل الشيء الحسن ثم يقول بأن أول من يحتاج إلى مساعدتك هم أولئك الذين عليك فرض كفالتهم، من الأهل و العيال والأعزاء والأقارب والتابعين ثم المحتاجين والمساكين واليتامى وأبناء السبيل:

"يسألونك ماذا ينفقون قل ما أنفقتم من خير فقلو للدين والأقربين واليتامى والمساكين، وابن السبيل وما تفعلوا من خير فإن الله به عليم" (البقرة : ٢٦) .

فإذا لم يكن لأحد شيء فهل يتصدق ؟؟ ذات مرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: تجب الصدقة على كل مسلم فقال الناس فإن لم يستطع، قال: يعمل ويأكل بعض

أجره ويطعم المحتاجين البعض الآخر فقال الصحابة: فإن لم يكن يستطيع العمل قال: يعين المنكوبين والمحتاجين جسمانياً وإن لم يستطيع هذا أيضاً فليبتعد عن السوء فإن هذا له صدقة (١) .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم في مكان آخر: "الكلمة الطيبة صدقة والمنع من السيئة صدقة وإرشاد المسافر وضال للطريق صدقة وإعانة الأعمى صدقة وإمالة الأحبار والأشوك والعظام عن الطريق صدقة وإن تصب من دلوك في دلو أخيك صدقة" (٢) ولتأمل كم يتسع معنى للصدقة والإحسان .

وعليك أن لا تمن على أحد بإحسانك إليه ولا تذكره به ولا تطلب منه شكراً عليه ولا تقصد بإحسانك الرياء والتظاهر، وإلا فإن ذلك يبطل للصدقة وقد أخبر الوحي سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم بهذا الأمر الثاني فقال تعالى: "ولا تمنن تستكثر" (المنثر: ١) . وأكد على عامة المسلمين قائلاً:

"يا أيها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم باليمن والأذى كالذي ينفق ماله رياء الناس ولا يؤمن بالله واليوم الآخر" (البقرة: ٢٦٦) .

ثم قال بأن الحسنة البسيطة أفضل من مثل هذه الصدقات :

"قول معروف ومغفرة خير من صدقة يتبعها أذى والله غني حميد" (البقرة: ٢٦٦) . ولكن تجنب نفسك الرياء والتظاهر على بالتصدق سرا فإن قصدت إلى حث الناس وترغيبهم على بذل الصدقات فيمكنك عندئذ أن تتصدق جهراً:

^١ أدب المفرد للإمام البخاري - باب إن كل معروف صدقة - ٤٦٦ - مسمر: حدثنا آدم بن أبي إياس قال: حدثنا شعبة قال: حدثني سعيد بن أبي بردة بن أبي موسى عن أبيه، عن جده، قال النبي صلى الله عليه وسلم: على كل مسلم صدقة قالوا: فإن لم يجد؟ قال: فيحتل يديه فيبغ نفسه ويتصدق قالوا: فإن لم يستطع أو لم يفعل؟ قال: فيعين ذا الحاجة الملهوف قالوا: فإن لم يفعل؟ قال: فيأمر بالخير، أو يأمر بالمعروف قالوا: فإن لم يفعل؟ قال: فيمك عن الشر، فإنه له صدقة.

^٢ جامع الترمذي - أبواب البر والصلة، باب صانع المعروف .

حدثنا عباس بن عبد العظيم العنبري: حدثنا التضر بن محمد الجرشي اليمامي: حدثنا عكرمة بن عمار حدثنا أبو زميل عن مالك بن مرثد عن أبيه عن أبي نر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: تبسمك في وجه أخيك لك صدقة، ولأمرك بالمعروف ونهيك عن المنكر صدقة، وإرشادك الرجل في أرض الضلال لك صدقة، وبصرك للرجل الرديء البصر لك صدقة، وإمطتك الحجر والشوك والعظم عن الطريق لك صدقة، وإفراغك من دلوك في دلو أخيك لك صدقة.

"إن تبدوا الصدقات فنعما هي، وإن تخفوها وتؤتوها الفقراء فهو خير لكم، ويكفر عنكم سيئاتكم والله بما تعملون خبير" (البقرة : ٣٧) .

"الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار سرا وعلانية فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون" .

ويجب أن تبدل الصدقات عن رضى وطيب خاطر، وألا تكون بالجبر والإكراه، فإن ذلك علامة النفاق: "ولا ينفقون ألا وهم كارهون" (التوبة : ٧) .

ويجب أن تكون الصدقات عن قلب مطمئن ولوجه الله فقط :

"ومثل الذين ينفقون أموالهم لابتغاء مرضاة الله وتثبيتا من أنفسهم كمثل جنة بربوة ..."
الآية (البقرة : ٣٦) .

بل أكثر من ذلك أن يجب أن يقصد بالصدقات ذات الله تعالى :

"وما تنفقوا إلا ابتغاء وجه الله وما تنفقوا من خير يوف إليكم وأنتم لا تظلمون" (البقرة : ٣٧) .

ومن التفصيلات السابقة نتبين إلى أي مدى أحاط الإسلام بهذه التعاليم .

الإحاطة بالجزئيات في تحريم المسكرات:

وهذه الوسعة والشمولية تتضح بشكل أكبر في الأحكام، على سبيل المثال لم تحرم الألبان كلها المسكرات بشكل واضح، لكن دينا منها لم يستحسنها، والإسلام هو أول دين نفذ في أمرها حكما قطعيا ونهائيا، وقضى بذلك على كل جوانب الشك والتذبذب، ومع أن بعض المستقيمين قبل الإسلام تخلوا عن شرب الخمر، لكن هذه الحرمة كانت مقصورة على الأشخاص فقط، ولا يمكن بهذه الطريقة حفظ المجتمع من مخاطرها، بل إن الأشخاص أنفسهم لا يكونون في مأمن كامل من هذه المخاطر، على سبيل المثال شخص ما لا يشرب الخمر، لكنه يتاجر فيها، وشخص آخر يتجنب هذين الشيئين، لكنه يستخدم الأواني التي يصب فيها الخمر أو يصنع فيها، بينما حرم الإسلام الخمر بشكل جامع بحيث لو تم تنفيذ الحكم كاملا لم يتصور أحدا أن يشرب الخمر :

"قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: لعن الله الخمر وشاربها وساقيتها وبائعها ومبتاعها وعاصرها ومعتصرها وحاملها والمحمولة إليه" .

وأكبر فرض عن القانون المذهب أن يعرف منطقيا بالشيء الذي يمنع الناس من فعله، فلقد كان الخمر عند العرب يصنع من أشياء مختلفة وكانت له أسماء عديدة، وكانت

آثاره أيضا مختلفة، وقد استعملت الآية القرآنية التي نزلت في تحريم شرب الخمر لفظ (الخمر)، ولهذا كان من الضروري تحديد معنى وحقيقة الخمر، وهكذا حدها رسول الله صلى الله عليه وسلم كما يلي :

" قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إن من العنب خمر، وإن من التمر خمر، وإن من العسل خمر، وإن من البر خمر، وإن من الشعير خمر " .

" قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: إن الخمر من العصير والزبيب والتمر والحنطة والشعير والذرة، وإنني أنهاكم عن كل مسكر " .

وقد كان الخمر يصنع في بلاد العرب المختلفة من هذه الأشياء، ولهذا فإن هذا التعريف يحيط بكل أنواع الخمر عند العرب، ولكن لأن الإسلام دين عالمي، ومن الممكن أن تكون هناك أنواع أخرى من الخمر تستخدم في أماكن أخرى من العالم ولم يشملها التحديد، لهذا عرف رسول الله صلى الله عليه وسلم الخمر تعريفاً كلياً يشمل كل أقسام الشراب فقال: " كل مسكر خمر، وكل مسكر حرام " .

" كل شراب أسكر فهو حرام " .

ومع ذلك فقد بقيت هناك ثغرة للذين يحتالون على الأمور، فإن السكر هو السبب الأساسي الذي حرم من أجله الخمر، ولكن من الممكن أن يستعمل الخمر بقدر قليل بحيث لا يسكر، ولهذا قال صلى الله عليه وسلم: " ما أسكر كثيره فقليله حرام " .

وهناك بعض الأشياء لا تسكر، لكنها تؤدي إلى حالة من تخدير الأعصاب، وهي بمثابة مقدمات للسكر مثل الأفيون وغيره، وكثيرون من الذين يحتالون على الأمور في عصر التمدن يستعملون هذه الأنواع، ولهذا منعها رسول الله صلى الله عليه وسلم:

" نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن كل مسكر ومفتر " .

ومع ذلك فإنه بعد هذا التفصيل هناك إمكان بأن يستعمل الناس الأشياء المسكرة والتي لا يطلق عليها عرفاً مسمى الخمر، وكان عند العرب شيء كهذا يطلقون عليه (داوي)، ولهذا أدخله رسول الله صلى الله عليه وسلم في الخمر فقال :

" يشرب ناس من أمتي الخمر يسمونها بغير اسمها " .

وبالإضافة إلى ذلك جاء المنع في البداية على تلك الأواني التي كان العرب يستعملونها في صب الخمر وصناعتها: " نهى عن الدباء والحنتم والمزفت والنقير " .

ولكن لأن هذا كان نوعا من الشدة فقد نسخ رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا الحكم في النهاية ولم يبق سوى صورتان فقط لاستعمال الخمر، أولها أن تغيير حقيقته، والثانية أن يستعمل في حالة للضرورة القصوى، ومع ذلك فقد منع الرسول صلى الله عليه وسلم للخمر في هاتين الصورتين أيضا، وقد ورث بعض الأطفال اليتامى خمرًا، وبعد تحريمه لم يعد لهذا الميراث قيمة، فسأل سيدنا أبو طلحة رضي الله عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يسمح بأن يصنع منه خل، ولكن الرسول صلى الله عليه وسلم لم يسمح بذلك (١) .

وذات مرة قال ديلم الحميري لرسول الله صلى الله عليه وسلم إننا نعيش في بلاد باردة ونقوم بأعمال صعبة وقاسية، ولهذا نشرب شراب الشعير حتى نتحمل قسوة البرد والعمل، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أهو مسكر؟ فقال: نعم، فقال صلى الله عليه وسلم: فاتركه، فقال: لكن الناس لا يتركونه، فقال صلى الله عليه وسلم: فإن لم يتركوه فجاهدوهم (٢) .

وقد منعت التوراة قبل الإسلام بني إسرائيل من أخذ الربا من بني جلدتهم، كما منعها الإنجيل كذلك، ولكن هذا المنع مجمل، بينما عندما حرم الإسلام الربا بين حقيقة الربا وأقسامه وأيهما يجوز، وفصل كل ذلك ثم منع الأمور المتشابهة والمعاملات الناقصة كذلك، وعد الذي يشارك في هذا الجرم بأي شكل من الأشكال مجرماً :
 "لعن رسول الله صلى الله عليه وسلم أكل الربا وموكله وشاهده و كاتبه" .

الاستقصاء في تحريم الرشوة:

"لعن رسول الله صلى الله عليه وسلم الراشي والمرشئي". وهناك تفصيل مثل هذا واستقصاء واحاطة بكل الجزئيات في التعاليم الأخلاقية الأخرى في الإسلام، لأن

^١ - أبو داود - الجزء الثاني - ص ٨٠ - كتاب الأشربة، وهناك اختلاف بين الفقهاء في جواز صناعة هذا الخل من عدمه .

حدثنا زهير بن حرب، قال: ثنا وكيع، عن سفيان، عن السدي، عن أبي هبيرة، عن أنس بن مالك أن أبا طلحة سأل النبي صلى الله عليه وسلم عن أيتام ورثوا خمرًا قال: أهرقها قال: أفلا أجعلها خلا؟ قال: لا .

^٢ أبو داود - الجزء الثاني - ص ٨٠ - كتاب الأشربة .

حدثنا هناد بن السري، ثنا عدة، عن محمد يعني ابن إسحاق، عن يزيد بن أبي حبيب، عن مرثد بن عبد الله اليزني، عن ديلم الحميري قال: سألت النبي صلى الله عليه وسلم فقلت: يا رسول الله، إنا بارض باردة نعالج فيها عملاً شديداً، وإنا نتخذ شرايا من هذا القمح نتقوى به على أعمالنا وعلى برد بلادنا قال: هل يسكر؟ قلت: نعم، قال: فاجتنبوه قال: فقلت: فإن الناس غير تاركيه، قال: فإن لم يتركوه فقاتلوهم .

الشيء الذي يروج بشكل كبير إذا لم يتم القضاء على صورته المختلفة فإنه لا يمكن التخلص منه مطلقاً .

ضعف الأخلاق المسيحية:

لقد خلقت فلسفة الأخلاق المسيحية سوء فهم كبير في العالم وهي أنها حصرت الأخلاق في الانفعالات بمعنى أنها أعطت التواضع والمسكنة والعجز والمهانة والتحمل وغيرها درجة الأخلاق ثم حطت من شأن القوى للمقابلة لكل هذا في حين أن الحفاظ على أمن وسلامة العالم ورفاهيته يحتاج إلى المزج المناسب بين النوعين معاً ففي الوقت الذي يكون فيه التواضع ضرورة تكون عزة النفس في موقع ضرورة أيضاً وكما أن العفو والتصفح من سمات الهممة العالية فإن الحاجة ملحة أيضاً للعدل والقصاص القانوني، وإذا كانت مثل هذه الأخلاقيات المحكومة ضرورة للنوعين فإنه لا بد أن تظلي الأخلاقيات الحاكمة داخل الأمة أيضاً حتى يظل ميزان العدل قائماً.

اعتراض نيتشه على الأخلاق المسيحية:

وقد اعترض الفيلسوف الألماني نيتشه على الأخلاق المسيحية بدواع وبذون داع، وقد وصف بعض التعاليم الأخلاقية المسيحية بأنها وصمة عار على جبين الإنسانية لأنها تعلم الضعف والعجز والمهانة والمسكنة وبالتالي لا تخلق في الناس جوهر العزم والهممة العالية والاستقلال وثبات القدم وعزة النفس . يقول نيتشه :
لقد وفقت المسيحية دائماً في صف الأشياء الضعيفة للمنحطة المهترئة، واتخذت من استئصال قوى الاعتزاز في الطبائع الإنسانية مسلكاً لها، لقد قضت المسيحية على العقول الجبارة^(١).

اعتدال الأخلاق الإسلامية:

لكن لم يعرف أنه بعد مرور ٥٧٥ عاماً على المسيح جاء نبي آخر الزمان وصحح أخطاء النظام الأخلاقي في المسيحية، وجاء بنظام معتدل للأخلاق الإنسانية يناسب كل فرد وكل شعب وكل زمان، وكان أثر هذا أنه لم تكد تمضي عشر سنوات على هذا النظام حتى أخذ المحكومون مكان الحكام والمترجع مكان المتقدم والأنسى مكان الأعلى والتخلف مكان للتطور، وهو ما لم تحقق منه المسيحية شيئاً إلى أن قبلت المبادئ الإسلامية باسم التطوير والإصلاح .

^١ إم . اى . مكى - نيتشه - ترجمة مولوي سيد مظفر الدين ندوي - الباب الثالث .

اختلاف الاستعداد بين النفوس:

إن التعاليم الأخلاقية ليست طبا تعالج وصفة منه الأمراض الداخلية لدى كل مريض، إذ إن الأحوال الداخلية والاستعداد الأخلاقي والقوى النفسية لدى البشر جميعا ليست متساوية، ففيهم الهزيل ضعيف الهمة المترجع، وفيهم القوي عالي الهمة والعزم أيضا، وفيهم المتواضع وفيهم المغرور للمعتر بنفسه، وفيهم الجبان وفيهم الشجاع، وفيهم المتحمل الصبور وفيهم الغضوب، وفيهم البخيل وفيهم المبذر، وفيهم المتسول وفيهم الكريم، وفيهم اللئيم والذي يملؤه الأمل، وفيهم ضعيف الإرادة وفيهم قوي القلب، وفيهم الظالم القاسي والذليل المحتقر، المهم أن هناك تفاوتاً كبيراً بين الأمراض ودرجاتها بحيث لا يفيد معها دواء واحد للجميع، وأفضل المعالجين الأخلاقيين هو الذي يعد وصفاته طبقاً لكل شخص، ولكل شعب، ولكل زمان، ويملك القدرة على شفاء الأمراض المختلفة .

إصلاح كل شخص حسب الحاجة:

إن مبادئ التعاليم الأخلاقية الصحيحة والتربية هي خلق الاعتدال في القوى لدى الشخص أو الأمة، فيقل ما كان منها كثيراً ويزيد ما كان منها قليلاً، فيجعل من الضعيف شجاعاً ومن الشجاع عادلاً ومن ضعيف الهمة قوي الهمة، ومن قوي الهمة من لا يغضب حقوق الآخرين، ويجعل من اللئيم مؤملاً، وفيهم هذا بدوره أن كل ما يحصل عليه هو من الله تعالى، فيمنح القانع الإرادة العالية، وفيهم الحريص أن لا يطلب من الناس وإنما يطلب من الله تعالى، وأن يجعل من الذليل المحتقر معترًا بنفسه، ويجعل من المعتر شخصاً غير مغرور، إنه يطور القوى الجيدة، ويوجه القوى السيئة إلى المقاصد الحسنة فيقلل من سوءها .

إن المطلع على الفلسفة القديمة للأخلاق يعرف أن أساس كل الأخلاق لدى الإنسان على قوتين اثنتين هما قوة الغضب وقوة الشهوة، فالغضب اسم لقوة الدفاع عن الأمور المناسبة التي تعرض للنفس، بينما الشهوة اسم لقوة الطلب والحصول على الأمور المناسبة للنفس، وينتج عن الإفراط والتفريط والاعتدال ومراتبه المختلفة في هاتين القوتين تفاصيل أخلاقية عديدة حسنة وسيئة، ولكل واحدة منهما اسم مستقل، فإذا برئت قوة الغضب من الإفراط والتفريط وظلت تحت سيطرة العقل فإن اسمها يكون الشجاعة، وتظهر في أشكال عديدة مختلفة باعتبار الحالات والكيفيات، مثلاً عزة النفس، والشجاعة وقول الحق والهمة العالية، والتحمل والاستقلال وثبات القدم والوقار

والصبر والسكون والمطالبة بالحق والجد والاجتهاد والسعي والعمل والجهاد، فإذا ما ابتعدت هذه القوة عن الاعتدال وجنحت إلى الإفراط تصير تهورا، وتولد عنها ترتيبا الغرور، والترجسية والتكبر وتحقير الآخرين ولظلم وقتل النفس وغيرها من الأمراض والسلبيات، وإذا جنحت هذه القوة إلى التفريط نتج عنها الذلل وتثبيط الهممة والضعف والخوف والدناءة، وهكذا فيما يتعلق بالشهوة، فإذا ما اتسمت بالاعتدال سميت عفوا، وهذه الصفة تأخذ أشكالا مختلفة ويطلق عليها أسماء مختلفة يعني العفة والطهارة والتقوى والجود والكرم والخجل والحياء والصبر والشكر والقناعة وعدم الطمع وجمال الطبع والرغبة في التقدم، وأمنية الأولاد والذرية، والبحث المناسب عن السعادة في البيت وغيرها، فإذا ما جنحت هذه الصفة نحو الإفراط أو التفريط نتج عنها الحرص والطمع وعدم الحياء والتبذير والبخل والرياء والغلظة والتملق والحسد وغيرها من الصفات الذميمة .

الفرق بين الأخلاقيات الإسلامية والأخلاقيات المسيحية:

إن هدف التعاليم المسيحية هو استئصال كل من قوة الغضب وقوة الشهوة لدى الإنسان، بينما تهدف التعاليم الإسلامية إلى إبعاد الإفراط والتفريط عن هاتين القوتين وخلق التوسط والاعتدال فيهما، فالمسيحية ترى أن هاتين القوتين في النفس الإنسانية سيئتان بذاتهما، بينما لا يرى الإسلام ذلك، وإنما يكون استخدامهما سيئا في بعض الأحيان، والإسلام لا يأمر بالقضاء على قوة الغضب وحب الأعداء، كما أنه لا يأمر بإفناء قوة الرغبة لدى الإنسان وتجريدها والعيش في حزن وإفلاس، وإنما يرشد إلى أن الأفضل هو العفو عن الأعداء الشخصيين والدعاء بالخير لأعداء الله، وأن نستمتع بالطيبات التي حلها الله تعالى دون تعد للحدود التي قررتها الشريعة في هذا المجال، وكما يقول الإمام الغزالي فإن الله قد مدح من يكتم الغضب وليس من يقضي عليه، فقال: "والكاظمين الغيظ" ولم يقل "والفائدين الغيظ" .

نقاط الضعف في الأخلاق المسيحية :

إن كل ما في الدنيا من علم وفن وسعادة وسرور وحماس وانبساط وتطور ونشاط وجد واجتهاد كلها ناتجة عن هاتين القوتين، فإذا ما محونا هاتين القوتين بجمرة قلم، أو خلقنا فيهما الإفراط والتفريط فإن نصف الخير والسعادة وحسن الطالع يموت، ولا يبقى مفهوم للعفة ولا معنى للعصمة، ولا وجود للعدل ولا أثر للأمن والأمان، ولا تبقى

روح أحد أو ممتلكاته في مأمن، ولا يبرز في الإنسان جوهر علو الهمة والاستقلال وثبات القدم والسعي والاجتهاد، ويتأثر سلبيًا بنظام الدول وتطور الأمم، ويتحول دينًا الله هذه إلى مكان خرب لا أثر فيه للحركة والنشاط.

ولم تراع التعاليم الأخلاقية في المسيحية مسألة أن الغضب والرغبة ليسا شيئين سيئين بذاتهما، وإنما السيئ هو الغضب الذي لا محل له والرغبة غير المشروعة، وكما أن الغضب والرغبة بهذا الشكل شيئان ميثان فإن من للمعائب والنقائص التي تنتج عن الإقراط والتقريط فيهما أيضا سيئة مثل عدم الكرم، وعدم الحمية، وحب النذل والدناءة، والتملق والضعف وتراجع الهمة والتواكل، والتقصيف الشديد، ولقد جمع الإسلام في متبعيه هاتين القوتين باعتدال، فإن كان قال "رحماء بينهم"، "أنلة على المؤمنين" فقد قال أيضا "أشداء على الكفار" و"أعزة على الكافرين" وأخبرنا أن العزة لله وللرسول والمؤمنين فقط "ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين". ولم يتيسر التقدم والرفي للأمم المسيحية إلا عندما استفادوا من تعاليم الفلسفة الأخلاقية الإسلامية.

اعتراض (ليكي) على الأخلاق المسيحية:

يقول (ليكي) في الجزء الثاني من كتاب تاريخ أخلاق أوروبا: "لكن العجز والمثلة هي من نتائج المسيحية، ورغم أن هذا الوصف ظل مقبولا ومناسبا لفترة ما، لكنه لم يستطع مسايرة مسيرة التطور في عصر التمدن، إذ أنه من الضروري للتطور والتمدن أن تكون لدى الأمة عزة نفس وحب للحرية والتواضع والانتكسار أعداء لكل هذا، وعلى سبيل المثال حياة التقشف الشديد والعزلة، فإن أسلوب الحياة العسكرية يتطلب حكومة استبدادية، ولكن بالرغم من كل هذا فإن الجنود يمتلكون بداخلهم عزة نفس وكرامة بشكل عام، والقضاء على هذه الصفات لديهم مثلما تهدف إليه حياة الخانقاهات أمر لا يفيد بحال من الأحوال في التطور والتمدن، وإذا كان مثل هذا الأسلوب في الحياة يخلق فضائل كثيرة في كبار الزهاد، إلا أن التجربة أثبتت أن التثقل عند عامة الناس مرافق لحياة العبودية، وفي ضوء هذا الوضع ركز المتأخرون من حكماء الأخلاق على الذاتية بدلا من التثقل، ولهذا صورتان الأولى الرجولة والثانية الاعتزاز بالنفس، والتركيز عليها أدى إلى أن حرية الفكر وصديق القول وحسن التعامل وعلو الهمة والحمية وجمال الطبع الذي نراه في الدول المسيحية البروتستانتية لا نرى مثله في المناطق الكاثوليكية، بل على العكس من ذلك نرى فيها الدناءة وتراجع الهمة وضيق الأفق والجبن ومشاهد

التسون، والأكثر من ذلك أن في القسم الأول من الدول سوف نجد مظاهر وإنجازات الحرية السياسية، وهو ما يخلو منه القسم الثاني من الدول " (الفصل الحادي عشر) .

الإسلام والسمو الأخلاقي:

وعلى العكس من ذلك كله فإننا نستطيع التعرف على تعاليم معلم الإسلام صلى الله عليه وسلم من درس واحد فقط منها :
" إن الله يحب معالي الأمور ويبغض سفاسفها " .

والمقصود من (معالي الأمور) هو الأفضال العظيمة لعلو الهمة، والمراد من (المحقرات) الأمور النافهة، وكان الحديث يقول بأن من أراد أن يكون محباً لله من المسلمين فإنه يجب عليه أن يكون رفيع النظرة رفيع المقصد، وأن يتجنب الأمور النافهة الدنيئة . ويكفي في هذا الخصوص لتوضيح وجهة نظر الإسلام أن نشير إلى بعض تعاليمه صلى الله عليه وسلم، فقد قال سيدنا أبو هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:

"للمؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف، وفي كل خير، احرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجز، وإن أصابك شيء فلا تقل لو أني فعلت كذا لكان كذا، ولكن قل قدر الله وما شاء فعل، فإن لو تفتح عمل الشيطان " .

القدر والتوكل والصبر والشكر:

وهذا الحديث يشرح كل القضايا التي يعبر عنها الإسلام بمصطلحات القدر والتوكل والصبر والشكر، والتي ورد تفصيلها بشكل كامل في ثنايا الحديث عن القضاء والقدر في الجزء الرابع، وكذلك في الجزء الخامس تحت عنوان العبادات القلبية، وقلنا فيها أن هذه التعاليم الأربعة تخلق في المسلمين علو الهمة والأمل والاستقلال وثبات القدم، ويجب أن يتولد داخل المسلم قبل كل شيء العزم على القيام بالأعمال الكبرى، ومع وجود هذا العزم يجب الاعتماد على الله والتوكل عليه، فإذا حالفه التوفيق في هذه الأعمال فإنه يؤدي شكر الله تعالى بدلا من التفاخر والغرور، وعليه أن يعتقد أن هذا التوفيق من فضله تعالى وكرمه، وإذا ما فشل في أعماله فعليه عندئذ بالصبر والثبات بدلا من اليأس والقنوط، وعليه أن يعتقد أن هذه إرادة الله تعالى .

والحقيقة أن ما ورد في الحديث السابق ما هو إلا شرح لما ورد في الآيات

القرآنية التالية :

"إِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ. إِنْ يَنْصَرِكُمْ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَ إِنْ يَخْذَلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصَرِكُمْ مِنْ بَعْدِهِ، وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ" (آل عمران: ١٧) .

" ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم إلا في كتاب من قبل أن نبرأها، إِنْ فِي ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ، لَكَيْلًا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ " (الحديد: ٣) .

ويظهر من هذه الآيات أن تعاليم القدر والتوكل والصبر والشكر ليست للتراجع أو الدناءة في الإسلام، وإنما هي لكي تخلق في المسلمين الجرأة والشجاعة والهمة وثبات القدم، وكان من أثر هذه التعاليم أن الصحابة الكرام استطاعوا مواجهة جيوشا وسلطنات كبيرة بغير خوف أو تردد، وحالفهم النجاح، وبتأهت إلى أسماعهم في أوقات المصاعب أدعية أولياء الله للصالحين :

" ربنا افرغ علينا صبرا وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين " (البقرة : ٢٣) .

وأرشدتنا الآيات إلى أن رفاق الأنبياء الآخرين كانوا معهم أيضا أثناء المصاعب :

" وكأين من نبي قاتل معه ربيون كثير فما وهنوا لما أصابهم في سبيل الله وما ضعفوا وما استكانوا والله يحب الصابرين، وما كان قولهم إلا أن قالوا ربنا اغفر لنا ذنوبنا وإسرافنا في أمرنا وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين " (آل عمران : ١٥) .

ثم جاء للحكم الخاص :

" يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون " (آل عمران: ٢٠٠) .

ونعلم من هذه الآيات إلى أي مدى أمر الإسلام بتعاليم رائعة في سمو الأخلاق، وعلو الهمة والصبر وثبات القنم في الصعاب، بمعنى أنه بقدر ما ينظر باحترام إلى التواضع والانكسار فإنه كذلك يحترم للشجاعة وقوة الحكومة .

أحبوا أعدائكم:

إن أكبر المبادئ الذهبية للتعاليم المسيحية هي أن أحبوا أعدائكم، ولا شك أن لهذا المبدأ طريقا ولمعانا ظاهريا بحيث يخلب أنظار الناظرين، لكن أولي الأبواب يفهمون جيدا مدى التناقض المنطقي الذي يحتويه، وهذا هو السبب في أن مفسري الإنجيل (١) أنفسهم أكدوا على أن هذا الحكم لا يقبل التنفيذ، فأنت تستطيع أن تغفر عن العدو، وتعامله معاملة

^١ تفسير متى للسيد اسكوت .

طيبة، وتدعو له بالخير، لكنك لا تستطيع أن تحبه، إذ أن الحب من عمل القلب، ولا سيطرة لك على القلب. بينما نجد أن الأخلاق المحمدية أكدت بدلا من هذا على التعاليم التي يستطيع تنفيذها كل ذي حظ عظيم، وقد طبق هذه التعاليم دائما عباد الله وأوليائه، بمعنى معاملة العدو معاملة حسنة، وعدم مقابلة سيئهم بسوء، وأن تدعو بالخير لمن يدعو عليك، وأن تغفر عمن يسيء إليك، وتعدل مع من يظلمك :

" يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط، ولا يجرمنكم شنآن قوم على أن لا تعدلوا، عدلوا هو أقرب للتقوى، واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون " (المائدة : ٢) .

" ولا تستوي الحسنة ولا السيئة، لدفع بالتي هي أحسن، فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم، وما يلقاها إلا الذين صبروا، وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم، وما ينزغك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله إنه هو السميع العليم " (السجدة : ٥) .

١- فلقد جاء في مقدمة هذه الآية الكريمة أنه لا تستوي الحسنة ولا السيئة، والفرق بينهما ظاهر .

٢- إن الحسنة وحسن السلوك الذي تم التأكيد عليه في هذه الآية الكريمة هي التي تقوم بها مع أعدائك، لأنه جاء بعدها مباشرة بأن نتيجة هذا العمل هي أن الذي بينك وبينه عداوة سيكون صديقك .

٣- أطلق على الإحسان إلى الأعداء أنه درجة من منتهى الصبر، وعبر عنه بالحظ العظيم ويعلم من هذا ما هي مكانته في صحيفة الأخلاق المحمدية .

٤- أخبرت الآية أن الإساءة إلى الأعداء من نزغ الشيطان، وأمرت المسلمين ذوي الحظ العظيم أن يستعينوا منه بالله، ويقول سيدنا ابن عباس للذي هو من كبار المفسرين بين الصحابة، يقول في تفسير هذه الآية (١): "لقد أمر الله تعالى المسلمين بالصبر في حالة الغيظ والغضب، وأمرهم بالعفو والصفح والحلم على إساءة الآخرين، فإذا فعلوا هذا نجاهم الله من قبضة الشيطان، وخضع لهم الأعداء كالأصدقاء تماما " .

ذات مرة شتم رجل سيدنا أبا بكر الصديق رضي الله عنه وكان جالسا عند النبي صلى الله عليه وسلم ولم يرد عليه سيدنا أبو بكر، فشتمه الرجل ثانية فلم يرد عليه، ثم شتمه ثالثة فلم يستطع سيدنا أبو بكر الصمت ورد عليه، فلما رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا قام من مجلسه، فقال أبو بكر يا رسول الله، هل غضبت مني؟ فقال صلى

^١ صحيح البخاري - الجزء الثاني - ص ٧١٢ ، وابن جرير - الجزء الرابع والعشرون - ص ٦٨ - مصر .

الله عليه وسلم لقد كان ملاك من الله يرد عنك طالما بقيت صامتا، فلما رددت عليه ذهب الملاك (١) .

وقال صلى الله عليه وسلم "إن صلة الرحم ليست هي أن تصل من يصلك، وإنما أن تصل من قطعك" (٢). بمعنى أن التصديق مع الأصدقاء ليس بشيء، وإنما الأمر العظيم هو التصديق مع الأعداء. ذات مرة جاء أعرابي إلي رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال: يا رسول الله، دلني على أمر إن فعلته دخلت الجنة، فأخبره رسول الله صلى الله عليه وسلم بعدة أمور من بينها: "أن تحسن إلى قريب ظلمك" (٣) .

وليس هناك في نظر الإسلام من هو أكثر عداوة من الكافر والمشرك، ولكن انظر إلى القرآن الكريم كيف يأمر صراحة المسلمين بأن يعفوا عن الأعداء: قل للذين آمنوا يغفروا للذين لا يرجون أيام الله ليجزي قوما بما كانوا يكسبون (الجاثية : ٢) .

^١ سند أبي داود - كتاب الأدب - باب الانتصار .

حدثنا عيسى بن حماد، أخبرنا الليث، عن سعيد المقبري، عن بشير بن الحر، عن سعيد بن المسيب، أنه قال: بينما رسول الله صلى الله عليه وسلم جالس ومعه أصحابه وقع رجل بأبي بكر فإذاه، فصمت عنه أبو بكر ثم آذاه الثانية، فصمت عنه أبو بكر ثم آذاه الثالثة، فانتصر منه أبو بكر، فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم حين انتصر أبو بكر فقال أبو بكر: أوجدت علي يا رسول الله؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: نزل ملك من السماء يكذبه بما قال لك، فلما انتصرت وقع الشيطان، فلم أكن لأجلس إذ وقع الشيطان.

^٢ صحيح البخاري - كتاب الأئمة - الجزء الثاني - ص ٨٨٦ .

حدثنا محمد بن كثير: أخبرنا سفيان، عن الأعمش والحسن بن عمرو وفطر، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (ليس الواصل بالمكافئ، ولكن الواصل الذي إذا قطعت رحمه وصلها) .

^٣ مسندك الحاكم - كتاب المكاتب - الجزء الثاني - ص ٢١٧ - حيدر آباد الدكن .

حدثني محمد بن صالح بن هاتئ، ومحمد بن عبد الله بن دينار العدل قالوا: ثنا أحمد بن محمد بن نصر، ثنا أبو نعيم الفضل بن دكين، ثنا عيسى بن عبد الرحمن السلمي، ثنا طلحة الياشي، عن عبد الرحمن بن عوسجة، عن البراء بن عازب رضي الله عنه قال: جاء أعرابي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله علمني شيئا يدخلني الجنة. فقال: لئن أقصرت الخطبة لقد عرضت المسألة أعتق النسم وفك الرقية قال: أو ليسا واحدا؟ قال: فإن عتق النسم أن تغرد بعقها وفك الرقية أن تعين في ثمنها والمحنة الموكوفة والقيء على ذي الرحم الظالم فإن لم تطق ذلك فاطعم الجائع واسق الظمان وأمر بالمعروف وأنه عن المنكر فإن لم تطق ذلك فكف لساتك إلا من خير.

وإن كنت تريد أمثلة عملية فلن تجدوها في وعظ مسيحية الفريسيين المرائيين، ولا في مسيحية النعابين وأطفال النعابين^(١)، وإنما تجدوها في وعظ أول داع إلى الإسلام وهو ما قام به حين عفا عن آلاف الأعداء من مكة حين فتحها، وكان منتصرا وليس مهزوما، وحاكما وليس محكوما، وكل واحد من هذه الآلاف كان متعطشا إلى نعمة صلى الله عليه وسلم^(٢)، عفا عن ذلك الذي تعقبه ليقبض عليه^(٣)، وذلك الذي عفا عن تلك اليهودية جائزة لمن يقتله صلى الله عليه وسلم أو يقبض عليه^(٤)، وذلك الذي عفا عن تلك التي نسيته له السم في خيبر^(٥)، ذلك الذي عفا عن قاتل عمه^(٦)، والذي عفا عن تلك التي منلت بجثة عمه ومضغت كبده^(٧)، ذلك الذي عفا عن قتل قرة عينه بشكل أو بآخر^(٨)، ذلك الذي عفا عن مجموعة من أهل قريش في ولاي تنعيم^(٩)، وكانوا قد جاءوا بنية قتله صلى الله عليه وسلم، ذلك الذي عفا عن جاء ليقبضه بسيفه وهو نائم في واحدة نجد، بعد أن قدر عليه^(١٠)، ذلك الذي دعا بالخير في حق أهل الطائف^(١١)، الذين قذفوه

^١ الجبل متى - ٢٣ ، ٢٥ ، ٢٣ .

^٢ صحيح البخاري - باب فتح مكة .

قال الإمام أحمد: حدثنا علي بن هاشم، عن حميد، عن أنس رضي الله عنه، قال: استشار النبي صلى الله عليه وسلم الناس في الأسارى يوم بدر، فقال: "إن الله قد أمكنكم منهم" فقام عمر بن الخطاب فقال: يا رسول الله اضرب أعناقهم فأعرض عنه النبي صلى الله عليه وسلم، ثم عاد رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: "يا أيها الناس إن الله قد أمكنكم منهم وإنمأ هم إخوانكم بالأمس" فقام عمر فقال: يا رسول الله اضرب أعناقهم، فأعرض عنه النبي صلى الله عليه وسلم، ثم عاد النبي صلى الله عليه وسلم فقال: للناس مثل ذلك، فقام أبو بكر الصديق رضي الله عنه، فقال: يا رسول الله نرى أن تعفو عنهم، وأن تقبل منهم الفداء، قال فذهب عن وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم ما كان فيه من الغم، فعفا عنهم وقبل منهم الفداء، قال وأنزل الله عز وجل "لولا كتاب من الله سبق لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم"

^٣ صحيح البخاري - كتاب الهجرة .

^٤ صحيح البخاري - باب فتح خيبر ، و ذكر وفاة النبي - صلى الله عليه وسلم - .

حدثنا عبد الله بن يوسف: حدثنا الليث: حدثني سعيد، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: لما فتحت خيبر أهديت لرسول الله صلى الله عليه وسلم شاة فيها سم.

^٥ صحيح البخاري - فتح الطائف .

^٦ صحيح البخاري - باب فتح مكة .

^٧ كتب سر و طبقات الصحابة - ذكر إعلان فتح مكة ، و سيار بن الأسود .

^٨ جامع الترمذي - كتاب النضر - سورة الفتح - ص ٥٤٠ .

^٩ صحيح البخاري - كتاب الجهاد - ص ٢٠٨ .

^{١٠} ابن سعد - غزو الطائف .

بالحجارة ذات مرة حتى سال دمه الشريف من قدمه ذلك الذي دعا بالخير لمن جرح وجهه المبارك في أحد^(١) ذلك الذي قال لمن كانوا يدعون على الأعداء بأنني لم أبعث في الدنيا لعن بولكن للرحمة^(٢) صلى الله عليه وسلم. والأكثر من هذا أنه يؤكد على أن الوفاء بالمعاهدات مع الكفار و المشركين من آيات التقوى :

"إلا الذين عاهدتم من المشركين ثم لم ينقضوكم شيئاً ولم يظاهروا عليكم أحداً فأتموا إليهم عهدهم إلى منتهم إن الله يحب المتقين " (التوبة : ١) .

عدم موالاته الكفار والمشركين:

وأكثر للمخالفين للإسلام يقدمون هذا الحكم في اعتراضاتهم وهو الذي منع فيه المسلمون من مصاحبة الكفار والمشركين أو موالاتهم في حين أن هذا شيء مختلف تماماً فمن المؤكد أن مؤسس أية حركة طيبة لا بد له من أجل الحفاظ على استمرار حركته وبقائها أن يمنع متبعيه من مخالطة أعداء حركته ومصاحبتهم والركون إليهم وهم الذين يسعون حثيثاً للقضاء على هذه الحركة سواء بالقوة أو بالتأمر وخاصة في الوقت الذي تجري فيه المحاولات لتصفية هذه الحركة بالسيف والخنجر وقوة الجيش والسلاح والمعرفة شبة قائمة على أشدها بين الطرفين، أو في حالة انتشار الشائعات والشكوك حول متبعي الحركة للإساءة إليهم، حينئذ تكون هذه الآيات :

" لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين، ومن يفعل ذلك فليس من الله في شيء إلا أن يتقوا منهم تقاة " (آل عمران : ٣) .

" يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا آباءكم وإخوانكم أولياء إن استحبوا الكفر على الإيمان ومن يتولهم منكم فأولئك هم الظالمون " (التوبة : ٣) .

وهناك أمر آخر في هذا الخصوص وهو أنه حين يكون الحق في صراع مع الباطل فإنه يتولد بداخل أهل الحق بطريقة فطرية نفور من أهل الباطل الذين يريدون القضاء عليهم بنفس القدر الذي تتولد بداخلهم محبة لبعضهم البعض، ولهذا منع الإسلام من أجل الحفاظ على الحق من مثل هذه المحبة والموالاة لأهل الباطل، وهذا النوع من الأحكام في الإسلام لا تعني إلا ما يعنيه إعلان (أمير السلام) هذا :

^١ فتح الباري - الجزء السابع - ص ٢٨٦ ، مع باب أحد .

^٢ صحيح البخاري - سمع النبي صلى الله عليه وسلم، ومشكاة أخلاق النبي صلى الله عليه وسلم، نقل عن مسلم .

" لا تعتقوا أنني جئت إلى الأرض لإقامة السلام والصلح، بل آت للصلح وإنما لكي أعمل السيف، وذلك لأنني جئت لكي أفرق بين الرجل وأبيه وبين الولد وأمه وبين زوجة الابن وحماها، فإن أعداء أأرجل من أهل بيته ومن يحب أباه أو أمه أكثر مني فإنه لا يستحقني " (إنجيل متى - باب ١٠ - ٣٤).

وهذا هو السبب في أنه لم تكن في تعاليم سيدنا عيسى الأخلاقية رحمة ولا شفقة ولا لين مع اليهود مثل تلك التي وجدت مع الآخرين من للمذنبين وعبدة الأوثان الحمقى، فلقد كان يخاطب اليهود بألفاظ غاية في القسوة، وحين قامت الحرب بين المسلمين وبين يهود الحجاز ومسيحي حدود الشام وكان يبدو في الظاهر أن هؤلاء متفوقون على المسلمين باعتبار العدد والعتاد والأسلحة والقلاع، فقد أجبر كل هذا مناقي المدينة وضعاف القلوب من أهلها على التواطؤ مع أعداء الإسلام هؤلاء كنوع من بعد النظر والاحتياط للعاقبة، فإذا ما هزم المسلمون في مواجهتهم وجدوا لهم ملجأ، وبالإضافة إلى هذا فقد كانوا يحاولون الانضمام إلى المسلمين والانحراف بهم عن دينهم، في مثل هذا الموقف منع الله المسلمين من مصادقة أهل الكتاب وإقامة علاقات المحبة معهم، فقال تعالى :

" يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء، بعضهم أولياء بعض، ومن يتولهم منكم فإنه منهم، إن الله لا يهدي القوم الظالمين، فترى الذين في قلوبهم مرض يسارعون فيهم يقولون نخشى أن تصيبنا دائرة، فعسى الله أن يأتي بالفتح أو أمر من عنده فيصبحوا على ما أسروا في أنفسهم نادمين، ويقول الذين آمنوا هؤلاء الذين لقسّموا بالله جهد إيمانهم إنهم لمعكم، حبطت أعمالهم فأصبحوا خاسرين، يا أيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه، أئمة على المؤمنين أعزة على الكافرين " (المائدة : ٨) .

" يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا الذين اتخذوا دينكم هزوا ولعبا من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم وللكتاب أولياء، وانقوا الله إن كنتم مؤمنين " (المائدة : ٣) .

ففي هذه الآيات تصريح واضح بأولئك الذين لا ينبغي أن تتخذ منهم أولياء أو أصدقاء، وفي أي الحالات يكون ذلك، وكذلك القصد من وراء هذا المنع، وقد جاء هذا التصريح واضحا كذلك في هذه الآية من سورة (آل عمران) :

"يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم لا يألونكم خبالا ودوا ما عنتم قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفي صدورهم أكبر، قد بينا لكم الآيات إن كنتم تعقلون " (آل عمران: ١٢).

ويتضح من هذا أنهم كانوا يستميلون ضعاف المسلمين ويتجسسون على خططهم وما يريدون القيام به ويعرفون أسرارهم، وهؤلاء هم الذين جاء التصريح بمنع مصاحبتهم واتخاذهم أولياء، وقد جاء هذا التصريح بشكل أوضح في سورة الممتحنة، فقال تعالى :

"يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء تلقون إليهم بالمودة وقد كفروا بما جاءكم من الحق يخرجون الرسول وإياكم أن تؤمنوا بالله ربكم إن كنتم خرجتم جهادا في سبيلي وابتغاء مرضاتي تسرون إليهم بالمودة وأنا أعلم بما أخفيتم وما أعلنتم، ومن يفعله منكم فقد ضل سواء السبيل. إن يتفقوكم يكونوا لكم أعداء ويبسطوا إليكم أيديهم وألسنتهم بالسوء ودوا لو تكفرون لن تنفعكم أرحامكم ولا أولادكم يوم القيامة" (الممتحنة).

ثم استمع إلى التصريح التالي بعد ذلك :

"في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين، إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم في الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم أن تولوهم ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون " (الممتحنة : ٢) .

ثم جاءت البشارة أنكم ستنتصرون عليهم قريبا، وسوف تتبدل هذه العداوة إلى محبة: يقول تعالى :

"عسى الله أن يجعل بينكم وبين الذين عاديتم منهم مودة والله قدير " (الممتحنة : ٢) .

ويتضح بعد معرفة سبب نزول هذه الآيات معناها، ومن هذه الأسباب واقعة فحواها أن المسلمين كانوا يريدون الاستيلاء على مكة في غفلة من قريش، وبينما كانت الاستعدادات لذلك جارية إذ بأحد المسلمين ويدعي (حاطب بن بلتعنة) يقوم بكتابة خطاب خفية من أجل مصلحة الشخصية ويرسله مع امرأة إلى مكة لتعرف قريش بالأمر، وعلم رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك، فأرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم فارسين ليستعيدوا الخطاب من المرأة في الطريق، واستعادوا الخطاب، فسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم حاطب عن الأمر فقال: يا رسول الله، لا تتعجل، الحكاية هي أنني أعيش بين قريش، ولكن لا تربطني بهم أية علاقة، والمهاجرون الذين هنا لهم أقرباء هناك، وعائلاتهم

آمنة بسببهم، وليست لي قرابة هناك حتى يراعيها أهل مكة، فأردت أن أحسن إليهم حتى يراعوني، ولم أفعل ذلك ارتدادا عن دين الحق، فقال صلى الله عليه وسلم: أنتم أهل بدر، وقد غفر الله لكم، فنزلت هذه الآية: "يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا" (١) .

وهذه الأحكام هي من نوع تلك الأحكام التي تكررت في العهد القديم، فقد جاء في الزبور :

" يا الله، إنك تأكيدا ستقتل الأشرار، أيها السفاكون، ابتعدوا عني لأنهم بسببكم يتحدثون بالسوء، وأعداؤك ينكرون اسمك عبثا، يا إلهي، ألا أكن لهم بغضا أولئك الذين يبغضونك، إنني أعدهم أعدائي " (١٣٩ - ١٩ - ٢٢) . وجاء في صحيفة يسوع :

" إن كنتم قد أسأتم بحال من الأحوال، وركنتم إلى من بقي من أولئك الناس الموجودين بينكم، وأقمتم العلاقات معهم والتقيتم بهم والتقوا بكم فاعلموا علم اليقين أن الله إلهكم لن يزيح هؤلاء الفرق من أمامكم، وإنما سيكون لكم بمثابة القيد حول رقابكم والشباك حولكم، والسياط على آباطكم، والأشواك في عيونكم حتى تخفون من على هذه الأرض التي تفضل الله بها عليكم " (يسوع - باب ٢٣ - ١٢) .

^١ صحيح البخاري - الجزء الثاني - ص ٢٧٦ - تفسير سورة الممتحنة .

حدثنا علي بن عبد الله: حدثنا سفيان: حدثنا عمرو بن دينار: سمعته منه مرتين قال: أخبرني حسن بن محمد قال: أخبرني عبيد الله بن أبي رافع قال: سمعت عليا رضي الله عنه يقول: بعثني رسول الله صلى الله عليه وسلم أنا ولقيرير والمقداد بن الأسود قال: (تطلقوا حتى نأقوا روضة خاخ فبان بها ظعينة، ومعها كتاب فخنوه منها) . فأتلفنا نعلنا بنا خيلنا، حتى انتهينا إلى الروضة فإذا نحن بالظعينة، فقلنا: أخرجي الكتاب، فقال: ما معي من كتاب، فقلنا: لتخرجن للكتاب أو لنلقين الثياب، فأخرجته من عقاصها، فأتينا به رسول الله صلى الله عليه وسلم فإذا فيه من حاطب بن أبي بلتعة إلى أناس من المشركين من أهل مكة، يخبرهم ببعض أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (يا حاطب ما هذا) . قال: يا رسول الله لا تعجل علي، إني كنت امرأ ملصقا في قريش، ولم تكن من أنفسها، وكان من معك من المهاجرين لهم قرابات يحمون بها أهلهم وأموالهم، فأحببت إذا قتلني ذلك من النسب فيهم، أن أخذ عندهم يدا يحمون بها قرابتي، وما قطعت كفرا ولا ارتدادا، ولا رضا بالكفر بعد الإسلام، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لقد صدقكم) . قال عمر بن الخطاب: رسول الله يدعني أضرب عنق هذا المنافق، قال: (إنه قد شهد بدرا وما يدريك لعل الله أن يكون قد اطلع على أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم) . قال سفيان: وأي إسناد هذا .

وهناك بعض الأحكام في القرآن الكريم وفي الأحاديث النبوية بمثابة النصيحة
بالبعد عن منكري الحق وللظالمين والمنحرفين والمذنبين :

" ودوا لو تكفروا كما كفروا فتكونون سواء، فلا تتخذوا منهم أولياء حتى يهاجروا في
سبيل الله " (النساء : ١٢) .

" وإذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا فأعرض عنهم حتى يخوضوا في حديث
غيره، وإما ينسبك الشيطان فلا تقعد بعد الذكرى مع القوم الظالمين " (الأنعام : ٨) .

" وقد نزل عليكم في الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها فلا تقعدوا
معهم حتى يخوضوا في حديث غيره، إنكم إذا مثلهم " (النساء : ١٤) .

وقد نزلت هذه الأحكام حتى لا يتأثر المسلمون ملبا بالصحة السيئة، ومعانيها
تقترب كثيرا من معاني الفقرات التالية للقديس (بال) :

" لقد كتبت لكم في خطابي ألا تصاحبوا مرتكبي الحرام، ولكن لا يعني هذا ألا تصاحبوا
كل مرتكبي الحرام والطماعين واللصوص أو عبدة الأوثان في الدنيا فقط، وألا تفعلوا
فسوف يكون عليكم خروج من الدنيا، لكني كتبت لكم أن لا تصاحبوا حتى الأخ إن كان
من مرتكبي الحرام أو عبدا للأوثان أو سببا أو سكيراً أو لصاً، بل ولا تأكلوا معه
الطعام كذلك ... المهم أن عليكم أن تخرجوا مثل هذا الرجل السيئ من بينكم " (
القرنين الأول : ٥) .

" ولا تختلطوا بعديمي الإيمان بغير حق ولا تشاركوهم في لهوهم فلا تفرقوا بين الحق
من عدمه، وتخلطوا بين النور والظلام، فما هي الصلة بين المؤمن وغير المؤمن، وما
علاقة هيكल الله بالأوثان ... ولهذا يقول الله تعالى أن عليكم أن تخرجوا من بين
هؤلاء، وتنفصلوا عنهم، ولا تلمسوا النجس " (قرنينون : ٦) .

في نفس الوقت الذي نجد الإسلام في المعاملات الدنيوية والأخلاقيات يؤكد على
العدل والإنصاف والتسامح مع الكفار والمشركين بالرغم من عدم التوافق القلبي
والتجانس الروحي معهم، بل جاء الحكم في حالة الحرب معهم بأن :

" وإن أحدا من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه مأمنه، ذلك بأنهم
قوم لا يعلمون " (التوبة : ١) .

وهل هناك سلوك أفضل من هذا يمكن أن يقوم به محارب مع من يخالفه في
الدين، ولقد جاء الحكم صريحا في القرآن فيما يتعلق بالمشركين بالرغم من انقطاع

العلاقة القلبية معهم أنه إذا كان ولدا أحد المسلمين مشركين وكافرين فإنه يجب خدمتهما وتتبعي معاملتهما معاملة حسنة في أمور الدنيا، وهذا فرض على أولادهما المسلمين يقول تعالى :

" وإن جاهدك على أن تشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما وصاحبهما في الدنيا معروفا واتبع سبيل من أناب إلي ثم إلي مرجعكم فأنبئكم بما كنتم تعملون " (لقمان : ٢) .
وهل هناك تسامح أكثر من هذا مع أعداء الدين، بحيث يخدمهم المسلم في الدنيا ويتعامل معهم تعاملًا حسنًا بالرغم من اختلاف الدين، أو ألا يقصروا معهم في هذه الأمور
مواقع حواز الشدة معهم:

ولا شك في أنه قد جاء في الإسلام الحكم بالشدة مع الكفار، ومع من سبهم القرآن في اصطلاحه بالمنافقين وذلك في بعض المواقع، كأن تكون المعركة دائرة بين المسلمين مع آخرين غيرهم، عندئذ يكون الخطر في أن ينضم الكفار أو المنافقون الذين يعيشون مع المسلمين بالخداع إلى العدا، ويتآمرون معهم، أو حتى في حالة غير حالة المعركة يمكن لهؤلاء أن يزرعوا بذور الفرقة بين المسلمين وهم يعيشون معهم، ويخلقوا التشيكت في جماعة المسلمين بنشر الإشاعات والشكوك والشبهات المختلفة، في مثل هذه الحالات لا بد من مراقبة الكفار والمنافقين بنوع من الشدة، وأن يتم منع اختلاط المسلمين بهم، فإذا ما حاربهم حاربهم بشجاعة حتى يعودوا عن تصرفاتهم وسلوكهم النميم، والقرار في كل هذه الأمور يكون لإمام الوقت، وقد جاءت آيتان في سورة (التوبة) في هذا الخصوص :

" يا أيها النبي جاهد الكفار والمنافقين وأغلظ عليهم ومأواهم جهنم وبئس المصير، يخلفون بالله ما قالوا، ولقد قالوا كلمة للكفر، وكفروا بعد إسلامهم وهموا بما لم ينالوا، وما نقموا إلا أن أغناهم الله ورسوله من فضله، فإن يتوبوا يك خير لهم، وإن يتولوا يغضبهم الله عذاباً أليماً في الدنيا والآخرة وما لهم في الأرض من ولي ولا نصير " (التوبة : ١٠) .
وهذه الآيات تبين بنفسها وبألفاظها المواقع التي تكون فيها الشدة وزادت الآيات السابقة عليها والتالية لها هذا الأمر وضوحاً، فقد أرشدت الآيات بعد ثلاثة ركوع في نهايتها المسلمين إلى أن يتسموا بالشدة في حربهم ضد الروميين (١) :

^١ نسير ابن حرير الطبري - الجزء الأول - ص ٤٦ - مصر .

" يا أيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار وليجئوا فيكم غلظة واعلموا أن الله مع المتقين " (التوبة : ١٦) .

وجاء هذا الحكم بالشدة حتى لا يظنوا أن المسلمين ضعاف فيهاجموهم . وعندما أراد بعض المنافقين في موقع التحريم والإيلاء أن يضعوا بذور الفرقة بين آل بيت النبي صلى الله عليه وسلم وبين المسلمين جاء الحكم بإتباع الشدة مع الكفار والمنافقين :
" يا أيها النبي جاهد الكفار والمنافقين وأغلظ عليهم ومأواهم جهنم وبئس المصير " (التحريم: ٢) .

وهذه المواقع كلها تتعلق بإقرار النظام السياسي والحفاظ على وحدة الجماعة، وهذا هو السبب في اعتبار أولئك للمسلمين الضعاف ضمن زمرة الكفار والمشركين وهم الذين اشتركوا علينا مع المشركين والكفار في تخريب وإفساد هذا النظام .

وقد جاءت آية أخرى في القرآن الكريم يستدل بها المعارضون الذين يتهمون الإسلام بالقسوة وعدم الرحمة على ما يقولون استدلالا خاطئاً، وهي الآية التي جاءت في سورة (الفتح) والتي تنثي على شجاعة الصحابة من جانب وعلى محبة المسلمين ورحمتهم فيما بينهم :

" محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم " (الفتح : ٤) .
وجملة (أشداء على الكفار) لا تعني أنهم يتعاملون مع الكفار في قسوة وعنف وعدم رحمة، وإنما تعني أن المسلمين بسبب همتهم واستقلالهم واتحادهم وقوة إيمانهم أقوياء بحيث يخافهم الكفار، وهم في مواجهة الكفار شجعان بحيث لا يتجرأ الكفار على مهاجمتهم، ولهذا فإن (أشداء على الكفار) طبقاً لسياق الكلام لا ينبغي أن تكون (قساة على الكفار)، وإنما ينبغي أن تكون أنهم أقوياء في مقابلة الكفار، بمعنى أنهم غالبون عليهم وأقوياء بالدرجة الكافية لمواجهةهم، ولا يخافونهم بأي حال من الأحوال، ولهذا روى العلامة الزمخشري في الكشاف وابن حبان الأندلسي في البحر المحیط والقاضي البیضاوی في أنوار التنزيل هذا المعنى في تفسير هذه الآية وهو نفس المعنى الذي جاء في آية سورة (المائدة). وقد جاء هذا السياق في القرآن الكريم في أماكن متعددة، فجاء في سورة (هود) على سبيل المثال :

" يا قوم أرهطي اعز عليكم من الله " (هود : ٨) .

وجاء في آية أخرى : " عزيز عليه ما عنتم " (التوبة : ١٦) .
وجاء في لسان العرب : " رجل شديد قوي والجمع أشداء " (الجزء الرابع - ص ٢١٨ - مصر) .

وجاء في القرآن الكريم تعبيرات مثل (أشد قوة) و(أشد خلقا) و(أشد منهم بطشا) وغيرها، وكلها بمعنى قوي مستحكم، وفي مشتقات هذه الألفاظ أيضا كان المعنى مثل هذا :

" أشد به لزري " (طه : ٢) .

" وبنينا فوقكم سبعا شدادا " (عم : ١) .

" وشددنا ملكه " (ص : ٢) .

" فشدوا الوثاق " ()

والمعنى المشترك في (شديد) هو ذلك الذي لا يخضع أمام القوى المخالفة، وإنما يبقى قويا في مواجهتهم، وكانت هذه هي صفة الصحابة الكرام رضي الله عنهم، فلم تر عنهم شدة مخالفة كفار مكة لهم، وواجهوا عداءهم وأذيتهم بشجاعة، فوضعوا رقابهم تحت سيوف الأعداء، وصدورهم أمام رماحهم، ونزفوا الدماء من سهامهم لكنهم لم يترجعوا أبدا عن موقفهم، ولم ينكروا أبدا ما امنوا به، وفي النهاية خافهم الكفار برغم كثرة عددهم، وأصابهم الرعب من قوتهم الإيمانية، وتحققت النبوءة التي قدمها القرآن الكريم بأن "سألقي في قلوب الذين كفروا الرعب"، وقال تعالى "وقف في قلوبهم الرعب" (الأحزاب و الحشر : ١) .

ولقد أمر الله المسلمين بأن يكونوا على استعداد دائما من حيث العدة والعتاد لأجل إلقاء هذا الرعب في قلوب المخالفين : "وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله" (الأنفال : ٨) .

وهذه الآية لا تعني أن أخيفوا الكفار، وإنما عليكم أن تستعدوا بالعدة والعتاد الحربي حتى يلاقوا الكفار من مواجهتكم، ولهذا فإن تجهيز كل أدوات الحرب بشكل دائم فرض على المسلمين، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم عن تربية الخيل استعدادا للجهاد لأنها من أعمال الثواب، فقال : "إن الشخص الذي يربط فرسا في سبيل الله يكون سترا له، والذي يربطه بغرض التظاهر يكون عذابا له" ()، ويعلم من هذا الحديث أيضا

أن النية في الإسلام لها أهمية كبيرة، ومن هنا فأنه من الضروري أن يفهم المسلم الذي أمر بعدم موالاة الكفار أن الهدف من ذلك ليس الكراهية للشخصية أو القومية، وإنما هو من أجل الحق فقط، ومع ذلك فإن الإسلام لم يمنع المسلمين من العدل والإنصاف والتعامل الحسن مع حماة الباطل هؤلاء .

الحب لله والكراهية أيضا لله:

وهنا يمكن أن يقول معترض أن الإسلام لم يقض على عاطفة الكراهية والنفور بشكل كامل، لكن القول بهذا الشكل مخالف لقوانين الفطرة وبمثابة غرض الطرف عنها، فإن الحب والعداء والاتفاق والاختلاف والرضا والغضب من عواطف الإنسان الفطرية، وكل الأعمال والحركات والجد والاجتهاد في هذه الدنيا ما هو إلا نتاج لهاتين العاطفتين الكبيرتين، فإذا ما قضى على هاتين العاطفتين لدى الإنسان فإنه لن يفرق بين الخير والشر وما يدور في فلكهما، وسوف تتحول شعلة النار هذه التي هي عبارة عن قلب الإنسان إلى قطعة من الثلج، ولهذا فإنه من غير الممكن ولا من المناسب إفناء عاطفتي الحب والكراهية لديه بشكل كامل، وإنما الممكن هو أن يتم عزل الاتجاهات الشخصية والميول الذاتية بداخله بعيدا، وليس من تعاليم محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يتم التخلص من الغيظ والغضب بذاتهما كعاطفة إنسانية، وهو أمر ليس ممكنا في الحقيقة، وإنما تحديد المقام المناسب لاستعمالها، ومن هنا فقد حدد الإسلام هذه المقامات وقال بأن لا تكون كراهية شخص والنفور منه مبنية على النفع والخسارة الشخصية، وإنما تكون لحماية الحق ومساعدة الخير ورضا الله تعالى، وأن تكون الصداقة والعداوة والرضا والسخط والمحبة والكراهية وما شابهها لوجه الله تعالى فقط (الحب في الله والبغض في الله) .

حدثنا أبو توبة الربيع بن نافع، عن ابن المبارك، عن ابن أبي ذئب، عن القاسم، عن بكير بن عبد الله بن الأشج، عن ابن مكرز، عن رجل من أهل الشام، عن أبي هريرة أن رجلا قال يا رسول الله: رجل يريد الجهاد في سبيل الله وهو يبتغي عرضا من عرض الدنيا، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: لا أجر له فأعظم ذلك الناس، وقالوا للرجل: عد لرسول الله صلى الله عليه وسلم فلعلك لم تفهمه فقال: يا رسول الله، رجل يريد الجهاد في سبيل الله وهو يبتغي عرضا من عرض الدنيا قال: لا أجر له فقالوا للرجل: عد لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقال له الثالثة، فقال له: لا أجر له

والقول بهذا يبدو رائعا في الظاهر، من أن تخليص الإنسان من عواطف البغض والسخط فرض ديني حسن، ولكن هذا الافتراض مخالف للفطرة، إذ لا يمكن القضاء مطلقا على البغض والسخط، وإنما من الممكن إصلاح سياق هذا البغض وهذا السخط وتوجيههما، وليس من الممكن أيضا أن يحب الإنسان الشيء ونقيضه، فإنه من الطبيعي إذا أحب الخير أن يكره الشر، وإذا أحب الإيمان أن يبغض الكفر، وإذا صادق الصالحين أن يبتعد عن الأشرار، وإذا فرح بالمؤمنين أن يغضب من المنافقين، فليس في صدر الإنسان سوى قلب واحد، ولا يمكن أن تجتمع في هذا القلب محبة شيء ونقيضه، مثلما قال القرآن الكريم :

" ما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه " (الأحزاب : ١) .

شعر : ليس في قلب شخص قلبان .

وقد عبر السيد المسيح عليه السلام عن هذا المعنى بقوله :

" لا يستطيع أحد أن يخدم سيدين، ولهذا فإنه إما أن يصادق أحدا أو يعادي الآخر، أو يؤمن بأحد ويحتقر الآخر، وأنتم لا تستطيعون خدمة الله والمال معا " (متى : ٦-٢٤) .

وقد شرح قديسو المسيحية هذه الفقرة كل حسب ما يراه، فقابل (بولوس) ^(١) بين الله والإنسان و(يعقوب) ^(٢) بين الله والدنيا و(يوحنا) ^(٣) بين الله والأعمال السيئة في الدنيا، قائلين : إن من يحب أحدا لا يستطيع أن يحب الآخر .

وهذا المفهوم في ألفاظ هذه الأحاديث هو أن للمحبة والعداوة ينبغي أن يكونا لله فقط، وليس لذات الإنسان، وقد جاء في شعب الإيمان للبيهقي أن النبي صلى الله عليه وسلم سأل أبا ذر رضي الله عنه : "أي سلسلة من سلاسل الإيمان قوية؟" فقال أبو ذر رضي الله عنه : "الله ورسوله أعلم" فقال صلى الله عليه وسلم : "أن يكون الاختلاط لله، والحب في الله والبغض في الله" وجاء في مسند أحمد أن النبي صلى الله عليه وسلم سأل الصحابة الكرام ذات مرة : "أي العمل الصالح أحب إلى الله؟" فقال أحدهم : "الصلاة" وقال

^١ باسم الكلتيون (١ - ١٠) .

^٢ يعقوب (٤ - ٤) .

^٣ يوحنا (٢ - ٥) .

الآخر: "الزكاة"، وقال الثالث: "الجهاد"، فقال صلى الله عليه وسلم إن أحب العمل الصالح إلى الله أن يكون الحب في الله والبغض في الله (١) .

ليس في الإسلام كراهية دائمة أو وراثية:

«إن معنى البغض والبغضيه والمخالفة فسي الله هو أن لا يكون للأغراض والغايات النفسية للشخص دخل في هذا الأمر، وكذلك أن لا يكون البغض لذات الشخص، وإنما بسبب أفعاله وأخلاقه وأعماله، وهذه الأشياء هي التي تؤدي إلى النفور من صاحبها وبغضه، وهناك آية في القرآن الكريم تقول: «حبب إليكم الإيمان وزينه في قلوبكم وكره إليكم الكفر والفسوق والعصيان» (الحجرات: ١).

في هذه الآية قرر القرآن الكريم أن الذي يستحق الكراهية والنفور ليس هو ذات الشخص الفاسق العاصي، وأن الذي يستحق المحبة ليس هو مجرد المؤمن، وإنما الذي يستحق الكراهية والنفور هو الفسق والفجور، وأن الذي يستحق المحبة هو الإيمان، ويعلم من هذا أن السبب الأساسي في بغض المسلم وكراهيته للكافر والمنافق هو كفرهما ونفاقهما، فإذا انتهى هذا السبب أصبح أخا للمسلم مساوياً له، قال تعالى :

" فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فإخوانكم في الدين " (التوبة : ٣) .

وهذا هو السبب في أن الكراهية تنتقل إلى محبة والعداوة إلى صداقة والبغض إلى رضا فور زوال هذه الصفات عن الكافر والمنافق (أي الكفر والنفاق)، لأنه لا وجود في الإسلام للبغض والكراهية الشخصية أو المبنية على الجنس أو الوطن أو الميلاد، كما أنه ليس في الإسلام بغض دائم، وليس في الإسلام أيضاً من ينظر إليه أنه منبوذ نجس مثلما هو الحال في الهندوسية، ولا نجس غير مختتن أو من شعب آخر كما في اليهودية، ولا من هو طاهر بالأصل أو سيء الأصل كما عند المجوس، ولا تقسيم وتفریق بين الأبيض والأسود والأوروبي وغير الأوروبي كما في المسيحية، وإنما يعتمد الأمر على الكفر والإيمان والشرك والتوحيد، فمن الممكن أن يكون هناك عربي قريشي خالص وهو كافر مثل أبي جهل وأبي لهب، وحبشي وعجمي عادي وهو مؤمن، وموحد مثل بلال الحبشي، وصهيب الرومي، وسلمان الفارسي، ولقد كان عمر رضي الله عنه وسفيان رضي الله عنه وعكرمة رضي الله عنه وخالد رضي الله عنه من ألد أعداء الإسلام وكبار

^١ المشكاة - كتاب الأدب - باب الحب في الله .

قادة الكفار ثم انقلبت الموازين تماما فأصبحوا قادة للمسلمين وقد اتواهم وإخوة فيما بينهم وقد أشار الله تعالى إلى إحسانه هذا بقوله :

" إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا " (آل عمران : ١١) .

وعاطفة الكراهية والبغض للثانية وهي التي تتأسس على نيب الإنسان وعصياناه وهذه العاطفة تتبدل تماما بعد التوبة والندم إلى عاطفة من الرحمة والشفقة وقد بشر رسول الله صلى الله عليه وسلم مثل هؤلاء المذنبين على لسان الله تعالى فقال :

" يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعا إنه هو الغفور الرحيم " (الزمر : ٦) . وقال صلى الله عليه وسلم : "التائب من الذنب كمن لا ذنب له"، وهذا هو السبب في عطف رسول الله صلى الله عليه وسلم على المذنبين والنظر إليهم بعين الرحمة وتبشيرهم برضا الله تعالى، كان هناك رجل مدمنا للخمر وكان الحد يقام عليه مرات ومرات، وذات مرة عندما قبض عليه متلبسا بشرب الخمر قالوا: لعنة الله عليه فكم مرة جاء به ليقام عليه الحد، ولما سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم قولهم هذا قال: لا تلعنوه، والله إنني أعرف عنه أنه يحب الله ورسوله^(١)، وقد استنبط علماؤنا الكرام من هذه الواقعة أنه لا يدعى على مذنب^(٢) .

كان هناك رجل يدعي ماعز بن مالك، وقد ارتكب الزنا بسبب الضعف البشري، وبعد ما فعل هذا تيقظ بداخله إحساسه الروحي، لقد كان يعلم أن جزاءه هو الموت، ومع ذلك فقد ذهب إلى النبي صلى الله عليه وسلم واعترف له بما فعل وطالب بإقامة الحد عليه، وقد رد النبي صلى الله عليه وسلم طلبه هذا مرات عديدة، واستفسر صلى الله عليه وسلم من الناس إن كان مجنونا، وأكد الجميع أنه ليس مجنونا، فأمر بإقامة الحد عليه فأوقف في ميدان وأخذ الناس يرجمونه بالحجارة من كل جانب حتى مات، وكان هناك بعض الصحابة الذين يظنون السوء بما عاز بال رغم من إقباله بشجاعة

^١ صحيح البخاري - كتاب الحدود .

حدثنا يحيى بن بكير: حدثني الليث قال: حدثني خالد بن يزيد، عن سعيد بن أبي هلال، عن زيد بن أسلم، عن أبيه، عن عمر بن الخطاب: أن رجلا على عهد النبي صلى الله عليه وسلم كان اسمه عبد الله، وكان يلقب حمارا، وكان يضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكان النبي صلى الله عليه وسلم قد جلده في الشراب، فأتى به يوما فأمر به فجلد، فقال رجل من القوم: اللهم العنه، ما أكثر ما يؤتى به؟! فقال النبي صلى الله عليه وسلم: (لا تلعنوه، فوالله ما علمت إلا أنه يحب الله ورسوله).

^٢ فتح الباري - شرح الحديث المذكور .

على الحد، فلما علم بذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: استغفروا لما عزر ولقد تاب توبة لو وزعت على شعب بأكملة لوسعته " (١) .

وهكذا أيضا اعترفت امرأة حامل من قبيلة (غامد) بارتكابها الزنا، وطلبت أن يقام عليها الحد، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لها: إن تأتيه بعد أن تضع حملها، فلما جاءته قال صلى الله عليه وسلم عليك بتربية الطفل أولا، وتعالى بعد فطامه ففعلت ذلك كله ولم يقل إحساسها بالذنب، وأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بإقامة الحد عليها، وبينما كان يتم رجمها تطايرت بعض قطرات دمانها وأصابت وجه سيدنا خالد بن الوليد، فشمها فلما سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا قال: صه (اصمت) يا خالد، والذي نفسي بيده لقد تابت توبة لو تابها أخذ المحصول الملكي لعفي عنه (٢) .

^١ صحيح مسلم - كتاب الحدود . وحدثنا محمد بن العلاء الممداني، حدثنا يحيى بن يعلى وهو ابن الحارث المخاري، عن غيلان وهو ابن جامع المخاري، عن علقمة بن مرثد، عن سليمان بن بريدة، عن أبيه، قال: جاء ماعز بن مالك إلى النبي صلى الله عليه وسلم، فقال: يا رسول الله أطهرني، فقال: ويحك! ارجع فاستغفر الله وتب إليه. قال: فرجع غير بعيد، ثم جاء فقال: يا رسول الله أطهرني، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ويحك! ارجع فاستغفر الله وتب إليه. قال: فرجع غير بعيد، ثم جاء فقال: يا رسول الله أطهرني، فقال النبي صلى الله عليه وسلم مثل ذلك، حتى إذا كانت الرابعة قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: فيم أطهرك؟ فقال: من الزن، فسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم: أبه جنون؟ فأخبر أنه ليس بجنون، فقال: أشرب خرا؟ فقال: رجل فاستكه فلم يجد منه ريح خمر، فقال: فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أزييت؟ فقال: نعم، فأمر به فرجم، فكان الناس فيه لمرتين: قاتل يقول: لقد هلك، لقد أحاطت به خطيته، وقائل يقول: ماتوبة أفضل من توبة ماعز: أنه جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم فوضع يده في يده، ثم قال اقتلني بالحجارة، قال: فلبثوا بذلك يومين أو ثلاثة، ثم جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم وهم جلوس فلم يسم ثم جلس، فقال: استغفروا لماعز بن مالك، قال: فقالوا: غفر الله لماعز بن مالك. قال: فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: لقد تاب توبة لو قسمت بين أمة لو سعه.

^٢ كتاب الحدود - ص ٩٤ . قال: فجاءت الغامدية فقالت: يا رسول الله! إنني قد زنت فطهرني، وإنه ردها، فلما كان الغد قالت: يا رسول الله! لم تردني؟ لعلك أن تردني كما رددت ماعزا، فوالله! إنني لحلي، قال: إما لا، فأذهبي حتى تلدي. فلما ولدت أنه بالصبي في خرقة، قالت: هذا قد ولدته. قال: اذهبي فأرضعي حتى تغطي، فلما فطمه أتته بالصبي في يده كسرة خبز، فقالت: هذا، يا نبي الله! قد فطمه، وقد أكل الطعام، فدفع الصبي إلى رجل من المسلمين، ثم أمر بما فحفر لها إلى صدرها، وأمر الناس فرجوها، فيقبل خالد بن الوليد بمجر، فرمى رأسها، فتنضح الدم على وجهه خالدا، فبها، فسمع نبي الله صلى الله عليه وسلم سبه إياها، فقال: مهلا يا خالد! فوالذي نفسي بيده! لقد تابت توبة، لو تابها صاحب مكس لغفر له . ثم أمر بما فصلى عليها ودفنت.

ترك الهوى:

كما علمنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن قيمة الأفعال الحسنة التي يقوم بها الإنسان موقوفة على غرضها وغايتها بمعنى أنه إن فعلها لأجل رضا الله تعالى كانت طيبة وحسنة، وإن كانت لغرض سيء فإنها عندئذ ليست حسنة، وإنما هي كما جاء اسم هذا الغرض الفاسد والرغبة الباطلة في القرآن (الهوى) بولا بد أن يطهر الإنسان أعماله وأخلاقه من الهوى، إذ أن الإله الحقيقي للإنسان هو ذلك الذي يعمل لأجله، ولهذا قال الله تعالى عن أولئك الذين لا يتعبون دين الحق بولا يؤمنون أعمالهم على الإخلاص أن دينهم ومذهبهم هو هواهم النفسي، وأن أصنام أغراضهم ورغباتهم للنفسية كامنة في صدورهم، وقد نبه القرآن الكريم إلى ذلك في سورتي (الفرقان) و (الجاثية) .

"أفرأيت من اتخذ إليه هواه" (الجاثية : ٣) .

ولهذا قدمت الشريعة المحمدية طريقة التخلي عن الهوى وعدم إتباعه من أجل تركية النفس وتطهيرها ورفع الروح وتنزيهاها، ولقد كان المبدأ الأساسي لتعاليم بوذا هو أن يتطهر الإنسان من كل الرغبات، لكن تعاليم محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم هي أن يتطهر الإنسان من كل رغبة سيئة، لأنه إن تطهر من كل رغبة حسنة أو سيئة فإنه لن يكون هناك غرض أو هدف لأفعاله بل ولن يكون هناك دافع لها، ولهذا لم يطالب الإسلام بالتخلص من كل الرغبات، وإنما من كل رغبة سيئة، ومن كل هوى نفساني وغرض وهدف باطل، لأن الإنسان إن لم يفعل واتبع هذا الهوى الباطل لظهر الضلال والغواية، وقد قال الوحي المحمدي :

"ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله" (القصص : ٥) .

وقال : "ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله" (ص : ٢) .

بل إن العدل والإنصاف والصدق والتي هي روح كل عمل طيب تموت كلها باسم القاتل لهذا الهوى، قال تعالى : " فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا " (النساء : ٢) .

فالهوى النفسي هو أساس كل سيئة، ومن أنقذ نفسه منه فكأنما أنقذ نفسه من كل سيئة، وتكون الجنة هي مكان أمنه وأمانه، قال تعالى :

"وأما من خاف مقام ربه ونهي النفس عن الهوى فإن الجنة هي المأوى" (النازعات: ٢) .

الأخلاق والحب الإلهي:

إن أعظم نعم الدنيا هي الحب وخاصة ذلك الحب الذي يكنه العبد لربه ومن أهم الوسائل الناجحة للحصول على هذه النعمة الخالدة والثروة الباقية بالإضافة إلى أن أحكام الدين هي حسن الأخلاق وقد سبقت الإشارة إلى ذلك مجملًا في باب العقائد تحت عنوان الحب الإلهي، ومع ذلك فالمقام الآن يناسب الكلام فيه مفصلاً، فقد جاء التأكيد على حب الله تعالى في التوراة والإنجيل أيضاً لكن السؤال الأساسي هو ما هو السبيل إلى حب الله وكيف يحصل الإنسان على هذه الثروة ولم يجب على هذا السؤال سوى القرآن فقط، وهو باختصار أن إتباع داعي الخير في كل أمر وفعل هو الوسيلة إلى حب الله، وقد قال الله تعالى على لسان نبيه صلى الله عليه وسلم:

" قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله " (آل عمران : ٤) .

ولهذا فإن إتباع تعاليم رسول الله صلى الله عليه وسلم وأخلاقه وأحكامه وإرشاداته هو أكبر وسيلة لحب الله لكن القرآن الكريم لم يكتف بهذه الإجابة المختصرة وإنما ذكر بالاسم كل أولئك الذين يستحقون حب الله وكذلك كل المحرومين منه، وبهذا يستطيع الإنسان أن يستوعب قضية من قضايا مبادئ الأخلاق الإسلامية وهي هل حسن الخلق أيضاً من بين الأعمال التي تعد وسيلة لحب الله؟ وهل سوء الخلق وسوء السلوك من بين صفات أولئك الذين يحرمون من هذه النعمة؟. ويدخل في الصنف الأول من أصحاب الحظ العظيم الجماعات الإنسانية التالية :

" والله ولي المؤمنين " (آل عمران : ٧) .

" إن الله يحب المحسنين " (البقرة : ٢٤ ، المائدة : ٣) .

" إن الله يحب المتوكلين " (آل عمران : ١٧) .

" إن الله يحب للتوابين " (البقرة : ٢٨) .

" إن الله يحب المقسطين " (المائدة : ٦ ، الحجرات : ٧) .

" إن الله يحب المتقين " (التوبة : ١) .

" والله يحب الصابرين " (آل عمران : ١٥) .

" والله يحب المطهرين " (التوبة : ١٣) .

" إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله " (الصف : ١) .

وقد وضحت الآيات السابقة تسعة أمور تؤدي إلى حب الله وهي الإيمان، والإحسان، والتوبة، والتوكل، والإنصاف، والتقوى، والصبر، والجهاد، والتطهير، وفيما يلي صفات أولئك المحرومين من حب الله : " فإن الله لا يحب الكافرين " (آل عمران : ٣٢) .

" إن الله لا يحب المعتكين " (البقرة : ٢٤ ، المائدة : ٢٠) .

" إن الله لا يحب من كان مختالا فخورا " (النساء : ٦) .

" إن الله لا يحب من كان خولنا أثيما " (١٦) .

" إن الله لا يحب كل خوان كفور " (الحج : ٥) .

" إن الله لا يحب المفسدين " (القصص) .

" إن الله لا يحب المسرفين " (الأنعام : ٧) .

" إن الله لا يحب المستكبرين " (النحل : ٣) .

" إن الله لا يحب الظالمين " (الشورى : ٤) .

" والله لا يحب كل كفار أثيم " (البقرة : ٣٨) .

فالصفات السيئة التي تبعد بالإنسان عن حب الله تعالى هي الكفر وسوء القول وتعدي الحد في الانتقام و الفخر والغرور والتفاخر والخيانة ونكران الجميل والجور، والفساد والإسراف والظلم والذنوب. ويتضح من التفصيل السابق إلى أي مدى يدخل عنصر حب الله تعالى في تركيب الأخلاق الإسلامية ومدى أهمية هذا العنصر .

أسلوب وطرق تعليم الأخلاق

لقد بعث الرسول صلى الله عليه وسلم لتعليم الناس مكارم الأخلاق وحثهم على ترك المعاصي، ولهذا أخبرنا القرآن بمهمته يقول: " يعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم " (البقرة آية ١٢٩) ، وأكد على هذا الحديث النبوي بقوله: " وإنما بعثت معلما " (ابن ماجه باب فضل العلماء) .

ولنرى الآن كيف أن المعلم الرباني قد أدى هذه المهمة وأي طريقة اتبعها :

هناك شرط أساسي للمعلم الناجح وهو أن يكون حازما ورفيقا في آن واحد فهو بمثابة الجراح الذي بإحدى يديه مشرط وفي اليد الأخرى مرهم، فعن طريق المشرط يخرج المواد الفاسدة ويندمل الجرح، وعن طريق المرهم يطيب المجروح، فلو فرضنا أن

الجراح يمتلك واحدة فقط من هاتين الأدوات فلن يطيب الجرح ولن تخرج المواد الفاسدة.

فلو أمعنا للنظر في الطرق التي استخدمها الرسول صلى الله عليه وسلم في تعليم الناس مكارم الأخلاق لوجدنا أنه يعرف جيدا متى يستخدم الشدة ومتى يستخدم الرفق، وهنا توضيح لنا السيدة عائشة رضي الله عنها كيف كان للرسول صلى الله عليه وسلم يعاقب كل من خالف شرع الله^(١)، وذات مرة قبض على سيدة من قريش وهي تسرق فأراد بعض المسلمين أن يتوسطوا لها عند الرسول صلى الله عليه وسلم فقال لهم الرسول: "إنما هلك من كان قبلكم، كان إذا سرق فيهم الشريف تركوه وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد"^(٢).

كانت هذه أمثلة على صرامته صلى الله عليه وسلم، أما فيما يتعلق برفقه على الناس فقد جاء بدوي إلى المسجد النبوي ذات مرة، وكان بحاجة إلى الاستنجاء، فجلس البدوي في صحن المسجد واستنجى فرآه الصحابة وأرادوا ضربه فمنعهم الرسول صلى الله عليه وسلم وقال لهم رفقا به، ثم استدعى البدوي بعدها وقال له: إن هذا المسجد مكن للعباد وليس للنجاسة، فهو مكان لنذكر الله وقراءة القرآن الكريم، وطلب الرسول صلى الله عليه وسلم من الناس أن يطهروها بالماء^(٣).

^١ - صحيح البخاري قول النبي - صلى الله عليه وسلم - "يسروا ولا تعسروا". حدثنا محمد بن بشر قال: حدثنا يحيى بن سعيد قال: حدثنا شعبة قال: حدثني أبو الحجاج، عن أنس، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (يسروا ولا تعسروا وبشروا ولا تنفروا).

^٢ - صحيح البخاري كتاب الحدود. حدثنا قتيبة بن سعيد، حدثنا ليث. حدثنا محمد بن ربح، أخبرنا الليث، عن ابن شهاب، عن عروة، عن عائشة: أن قريشا أهمهم شأن المرأة المخزومية التي سرقت، فقالوا: من يكلم فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ فقالوا: ومن يجترأ عليه إلا أئمة؟ حب رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ فكله أئمة، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أتشع في حد من حدود الله؟ ثم قام فاختطب فقال: أيها الناس! إنما أهلك الذين قبلكم، أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف، تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد، وإني لأرى أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها.

^٣ - صحيح البخاري كتاب الأدب باب يسروا ولا تعسروا وكتاب الطهارة، وصحيح مسلم باب وجوب غسل البول. حدثنا أبو اليمان: أخبرنا شعبة، عن الزهري. وقال الليث: حدثني يونس، عن ابن شهاب، أخبرني عبيد الله بن عبد الله بن عتبة: أنا أبا هريرة أخبره: أن أعرابيا بال في المسجد، فثار إليه الناس ليقعوا به، فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم: (دعوه، وأهريقوا على بوله ذنوبا من ماء، أو صبغوا من ماء، فإنما بعثتم مبرين ولم تبعثوا معبرين).

ويحكى أن رجلاً أخطأ ذات مرة في رمضان، فطلب من الناس أن يأتوا به إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا له: لا نستطيع فذهب بمفرده إلى الرسول صلى الله عليه وسلم وحكى له ما حدث فقال له الرسول: عليك بعنق رقبة، فقتل الرجل: لا أملك غلاماً، فطلب منه الرسول صيام شهرين متتابعين فقال للرسول صلى الله عليه وسلم لقد أنقبت وأنا صائم فطلب منه الرسول صلى الله عليه وسلم إطعام ستين مسكيناً، فقال نحن أنفصنا من المساكين فقال للرسول صلى الله عليه وسلم لذهب إلى مدير الصدقات في بني زريق واحصل منه على الصدقة وأطعم بها ستين مسكيناً وما تبقى أطعم به نفسك وأسررتك، فسعد الرجل وذهب إلى قبيلته، وقال لهم كم كنتم أشداء، بكم كان الرسول صلى الله عليه وسلم رؤوفاً (١) .

وهناك أحداث أخرى يتضح منها للشدة في حالة الخوف من عدم تنفيذ حدود الله، ولكن الأمور التي بها متسع من المستحبات أو الفضائل كان الرسول صلى الله عليه وسلم يلجأ فيها إلى الرأفة والحب بين الناس .

١- اختيرت العديد من الطرق في تعليم الأخلاق والفضائل، فأحياناً كان عن طريق إيلاخ الأوامر الإلهية، وأحياناً عن طريق إعطاء الأمثلة والتشبيهات المؤثرة، وأحياناً عن طريق عرض النتائج الإيجابية والسلبية لأي عمل، كل هذا يؤثر على السامع ويجعله مستعداً للعمل بالأخلاق الحميدة، وهكذا فالقرآن الكريم يأمرنا في تعاليمه بقوله :

١- أبو داود باب في الظهار . حدثنا عبد بن حيد والحسن بن علي . حدثنا يزيد بن هرون . حدثنا محمد بن إسحق عن محمد بن عمرو بن عطاء عن سليمان بن يسار عن سلمة بن صخر الأنصاري قال : كنت رجلاً قد أوتيت من جماع النساء ما لم يؤت غيره، فلما دخل رمضان تظاهرت من امرأتي حتى يتسلخ رمضان فرقا من أن أصيب منها في ليلتي فاتصابع في ذلك إلى أن يدركني النهار وأنا لا أقدر أن أنزع، فبينما هي تحممني ذات ليلة إذ تكشف لي منها شيء فلويت عليها، فلما أصبحت غدوت على قومي فأخبرتهم خيري فقلت : اطلقوا معي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبره بأمري، فقالوا : لا والله لا نفعل، نتخوف أن يرول فينا قرآن أو يقول فينا رسول الله صلى الله عليه وسلم مقالة يقي علينا عارها، ولكن اذهب أنت فاصنع ما بدا لك . قال : فخرجت فاتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبرته خبري، فقال : أنت بذلك؟ قلت : أنا بذلك . قال : أنت بذلك؟ قلت : أنا بذلك؟ وهاءنذا فامض في حكم الله فإني صابر لذلك . قال : اعتق رقبة . قال : فضربت صفحة عتقي يدي، فقلت : لا والذي بعثك بالحق لا أملك غيرها . قال : صم شهرين . قلت : يا رسول الله وهل أصابني ما أصابني إلا في الصيام . قال : فاطعم ستين مسكيناً . قلت : والذي بعثك بالحق لقد بنتا ليلتنا هذه وحشا ما لنا عشاء . قال : اذهب إلى صاحب صدقة بني زريق، فقل له فليدفعها إليك فاطعم عنك منها وسقا ستين مسكيناً، ثم استعن بسائره عليك وعلى عيالك . قال : فرجعت إلى قومي، فقلت : وجدت عندكم الضيق وسوء الرأي، ووجدت عند رسول الله صلى الله عليه وسلم السعة والبركة، أمر لي بصدقتكم فادفعوها إلي فدفعوها إلي .

" إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون " (النحل آية ٩٠) .

وبهذا نجد أن الله قد أصدر تعاليمه بقوله أفعلوا هذا وتجنبوا هذا، فيجب على عباده أن يمتثلوا لتعاليمه، وليس لهم الحق في أن يتهربوا من العمل على إتمامها .

أما الطريقة الثانية من تعليم الفضائل فهي إتباع أسلوب تشبيه الفضائل والمحاسن بالأشياء الجميلة، وتشبيه الرذائل بالأشياء القبيحة حتى يميل السامع أو المتلقي إلى الفضائل وتجنب الرذائل، فمثلاً فضيلة الأخلاق في الدنيا شبهها القرآن الكريم كمثّل حبة (البقرة آية ٢٦١) فهي كحبة الخبز التي تثبت في كل حبة مائة حبة من الخير الرباني، أما فعل الرياء والاستعراض فهو لا فائدة فيه للمخلوق ولا يجازي عليه الخالق فهو كما عبر عنه القرآن الكريم " كصفوان " (البقرة آية ٢٦٤) جاء عليه التراب فأصابه وابل وتركه صليداً فلا يخرج منه شيء .

ومن يأكل أموال اليتامى ظلماً فهو كما عبر عنه القرآن الكريم بقوله: " إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً إنما يأكلون في بطونهم نارا وسيصلون سعيراً " (النساء آية ١٠) ، كما أظهر القرآن كراهية إساءة المسلم لأخيه المسلم فقال: " ولا يغتصب بعضهم بعضاً أحب أحكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً " (الحجرات آية ١٢) .

إن من يهب شخصاً شيئاً ما ثم يأخذه مرة أخرى فهذا خلاف الشرف والكرم، وقد أظهر الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم مساوئ هذا الشيء بقوله: " إن من يعطي شخصاً شيئاً ما ثم يأخذه كمن يتقيأ شيئاً ثم يلعه مرة أخرى " هل يوجد أسوأ من هذا التشبيه !! .

لقد ارتكب شخص من قبيلة (أسلم) ذنباً أخلاقياً، وجاء بعد فترة واعترف للرسول صلى الله عليه وسلم بارتكاب خطاه وطلب من الرسول صلى الله عليه وسلم تطبيق حدود الله عليه، وبعد أن قام الرسول بالاستقصاء والتحقيق في قضيته أمر برجمه، وعندما تم رجمه وسمع الرسول أحد الناس يقول للأخر لقد ستره الله في ذنبه ففضح نفسه، ورجم كالكلب، سمع الرسول صلى الله عليه وسلم هذا وسكت، وبينما هو يمشي فإذا به يجد جثة حمار فسأل الرسول صلى الله عليه وسلم عن هذا للرجل فقال أنا هنا يا رسول الله فقل له الرسول صلى الله عليه وسلم تعال وكل شيئاً من جثة هذا الحمار، فقال الرجل: يا

رسول الله من يأكل هذا؟ فقال له الرسول صلى الله عليه وسلم إن ما قلته في حق أخيك نسوا من أكل هذه الجنة (١) .

فهل هناك أسلوب أكثر تأثيرا لزم للغيبة أكثر من هذا؟، أما الطريقة الثالثة فهي لقرن نتائج الأعمال الصالحة بالخير والأعمال السيئة بالسوء مما يجعل الإنسان يقبل على عمل الخير ويترك عمل الشر. فقد اختار الإسلام هذه الطريقة فمثلا شرب الخمر ولعب الميسر عبر القرآن عن نتائجه بقوله: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رَجَسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تَفْلَحُونَ، إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء في الخمر والميسر ويصنمكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهل أنتم منتهون" (المائدة آية ٩٠، ٩١) ودائما ما نجد نهاية شرب الخمر والميسر هي العداوة والبغضاء وتصل إلى القتل والانتحار، وعندما يذمها الإنسان ينسى دينه ودنياه، وتكون النتيجة خسارة المال والروح .

ولقد اختار الإسلام طريقة أخرى لتعليم الأخلاق، فشبّه التحلي بالأخلاق والفضائل بأنها من محاسن النبوة ونسب الرذائل بأنها من خصائص الشيطان مما يجعل الإنسان يقبل على الفضائل ويجتنب الرذائل فقد أمر بالعفو بقوله: "إِنْ تَبْدُوا خَيْرًا أَوْ تَخَفَوْهُ أَوْ تَعْفُوا عَنْ سُوءٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفْوًا قَدِيرًا" (النساء آية ١٤٩)، فبالرغم من أن العفو من خصائص الألوهية فقد أمر الله عباده بأن يتخلقوا بأخلاق الله مع أنها مقولة مشهورة إلا أننا نستنبطها من الآية، وقد أوضح بعض المفسرين هذا .

وفي الحديث أن صحابيا سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم يا رسول الله لو أراد أحد أن يكون ملبسه وسلوكه جميلا، أيكون هذا غرورا فقال له الرسول صلى الله عليه وسلم إن الله جميل يحب الجمال (صحيح مسلم والترمذي) .

لهذا يجب على الناس أن يراعوا جمال لباسهم وسلوكهم، وهكذا وضح القرآن للمسلمين إتباع منهج الرسول بقوله: "لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ" (الأحزاب آية ٢١)، وكذلك أعطى مثلا بأن لا يلام الإنسان في قول الحق من أهله وأقاربه بقوله: "قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ" (الممتحنة آية ٤)، وقد وضح القرآن في كلتا الآيتين التحلي ببعض صفات النبوة، ورغب الناس في إتباعها والعمل

١ تفسير عبر المحيط لأبي حيان الأندلسي تفسير الآية المذكورة ج ٣ — ٣٨٥ .

بها، كما نـم القرآن الإسراف بقوله "إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين" (الإسراء آية ٢٧) فمن منا يريد أن يكون أخا للشيطان !!.

والخلاصة أن الإسلام ثبت في أذهان العرب مساوئ الرذائل ومحاسن الفضائل بالعديد من الأساليب البلاغية المختلفة، وقد بين لنا الصحابي الجليل جابر بن سليم عندما قدم إلى رسول الله لأول مرة فقال: "رأيت أن شخصا ما يجلس يتحدث إلى الناس فيسمعون له فسألت من هذا الشخص فقال للناس: إن هذا هو رسول الله فقلت: سلام عليك يا رسول الله فصمت الرسول لبرهة، ثم قال له لا تقل عليك السلام لأن هذا سلام الأموات فقل السلام عليك فقلت هل أنت رسول الله فقال نعم: أنا رسول الله، الذي تناديه عندما يصيبك ألم، وهو الذي تطلب منه عندما يصيب أرضك الجفاف أن ينبتها، وهو الذي تطلب منه المساعدة عندما تضل دابتك أن يعيدها إليك فقلت: يا رسول الله انصحنى فقال الرسول صلى الله عليه وسلم لا تسيء لأحد، فيقول جابر رضي الله عنه لن أثر هذا علي ظل طيلة حياتي فلم أسيء إلى سيد أو عبد أو حتى حيوان، وهناك نصيحة أخرى فقال: لا تحتقر أي عمل خيري حتى ولو كان بسيطا فحتى ابتسامتك في وجه أخيك صدقة، وأن ترفع إزارك إلى أعلى لأن ترك الإزار إلى أسفل علامة على الغرور (١) والله لا يحب الغرور، ولو أن أحدا سبك فلا تسبه ومن كان منكم به سيئة فلا يعايره أحد بها لأن وبالتها سيقع عليه (٢) .

وهكذا رأينا أثر هذه الطريقة البلاغية المؤثرة على هذا البدوي أمام الله، ولا نعلم كم مرة وقعت هذه الأمور في حياته التي نكره بها للرسول صلى الله عليه وسلم ولذلك

^١ كان العرب يفعلون هذا قبل ذلك حيث كان دليلا على المراء والفخر والغرور مثلما يترك العباءة بعض الأقوام الأخرى وراءه على الأرض وهو يمشي .

^٢ سنن أبو داود باب في إسبال الإزار . حدثنا مسدد، ثنا يحيى، عن أبي غفار، ثنا أبو نعيم الهجيمي، وأبو نعيم اسمه طريف بن مجاهد، عن أبي جري جابر بن سليم قال: رأيت رجلا يصدر الناس عن رأيه لا يقول شيئا إلا صدروا عنه، قلت: من هذا؟ قالوا: هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم، قلت: عليك السلام يا رسول الله مرتين، قال: لا تقل: عليك السلام لسان عليك السلام تحية الميت، قل: السلام عليك قال: قلت: أنت رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ قال: أنا رسول الله الذي إذا أصابك ضرر فدعوتك كشفه عنك، وإن أصابك عام سنة فدعوتك أنبتها لك، وإذا كنت بأرض فقراء أو فلاة فضلت راحلتك فدعوتك ردها عليك قال قلت: أعهد إلي، قال: لا تسين أحدا قال: فلما سبت بعده حرا ولا عبدا ولا بعيرا ولا شاة، قل: ولا تخقر شيئا من المعروف، وإن تكلم أخاك وأنت منبسط إليه وجهك، إن ذلك من المعروف، وارفع إزارك إلى نصف الساق، فإن أبيت لئالي الكمين، وإياك وإسبال الإزار لئلا من المخيلة، وإن الله لا يحب المخيلة، وإن امرؤ شتمك وعيرك بما يعلم فيك فلا تعره بما تعلم فيه، فإنما وبال ذلك عليه.

اتبع قلبه الصدق وطلب من الرسول صلى الله عليه وسلم للنصيحة، وهكذا فإن واجب الطبيب أن يعالج مريضه طبقاً لحالته لهذا وجدنا الرسول صلى الله عليه وسلم يجيب على سؤال السائل طبقاً لظروفه، ومن هنا وجدنا علاجه أو نصيحته لسيدنا جابر رضي الله عنه والتي خلاصتها أن لا يغتر ولا يتكبر ووصف له التدابير لعلاج هذا المرض .

جاء شخص إلى الرسول صلى الله عليه وسلم فقال انصحنى يا رسول الله فقال له الرسول: لا تغضب فكرر سؤاله أكثر من مرة للرسول فقال له الرسول صلى الله عليه وسلم في كل مرة نفس الإجابة (١)، ويتضح من هذا أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان يشخص لكل إنسان علاجه طبقاً لحالته حيث كان الغضب هو الذي يسيطر على هذا الرجل فكان الغضب سبباً في كثرة مساوئه لهذا اقترح عليه الرسول هذا العلاج الذي يبدو بسيطاً في بادئ الأمر وكان الرجل يرغب في علاج آخر إلا أن الرسول صلى الله عليه وسلم كرر له في كل مرة أن لا يغضب .

سأل الصحابي الجليل أبو ذر رضي الله عنه رسول الله عن أفضل الأعمال فقال له الرسول صلى الله عليه وسلم الإيمان بالله والجهاد في سبيل الله، ثم سأل هل عتق الرقبة أفضل الأعمال فقال له الرسول عندما يكون ثمن عتقه كبير وأن يكون محبوباً لسيدته، ثم سأل مرة أخرى لو أنني لم أستطع أن أفعل أي شيء من هذه الأعمال؟ فقال له الرسول صلى الله عليه وسلم ساعد المحتاج فقال له إن لم أستطع، فقال له الرسول صلى الله عليه وسلم ادفع عن الناس للشر فهذه صدقة يمكنك القيام بها (أدب المفرد والبخاري ص ٤٥ مصر).

كما كان الرسول صلى الله عليه وسلم أحياناً يسأل الناس وينظر إلى إجاباتهم، وذات مرة سأل الرسول صلى الله عليه وسلم أحد الصحابة رضوان الله عليهم أتعرف من هو المفلس فأجاب الناس المفلس هو الذي لا مال ولا ثروة عنده فقال الرسول صلى الله عليه وسلم المفلس في أمتي هو الذي صلى وصام وزكى ويأتي يوم القيامة وقد سب هذا وقذف هذا وأكل مال هذا وقتل هذا فيأخذ من حسناته ويعطي

١ - صحيح البخاري كتاب الأدب باب الحد من الغضب، والترمذي باب ما جاء في كثرة الغضب.

حدثنا يحيى بن يوسف: أخبرنا أبو بكر، هو ابن عياش، عن أبي حصين، عن أبي صالح، عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رجلاً قال للنبي صلى الله عليه وسلم: أوصني، قال: (لا تغضب) فردد مراراً، قال: (لا تغضب).

للآخرين فلو انتهت حسناته فيأخذ من سيئات الآخرين وتكتب عليه ويقذف في النار^(١).
كم هي مؤثرة حقيقة المفلس .

وهكذا سأل الرسول صلى الله عليه وسلم ذات مرة من هو البطل أو القوي فقال
الناس:الذي لا يهزم في الميدان،فقال صلى الله عليه وسلم القوي من يملك نفسه عند
الغضب^(٢) .

كان هناك شخص لا تعيش له أولاد فأراد الرسول أن يعلمه الصبر فسأل
الرسول صلى الله عليه وسلم من تطلقون عليه بأنه يلا أولاد فقال الصحابة من لا ولد له
فقال الرسول صلى الله عليه وسلم الذي لا ولد له هو الذي لم يمت له أولاد قبله^(٣).وفي
الأحاديث أن من يموت له أطفال صغار فعلى والديه أن يتحلوا بالصبر لأن الطفل
سيكون شفيعا لأهله يوم القيامة " .

وهذه الطريقة الجميلة رسخت في أذهان الناس أن من لم يكن لديه ولد فعليه
بالصبر لأنهم سيكونون سببا في رفعته يوم القيامة.ذات مرة كان الناس يجلسون فجاء
الرسول صلى الله عليه وسلم إليهم وسألهم من منكم يخبرني من هو أفضلكم؟فصمت
الحاضرون(ربما يكونون قد فهموا بأن الرسول صلى الله عليه وسلم يسأل عن أسماء
الأحسن والأسوأ في كل جماعة) فكرر الرسول السؤال مرة أخرى ثم سأل مرة ثالثة

^١ - صحيح مسلم كتاب البر باب تحريم الظلم .حدثنا قتيبة بن سعيد وعلي بن حجر،قالا:حدثنا إسماعيل،وهو ابن
جعفر،عن العلاء،عن أبيه،عن أبي هريرة،أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:(أتدرون ما المفلس؟).قالوا:المفلس فينا
من لا درهم له ولا متاع،فقال:(إن المفلس من أمتي، يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة،ويأتي قد شتم هذا،وقذف
هذا،وأكل مال هذا،وسفك دم هذا،وضرب هذا،فيعطي هذا من حسناته وهذا من حسناته،فإن فئت حسناته،قبل أن
يقضى ما عليه،أخذ من خطاياهم فطرحت عليه،ثم طرح في النار.

^٢ صحيح مسلم باب فضل من يملك نفسه عند الغضب .حدثنا قتيبة بن سعيد،وعثمان بن أبي شيبة،والنفاذ
لقتيبة،قالا:حدثنا جرير،عن الأعمش،عن إبراهيم التيمي،عن الحارث بن سويد،عن عبد الله بن مسعود،قال:قال رسول الله
صلى الله عليه وسلم:(ما تعدون الرقوب فيكم؟).قال:قلنا:الذي لا يولد له.قال:(ليس ذاك بالرقوب،ولكن الرجل الذي
يقدم من ولده شيئا).قال:(فما تعدون الصرعة فيكم؟).قال:قلنا:الذي لا يصصره الرجال،قال:(ليس بذلك،ولكن الذي
يملك نفسه عند الغضب).

^٣ المرجع السابق .

فقال أحد الأشخاص يا رسول الله أخبرنا من هو أفضل الناس فينا؟ فقال الرسول صلى الله عليه وسلم إن أفضلكم هو الذي يأمل منه الناس للخير ويأمنون شره^(١) .

قال الرسول صلى الله عليه وسلم ذات مرة من يسمع كلامي ويعمل به ويعلمه الآخرون حتى يعملوا به؟ فقال أبو هريرة رضي الله عنه أنا يا رسول الله. فقال أبو هريرة: أملك الرسول صلى الله عليه وسلم بيدي فعلمني خمس :

١- اجتناب الذنوب يجعلك من عباد الله للمتقين .

٢- القناعة بما أعطاه الله لك تكن أغنى الناس .

٣- الإحسان بالمال يجعلك مؤمنا .

٤- أن تحب لأخيك ما تحب لنفسك تكن مسلما .

٥- أن لا تضحك كثيرا لأن الضحك يذهب القلوب^(٢) .

قال الرسول صلى الله عليه وسلم ذات مرة من منكم يحفظ ما بين فكيه ورجليه اضمن له الجنة^(٣) ومن يعرف كم من المسلمين نهضوا لضمان هذا .

انظر إلى بلاغة هذه الفقرة فالمقصود ما بين الفكين هو اللسان الذي هو أساس كل المعاصي وما بين فخذي الإنسان فهو أعضائه الجنسية وهو أساس كل المصائب ومن يعمل على حفظهما يصلح جزءا كبيرا من ميقاته .

ذات مرة قال الرسول صلى الله عليه وسلم من منكم يعتني بهذا اضمن له الجنة فقال ثوبان رضي الله عنه أنا يا رسول الله فقال له الرسول صلى الله عليه وسلم لا تطلب من أحد شيئا وبالفعل لم يسأل أحدا مطلقا^(٤) .

^١ الترمذي كتاب الفتن . حدثنا عبد العزيز بن محمد عن العلاء بن عبد الرحمن عن أبيه عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم وقف على أناس جلوس فقال: ألا أخبركم بخيركم من شركم؟ قال: فكشوا، فقال ذلك ثلاث مرات، فقال رجل: بلى يا رسول الله أخبرنا بخيرنا من شرنا، قال: خيركم من يرجي غيره ويؤمن شره، وشركم من لا يرجي غيره ولا يؤمن شره .

^٢ جامع الترمذي أبواب الزهد . حدثنا بشر بن هلال الصواف البصري . حدثنا جعفر بن سليمان عن أبي طارق عن الحسن عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: من يأخذ عن هؤلاء الكلمات فيعمل بهن أو يعلم من يعمل بهن؟ فقال أبو هريرة: قلت: أنا يا رسول الله، فأخذ بيدي فعد حسا وقال: اتق المحارم تكن أعبد الناس، وارض بما قسم الله لك تكن أغنى الناس، وأحسن إلى جارك تكن مؤمنا، وأحب للناس ما تحب لنفسك تكن مسلما، ولا تكثر الضحك، فإني كثرة الضحك تميت القلب .

^٣ صحيح البخاري باب حفظ اللسان . حدثنا محمد بن أبي بكر المقنمي . حدثنا عمر بن علي . سمع أبا حازم، عن سهل بن سعد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (من يضمن لي ما بين لحييه وما بين رجليه أضمن له الجنة)

الجميع يعلم أن سفك دماء أي مسلم في أرض الحرم وخاصة أيام الحج نذير عظيم، وعندما وقف الرسول صلى الله عليه وسلم في منى أثناء خطبة الوداع فسأل صلى الله عليه وسلم وقال أيها الناس ما لليوم؟ فاعتقد الناس أن الرسول يريد أن يختار اسماً آخر لهذا اليوم فقال له الناس ما الممثل أعلم من السائل فقال صلى الله عليه وسلم إن اليوم ليس يوم أضحية فقال للجميع نعم يا رسول الله، ثم سأل ما هذا الشهر؟ فسكت الجميع واعتقد للجميع أن الرسول صلى الله عليه وسلم يريد أن يختار اسماً آخر لهذا الشهر فأجابوه الإجابة السابقة فقال صلى الله عليه وسلم إن هذا الشهر ليس ذي الحجة فقال للجميع نعم يا رسول الله، ثم سأل الرسول ما هذا المكان؟ فسكت الجميع وظنوا مثلاً ظنوا سابقاً فقال لهم الرسول صلى الله عليه وسلم إن هذا المكان ليس البلد الحرام فقالوا له نعم يا رسول الله، وعندما تيقن الرسول من حرمة هذا اليوم وهذا الشهر وهذا المكان في قلوب المسلمين نهض الرسول صلى الله عليه وسلم وقال: أيها المسلمون إن دماء المسلمين وأموالهم وأعراضهم حرام عليكم كحرمة يومكم ومقامكم وشهركم هذا (١) .

كان الرسول صلى الله عليه وسلم ينصح أصحابه كلا على حسب حالته وطباعه فمثلاً كان سيدنا أبو ذر رضي الله عنه من الزاهدين فقال له الرسول صلى الله عليه وسلم يا أبا ذر اخشى الله حيثما تكون ولتبع للسنة الحسنة وتحبها وعامل الناس بالخلق الحسن (٢) .

عادة ما يفهم الناس أن المال أو النقود هي الصدقة الوحيدة التي يمكن أن تؤدي في سبيل الله، فأراد الرسول صلى الله عليه وسلم أن يبعد عن أذهان المسلمين هذا الفكرة

١ مسند أحمد ج ٥ — ٢٧٥ . حدثنا عبد الله حدثني أبي ثنا أسود بن عامر ثنا شريك عن عاصم عن أبي العالية عن ثوبان عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: من يتكفل لي بواحدة وأتكفل له بالجنة؟ قال ثوبان: أنا، قال: لا تسأل الناس — يعني شيئاً — قال: نعم، قال: فكان لا يسأل.

٢ صحيح البخاري الخطبة في أيام منى . حدثنا محمد بن المثنى: حدثنا يزيد بن هارون: أخبرنا عاصم بن محمد بن زيد، عن أبيه، عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم يعني: (أتدرون أي يوم هذا). قالوا: الله ورسوله أعلم، فقال: (إن هذا يوم حرام، أفندرون أي بلد هذا). قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: (بلد حرام، أفندرون أي شهر هذا). قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: (شهر حرام). قال: (إن الله حرم عليكم دماءكم وأموالكم وأعراضكم، كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا، في بلدكم هذا).

٣ الترمذي باب ما جاء في معاشره الناس . حدثنا محمد بن بشار . حدثنا عبد الرحمن بن مهدي . حدثنا سفيان عن حبيب بن أبي ثابت عن ميمون بن أبي شيب عن أبي ذر قال: قال في رسول الله صلى الله عليه وسلم اتق الله حيثما كنت، واتع السيئة الحسنة تحبها، وخالف الناس بخلاف حسن .

الخاطئ فقال لسيدنا أبي ذر رضي الله عنه أن الابتسامة في وجه أخيك صدقة، وإهداء الأعمى في الطريق صدقة، وإمالة الأذى عن الطريق صدقة، ومساعدة الآخرين صدقة. ولهذا كانت للصدقة في قلوب المسلمين أهمية كبيرة ولهذا رسخ الرسول صلى الله عليه وسلم الصدقة في قلوب المسلمين عن طريق فعل الخيرات (١).

كان الرسول صلى الله عليه وسلم أحياناً يأخذ البيعة من المسلمين على بعض الخصال الحميدة ولهذا جاء القرآن مؤيداً له بقوله يا أيها النبي إذا جاءك المؤمنات يبایعنك على أن لا يشركن بالله شيئاً ولا يسرقن ولا يزنين ولا يقتلن أولادهن ولا يأتين ببهتان يفترينه بين أيديهن وأرجلهن ولا يعصينك في معروف فبايعهن واستغفر لهن الله إن الله غفور رحيم" (المتحنة آية ١٢) .

يقول عبادة بن الصامت رضي الله عنه لقد بايعتنا يا رسول الله على هذه الأمور ونحن نتبعك في كل الأمور والأحوال وسنلتزم العدل والإنصاف في كل موقع وأن لا تأخذنا في الله لومة لائم (٢) .

ويقول عبادة رضي الله عنه عندما أسلم الأنصار قبل الهجرة في مكة فاخترار الرسول منهم بعض الرجال فقال لهم الرسول صلى الله عليه وسلم أنتم النقباء، فيقول عبادة رضي الله عنه كنت واحداً من هؤلاء فبايعنا الرسول صلى الله عليه وسلم على الأمور التالية: أن لا نشرك بالله شيئاً وأن لا نسرق وأن لا نأتي ببهتان وأن لا نقتل أحداً

^١ الترمذي في صناع المعروف . حدثنا عباس بن عبد العظيم العنبري . حدثنا النضر بن محمد الجرشي البجلي . حدثنا عكرمة بن عمار . حدثنا أبو زميل عن مالك بن مرثد عن أبيه عن أبي ذر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: يمسك في وجه أخيك لك صدقة، وأمرك بالمعروف ونهيك عن المنكر صدقة، وإرشادك الرجل في أرض الضلال لك صدقة، وبصرك للرجل الرديء البصر لك صدقة، وإماتتك الحجر والشوكا والعظم عن الطريق لك صدقة، وإفراغك من دلوك في دلو أخيك لك صدقة.

^٢ مسند أحمد بن حنبل ج ٥ ص ٣١٨ . حدثنا عبد الله حدثني أبي ثنا وكيع ثنا أسامة بن زيد عن عبادة بن الوليد بن عبادة بن الصامت عن جده عبادة بن الصامت قال بايعنا رسول الله صلى الله عليه وسلم على السمع والطاعة في العسر واليسر والمنشط والمكره، وأن لا ننزع الأمر أهله، وأن نقول بالحق حيثما كنا ولا نخاف في الله لومة لائم.

بغير حق، فلو عملنا بكل هذه الأمور فسنكون الجنة نصيبنا ولو قصر أحد في هذه الأمور فمصيره إلى الله^(١)، فإله وحده يعلم كم حافظ هؤلاء السعداء على عهودهم .

كان الرسول في بعض الأوقات يسأل ويلتفت الناس إليه ولكن قبل أن يجيبه الناس كان يجيبهم، فسأل ذات مرة من هو المفترى؟ فأجاب هو نفسه قبل أن يجيبه الناس بقوله صلى الله عليه وسلم هو الذي يغتاب الناس وينقل للكلام من هذا إلى ذاك^(٢) .

وذات مرة قال صلى الله عليه وسلم ما هي الغيبة؟ فأجاب الناس: الله ورسوله أعلم، فقال الرسول صلى الله عليه وسلم أن تذكر أخاك بما لا يحبه، فقال أحد الناس: لو كانت هذه السيئة موجودة حقيقة فيمن نتحدث عنه، فقال للرسول صلى الله عليه وسلم حتى لو كانت فيه حقيقة فهي غيبة وإثم عظيم^(٣) .

قال الرسول صلى الله عليه وسلم ألا أخبركم من هم أهل الجنة، فقال الصحابة رضوان الله عليهم نعم يا رسول الله، فقال لهم الرسول صلى الله عليه وسلم كل ضعيف قلب يحقره الناس أو متواضع (والذي قوة إيمانه) لو أقسم على الله لأبره، ثم قال لهم ألا أخبركم بأهل النار، فقال له الصحابة رضوان الله عليهم نعم يا رسول الله، فقال الرسول صلى الله عليه وسلم كل مغرور^(٤) .

أحياناً كان الرسول يسأل بنفسه ويكرر السؤال أكثر من مرة فيعرف الحاضرين أهمية السؤال من تكراره فيسألون ما هذا الأمر يا رسول الله، وبعدها يجيبهم الرسول

^١ صحيح البخاري ج ٢ ص ٥ كتاب الديات. حدثنا عبد الله بن يوسف: حدثنا الليث: حدثنا يزيد، عن أبي الخير، عن الصنابحي، عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال: إني من النقباء الذين يبيعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم، بايعناه على أن لا نشرك بالله شيئاً، ولا نسرق، ولا نزني، ولا نقتل النفس التي حرم الله، ولا ننتهب، ولا نعصي، بالجنة إن فعلنا ذلك، فإن غشنا من ذلك شيئاً، كان قضاء ذلك إلى الله. صحيح مسلم باب تحريم النيمة .

^٢ صحيح مسلم باب تحريم الغيبة. حدثنا يحيى بن أيوب وقتيبة وابن حجر، قالوا: حدثنا إسماعيل، عن العلاء، عن أبيه، عن أبي هريرة: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (أتدرون ما الغيبة؟). قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: (تذكر أخاك بما يكره). قيل: أفرأيت إن كان في أخي ما أقول؟ قال: (إن كان فيه ما تقول، فقد اغتبت به، وإن لم يكن فيه، فقد بهته).

^٣ صحيح مسلم باب جهنم. حدثنا محمود بن غيلان: حدثنا أبو نعيم. حدثنا سفيان عن معبد بن خالد قال: سمعت حارثة بن وهب الخزاعي يقول: سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول: ألا أخبركم بأهل الجنة: كل ضعيف متضعف لو أقسم على الله لأبره. ألا أخبركم بأهل النار: كل عتل جواظ متكبر .

ذات مرة قال الرسول صلى الله عليه وسلم الأمانة هي الإخلاص، فضال الصحابة رضوان الله عليهم يا رسول الله الإخلاص مع من؟ فقال لهم الرسول صلى الله عليه وسلم الإخلاص مع الله ومع كتابه ومع رسوله ومع أولي الأمر من المسلمين وعامة المسلمين^(١).

بعد هذا الشرح والتفصيل للأصول الأخلاقية الإسلامية، أتيج لنا أن نتقصى هذه
التعاليم الأخلاقية التي جاءت عن طريق سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، وقد قسم
الإسلام هذه التعاليم الأخلاقية في ثلاثة أجزاء وهي: الحقوق، الفضائل، والروايل، الآداب .
فالتعليم الأول الذي أكدته الإسلام هو أن هناك حقوق على الإنسان تجاه أخيه
الإنسان وتجاه الحيوانات والكائنات الأخرى، وهي حقوق يجب على كل إنسان الالتزام
بها طبقاً لإمكاناته .

الحقوق والواجبات

تم شرح إجمالي لمعنى الحق سالفا ولكن يجدر بنا أن نفصل هنا أكثر طبقا لما جاء به المعنى القرآني "خلق لكم ما في الأرض جميعا" (البقرة آية ٢٩) من هنا نرى أن كل شيء خلق في الدنيا جاء لمصلحة الإنسان ولهذا يجب على الإنسان أن يحافظ عليه ويعمل على النهوض به، وأن يستفيد من كل ما خلق الله له وطبقا للوظيفة التي جعلها الله

² المشكاة باب الشفقة على الخلق صحيح مسلم والبخاري .

له ولن ينقذه من كل ضرر يلحق به وهذه المسئولية هي ما نسميها أو نطلق عليها كلمة حق يجب الالتزام بها.

" وفي أموالهم حق للسائل والمحروم " (الذاريات آية ١٩) .

" وللتين في أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم " (المعارج آية ٢٤) .

" وأت ذا القربى حقّه والمسكين وابن السبيل " (الإسراء آية ٢٦) .

" فأت ذا القربى حقّه والمسكين وابن السبيل " (الروم آية ٣٨) .

عندما يهب الله الإنسان المال أو الثروة فرض عليه أن يؤدي حق من لم يملك هذه الثروة أو المال والأقربون هم أولى بالمعروف ثم يأتي بعدهم المسكين وابن السبيل، وفي موضع آخر نسب القرآن هذا الحق إلى المال نفسه "وأتوا حقّه يوم حصاده ولا تسرفوا" (الأععام آية ١٤١) .

بمعنى أنه عندما يهب الله الإنسان أي قطعة أرض فيجب عليه أن يؤدي فريضة ما يحصد من زرع هذه الأرض إلى عباد الله المعتمدين وأن لا يسرق وينفق هذه النعمة في غير موضعها وإلا يعد هذا من باب إتلاف هذا الحق، وقد جاء في الحديث "إن لزورك عليك حقا ولزورك عليك حقا" (البخاري باب الصوم)، وقد جاء في حديث آخر بأن حق الزوجة على زوجها أن يطعمها وأن يكسوها وألا يضربها على وجهها" (أبو داود بلب النكاح)، يتضح من هذا أن هناك حقوق لكل إنسان تجاه الآخر ليس هذا فحسب بل إن للإنسان أيضا حقوق تجاه نفسه وتجاه كل عضو من أعضاء جسده وقد أرشدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم في هذا الأمر حيث قال: "فإن لنفسك عليك حقا" (البخاري باب الصوم)، وقال أيضا: "فإن لجسدك عليك حقا ولعينك عليك حقا" (البخاري باب الصوم) . يتضح من هذا الإسهاب أن مجال الحقوق في الإسلام أوسع من هذا بكثير :

سعة الحقوق:

عندما ارتبط الإنسان بكل شيء على وجه الأرض فإن هذا قد جعله مسئولا عن كل شيء فيها سواء كان هذا تجاه الجمادات وعدم المساس بها وإهدارها في غير حقها أو للنباتات والعمل على نموها أو الحيوانات وتربيتها والمحافظة عليها وعدم المساس بكل ما يؤذيها لأن الإنسان يستفيد منها في كل جوانب حياته تماما، كما أن لأعضاء الإنسان حقوق على الإنسان في أن يستخدمها في موضعها .

والخلاصة أن الإسلام قد قسم هذه الحقوق في جميع الكائنات وجعل دائرتها ومحيطها الأوسع في يد الإنسان، أما فيما يتعلق بالحقوق المشتركة بين البشر فهي كثيرة ولكن يجدر بنا أن نشير إلى الحقوق تجاه الكائنات الأرضية والجمادات والأشياء الحية بشيء من التفصيل حتى يتضح مقصدنا من هذه القضية .

هناك حقان على الإنسان تجاه الجمادات والأشياء الحية أولاً: هو أن يستفيد من كل ما خلق لخدمة الإنسان. ثانياً: - العمل على نموها وتطويرها ليس هذا فحسب بل يجب عليه أن يوفر لهذه الأشياء كل الأسباب التي تعمل على نموها من غذاء وراحة، وهو ما أشار إليه القرآن الكريم تجاه هذه الحقوق " خلق لكم ما في الأرض جميعاً " (البقرة آية ٢٩) .

وهذا توضيح لحقيقة مفادها هو أن على الإنسان أن يستفيد من كل ما خلق الله له في إطار ما الهدف الذي خلقه الله من أجله حتى يستطيع أن يستفيد منه الإنسان في وقت الحاجة إليه، ولهذا أوجب على الإنسان رعايته والمحافظة عليه .

وقد وضع لنا الرسول صلى الله عليه وسلم هذا من خلال قصة قالها بين أصحابه وهي أن رجلاً ذات مرة كان يمتطي ثوراً وفجأة أدار الثور وجهه تجاه راكبه وقال له ما خلقت لهذا^(١). كما أن الرسول حثنا على أن نزرع فسيلاً أو شجرة في الأرض موجب للثواب وقال صلى الله عليه وسلم "ما من مسلم يزرع شجرة فيأكل منها إنسان أو حيوان أو طائر إلا ووجد ثوابها"^(٢)، ولهذا فإن قطع الأشجار المثمرة بغير سبب غير مستحب^(٣) .

^١ صحيح البخاري باب الحرث والمزراعة ج ١ ص ٣١٢ حدثنا علي بن عبد الله: حدثنا سفيان: حدثنا أبو الزناد، عن الأعرج، عن أبي سلمة، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم صلاة الصبح، ثم أقبل على الناس فقال: (بينما رجل يسوق بقرة إذ ركبا فضر بها، فقالت: إنما لم نخلق لهذا، إنما خلقتا للحرث). فقال الناس: سبحان الله بقرة تتكلم، فقال: (فإني أومن بهذا أنا ولبو بكر وعمر) .

^٢ صحيح البخاري باب الحرث والمزراعة حدثنا قتيبة بن سعيد: حدثنا أبو عوانة (ح) وحدثني عبد الرحمن بن المبارك: حدثنا أبو عوانة، عن قتادة، عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (ما من مسلم يزرع زرعاً فيأكل منه طير، أو إنسان، أو بهيمة، إلا كان له به صدقة) .

^٣ فتح الباري في شرح صحيح البخاري باب الحرث والمزراعة مجلد خاص ص ٧ مصر .

وفي حكاية أخرى قال الرسول صلى الله عليه وسلم غفر لرجل سقى كلب عطشان وأنقذ حياته، كما أن امرأة عذبت في هرة لا هي تركتها تأكل من خشاش الأرض ولا هي أطعمتها، كما أن شخصاً حرق نملة فحوسب عليها (١).

لقد ذكرت هذه الأشياء من أجل معرفة أن دائرة التعاليم الأخلاقية للإسلام كم هي واسعة ولم تقتصر فقط على الإنسان بل شملت الحيوان والجماد، والتي سيأتي تفصيلها في مكانها .

ترتيب الحقوق:

لقد راعى الإسلام في أداء هذه الحقوق ترتيب خاص وتفصيله كالآتي :
لو أردنا أن نلخص كل التعاليم والواجبات الأخلاقية في الإسلام في لفظ واحد فيمكننا أن نقول كما ورد في الإنجيل بأنها محبة الآخر، ولكن مصطلح حب الآخر ليس كافياً بل يجب علينا أن نفصل واجبات أو مطالب هذه المحبة وهذا التفصيل هو معجزة التعاليم الأخلاقية في الإسلام. وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "إن كمال الإيمان لا يكون إلا بأن تحب لأخيك ما تحب لنفسك"، يتضح من هذا أن كل الأمور التي تتعلق بالمال والروح والجسد والتي دائماً ما يسعى الإنسان لتحقيقها لذاته يجب أن يرغب ويحب هذه الأشياء للآخرين وهذا هو العنوان الرئيسي للتعاليم الأخلاقية في الإسلام مثل الإنجيل، ولكن هذا العنوان الرئيسي يحتاج إلى تفصيل في الإسلام، وهنا تأتي ضمناً وبالترتيب للعلاقات الإنسانية تلك للعلاقات التي أولاهها الإسلام اهتماماً دائماً.

لقد حدد الإسلام هذه العلاقات الإنسانية بالتدرج والترتيب كل على حسب منزلته ومكانته فمثلاً مساعدة الإنسان مقدمة على مساعدة الحيوان، كما أن مساعدة الأقرباء مقدمة على مساعدة غير الأقرباء، وكذلك الأصقاء مقدمة على مساعدة الغرباء حتى أن المساعدة بين الأقرباء يجب أن تبدأ من الأقرب فالأبعد ولكن يجب أن تكون

^١ ذكرت هاتين الواقعتين في صحيح البخاري. حدثنا إسماعيل قال: حدثني مالك، عن نافع، عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (عذبت امرأة في هرة حبستها حتى ماتت جوعاً، فدخلت فيها النار). وحدثنا عبد الله بن يوسف: أخبرنا مالك، عن سمي، عن أبي صالح، عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (بيننا رجل يمشي فاشتد عليه العطش، فنزل بئراً فشرب منها، ثم خرج فإذا هو بكلب يلهث يلهث الثرى من العطش، فقال: لقد بلغ هذا مثل الذي بلغ بي، فملأ خفه ثم أمسكه بفيه، ثم رقى فسقى الكلب، فشكر الله له فغفر له).

هذه المساندة أو المساعدة في الحق وليس في الباطل و إلا سيكون هذا من باب التعصب الذي أنكره الإسلام ^(١)، وأكد على المسلمين اجتنابه .

ومن هنا وجدنا أن الإسلام انفرد عن بقية الأديان الأخرى في إعطاء تفصيل ومراتب هذه الحقوق الإنسانية كما أنها-الأديان الأخرى-لم تضع خطأ فاصلا بين الإنسان والحيوان فمثلا التعاليم الأخلاقية لبوذا لم يميز بين الإنسان والحيوان أو بين القوم أو القبيلة والأسرة أو حتى بين القرابة والعلاقة، وبهذه الطريقة جاءت للشرعية الهندوكية، وتقول بأنه لا فرق بين أن تقتل إنسان أو حيوان ويحصل الحيوان على مرتبة أو درجة أما الإنسان فطبقا للمنفعة التي يؤديها، كما أن اليهودية والمسيحية اكتفت بذكر الأب والأم تاركة كل الأقارب، وسلمت بإطاعتها المطلقة، إلا أن الإسلام فصل كثيرا في هذه الأمور .

تعود فلسفة هذا الترتيب إلى توسيع دائرة العلاقة من الأقرب إلى الأبعد فمثلا شخص لا يمكنه إلا مساعدة فردا ما في وقت واحد، يجب عليه أن يبدأ بوالدته المريضة ثم والده، ثم أخوه وهكذا تتسع الدائرة لتشمل جاره وابن منطقتة وابن بلده، وهذا هو الموقف الذي يبرز فيه هذا التساؤل عن ترتيب هذه للعلاقات أي بمن نبدأ؟ ومن هنا جاءت للعلاقة من الدرجة الأولى ثم الثانية ثم الثالثة، ولهذا احتلت الأم للحق الأول ثم الأب ثم الأخ ثم الجار ثم ابن للوطن، وهذا أمر ضروري في أداء هذه الحقوق ولا يعد من بلب الخير أو الحسنة لو ترك الإنسان والدته المريضة وساعد شخصا من جيرانه كما أنه لا يعد من باب التضحية بل إنه ظلم، ولكن ممكن على الإنسان أن يرهق نفسه وأن يراعي حقوق الاثنين معا أي لأمه وجاره، وإذا كان هذا خارجا عن استطاعته فهو معذور ولا يكلف الله نفسا إلا وسعها، وقد راعى القرآن هذا الترتيب بقوله "وإيا الذين إحسانا وبذي القربى واليتامى والمساكين والجار ذي القربى والجار الجنب والصاحب بالجنب وابن السبيل وما ملكت أيمانكم" (النساء آية ٣٦) قل ما أنفقتم من خير فلو الدين والأقربين واليتامى والمساكين وابن السبيل وما تفعلوا من خير فإن الله به عليم" (البقرة آية ٢١٥).

"وآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل ولا تبذر تبذيرا" (الإسراء آية ٢٦) .

^١ سنن أبو داود ج ٢ باب في المعين .

وعلى العموم فإن أكثر المذاهب أولت اهتماما كبيرا بالوالدين وهو ما نراه في الإسلام أيضا ولكنه وضحه و أكمله بهذه الطريقة التي جاءت في الأبواب الأخرى .

حق الوالدين

إن طاعة واحترام للوالدين أمر أقرته شريعة موسى وعيسى ومحمد عليهم الصلاة والسلام بل إن منزلتهم جاءت بعد منزلة الله سبحانه وتعالى حيث طاعة الوالدين بعد طاعة الله تعالى، ففي التوراة جاءت بعد تعاليم التوحيد: "احترم والديك حتى يطيل الله في عمرك" (سفر الخروج ٢٠-١٢) .

ثم يقول في موضع آخر : " فليخاف كل منكم أمه و أباه " (الأخبار ١٩-٣) . لدرجة أن التوراة أصدرت هذا القانون الذي يقول :

" فليقتل كل من يسب أبويه و أمه . ومن لعن أبويه و أمه فدمه عليه " (أخبار ٢٠-٩) .
" ومن يلعن أمه و أبويه فليقتل " (الخروج ٢١-٧) .

لقد جاءت أيضا هذه الأحكام في إنجيل سيدنا عيسى عليه السلام وأكد على العمل بهذه الأحكام روحا ومعنى فقال :

" لأن الرب أمرنا بأن نحترم والدينا ومن يلعن أمه و أبويه فيجب عليه القتل ، ولكنكم تقولون أيها اليهود أنه إذا قال أحد لأبيه و أمه أنه يجب عليكم إعطائي فليعتبر ذلك قربانا لله، فإذا لم يحترم أمه و أباه فلا حرج في ذلك المهم إنكم بتعاليدكم هذه قد أبطلتم حكم الله" (متى ١٠-٤) (١) .

ثم جاءت بعثة النبي متممة للأخلاق ولم يؤكد فقط على احترام الوالدين ومخافتهما مثل التوراة والإنجيل بل إنه أسهب في كل جانب من جوانب هذه القضية وأعطى إجابة شافية لكل سؤال :-

أولا: لقد أعطى الإسلام منزلة ومكانة مشتركة لكل من الوالدين بل إنه جعل درجة الأم أعلى من الأب، لماذا لأن المرأة ضعيفة بفطرتها وهي التي تتحمل آلام الحمل والوضع والتربية وهذا أكبر دليل على طاعتها واحترامها ومكانتها في الإسلام .

" ووصينا الإنسان بوالديه حملته أمه وهنا على وهن وفصاله في عامين " (لقمان آية ١٤) .

^١ بالإضافة إلى هذا فهناك إعادة وتكرار لهذا الأمر في صحف التوراة وأبواب الإنجيل الأخرى (متى ٩-١٩)، (مرقس ١٠-٧)، (لوقا ١٨-٢٠) .

* ووصينا الإنسان بوالديه إحسانا حملته أمه كرها ووضعته كرها وحمله وفصاله ثلاثون شهرا * (الأحقاف آية ١٥) .

كما أكد الرسول صلى الله عليه وسلم في أحاديثه بذلك عندما حضر رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وسأله يا رسول الله من أحق للناس بحسن صحابتي قال أمك، قال ثم من؟ قال أمك، قال ثم من؟ قال أمك، ذكر هذا ثلاث مرات وفي المرة الرابعة قال ثم من؟ قال أبوك (١) .

ذات يوم ذكر الرسول صلى الله عليه وسلم أربعة ذنوب كبيرة وعلى رأسها عدم طاعة الأم وقال للرسول صلى الله عليه وسلم وقال يا رسول الله لقد اتعنت ذنبا كبيرا فهل من توبة لي فسأله الرسول صلى الله عليه وسلم هل أمك على قيد الحياة؟ فقال للرجل: لا، فقال له الرسول صلى الله عليه وسلم هل لك خالة؟ قال: نعم، قال للرسول صلى الله عليه وسلم عليك بيدها (٢) ، وكانت هذه التوبة التي أمره الرسول بعملها .

ذات مرة سأل صحابي رسول الله: يا رسول الله لقد عزمت على الجهاد وأريد أن أستشيرك فقال له الرسول صلى الله عليه وسلم هل لك أم؟ فقال الصحابي: نعم، فقال له عليك بخدمتها فالجنة تحت أقدامها (٣) .

^١ البخاري ج ٢ كتاب الأئمة، حدثنا قتيبة بن سعيد، حدثنا جرير، عن عمارة بن القفصاع بن شبرمة، عن أبي زرعة، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله من أحق للناس بحسن صحابتي؟ قال: (أمك) قال: ثم من؟ قال: (ثم أمك) قال: ثم من؟ قال: (ثم أمك) قال: ثم من؟ قال: (ثم أمك) .

^٢ المرجع السابق. حدثنا عثمان: حدثنا جرير، عن منصور، عن الشعبي، عن واردة، مولى المغيرة بن شعبة، عن المغيرة بن شعبة قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم: (إن الله حرم عليكم: عقوق الأمهات ورواد البنات، ومنع وهات. وكره لكم: قيل وقال، وكثرة السؤال، وإضاعة المال) .

^٣ جامع الترمذي كتاب البر والصلة. حدثنا عبد الله، حدثني أبي، ثنا أبو معاوية، ثنا محمد بن سودة، عن أبي بكر بن حفص، عن ابن عمر قال: أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: يا رسول الله أدبنت ذنبا كبيرا فهل لي توبة؟ فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: ألك والدان؟ قال: لا، قال: فلك خالة؟ قال: نعم، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: فبرها إذا .

^٤ ترغيب وترتيب مندرج ج ٢ ص ٢٤ نقلا عن ابن ماجه والنسائي والحاكم. حدثنا أبو يوسف محمد بن أحمد الرقي، حدثنا محمد بن سلمة الحراني، عن محمد بن إسحاق، عن محمد بن طلحة بن عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق، عن

ويتضح من هذه التعاليم أن الجنس اللطيف هو صاحب المرتبة والمكانة الأولى في تعاليم الرسول صلى الله عليه وسلم، وهذه الدرجة الرفيعة أمر طبيعي، فالإنسان ممنون بوجوده بعد الله سبحانه وتعالى إلى أمه وأبيه، وفور الأب لا يتعدى عدة لحظات وعدة قطرات، ولكن الأم هي التي تهيه الحياة لمدة تسعة أشهر، تحمله في بطنها وتغذيه وتتحمل من أجله كل الصعاب والمشقات عن طيب خاطر، وحتى بعد ولادته فهي التي ترضعه من صدرها وتضحي بكل غال وثمين من أجل تربيته وراحته، ففي هذه الحالة هل يوجد أعظم من دور الأم، ولهذا منحها الشريعة المحمدية أعلى المراتب وأرفع الدرجات فهي جديرة بهذا .

ثانياً: لا شك أن الشريك المهم في تكوين وتربية الطفل مع الأم هو الأب ولهذا يجب على الطفل عندما يبلغ قواه أن يقوم بخدمة والديه شكراً لهما على ما قاما به معه، وهكذا لم يكتف الإسلام بذكر ما جاء من احترام وحسن معاملة تجاه الوالدين ففي الصحف الأولى بل فرض على الأولاد إطاعة الوالدين لدرجة أنه لم يسمح للأبناء بأن يقولوا أف لوالديهما، واعتبر خدمتهما واحترامهما جهاد كبير بل أنه جعل رضاها من رضا الله سبحانه وتعالى. ولهذا نزلت اثنا عشر آية من آيات القرآن تؤكد على خدمة وبر الوالدين وفي أكثر هذه الآيات جاء بر الوالدين بعد ذكر التوحيد وطاعة الله سبحانه وتعالى، فأول آية جاءت في سورة البقرة لتشير إلى ما جاء في التوراة حول بر الوالدين فقال :

" وإذ أخذنا ميثاق بني إسرائيل لا تعبدون إلا الله وبالوالدين إحساناً " (البقرة آية ٨٣). وهذه الآية الكريمة تعيد الحكم الذي جاء في التوراة ولللفظ هنا متلماً جاء في التوراة لا يؤكد على احترام وإطاعة الوالدين فقط بل جاء يشمل مفهومين أوسع وهو الإحسان والذي يحوي بداخله كل أنواع الاحترام والطاعة والبر بالوالدين. وهكذا جاء في موضع آخر يؤكد القرآن على مساعدة الوالدين مادياً بقوله:

" قل ما أنفقتم من خير فلوالدين والأقربين " (البقرة آية ٢١٥) .

ولكد في سورة النساء بعدها الأمر بالتوحيد وعدم للشرك وبر الوالدين بقوله:

" واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً وبالوالدين إحساناً " (النساء آية ٣٦) .

معاوية بن جهمه السلمي، قال: أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت: يا رسول الله إني كنت أردت الجهاد معك أبغني بذلك وجه الله والدار الآخرة، قال: ويحك إحمية أمك؟، قلت: نعم، قال: ارجع فيها

كان للكفار قد جعلوا للكثير من عاداتهم وتقاليدهم في ميزان الحلال والحرام فجاء خطاب الله لهم يخبرهم بحقيقة ما هو حلال من الطعام والشراب وحقيقة ما هو حرام من الأشياء الأخرى فقال :

قل تعالوا اتل ما حرم ربكم عليكم ألا تشركوا به شيئا وبالوالدين إحسانا (الأنعام آية ١٥١).

وفي لحكم المعراج جاء ببر للوالدين بعد توحيد الله فحث الأبناء على مراعاتهما في حالة الكبر وأن لا يقولوا أف لهما وللدعاء لهما بالرحمة والمغفرة قال :

"وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحسانا إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما وقل لهما قولا كريما واخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل رب ارحمهما كما ربياني صغيرا" (الإسراء آية ٢٤).

نحن نعلم أن الله سبحانه وتعالى لم يجعل أي شيء أسوأ في شريعته من الشرك بالله ومع هذا فقد أوصى الله الأبناء ببرر للوالدين إلا في حالة أن جاهد الأباء الأبناء على الشرك بالله فقال :

" ووصينا الإنسان بوالديه حسنا وإن جاهدك لتشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما إلي مرجعكم فأنتبئكم بما كنتم تعملون " (العنكبوت آية ٨) .

فهنا نجد أن القرآن لم يؤكد إلا على عدم إطاعتها في الشرك بالله وطالبهم بخدمة والديهم ورعايتهم ولهذا جاء في آية أخرى يؤكد :

" ووصينا الإنسان بوالديه حملته أمه وهنا على وهن وفصاله في عامين أن اشكر لي ولوالديك إلي المصير ، وإن جاهدك على أن تشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما وصاحبهما في الدنيا معروفا " (لقمان آية ١٤) .

فانظر إلى هذا الاهتمام بالوالدين حيث قرن الله سبحانه وتعالى الإحسان بهما بالإحسان إلى الله سبحانه وتعالى ولم يأمر بمعصيتهما إلا في حالة الشرك بالله، وأن يقوموا على خدمتهما والبر بهما في بقية الأمور الأخرى .

انظر إلي سيدنا إبراهيم عليه السلام رغم أن أباه لم يكن مسلما إلا أنه دعا الله له بالمغفرة فلربما يقبل الله دعائه ويموت أباه علي دين الفطرة .

" اللهم اغفر لي ولوالدي " (إبراهيم آية ٤١) .

وهذا ما فعله سيدنا نوح عندما قال :

" رب اغفر لي ولوالدي " (نوح آية ٢٨) .

ولهذا فان الدعاء بالمغفرة وحسن الخاتمة للوالدين أمر أتبعه الأنبياء فيجب علينا في نهاية الأمر أن نطيع والدينا وان نعمل علي خدمتهما والدعاء لهما بأن يرضى الله عنهم ويكفر عن سيئاتهم .

" ووصينا الإنسان بوالديه إحسانا حملته أمه كرها ووضعته كرها وحمله وفصاله ثلاثون شهرا حتى إذا بلغ أشده وبلغ أربعين سنة قال رب أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت علي وعلي والدي وان اعمل صالحا ترضاه وأصلح لي في ذريتي إني تبت إليك وانني من المسلمين أولئك الذين نتقبل عنهم أحسن ما عملوا ونتجاوز عن سيئاتهم في أصحاب الجنة وعد الصدق الذي كانوا يوعدون " (الأحقاف آية ١٦) .

توضح هذه الآيات إطاعة الوالدين وخاصة رضا الأم وطاعتها يكون كالماء الذي يغسل كل الذنوب كما عبرت الأحاديث الشريفة عن هذه الأمور في مواضع عدة فأحيانا يقول صلى الله عليه وسلم "الجنة تحت أقدام الأمهات" (١). وأحيانا يقول الرسول صلى الله عليه وسلم "أن رضا الأب من رضا الله " .

ذات مرة سأل شخص ما رسول الله من أحق الناس بحسن معاشرتي فقال له: أمك، ثم قال: ثم من؟ قال: أمك، قال: ثم من؟ قال: أمك، وفي المرة الرابعة قال: ثم من؟ قال: أبوك، فقال: ثم من؟ قال: الأقرب فالأقرب .

ذات مرة كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يجلس مع الصحابة وكان بعض المجاهدين بين الحضور فقال الرسول صلى الله عليه وسلم نل من؟ نل من؟ نل من؟ فقال الصحابة: من؟ يا رسول الله؟ فقال: من لم يخدم والديه في حاله الشيخوخة ومن لم يدخل الجنة بخدمتهما .

وفي مجلس آخر سأل أحد الصحابة أي الأعمال أفضل عند الله؟ قال: الصلاة في وقتها قال: ثم أي؟ قال: بر الوالدين قال: ثم أي؟ قال: الجهاد في سبيل الله .

وذات مرة وضع الرسول صلى الله عليه وسلم ثواب طاعة الوالدين بشكل مؤثر فقال: كان ثلاثة يسافرون في الطريق فجأة هطلت أمطار غزيرة فاخفتي ثلاثتهما في غار بإحدى الجبال، فنزلت صخرة من أعلي فأغلقت هذا الغار فاحتار واضطرب الثلاثة واعتبروا أنفسهم في عداد الموتى، وبدأوا يرفعون أيديهم بالدعاء إلى الله لكي يرفع عنهم

^١ مشكاة المصابيح نقلا عن أحمد والنسائي والبيهقي كتاب الأدب في البر وأصله .

كربهم هذا فأراد أحدهم أن يذكر إحدى أفعاله الخيرة التي فعلها في حياته فقال: يا إلهي لقد كان والدي ضعفاء وكان أولادي صغاراً وكنت أرى الأغنام وكانت هذه عماد ثروتي. وعندما كنت أعود بالغنم في المساء كنت أحلب اللبن وأقمنه لوالدي وبعدها أعطي أطفالاً، وذات مرة خرجت لرعي الغنم بعيداً فعدت من الرعي فوجدت والدي قد ناما فأخذت اللبن ووقفت علي فراشهما ولم لوقفهما خوفاً علي راحة هما ولم أبعد عنهما حتى ينهضا ويشربا اللبن، وكان أطفالاً في ذلك الوقت يتعذبون من الجوع ولم أعر هذا اهتماماً وظللت واقفاً علي فراشهما طول الليل يقيارب لو كنت فعلت هذا إرضاء لك فأفزع عنا ما نحن فيه فتحركت الصخرة قليلاً وبعدها بدأ كل من المرافقين له بعرض أحد أعماله الخيرة أمام الله حتى انزلحت للصخرة وفتح الغار.

نحن نعلم أهميه الجهاد في الإسلام ولكن خدمه الوالدين وبرهما أفضل درجة من الجهاد، كما أن الجهاد لا يجوز إلا برضا الوالدين وأخذ الأذن منهما، ولا يحق لإنسان أن يزهق روحه بدون أنهما لأنها موقوفة علي خدمتهما لهذا جاء في الحديث السابق أن النبي عندما سئل عن أي الأعمال أفضل عند الله قال بر الوالدين وقدمه علي الجهاد في سبيل الله .

ذات مرة جاء صحابي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وطلب منه المشاركة في الجهاد في سبيل الله، فسأله الرسول هل لك من أب وأم فقال الصحابي نعم، فقال له: اذهب واخدمهما.

وفي القرآن جاء بر وطاعة الوالدين بعد طاعة الله، وهي نفس المكانة التي احتلتها في الأحاديث النبوية حيث قال الرسول صلى الله عليه وسلم للصحابة: "حرم ربكم عليكم معصية الأم" وذات مرة سأل الرسول صلى الله عليه وسلم أحد الصحابة ألا أخبرك بأكبر الذنوب، فقال: نعم يا رسول الله قال: الشرك بالله وعدم طاعة الوالدين واعتدل الرسول صلى الله عليه وسلم من على مسنده وقال شهادة الزور (١).

^١ لقد تم ذكر هذه الأحداث والأقوال في عامة كتب الحديث وخاصة صحيح البخاري كتاب الأدب، وصحيح مسلم كتاب البر والصلة، وجامع الترمذي كتاب البر والصلة. حدثنا إسحق: حدثنا خالد الواسطي، عن الجريري، عن عبد الرحمن بن أبي بكرة، عن أبيه رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (ألا أنبئكم بأكبر الكبائر). قلنا: بلى يا رسول الله، قال: (الإشراك بالله، وعقوق الوالدين) - وكان متكئاً فجلس فقال - ألا وقول الزور، وشهادة الزور، ألا وقول الزور، وشهادة الزور). فما زال يقرؤها، حتى قلت: لا يمكن.

وكانت هذه هي الأحكام التي جاءت في التوراة وكانت قاسية إلى حد ما، أما الوحي المحمدي فقد جاء ببعضها مخففا وبعضها قاسيا فمثلا في التوراة من يلعن والديه وجب قتله لكن الإسلام جعل هذا العقاب في الآخرة بدلا من الدنيا والذي يعنى أنه من الممكن التكفير عنه بالتوبة والاستغفار وأعطى للإنسان فرصة في الرجوع عن هذا في حياته ولكن إذا لم يستند من هذه الفرصة سيتعذب في الآخرة وعذاب الآخرة أشد من عذاب الدنيا .

وهناك مادة في الشريعة الإسلامية تقول أنه إذا ارتكب أب جنائية قتل أولاده ففي بعض الحالات لا يقتص من الأب بالقتل بل يستحق عذابا آخر غير للقتل لأن محبة الأب لأولاده أمر طبيعي ويعتبر قتله لأولاده ليس قتلًا بالعمد حيث لا توجد شهادة أقوى من حب الأب لأبنائه (١) .

وفي هذا الصدد تشير إلى نكتة أخرى فالتوراة اهتمت بالوالدين من جانب وأهملت من جانب آخر في مقابل الزوجة، ولهذا فإنه على الرجل أن يترك والديه وأن يلتقي بزوجته بحيث يصبحا جسدا واحدا (الولادة ٢-٢٤) .

وهكذا فسيدنا عيسى عليه السلام وطبقا لبيان الإنجيل رغم أنه لا يعرف الأب والأم والزوجة إلا أنه طبقا لإحدى روايات الإنجيل ناصر للزوجة على حساب الوالدين ولهذا جعل الطلاق غير جائز. (مرقس ١٠-٧-٨)، ولكن السؤال هنا إذا تأزمت الأمور بين الزوجة والوالدين وأصبح ترجيح أحدهما على الآخر أمرا ضروريا فماذا نفعل؟ ولهذا نجد حكم الإسلام في هذا يوحى بإطاعة الوالدين وجعل علاقة الزوجة أمر حسمه القانون بالطلاق والعودة مرة أخرى أو بالانفصال، أما علاقة الوالدين فهي أمر لا رجعة فيه وكانت هناك زوجة لابن عمر رضي الله عنه كان راضيا عنها إلا أن والده سيدنا عمر رضي الله عنه كان لا يحبها، فكان هذا الاختلاف سببا في وجود مشاكل بين الأميرة، فأشار النبي صلى الله عليه وسلم لابن عمر بأن يطيع والديه.

حق الأولاد

^١ لقد اختلف فقهاء الإسلام حول هذا التشريع فاعتبر الأحناف والشافعية أن قتل الأب لأبنائه لا يدخل في باب القصاص، إلا أن المالكية أقرروا بأن قتل الأب لأبنائه بالعمد يوجب القصاص بالقتل وإلا فلا، ومن الواضح أن القتل العمد يوجب القصاص وهذا هو الحكم القرآني. ولكن قتل الأب لأبنائه يعد دائما في باب قتل غير العمد بسبب الحب والشفقة الأبوية، ولهذا عده أكثر الفقهاء في باب قتل الخطأ وأوجبت عليه الدية، وإلا فالدلائل والقرائن تظهر قصد الأب من هذا القتل .

تعليم الأصول:

متلما هناك حق للوالدين على الأبناء هناك حق للأولاد على الوالدين وهو العنوان الذي لا نجد له أثر في الكتب السماوية الأخرى، ويعني هذا أن هناك اختيارات غير محدودة للوالدين على الأولاد قبل الإسلام، ولكن لم يكن هناك أي تسليم بأي حق للأولاد على الوالدين، وكان هذا يعد ضد احترام الوالدين، إلا أن الدين الذي جاء به محمد صلى الله عليه وسلم لم يجعل هناك فرق في التشريع بين الكبير والصغير، وأقام حقوقاً للصغار على الكبار، وقد أخبرنا الرسول صلى الله عليه وسلم في هذه الفقرة الصغيرة جداً هذه الأصول التي تجمع كل الحقوق فيقول:

• ليس منا من لم يرحم صغيرنا ولم يوقر كبيرنا " (الترمذي)، وبلاغة هذه الفقرة أنها تحيط بكل هذه الحقوق والمبادئ أن رحمة الصغير وتوقير الكبير أمر أساسي ومشترك في الإسلام بين الصغار والكبار، والحقيقة أن هذا الميزان العادل لو ظل فلن يكون هناك في البشرية أي نوع من الاستياء والقلق بين الكبار والصغار أو السيد والمسود أو الرئيس والمرؤوس .

وعندما يحدث أي خروج عن هذه الأصول بين الكبار والصغار فمعنى هذا أن خلا ما وقع في هذا الميزان، وما لم يستطع أن يحققه قانون الحكماء والمشرعون في هذا الشأن استطاعت هذه الفقرة المؤخرة للنبي الأمي صلى الله عليه وسلم أن تحققه. ولو أن هناك خلا ما وقع في هذا الميزان الذي وضعه للرسول صلى الله عليه وسلم فلن نستطيع أكبر القوانين والتشريعات أن تعدله .

وأول حق للأبناء على الوالدين هو أنه طالما أن الله قد منح الأولاد الحياة فيجب على الآباء أن لا يكونوا سبباً في محو هذه الحياة، ليس هذا فحسب بل يجب عليهم أن يهيئوا لهم كل سبل التطور والنمو لتكتمل هذه الحياة كل على حسب استطاعته ومقدرته، ولهذا السبب وجدنا أن الإسلام يحرم إسقاط الجنين عمداً عند الحمل، كما أنه حرم قتل الأبناء بعد الميلاد واعتبره أمراً من أمور الجاهلية .

قتل الأولاد:

كان من أسوأ عادات العرب في الجاهلية هو قتل الأولاد وواد البنات حية، وكان هذا العمل الوحشي يتم برضا ورغبة الوالدين، وكان وجود هذه العادة له أسباب أحدها عقائدي بمعنى أن الوالدين كانوا يذبحون أبنائهم قرباناً لألهتهم وكانوا يقولون أنه لو تم

هذا العمل لأنبحن لبني قريانا لهذا الإله (١) بهذه للعادة لم تكن لدى للعرب وحدهم بل كانت في الأمم الأخرى فمثلا كان في دولة الروم ذات الحضارة العريقة الحرية الكاملة للآب في قتل أولاده بولم يكن هناك محاسب أو معاقب لكل ما يجري في عادة قتل الأولاد (٢) ولأسوأ هذه للعادة كانت موجودة لدى للرجبوتيين في الهند سواء في قتل البنات خوفا من عار عدم الجولز، أو في شكل عادة للسائي وهي عادة حرق الأرمل من للنساء بعد وفاة أزواجهن، أو في شكل عادة للجوهر وهي عادة إقبال للنساء على قتل أنفسهن عندما يحاصرن من قبل الأعداء في المعارك. والأسوأ من هذا عادة ذبح الأبناء تقربا لرضاء الآلهة. وقد حرم للقرآن كل هذه للعادة و أبطل كل هذه الأمور (٣) بقوله: " وكذلك زين لكثير من للمشركين قتل أولادهم شركاؤهم ليردوهم وليلبسوا عليهم دينهم ولو شاء الله ما فعلوه فذرهم وما يفترون " (الأنعام آية ١١٢) .

و أشار في موقع آخر بقوله :

" قد خسر الذين قتلوا أولادهم سفها بغير علم " (الأنعام آية ١٤٠) .

والسبب الثاني في ارتكاب هذه الجريمة هو الفاقة أو الفقر وكانوا يعتقدون أن الأولاد يحتاجون إلى إطعامهم ولهذا كانوا يقتلون على قتلهم حتى يتجنبوا أداء هذه المهمة، فجاء النبي صلى الله عليه وسلم وأخبرهم بأن كل طفل يأتي ومعه رزقه، فالإنسان لا يطعم إنسانا آخر بل إن للمطعم هو الله وهو الذي يطعم كل للكائنات .
" وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها " (هود آية ٦) .

ولهذا نزل للقرآن لتعليم للعرب للجاهلون بقوله :

" ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق نحن نرزقهم ولياكم إن قتلهم كان خطئا كبيرا " (الإسراء آية ٣١) .

لقد جعل للإسلام قتل الأولاد موازيا للشرك بالله وأمر الرسول صلى الله عليه وسلم بأن يبين للعرب أكبر و أعظم المحرمات عند الله بقوله:

^١ ذكر في سيرة ابن هشام وطبقات ابن سعد وتاريخ الطبري وغيره من كتب السيرة حادثة التضحية بعبد الله هذا بالإضافة إلى الموطأ لابن مالك باب ما لا يجوز من التدوير في معصية الله .

^٢ تاريخ أحلاف أوربا المجلد الأول — ٢٣٠ .

^٣ كشف الزمخشري شرح الآية التالية .

" قل قالوا اتل ما حرم ربكم عليكم ألا تشركوا به شيئاً وبالوالدين إحساناً ولا تقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم وإياهم " (الأنعام آية ١٥١) .

وذات مرة سأل أحد الصحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم ما هو أكبر الذنوب فقال الرسول صلى الله عليه وسلم الشرك بالله، ثم قال: عدم طاعة الوالدين، ثم قال: قتل الأولاد خشية الإملاق (١). والحقيقة أن هذه التعليمات ما هي إلا تفسير للآية السابقة، هذا بالإضافة إلى أن الرسول وضع أن الأرزاق كلها بيد الله سبحانه وتعالى وأن كل طفل يولد ومعه رزقه، وقد أنهى الإيمان والإسلام هذه الجريمة إلى الأبد وظهر العرب وأرض العرب عن هذه الجريمة الشنعاء .

أما الصورة الثالثة لقتل الأبناء فهي وأد البنات حية حتى لا يتحمل الآباء عار البنات ولذا كان عندما يولد في البيت طفلة كان الرجل يخفي وجهه من العار الذي لحق به، وكان العرب في الجاهلية يعتقدون أن الملائكة هن بنات الله فقال لهم القرآن: "وإذا بشر أحدهم بما ضرب للرحمن مثلاً ظل وجهه مسوداً وهو كظيم" (الزخرف آية ١٧) . ووصل الأمر بالعرب أنهم كانوا يقتلون بناتهم خشية العار فقد صور القرآن الكريم هذه الحالة بقوله: "وإذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسوداً وهو كظيم يتولّى من القوم من سوء ما بشر به أيمسكه على هون أم يدسه في التراب " (النحل آية ٥٨) . كانت هذه العادة السيئة رائجة بين العرب ولكن بعض أخبار العرب يقولون أن هذه العادة كانت تروج أكثر عند بني تميم (٢). وقد أقر رئيس قبيلة بنو تميم (قيس بن عاصم) بنفسه أمام الرسول صلى الله عليه وسلم بأنه وأد بيده ما يقرب من عشرة بنات (٣).

^١ صحيح البخاري كتاب التوحيد وتفسير سورة البقرة وسورة الفرقان وكتاب الأدب وكتاب المغايب وصحيح مسلم كتاب الإيمان. حدثني محمد بن الوليد: حدثنا محمد بن جعفر: حدثنا شعبة قال: حدثني عبيد الله بن أبي بكر قال: سمعت أنس بن مالك رضي الله عنه قال: ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم الكباير، أو سئل عن الكباير، فقال: (الشرك بالله، وقتل النفس، وعقوق الوالدين).

^٢ مجمع الأمثال للكرمانى مطبعة إيران ص ٣٤٨، وكتاب مجمع الأمثال للميداني المجلد الأول ص ٢٨٧ المطبعة الحيدرية مصر تحت مثل "أضل من مؤودة" .

^٣ ابن جرير وابن كثير والدرر المنثور للسيوطي نقلاً عن سنن البيهقي ومسنن البزار ومؤلف عبد الرازق تفسير سورة التكاوير .

بن قصوة هذه العدة وصحب أحد قمر مد الرسول صلى الله عليه وسلم
 فنضرب الرسول كثير من بدعة لصورة التي علمه فخرجوا من المسجد هناك
 رولية في الترمي عن التبعين () يقول أن شخص دع إلى الرسول صلى الله عليه وسلم
 وقال يا رسول الله نحن قوم من جاهلية ككعد لأهله وحقك أن لا تكونت في بيت
 تأتي إلي عندما تأتيها وذلك يوم تأتيها فجاءت بسرعة وهي رعية رعية فقامت
 وأنت خلفي وعندما وصلت إلى بئر لم يكن بعينا عن منزلي قد وصلت بني هذا البئر
 لمسكت يدها ورميت بها في البئر فظلت تلحيني ولدي ولدي وكنى هذا هو آخر ما
 قالت، فلما سمع الرسول هذه القصة المؤلمة لم يستطع أن يمسك دمعه فلام أحد
 الصحابة هذا الرجل بأنه كان سببا في حزن الرسول صلى الله عليه وسلم فقال له
 الرسول: أتركه لقد جاء يسأل عن علاج لمصيبة أحلت به، وطلب الرسول صلى الله عليه
 وسلم من هذا الرجل أن يحكي له الرجل هذه القصة مرة أخرى فحكي الرجل للرسول
 صلى الله عليه وسلم قصته مرة أخرى فبكى الرسول صلى الله عليه وسلم حتى ابتلت
 لحيته فقال الرسول صلى الله عليه وسلم للرجل: اذهب فقد جب الإسلام ما قبله وأبدأ حياة
 جديدة من الآن .

عندما أسلم (قيس بن عاصم) رئيس قبيلة بني تميم فقال: يا رسول الله لقد وأدت
 ثمانية بنات بيدي، فقال له الرسول صلى الله عليه وسلم يا قيس كفر عن ذنب بتحرير
 رقبة فقال: يا رسول الله عندي نوق، فقال له الرسول صلى الله عليه وسلم كفر عن كل
 بنت بناقة (١) .

والشيء العجيب أن النساء كن يشاركن في ارتكاب هذه الجريمة مع
 الرجال، فكانت الأمهات تلقى ببناتهن في التهلكة وهذا ما يؤكد أحد شعراء الجاهلية ابن
 الأعرابي :

ما لقي المؤود من ظلم أمه كما لقيت ذهل جميعا وعامر

^١ سنن الدرامي الصفحة الأولى رغم أنها رواية مرفوعة وغير قوية ولكنه نقلها ليين بشاعة هذه الجريمة أمامنا .
^٢ تفسير ابن جرير الطبري برواية قتادة التابعي وتفسير ابن كثير نقلا عن عبد الرزاق والبراز والدرر المنثور للسيوطي
 نقلا عن مسند البراز والحاكم في الكنى والبيهقي في السنن تحت تفسير سورة التكويد. قال عبد الرزاق: أخبرنا إسرائيل عن
 سماك بن حرب عن النعمان بن بشير عن عمر بن الخطاب في قوله تعالى: "وإذا المؤودة سلت" قال: جاء قيس بن عاصم إلى
 رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: "يا رسول الله إني وأدت بنات لي في الجاهلية قال: أعنت عن كل واحدة منهن رقبة
 قال: يا رسول الله إني صاحب إبل قال: فأعتر عن كل واحدة منهن بدنة"

جاءت امرأة مرة إلى سيدنا (عبد الله بن عباس) وقالت: لقد نذرت أن أضحي بأبنائي، فقال لها (ابن عباس): لا تفعلي هذا بل كفري عن هذا.

كان منع هذه العادة قبل الإسلام ينحصر في أن بعض الناس الطيبين يأخذون البنات ويدفعون لأوليائهم أمورهم قدر ما من المال ويقومون بتربيتهم، وقد اشتهر في هذا جد الشاعر المشهور (الفرزدق) وهو (صعصعة)، ولذلك عندما جاء الإسلام جاء إلى الرسول صلى الله عليه وسلم وقال: يا رسول الله لقد اشتريت ٣٦٠ طفلة وأنقذتهم من الموت فهل سيكون لي ثواب هذا؟ فقال له الرسول صلى الله عليه وسلم سيكون لك ثواب هذا فأحسن الله إليه وهده إلى الإسلام (١).

وهكذا (زيد بن عمر بن نفيل) الذي كان من أتباع الدين الإبراهيمي قبل بعثة الرسول كان من الذين يحتضنون البنات ويعطف عليهن، وكان عندما يكبرن البنات يذهب إلى آبائهن ويقول: لو طلب أحدكم عودة بنته لأعدها إليه وإلا فأتركها عندي (٢). كانت كل هذه محاولات فردية لكنها لم تستطع أن تصلح المجتمع، ولكن عندما جاءت للبعثة المحمدية قضت على كل هذه المساوئ.

كان الناس عموماً يعتقدون بأن وجود البنات سبب للمصيبة والبلاء فجاءت البعثة النبوية وجعلت منها رحمة في الآخرة فقال الرسول صلى الله عليه وسلم لو كان لأحكم بقا رباها و لحن سلوكها كلفت سببا في إنقاذها من النار وحائلا بينه وبين النار (٣).

وأضاف الرسول صلى الله عليه وسلم قتلًا من ربي ينتين وصلرتا شابتين فرفع الرسول أصابعه للشريفة وقال إن مكنته ومكنتي ستكون هكذا يوم القيامة (٤). فعليك أن تتمتع منزلة البنت قبل الإسلام حيث كانت سببا في للعار أصبحت في عهد النبي صلى الله عليه وسلم سببا في العزة والسعادة.

^١ الموطأ لابن مالك باب النبي عن النذور في معصية الله.

^٢ تفسير الدرر المنثور نقلا عن الطبراني تفسير إذا الشمس كورت.

^٣ صحيح البخاري باب حديث (زيد بن عمر بن نفيل) المجلد الأول ص ٥٤٠. قال النبي صلى الله عليه وسلم: (من ابتلي من البنات بشيء، فأحسن إليهن، كن له سترا من النار).

^٤ صحيح البخاري كتاب الأدب وصحيح مسلم كتاب البر والخشاعة نقلا عن صحيح مسلم كتاب الأدب في شفقة على الخلق. حدثني عمرو الناقد، حدثنا أبو أحمد الزبيري، حدثنا محمد بن عبد العزيز، عن عبيد الله بن أبي بكر بن أنس، عن أنس بن مالك، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (من عال جاريتين حتى تبلغا، جاء يوم القيامة أنا وهو). وضم أصابعه.

وبالإضافة إلى هذه النصائح الأخلاقية أخذ للرسول صلى الله عليه وسلم البيعة من الرجال والنساء للقضاء على هذه العادة بعد صلح الحديبية وصدر الأمر بأن النساء اللذين أسلموا عليهن التوبة و اللاتي في طريقهن للبيعة أن يقال لهن :
 " و لا يقتلن أولادهن " (الممتحنة آية ١٢) .

وكانت هذه البيعة قد أخذها الرسول من النساء خاصة، وفي أيام فتح مكة بايع الرسول كل من نخل في الإسلام من الرجال والنساء على هذا (١) .
 وفي مجمع النساء في العيد جاء للرسول صلى الله عليه وسلم وأخذ العهد منهن بالإضافة إلى الأمور الأخرى بأن لا يقتلن أولادهن (٢) .

وفي لوقات أخرى كانت كل من تأتي إلى حضرة الرسول كان يعاهدها على أن لا تفعل هذا. وهناك بعض الروايات تتضح منها أن الإصلاحات الأولى التي كانت أمام الرسول صلى الله عليه وسلم في العرب كان هذا الشيء من بينها. وهكذا فإنه في بيعة العقبة عاهد الرسول صلى الله عليه وسلم الأنصار على أن لا يقتلوا أولادهن (٣) .

يقول سيدنا (عبادة بن الصامت) ذات مرة حضرنا إلى الرسول صلى الله عليه وسلم فقال الرسول صلى الله عليه وسلم بايعوني بألا تشركوا بالله، وأن لا تسرقوا، وأن لا تزنيوا، وأن لا تقتلوا أولادكم ومن يكمل هذا العهد فجزاؤه عند الله ومن ارتكب أي خطأ من هذا فسيعاقب وتجب عليه الكفارة، ومن لم ينكشف ذنبه في الدنيا فأمره إلى الله سواء

^١ صحيح البخاري المجلد الثاني ص ٧٢٦ تفسر سورة الممتحنة وصحيح مسلم باب بيعة النساء والحاشية هذه في صحيح البخاري المجلد الأول ص ١٣٣ باب موعظة الإمام للنساء يوم العيد والترمذي والنسائي وابن ماجه باب مصالحة النساء مسند الإمام أحمد حديث أمية بنت ربيعة وسلمى بنت قيس. حديثنا محمود: حديثنا عبد الرزاق: أخبرنا معمر، عن الزهري، عن عروة، عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان النبي صلى الله عليه وسلم يبايع النساء بالكلام بهذه الآية: "لا يشركن بالله شيئا". قالت: وما مست يد رسول الله صلى الله عليه وسلم يد امرأة إلا امرأة يملكها.

^٢ تفسر ابن كثير المجلد التاسع ص ٤٤٣ على حاشية فتح البيان نقلاً عن ابن أبي حاتم والمستدرک المجلد الثاني ص ٦٢٤ على شرط .

^٣ صحيح البخاري كتاب الإيمان باب وفود الأنصار وصحيح مسلم كتاب الحمد ومسند أحمد المجلد الخامس ص ٣١٤ ومسند الحاكم المجلد الثاني ص ٣١٨. حديثنا فكيهة: حديثنا الليث. عن يزيد بن أبي حبيب، عن أبي الخير، عن الصنابحي، عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه أنه قال: إني من النقباء الذين بايعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقال: يبايعاه على أن لا تشركن بالله شيئاً، ولا تسرقن، ولا تزني، ولا تقتلن النفس التي حرم الله إلا بالحق، ولا تنتهبن، ولا تعصين، بالجنة إن فعلنا ذلك، فإن غشنا من ذلك شيئاً، كان قضاء ذلك إلى الله.

غفر له أو عذبه^(١)، فقال الرسول صلى الله عليه وسلم لـ(عبادة) رضي الله عنه لقد حرم الله عليكم معصية الأمهات ووأد البنات .

بالإضافة إلى كل هذه التدابير فقد جاءت آية بسيطة من القرآن الكريم فمحت كل هذه الجرائم البشعة وأقامت العدل في الدنيا ووضعت المحرم في مكانه الصحيح وجاء السؤال من قبل الملك القهار يقول: "وإذا الموودة سئلت بأي ذنب قتلت" (التكوير آية ٩) . فكم هو مؤثر وبليغ هذا الأسلوب، لقد كان له الكبر الأثر حيث كان الناس إما أن ينفقون بناتهم أحياء بأيديهم أو يذهبون إلى مكة لأداء للعمرة مع الرسول .

كان لسيدنا حمزة رضي الله عنه طفلة يتيمة تدعى أمامه بقيت في مكة، وعندما رأت سيدنا علي رضي الله عنه هرولت نحوه قائلة: عماء عماء، فأخذها سيدنا (علي) وسلمها للسيدة (فاطمة الزهراء) قائلاً لها: ابنة عمك، وكان لسيدنا (علي) أخ هو سيدنا (جعفر الطيلر) ادعى أحقيته لهذه الطفلة وقال إن سيدنا (حمزة) هو أخي في العقيدة، أما سيدنا (علي) رضي الله عنه فادعى أن هذه البنت بمقام أخته أيضاً وجاءت إلي أولاً، كان الرسول صلى الله عليه وسلم يشاهد هذا المنظر المثير للدهشة ثم نظر في دعوى كل منهما وقال: يجب أن تكون للبنت في حضن خالتها فالخالة بمقام الأم^(٢) .

^١ صحيح البخاري كتاب الأدب وكتاب في الإغراض وصحيح مسلم باب النهي عن كثرة المائل

حدثني إسحق بن منصور: أخبرنا يعقوب بن إبراهيم: حدثنا ابن أبي شهاب، عن عمه قال: أخبرني أبو إدريس عائذ الله: أن عبادة بن الصامت من الذين شهدوا بدرًا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومن أصحابه ليلة العقبة أخبره: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال، وحوله عصابة من أصحابه: (تعالوا يا يعقوب بن علي أن لا تشركوا بالله شيئاً، ولا تسرقوا، ولا تزنا، ولا تقتلوا أولادكم، ولا تأتوا ببهتان، تفترونه بين أيديكم وأرجلكم، ولا تعصوني في معروف، فمن وفى منكم فأجره على الله، ومن أصاب من ذلك شيئاً فعوقب به في الدنيا فهو له كفارة، ومن أصاب من ذلك شيئاً فستره الله فأمره إلى الله، إن شاء عاقبه، وإن شاء عفا عنه). قال فبليغته على ذلك.

^٢ صحيح البخاري الجزء الثاني ص ٦١ باب عمرة القضاء. حدثني عبد الله بن موسى، عن إسرائيل، عن أبي إسحق، عن البراء رضي الله عنه قال: لما اعتمر النبي صلى الله عليه وسلم في ذي القعدة، فإي أهل مكة أن يدعو به يدخل مكة، حتى قاضاهم على أن يقيم بها ثلاثة أيام، فلما كتبوا الكتاب، كتبوا: هذا ما قاضى عليه محمد رسول الله، قالوا: لا نقر لك هذا، لو نعلم أنك رسول الله ما منعناك شيئاً، ولكن أنت محمد بن عبد الله. فقال: (أنا رسول الله، وأنا محمد بن عبد الله). ثم قال لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه: (راجع رسول الله). قال علي: لا والله لا أعوك أبداً، فأخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم الكتاب، وليس يحسن يكتب، فكتب: هذا ما قاضى عليه محمد بن عبد الله، لا يدخل مكة السلاح إلا السيف في القرباب، وأن لا يخرج من أهلها بأحد إن أراد أن يتبعه، وأن لا يمنع من أصحابه أحداً إن أراد أن يقيم بها. فلما دخلها رمى الأجل أتوا

سبحان الله أليست هذه هي اللينت التي كانت منبيا في عار الأسرة وكان الأب عندما يسمع بمولدها يسود وجهه خجلا من الناس من سوء ما بشر به،فصار حالها الآن أن الناس يتناقسون على تربيتها وحضانتها ويصبح للحكم في أمرها أمر صعب،هي نفسها التي كانت سببا في البلاء سابقا أصبحت قرّة أعين الآن ؟ !! .
 "والذين يقولون ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرّة أعين" (الفرقان آية ٧٤) .
 وفي النهاية اضطر أحد الشعراء للبدو أن يقول ساخرا:غدا الناس مذ قام النبي الحواريا.
الرضاعة والحضانة:

الغرض الأول بعد ميلاد للطفل هو إرضاعه وتربيته وطالما أنه لم يعد قابلا لإطعام نفسه يجب كفالته والإنفاق عليه حتى بلوغه،وهكذا رأينا الإسلام يضع عبء هذين الأمرين على الوالدين وإن كان قد جعل عبء الإنفاق على الوالد بصفة خاصة،وفي كتب الفقه شرح للرضاعة والحضانة خلاصته أن الطفل حال مولده يجب أن ترضعه أمه وإن لم تكن قادرة لأي سبب من الأسباب فعلى الوالد التكفل بتوفير أدوات الرضاعة للطفل وهذه المدة قد حددها الإسلام بعامين .
 "والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين لمن أراد أن يتم الرضاعة وعلى المولود له رزقهن وكسوتهن بالمعروف"(البقرة آية ٢٣٣) .

وحتى في أيام الرضاعة إذا كان هناك امرأة أخرى ترضعه إلى جانب الأم،فقد منحها الإسلام درجة الأم،وإن أولادها يكونون إخوة في الرضاعة لهذا المولود.
 "وأمهاتكم اللاتي أرضعنكم وأخواتكم من الرضاعة"(النساء آية ٢٣).

كل هذا يرينا أن تربية ورعاية الأطفال في الإسلام تصل درجتها إلى درجة القرابة الدموية،ففي الآية الأولى نجد أن الإسلام وضع مسئولية الإطعام والكسوة ومن يرضع الطفل على عاتق الأب وهذا شيء طبيعي لأن يتحمل الأب هذا العبء وإذا كان الأب غير موجود فعبء ذلك يقع على الجد وهكذا تتدرج المسئولية إلى أعلى في للوراثة .

علياً،فقالوا:قل لصاحبك:اخرج عنا،فقد مضى الأجل.فخرج النبي صلى الله عليه وسلم فبعه ابنة حنزة،تنادي:يا عم يا عم،فأتاها علي فأخذ بيدها،وقال لقاطمة عليها السلام:دونك ابنة عمك أحليها،فاختصم فيها علي وزيد.وجعفر،قال علي:أنا أخذتها،وهي بنت عمي.وقال جعفر:ابنة عمي وغاليتها تحتي.وقال زيد:ابنة أخي.فقضى بها النبي صلى الله عليه وسلم لخائنها،وقال:(الخالة بمجلة الأم).وقال لعلي:(أنت مني وأنا منك).وقال لجعفر:(أشبهت خلقي و خلقي)وقال لزيد:(أنت أخونا ومولانا).وقال علي:ألا تتزوج بنت حنزة؟قال:(إنها ابنة أخي من الرضاعة) .

التعليم و التربية:

بعد التربية و التنشئة الجسدية هناك درجة أخرى للتربية الروحية و القرآن اختصر هذه الفقرة في أربعة ألفاظ يمكن شرحها في كتب عديدة خاطب الله فيها المؤمنين بقوله:

" يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم و أهليكم نارا " (التحريم آية ٦) .

إن مسئولية إنقاذ الأسرة من النار تقع على رب الأسرة و المقصود بالنار هنا ليست نار جهنم بل المقصود هو أن يحفظهم الوالد من المساوئ و العيوب التي تجعل الإنسان في الآخرة يستحق عذاب النار ولهذا تعود تربية الأولاد الأخلاقية و الدينية على رب الأسرة .

وقد مدح الله سبحانه و تعالى مثل هؤلاء الآباء الذين يطلبون من الله أن يرزقهم الزوجات و الذرية الصالحة: "والذين يقولون ربنا هب لنا من أزواجنا و ذرياتنا قررة أعين" (الفرقان آية ٧٤) .

والمقصود هو أن يدعو الإنسان ربه أن يرزقه الذرية الصالحة و أن تظل هذه الذرية باقية في أسرته، وهذا ما أشار إليه القرآن في سورة أخرى و أصلح لي في ذريتي إني تبت إليك و إني من المسلمين " (الأحقاف آية ١٥) .

يتضح من هذا أيضا أن الدعاء بالصالح و للفلاح للأبناء فرض على الآباء، و قد أوضح لنا الرسول صلى الله عليه وسلم بطرق مختلفة ما المقصود بهذه الآية .

ذات مرة جاء الأعرابي (الأقرع بن حابس) إلى النبي صلى الله عليه وسلم و كان الرسول صلى الله عليه وسلم يداعب و يقبل سيدنا (الحسن) رضي الله عنه فاعتبر أن هذا مناف للوقار و الألب فقال للرسول: هل أنت تداعب و تقبل الأطفال، فإن لي عشرة أطفال لم أداعب أو أقبل أحد منهم، فنظر الرسول صلى الله عليه وسلم إليه و قال من لا يرحم لا يرحم. وفي رواية أخرى قال له الرسول صلى الله عليه وسلم لو أن الله قد نزع الرحمة من قلبك فماذا أفعل لك (١). و الهدف من الروايتين هو الشفقة و الحب مع

^١ هاتين الروايتين في صحيح البخاري كتاب الأدب باب رخصة الوالدين أيضا انظر أبو داود كتاب الأدب باب قلة الرجل ولده. حدثنا عمر بن حفص: حدثنا أبي: حدثنا الأعمش قال: حدثني زيد بن وهب قال: سمعت جبر بن عبد الله، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (من لا يرحم لا يرحم) وحدثنا محمد بن يوسف: حدثنا سفيان، عن هشام، عن عروة، عن عائشة رضي الله عنها قالت: جاء أعرابي إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: تقبلون الصبيان؟ فما نقبلهم، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: (أو أملك لك أن نزع الله من قلبك الرحمة).

الأطفال، ومن لم يرحم صغيرنا لا يرحمه الله. وذات مرة حضرت امرأة فقيرة إلى السيدة (عائشة) رضي الله عنها وكان معها طفلتان ولم يكن في منزل الرسول صلى الله عليه وسلم شيء يؤكل إلا ثمرة واحدة فأعطتها السيدة (عائشة) هذه الثمرة .

انظر إلى الأمومة فقد أخذت هذه المرأة للثمرة وقسمتها نصفين وأعطت لكل طفلة جزءا ولم تأخذ لنفسها شيئا فتعجبت للسيدة (عائشة) رضي الله عنها من هذا التصرف، وعندما جاء النبي صلى الله عليه وسلم قصت السيدة (عائشة) للرسول صلى الله عليه وسلم هذا الأمر فقال الرسول صلى الله عليه وسلم عندما يكون للإنسان بنتان ويحسن إليهما ستكونان حاجزا بينه وبين النار وأضاف أيضا أن من يربي بنتين حتى سن البلوغ فإن درجته يوم القيامة ستكون كدرجتي وأشار بإصبعيه^(١)، فعليك أن تتدبر رفعة هذه الدرجة. وقد جاء في موضع آخر أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: إن تعليم الأب لابنه الأدب أفضل من صاع من الصدقة، وفي موقع آخر أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: لا يوجد أفضل من أن يعلم الأب ابنه^(٢) .

وهكذا لا يرجح الابن على الابنة لكونه ولد فقد أرشدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن من كانت له بنت ورعاها ولم يقلل من شأنها ولم يفضل الابن عليها أدخله الله الجنة^(٣). كما أنه ليس في الشريعة المحمدية أي أفضلية بين الصغير والكبير في الأولاد فالكل ينسب إلى الأب بقدر متساو، وأن من يميز ابنا على ابن ويمنحه شيئا أخو عن بقية أخوته فقد عبر عنه الرسول صلى الله عليه وسلم بالظلم.

ذات مرة وهب صحابي أحد أبنائه غلاما وأراد أن يكون الرسول صلى الله عليه وسلم شاهدا على هذا فجاء إلى الرسول وبلغه ما فعل فقال له الرسول صلى الله

^١ صحيح مسلم كتاب البر والصلة باب فضل الإحسان إلى البنات. حدثني عمرو الناقد، حدثنا أبو أحمد الزبيري، حدثنا محمد بن عبد العزيز، عن عبيد الله بن أبي بكر بن أنس، عن أنس بن مالك، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (من عال جارين حتى تبلغا، جاء يوم القيامة أنا وهو). وضم أصابعه.

^٢ الترمذي كتاب البر والصلة باب ما جاء في أدب الولد، ومسنن أبي داود كتاب الأدب فضل من عال يتيما. حدثنا قتيبة. حدثنا يحيى بن يعلى عن ناصح عن سماك بن حرب عن جابر بن سمرة. قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: لأن يؤدب الرجل ولده خير من أن يتصدق بصاع.

^٣ أبو داود كتاب البيوع باب في الرجل يفضل بعض ولده في. حدثنا عثمان وأبو بكر ابن أبي شيبة، المعنى قال: لنا أبو معاوية، عن أبي مالك الأشجعي عن ابن جدي، عن ابن عباس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: من كانت له أنثى فلم يتدها ولم يهينها ولم يؤثر ولده عليها قال: يعني المذكور أدخله الله الجنة ولم يذكر عثمان يعني المذكور.

عليه وسلم هل أعطيت كل أولادك مثلما أعطيت هذا الولد، فقال الصحابي: لا، فقال الرسول صلى الله عليه وسلم: أنا لا أكون شاهداً على هذه العطية الظالمة^(١).
وقد أصلح بهذا القانون العادات للرئجة بين لليهود والروم والهندوك وبقية الأمم الأخرى حيث كان الابن الأكبر يطع كل الأَطْيَان أو يرجح على أخوته، وكان الابن الأكبر في درجته يعادل بقية الأخوة ولهذا كان للظلم على للصغار له سنده القانوني إلا أن الإسلام قد نهى عن هذا .

حقوق الزوجين

تأتي الزوجة والزوج في المرتبة الثالثة بعد الأولاد والأب والأم في قائمة للعلاقات الحميمة، وب نفس الطريقة التي وضحنا فيها حقوق للوالدين، وبحقوق الأولاد تكون حقوق الزوجين التي تقوم عليها سعادة الأسرة .

الأمر الأول هو أن العقائد الأخلاقية قبل الإسلام كانت تسلم بأن العلاقة بين الرجل والمرأة تكون إلى حد ما عائناً في ترقى الأخلاق الروحية، فكان البوذيون والجنينيون والويدانيون قائمين على نظرية للرهبنة، وكذلك المسيحية كانت تعتبر أن ترك العلاقة بالمرأة وسيلة للرقى الروحي^(٢). فجاء الإسلام وأبطل هذه النظرية وقال إنه إذا كان كمال الروح والأخلاق يمكن أن يكون في التجرد فإن العلاقة للزوجية يمكنها أن تصل إلى درجة أكبر من الكمال الأخلاقي. وللكمال الأخلاقي هنا هو حسن السلوك وحسن المعاملة، فالذي لا علاقة له بزوجة أو لب أو لم أو أخ أو أخت أو قرابة أخرى كيف يمكن أن تكون عليه واجبات في هذه الدنيا؟ وكيف له أن يجد فرصة طبيعية لتكميل هذه الأخلاق، إن موت العصمة والعفة في الدنيا التي هي روح للقلب الأخلاقي من المؤكد لن تكون في حياة التجرد وهذا ما يؤيده تاريخ الرهبنة الدينية المحفوظ في مكنتات العالم .

^١ المرجع السابق. حدثنا محمد بن رافع، ثنا يحيى بن آدم، ثنا زهير، عن أبي الزبير، عن جابر قال: قلت لمرأة بشير: أتحل ابني غلامك، وأشهد لي رسول الله صلى الله عليه وسلم، فتأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: إن ابنة فلان سألتني أن أتحل لبتها غلاماً، وقالت لي: أشهد رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: له إخوة؟ فقال نعم، قال: فكلهم أعطيت مثل ما أعطيتك؟ فقال: لا، قال: فليس يصلح هذا، وتأتى لا أشهد إلا على حق.

^٢ الإنجيل القراتن (٧-٨) .

وقد جعل الإسلام في النكاح الخير والبركة للرجل والمرأة بل إنه حق للحر والعبد ويقول الله سبحانه وتعالى: "ولنكحوا الأيامى منكم والصالحين من عبادكم وإمائكم إن يكونوا فقراء يغنهم الله من فضله و الله واسع عليم". (النور آية ٣٢) .

والفقرة الأخيرة من هذه الآية تشير إلى أنه لو كان الإنسان فقير سيغنيه الله من فضله، وهذا يعني أن العلاقة الزوجية سبب للخير والبركة فمن الناحية الدينية قد يكون أحدهما مقدر له الفقر، ويكون الآخر مقدر له الغنى وهنا بالنكاح يفيد أحدهما الآخر.

ومن الناحية الدنيوية يكون الزواج سببا في أن يعمل كل منهما، وعن طريقهما يخرج من يعمل أيضا، إن سر هذه للفلسفة لا يفهمها الأغنياء، بل يفهمها الفقراء فقط، وخاصة العمال والفلاحين .

الأمر الثاني هو أنه عندما يقع العبد على الكاهل من البشر فتجبره الحاجة لأن يتحرك فالفقير الذي لا يعمل تجبره الحاجة لإثباع زوجته في البحث عن العمل، فحبه لزوجته هو الذي سيدفعه لتقبل الأعمال الجسيمة لكي يشبع رغباته، والإسلام يقول بأن الله واسع عليم بيده ملكوت كل شيء ويعلم الغيب، وأن أوامره لا تخلو من حكمة يعلمها هو، ولذلك قال إذا لم يستطع الإنسان الفقير أن يتزوج من المحصنات فعليه أن يتزوج من الإماء فجاءت الآية تقول: "ومن لم يستطع منكم طولا أن ينكح المحصنات المؤمنات فمن ما ملكت أيما نكح من فتياتكم للمؤمنات والله أعلم بإيمانكم بعضكم من بعض" (النساء آية ٢٥).

والجزء الأخير من الآية يدعونا للتمتع حيث يقول إذا لم يستطع المسلم تحمل نفقة المرأة الشريفة فعليه أن يتزوج بأي أمة مؤمنة، وهنا يتضح لنا أمران الأول هل يمكن للأمة المسلمة أن تتساوى مع المسلمة القديمة العهد بالإسلام؟ نعم فقال لا فرق بين مسلمة حديثة العهد وقديمة العهد بالإسلام فالله وحده يعلم أيهما أكثر إيمانا وقبولا عند الله. الأمر الثاني هو كيف تتساوى الشريفة بالأمة حديثة العهد بالإسلام؟ والإسلام لا يقر هذا التفريق فالمسلمون جميعا سواسية و كلنا من جنس واحد .

ولهذا اهتم الإسلام حتى لا يقع للفقراء من المسلمين في الرسوسة ويرجعون عن الزواج فقد اهتم الإسلام باختيار رفيقة الحياة لتكميل هذه السعادة الشخصية وقال الرسول صلى الله عليه وسلم:

" أتزوج النساء فمن رغب عن أمتي فليس مني " (١) .

والقصد من الزواج ليس هو أداء هذا الواجب فحسب بل الحقيقة أنه سكنى وهي فطرة ربانية وقد جعل الله المودة والرحمة بين الزوجين إحدى معجزاته حيث قال :
"ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون" (الروم آية ٢١) .

إن لفظ "سكن" الذي عبر عنه القرآن في العلاقة الزوجية يحوي كل فلسفة هذه العلاقة ولذلك يجب أن تكون للعلاقة بين الزوجين علاقة حب ومودة حيث أن هناك أهدافاً أخرى تكمن وراء هذه العلاقة ولهذا عدها الله واحدة من آياته الكبرى ولو خلت هذه العلاقة من المودة والرحمة والسكن سيكون هناك خلل في أحدهما.

وقد اهتم الإسلام بالتوافق بين الزوجين ونم من يقوم بإفساد هذه العلاقة فيقول للقرآن: "يَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ الْبَيْنَ بَيْنَ زَوْجَيْهِمَا وَمَا هُمْ بِضَارِينَ بِهِ مِنَ أَحَدٍ إِلَّا بَإِذْنِ اللَّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَقٍ" (البقرة آية ١٠٢).

إن كيف يبقى هذا التوافق؟ ينحصر هذا في أمر واحد فقط وهو أن تطيع الزوجة زوجها وأن يعمل الزوج على إسعاد زوجته وأن يراعي كل منهما حقوق الآخر، ولكن إعطاء الرجل درجة أكثر من المرأة لأنه هو الذي يرعاها ويحفظها :
" الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم فالصالحات قانتات حافظات للغيب بما حفظ الله " (النساء آية ٣٤) .

فالأجزاء الأخيرة من الآية يطلب من الزوجات أن تحافظ على عزتها وشرفها في غياب أزواجهن وهذا هو ما أودعه الله في المرأة فلو فعلت امرأة غير ذلك فسيكون هذا خلافاً للفطرة التي فطرها الله عليها.

١ صحيح بخاري ومسلم كتاب النكاح. حدثنا سعيد بن أبي مريم: أخبرنا محمد بن جعفر: أخبرنا حماد بن أبي حماد الطويل: أنه سمع أنس بن مالك رضي الله عنه يقول: جاء ثلاثة رهط إلى بيوت أزواج النبي صلى الله عليه وسلم، يسألون عن عبادة النبي صلى الله عليه وسلم، فلما أخبروا كأنهم تقالوها، فقالوا: وأين نحن من النبي صلى الله عليه وسلم؟ قد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، قال أحدهم: أما أنا فإني أصلي الليل أبداً، وقال آخر: أنا أصوم الدهر ولا أفطر، وقال آخر: أنا إن أعزل النساء فلا أتزوج أبداً، فجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: (أنتم الذين قلتم كذا وكذا؟ أما والله إنني لأخشاكم لله واتقاكم له، لكني أصوم وأفطر، وأصلي وأرقد، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني)

فالله تعالى جعل لقاء الزوج بالزوجة وسيلة لتكميل حياة اجتماعية واقتصادية ولهذا أصبح أحدهما لازماً للآخر فهما ستر وغطاء لبعضهما وانظر إلى بلاغة القرآن في هذا الشأن:

" من لباس لكم و أنتم لباس لهن " (البقرة آية ١٨٧) .

وهناك معان كثيرة في كلمة "لباس" فهو ستر وزينة أي أن أحدهما مكمل للآخر وهذه أهداف الزواج وإتمام هذه الأهداف هو ما يعرف بحقوق الزوجين .

وفي آية أخرى شرح الله سبحانه وتعالى للولجيات المشتركة والهدف من خلق الرجل والمرأة فقال:

" يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيرا ونساء واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام إن الله كان عليكم رقيبا " (النساء آية ١) .

كان الرسول صلى الله عليه وسلم يقرأ هذه الآية في خطب الزواج عامة، فمن هذه الآيات يستطيع الإنسان أن يعرف الهدف من إنسانيته فهي كالمراة التي يستطيع الإنسان أن يرى حقيقته فيها وإذا لم يستطع الإنسان أن ينصف نفسه فكيف يستطيع أن ينصف الآخرين فالإحسان لا بد وأن يبدأ من البيت .

كان هناك صحابي من الزهاد والعابدين إلا أنه لم يهتم بزوجه فسمع الرسول صلى الله عليه وسلم عن حاله فدعاه وقال له: "ولزوجك عليك حقاً " (البخاري كتاب النكاح) .

لم تكن هناك منزلة للمرأة في الجاهلية قبل الإسلام فكانت تضرب على أنفه الأسباب ويقول سيدنا (عمر) رضي الله عنه لقد نهزت زوجتي ذات مرة فأجابتي بمثل ما قلت لها، يقول: إننا قبل الإسلام لم نكن نعمل حساب للمرأة في أي شيء ولكن جاء الإسلام فأقر لها حقوقاً وولجيات (١) .

لقد رفع الإسلام من قيمة المرأة وجعلها مساوية للرجل في كافة الحقوق والولجيات إلا أن الإسلام أعطى درجة أكبر للرجل أخلاقياً وقال القرآن :

" و لهن مثل الذي عليهن بالمعروف و للرجال عليهن درجة " (البقرة آية ٢٢٨) .

١ - توجد حنية في النص الأصلي .

ولكن هذه الدرجة لم تكن بلا سبب بل إنها أعطيت للرجل لكي يراعي المرأة ويحافظ عليها بمعنى أن الإسلام جعل الرجل رئيساً في بيته والآية السابقة تفصل في المنازل والمناوشات التي تكون بين الرجل والمرأة وإنما أعطى الرجل الدرجة الأعلى لكي يقود بيته ويحافظ عليه. وانتخاب الرجل لهذا المنصب له سببه فقد وضع القرآن هذا بقوله :

" الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم"(النساء آية ٣٤).

والسبب في أفضلية للرجل هو أن الله سبحانه وتعالى وهب للرجل القوة الجسدية والعقل والفراسة في مقابل المرأة، والأبحاث الطبية وتاريخ الإنسانية والمشاهدات اليومية كلها تؤيد هذا، ومن هنا وجب أن يكون له حق الصدارة بشكل طبيعي .

السبب الثاني هو أن الإسلام جعل حق الإنفاق وتربية الأولاد وغيرها من أمور الأسرة المالية على عاتق الرجل، وهي مسئولية يحملها الرجل منذ تحمله هذا العبء فمن الإنصاف أن يكون بعد هذا حاكماً ورئيساً لبيته حتى يظل نظام البيت والعلاقة بينهما في جو يسوده التقاهم .

وهناك تعنت من هذا لدى أكثر السيدات وربما يعود هذا إلى طبيعتين الضعيفة أو سوء تربية، فيضطرب بعض الرجال إلى استخدام القسوة والعنف ضدهم، رغم أن الرسول صلى الله عليه وسلم نصحننا بقوله: "أوصيكم بالنساء خيراً فقد خلقن من ضلع أعوج، ولو استطعت التعامل مع هذا الأعوجاج فخير وبركة ولو فكرت في إصلاحه فستكون النتيجة هي كسره" (١).

^١ صحيح بخاري ومسلم كتاب النكاح. حدثنا إسحق بن نصر: حدثنا حسين الجعفي، عن زائدة، عن مسرة، عن أبي حازم، عن أبي هريرة، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذي جاره، واستوصوا بالنساء خيراً، فإنن خلقن من ضلع، وإن أعوج شيء في الضلع أعلاه، لأن ذهبت تقيمه كسرته، وإن تركته لم يزل أعوج، فاستوصوا بالنساء خيراً) .

فقد أعطى الرسول صلى الله عليه وسلم درسا مهما للرجال في التعامل مع النساء بحيث إذا وجد الرجل في زوجته سوءا فعليه أن لا ينفر منها، ومن المؤكد أن هناك جانباً إيجابياً فيها^(١) وهذا ما أكد عليه القرآن الكريم حيث يقول :
"وعاشروهن بالمعروف فإن كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئا ويجعل الله فيه خيراً كثيراً"(النساء آية ١٩) .

لقد وزع الإسلام مشاغل الحياة الإنسانية إلى جزئين هما الأمور المنزلية ووضع مسئوليتها على المرأة، والأمور الخارجية يتحمل عبئها الرجل، وهكذا بتعاون الطرفين وتوحيدهما أقام الإسلام عماد الحياة الإنسانية، فمثلا كسب العيش ليس من عمل المرأة بل هو فرض على الرجل ولهذا جعل الإسلام الرجل كفيلا بالإنفاق على زوجته وإذا قصر الرجل في هذا فعلى الحكومة أن تمكن المرأة من حصول هذا الحق، ولو أنكر الرجل هذا فيحق للمرأة الانفصال عن زوجها^(٢).

ليس هذا فحسب بل يحق للمرأة أحيانا أن تأخذ من الرجل مقابل رخصة الطفل والذي يوجد تفصيله في القرآن الكريم .

ولو أن رجلا استعمل البخل مع أولاده وزوجته ولم يوف بحاجاتهم الضرورية فيحق للمرأة هنا أن تأخذ مبلغا من ثروة زوجها ولكن بقدر حاجاتها دون علمه. فقد جاءت (هند) زوجة (أبي سفيان) أيام فتح مكة للرسول صلى الله عليه وسلم وقالت: يا رسول الله إن أبا سفيان رجل بخيل يبخل علي وعلى أولادي فهل آخذ شيئا من ماله دون علمه، فقال لها الرسول صلى الله عليه وسلم ولكن بقدر حاجتك وحاجة أولادك^(٣) .

وفي حديث مشهور ذكر فيه المسئوليات المشتركة للرجل والمرأة بشكل مختصر يقول الرسول صلى الله عليه وسلم: "كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته الرجل

^١ صحيح بخاري ومسلم كتاب النكاح، باب الوصية بالنساء. حدثني إبراهيم بن موسى الرازي، حدثنا عيسى بن يونس، حدثنا عبد الحميد يعني: ابن جعفر، عن عمران بن [أبي] أنس، عن عمرو بن الحكم، عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لا يفرك مؤمن مؤمنة، إن كره منها خلقا رضي منها آخر) أو قال: (غيره).

^٢ في شرح هذا يمكن الرجوع إلى كتب الفقه المختلفة تحت باب النفقة، وانظر أيضا نيل الأوطار للشوكاني المجلد السادس ص ٢٦٣ مصر .

^٣ صحيح البخاري باب إذا لم ينفق الرجل ص ٨٠٨. حدثنا محمد بن كثير: أخبرنا سفيان، عن هشام، عن أبيه، عن عائشة رضي الله عنها: أن هند قالت للنبي صلى الله عليه وسلم: إن أبا سفيان رجل شحيح، فأحاج أن آخذ من ماله؟ قال: (عدي ما يكفيك وولذلك بالمعروف).

راع لزوجته وأولاده وسيسأل عنهم، والمرأة راعية لزوجها وبيتها ومستسأل عن هذا^(١) (البخاري الجزء الأول ص ٧٧٩ باب قوا أنفسكم و أهليكم). لقد جمعت هذه الفقرات الإعجازية كل شيء في دلخلها .

من هي المرأة التي بحق للرجل ضربها :

هناك آية في القرآن الكريم توضح أن للرجل في بعض الحالات الحق في ضرب المرأة والآية هي: "واللاتي تخافون نشوزهن فعظوهن واهجروهن في المضجع واضربوهن فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلا " (النساء آية ٣٤) .

والنشوز في اللغة هو الإعراض أو الخروج، أما المعنى الاصطلاحي فقد وضحه المفسر (ابن جرير) في الألفاظ التالية :

"ومعنى ذلك إذا رأيتم منهن ما تخافون أن ينشزن عليكم من نظر إلى ما لا ينبغي أن ينظرن إليه ويدخلن ويخرجن واربتن بأمرهن^(٢) . (تفسير الطبري ٣٨٠٥ مصر) .
عن (محمد بن كعب القرظي): إذا رأى الرجل تقصيرها في حقّه في مدخلها ومخرجها قال يقول لها بلسانه قد رأيت منك كذا وكذا فانتهي. (تفسير الطبري ٣٨٠٥ مصر) .

أما في كتب الفقه: الناشز هي الخارجة عن منزل زوجها المانعة نفسها منه^(٣) (عالمكبري بنفقات) .

والمرأة الناشزة هي التي بها بعض المساوئ الأخلاقية، فقد وسع بعض المفسرين معنى هذا النشوز وقالوا أن المرأة الناشزة هي التي تتعالى على زوجها ولا تمتثل لأوامره وتبغضه وتعرض عنه .

واعتقد أن كلا التفسيرين لهذا المعنى صحيح، وتنتضح الحقيقة كاملة لمعنى النشوز من خلال قراءتنا للآية الكريمة: "الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض وبما انفقوا من أموالهم فالصالحات قانتات حافظات للغيب بما حفظ

^١ صحيح البخاري باب إذا لم ينفق الرجل ص ٨٠٨. حدثنا أبو اليمان: أخبرنا شعب، عن الزهري قال: أخبرني سالم بن عبد الله، عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (كلكم راع ومسؤول عن رعيته، فالإمام راع ومسؤول عن رعيته، الرجل في أهله راع وهو مسؤول عن رعيته، والمرأة في بيت زوجها راعية وهي مسؤولة عن رعيته، والخادم في مال سيده راع وهو مسؤول عن رعيته). قال: فسمعت هؤلاء من النبي صلى الله عليه وسلم، وأحب النبي صلى الله عليه وسلم قال: (والرجل في مال أبيه راع ومسؤول عن رعيته، فكلكم راع، وكلكم مسؤول عن رعيته)

الله واللاتي تخافون نشوزهن فعظوهن وأهجروهن في المضاجع واضربوهن فإن
أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلاً^(١) (النساء آية ٣٤).

لقد فضل الرجل على المرأة في هذه الآية والتي من نتائجها أن المرأة الصالحة
هي التي تطيع زوجها وتحفظه في ماله وفي عرضه في غيابه وقال إن للمرأة التي
تخافون نشوزها فعليكم في البداية أن تفهموها وإن لم تؤمن فعليكم بهجرها وإن لم تؤمن
فاضربوها ولو اتعظت فلا تبحثوا عن حيلة لطلاقها أو أنيتها.

لقد وضحنا سابقاً أن للرجال واجباً هو أن يراعوا للنساء ويقال أيضاً إن المرأة
الصالحة هي التي تطيع زوجها وتحفظ ماله وعرضه ومن لم تستطع أن تؤدي
إحدى هذه الواجبات فهي ناشزة وأمرنا بأن نتنبه ونعظ هذه المرأة .

واحترام الزوج والمحافظة على عرضه توجد الإشارة إليهما في الأحاديث فقل
الرسول صلى الله عليه وسلم "إن أفضل النساء هي التي إذا نظر إليها زوجها سوته وإذا
أمرها أطاعته وإذا غاب عنها زوجها حفظته في نفسها وماله".

وما قاله الرسول صلى الله عليه وسلم في حجة الوداع عن حقوق المرأة فيه
معنى كامل وتوضيح شامل لكلمة للنشوز، (ففي صحيح مسلم) "واتقوا الله في النساء فإنهن
عنكم عوان ولكم عليهن أن لا يوطئن فرشكم أحداً تكرهونه فإن فعلن فاضربوهن
ضرباً غير مبرح " (مسلم) .

وهي نفس الألفاظ في ابن ماجه: "استوصوا بالنساء خيراً فإنهن عنكم عوان ليس
تملكون منهن شيئاً غير ذلك إلا أن يأتين بفاحشة مبينة فإن فعلن فاهجروهن واضربوهن
ضرباً غير مبرح فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلاً " (كتاب النكاح) .

المقصود بوطء الفراش هو مجيء هؤلاء الناس للذين لا يرغب الزوج قنومهم
إلى منزله، والإشارة التي عن عدم الحياء واضحة إلا أن البعض توسع في معناها وقال
إن عصيان المرأة ووقاحتها وسوء سلوكها كل هذا يندرج تحت كلمة "فاحشة" (تفسير
سورة النساء الجزء الثاني) .

والخلاصة أن هناك حالات خاصة يسمح فيها بتتبيه المرأة كما أن هناك
تصريحاً بضرب المرأة ضرباً غير مبرح كالضرب بالمسواك وغيره (تفسير الطبري

^١ تفسر هذه الآية توضح الأحاديث والعالم القرآنية .

المجلد الخامس ص ٤١ مصر) بحيث لا يلحقها أذى، وإلا فإن ضرب المرأة عامة مناف للثقافة والحضارة الإسلامية .

كانت هذه هي عادة الجاهليين التي قام الإسلام بإصلاحها ويقول (ياس بن عبد الله) أمرنا الرسول صلى الله عليه وسلم بأن قال يا عباد الله لا تضربوا زوجاتكم، فجاء إليه سيدنا (عمر) رضي الله عنه وقال يا رسول الله لقد تمررت الزوجات على أزواجهن وقد منحنتا رخصة الضرب، وكانت النتيجة أن جمعت الكثير من السيدات أمام بيت النبوة يشنكن أزواجهن، فرأى الرسول صلى الله عليه وسلم هذا وقال: العديد من النساء يطوفون حول آل محمد وهن يحملن شكاوى من أزواجهن وهذا يعني أن الكثيرين منكم يسيئون لأزواجهن. (أبو داود وابن ماجه).

جاءت صحابية تستشير الرسول صلى الله عليه وسلم في نكاحها ونكرت أن أحد الأشخاص تقدم لخطبتها فقال لها الرسول صلى الله عليه وسلم: "ألا ينزل عصاه من على كتفه" (١) بمعنى هل يضربك ويغضب على أئفه الأسباب، ويظهر من هذا أن الرسول صلى الله عليه وسلم لم يكن يحب مثل هذه الأفعال .

جاء صحابي إلى الرسول صلى الله عليه وسلم يشكي بذاءة زوجته فقال له الرسول صلى الله عليه وسلم طلقها، فقال له الصحابي: إن لي منها أولاداً وهي معي منذ فترة، فقال له الرسول: هل وعيتها ولو عت هذا فستقبل وينصلح شأنها ولكن لا يجب أن تضرب زوجتك كالجارية (٢)، وقال الرسول صلى الله عليه وسلم في موضع آخر "لا يضرب أحد منكم زوجته كالجارية وهذا أمر غير مستحسن يضربها بالسوط نهاراً ويعاشرها ليلاً" (٣) .

ويجب أن نعلم أن العقاب هو لإصلاح المرأة في حالة الشك والشبهة وإلا فإن الرجم والجلد من اختصاص القاضي في حالة ثبوت الخطأ .

١ صحيح مسلم المطلقه ثلاثا الجزء ١٢ .

٢ المشكاة كتاب النكاح باب عشرة النساء نقلا عن أبو داود .

٣ المشكاة كتاب النكاح باب عشرة النساء نقلا عن صحيح البخاري ومسلم. حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة، حدثنا عبد الله بن نمير، حدثنا هشام بن عروة، عن أبيه، عن عبد الله بن زبعة، قال: خطب النبي صلى الله عليه وسلم، ثم ذكر النساء فوعظهم فيهن، ثم قال: إلام يجلد أحدكم امرأته جلد الأمة؟ ولعله أن يضاجعها من آخر يومه.

حقوق القرابة

يأتي حق القرابة درجة تلو الأخرى بعد للوالدين والأولاد والزوج والزوجة وهو ما يطلق عليه في العربية اسم صلة قرحمة بولدت اهتمت للتعاليم للمحمدية بحقوق القرابة وصلة الرحم أكثر من أي مذهب آخر وهذا هو السبب في الاهتمام به أكثر من مرة وهذا ما صرح به القرآن على الأقل في أكثر من اثنتي عشرة آية، ولم تعتبر هذه الآيات أن هذا إحسان أو فضل من قبل الإنسان بل اعتبرته فرضاً واجباً يجب على الإنسان القيام به :

"فأت ذا القربى حقه" (الروم آية ٣٨) ، "وأت ذا القربى حقه" (الإسراء آية ٢٦) . وفي موضع آخر يقول القرآن للكرام بالرغم من الرغبة للشديدة لحب للمال إلا أن إنفاقه يكون أفضل في مساعدة ذوي القربى .

"وأت المال على حبه ذوي القربى" (البقرة آية ١٧٧) .

كما جاء أيضاً أن من يستحق المساعدة بعد الوالدين هم القربى :

"قل ما أنفقتم من خير فلولوالدين والأقربين" (البقرة آية ٢١٥) .

كما أن البر بالأقرباء يأتي طبقاً لدرجة القرابة الأقرب فالأقرب بعد الوالدين وهذه هي الأوامر التي تعهد الإنسان بها أمام الله "وبالوالدين إحساناً وذي القربى" (البقرة ٨٣) . وجاء في سورة النحل أن مساعدة أهل القرابة تأتي بعد العدل والإحسان في أوامر الله لعبيده :

"إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى" (النحل آية ٩٠) .

إن للمستحق الأول من ثروة أي مسلم بعد الوالدين هم القربى :

"قل ما أنفقتم من خير فلولوالدين والأقربين واليتامى والمساكين" (البقرة آية ٢١٥) . ولو حدث أي تقصير من قبل أي قريب فلا يجب على أهل الثروة أن يمنعوا مساعدتهم له :

"ولا ياتل أولوا الفضل منكم والسعة أن يؤتوا أولي القربى والمساكين" (النور آية ٢٢) .

وقد جاء ذكر الإحسان بالقربى بعد العبادة والتوحيد لله وإطاعة الوالدين فقال الله تعالى :
"واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً وبالوالدين إحساناً وبذي القربى" (النساء آية ٣٦) .

لقد أولى الإسلام اهتماما كبيرا بنوعي القربى فجاء الرسول بدعوته مبلغا أمته بأن يؤدي كل منهم حق القرابة وأن يتعاملوا معهم بكل ود وحب .
" قل لا أسألكم عليه أجرا إلا المودة في القربى " (الشورى آية ٢٣) .

حق القرابة في اللغة العربية يعني صلة الرحم ولللفظ المضاد لهذا المعنى في العربية هو قطع الرحم، وإن أي شيء مشترك بين الإنسان الأصل فيه المساعدة والعون، ويمكن أن يكون هذا الاشتراك في العمر أو في المدرسة، في التنزوق، في الوطن، أو في القوم أو في أشكال أخرى مختلفة، يجب على الطرفين أداء حقوق هذه الشراكة ورعايتها، إلا أن اشتراك الإنسان مع أخيه الإنسان عن طريق رحم الأم تعني أنها علاقة إلهية وقطعها أمر يخرج عن نطاق قوة الإنسان، لهذا فإن حقوق هذه العلاقة واجبة على الإنسان، ومن يحاول قطع هذه العلاقة فقد وصفه الوحي المحمدي بالفاسق والمضل: "وما يضل به إلا الفاسقين الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل " . (البقرة آية ٢٧) .

وفي أحد الأحاديث الشريفة شرح الرسول صلى الله عليه وسلم هذه العلاقة الفطرية بأن كلمة رحم مشتقة من الرحمان لهذا خاطب الله هؤلاء بأن من وصلها فقد وصلني ومن قطعها فقد قطعته " (١) .

وبهذه الألفاظ القوية وضح الرسول صلى الله عليه وسلم أن صلة الرحم مرتبطة بالعرش الإلهي ولهذا يقول من وصلني فقد وصلته ومن قطعني فقد قطعته " (١) .
وفي موضع آخر وضح الرسول بتعبير آخر جميل هذه العلاقة بقوله: "عندما خلق الله الخلق فإن الرحم الإنساني أملك بتلابيب الرحمن فقال له الله انتظر فإن هذا سيكون مسكن من يحاول وصلك، ألا يسعدك هذا فإن من وصلك وصلته ومن قطعك قطعته " (٢)، وكلمة رحم تشترك مع الرحمن في حروفها، كل هذا يظهر مدى الاشتراك

^١ صحيح البخاري كتاب البر والصلة. حدثنا خالد بن مخلد: حدثنا سليمان: حدثنا عبد الله بن دينار، عن أبي صالح، عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (إن الرحم شجنة من الرحمن، فقال الله: من وصلك وصلته، ومن قطعك قطعته)

^٢ صحيح البخاري ومسلم البر والصلة. حدثنا ابن أبي عمر. حدثنا مقيان عن عمرو بن دينار عن أبي قابوس عن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (الراحمون يرحمهم الرحمن، ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء، الرحم شجنة من الرحمن، فمن وصلها وصله الله ومن قطعها قطعه الله .

^٣ صحيح البخاري ومسلم البر والصلة .

المعنوي بلفظ الرحمن والتي تعني في الإسلام أهل القرابة. وهناك إشارة في القرآن الكريم تجاه الرحم و الرحمن في سورة للنساء :

" واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام " (النساء آية ١) .

ويمكن أن يفهم معنى هذه الآية من الحديث التالي " ذات مرة جاء رجل إلى الرسول صلى الله عليه وسلم وقال: أخبرني بأحب الأعمال التي تدخلني الجنة، فقال له الرسول صلى الله عليه وسلم اعبد الله ولا تشرك به شيئاً، وأقم الصلاة والزكاة، وصل رحمك" (١) .

ويقول الصحابي (جبير بن مطعم) إن الرسول صلى الله عليه وسلم قال من لم يصل رحمه فلن يدخل الجنة طالما أن الله لم يغفر له هذا الذنب (٢) .

وقد ذكر أبو هريرة حديثاً للرسول صلى الله عليه وسلم يقول فيه "من أراد أن يوسع الله له في رزقه ويطول عمره فليصل رحمه" (٣) .

ومعنى هذا الحديث أن أثر هذا العمل الجليل أن الله يبسط للإنسان في رزقه وفي عمره لأن صلة الرحم تكون في شكلين أحدهما مساعدة الأقارب المادية والثانية أن العمر الذي وهبه الله للإنسان جزء منه لا بد أن ينفق في خدمة هؤلاء .

والنتيجة الأولى هي أن يبسط الله للإنسان في رزقه والنتيجة الثانية هي أن يطيل الله عمر الإنسان، ويمكن أن يفهم هذا الحديث بتوجيه مادي آخر وهو أن المشكل الأسرية تكون دائماً سبباً في سوء العلاقات، كما أن صلة للرحم تكون سبباً في المودة والسعادة في الحياة الأسرية كل هذا موجب للبركة في المال والعمر، وهناك حديث في الترمذي: "إن صلة الرحم تبعث على البركة في المال والعمر بين الأقرباء".

^١ صحيح البخاري كتاب الأدب فضل صلة الرحم. حدثني عبد الرحمن حدثنا حمز: حدثنا شعبة: حدثنا ابن عثمان بن عبد الله بن موهب وأبوه عثمان بن عبد الله: أنهما سمعا موسى بن طلحة، عن أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه: أن رجلاً قال: يا رسول الله، أخبرني بعمل يدخلني الجنة، فقال القوم: ما له؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (أرب ما له). فقال النبي صلى الله عليه وسلم: (تعبد الله لا تشرك به شيئاً، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصل الرحم، ذرها). قال: كأنه كان على راحلته.

^٢ المرجع السابق باب إثم القاطع. حدثنا يحيى بن بكير: حدثنا الليث، عن عقيل، عن ابن شهاب: أن محمد بن جبير بن مطعم قال: إن جبير بن مطعم أخبره: أنه سمع النبي صلى الله عليه وسلم يقول: (لا يدخل الجنة قاطع)

^٣ صحيح البخاري كتاب الأدب باب من يبسط له في الرزق صلة رحمه. حدثنا أحمد بن صالح ويعقوب بن كعب وهذا حديثه قال: ثنا ابن وهب قال: أخبرني يونس، عن الزهري عن أنس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: من مره أن يبسط في رزقه، وينسأ في أثره، فليصل رحمه .

وهناك تصريح في الأحاديث يقول إن كمال صلة الرحم ليست هي صلة من يصلك فقط بل صلة من يقطعك أيضا^(١) بمعنى أن من لم يؤد حق القرابة فلا يجب علينا مقاطعته.

حقوق الجار

الجار هو الشخص الذي نسكن بالقرب منه، إن أساس الحضارة الإنسانية يقوم على التعاون المشترك، وفي هذه الدنيا فإن كل إنسان يحتاج إلى الآخر، فلو أن هناك شخصاً جائعاً فمن واجب الآخر عليه أن يطعمه، ولو أن هناك مريضاً فيجب على الآخر أن يقوم على رعايته، ولو أن إنساناً حدث له سوء فيجب على الآخر مواساته ومساعدته ومن هنا نجد أن مسؤوليات الإنسان في هذا النظام الأخلاقي مسؤوليات مشتركة، ورغم أن الإنسان بظاهره الجسماني والمادي يبدو مستقلاً، إلا أن الواجب الروحي والأخلاقي يفرض على الإنسان أن يرتبط بالآخر ولهذا فإن كل المذاهب ركزت على مسؤولية الحب المتبادل بين الجيران لكي يساعد أحدهما الآخر وقت الشدة .

وهناك نكتة أخرى هي أن الإنسان يعتقد بأن الألم والمصائب تكون من الأشخاص الذين يكونوا بالقرب منه، ولهذا فرض الدين على علاقاتهما المشتركة أن تبنى على حسن الجوار حتى يسد باب هذه المساوئ وبذلك من أن يكون الجار جحيماً لجاره يكون سبباً في سعائه ومساعدته .

هذه هي المبادئ التي ركز عليها الإسلام في أحقية الجار بالمعروف بل وجعلها موجبة للعزة والفخر، ولو أن جاراً ظلم جاره فإن هذا يكون عاراً على الجار الآخر لأنه لم يحم بواجبه تجاه جاره، والإسلام عندما جاء قوى هذا الشعور تجاه الجار وأن الوحي المحمدي جعل هناك جاراً آخر غير الجار المعروف لدينا أي الذي يسكن بجوارنا بل زاد على هذا رفيق السفر ورفيق الدراسة ورفيق العمل والشريك في أي عمل آخر كل هذا يعد بمثابة جار له حق تجاه رفيقه وأن المستحق الأول في كل هذه الأنواع هو الجار القريب في الصلة والدين وقد صرح القرآن الكريم بهذا :

"والجار ذي القربى و الجار الجنب و الصاحب بالجنب " (النساء آية ٣٦) .

^١ صحيح البخاري كتاب الأدب باب ليس الواصل بالمكائي. حدثنا محمد بن كثير: أخبرنا سفيان، عن الأعمش والحسن بن عمرو ولفظ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (ليس الواصل بالمكائي، ولكن الواصل الذي إذا قطعت رحمه وصلها).

وقد اختلف المفسرون في معنى القريب والغريب ويقولون أن معنى القريب هو ما لنا به علاقة قري، والغريب يعني الأجنبي الذي لا تربطنا به علاقة أسرية، والرأي الآخر هو أن معنى القريب هو الارتباط بالدين والمقصود بالبعيد هو من لا علاقة لنا به في الدين مثل اليهودي والمسيحي والمشرِك وغيره (١) .

إلا أن هذا الاختلاف في الحقيقة لا معنى له، فالهدف من التعليم المحمدي هو أفضلية الجار الذي تربطنا به روابط مودة ومحبة أخرى بالإضافة إلى كونه جاراً سواء كان هذا عن طريق القرابة أو الصداقة أو الدين أو أي نوع من الروابط الأخرى، وبالخلاصة أن هناك علاقات أخرى ترجح هذه العلاقة إلى جانب أحقيتها في كونه جاراً .

وتفسير هذا الحكم الإلهي وضحه الرسول صلى الله عليه وسلم بطرق مختلفة وأول هذه الطرق هو أن الرسول صلى الله عليه وسلم جعله نتيجة للإيمان الصحيح وذات يوم كان الرسول صلى الله عليه وسلم جالساً مع جمع من الصحابة فقال بأسلوب مؤثر "والله لا يؤمن أحدكم، والله لا يؤمن أحدكم، فقال المجاهدون: من هو يا رسول الله؟ فقال الرسول صلى الله عليه وسلم من لا يأمن جاره بوائقه" (٢) .

وقد جاء في موضع آخر قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم جاره" (٣)، وفي حديث آخر قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذي جاره" (٤) .

وفي موضع آخر جعله الرسول صلى الله عليه وسلم وسيلة للتقرب إلى الله، فقال صلى الله عليه وسلم "خيركم عند الله خيركم لأهله ولجاره" (٥) .

^١ ابن جرير الطبري تفسير الآية المذكورة .

^٢ صحيح البخاري كتاب الأدب الإثم من لا يأمن جاره بوائقه. حدثنا عاصم بن علي: حدثنا ابن أبي ذئب، عن سعيد، عن أبي شريح: أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (والله لا يؤمن، والله لا يؤمن، والله لا يؤمن). قيل: ومن يا رسول الله؟ قال: (الذي لا يأمن جاره بوائقه).

^٣ صحيح البخاري كتاب الأدب .

^٤ المرجع السابق. حدثنا قتية بن سعيد: حدثنا أبو الأحوص، عن أبي حصين، عن أبي صالح، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذي جاره، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت).

^٥ الترمذي باب البر والصلة ، باب ما جاء في حق الجار .

ومن أجل أن يعلم السيدة (عائشة) لم المؤمنين رضي الله عنها قال لها الرسول صلى الله عليه وسلم: "ما زال جبريل عليه السلام يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه" (١) ، بالحقبة أن هذا يعد إشارة إلى أن الصلة بين الجار وجاره تصل إلى درجة القرابة .

إن أفضل وسيلة إلى الحب وتقوية العلاقة بين الجيران هي تبادل الهدايا وكان الرسول صلى الله عليه وسلم يؤكد على زواجه في هذا الأمر، وبناء على هذا سألت السيدة (عائشة) رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات مرة: يا رسول الله لي جار إن أرسل بالهدايا إلى من منهما، فقال لها الرسول صلى الله عليه وسلم أرسلها إلى من بابيه أقرب إلى باب بيتك" (٢) .

وليس من الضروري أن تكون الهدايا مغال فيها بل إن بعض أشياء من الطعام والشراب تكفي وإن لم يكن فعلى الأقل حساء من اللحم حتى وإن أضفنا إلى الحساء ماء وقد نصح أحد الصحابة سيدنا (أبا ذر الغفاري) رضي الله عنه: يا أبا ذر عندما تصنع حساءاً فأضف إليه الماء وتذكر جارك" (٣) .

إن عادة تبادل الهدايا تهتم بها النساء كثيراً ولهذا خاطب الرسول صلى الله عليه وسلم النساء في هذا الشأن فقال صلى الله عليه وسلم: يا زوجات المسلمين لا تحقر جارة هدية جارتها حتى ولو كانت الهدية ظلف ماعز" (٤) .

والنصيحة هنا لكلا الزوجتين بمعنى أن لا تقلل أي زوجة من هديتها كما أنه لا يجب على الزوجة الأخرى أن تحقر هدية جارتها. وليس من المروءة أن يستريح جار ولا يفكر في أن يساعد جاره وهو في محنة فقد أمرنا الرسول صلى الله عليه وسلم بقوله: "لا يكون الإنسان مؤمناً عندما يكون هو شبعان وجاره جوعان" (٥) .

^١ صحيح البخاري كتاب الأدب. حدثنا محمد بن منهل: حدثنا يزيد بن زريع: حدثنا عمر بن محمد، عن أبيه، عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (ما زال جبريل يوصيني بالجار، حتى ظننت أنه سيورثه)

^٢ صحيح البخاري كتاب الأدب باب حق الجوار في قرب الأبواب. حدثنا حجاج بن منهل: حدثنا شعبة قال: أخبرني أبو عمران قال: سمعت طلحة، عن عائشة قالت: قلت: يا رسول الله، إن لي جارين، لأولى أيهما أهدي؟ قال: (إلى أقربهما منك باباً) .

^٣ صحيح مسلم كتاب البر والصلة باب ما جاء في الجوار .

^٤ صحيح البخاري كتاب الأدب باب لا تحقرن جارة لجارتها. عن أبي هريرة قال: كان النبي صلى الله عليه وسلم يقول: (ريد نساء السلمات، لا تحقرن جارة لجارتها ولو فرسن شاة)

^٥ المشكاة لليهقي و أدب الفرد للإمام البخاري باب لا يشيع دون

السئية سيئة والذنب ذنب أينما يقع ولكن عندما يستوجب عمل الخير ولا يفعله

الإنسان فهنا يكون الذنب أعظم، فالإنسان الميئ قد يسرق ولكن عندما يسرق جاره يكون

ذنبه أعظم، عمل السوء يمكن أن يكون في أي مكان ولكن عندما يحدث في منزل الجار

الذي هو على اتصال به ليل نهار خاصة وأن الإنسان الشريف يخرج من بيته معتمداً

على جاره، فالخيانة الأخلاقية شيء يبعث على الخجل ولهذا جاء الحكم في التوراة :

"لا تشهد على جارك بالزور ولا تطمع في جارك ولا تطمع في زوجة وخدم وجواري

وثور وحمار جارك ولا في أي شيء من أشياء جارك" (الخروج ٢٠-١٧) .

" لا تخدع جارك و أن لا تغتصب شيء منه" (الأخبار ١٩-١٣) .

والإسلام على لسان نبيه الكريم لم يكتف بما جاء في التوراة بل أنه ضاعف

ذنب هذه الأعمال ففي إجابة عن أحد الأسئلة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "الزنا

حرام وحرمة الله ورسوله ولكن أسوأ السيئات في أن تعمل الفاحشة مع زوجة

جارك، والسرقة حرام وحرمة الله ورسوله ولكن أسوأ الحرام أن تسرق جارك " (١) .

وكان هناك صاحبتان إحداهما كانت تقوم الليل للعبادة وتصوم ثلاثة أيام

وتتصدق كثيراً إلا أن لسانها كان سيئاً تؤذي به جيرانها فعرض الناس حالها على

الرسول صلى الله عليه وسلم فقال عنها الرسول صلى الله عليه وسلم ليس فيها خير

وسيكون جزاؤها النار، ثم حكى الصحابة رضوان الله عليهم حال زوجة أخرى تؤذي

الفروض فقط وتتصدق قليلاً إلا أنها لا تؤذي أحداً فقال الرسول صلى الله عليه وسلم

عنها أنها ستدخل الجنة " (٢) .

وكما قال السيد المسيح عليه السلام "أحب جارك مثلما تحب نفسك" (مرقس ١٢-٣٠) .

والرسول صلى الله عليه وسلم لم يكتف في تعاليمه بأن يحب الإنسان جاره

مثلما يحب نفسه بل إن من لم يفعل هذا فقد نزع إيمانه حيث يقول الرسول صلى الله

عليه وسلم "لا يؤمن أحدكم حتى يحب لجاره ما يحب لنفسه" (٣) .

^١ أدب المفرد للإمام البخاري باب حق الجار .

^٢ أدب المفرد للإمام البخاري باب لا يؤذي جاره .

^٣ صحيح مسلم. وحديث زهير بن حرب، حدثنا يحيى بن سعيد عن حسين المعلم، عن قتادة، عن أنس [بن مالك]، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: والذي نفسي بيده لا يؤمن عبد حتى يحب لجاره -أو قال لأخيه- ما يحب لنفسه .

والأكثر والأجدر من هذا ليس حب النفس بل إن محبة الجار هي بمستوى حب الله ورسوله، حيث يقول الرسول: "من يحب الله ورسوله فيجب عليه أن يؤدي حق جاره"^(١).

ولهذا قال الرسول إن أول مدعي ومدعى عليه يوم للقيامة هو الجار، وأن المعيار الخلفي للإنسان يكون بمدى قربه من جاره، وذات يوم سأل صحابي الرسول صلى الله عليه وسلم يا رسول الله كيف نعرف بأن ما نفعله جيداً أو سيئاً، فقال الرسول صلى الله عليه وسلم عندما تكون علاقتك بجارك طيبة فهذا يعني أنك تفعل الخير، وعندما يقال عن علاقتك بجارك سيئة فاعلم أنك تفعل السيء "^(٢) .

فلو أساء جار فيمكن أن نترك هذا المنزل ونبحث عن جار آخر ولكن لا يجب أن نقابل السيئة بالسيئة معه وهذا للعمل سيجعله خجولاً من فعلته، وهكذا جاء أحد الصحابة إلى الرسول صلى الله عليه وسلم يشكو له جاره بأنه أزعجه فقال له الرسول صلى الله عليه وسلم اصبر، وبعد فترة جاء الصحابي واشتكى مضايقة جاره له مرة أخرى فنصحه الرسول صلى الله عليه وسلم بنفس النصيحة السابقة بأن يلتزم الصبر، وجاء مرة ثالثة واشتكى فقال له الرسول صلى الله عليه وسلم اذهب وانتقل إلى مكان آخر، وفعل الصحابي بما نصحه الرسول صلى الله عليه وسلم به فسأل المارة عن السبب فوضح لهم الصحابي الحقيقة فتم للناس هذا الجار فدخل الرجل من فعلته وحاول أن ينتهي الصحابي عن قراره ويبقى جاراً كما كان ووعد بأن لا يضايقه مرة أخرى "^(٣)

كان أثر هذه التعليمات بأن كل صحابي حاول أن يحسن معاملة جاره، وذات مرة رأى سيدنا (عمر) رضي الله عنه سيدنا (جابر) يعلق قطعة لحم فسأله سيدنا (عمر) رضي الله عنه ما هذا؟ فقال: يا أمير المؤمنين أردت أن أكل لحماً فاشتريت لحماً بدرهم، فقال له أمير المؤمنين: يا جابر هل نسيت جارك وأحبائك وأصبحت تفكر في معدتك فقط ألم تقرأ هذه الآية^(٤) "يوم يعرض الذين كفروا على النار أذهبتم طيباتكم في حياتكم الدنيا واستمتعتم

^١ المشكاة للبيهقي .

^٢ أحمد بن حنبل مسند حبة بن عامر .

^٣ أدب المفرد للبخاري باب شكايه الجار ، و أبو داود كتاب الأدب باب حق الجار .

^٤ الموطأ للإمام مالك باب ما جاء في أكل اللحم. حدثني عن مالك، عن يحيى بن سعيد، أن عمر بن الخطاب أدرك جابر بن عبد الله ومعه حال اللحم. فقال: ما هذا؟ فقال: يا أمير المؤمنين قرمنا إلى اللحم. فاشتريت بدرهم لحماً. فقال عمر: أما يريد

بها" (الأحقاف آية ٢٠). فلتتمتعن إن قطعة اللحم التي ليس فيها جزء للجار والأعزاء تعتبر لذة مكروهة يمكن أن يؤاخذ عليها الإنسان .

لا يوجد تمييز في علاقة الجار بين الصديق والعدو والمسلم وغير المسلم، وذات مرة نبخ سيدنا (عبد الله بن عمر) رضي الله عنهما وكان أحد جيرانه من اليهود فسأل سيدنا (عبد الله) رضي الله عنه أهل بيته: هل أرسلتم شيئا لجارتنا اليهودي لأنني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "ما زال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه" (١) .

حق اليتامى

اليتيم هو الطفل الذي حرم من أبيه، ومن هنا يجب على كل فرد في المجتمع أن يحتضنه ويرعاه ويساعده ويحافظ على أمواله وأن يقوم على تعليمه وتربيته، وإذا كان اليتيم طفلة فيجب علينا المحافظة عليها ورعاية حقوقها إلى أن يتم زواجها. هذه هي التعليمات التي جاء بها يتيم مكة (محمد) صلى الله عليه وسلم لقد كان القتل والسلب في الجزيرة العربية يخلف كثيرا من الأيتام ولكن لم يكن يعمل أحد على رعايتهم وحفظ حقوقهم لأن الأطفال لم يكونوا يورثوا (٢)، هذا إلى جانب أن وحشية العرب لم تكن ترحمه وهو ما ركز عليه القرآن أكثر من مرة :

"أرأيت الذي يكذب بالدين ، فذلك الذي يدع اليتيم" (الماعون آية ١ ، ٢) .

وفي آية أخرى صور القرآن من يأكلون أموال اليتامى ظلما :

" كلا بل لا تكرمون اليتيم ولا تحاضون على طعام المسكين وتأكلون التراث أكلا لما وتحبون المال حبا جما " (الفجر الآيات ١٧ ، ١٨ ، ١٩ ، ٢٠) .

ويوجد ذكر محدود لرعاية هذه الفئة في الأديان الأخرى قبل الإسلام فقد عندهم التوراة ضمن من يستحقون الزكاة والصدقات، وهناك موضعان في التوراة حول اليتيم، أحدهما "أن اليتامى الذين يكونون داخل المدينة فليأتوا ويأكلوا ويشبعوا" (الاستثناء ٢٩، ١٤، ٢٦، ١٢) .

أحذكم أن يطوي بطنه عن جاره أو ابن عمه؟ أين تذهب عنكم هذه الآية "أذهبتم حياتكم في حياتكم الدنيا واستمتعتم بها" .

١ أبو داود كتاب الأدب باب حق الجوار. حدثنا مسدد، ثنا حماد، عن يحيى بن سعيد، عن أبي بكر بن محمد، عن عمرة، عن عائشة رضي الله عنها عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ما زال جبريل يوصيني بالجار حتى قلت ليورثه .

٢ تفسير ابن جرير الطبري سورة النساء الجزء الرابع ص ١٧٠ .

ولا يوجد نكر في الإنجيل حول مراعاتهم أو تعليمهم فالعناية بهؤلاء عندما جاء
يتيم مكة بهذا الدين الكامل حيث جاء الوحي الإلهي مخاطبا للرسول نفسه ومذكرا إياه
بقوله :

" ألم يجدك يتيما فأوى ووجدك ضالاً فهدى ووجدك عائلاً فأغنى فأما اليتيم فلا
تقهر" (الضحى الآيات ٦, ٧, ٨, ٩) .

عندما كان الرسول صلى الله عليه وسلم موجودا في مكة وبدون مناصر له، ظل
يرشد الناس إلى حسن التعامل مع اليتامى ويدعو رؤساء قريش ذوي القلوب القاسية أن
يرحموا ويعطفوا على هذه الفئة بوهكذا فإن الآيات المكية طالبت الأثرياء بمساعدة الفقراء
وأن هذه الأعمال هي أصل النجاح في الحياة الدنيا، ويمكن للإنسان أن يعبر هذه الحياة
إذا تخلص من الظلم وقام بإطعام للفقراء ومساعدة اليتامى. "أو إطعام في يوم ذي مسغبة
يتيما ذا مقربة" (البلد آية ١٥) .

وقد مدح القرآن الصّدقات والمتصدقين بقوله :

" ويطعمون الطعام على حبه مسكينا ويتيما " (الإنسان آية ٨) .

وعندما جاء الرسول صلى الله عليه وسلم إلى المدينة اتخذت التعليمات
الأخلاقية شكل القانون فجاء فيما يتعلق بهؤلاء في سورة للنساء وذلك عن طريق
إعطائهم حق الميراث كما خاطب من يهضم حق اليتيم بقوله :

"وآتوا اليتامى أموالهم ولا تتبذروا للخبث بالطيب ولا تأكلوا أموالهم إلى أموالكم إنه كان
حوبا كبيرا " (النساء آية ٢) .

كان للناس يحاولون الاستيلاء على أموال اليتامى بطريق الزواج وبعد ذلك
يؤذونهم فجاء الحكم القرآني: "وإن خفتن ألا تقسطوا في اليتامى فانكحوا ما طاب لكم من
النساء" (النساء آية ٣) .

لا يجب تبديد مال اليتيم والإسراف فيه وطالما أنه لم يبلغ سن الرشد لا يعود
إليه ماله ليس هذا فحسب بل إنه يجب على الولي أن يرعاه بعد أن يصل إلى سن الرشد
وهو ما أكدته القرآن الكريم:

"ولا تؤتوا السفهاء أموالكم التي جعل الله لكم قياما ولرزقوهم فيها واكسوهم وقولوا لهم
قولا معروفا، وابتلوا اليتامى حتى إذا بلغوا النكاح فإن آنستم منهم رشدا فادفعوا إليهم
أموالهم" (النساء الآيتان ٥, ٦) .

وهناك نكتة بلاغية في الآيات للكرامة حيث أسند القرآن المال إلى من يتولى أمر اليتيم بقوله "أموالكم" وفي آخر الآية قال القرآن "إذا بلغ اليتامى سن الرشد فادفعوا إليهم أموالهم" وهنا أسند لفظ المال إلى اليتامى بهذا يعني أنه طالما أن المال لدى من يتولى أمر اليتيم فهو في حكم ماله يجب عليه أن يرعاه ويحفظه وعندما يصل اليتيم إلى سن الرشد يعود إليه كل ماله. وقد كان بعض من يتولى أمر اليتيم ينفقون ويبدون أمواله حتى يصل إلى سن الرشد ولا يجد شيئاً من ماله وهنا حذر القرآن هؤلاء بقوله: "ولا تأكلوها إسرافاً وبداراً أن يكبروا" (النساء آية ٦) .

وإن كان من يتولى أمر اليتامى ليس من الأثرياء فعليه أن يأكل وينفق منها بالمعروف، وإن كان غنياً فلا يأخذ منه شيئاً لأن هذا منافي للأخلاق، وهذا ما أشار إليه القرآن الكريم :

" من كان غنياً فليستعفف و من كان فقيراً فليأكل بالمعروف " (النساء آية ٦) .
وفي النهاية يرشدنا القرآن بقوله :

" وأن تقوموا لليتامى بالقسط " (النساء آية ١٢٧) .

وفي سورة الأنعام نرى أن الدين لليهودي قد تجاهل بغض الذنوب الروحية في تحليل وتحريم الحيوانات إلا أنه اهتم بالتعليمات الأخلاقية والروحية الأساسية والتي منها :
" ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن حتى يبلغ أشده " (الأنعام ١٥٢) .
وهناك ثمانية مبادئ أخلاقية في سورة الإسراء في قوله:

" ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن حتى يبلغ أشده وأوفوا بالعهد إن العهد كان مسئولاً " (الإسراء آية ٣٤) .

كل هذه التعاليم تتعلق باليتامى الأثرياء، أما في حالة اليتيم الفقير، فقد جعل الله تربيته ورعايته فرضاً على كل مسلم .

وهكذا في العديد من الآيات كسورة البقرة والأنفال والحشر جاءت لتؤكد على رعاية اليتامى والمساكين وجعلهم أحد مصارف الخيرات والصدقات المهمة. كما جعل الرسول صلى الله عليه وسلم مكانة من يهتم باليتيم ويرعاه مساوية لمكانته صلى الله

عليه وسلم في الجنة، كما جاء في الحديث "أنا و راعي اليتيم كهاتين في الجنة وأشار بإصبعيه الشريقتين" (١) .

وجاء في حديث آخر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "إن من يأخذ يتيما إلى بيته ويرعاه فإن الله سيهبه الجنة شريطة أن لا يكون قد فعل ذنبا لا يغفر" (٢)

وفي مرة أخرى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "إن أفضل بيوت المسلمين هو البيت الذي يعول يتيما وأسوأ بيوت المسلمين هو البيت الذي يساء فيه لليتيم" (٣) .

لقد غيرت تعليمات الرسول صلى الله عليه وسلم وعادات للعرب السيئة وأصبح العرب ذوو القلوب القاسية رحماء بينهم لدرجة أن بيوت الصحابة كلها صارت مأوى لليتامى وتسابق الناس في العطف والشفقة على اليتيم (٤). فقد احتضنت فلذة كبد الرسول السيدة (فاطمة الزهراء) يتامى غزوة بدر (٥)، وهكذا السيدة (عائشة) رضي الله عنها أخذت بنات يتامى أسرتهن (٦) ويتامى الأنصار (٧) وغيرهم في بيته لترعاهم، كما أن سيدنا (عبد الله بن عمر) رضي الله عنهما كان لا يأكل للطعام إلا إذا أكل معه أحد اليتامى (٨).

لم يكتف الصحابة بفعل هذا بل إنهم أنفقوا على اليتامى وحفظوا أموالهم بكل أمانة. وذات مرة اشتكى أحد اليتامى شخصا ما أمام الرسول صلى الله عليه وسلم فيما يتعلق ببستان نخيل إلا أن دعواه لم تثبت وأعطى الرسول صلى الله عليه وسلم ببستان النخيل للمدعى عليه فبكى اليتيم فرق قلب الرسول صلى الله عليه وسلم وقال للمدعى عليه أعطه ببستان النخيل فسيعوضك الله عنه بالجنة فلم يوافق الرجل، وكان الصحابي أبو الدحداح يحضر هذه المحاكمة فقال لهذا الرجل هل تأخذ بدلا من هذا البستان ببستانا

١ صحيح البخاري باب فضل من يعول يتيما، وصحيح مسلم باب فضل الإحسان إلى اليتيم. حدثنا عبد الله بن عبد الوهاب قال: حدثني عبد العزيز بن أبي حازم قال: حدثني أبي قال: سمعت سهل بن سعد عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (أنا وكافل اليتيم في الجنة هكذا). وقال بإصبعيه السابعة والوسطى.

٢ الترغيب والترهيب للمنذري المجلد الثاني ص ١٣٣، ١٣٢ نقلًا عن الترمذي حديث حسن صحيح.

٣ الترغيب والترهيب للمنذري المجلد الثاني ص ١٣٢، ١٣٣ نقلًا عن ابن ماجه وأدب المفرد باب من يعول يتيما .

٤ صحيح البخاري باب عمرة القضاء .

٥ أبو داود باب مواضع القسم الخمس .

٦ الموطأ للإمام مالك كتاب زكاة أموال اليتامى و زكاة الحلي و كتاب .

٧ مسند أحمد المجلد السادس ص ٢٦٩ .

٨ تذكرة الحفاظ ذهبي ذكره مسروق بن أجدع التابعي و المسند المجلد السادس ص ٣٢ .

آخر من بسائتي فقبل الرجل عرض الصحابي وذهب هذا البستان الممتاز عليه لليتيم
(١) .

في إيماننا هذه نجد دور الأيتام في كل مدن العالم وهنا يتبادر إلى ذهننا سؤال
هل كان للعرب قبل رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يعرفون هذا النوع من المعروف
فالتاريخ يجيبنا بنعم، فالإسلام هو الدين الأول الذي اهتم باليتامى وأمس أول دور للأيتام
في أرض العرب كما أن الحكومة الإسلامية هي أول حكومة نشعر بمسئوليتها تجاه
هؤلاء فحينما كانت حكومة إسلامية سواء في مصر أو الشام أو العراق أو الهند وغيرها
من البلاد التي تأسست فيها حكومة إسلامية أقامت لهذه الفئة بيوتاً ترعاهم وتقوم على
راحتهم، هذا على جانب المنح وأراضي الوقف التي كانت توقف لخدمتهم والإنفاق عليهم
(٢) .

وأقيمت مؤسسة جديدة في العالم، وأقيمت القوانين لرعاية وحفظ أموال هؤلاء
حتى يكبروا ويتزوجوا (٣)، وهذا هو الدستور الذي تتبعه أوربا اليوم وقد نقلت محاكم
لندن أحكام القضاة المسلمين في هذا الشأن (٤) .

حسن معاملة الأرملة

إن أضعف مخلوقات المجتمع الإنساني بعد اليتيم هم الأرامل اللاتي حرمن من
أزواجهن فأصبحوا لا مؤنس ولا ونيس لهم، فلا أحد يرعاهم ولا أحد يفكر فيهن، فالمرأة
ليس لها خبرة بمشاكل الدنيا ولهذا جعل مسئوليتها في يد الرجل (زوجها) وعندما تفقد
المرأة زوجها تتعرض لكثير من المشاكل ليس على المستوى الروحي بل على المستوى
الجسدي ويتحلق الناس حولها كالنصور يتربصون بها وأكبر دليل على هذا الحوادث التي
تملأ صفحات الجرائد كل يوم في العالم .

وفي الديانة اليهودية تعود مسئولية الأرملة إلى أخيها يعاملها كيفما يشاء، ولا
دخل لرغبات الأرملة في إقامة علاقة أسرية أخرى، أما في الديانة المسيحية فهذا قانون
إجباري ولكن لا تجد فيه أي جانب إيجابي آخر، والعقيدة الهندوكية لا ترى ضرورة في

^١ أدب المفرد للإمام البخاري باب فضل من يعول يتيم .

^٢ الاستيعاب لابن عبد البر تذكر أبو الدحداح .

^٣ هناك واقعات كثيرة تدل على هذا في التاريخ الإسلامي .

^٤ جاء في الحديث أن الرسول - صلى الله عليه وسلم - قال: "السلطان ولي من لا ولي له" كتاب النكاح كما جاء في كتب
الفقه أن من واجب القضاة عند تعيينهم أقم ولي من لا ولي له .

بقائها على قيد الحياة ولهذا يجب على المرأة أن تحرق نفسها مع زوجها، ولو فرضنا أنها بقيت على قيد الحياة فهذا يجب عليها أن تحرم نفسها من جميع ملذات الحياة وتعزل نفسها عن الدنيا، أما في القبائل العربية فكانت العادة أن تعود ملكية الزوجة الأرملة إلى الورثة يفعلون فيها ما يشاءون يعذبونها ويأخذون حقوقها ولا يسمحون لها بأن تتزوج برضاها، ولكن عندما جاء الإسلام أنصف هذه الفئة للمظلومة فأول ما قام به الإسلام هو أنه حدد فترة الحداد لكي تستطيع المرأة فيها أن تتسّى أحزنها وفي هذه الفترة يمكن أن تعرف إذا كان هناك حمل من زوجها أم لا، وهي ما تطلق عليها فترة العدة ومدتها أربعة أشهر، وبعد ما يسمح للمرأة بممارسة حياتها الطبيعية بعد قضاء العدة. وإذا كانت لم تأخذ مهرها فيجب على الورثة إعطائها هذا الحق من تركة الزوج، هذا إلى جانب أنه إذا كان لزوجها ولد فلها الثمن وإذا لم يكن له ولد فلها الربع مما ترك زوجها. ويكون لها الحرية في الزواج مرة أخرى ممن ترغب ولا يحق لأي شخص أن يكون وصيا عليها من أقارب أو إخوة الزوج .

أما المساعدة الأخرى التي قدمها الإسلام لهذه الفئة المظلومة فهي أنه أعادها إلى المجتمع الأسري مرة أخرى وأعطاهم الحق في الزواج وطلب القرآن صراحة من المسلمين أن يتزوجوا من الأرمال في قوله: "وانكحوا الأيامى منكم" (النور آية ٣٢) .

وقبل أن ينزل هذا الحكم كان الرسول صلى الله عليه وسلم قد عمل بهذا الأمر في مساعدة هذه الفئة في حين أنه كان في ريعان شبابه يتوق إلى شابة مثله إلا أنه وهو في عمر الخامسة والعشرين تزوج بأرملة وهي في الأربعين من عمرها، وظل معها لمدة خمس وعشرين عاما ولم يتزوج بأي امرأة أخرى إلا أنه تزوج بعد وفاتها بعشرة نسله أخريات هن السيدة (سودة) رضي الله عنها والسيدة (حفصة) رضي الله عنها والسيدة (زينب) رضي الله عنها والسيدة (أم المصائب) رضي الله عنها والسيدة (حويصة) رضي الله عنها والسيدة (أم حبيبة) رضي الله عنها والسيدة (ميمونة) رضي الله عنها والسيدة (صفية) رضي الله عنها وكلهن كن أرمال وقد تكفل صلى الله عليه وسلم برعايتهن واستن طريقا حسنا طبقه بنفسه، وقد جاء في

الحديث الشريف قوله صلى الله عليه وسلم "الساعي على الأرملة والمسكين كالساعي في سبيل الله، واحسبه قال كالفاتم لا يفتر وكالصائم لا يفطر" (١).

وهذه رواية صحيح البخاري: "الساعي على الأرملة والمسكين كالمجاهد في سبيل الله، وكذلك يصوم النهار ويقوم الليل" (كتاب الألب).

أما الأرملة التي يختصن أطفالاً من أزواجهن فيفضلن البقاء بدون زواج آخر - بغرض تربية أبنائهم، وقد جعل الرسول صلى الله عليه وسلم مرتبة هذه المرأة المجاهدة مع مرتبته يوم القيامة وأشار بإصبعيه هكذا (٢)، والمرأة التي توفي عنها زوجها وهي تملك الجمال والمال وتتفرغ لخدمة أطفالها ولا تنفصل عنهم حتى يكبروا أو يموتوا .

وقد جاء في مسند أبي يعلى أن النبي صلى الله عليه وسلم قال "سأكون أول من يفتح أبواب الجنة يوم القيامة فتكون هناك امرأة تريد الدخول قبلي فسألت من هي هذه المرأة فيقال إنها المرأة التي عالت يتيماً بعد وفاة زوجها (٣) .

حقوق المحتاجين

كل إنسان أياً كان صاحب ثروة وغنياً يأتي عليه وقت يضطر فيه إلى مساعدة لحد ويحتاج فيه إلى مساعدة الآخرين، ولهذا فمن الفرض على كل فرد في الجماعة الإنسانية أن يساعد إخوته في أزمتهم بكل طريقة ممكنة، وأن لا يفتر بحالته المادية الميسرة في وقتها وأن لا يتجاهل حاجات المحتاجين، وأن لا يعتقد أنه لن يحتاج إلى أحد لبدأ وقد جاءت آيات في القرآن الكريم بفارق طفيف بين كل منهما تقول الأولى : " في أموالهم حق للسائل والمحروم " (للذاريات : ١٩) .
وتقول الثانية : " في أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم " (المعارج : ٤٥) .

١ صحيح البخاري و صحيح مسلم والموطأ للإمام مالك نقلاً عن المشكاة باب الشفقة والرحمة على الخلق. حدثنا عبد الله بن مسلمة: حدثنا مالك، عن نور بن زيد، عن أبي الفيث، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله: (الساعي على الأرملة والمسكين كالمجاهد في سبيل الله). وأحسبه قال - يشك القيني - : (كالقاتل لا يفتر، وكالصائم لا يفطر).

٢ سنن داود كتاب الأدب باب فضل من عال يتيماً. حدثنا سعد بن زيد بن زريع، ثنا النحاس بن قهم قال: حدثني خالد بن عمرو عن عوف بن مالك الأشجعي قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أنا وامرأة سقاء الخدين كهاتين يوم القيامة ونوماً يزيد بالوسطى والسبابة امرأة آتت من زوجها ذات منصب وجمال حبت نفسها على يتاماها حتى خيرا موتوا.

٣ سنن داود حاشية أبي الحسنات محمد بن عبد الله بن نور الدين البتجاني طبعة أصح المطابع لكهنر .

والسائل تطلق على من يطلب شيئاً ولكنها اشتهرت بإطلاقها على من يطلب الصدقات، والمتسول، وهو أمر غير صحيح، إذ أنها تعني كل من يحتاج شيئاً كما تعني ذلك الذي يطلب منك العون المادي، وقد اختلف المفسرون في معنى (محروم) فيقول بعضهم: المحروم هو الذي لا نصيب له في أموال الغنائم، والبعض الآخر ركز على المعنى الظاهر، أي الذي لا مال لديه، والبعض يقول: إنه المتعفف، لكن الصحيح هو أنه ذلك المصاب الذي حلت بمحصوله أو بحقه كارثة طبيعية، وصار محتاجاً لمساعدة الآخرين، والقرآن الكريم يؤيد هذا المعنى، كما يؤيده بعض المفسرين وأهل اللغة (١).

أما الجانب الآخر فهو أن المراد من الحق هو الزكاة، أو الصدقة بصفة عامة، وقد ذكر المفسرون المعنيين في الآيتين، إلا أن الصحيح هو أن (الحق) الذي ورد بيانه في سورة الذاريات مقصود به مطلق الصدقة والمساعدة المالية، أما سورة المعارج والتي لم يرد فيها مطلق (الحق) فقط، وإنما ورد (الحق المعلوم) فإن المراد منه هو الزكاة، لأن مفهوم (الحق المعلوم) لا ينطبق على الصدقة بشكل عام، وإنما ينطبق على الزكاة، وتكون النتيجة هي أن مساعدة المحتاجين الذين حلت بهم أزمات ومصائب مالية حق من حقوق المساعدة الواجبة على المسلمين، وقد جاء في القرآن الكريم في موقع آخر: "وأما السائل فلا تنهر" (الضحى: ١٠).

ومعنى السائل هنا يفهم من قرينة (أغني) بأنه طالب للصدقة بشكل عام، لكن عموم اللفظ يتطلب الوسعة، بمعنى أن كل محتاج يطلب منك عوناً سواء كان عوناً جسمانياً أو مالياً أو علمياً (٢)، حتى أنه إذا طلب الأعرج أن يستند على كتفك فهو إذا ممن ينطبق عليهم لفظ (سائل)، وعليك أن لا ترفض طلب هؤلاء بشكل قاطع، وإنما عليك أن تلبى سؤالهم بقدر الإمكان، وإن لم تستطع فاعتذر لهم برفق، وهناك شكل آخر للمساعدة وهو أن تتوسط عند آخر لمساعدة أحد، والله تعالى يقول:

"من يشفع شفاعة حسنة يكن له نصيب منها، ومن يشفع شفاعة سيئة يكن له كفل منها، وكان الله على كل شيء مقبلاً" (النساء: ٨٥).

١ انظر لسان العرب، لفظ محروم، وانظر تفسير الآيات المذكورة من سورة الذاريات والمعارج، والمحرومين في فئة أصحاب الجنة الذين ورد ذكرهم في سورة القلم، وكذلك معنى المحرومين الذي ورد في سورة الواقعة.

٢ جاء في الطبري أن معنى الآية (وأما من سألك من ذي حاجة فلا تنهر)، وكب الزمخشري في الكشاف لآلاً: أن البعض فهم من السائل أنه طالب العلم.

ورغم أن نظم الآية ونسبها يقول أنها نزلت في المعارك، بمعنى أنه إذا طلبت قبيلة ضعيفة أن يساعدها الآخرون في مواجهة قبيلة قوية فإنه يقبل طلبها في هذا العمل الصالح، وتحقق وساطتها فيه، لكن اتساع اللفظ القرآني يجعله يتسع لكل ترسّط في عمل صالح، وجعل الأصل فيه أن الشخص الذي يشارك في العمل على تحقيق هدف صالح فهو شريك في ثواب هذا العمل بقدر اشتراكه في العمل نفسه، وينتسب الطريقة من يشارك في عمل سيء فهو شريك في ذنبه وإثمه بقدر مشاركته في العمل نفسه، وقد جاء في آية أخرى:

"وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان واتقوا الله إن الله شديد العقاب" (المائدة : ٢).

المهم أن تلبية حاجات المحتاجين ومساعدتهم بقدر ما يطلبون المساعدة بمثابة الحق لهم على كل مسلم إذا كان في استطاعته، وعلى كل مسلم أن يؤدي هذا الحق، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في شرح الآيات السابقة:

"من كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته، ومن فرج عن مسلم كربة ففرج الله عنه كربة من كربات يوم القيامة" (الصحيحين) .

وقال صلى الله عليه وسلم في رواية أخرى :

"والله في عون عبده ما كان العبد في عون أخيه" (للترمذي ، باب ما جاء في الستر على للمسلمين) .

وجاء في صحيح البخاري أنه عندما كان سائل يأتي رسول الله صلى الله عليه وسلم فإنه صلى الله عليه وسلم كان يقول للضحية اشفعوا وتوسطوا له فإن لكم في ذلك ثواب^(١)، وذات مرة قال صلى الله عليه وسلم إن لم تستطيعوا فعل شيء فساعدوا المحتاج^(٢)، وقال صلى الله عليه وسلم أن إرشاد التابعين والعميان إلى الطريق

^١ صحيح البخاري- كتاب الأدب- باب تعاون المؤمنين، وباب قول الله من يشفع شفاعاً حسنة. حدثنا محمد بن العلاء: حدثنا أبو أسامة، عن بريد، عن أبي بردة، عن أبي موسى، عن النبي صلى الله عليه وسلم: أنه كان إذا أتاه السائل أو صاحب الحاجة قال: (اشفعوا فليزجروا، وليقض الله على لسان رسوله ما شاء).

^٢ المرجع السابق- باب كل معروف صدقة. حدثنا آدم: حدثنا شعبة: حدثنا سعيد بن أبي بردة بن أبي موسى الأشعري، عن أبيه، عن جده قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم: (على كل مسلم صدقة). قالوا: فإن لم يجد؟ قال: (فيعمل يديه فينفع نفسه ويتصدق). قالوا: فإن لم يستطع أو لم يفعل؟ قال: (فيعين ذا الحاجة الملهوف). قالوا: فإن لم يفعل؟ قال: (فليأمر بالخير، أو قال: بالمعروف). قال: فإن لم يفعل؟ قال: (فليمسك عن الشر فإنه له صدقة).

صدقة^(١)، وقال أيضاً أن الذي يبعد شوكة عن الطريق فإن الله تعالى يحب عمله هذا ويغفر ذنبه^(٢) .

حقوق المريض

وهناك فئة أخرى في هذا العالم تستحق منا العطف وهي فئة المرضى وهؤلاء بصفة عامة لا يستطيعون خدمة أنفسهم وهم في حالة المرض، ومن الفرض على الإنسانية معالجة هذه الفئة التي تستحق للعطف والمواساة وخدمتهم والتخفيف عنهم، ويطلق عليه في العربية (عيادة المريض) ولول أمر من أمور العطف والشفقة التي علمها لنا الإسلام في التعامل مع هذه الفئة هو أن الله تعالى أعفاهم تماماً من الفرائض التي لا يستطيعون القيام بها في حالتهم هذه، أو ترهقهم أشد الإرهاق، وقد جعل القرآن الكريم لهذا الأمر مبدأً أساسياً في قوله تعالى :

" ولا على المريض حرج " (النور : ٦١) .

" ليس على الأعمى حرج، ولا على الأعرج حرج ولا على المريض حرج " (الفتح : ٦) .

" ليس على الضعفاء ولا على المرضى " .

يعتقد الناس عادة أن عيادة المريض تعني السؤال عنه فقط، بمعنى أن تذهب لترى المريض في حين أن الأمر ليس كذلك، فعيادة المريض تعني السؤال عنه، كما تعني أيضاً علاجه ومواساته وخدمته، إذ أن الذهاب لرؤية مريض هو أدنى أشكال عيادته، والأحسن من هذا أن تواسيه، والأفضل من ذلك أن تقوم على تريضه وخدمته، يقول أحد شعراء العرب عاش أيام الحجاج :

ذهب الرقاد فما يحس رقاد
مما شجأك و نامت للعواد .

والأصل في عيادة المريض أن يظل هناك من يبقى ساهراً على تريضه وخدمته ليل نهار لأيام وليال عديدة، ولا يغمض لهؤلاء جفن حتى في حالة اليأس من شفائه إلا أن يموت، فإذا فهمنا معنى عيادة المريض على السؤال عنه، وإذا سلمنا أن معنى عيادة المريض هي الذهاب لرؤيته فعلياً، إذا أن نفكر أنه إذا كان ثواب رؤية المريض كبير هكذا فما بالك بثواب تريضه وخدمته .

^١ الترمذي - كتاب البر والصلة .

^٢ الترمذي - كتاب البر والصلة. حدثنا قتيبة عن مالك بن أنس عن سمي عن أبي صالح عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: بينما رجل يمشي في طريق إذ وجد غصن شوك فأخذه فشكر الله له فغفر له.

فالمرضى معفون من الوضوء: "وإن كنتم مرضى" كما أنهم معفون أيضاً من صلوات التهجد الطويلة: "علم أن سيكون منكم مرضى" (المزمل: ٢٠). وهكذا هناك تخفيف في مناسك الحج بالنسبة للمرضى: "فمن كان منكم مريضاً" (البقرة: ٢٤) وسمح له بالإقطار في رمضان وإن لم يقدروا على الصلاة وقوفاً صلوا جالساً وإن لم يقدروا على الجلوس صلوا مستلقين، ويعلم من هذا أنه إذا كان الله تعالى قد أعفاهم من أداء فرائضه فكيف يكون على الناس من واجب في تخفيف مطالبهم الأخلاقية تجاههم. وقد بشر الإسلام مرضى المسلمين في تحملهم لآلام المرض والصبر عليه وشكر الله بالشىء، إن نظرية الإسلام في هذا الأمر هي أن الألم الذي يلحق المؤمن في الدنيا يكون كفارة لذنوبه فإذا مرض وتحمل آلام المرض بصبر فإنه يكون سبباً في العفو عن ذنوبه ونجاته من العذاب الشديد في الآخرة، وبذلك يطهر المؤمن^(١).

هذا وقد أكد رسول الله صلى الله عليه وسلم على عيادة المرضى، وعلمنا آدابها والدعاء الخاص بها وأخبرنا عن ثوابها فقال: "من خفف عن عبد كربة خفف الله عنه كربة"^(٢)، وقال أيضاً: "للمسلم على أخيه خمس حقوق منها أن يعود إذا مرض"^(٣). يقول الصحابة رضي الله عنهم أن الرسول صلى الله عليه وسلم أمرنا بسبعة أمور منها عيادة المريض^(٤)، فقال صلى الله عليه وسلم إذا عاد رجل مريضاً في الصباح

^١ صحيح مسلم - باب ثواب المؤمن فيما يصيه، و سنن أبي داود، أوائل كتاب الجنائز.

^٢ أبو داود - كتاب الأدب في العونة للمسلم. حدثنا أبو بكر وعثمان ابنا أبي شيبة، المعنى قالوا: ثنا أبو معاوية، قال عثمان: وجريز الرازي، وثنا واصل بن عبد الأعلى، ثنا أسباط، عن الأعمش، عن أبي صالح، وقال واصل: قال: حدثت عن أبي صالح، ثم اتفقوا: عن أبي هريرة، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: من نفس عن مسلم كربة من كرب الدنيا نفس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة، ومن يسر على مشعر يسر الله عليه في الدنيا والآخرة، ومن ستر على مسلم ستر الله عليه في الدنيا والآخرة، والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه.

^٣ صحيح البخاري - كتاب الجنائز، حدثنا محمد: حدثنا عمرو بن أبي سلمة، عن الأوزاعي قال: أخبرني ابن شهاب قال: أخبرني سعيد بن المسيب أن أبا هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (حق المسلم على المسلم خمس: رد السلام، وعيادة المريض، وإتباع الجنائز، وإجابة الدعوة، وتشميت العاطس). تابعه عبد الرزاق أخبرنا معمر. ورواه سلامة عن عقيل.

^٤ المرجع السابق. حدثنا أبو الوليد: حدثنا شعبة، عن الأشعث قال: سمعت معاوية بن سويد ابن مقرن، عن البراء رضي الله عنه قال: أمرنا النبي صلى الله عليه وسلم بسبع ولما عن سبع: أمرنا بإتباع الجنائز، وعيادة المريض، وإجابة الداعي، ونصر المظلوم، وإبرار القسم، ورد السلام، وتشميت العاطس. ولما عن آية القصة، وخاتم الذهب، والحريز، والدياج، والقسي، والاسترق.

فإن الملائكة تدعو له بالمغفرة في المساء وإذا عاد في المساء فإن الملائكة يدعون له بالمغفرة حتى الصباح^(١)، كما ورد أيضاً أنه حين يذهب أحد لعياده مريض فإنه يظل يقطف من ثمار الجنة حتى عودته من عنده^(٢)، وقال إنه إذا ذهب أحد لعيادة مريض فليضع يده على يده وجبهته ويؤمسه ويدعو الله له بالشفاء^(٣)، ويفضل رسول الله صلى الله عليه وسلم وتعاليمه كان الصحابة للكرام يهتمون لشئ الاهتمام بالعيادة لدرجة أنه صلى الله عليه وسلم عاد يهودياً^(٤)، وذهب لعيادة للمنافقين^(٥) وهو ما اتخذ العلماء دليلاً على جواز عيادة غير المسلمين^(٦) .

وحين جرح سيدنا سعد بن معاذ رضي الله عنه نصب له رسول الله صلى الله عليه وسلم خيمة في المسجد حتى يستطيع عيادته مراراً^(٧)، وكانت هناك صحابية تدعى ربيعة رضي الله عنها تقوم بمعالجة الجرحى وخدمتهم لوجه الله تعالى، وكانت خيمتها في نفس المسجد أيضاً حتى تستطيع تضميد جراح جرحى للمسلمين في المعارك^(٨)، وقد أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أتباعه بصفة عامة أن (يطعموا للجائع) ويخلصوا

^١ سنن أبي داود - كتاب الجنائز. حدثنا محمد بن كثير، أخبرنا شعبة، عن الحكم، عن عبد الله بن نافع، عن علي قال: ما من رجل يعود مريضاً مسياً إلا خرج معه سبعون ألف ملك يستغفرون له حتى يصبح، وكان له خريف في الجنة، ومن أتاه مصباحاً خرج معه سبعون ألف ملك يستغفرون له حتى يمسي، وكان له خريف في الجنة.

^٢ صحيح مسلم - باب عيادة المريض، بطرق مختلفة. حدثنا يحيى بن يحيى، التميمي، أخبرنا هشيم، عن خالد، عن أبي قلابة، عن أبي أسماء، عن ثوبان، مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (من عاد مريضاً، لم يزل في خرفة الجنة حتى يرجع).

^٣ سنن أبي داود - كتاب الجنائز. حدثنا يزيد بن خالد الرملي، ثنا ابن وهب، عن حيي بن عبد الله، عن أبي عبد الرحمن الحبلي، عن ابن عمرو قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم: إذا جاء الرجل يعود مريضاً يعود قليلاً: اللهم اشف عبدك، ينكأ لك علواً، أو يمشي لك إلى جازة: قال أبو داود: وقال ابن السرح: إلى صلاة.

^٤ صحيح البخاري - كتاب الجنائز. حدثنا سليم أن بن حرب ثنا حماد يعني ابن زيد، عن ثابت، عن أنس، أن غلاماً من اليهود كان مرض، فأتاه النبي صلى الله عليه وسلم يعوده، فقعده عند رأسه، فقال له: أسلم فنظر إلى أبيه وهو عند رأسه فقال له أبوه: أطع أبا القاسم فأسلم، فقام النبي صلى الله عليه وسلم وهو يقول: الحمد لله الذي أنقذه بي من النار.

^٥ المرجع السابق .

^٦ مجمع الجار - العلامة طاهر فني - لفظ عيادت .

^٧ سنن أبي داود - كتاب الجنائز .

^٨ جاء في سيرة ابن هشام، غزوة بني قريظة، وأدب المفرد للبخاري - كيف أصبحت، والإصابة لابن حجر وغيرهم أمر ربيعة هذه فافراه .

الأسير، ويعودوا المرضى^(١)، وبذات مرة أوضح رسول الله صلى الله عليه وسلم فضل عيادة المريض بأسلوب مؤثراً أن الله تعالى يسأل يوم القيامة: يا ابن آدم مرضت فلم تعطني؟ فيقول: يا رب، أنت خالق العالم كله، كيف أعورك؟ فيقول الله: ألم تعلم بأن عيدي مرض، ولكنك لم تعده، ولو عدته لوجدتني عنده^(٢). فإلى أي مدى يثبت هذا التعليم ويتمكن من القلوب بعيادة المرضى وخدمتهم ومواساتهم، وفي نفس الوقت يرفع من معنويات المريض بأن الله عند وسادته يتعم عليه بفضله وكرمه، ويرفع درجاته ومقامه، وما أسعد أولئك الذين يخدمون أولئك المرضى فيجدون القرب من الله .

حقوق العبيد

وفئة العبيد من بين الفئات الإنسانية الضعيفة والعاجزة، وهذه الفئة موجودة منذ بداية تاريخ العالم الذي وصل إلينا، لقد أحكمت الأمم القوية الغازية دائماً وثاق أبناء الأمم المهزومة بقيود العبودية، بمعنى أن ينصبوا هم من أنفسهم ملوكاً يحكمون و يعيشون في رغد من العيش، ويسخرون الشعوب المنهزمة في أعمال الزراعة والأشغال الشاقة المضنية، وفئة المنبوذين بين الهندوس مثال حي على ذلك، وكانت أحوال بني إسرائيل الأسارى في أيدي المصريين (القماء) بنفس الطريقة، وكان الروم يستغلون غير الروميين في الأعمال الشاقة ويستعبدونهم، وكان الحال مع العرب أيضاً هكذا، وبسبب سيادة النظام القبلي في العرب فإن الذي لم يكن ينتمي إلى قبيلة عربية قوية أو يرتبط بها كان على هذا المسكين أن يواجه الظلم والقسوة التي ينزلها به أفراد القبائل الأخرى، لأنه لا يتمتع بحماية قبيلة من القبائل، وكان هؤلاء الأفراد وأمثالهم هم أكثر الذين أوقع بهم القريشيون ظلماً عند بداية الإسلام، وجاء الإسلام لحماية الضعفاء، والذين

^١ مسند أحمد - صفحة ٤/٣٩٤. حدثنا عبد الله حدثني أبي ثنا يحيى بن سعيد عن سفيان ثنا منصور عن أبي وائل عن أبي موسى قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: لكونا العاني وأطعموا الجائع وعودوا المريض.

^٢ صحيح مسلم - باب فضل عيادة المريض. حدثني محمد بن حاتم بن ميمون، حدثنا حماد بن سلمة، عن ثابت، عن أبي رافع، عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إن الله تعالى يقول يوم القيامة: يا ابن آدم! مرضت فلم تعدني، قال: يا رب! كيف أعورك؟ وأنت رب العالمين، قال: أما علمت أن عيدي فلان! مرض فلم تعده، أما علمت أنك لو عدته لوجدتني عنده؟ يا ابن آدم! استطعمتك فلم تطعمني، قال: يا رب! كيف أطعمك؟ وأنت رب العالمين، قال: أما علمت أنه استطعمك عيدي فلان فلم تطعمه؟ أما علمت أنك لو أطعمته لوجدت ذلك عندي؟ يا ابن آدم! استسقيتك فلم تسقيني، قال: يا رب! كيف أسقيك؟ وأنت رب العالمين، قال: استسقاك عيدي فلان فلم تسقه، أما إنك لو سقيته لوجدت ذلك عندي).

لا حول لهم ولا قوة، وكانت معاهدة حزب الفضول التي شارك فيها النبي صلى الله عليه وسلم قبل البعثة النبوية، وبعد البعثة النبوية جعل تنفيذها فرضاً عليه، كانت أيضاً بغرض حماية الموالى والعبيد والحفاظ على حقوقهم، ولهذا كان عبيد قريش ومواليها وإماؤها أسرع في إتباع الإسلام من سادة قريش، وبالتالي كان زيد بن حارثة، وخباب بن الأرت، وبلال الحبشي، وبلتر البجلي، وعمار وصهيب الرومي وأبو فكيهة وعامر بن فهيرة وسالم رضي الله عنهم من العبيد ووليينة وزنيرة ونهدية، ولم عبيس ومسمية رضي الله عنهن من الإماء اللذين لجأوا إلى حضن الإسلام قبل الجميع، وقد تحملوا جميعاً بإستثناء زيد بن حارثة الذي تربى في كنف للرسول صلى الله عليه وسلم محناً وإبتلاءات صعبة في حب الإسلام، وبعضهم جاد بروحه .

لقد جعل الإسلام من تحرير العبيد ومعاملتهم معاملة حسنة جزءاً لا يتجزأ من حركته (مهامه)، وجعل تحرير العبيد عملاً مجزولاً للثواب، وجاء في سورة البلد التي نزلت في مكة المكرمة أن من بين الأعمال ذات الأجر العظيم (فك رقبة)، وهكذا وبالرغم من حياة مكة التي تحفها المخاطر فإن السيدة خديجة رضي الله عنها وسيدنا أبا بكر رضي الله عنه وغيرهما من الأثرياء اشتروا كثيراً من العبيد وأعتقوهم .

ثم تطورت هذه الحركة ولزدهرت في المدينة المنورة، وأصبح (تحرير رقبة) كفارة لكثير من الأخطاء والهفوات، وأعلن الإسلام عن أمور ترغيبية كثيرة من أجل تحرير العبيد، واستجاب الصحابة لدعوة للرسول صلى الله عليه وسلم هذه، وخلال أيام قليلة أصبح حال العبيد غير الحال، فحرر سيدنا حكيم بن حزام الذي أسلم بعد فتح مكة مائة من العبيد^(١)، وأعتقت السيدة عائشة رضي الله عنها أربعين عبداً في كفارة واحدة، وأعتق سيدنا عبد الله بن عمر ألفاً، وسيدنا عبد الرحمن بن عوف ثلاثين ألفاً^(٢)، وبعد نزول الحكم بمنع الشرك كان الحكم الثاني أن يحسن إلى عباده، وكان على رأس قائمة أولئك العباد هذه الفتنة المظلومة قال تعالى:

"واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً وبالوالدين إحساناً وبذي القربى واليتامى والمساكين والجار ذي القربى والجار الجنب والصاحب بالجنب وابن السبيل وما ملكت إيمانكم والله لا يحب من كان مختالاً فخوراً" (النساء : ٣٦) .

^١ صحيح مسلم - كتاب الإيمان .

^٢ هذان العددان ذكرهما أمير إسماعيل في شرح بلوغ المرام - كتاب العتق .

والفئة الأخيرة في الآية هي التي يطلقون عليها العبيد لكن الإسلام منع من ذلك، وقال صلى الله عليه وسلم: لا يقل أحدكم لعلامة عبده وإنما يقول (فتاى) وبخس للطريقة منع العبيد من أن يقولوا لأسيادهم (رب) وإنما يقولوا (مولى) (١)، وهكذا قضى على ألفاظ الذل هذه، وقال صلى الله عليه وسلم إن هؤلاء الذين تدعونهم عبيداً هم أخوة لكم جعلهم الله تحت إمرتكم، ومن جعل الله أحداً تحت إمرته فليطعمه مما يأكل و ليكسه مما يلبس، ولا يكلفه من العمل ما لا يطيق، وإن كلفه بعمل شاق فليعينه عليه (٢) .

وقد سار الصحابة الكرام رضي الله عنهم طبقاً لأمر الرسول صلى الله عليه وسلم هذا إلى درجة أصبح من الصعب للفرقة بين العبيد وأسيادهم (٣)، وجعل الرسول صلى الله عليه وسلم من هؤلاء الأشخاص الذين لا حول لهم أفراداً وأعضاءاً من أسر أسيادهم وليس عبيداً في بيوتهم بأن قال إن الذي سيعتق عبداً يصبح مولى له (٤)، وقد أمر سيدنا عمر رضي الله عنه في عهد خلافته قادة الجيش أن يعدوا أولئك العبيد من العجم والروم والذين تم عتقهم من بين أفراد أسر أسيادهم كل واحد من الأسر التي كان عندها، وإن أراد هؤلاء المعتوقين جعلوا لأنفسهم قبيلة مستقلة (٥)، ولقد جعلت هذه التعاليم من أولئك الناس سادة في الإسلام وملوكاً لدول وليس عبيداً، والتاريخ الإسلامي مليء بمثل هذه الأحداث، وهو ما سيأتي تفصيله في موضعه في الجزء التالي .

حقوق الضيف

رغم أن عبء الضيافة في نظام الحياة الحالي تتحمله الفنادق والمطاعم، إلا أن مكانته في الماضي كانت هامة للغاية، ولا يزال كرم الضيافة حتى الآن موجوداً كجزء

^١ صحيح البخاري - كتاب العتق .

^٢ صحيح البخاري - الجزء الثاني - كتاب الآداب - باب ما ينهى عن صحيح البخاري - كتاب العتق .

^٣ صحيح الساب .

^٤ المرجع السابق .

^٥ جاء في الحديث: إنما الولاء لمن أعتق، وفي حديث آخر: وانتمى إلى غير مواله لعلبه لعنة الله ويكتب الإمام النووي في شرح الحديث: إنما لحمة كلحمة النسيب (صحيح مسلم - كتاب العتق).

وحدثنا يحيى بن يحيى، قال: قرأت على مالك، عن نافع بن أبي عمر، عن عائشة رضي الله عنها: أنها أرادت أن تشتري جارية تعتقها: فقال أهلها: نبيعهكها على أن ولأهنا لنا، فنكرت ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: (لا يستعك ذلك، فإتاما الولاء لمن أعتق).

^{*} كتاب الأموال، أبو عبيد قاسم بن سلام - المرقى عام ٢٢٤هـ - طبعة مصر ٢٣٥ .

من الثقافة الشرقية بينما أبت للمدنية الغربية على مكانة الضيافة العادية أيضاً، وكل إنسان يكون ضيفاً على إنسان آخر في وقت من الأوقات، ولهذا ينبغي أن نقول أن مكانة الضيافة في نظام المجتمع هي بمثابة التبادل الأخلاقي، فإذا نحن اليوم أكرمنا ضيفاً واحترمناه فإننا سنلقي منه نفس المعاملة عندما نحل عليه ضيوفاً في الغد، وهذا ولم ترد تعاليم الضيافة في أخلاقيات الأديان الأخرى بشكل يجعل لها أهمية خاصة، بينما كان للضيف عند العرب حقوق عظيمة، فقد كان للمضيف يعتبر خدمة للضيف وحمايته فرضاً عليه، ولما جاء الإسلام زاد من أهمية هذا الغرض، وقد جاء ذكر ضيوف سيدنا إبراهيم عليه السلام في القرآن المجيد في الآيات التالية من سورة (الذاريات) يقول تعالى :

" هل أتاك حديث ضيف إبراهيم المكرمين، إذ دخلوا عليه فقللوا سلاماً، قال سلام قوم منكرون فراغ إلى أهله فجاء بعجل سمين، فقربه إليهم قال ألا تأكلون، فأوجس منهم خيفة قالوا لا تخف و بشروه بغلام عليم " (الذاريات : ٢٧). ويمكن أن نستنتج من هذه القصة آداب الضيافة كما يلي :

- ١- ينبغي أن تكون بداية الحديث بين الضيف والمضيف بالسلام المتبادل .
- ٢- يجب الإعداد لإطعام الضيف فوراً، لأن معنى (الروغان) هو السرعة .
- ٣- من بين معاني (الروغان) هو الذهاب خفية أو النظر خفية أيضاً، ولهذا يجب أن يكون إعداد الطعام بعيداً عن أنظار الضيف، لأن الضيف إن علم أن طعاماً يعد من أجله ربما منع من ذلك تكلفاً، ولهذا لم يقل سيدنا إبراهيم عليه السلام لأهله أن أعدوا الطعام، وإنما ذهب بنفسه خفية لإعداده .
- ٤- لا بد من العمل بشكل من الأشكال على ترك فرصة للضيف يختلي فيها بنفسه لفترة وجيزة حتى يستريح، وألا يشعر بحرج في قضاء حاجاته، ولهذا ترك سيدنا إبراهيم عليه السلام ضيوفه بغرض إعداد الطعام .
- ٥- يجب أن نقدم للضيف أحسن الطعام، ولهذا ذبح سيدنا إبراهيم عليه السلام لضيوفه عجلاً سميناً .
- ٦- يجب أن يقدم الطعام أمام الضيوف، ولا يؤمروا بتناوله، ولهذا قال سيدنا إبراهيم عليه السلام لضيوفه لماذا لا تأكلون، ولم يقل كلوا أيها الناس .
- ٧- يجب أن نفرح إذا أكل الضيف ونحزن إذا لم يأكل، لأن البخلاء وإن كانوا يقيمون الطعام إلى ضيوفهم أيضاً لكنهم يودون لو أن الضيف لا يأكل حتى يتناول هو وأهله

وأولاده هذا الطعام. ولهذا حين رفض ضيوف إبراهيم تناول الطعام لم يستحسن سيدنا إبراهيم ذلك، وخشى أن يكون هؤلاء أعداء .

٨- في حالة عدم تناول الضيوف للطعام يجب عليهم الاعتذار بأسلوب جيد، ولهذا فالت الملائكة لإبراهيم لا تخف إن لم تأكل، لأننا لا نأكل ولا نشرب، وإنما جئنا لنبشرك بولادة ابن نجيب .

كما يعلم من القصة التي وردت في سورة الحجر عن ضيوف سيدنا لوط عليه السلام من الملائكة أن المضيف يكون مسئولاً عن احترام للضيف وإكرامه، وتقديم كل وسائل الراحة له، وإذا ما أهان شخص للضيف يكون فرضاً على المضيف أن يدافع عن ضيفه، لأن إهانة للضيف إهانة للمضيف، ولهذا عندما أراد قوم لوط التعامل مع أولئك الملائكة الضيوف بسلوك مشين فإن سيدنا لوطاً قال :

" قال إن هؤلاء ضيفي فلا تقضحون، واتقوا الله ولا تخزون " (الحجر : ٦٨) .

كانت هذه كلها إشارات ضمنية في القرآن الكريم، لكن رسول الله صلى الله عليه وسلم صرح بأهمية حسن الضيافة في مكارم الأخلاق بشكل جعلها جزءاً من الإيمان الكامل، وأن الشخص الذي يؤمن بالله واليوم الآخر عليه أن يحترم جاره، والذي يؤمن بالله واليوم الآخر عليه أن يكرم ضيفه، وقيل لرسول الله ما مدى هذا الإكرام يا رسول الله، فقال: يوم وليلة، والضيافة ثلاثة أيام، وسيكون هذا صدقة له على ضيفه^(١). كما قال صلى الله عليه وسلم كذلك: من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليصل قرابته^(٢) .

^١ البخاري- كتاب الأدب- باب من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذ جاره. حدثنا عبد الله بن يوسف: حدثنا أبي- قال: حدثني سعيد المقبري، عن أبي شريح العلوي قال: سمعت أبا ذؤيب، وأبهرت عينا، حين تكلم النبي صلى الله عليه وسلم فقال: (من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم جاره، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه جائزته). قال: وما جائزته يا رسول الله؟ قال: (يوم وليلة، والضيافة ثلاثة أيام، فما كان وراء ذلك فهو صدقة عليه، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت) .

^٢ البخاري- كتاب الأدب- باب إكرام الضيف وخدمته إياه بنفسه، وقوله تعالى: ضيف إبراهيم المكرمين . حدثنا عبد الله بن محمد: حدثنا هشام: أخبرنا معمر، عن الزهري، عن أبي سلمة، عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليصل رحمه، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت) .

وجاء في حديث آخر أن النبي صلى الله عليه وسلم ذهب عند عبد الله بن عمرو رضي الله عنه وقال: علمت أنك تصلي الليل بطوله وتصوم للنهار بطوله، فقال عبد الله: نعم، فقال صلى الله عليه وسلم: لا تفعل ذلك، ولكن صل ونم، وصم وافطر، لأن لجسدك عليك حقاً^(١).

وفي حديث آخر قال صلى الله عليه وسلم: ضيافة ليلة واجبة، فإذا ما بقي الضيف أكثر من ذلك عند المضيف فإن ذلك قرض عليه، إن شاء استرده المضيف وإلا تركه^(٢). ولأن النزول في ضيافة أحد يسبب له على أية حال بعض التعب، ولأن تناول طعام الآخرين هكذا دون سبب يخالف الحمية الإنسانية والإسلامية، لهذا كان من الضروري أنه مثلما قبل للمضيف بأن يكرم ضيفه ويقدم له واجب الضيافة أن يقال للضيف أيضاً أن لا يستغل ضيافة الآخرين له أكثر من اللازم، ولهذا جاء في الأحاديث صراحة أنه لا يجب أن يبقى الضيف في ضيافة أحد أكثر من ثلاثة أيام، لأن هذا يؤدي إلى إرهاق المضيف ويصير عبئاً عليه^(٣)، وما عدا ذلك تصبح الضيافة أكثر من ثلاثة أيام صدقة، وهو ما لن يستحسنه الضيف صاحب الكرامة.

الحقوق البيئية للمسلمين

(حقوق المسلمين فيما بينهم)

كان العرب قبل مجيء النبي صلى الله عليه وسلم يتربصون ببعضهم البعض بداية من الأطفال وحتى القبيلة ككل، كل منهم عدو الآخر، ويمتد للثأر لمقتل واحد إلى أجيال عديدة، وهكذا كانت المعارك لا تتوقف بين العائلات، وكل فرد يرى نفسه محاطاً

^١ البخاري-كتاب الأدب-باب حق الضيف. حدثنا إسحق بن منصور: حدثنا روح بن عباد: حدثنا حسين، عن يحيى بن أبي كثير، عن أبي سلمة بن عبد الرحمن، عن عبد الله بن عمرو قال: دخل علي رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: (ألم أخبر أنك تقوم الليل وتصوم النهار). قلت: بلى، قال: (فلا تفعل، قم ونم، وصم وأفطر، فإن لجسدك عليك حقاً، وإن لعينك عليك حقاً، وإن لزورك عليك حقاً، وإن لزوجك عليك حقاً، وإنك عسى أن يطول بك عمر، وإن من حباك أن تصوم من كل شهر ثلاثة أيام، فإن بكل حسنة عشر أمثالها، فذلك الدهر كله).

^٢ ابن ماجه-كتاب الأدب-باب حق الضيف. حدثنا علي بن محمد، حدثنا وكيع، حدثنا سفيان، عن منصور، عن الشعبي، عن المقدم أبي كريمة، قال: قال رسول الله: ليلة الضيف واجبة، وإن أصبح بفنائته فهو دين عليه، وإن شاء اقتضى، وإن شاء تركه.

^٣ البخاري-كتاب الأدب-باب إكرام الضيف وخدمته إياه بنفسه. حدثنا عبد الله بن يوسف: أخبرنا مالك، عن سمية بنت أبي سعيد المقبري، عن أبي شريح الكعبي: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه، جائزته يوم وليلة، والضيافة ثلاثة أيام، فما بعد ذلك فهو صدقة، ولا يحل له أن يثوي عنده حتى يخرج).
167

بالمخاطر دائماً، ولهذا فهو في حالة انتباه دائم قائماً وقاعداً ونائماً خوفاً من أن يهاجمه أحد، ولما جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم جاء بصلة أخرى أقوى من صلة الدم وهي صلة الدين التي جمعت بين من تفرقوا أزماناً، وجعلت من الأعداء إخواناً، وخلقت بين القبائل والعائلات توافقاً وتzagماً يعتمد على الأخوة الإسلامية أكثر من أخوة العائلة والقبيلة نفسها وهذا للتوافق والتتاعم هو الذي قضى على العداوة التي كانت قائمة بينها وأنساهم هذه العداوة حتى أصبحوا إخوة متحابين حقيقة. يقول تعالى :

" يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون، واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا، ولذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً " (آل عمران : ١٠٣) .

وقد أنزل الله تعالى كرمه وفضله على المسلمين في شكل هذا الحب المتبادل بينهم، وقال بأنه لو أنفق أحد كل ثروة الأرض ليجمع بين هؤلاء الأعداء ما استطاع ذلك :

" وألف بين قلوبهم لو أوفقت ما في الأرض جميعاً ما ألفت بين قلوبهم، ولكن الله ألف بينهم، إنه عزيز حكيم " (الأنفال : ٦٣) .

والآن يجب على المسلمين أن يقدروا هذا الفضل من الله تعالى، وأن يتمسكوا بحبل الله تعالى الذي هو أصل لرباطهم، وأن لا يدعوا الاختلاف فيما بينهم يفرقهم، لأن قوة هذا الحبل الذي يربطهم قائمة طالما تمسك به الجميع، يقول تعالى :

" وأطيعوا الله ورسوله ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم " (الأنفال : ٤٦) .

وهذا الاتحاد والاتفاق بين المسلمين هو عماد الملة الإسلامية، ورباط جماعة المسلمين، وينبغي أن تكون نتيجة قوة هذا الرباط هي المحبة والألفة بين المسلمين، وإن حدث بينهم خلاف ذات مرة فإن وسيلة القضاء عليه هي أن يرجع الطرفان إلى حكم الله ورسوله، فإن تنازعتم في شئ فردوه إلى الله والرسول " (النساء : ٥٩) .

فإذا ما تطور هذا للخلاف حتى وصل إلى مرحلة الحرب فإنه من الفرض على المسلمين حينئذ أن يجتمعوا ليقاتلوا الفئة التي بغت على الأخرى ويجبروها على الصلح، فإذا ما رضيت به عقدوا بينهما صلحاً مبنياً على العدل والإنصاف :

" وإن طائفتان من المؤمنين اقاتلتوا فأصلحوا بينهما، فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلتا التي تبغي حتى تفيء إلى أمر الله، فإن فاعت فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا إن الله يحب المقسطين، إن المؤمنين إخوة فأصلحوا بين أخويكم " (الحجرات : ١٠) .

وقد دللنا الجزء الأخير من الآية أن المسلمين تربطهم رابطة الأخوة، وهذه الرابطة لا تنقطع حتى بالحرب وإسالة الدماء، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في معنى الآيات السابقة :

" انصر أخاك ظالماً ومظلوماً " (البخاري) ، فقال الصحابة: يا رسول الله ننصره مظلوماً، فكيف ننصره ظالماً، قال: تكف يده عن الظلم .

وأيضاً كان الكافر والعدو، ومهما اشتد كفره وعداوته، فإنه يصبح أخاً لنا في الدين بمجرد نطقه بالشهادتين وقبوله للإسلام وشريعته، قال تعالى :

" فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فإخوانكم في الدين " (التوبة : ١١) .

حتى العبد إن نطق بالشهادتين وأسلم فإنه حينئذ ينضوي تحت لواء الإسلام، وإن كان مجهول الأب والنسب فلا حرج، إذ أنه بإسلامه أصبح أخاً مسلماً للمسلمين، يقول تعالى :

" فإن لم تعلموا آباءهم فإخوانكم في الدين ومواليكم " (الأحزاب : ٥) .

حتى عندما يقتل مسلم مسلماً فإن الله تعالى يؤكد لأقارب القتيل على أخوة المقتول ويحثهم على الرحمة والرأفة، يقول تعالى :

" فمن عفي له من أخيه شيء " (البقرة : ١٧٨) .

ويحرم على المسلم اغتياض أخيه لأنه :

" أوجب أحدكم أن ياكل لحم أخيه ميتاً " (الحجرات : ١٢) .

والحفاظ على مال اليتيم وحسن إدارته فرض على الأوصياء، وإن اعتبر الوصي هذا اليتيم فرداً من أسرته وكان حسن النية في ذلك، وأصبح الإنفاق مشتركاً فإن هذا أيضاً صحيح، لأنه أخوه الذي فرض عليه حب الخير لأخيه، قال تعالى: " وأن تخالطوهم فإخوانكم " (البقرة : ٢٢٠) .

وللمسلم على أخيه المسلم حق الدعاء له بظهر الغيب فيقول كما يقول تعالى :

" ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان " (الحشر : ١٠) .

لما أن يحمل المسلم لأخيه المسلم ضعيفة في قلبه فذلك سيئة ينبغي على العبد لكي يتخلص منها أن يتوسل إلى الله تعالى ويستغفره منها داعياً الله تعالى أن :
 " ولا تجعل في قلوبنا غلاً للذين آمنوا ربنا إنك رؤوف رحيم " (الحشر : ١٠) .
 إذ أن صفة المسلمين هي أنهم يتعاملون فيما بينهم برحمة وشفقة متبادلة مدحهم الله تعالى بقوله :

" رحماء بينهم " (الفتح : ٢٩) .

وينبغي أن تكون صفة المسلمين أن يترفقوا في تعاملهم مع المسلمين ويحسنوا لقاءهم في تواضع :
 " أنلة على المؤمنين " (المائدة : ٥٤) .

وقد أكد محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم على هذه الأخوة والمحبة والشفقة بين المسلمين وزادها توضيحاً فقال :

" مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم كمثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى ^(١)، وهناك رواية أخرى وردت في صحيح مسلم يقول فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم :

" المسلمون مع بعضهم مثل الرجل الواحد إن تألمت عينه تألم لها سائر بدنه، وإن تألم رأسه تألم له سائر بدنه " ^(٢) .

والقصد هو أن الأمة المسلمة مثل الجسد الواحد، وأفرادها أعضاء، وإذا تألم عضو من هذه الأعضاء تألمت له سائر الأعضاء وشاركوه في ألمه، وينبغي أن يكون حال المسلمين هكذا، إذا تألم أحدهم شعر سائر المسلمين بألمه هذا، وقد ضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم مثلاً آخر لهذا الأمر فقال :

^١ صحيح البخاري - الجزء الثاني - ٨٣٣ - كتاب الأدب، وصحيح مسلم - الجزء الثاني - ٣٨٩ - كتاب البر والصلة والآداب. حدثنا أبو نعيم: حدثنا زكرياء، عن عامر قال: سمعته يقول: سمعت النعمان بن بشير يقول: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (تري المؤمنين: في تراحمهم، وتوادهم، وتعاطفهم، كمثل الجسد، إذا اشتكى عضو، تداعى له سائر جسده بالسهر والحمى).

^٢ صحيح مسلم - الجزء الثاني - ٣٨٩ - طبعة مصر - كتاب البر والصلة والآداب. حدثنا محمد بن عبد الله بن نمير، حدثنا حميد بن عبد الرحمن، عن الأعمش، عن خزيمة، عن النعمان بن بشير، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (المسلمون كرجل واحد، إن اشتكى عينه، اشتكى كله، وإن اشتكى رأسه، اشتكى كله).

"المؤمن للمؤمن كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضاً" (١)، وجاء في البخاري أن النبي صلى الله عليه وسلم قال هذا وشبك بين أصابعه الشريفة ليريه كيف تقوي الأجزاء بعضها وفي هذا المثال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه مثلما تقوي الأحجار بترابطها فيما بينها الجدار فيصبح قوياً لا يمكن هدمه، كذلك للجماعة الإسلامية فإنها كالقلعة كل مسلم فيها عبارة عن حجر من أحجارها، وتظل هذه القلعة قائمة طالما كانت أحجارها متصلة ببعضها البعض، وحين تهتز هذه الأحجار من أماكنها وتختل ينهار الجدار كله، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في موضع آخر: "للمسلم أخ المسلم لا يظلمه، ولا يحقره، ولا يتركه بغير عون، وما أسوأ أن يحقر للمسلم أخاه المسلم، كل المسلم على المسلم حرام دمه، وماله، وعرضه" (٢)، وهذه رواية صحيح مسلم بينما جاء في أبي داود أنه صلى الله عليه وسلم قال:

"المسلم أخ المسلم، لا يظلمه، ولا يسلمه، وكان الله في عون العبد طالما كان العبد في عون أخيه، ومن فرج عن مسلم كربة فرج الله عنه كربة يوم القيامة، ومن ستر مسلماً ستره الله يوم القيامة". وفي رواية أخرى لأبي داود يقول صلى الله عليه وسلم:

"من فرج عن مسلم كربة من كرب الدنيا فرج الله عنه كربة من كرب يوم القيامة، ومن ستر مسلماً ستره الله في الدنيا والآخرة، وكان الله في عون للعبد ما دام العبد في عون أخيه". وقال صلى الله عليه وسلم: "المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده" (٣)، وهذه رواية في صحيح البخاري.

١ صحيح البخاري - كتاب الآداب - الجزء الثاني - ص ٨٩، وصحيح مسلم - كتاب البر والصلة والآداب - الجزء الثاني - ص ٣٨٩ - طبعة مصر - حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة، وأبو عامر الأشعري، قالوا: حدثنا عبد الله بن إدريس وأبو أسامة. وحدثنا محمد بن العلاء، أبو كريب، حدثنا ابن المبارك وابن إدريس وأبو أسامة، كلهم، عن يزيد، عن أبي بردة، عن أبي موسى، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً).

٢ صحيح مسلم - الكتاب المذكور - الجزء الثاني - ص ٣٨٢ - طبعة مصر - حدثنا عبد الله بن مسلمة بن قعنب، حدثنا داود يعني ابن قيس عن أبي سعيد، مولى عامر بن كريب، عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لا تحاسدوا، ولا تاجسوا، ولا تبغضوا، ولا تدابروا، ولا يبع بعضكم على بيع بعض، وكونوا عباد الله إخواناً، المسلم أخو المسلم، لا يظلمه، ولا يخذله، ولا يحقره، التقوى ههنا)، ويشير إلى صفته ثلاث مرات: (بحسب امرئ من البشر أن يحقر أخاه المسلم، كل المسلم على المسلم حرام، دمه وماله وعرضه).

٣ صحيح البخاري - كتاب الإيمان - الجزء الأول - ص ١٣ - حدثنا أبو نعيم: حدثنا زكرياء، عن عامر قال: سمعت عبد الله بن عمرو يقول: قال النبي صلى الله عليه وسلم: (المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده، والمهاجر من هجر ما نهى الله عنه

وفي رواية أخرى سأله الناس: يا رسول الله من هو أفضل المسلمين؟ قال صلى الله عليه وسلم: من سلم المسلمون من لسانه ويده^(١). يعني أن المسلم الذي لا يؤذي للمسلمين سواء بيده أو بلسانه هو أفضل المسلمين.

يقول الصحابي المعروف جرير بن عبد الله بجلي: "باعت رسول الله صلى الله عليه وسلم على ثلاثة أمور: إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وختمه كل مسلم". وجاء في روايات عديدة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "سباب المسلم فسوق وقتاله كفر"^(٢)، وذلك لأن الله تعالى أمر بالحب والأخوة والسلام بين المسلمين، ومن يخالف ذلك فإنه بذلك لا يطيع أمر الله وهذا في ذاته نوع من إنكار الله ولهذا جاء في القرآن الكريم أن جزاء قتل المسلم بغير حق وعن عمد هو نفس الجزاء المقرر للكفار قال تعالى: "ومن يقتل مؤمناً متعمداً فجزاؤه جهنم خالداً فيها، وغضب الله عليه ولعنه وأعد له عذاباً عظيماً" (النساء: ٩٣).

وفي خطبة حجة الوداع الهامة أسكت رسول الله صلى الله عليه وسلم الناس أولاً ثم قال:

"انظروا، لا تتقلبوا بعدي كفاراً فيقتل بعضكم بعضاً"^(٣)، وقال صلى الله عليه وسلم في موضع آخر: "من يرفع السلاح علينا فليس منا"^(٤)، إذ الروح شيء عظيم، وتعتقب محارم المسلم ذنب عظيم، فقال صلى الله عليه وسلم: أكبر الرياء هو التعدي على حرمة

^١ صحيح البخاري-كتاب الإيمان-الجزء الأول-ص ١٢. حدثنا سعيد بن يحيى بن سعيد القرشي قال: حدثنا أبي قال: حدثنا أبو بردة بن عبد الله بن أبي بردة، عن أبي بردة، عن أبي موسى رضي الله عنه قال: قالوا: يا رسول الله، أي الإسلام أفضل؟ قال: (من سلم المسلمون من لسانه ويده).

^٢ صحيح البخاري-كتاب الإيمان-الجزء الأول-ص ١٢١-الجزء الثاني-ص ٨٩٣. حدثنا محمد بن عرعر قال: حدثنا شعبة، عن زيد قال: سألت أبا وائل عن المرتبة فقال: حدثني عبد الله: أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (سباب المسلم فسوق، وقتاله كفر).

^٣ صحيح البخاري-كتاب الإيمان-ص ٢٣. حدثنا محمد بن بشار: حدثنا غندر: حدثنا شعبة، عن علي بن مدرك قال: سمعت أبا زرعة بن عمرو بن جرير، عن جرير قال: قال لي النبي صلى الله عليه وسلم في حجة الوداع: (استممت الناس، لا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض). رواه أبو بكر، و ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم.

^٤ صحيح البخاري-كتاب الديات-الجزء الثاني-ص ١٠١، وكتاب الفتن-الجزء الثاني-ص ١٠٤. حدثنا موسى بن إسماعيل: حدثنا جويرية، عن نافع، عن عبد الله بن عمر رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (من حمل علينا السلاح فليس منا). رواه أبو موسى، عن النبي صلى الله عليه وسلم.

المسلم^(١) فلو وقع مسلم في أمر يخشى معه على عرضه فإنه من للفرض على كل مسلم أن يعمل على إنقاذه فقال صلى الله عليه وسلم: "من تخلى عن مسلم ولم يعنه في موضع يخشى فيه على عرضه ويعتدي عليه فيه فإن الله سوف يتخلى عنه في موضع مثله، ومن ساعد مسلماً في مثل هذا الموضع فإن الله سيساعده في موضع مثله"^(٢)، ولو هجر مسلم مسلماً لم يكلمه لسبب من الأسباب، فإن الرسول صلى الله عليه وسلم منع أن يمتد هذا الهجر إلى أكثر من ثلاثة أيام، فقال صلى الله عليه وسلم: "لا يحل لمسلم أن يهجر أخاه المسلم أكثر من ثلاثة أيام، هذا يُعرض، وهذا يعرض، وخيرهم من بدأ بالسلام"^(٣)، وقال صلى الله عليه وسلم في رواية من طريق آخر: "لا تبأغضوا، ولا تحاسدوا، ولا يغترب بعضكم بعضاً، ولا يحل لمسلم أن يهجر أخاه أكثر من ثلاثة أيام"^(٤). وليس لدى المسلم أغلى وأهم من عرضه وكرامته وشرفه إلا إيمانه، وقد قال

القرآن الكريم :

" ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السلام لست مؤمناً " (النساء : ٩٤) .

والمقصود أنه لا يحق لمسلم أن يقول لمن قال عن نفسه أنه مسلم أو ادعى الإسلام إنك غير مسلم، وفي معركة من المعارك هجم صحابي على كافر، فطبق هذا الكافر بالشهادتين، لكن الصحابي قتله، ووصل الأمر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فاستدعى للصحابي وسأله، فقال الصحابي: يا رسول الله، لقد تطقت بالشهادتين خوفاً، فقال صلى الله عليه وسلم في أسلوب بليغ: وماذا ستفعل مع لا إله إلا الله التي قالها؟ وفي رواية أخرى قال صلى الله عليه وسلم: هلا شققت عن قلبه"^(٥). وذات مرة قال صلى الله

^١ سنن أبي داود - كتاب الأدب - الجزء الثاني - ص ١٨٩ .

^٢ المرجع السابق .

^٣ صحيح البخاري - كتاب الأدب - الجزء الثاني - ص ٩٢١، وسنن أبي داود - كتاب الأدب - الجزء الثاني - ص ١٩٢. حدثنا عبد الله بن مسلمة، عن مالك، عن ابن شهاب، عن عطاء بن يزيد الليثي، عن أبي أيوب الأنصاري، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: لا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاثة أيام يلتقيان فيعرض هذا ويعرض هذا، وخيرهما الذي يبدأ بالسلام.

^٤ صحيح البخاري - كتاب الأدب - الجزء الثاني - ص ٨٩٦. حدثنا عبد الله بن مسلمة، عن مالك، عن ابن شهاب، عن أنس بن مالك، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: لا تبأغضوا، ولا تحاسدوا، ولا تبايروا، وكونوا عباد الله إخواناً ولا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث ليال.

^٥ جاءت الرواية الأولى في صحيح البخاري غزوة حرقاء، وكتاب الديات، وانظر الرواية الثانية في فتح الباري كتاب الديات شرح الحديث المذكور. حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة، حدثنا أبو خالده الأحمر. وحدثنا أبو كريب وإسحاق بن

عليه وسلم لعن المؤمن أو اتهمه بالكفر بمثابة قتله^(١)، كما قال صلى الله عليه وسلم "من كفر مسلماً بآء بها أحدهما"^(٢)، بمعنى أنه إن لم يكن في الحقيقة كافراً فإنه بذلك قد قال لمسلم إنه كافر، وهذه في ذاتها درجة من الكفر، وتأتي درجة المال بعد النفس والإيمان والعرض، وقد قال صلى الله عليه وسلم: "من أقسم ألا يعطي مسلماً حقّه أوجب الله له جهنم وحرم عليه الجنة"، فقال رجل: يا رسول الله حتى ولو كان شيئاً بسيطاً، فقال صلى الله عليه وسلم: حتى ولو كان فرع شجرة"^(٣)، وقال صلى الله عليه وسلم: "للمسلم على أخيه المسلم خمسة حقوق، أن يرد عليه السلام، وأن يضمته إذا عطس، وأن يقبل دعوته، وأن يعوده إذا مرض، وأن يمشي في جنازته إذا مات"^(٤)، بمعنى أن هذا هو الحد الأدنى من الحقوق والتي يمكن من خلالها تصور حسن العلاقة والخلق في التعامل بين اثنين من المسلمين. وقد قال صلى الله عليه وسلم: "عندما يعود للمسلم أخاه المسلم المريض فإنه يكون على طريق الجنة إلى أن يعود"^(٥)، ويقول سيدنا أبو هريرة رضي الله عنه أن

إبراهيم، عن أبي معاوية، كلاهما عن الأعمش، عن أبي ظبيان، عن أسامة بن زيد، وهذا حديث ابن أبي شيبة، قال: بعثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم في سرية فصبحنا الحرقات من جهة، فأدركت رجلاً فقال: لا إله إلا الله. فطعته فوقع في نفسي من ذلك. فلذكرته للنبي صلى الله عليه وسلم. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: قال: لا إله إلا الله ولقنناه؟ قال: قلت: يا رسول الله! إنما قلنا خوفاً من السلاح. قال: ألا شققت عن قلبه حتى تعلم ألقاه أم لا؟

^١ صحيح البخاري-كتاب الأدب-الجزء الثاني-ص ٨٩٣. حدثنا سليمان بن حرب: حدثنا شعبة، عن منصور قال: سمعت أبا وائل يحدث عن عبد الله قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (مسباب للمسلم فسوق، وقتله كفر).

^٢ المرجع السابق. حدثنا أبو معمر: حدثنا عبد الوارث، عن الحسين، عن عبد الله بن بريدة، حدثني يحيى بن يعمر: أن أبا الأسود الديلي حدثه، عن أبي ذر رضي الله عنه: أنه سمع النبي صلى الله عليه وسلم يقول: (لا يرمي رجل رجلاً بالفسوق، ولا يرمي بالكفر، إلا ارتدت عليه، إن لم يكن صاحبه كذلك).

^٣ صحيح مسلم-كتاب الإيمان-الجزء الأول-ص ٦٥-طبعة مصر. حدثنا يحيى بن أيوب، وقتيبة بن سعيد، وعلي بن حجر، جميعاً عن إسماعيل بن جعفر. قال ابن أيوب: حدثنا إسماعيل بن جعفر، أخبرني العلاء وهو ابن عبد الرحمن مولى الحرقه عن معبد بن كعب السلمي، عن أخيه عبد الله بن كعب، عن أبي أمامة، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: من اقتطع حق امرئ مسلم بيمينه، فقد أوجب الله له النار، وحرم عليه الجنة فقال له الرجل: وإن كان شيئاً يسيراً، يا رسول الله؟ قال: وإن قضياً من أراك

^٤ سنن أبي داود-كتاب الأدب-الجزء الثاني-ص ٣٠٩. حدثنا محمد بن داود بن سفيان وخشيش بن أسرم قالوا: ثنا عبد الرزاق، أخبرنا معمر، عن الزهري، عن ابن المسيب، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: خمس تجب للمسلم على أخيه: رد السلام، وتشميت العاطس، وإجابة الدعوة، وعيادة المريض، وإتيان الجنائز.

رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "من سار في جنازة أحد بإيمان وإخلاص حتى صلى عليه وفرغ من دفنه فإن له قيراطين من الثواب، كل واحد منهما كجبل أحد" (١) بمعنى أن هذا القيراط أن يكون بحساب الدنيا وإنما يكون بحساب أن كل ذرة منه تساوي جبل أحد في عظمتها وضخامتها .

كل هذه الحقوق والتي لا يمكن الإحاطة بها وبجزئياتها كاملة ما هي إلا نتيجة لتلك الألفة والمحبة الأخوية التي لا يكتمل بدونها إيمان للمؤمن، ولهذا خاطب رسول الله صلى الله عليه وسلم الموحدين بقوله: "لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه" (٢). المهم أن يحب كل فرد من أفراد الأمة الإسلامية للفرد الآخر كما يحب نفسه، ويعتبر نفعه نفعاً له، وضرره ضرراً له .

وعند أبي داود " قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: المسلم مرآة المسلم، والمسلم أخ المسلم يدفع عنه الضرر، ويحفظه من خلفه " (٣)، فانظر كيف أسس رسول الله صلى الله عليه وسلم عمارة الجماعة الإسلامية على أسس مستحكمة قوية، فإذا ما طبقنا كل هذا اليوم فلن تبقى جدران هذه العمارة مهترئة كما هي عليه اليوم، وكل جماعة في العالم بنيت على هذا الأصل، ويستبنى عليها الجماعات مستقبلاً .

حق الأخوة الإسلامية

^١ صحيح مسلم - الجزء الأول - ص ٣٨٤ - كتاب البر والصلة. حدثنا يحيى بن حبيب الحارثي، حدثنا يزيد بن زريع حدثنا خالد، عن أبي قلابة، عن أبي أسماء الرحبي، عن ثوبان، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (إن المسلم إذا عاد أخاه المسلم، لم يزل في غرفة الجنة حتى يوجع).

^٢ صحيح البخاري - كتاب الإيمان - الجزء الأول - ص ٦٥ - طبعة مصر. حدثنا أحمد بن عبد الله بن علي المنجولي قال: حدثنا روح قال: حدثنا عوف، عن الحسن ومحمد، عن أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (من اتبع جنازة مسلم، إيماناً واحتساباً، وكان معه حتى يصلى عليها ويفرغ من دفنها، فإنه يرجع من الأجر بقيراطين، كل قيراط مثل أجد، ومن صلى عليه ثم رجع قبل أن تدفن، فإنه يرجع بقيراط). تابعه عثمان المؤذن قال: حدثنا عوف عن محمد عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم نحوه.

^٣ صحيح البخاري - كتاب الإيمان - الجزء الأول - ص ٦٠. حدثنا مسدد قال: حدثنا يحيى، عن شعبة، عن قتادة، عن أنس رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم. وعن حميد المعلم قال: حدثنا قتادة، عن أنس، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه).

^٤ سنن أبي داود - كتاب الأدب - الجزء الثاني - ص ١٩٢، وهناك اختلاف بين الشراح في معنى الفقرة الثالثة من الحديث. حدثنا الربيع بن سليمان المؤذن، ثنا ابن وهب، عن سليمان يعني ابن بلال عن كثير بن زيد، عن الوليد بن رباح، عن أبي هريرة، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: المؤمن مرآة المؤمن، والمؤمن أخو المؤمن - يكف عليه ضيعته، ويحوطه من ورثته.

ولكل إنسان على الآخر بعض الفرائض باعتبار الأخوة الإسلامية، وهذه الفرائض يتوجب على كل مسلم أدائها كفرض ديني، ومن بين أسباب تبليغ الإسلام ودعوة غير المسلمين إلى الإسلام بالإضافة إلى أسباب أخرى أن الشيء الذي يعتقد المسلم أنه صدق يصبح فرضاً إنسانياً عليه أن يعلم به الآخرون بهذا نتيجة حتمية لحب الخير للإنسانية، هذا وقد كرر القرآن الكريم بعض أحكام التوراة، ومن بينها الحكم التالي: "وقولوا للناس حسناً" (البقرة: ٨٣) .

والقول الحسن للناس والتعامل الحسن معهم هو فرض إنساني لا يتوقف على دين أو مذهب بعينه، ولا يمنع منه اختلاف العرق والجنس والقومية والدين، ولهذا قال تعالى:

"ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا، اعدلوا هو أقرب للتقوى" (المائدة: ٨) .

ولهذا فإن السبب الرئيسي في المعاملة السيئة القاسية من جانب إنسان تجاه إنسان آخر، ومن جانب أمة تجاه أمة أخرى هو أنهم لا يحققون العدل في تعاملهم، وإنما هم على استعداد دائم للظلم وعدم الإنصاف، وهذه الآية الكريمة تغلق منابع المواد الفاسدة لدى الإنسان، وقد روي عن سيدنا أبي هريرة وسيدنا أنس بن مالك رضي الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "لا تباغضوا ولا تحاسدوا ولا تدابروا وكونوا عباد الله إخواناً" (البخاري - ٢) .

وجاء الحديث بالفاظ أخرى في رواية ثانية هكذا: "لا تباغضوا ولا تحاسدوا ولا تدابروا وكونوا عباد الله إخواناً" (البخاري) .

لقد رسمت في هذا الحديث خريطة للأخوة الإنسانية لو سرنا بصدق طبقاً لها لتحولت هذه الدنيا التي تمتلئ فساداً وشرّاً إلى جنة "من لا يرحم لا يرحم" (البخاري)، أي من لا يرحم العباد لا يرحمه الله، أو أن من لا يرحم الآخرين لا يرحمه الآخرون أيضاً، وجاء في مستدرک الحاكم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء" (١)، وهذا الحديث يظهر بقوة شأن

١ مستدرک الحاكم - كتاب البر والصلة - الجزء الرابع - ١٥٩. أخرناه أبو النضر الفقيه، وأبو الحسن العمري قال: ثنا عثمان بن سعيد، ثنا علي بن المديني، ثنا سفيان، عن عمرو بن دينار، عن أبي قابوس قال: سمعت عبد الله بن عمرو يرفعه إلى النبي صلى الله عليه وسلم قال: الراحمون يرحمهم الله ارحموا أهل الأرض يرحمكم أهل السماء الرحم شجرة من الرحمن فمن وصلها وصله ومن قطعها قطعته

لرحمة في تعاليم رحمة العالمين رسول الله صلى الله عليه وسلم موقال صلى الله عليه وسلم في موضع آخر: "إن المسلم الذي يغرس شجرة يناله ثواب كل من يأكل منها سواء كان إنساناً أم طيراً" (البخاري) بوليس على الإنسانية قيد في هذا الخير العام .

ذات مرة حكى رسول الله صلى الله عليه وسلم قصة رجل سلك سلوكاً طيباً مع حيوان فأناله من ذلك ثواب، فقال للصحابه رسول الله صلى الله عليه وسلم يا رسول الله، هل نأخذ ثواباً على التعامل الحسن مع الحيوان أيضاً؟ فقال صلى الله عليه وسلم: تأخذون الثواب على التعامل الحسن مع كل ذي كبد رطب" (١) (البخاري) ويشارك في هذا الثواب كل ذي روح .

وقد جاء في جامع الترمذي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لأبي نر رضي الله عنه: "لنق الله حيثما كنت واتبع السيئة للحسنة تمحها وعمال الناس بخلق حسن" (باب ما جاء في معاشره للناس، صفحة ٣٣١) يقول أبو هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات مرة ذكر خمسة أمور منها: "أحب للناس ما تحب لنفسك" (٢) بولفظ الناس لفظ عام يدخل فيه كل البشر ويغفرهم من ذلك أنه طالما تغمر عاطفة حب الخير للإنسانية كلها قلب المسلم فإنه لا يكون مسلماً كاملاً، لأن حب الخير للآخرين مثلما تحبه لنفسك هو تعليم أخلاقي يعد أساس كل حقوق الأخوة الإنسانية، وقد جاءت هذه التعاليم في حديث آخر أن "أحبوا لأخيك ما تحبوا لأنفسكم" ويمكن أن يكون المقصود بلفظ (أخ) هنا المسلم وغير المسلم أيضاً، وقد جاءت هذه التعاليم في التوراة والإنجيل أيضاً بأن "أحب لجارك مثلما تحب لنفسك" بحقوق الجار في الإسلام بينها في باب سابق، إنما يجب أن نلقي عليها نظرة هنا، إذ أن للصحابه الكرام اتبعوا هذا الأمر

١ جاءت هذه الأحاديث في أبواب مختلفة من كتاب الأدب من الجزء الثاني لصحيح البخاري. حدثنا عبد الله بن يوسف: أخبرنا مالك، عن سمي، عن أبي صالح، عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (يينا رجل يمسي، فلاشد عليه العطش، فقول يترأ فشرب منها، ثم خرج فإذا هو بكلب يلهث، يأكل الثرى من العطش، فقال: لقد بلغ هذا مثل الذي بلغ بي، فملأ خلفه ثم أمسكه بفيه، ثم رقى فسقى الكلب، فشكر الله له فغفر له). قالوا: يا رسول الله، وإن لنا في البهائم أجراً؟ قال: (في كل كبد رطبة. أجرو).

٢ الترمذي - أبواب الزهد - غرب. حدثنا بشر بن هلال الصواف البصري. حدثنا جعفر بن سليمان. عن أبي طسار. عن الحسن عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: من يأخذ عني هؤلاء الكلمات فيعمل بهن أو يعلم من يعمل بهن؟ فقال أبو هريرة: قلت: أنا يا رسول الله، فأخذ بيدي فهد حياً وقال: اتق المحارم تكن أعبد الناس، وارض بما قسم الله لك تكن أغنى الناس، وأحسن إلى جارك تكن مؤمناً، وأحب للناس ما تحب لنفسك تكن مسلماً، ولا تكثر الضحك، وإن كثرة الضحك تميت القلب.

وحققوه مع جيرانهم لليهود والنصارى مثلاً حققوه مع جيرانهم المسلمين ورغم أن ترجيح المسلمين الفقراء والمساكين على غير المسلمين في باب الصدقات أمر طبيعي، إلا أن سيدنا عمر الفاروق رضي الله عنه أكد في عهد خلافته على حق فقراء ومساكين أهل النمة غير المسلمين، يكتب للقاضي أبو يوسف في كتاب الخراج أنه ذات مرة رأى سيدنا عمر رضي الله عنه كهلاً ضريباً يقف على باب بيت المال يطلب منه الصدقة، فجاء سيدنا عمر رضي الله عنه من خلفه وضرب بيده الشريفة على ذراعه وسأله: ما حاجتك إلى طلب الصدقة؟ فقال: لأودي للجزية ولقضي حاجاتي، وبسبب تقدم سني، فأمسك سيدنا عمر رضي الله عنه بيده واصطحبه إلى بيته وأعطاه من بيته ثم أرسله إلى خازن بيت المال وأمره قائلاً: انظر إلى مثل هؤلاء، والله ما أنصفناهم لو أكلنا شبابهم وتخلينا عنهم في شيخوختهم. وقد سمح القرآن الكريم بالصدقة للفقراء والمساكين، والفقراء هم المسلمون والمساكين هم أهل الكتاب فلا تأخذ منه الجزية^(١).

وحكم الإسلام بأنه ما عدا الزكاة يمكن أن نعطي الصدقات لغير المسلمين هو حكم عام، وقد أعطى رسول الله صلى الله عليه وسلم الصدقة لأسرة يهودية، كما تصدقت أم المؤمنين السيدة صفية رضي الله عنها بثلاثين ألفاً من المال لاثنتين من أقاربها اليهود، وقرر الإمام مجاهد أن إسقاط دين الأقارب من المشركين عمل خير يثاب عليه صاحبه، ويقول ابن جريح المحدث أن القرآن الكريم^(٢) عد إطعام الأسير من أعمال الخير، ومن الواضح أن الأسرى في أيدي صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم كلنوا من المشركين، وكان أبو ميسرة وعمر بن شرحبيل رضي الله عنهما يساعدان رهبان النصارى بصدقة الفطر، كما أهدى سيدنا عمر رضي الله عنه لأخيه المشرك هدية على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم^(٣)، وأجاز رسول الله صلى الله عليه وسلم نفسه لبعض المشركين بعقد صلة الرحم مع والديهم^(٤)، وجاء في روايات التفسير أنه عندما

^١ كتاب الخراج لأبي يوسف - ص ٧٢ .

^٢ سورة الإنسان .

^٣ كتاب الأموال - الإمام أبو عبيدة - ص ٦١٢ - طبعة مصر ، و كتاب الجمعة .

^٤ مسلم - باب فضل الصدقة على الأقرين. حدثنا عبيد الله بن معاذ العنبري، حدثنا أبي، حدثنا شعبة، عن عدي وهو: وهو: ابن ثابت عن عبد الله بن يزيد، عن أبي مسعود البصري، عن النبي صلى الله عليه وسلم، قال: إن المسلم إذا أنفق على أهله نفقة، وهو محتسبها، كانت له صدقة.

حدث اختلاف ديني بين الصحابة في أمر مساعدة فقراء المشركين وبدلوا يتخلون عن هذه المساعدة نزلت هذه الآية (١) :

" ليس عليك هدام ولكن الله يهدي من يشاء، وما تتفقوا من خير فلا أنفسكم " (البقرة: ٢٧٢) بمعنى أنكم سوف تتأبون لعمل الخير علي كل حال، وجاء في مسند أحمد أن النبي صلى الله عليه وسلم قال مخاطباً للمسلمين: " لا يؤمن أحدكم حتى يحب للناس ما يحب لنفسه، وحتى يحب المرء لا يحبه إلا لله عز وجل " (الجزء الثالث - ص ٢٧٢) . وقد امتدت المحبة الإنسانية في هذا الحديث لتشمل الإنسانية كلها .

حقوق الحيوان

إن رسالة المحبة و اللطف التي جاء بها الإسلام إلى الدنيا تتسع لتشمل الحيوانات كذلك، وقد أرشد الإسلام من طرق متعددة إلى حسن السلوك مع الحيوانات، وقد كان العرب لفظاظتهم وقسوتهم ينزلون أنواع الظلم بالحيوانات، فكانوا يقتلونها بوحشية، ويقولون للناس كلوها ويعتبرون ذلك كرمًا وسخاءً، كان الرجلان يعقدان رهاناً، ويوقف كل واحد منهما على الترتيب لينبح ناقة من نوقه، ومن يتوقف يخسر للرهان، وكانت هذه النوق تقدم طعاماً للأصدقاء والأحباب، وكان هذا يعد من الكرم والسخاء أيضاً، وكل هذه الوقائع وردت في شعر العرب، وكما كان هناك مبدأ آخر وهو أنه عندما يموت أحد فإنهم كانوا يربطون مطيته على قبره، ولا يطعمونها أو يسقونها، حتى تموت جائعة على حالتها، هذه، وكانوا يطلقون على هذه الحيوانات اسم (بلية) ، ولما جاء الإسلام قضى على هذه القسوة، وكان هناك أمر آخر منتشر بين العرب وهو أن يجعلوا من الحيوانات بعد أن يربطوها أهلاًفاً يتكربون عليها في رمي السهام، وقد حرم رسول الله صلى الله عليه وسلم تناول لحوم هذه الحيوانات، إذ لا يتخذ نر روح هدفاً للرمي (٢) .

ذات مرة ربط فتى دجاجة لتكون هدفاً يتكرب عليه في الرمي، وجاء عبد الله بن عمر رضي الله عنه وأطلق الدجاجة، وأخذها واصطحب للفتى معه إلى أسرته، وقال لهم: امنعوا ولحكم من هذا فقد منع رسول الله صلى الله عليه وسلم من اتخاذ الحيوان أو ذي الروح هدفاً للرمي، وهكذا كان هناك بعض الناس يربطون دجاجة كهدف

١ الطبري .

٢ الترمذي - أبواب الصيد، باب ما جاء في كراهة أكل المصورة - ص ٢٥٥ . حدثنا محمد بن عبد الأعلى . حدثنا عبد الرزاق عن الثوري عن سماك عن عكرمة عن ابن عباس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يتخذ شيء فيه الروح غرضاً .

للمرءى يومر عليهم سيدنا عبد الله بن عمر فتفرقوا، فقال ابن عمر: من فعل هذا؟ إن من يفعلون هذا لعنهم رسول الله صلى الله عليه وسلم^(١)، وكانت هناك طريقة أخرى في نفس السياق أكثر قسوة من الطرق السابقة أنهم كانوا يقطعون سنام الجمل ولية الخروف وهما أحياء ويتناولها، ولما جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة ورأى هذا الوضع قال إن من يأكل لحم الحيوان حياً هكذا فهو آكل ميتة^(٢)، وكانت هذه حالة خاصة ولكنه صلى الله عليه وسلم منع من تناول اللحوم من حيوان حي يقطع أعضائه أو جزء منها وذلك بشكل عام، ولمنع من يفعل هذا^(٣)، كما قرر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن قتل حيوان بغير ضرورة يعد ذنباً عظيماً^(٤)، وجاء في أحد الأحاديث أن من ذبح حيواناً ولو صغيراً بغير حق فإن الله سوف يسأله عنه، فسأل الصحابة قائلين يا رسول الله، وما هو حقه؟ قال: أن تتبحه وتأكله، لا أن تقطع رأسه وتلقي به^(٥)، ويعلم من هذا الحديث أنه لا يجوز قتل للحيوان الذي لا يؤكل لحمه طالما كان غير متوحش، وجاء في سنن النسائي أن من قتل عصفوراً بغير ضرورة فإنه يأتي يوم القيامة يشكوه قائلاً: لقد قتلني فلان بغير ضرورة، ولم تكن هناك فائدة لذلك^(٦)، فلا يجوز إذا قتل الحيوان الذي لا يؤذي الإنسان أو يفيد، ولهذا منع رسول الله صلى الله عليه وسلم من قتل النمل والنحل والهدد بصفة خاصة^(٧).

وأما الحيوان الذي يذبح أو يقتل للضرورة فإننا قد أمرنا بأن نسلك معه سلوكاً لنا عند ذبحه أو قتله، جاء في حديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: "لقد فرض الله الإحسان في كل شيء، فإن قتلتم فأحسنوا القتلة، وإن ذبحتم فأحسنوا الذبحة

^١ البخاري - كتاب الذبائح و الصيد - باب ما يكره من المثلة و المصورة .

^٢ الترمذي - أبواب الصيد - باب ما جاء فيما قطع من الحي فهو ميت .

^٣ البخاري - كتاب الذبائح و الصيد - باب ما يكره من المثلة و المصورة . حدثنا أبو النعمان: حدثنا أبو عوانة، عن أبي بشر، عن سعيد بن جبير قال: كنت عند ابن عمر، فمرروا بفتية، أو بنفر، نصرأ دجاجة يرمونها، فلما رأوا ابن عمر تفرقوا عنها، وقال ابن عمر: من فعل هذا؟ إن النبي صلى الله عليه وسلم لعن من فعل هذا

^٤ مستدرك الحاكم - الجزء الثاني - ص ١٤٤ .

^٥ المشكاة - كتاب الصيد و الذبائح - ص ٢٥٠ .

^٦ النسائي - كتاب الضحايا - ص ٦٧٩ . أخبرنا قتيبة بن سعيد قال: حدثنا سفيان عن عمرو عن صهيب عن عبد الله بن عمرو يرفعه قال: من قتل عصفوراً فما فوقها بغير حقها سأل الله عز وجل عنها يوم القيامة، قيل يا رسول الله، لم حقه؟ قال: حقه أن تذبحها فأكلها ولا تقطع رأسها فيرمى

^٧ المشكاة - كتاب الصيد و الذبائح - ص ٣٦٦ .

وليس أحدكم شفرته، وليربح ذبيحته" (١). وجاء في حديث آخر أن أحد الصحابة قال: يا رسول الله إنني لأذبح للشاة فأرحمها، لو قال أشفق عليها من أن لأذبحها، فقال صلى الله عليه وسلم إن رحمت للشاة رحمك الله" (٢)، وهذا هو المصيب في منع الذبح عن طريق القطع بالأسنان، لو الجرح بالأظافر" (٣) إذ أن هذا يؤذي الحيوان، كما أن القتل بالأحجار والحصى أو التنبال كذلك ممنوع، حيث قال صلى الله عليه وسلم أنه لا يمكن الصيد بهذه الطريقة، كما لا يمكن هزيمة العدو بها، لكن قد تتكسر الأسنان بذلك، أو تتفجر العين" (٤).

المقصود أن إيذاء الحيوان جسدياً بغير ضرورة أمر لا يجيزه الدين، والسبب الأساسي في القسوة التي يتم للتعامل بها مع الحيوان هو أن العرب لم يكونوا يعلمون أن إيذاء الحيوان وإيلاجه ذنب، ولهذا أخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم العرب أنه مثلهما أن إيذاء الإنسان حرام شرعاً كذلك فإن إيذاء الحيوان ذنب ديني .

ومن هنا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في امرأة أنها تتعذب لأنها احتفظت بهرة لديها وربطتها حتى ماتت على ما هي عليه" (٥) بل إن الناس يرتكبون هذا الذنب أكثر من ارتكابهم مثله مع الإنسان، ولهذا قال صلى الله عليه وسلم لو عفا الله عن إساءتكم للحيوان فقد عفا عن كثرة من ذنوبكم، وذات مرة كان رسول الله صلى الله عليه وسلم في سفر مع أصحابه وذهب صلى الله عليه وسلم لقضاء حاجة، وعندما عاد إليهم

^١ مسلم-كتاب الصيد والذباح-باب الأمر بإحسان الذبح والقتل وتحديد الشفرة. حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة، حدثنا إسماعيل بن علية، عن خالد الحذاء، عن أبي قلابة، عن أبي الأشعث، عن شداد بن أوس، قال: قال: إسماعيل بن علية، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: إن الله كتب الإحسان على كل شيء، فإذا قتلتم فأحسنوا القتل، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبح، وليحد أحدكم شفرته، وليرح ذبيحته.

^٢ مسند ابن حنبل - ص ٤٣٦ .

^٣ الترمذي-ص ٦٧٤، والبخاري كتاب الذباح والصيد-باب الخذف والفندقة. حدثنا قبيصة: حدثنا سفيان، عن أبيه، عن عباية بن رفاع، عن رافع ابن خديج قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم: (كل- يعني ما أتهر الدم، إلا المن والظفر).

^٤ البخاري-كتاب الأنبياء-ص ٤٩٥. حدثنا آدم: حدثنا شعبة، عن قتادة قال: سمعت عتبة بن صهبان الأزدري يحدث، عن عبد الله بن مغفل المزني قال: سمى النبي صلى الله عليه وسلم عن الخذف، وقال: (إنه لا يقتل الصيد ولا يتكأ العدو، وإنه يفتأ العين، ويكسر السن).

^٥ صحيح البخاري - الجزء الثاني - ص ٤٤١. حدثني عبد الله بن محمد بن أسماء: حدثنا جويرية بن أسماء، عن نافع عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (علبت امرأة في هرة سجنتها حتى ماتت، فدخلت فيها النار، لا هي أطعمتها ولا سقتها إذ حبستها، ولا هي تركتها تأكل من غشاش الأرض).

رأى واحداً منهم قد أشعل موقدة في مكان فيه نمل، أو يوجد ثقب للنمل في شجرة فيه، فلما رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك سأل من فعل هذا؟، فقال: من فعل أنا يا رسول الله، فقال صلى الله عليه وسلم: أطفئها أطفئها^(١) (أي حتى لا تؤذي النمل أو يحترق) وجاء في حديث أن أحد الأنبياء نزل تحت شجرة فلدغته نملة بفقام بإبعاد أمتعته بعيداً عن المكان أولاً ثم أحرق النمل كله بالنار، وهنا نزل الله عليه وحياً ينبهه لماذا لم تحرق نملة واحدة فقط^(٢)، (أي أن المستحق للقصاص هو نملة واحدة وهي التي لدغتك ولا نذب لباقي النمل) وجاء في حديث أن الصحابة أمسكوا بعصفورين صغيرين أثناء سفرهم ذات مرة للجهاد، وأخذت أمهما تكرر حولهما من فرط المحبة، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد ذهب لقضاء حاجة فلما عاد ورأى الوضع قال: من الذي أمسك بصغارها فأحزنها بدعوا صغارها. وقد أحرق الصحابة رضي الله عنهم ذات مرة جحراً للنمل، ولما علم رسول الله صلى الله عليه وسلم بأن الصحابة فعلوا هذا قال: "لا يعذب بالنار إلا الله".

وهكذا لم يكن العرب يعلمون أنه مثلما أن السلوك الطيب مع الإنسان يستوجب الثواب كذلك يستوجب السلوك الطيب مع الحيوان الثواب، وبناءً على عدم علمهم هذا سأل أحد الصحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم قائلاً: إن الحوض الذي بنيته خاصة لجمالي ونوقي ترد إليه الجمال والنوق الضالة، أرأيت إن سقيتها يكون لي ثواب، فقال صلى الله عليه وسلم: إنك ستثاب على سقيتك للظمنان، وعلى كل عمل طيب مع كل ذي روح^(٣).

وجاء في حديث آخر "أن شخصاً كان ذاهباً في طريق فأصابه العطش، وعثر مصادفة على بئر فنزل فيه وشرب، وعندما خرج من البئر نظر فإذا بكلب يلهث من شدة العطش ويلعق الطين، فتذكر الرجل عطشه وأشفق على الكلب فنزل إلى البئر ثانية وسقى الكلب، فقبل الله عمله وغفر له". ولما سمع الصحابة هذه الواقعة قالوا: يا رسول الله صلى الله عليه وسلم هل نأخذ ثواباً لحسن معاملتنا للحيوان أيضاً، فقال صلى الله عليه وسلم: نعم.

^١ مسند ابن حنبل - الجزء الأول - ص ٢٩٦ عن عبد الله بن مسعود - رضي الله عنه - .

^٢ البخاري - الجزء الأول - كتاب الخلق - ص ٤٦٧. أخبرنا إسحق بن إبراهيم قال: أخبرنا الضر وهو ابن شمير قال: أخبرنا اشعث عن الحسن نزل بي من الأنبياء تحجت شجرة فلدغته غملة فأمر بيتهن فحرق على ما فيها، فلوحي الله إليه فهلا غملة واحدة.

^٣ أبو داود - كتاب الجهاد - باب في كراهة حرق العدو بالنار .

ومسلم: إن أي إحسان إلى كل ذي روح يستوجب للثواب ولا يتوقف الأمر على الحيوان فقط، وإنما يمتد إلى النباتات كذلك، إذ أن خدمتها ورعايتها يستوجب الأجر أيضاً، وهذا هو ما قاله صلى الله عليه وسلم من "أن المسلم الذي يغرس شجرة أو يزرع حقلاً ويأكل منه إنسان أو حيوان أو طير فإن هذا صدقة له" (١) أي أنه عمل يستوجب للثواب، وبعد إقرار هذا المبدأ الأساسي جاءت بعض المبادئ العملية التي تحدد السلوك مع الحيوان بمعنى أن:

١- أن يستخدم الحيوان في العمل الذي خلق له، ولهذا قال صلى الله عليه وسلم كان شخص يركب على ثور، فالتفت للثور إليه وقال لم أخلق لهذا، وإنما خلقت لحراث الحقل فقط (٢)، كما قال صلى الله عليه وسلم كذلك لا تتخذوا من ظهور حيواناتكم منبراً، فإن الله قد سخرها لكم حتى توصلكم إلى أماكن لا تصلونها إلا بشق الأنفس، وقد خلق الله الأرض لكم فاقضوا حاجاتكم عليها (٣)، ولأن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد خطب في بعض المواضع من فوق ظهر جمل، لهذا فإن معنى هذا الحديث يكون بأنه ليس من المناسب أن نركب ظهور الحيوانات بغير ضرورة، إذ أننا بهذا نؤذي الحيوان بغير داع، وإنما يركب ظهر الحيوان في السفر فقط .

٢- ينبغي الاهتمام براحة الحيوان، ولهذا قال صلى الله عليه وسلم إذا سافرتم في وقت الخسرة والنيوغة فأفيدوا جمالكم من خسرة الأرض، وإذا سافرتم في وقت القحط

^١ البخاري- كتاب الأدب- باب رحمة الناس والبهائم. حدثنا عبد الله بن يوسف: أخبرنا مالك، عن سمي، عن أبي صالح، عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (بينما رجل يمشي، فاشتد عليه العطش، ولول بئراً فشرب منها، ثم خرج فإذا هو بكلب يلهث، يأكل الثرى من العطش، فقال: لقد بلغ هذا مثل الذي بلغ بي، فملأ خفه ثم أمسكه بفيه، ثم رقى فسقى الكلب، فشكر الله له فغفر له). قالوا: يا رسول الله، وإن لنا في البهائم أجر؟ قال: (في كل كبد رطبة أجر).

^٢ البخاري- أبواب الحراث والمزارعة- باب فضل الزرع والقرى، إذ أكل منه. حدثنا محمد بن بشار: حدثنا غندر: حدثنا شعبة، عن سعد: سمعت أبا سلمة، عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (بينما رجل راكب على بقرة انفتت إليه، فقالت: لم أخلق لهذا، خلقت للحراثة

^٣ البخاري- أبواب الحراث والمزارعة- باب استعمال البقر للحراثة. حدثنا عبد الوهاب بن نجدة، ثنا ابن عياش، عن يحيى بن أبي عمرو السبائي، عن أبي مريم، عن أبي هريرة، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (يا أي أن تتخذوا ظهور دوابكم منابر، فإن الله إنما سخرها لكم لتليقكم إلى بلد لم تكونوا بالفيه إلا بشق الأنفس، وجعل لكم الأرض فليها فاقضوا حاجاتكم).

فأسرعوا في سفركم^(١) حتى لا يضييها أذى من قلة العلف في الطريق وذات مرة رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم جملًا التصقت بطنه بظهره من شدة الجوع فقال: "انقوا الله في هذه الحيوانات الخرساء، إذا ركبتم عليها فأحسنوا حالها، وإذا أكلتموها فأحسنوا إليها وكلوها"^(٢).

وذات مرة دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم بستان أخذ الأنصار لقضاء حاجة، وكان في البستان جمل بكى عندما رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم فاقترب منه رسول الله صلى الله عليه وسلم ووضع يده الشريفة على فكه وقال: لمن هذا للجمل؟ فأجاب شاب من الأنصار قائلاً: "إنه لي يا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال صلى الله عليه وسلم: ألا تتق الله في هذا الحيوان الذي ملكك الله إياه، لقد شكنا لني أنك تجيعه وتحمله ما لا يطيق"^(٣).

٣- حرم الإسلام ضرب الحيوان على وجهه وكذلك إحداث حرق فيه، وقرر أن من يفعل ذلك ملعون^(٤).

٤- منع الإسلام مسابقات التصارع بين الحيوانات، إذ يؤدي الحيوان فيها ويجرح بغير فائدة.

^١ مسلم - كتاب الإمارة - باب مراعاة مصلحة الدواب في السر والنهي عن التعريس في الطريق وأبو داود - كتاب الجهاد - باب ما يؤمر به من القيام على الدواب والبهائم. حدثنا تميم بن سعيد، حدثنا عبد العزيز يعني: ابن محمد عن سهيل، عن أبيه، عن أبي هريرة: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: إذا سافرت في الخصب، فأعطوا الإبل حظها من الأرض، وإذا سافرت في السنة، فبادروا بما نقيها، وإذا عرستم، فاجتنبوا الطريق، فإنما طرق الدواب، وماوى الهوام بالليل.

^٢ المرجع السابق. حدثنا عبد الله بن محمد النخعي، ثنا مسكين، يعني ابن بكير، ثنا محمد بن مهاجر، عن ربيعة بن يزيد، عن أبي كبشة السلولي، عن سهيل بن الحنفية قال: مر رسول الله صلى الله عليه وسلم ببعر قد لحق ظهره بطنه، قال: انقوا الله في هذه البهائم المعجمة، فاركبوها صالحة، وكلوها صالحة.

^٣ أبو داود - كتاب الجهاد - باب رسم الدواب. حدثنا موسى بن إسماعيل، ثنا مهدي، ثنا ابن أبي يعقوب، عن الحسن بن سعد مولى الحسن بن علي، عن عبد الله بن جعفر قال: أردفتني رسول الله صلى الله عليه وسلم خلفه ذات يوم، فأسر إلي حديثاً لا أحدث به أحداً من الناس، وكان أحب ما أسر به رسول الله صلى الله عليه وسلم لحاجته هذا أني خاشع لخل، قال: قد دخل حائطاً لرجل من الأنصار، فإذا جمل، فلما رأى النبي صلى الله عليه وسلم حن وذرفت عيناه، فقام النبي صلى الله عليه وسلم فمسح ذفره فسكت، فقال: من رب هذا الجمل؟ لمن هذا الجمل؟ فجاء فق من الأنصار فقال: لي يا رسول الله فقال: أفلا تقي الله في هذه البهيمة التي ملكك الله إياها، فإنه شكى إلي أنك تجيعه وتكليه.

^٤ أبو داود - كتاب الجهاد - باب في التحريش بين البهائم.

ولك أن تلقى نظرة ثانية على الصفحات السابقة وتعيد قراءتها لتعلم أن القلب الذي في صدر الإسلام قلب رقيق يمتلئ رحمة وشفقة وكرماً .
فضائل الأخلاق

من الصعب أن نحيط بكل جزئيات الأخلاق للحسنة وتفاصيلها وذلك لكثرتها وقد قسم الحكماء القدماء الأخلاق إلى قسمين، أحدهما أمهات الأخلاق، والثاني فروع الأخلاق، والمقصود بأمهات الأخلاق تلك الأركان الجوهرية للأخلاق، والتي تعد أصلاً ومرجعاً للقسم الثاني من الأخلاق، والتي ينتج عن الزيادة عليها أو للنقصان فيها أقسام أخرى للأخلاقيات، بينما يتولد عن الاعتدال فيها فضائل الأخلاق .

وطبقاً لهذا النوع من الأخلاقيات فإن هناك ثلاث قوى فطرية كامنة بداخل الإنسان هي القوة العلمية، والقوة الشهوانية، والقوة الغضبية، والاعتدال في القوة العلمية لدى الإنسان يجعلها حكمة، والاعتدال في القوة الشهوانية يجعلها عفة، والاعتدال في القوة الغضبية يجعلها شجاعة، أما عدم الاعتدال فيها جميعاً فهو ما نسميه بالردائل، ثم إن الأخلاق الحسنة والأخلاق السيئة ودرجاتهما المختلفة ينتجان عن الدرجات المختلفة أيضاً في هذين القسمين من الأخلاقيات .

وهذا التقسيم فلسفي محض، أو قل أنه نظري وعلمي، لكن مكانة الأخلاق في نظر الإسلام ليست علمية أو نظرية، وإنما عملية، لأن الهدف منها ليس أن يحصل الإنسان على علم الأخلاق فقط، وإنما لكي تجعل منه مطبقاً لفضائل الأخلاق ومتجنباً بشكل عملي لردائل الأخلاق، ولذا لا يبحث الإسلام في حقيقة الخلق الفلاني، وكيف تنتج عنه أخلاقيات أخرى، وإنما يبحث في كيفية جعل الإنسان ملتزماً بالأخلاق للحسنة ومتجنباً للأخلاق السيئة، ولهذا لم يتخذ الإسلام في تعاليمه أسلوب أهل الفلسفة فهو أصلاً ليس أسلوب الأنبياء في التعليم والتربية.

إن محور كل شيء في الإسلام سواء كان هذا الشيء متعلقاً بالعبادات أو بالعقيدة أو بالمعاملات هو رضا الله تعالى، فالعمل الطيب هو العمل الذي يحبه الله، والعمل السيئ هو العمل الذي يبغضه الله بصرف النظر عن أن العمل الذي يحبه الله تعالى به المزايا العقلية ويفيد البشر، وأن العمل الذي يبغضه به مساوئ عقلية ويؤذي البشر، ولهذا فإن الأخلاق في نظر الإسلام قسمان، أحدهما هو الأخلاق التي يحبها الله تعالى، وتسمى فضائل، والثاني هو الأخلاق التي يبغضها الله تعالى، وتسمى ردائل، وقد

أوردنا فيما سبق تحت عنوان الأخلاق والمحبة الإلهية التي توضح الصفات التي يحبها الله تعالى والتي يبغضها الله تعالى.

وقد أطلقنا الآن مصطلح الفضائل على تلك الصفات التي يحبها الله تعالى، وهي صفات كثيرة، وجاء التصريح بها في مواضع مختلفة في القرآن الكريم والأحاديث الشريفة، لكن مصنفنا الأخلاق الشرعية لم يضعوا لها ترتيباً واضحاً، ولذا لم نتضح أهميتها ودرجاتها، وأنا أظن أن أولى الفضائل في أسبقية الترتيب هي تلك التي تكون وصفاً لله تعالى، ووصف بها الرسل والأنبياء غالباً، وجاء التأكيد على أن يتصف بها المسلمون في الكتاب والسنة، والتي هي في ذاتها أساس لكثير من الصفات الأخلاقية الأخرى.

ورغم أن وضع ترتيب للفضائل طبقاً لهذا المعيار أمر صعب، وربما أدى إلى اختلاف بين المفكرين والمحققين، لكنني سأحاول أن أحقق نجاحاً في هذا الخصوص بالجد والاجتهاد.

قائمة مختصرة للفضائل:

لقد جاءت الفضائل التي يحبها الله تعالى، وقال إنها صفات للعباد الصالحين، أو وعد المتصفين بها بالمغفرة والعفو في القرآن الكريم والأحاديث النبوية تفصيلاً مثل :

" قد أفلح المؤمنون الذين هم في صلاتهم خاشعون، وللذين هم عن اللغو معرضون، والذين هم للزكاة فاعلون، والذين هم لفروجهم حافظون، إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين، فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون، والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون، والذين هم على صلواتهم يحافظون، أولئك هم الوارثون الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون" (المؤمنون: ١-١٠).

فالفضائل التي وردت في الآيات السابقة هي اجتناب اللغو والتمسك بالعفة والطهار، وضو الأمانة والوفاء بالعهد. وجاء في موضع آخر من القرآن الكريم قوله تعالى:

" ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتب والنبيين، وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفي الرقاب وأقام الصلاة وآتى

الزكاة والموفون بعهدهم إذا عاهدوا والصابرين في البأساء والضراء وحين البأس" (البقرة: ١٧٧).

فقد جاءت في الآية السابقة صفات للسخاء والوفاء بالعهد والثبات عند الأزمات. وقال تعالى في سورة (آل عمران):

" الصابرين والصادقين ولقائتين والمنافقين" (آل عمران: ١٧).

فجاء في الآية الثبات والصدق والكرم ومدمحا الله تعالى كما ذكر تعالى في نفس السورة أولئك المتقين الذين سيغفر الله لهم وسيدخلون الجنة عرضها السماوات والأرض :

" الذين ينفقون في السراء والضراء والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين" (آل عمران: ١٣٤).

فجاء في الآية السابقة مدح للكرم والعفو والمغفرة والإحسان وجاء في سورة (المعارج):

" والذين في أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم، والذين يصدقون بيوم الدين، والذين هم من عذاب ربهم مشفقون، إن عذاب ربهم غير مأمون، والذين هم لقروجهم حافضون، إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين، فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون، والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون، والذين هم بشهاداتهم قائمون" (المعارج: ٢٤-٣٣).

فجاء في الآيات السابقة صفات مخاء النفس والعفة والعصمة والأمانة والوفاء بالعهد والصدق في الشهادة، وعدها الله تعالى من فضائل المؤمنين والتي تدخل الجنة. وقد جاء في سورة الأحزاب ذكر لأولئك الرجال والنساء الذين وعدهم الله تعالى بعفوه وأجر عظيم:

" والصادقين والصادقات، والصابرين والصابرات، والخاشعين والخاشعات، والمتصدقين والمتصدقات، والصائمين والصائمات، والحافظين فروجهن والحافظات" (الأحزاب: ٣٥) .

فجاء في الآية الصدق والصبر والتواضع والعفة والطهارة، وقد ذكر الله تعالى صفات الصالحين في سورة (الفرقان) بقوله :

١- " وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا، وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً" (الفرقان: ٦٣).

٢- "والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواماً" (الفرقان : ٦٧) .

٣- "ولا يقتلون النفس التي حرم الله إلا بالحق" (الفرقان : ٦٨) .

٤- "والذين لا يشهدون الزور وإذا مروا باللغو مروا كراماً" (الفرقان : ٧٢) .

فقد جاء في الآية الأولى التواضع والتكامل وفي الآية الثانية الاعتدال والتوازن وفي الثالثة عدم الظلم والعفة وفي الرابعة للصدق والوقار والجدية ومنحها الله تعالى جميعاً وجاء في سورة الرعد ذكر لتلك الصفات التي ستنتفع في الآخرة :

"الذين يوفون بعهد الله ولا ينقضون الميثاق والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل ويخشون ربهم ويخافون سوء الحساب والذين صبروا ابتغاء وجه ربهم وأقاموا الصلاة وأنفقوا مما رزقناهم سراً وعلانية ويدعون بالحسنة السيئة أولئك لهم عقبى الدار" (الرعد : ٢٢) .

وقد يكون المقصود بالوفاء بالعهد هذا هو ذلك الذي يعقده العبد مع ربه كما يفهم منه أيضاً ذلك العهد الذي يكون باسم الله بين العبد والعبد والذي جاء الحكم بالوفاء به وهو من حقوق القرابة والمستحقين له وما عدا ذلك فقد جاء في تلك الآيات ثناء على أولئك الذين يقابلون السيئة بالحسنة أو يقضون على السيئة بالحسنة قال تعالى :

"تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً والعاقبة للمتقين" (القصص: ٨٣). أي لا يغترون ولا يتكبرون .

"والذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش وإذا ما غضبوا هم يغفرون" (البقرة : ٢٢١) .
بمعنى أنهم لا يفقدون السيطرة على أنفسهم حين الغضب وهم كذلك يغفرون .
"إن الله يحب المحسنين" (البقرة : ١٩٥) .

وهل هناك أعظم من فضيلة العدل والإنصاف من أنها وسيلة إلى حب الله ويدخل في استحقاق هذا الحب كل من يعمل عملاً صالحاً .
هذا وقد جاءت في الصفحات السابقة بشكل متفرق الأحاديث التي تتحدث عن الفضائل وسيأتي ذكر لها في موضعه فيما بعد .

للمصدق

وطبقاً للمعيار السابق فإن الفضيلة التي تستحق التقدم على رأس قائمة الفضائل الأخلاقية هي في رأيي الصدق ويأتي في ذيل هذه الفضيلة و كنتيجة منطقية و نفسية فضائل أخلاقية هامة أخرى .

والأساس في صلاح كل قول وعمل من أقوال الإنسان وأعماله أن يطابق قلبه لسانه ويتحداه وهذا هو ما نسميه بالصدق، والذي لا يتصف بالصدق يصبح قلبه عرضة لأن يكون مقراً لكل سوء، أما الصادق فإن مسيله إلى تحقيق أي عمل صالح سهل وميسور، يقال أن شخصاً جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال: يا رسول الله في أربع خصائل سيئة، أحدها أنني أفعل الفاحشة، والثانية أنني أسرق، والثالثة أنني أشرب الخمر، والرابعة أنني أكذب، ولك على أن تترك واحدة منها لأجلك، فقال صلى الله عليه وسلم: لا تكذب. وهكذا عاهد الرجل على ذلك، وحين جاء للليل أراد الرجل أن يشرب الخمر واستعد لارتكاب الفاحشة، فقال لنفسه بماذا أجيب رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا سألتني في الصباح إن كنت شربت الخمر أو ارتكبت الفاحشة؟ إن صدقته وقلت نعم سيقام على حد الخمر وحد الزنا، وإن كذبت سأكون قد خالفت العهد، وهكذا رجع الرجل عما عزم عليه، وحين تقدم الليل وساد الظلام أراد أن يخرج من البيت بفرض السرقة، لكنه توقف حين تذكر أنه سيسأل غداً فماذا يقول، لو صدق في قوله لقطعت يده حداً للسرقة، وإن كذب خالف العهد، فعاد عما عزم عليه، ولما طلع الصبح ذهب مسرعاً إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال: يا رسول الله لقد تخلصت من عاداتي السيئة كلها حين تخليت عن الكذب، ففرح رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك^(١).

ومهما كانت هذه الرواية ضعيفة من ناحية السند، إلا أنها صحيحة من حيث نتيجتها، فالصدق ينجي الإنسان من عادلت سيئة كثيرة، إذا أن الصادق يحاول دائماً التخلص من أي عادة سيئة فيه، سيكون مستقيماً صانعاً، إذا وعد أوفى، وإذا عاهد أتم عهده، سيكون شجاعاً نقي القلب، لا رياء فيه، ولا نفاق في قلبه، ولن يكون متناقض الظاهر والباطن، لن يكون مدهاناً، وسيكون محل ثقة الجميع، وسيعتمد الناس على أقواله وأفعاله، يفعل ما يقول، وهكذا فإن الصدق بكل المعايير صفة عظيمة، وهل هناك أصدق من الله، وقد قال الله تعالى فيما يتعلق بيوم القيامة :

"ومن أصدق من الله حديثاً" (النساء : ٨٧) .

وقال فيما يتعلق بالوعد بالجنة: "وَعِدَ اللَّهُ جَعاً، وَمِمَّنْ أُصِدِقَ مِنَ اللَّهِ قِيلاً" (النساء: ١٢٢).

^١ نقل الشيخ عبد العزيز الدعلوي هذه القصة في الضمير العزيز في تفسير سورة (ن) عن كتب السير، لكنني لم أعلم لها مصدر.

والله تعالى صادق، ولهذا فإن شريعته صادقة يقول: "ولنا لصادقون" (الأنعام: ١٤٦).

"قل صدق الله فاتبعوا ملة إبراهيم حنيفاً" (آل عمران: ٩٥) .

"والذي جاء بالصدق وصدق به أولئك هم المتقون" (الزمر: ٣٣) .

والمراد بالصدق في الآية الأخيرة شريعة الله وكتابه، لكن اللفظ يتسع لكل

صدق، ويعلم من هذا أن شأن المتقين هو الصدق، يقولون كل أمر صادق، ويؤمنون الصدق في كل أقوالهم وأعمالهم.

وأهل الإيمان عندما يرون بأعينهم صدق وعد الله ورسوله فإنهم يقولون :

"وصدق الله ورسوله" (الأحزاب: ٣) .

ولأن الرسل يتلقون العلم من الله لهذا هم أيضاً صادقون: "وصدق

المرسلون" (يس: ٥٢).

ويعلم من هذا أن الصدق هو أول صفات الأنبياء، لأنه إن خلا كلامهم ودعواهم ودلائلهم وأوامرهم من الصدق والعياذ بالله لانهارت عمارة نبوتهم بشدة، وقد وصف الله تعالى بعض الأنبياء بصفة خاصة بهذه الصفة، وأول هؤلاء هو داعي الملة الحنيفية سيدنا إبراهيم عليه السلام الذي وصفه الله بهذه الصفة فقال :

"واذكر في الكتاب إبراهيم إنه كان صديقاً نبياً" (مريم: ٤١) .

وكذلك سيدنا إدريس عليه السلام:

"واذكر في الكتاب إدريس إنه كان صديقاً نبياً" (مريم: ٥٦) .

والسيدة مريم التي لم تترد لحظة في تصديق كلام الله تعالى، فنالت هذا الوصف :

"وأمة صديقة" (المائدة: ٧٥) .

وقد صدق سيدنا يوسف في تفسير الحلم حتى سماه رفاقه بالصديق :

"يوسف أيها الصديق" (يوسف: ٤٦) .

وسيدنا إسماعيل الذي وفى بما وعد به أباه من الصبر والشكر فلقبه الله بصادق الوعد :

"واذكر في الكتاب إسماعيل إنه كان صادق الوعد وكان رسولاً نبياً" (مريم: ٥٤) .

وسيدخل جنة الرضوان أولئك الذين اتصفوا في الدنيا بالصدق وقول الحق جنباً

إلى جنب مع اتصافهم بالصفات الحسنة الأخرى :

"الصابرين والصادقين" (آل عمران: ١٧) .

ولولئك الذين وعدهم الله تعالى بمغفرته وأجره العظيم يأتي من بينهم بعد الإسلام والإيمان وطاعة الله الصادقون :

" إن المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات والقاتنين والقاتنات والصادقين والصادقات " (الأحزاب: ٣٥).

وسوف يقال للصادقون أجر الصديق في الحياة الآخرة وسيكون وسيلتنا للفلاح يومئذ قال تعالى فيما يتعلق بيوم القيامة :

" هذا يوم ينفع الصادقين صدقهم " (المائدة : ١١٩) .

وسوف ينعم الله تعالى على كل من يكون صادقاً يوم القيامة ويجزيه بصدقه :

" ليجزى الله الصادقين بصدقهم " (الأحزاب : ٢٤) .

وأهمية الصديق في الإسلام كبيرة جداً حتى أن الأمر لم يتوقف على الاتصاف به مرات عديدة وإنما جاء التأكيد على أن نقف دائماً مع الصادقين وأن تكون علاقاتنا دائماً مع جماعة الصديق وأن نعمل على صحبتهم حتى نتأثر بهم في صدقهم فنصدق وقد تحمل سيدنا كعب بن مالك ورفيقاه اللذان لم يستطيعا الخروج مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة تبوك كثيراً من المتاعب، وأثبتوا صدقهم حتى قال الله عنهم :

" يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين " (التوبة : ١١٩) .

والصادقون هنا في نظر أهل التفسير هم سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وكبار الصحابة والذين اختبروا في صدقهم مرات عديدة ومع ذلك فإن هذه الآية تتسع بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم وصحابته لتشمل كل المسلمين في كل زمان وتدعوا إلى صحبتهم .

وعادة ما يفهم من الصديق معنى قول الصديق فقط، لكن معناه في الإسلام واسع جداً بحيث يشمل العمل جنباً إلى جنب مع القول، وقد قسم الإمام الغزالي الصديق في كتابه إحياء علوم الدين إلى ستة أقسام دقيقة وشرح معنى كل واحد منها في ضوء القرآن والسنة وهذه الأقسام هي :

١- الصديق في القول .

٢- الصديق في الإرادة و النية .

٣- الصديق في العزم .

٤- الصديق في تنفيذ العزم .

٥- للصدق في العمل .

٦- الصدق في مراتب ومقامات التقوى .

لكن إذا توسعنا في المعنى قليلاً وجدنا أن كل أمور الصدق تستوعبها ثلاثة أقسام فقط، أي صدق اللسان وصدق القلب وصدق العمل .

صدق اللسان:

وهو أن لا يخرج من اللسان الصادق إلا للصدق ولا يخرج من الفم ما يخالف هذا الصدق، وهذا هو القسم العام والمعروف من الصدق، والذي يجب الالتزام به على كل مسلم، ويدخل في هذا القسم تحقيق الوعد وتنفيذ العهد، والالتزام بالقول وما اتفق عليه، وهذه هي أكبر علامة على الإيمان والإسلام، والعكس من ذلك يكون بمثابة نفاق القلب، وقد جاء في سورة (الأحزاب) :

" ليجزي الله الصادقين بصدقهم ويعذب المنافقين إن شاء " (الأحزاب : ٢٤) .

وقد جاء المنافق في هذه الآية مقابلاً للصادق، وهو ما يعلم منه أن الصدق هو رأس مال الإيمان، وأن الكذب هو أصل النفاق، وقد عبر رسول الله صلى الله عليه وسلم عن هذا المعنى بأساليب مختلفة، فقد روى مرسلًا عن صفوان بن سليم التابعي أن رجلاً سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم: أليكون المسلم عديم المروءة؟ قال: نعم، قال: أليكون بخيلاً؟ قال: نعم، ثم سأل: أليكون كذاباً؟ فقال صلى الله عليه وسلم: لا^(١) .

ويقول بعض الصحابة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: قد يتصف المؤمن بكل خصلة، ولكن ليس من بينها الخيانة والكذب^(٢)، بمعنى أن المؤمن قد توجد فيه كل الصفات السيئة ولكنه ليس من بينها صفة الخيانة أو الكذب، إذ أن جوهر الإيمان يخالفهما تماماً، ولهذا قال صلى الله عليه وسلم: " لا يكتمل إيمان أحدكم حتى يترك كل أشكال الكذب، حتى يكون مزاحه وشجاره صادقاً " ^(٣)، ويؤيد هذه الروايات ذلك الحديث المعروف

^١ موطأ الإمام مالك - باب ما جاء في الصدق والكذب. حدثني مالك عن صفوان بن سليم، أنه قال: قيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم: أليكون المؤمن جباناً؟ فقال: نعم، قيل له: أليكون المؤمن كذاباً؟ فقال: لا .

^٢ عن أبي إمامة عند أحمد، وعن سعد بن أبي وقاص عند البزار وأبي يعلى والطبراني في الكبير والبيهقي من حديث ابن عمر ، وقد روي مرفوعاً وموقوفاً .

^٣ مسند أحمد عن أبي هريرة، والطبراني وأيضاً مسند أبي يعلى عن عمر بن الخطاب، وقد أخذت هذه الأحاديث من باب الرغبة في الصدق من الجزء الثاني من كتاب الترغيب والترهيب للمحافظ المنذري. حدثنا عبد الله، حدثني أبي، حدثنا

الذي جاء في أكثر كتب الصحاح، إذ يقول الصحابي سيدنا عبد الله بن عمر رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: من كانت فيه أربع كان منافقاً خالصاً، ومن كانت فيه واحدة متين كانت فيه خصلة من النفاق، إلى أن يتركها، إذا اتّمتن خان، وإذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا تخاصم فجر" (١). وجاءت هذه الرواية في موضع آخر هكذا: آية المنافق ثلاث، إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا اتّمتن خان" (٢). وزاد في صحيح مسلم: حتى وإن صلى وإن صام ولادعى بأنه مسلم .

ويعلم من هذه الروايات أن الصدق يربى الإيمان وأن الكذب يربي النفاق، بمعنى أن عاطفة الخير والإيمان تبرز من تحري الصدق بينما يتولد النفاق والسوء بتحري الكذب، وقد قال صلى الله عليه وسلم: "الصدق يهدي إلى الجنة والكذب يهدي إلى النار ولا يزال الرجل يتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقاً، ولا يزال الرجل يتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذاباً" (٣).

صدق القلب:

أما القسم الثاني من الصدق فهو ما يتعلق بالقلب، وبهذا الاعتبار يصبح للصدق والإخلاص أمراً واحداً، ومن هنا فإن بعض الصدق الذي يخرج من اللسان يكون كذباً، لأنه لم يخرج من القلب، وقد جاء أحد المنافقين إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأقر بالرسالة المحمدية شفوياً أمامه صلى الله عليه وسلم، ولكن لأن هذا الإقرار كان يخالف ضميره لهذا قال تعالى: "والله يشهد أن المنافقين لكاذبون" (المنافقون: ١).

حسين أبو عمرو، حدثنا عبد العزيز، عن منصور بن زاذان، عن مكحول، عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: لا يؤمن العبد الإيمان كله حتى يترك الكذب من المزاح، ويترك المراء وإن كان صادقاً.

^١ صحيح البخاري - كتاب الإيمان، وصحيح مسلم وأبو داود والترمذي والنسائي. حدثنا قيس بن عبة قال: حدثنا سفيان عن الأعمش عن عبد الله بن مرة، عن مسروق، عن عبد الله بن عمرو: أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (أربع من كن فيه كان منافقاً خالصاً، ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها: إذا اتّمتن خان، وإذا حدث كذب، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر) .

^٢ صحيح البخاري - كتاب الإيمان وكتاب الأدب، وصحيح مسلم. حدثنا سليمان أبو الربيع قال: حدثنا إسماعيل بن جعفر قال: حدثنا نافع بن مالك بن أبي عامر أبو سهيل، عن أبيه، عن أبي هريرة، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا اتّمتن خان).

^٣ صحيح البخاري - كتاب الأدب. حدثنا عثمان بن أبي شيبة: حدثنا جرير، عن منصور، عن أبي وائل، عن عبد الله رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (إن الصدق يهدي إلى البر، وإن البر يهدي إلى الجنة، وإن الرجل ليصدق حتى يكون صديقاً، وإن الكذب يهدي إلى الفجور، وإن الفجور يهدي إلى النار، وإن الرجل ليكذب حتى يكتب عند الله كذاباً).

بمعني أنهم كاذبون في شهادتهم، فهم وأن شهدوا باللسان أن محمداً رسول الله صلى الله عليه وسلم ولكن هذه الشهادة وهذا الإقرار ليس خارجاً من القلب، ففي قلوبهم شيء وعلى ألسنتهم شيء آخر، ويعلم من هذا أن الصدق هو الترجمة الصادقة لما في القلب باللسان، وإذا لم يكن هكذا فهو نفاق إذاً وهو الذي نمة القرآن كثيراً، وقد جاء في حديث شريف أن هناك ثلاثة أشخاص سيمثلون أمام الله تعالى يوم القيامة وهم عالم وشهيد وثري، وكل واحد منهم يقوم ببيان علمه وشجاعته وسخاءه، ولكن الله تعالى مع ذلك يقول لهم إنكم تكذبون، وسيقول لهم الملائكة مثل ذلك، ورغم أن ما يقوله هؤلاء الثلاثة لن يكون على سبيل الكذب أو الخطأ، لكن لأن أعمالهم التي بينوها كانت خالية من الإخلاص، إذا كانت على سبيل الشهرة الدنيوية وليس لها عند الله أجر .

صدق العمل:

وصدق العمل هو أن يكون العمل الصالح مطابقاً للضمير، أو قل أن تتطابق الأعمال الظاهرة مع صفات الباطن، على سبيل المثال إذا أبدى شخص خشوعاً وخضوعاً في الصلاة، وكان هدفه الرياء فإن مثل هذا الشخص يكون مرء كذاباً، وهناك كذب عملي أكثر دقة من هذا وهو أن يبدي الشخص خشوعاً وخضوعاً في الصلاة، وليس ذلك على سبيل الرياء، لكن هذا الخشوع والخضوع الذي يبدي عليه لا يتطابق مع خشوعه وخضوعه الداخلي، وبالتالي فإن أعماله الظاهرية لا تعتبر تعبيراً صادقاً عن باطنه، ولذا فهم أيضاً غير صادقين في أعمالهم هذه، ومن الضروري أن يصدق اللسان أيضاً، ولهذا فإن المسلمين الذين جاهدوا في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم بعد أن آمنوا إيماناً لا يتزلزل هم عند الله صادقون، قال تعالى:

" إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله أولئك هم الصادقون " (الحجرات : ١٥) .

وهم صادقون لأن عملهم هذا يعكس حالتهم القلبية بصدق، فصدقوا بأعمالهم الإيمان الذي أقروا به بألسنتهم وقلوبهم، وصدق العمل هذا عدة مراتب، منها أن الإرادة التي عقدتها لا يجب أن يحدث فيها ضعف أو تردد، على سبيل المثال يظهر شخص ما إرادة لتنفيذ الأحكام الإلهية، ولكن عندما يأتي وقت الاختبار والابتلاء تضعف إرادته، ولهذا فإننا لا نستطيع أن نسمي هذا الشخص صادق العزم، إذ أن صادق العزم هو

تلك الشخص الذي يكون مؤمناً كاملاً ولا ينجح المنافقون في مثل هذا الاختبار والابتلاء، لأن قلوبهم تكون مريضة نظراً لعدم يقينهم ولهذا يقول الله تعالى :
" ويقول الذين آمنوا لو لا أنزلت سورة فإذا أنزلت سورة محكمة وذكر فيها القتال رأيت الذين في قلوبهم مرض ينظرون إليك نظر المغشي عليه من الموت، فأولى لهم طاعة وقول معروف، فإذا عزم الأمر فلو صدقوا الله لكان خيراً لهم " (محمد : ٢١) .

واعطي من هذه المرتبة لصدق العمل أن ينفذ الإنسان ما أقر به وتعاهد عليه وعزم على تنفيذه على أن يكون ذلك في الوقت الذي يتطلب ذلك دون تردد أو تأخير، إذ أنه من الممكن أن يعتقد الإنسان عزمًا صادقًا في وقت ما ولا يكون في هذا العزم أي ضعف، ولكن عندما يحين وقت تنفيذ هذا العزم يبدو فيه للضعف ولهذا فإن الله تعالى قد أطلق على أولئك الصحابة الكرام الذين عزموا عزمًا صادقًا ونفذوا هذا الوعد أنهم صادقون .

وهكذا فإنه عندما لم تنتج الفرصة لسيدنا أنس بن نضر رضي الله عنه للمشاركة في غزوة بدر فإنه تداركاً لهذا عزم على أن يحارب بشجاعة فائقة إذا ما أتيح له الاشتراك في أية غزوة قادمة، وشارك في غزوة أحد بعد غزوة بدر، واستشهد فيها بعد أن أصيب بحوالي ثمانين ضربة ما بين رمح وسيف، وكان هذا للوفاء بالعزم، ولهذا أنزل الله تعالى في شأنه هذا مثلاً رائعاً :

" من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلاً ليجزي الله الصادقين بصدقهم ويعذب المنافقين إن شاء أو يتوب عليهم إن الله كان غفوراً رحيماً " (الأحزاب : ٢٤) (١) .

وأرقى قسم من أقسام صدق العمل هو أن يكون ظاهر الإنسان وباطنه، أي كل حرف يخرج من لسانه، وكل عزم يعقده في قلبه، وكل حركة من عمله مظهراً كاملاً للحق والصدق. وقد سمي القرآن الكريم أمثال هؤلاء الناس بالصادقين، وهؤلاء لأن أعمالهم تصدق ما أقرت به قلوبهم، وتعلنه على الملأ ألسنتهم، ويشاهدونهم بعين اليقين، ومثل هذه الكيفيات نجدها في سير بعض الصحابة الكرام. ذات مرة قال أحد الصحابة لرسول الله صلى الله عليه وسلم: "أمنت بالله صادقاً، فقال صلى الله عليه وسلم: فكر وتبصر قبل أن تقول ذلك، لأنه لكل شيء حقيقة، فما هي حقيقة إيمانك، قال: أعرض قلبي عن الدنيا، ولهذا

^١ يعني أن تاب أولئك المنافقين و حسن إسلامهم فإن الله يعفو عنهم .

أقوم الليل وأصوم النهار، وكأنني أنظر إلى العرش الإلهي، وكأنني أرى أهل الجنة مع بعضهم البعض، وكأنني أرى أهل النار وهم يستغيثون، فقال صلى الله عليه وسلم: لقد علمت فعلاً فأبقي على ما أنت عليه " (١) .

وكان الصحابة للكرام يفهمون حقيقة الإيمان هذه، وينالون هذه الدرجة من الإيمان بصحبته لرسول الله صلى الله عليه وسلم، ذات مرة مر سيدنا حنظلة الأسدي بأكياً بسيدنا أبي بكر فسأله سيدنا أبو بكر: ما الأمر يا حنظلة؟ قال: حنظلة: لقد أصبحت منافقاً، إننا نكون عند رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يذكر الجنة والنار، وكأننا نراهما، ولكن عندما نعود إلى أولادنا وبيوتنا وننشغل في أمور الدنيا ننسى كل شيء، فقال سيدنا أبو بكر رضي الله عنه: هذا هو حالنا أيضاً، وذهب الاثنان إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقصوا عليه الأمر، فقال صلى الله عليه وسلم: لو استمرت هذه الحالة (حالة ذكر الله والجنة والنار) لصاغتكم الملائكة في مجالسكم، وإنما يكون هذا أحياناً " (٢)، وكان القرآن الكريم قد أشار إلى هذه الحقيقة في الآية التالية :

" كلا لو تعلمون علم اليقين " (التكاثر) .

ويعلم من هذا أن نتائج اليقين الناضج لا يمكن أن تتفصل عنه، وقد جاء ذكر هذا للقسم للراقي من الصدق في الآيات التالية من القرآن الكريم :

" ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتب والنبيين وأتى المال على حبه ذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفي الرقاب وأقام الصلاة وآتى الزكاة والموفون بعهدهم إذا

^١ أسد الغابة - تذكرة الخوارث بن مالك .

^٢ الترمذي - أبواب الزهد - حدثنا بشر بن هلال البصري - حدثنا جعفر بن سليمان عن سعيد الجريري - قال: حدثنا هرون بن عبد الله البراز - حدثنا سيار - حدثنا جعفر بن سليمان عن سعيد الجريري المعنى واحد عن أبي عثمان النهدي عن حنظلة الأسدي وكان من كتاب النبي صلى الله عليه وسلم، أنه مر بأبي بكر وهو يبكي، فقال: مالك يا حنظلة؟ قال: نافي حنظلة يد أبا بكر، نكون عند رسول الله صلى الله عليه وسلم يذكرنا بالنار والجنة كأننا رأي عين، فإذا رجعنا إلى الأزواج والضيعة نسيت كثيراً، قال: فوالله إنا لكذلك، انطلق بنا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فانطلقنا، فلما رآه رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: مالك يا حنظلة؟ قال: نافي حنظلة يا رسول الله، نكون عندك تذكرنا بالنار والجنة كأننا رأي عين، فإذا رجعنا عافسنا الأزواج والضيعة ونسيت كثيراً، قال: فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: لو تدومون على الحال الذي تقومون ١٤ من عندي لصاغتكم الملائكة في مجالسكم، وفي طرقكم، وعلى فرشكم، ولكن يا حنظلة ساعة وساعة.

عاهدوا والصابرين في البأساء والضراء وحين البأس أولئك الذين صدقوا وأولئك هم
المتقون * (البقرة : ١٧٧) .

وقد وصف الله تعالى للصادقين الذين ورد ذكرهم في هذه الآيات بثلاث
صفات، أولها كمال الإيمان، وثانيها للعمل الصالح، وثالثها تنفيذ ما عاهدوا عليه، والذين
يصلون إلى درجة الكامل في هذه الفضائل يطلق عليهم في لغة الشريعة كما سبق أن
أشرنا (الصدّيقون)، وهي أعلى مرتبة في الإنسانية بعد النبوة، ولهذا جاء اسم الصديق في
الآية التالية بعد اسم النبي مباشرة، وقال أن صحبة هذه الجماعة ورفقتهم طاعة كاملة لله
ورسوله :

" ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصدّيقين
والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً " (النساء : ٦٩) .

وجاء في سورة (الحديد) بعد الدعوة المتكررة إلى الجهاد بالمال والنفس والإيمان الكامل:
" والذين آمنوا بالله ورسوله أولئك هم الصدّيقون " (الحديد : ١٩) .

ويعلم من هذا أن درجة الصدّيقين ينالها الإنسان بالإيمان الكامل الذي لا ينفصل
أبداً عن العمل، وقد مر بنا فيما سبق حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم بأن الرجل لا
يزال يصدق حتى يكتب عند الله صديقاً، كما يعلم من ذلك أيضاً أن هذه الدرجة لا تتال
بالصدق مرة أو مرتين، وإنما ينبغي لها الثبات على الصدق واستمراريته .

وتعلم من هذا التفصيل أن تعاليم رسول الله صلى الله عليه وسلم أكدت على
الصدق وعمقه واتساعه، صدق اللسان، وصدق القلب وصدق العمل، وإذا كمل المسلم في
هذه الثلاثة فإنه يكون عندئذٍ مستقيماً وصادقاً .

للسخاء

ثم يأتي الأساس الأخلاقي الثاني في الإسلام بعد الصدق وهو السخاء، والسخاء
بمعناه الحقيقي هو أن تتنازل عن حق من حقوقك لآخر عن طيب خاطر، وله صور
متعددة منها العفو عن حق لك، وإعطاء ما توفر من مالك لآخر بدون اعتبار لحاجاتك
أنت، أن لا تلبي حاجاتك أنت وتعطي الآخرين، أن تبذل طاقتك الجسدية للآخرين، أن تبذل
طاقتك الذهنية للآخرين، أن تعرض كرامتك ونفسك للخطر في سبيل إنقاذ الآخرين أو في
سبيل حماية حق من حقوقك، وهذه كلها أقسام عليا ونظماً للسخاء، وقد وضع لكل منها اسم
مختلف للتمييز بينها .

ويعلم من هذا إلى أي مدى يتسع السخاء ليشمل معاني كثيرة، ويحيط بأخلاقيات ثانوية أخرى، وهدفها كلها أن يستفيد الآخرون منك، ومن الواضح أن هذا هو أساس معظم الأعمال الأخلاقية. وقد وصف الله تعالى في سورة (البقرة) بعض عباده المتقين بأوصاف منها أنهم : "ومما رزقناهم ينفقون" (البقرة: ٣)، وقد فهم بعض المفسرون من الإنفاق هنا الزكاة، إلا أن الصحيح هو أن هذه الآية ليست خاصة بالزكاة، وإنما مثلما لم يتم تخصيص هنا لمقدار الرزق نفسه، أو ثمار أم أنعام أم ذهب وفضة، أم أي جنس آخر فإنه لم يتم تخصيص ما ينفق في سبيل الله أيضاً، بمعنى أن العبد الذي أعطاه الله من فضله عليه أن يعطي منه ذلك الشخص الذي لم يعط مثله، أو أعطى أقل من حاجته. ويعلم من هذا أن على من أعطاه الله أن يعطي الآخرين الذين حرّموا العطاء، أو الذين يحتاجون هذا العطاء، وهذه من علامات المتقين و يطلق عليها في الاصطلاح الأخلاقي السخاء .

إن أهم ركنين من أركان الإسلام هما الصلاة والزكاة، والأصل الروحي للزكاة هو هذا السخاء والكرم، ويعلم من هذا أن مكانة هذه الصفة الأخلاقية في الإسلام مكانة أساسية، بمعنى أن مثلما أن عبادة الصلاة هي أساس الحقوق الإلهية فإن السخاء والكرم هما أساس كل حقوق العباد، وطالما لم تكن هذه الصفة في الشخص فإنه لا يمكن أن تتولد لديه عاطفة محبة الآخرين ومواساتهم ولشفقة عليهم، ولهذا فرض الإسلام الزكاة ليرز هذه الصفة، وللقرآن الكريم ملئ بمدح الإنفاق والإيتاء، وقد جاء تأكيد واضح ومتكرر في سورة (البقرة) على الإنفاق في سبيل الله، وفي بعض الأحيان جاءت كحلقة من حلقات الجهاد، قال تعالى :

" يا أيها الذين آمنوا أنفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتي يوم لا بيع فيه ولا خلة ولا شفاعة، والكافرون هم للظالمون " (البقرة : ٢٥٤) .

والجزء الأخير من الآية الكريمة هذه يستحق التمعن والتفكير، إذ يمكن القياس عليها أن الشخص الذي لا يلقي بالآخرة ولا ينفق شيئاً في سبيل الله يكون قد اقترب من الكفر، أو أنه يكفر بالنعمة حيث أنه لا ينفق في سبيل الله بعضاً مما رزقه الله شكراً على هذا الرزق .

هذا وقد حث الله تعالى عباده في هذه الآية على الإنفاق من الرزق في سبيل الله بأسلوب مؤثر للغاية قائلاً: أيها الناس، أنفقوا بعضاً مما رزقناكم نحن لنشتروا به رحمة

الله وحبه حتى ينفكم في ذلك اليوم الذي لن تستطيعون فيه شراء رحمة الله أو النجاة من عذابه بأموالكم ولا بالوساطة أو الصدقة أو غيرها .

وعلى من ينفق في سبيل الله أن يكون مخلصاً فلا يقصد من إنفاقه أن يمن على أحد، أو أن يمدحه أحد، وقد قال الله تعالى لرسوله: "ولا تمنن تستكثر" والله تعالى سبب من ينفق مخلصاً وسوف ينجيهِ من أهوال القيامة ومخاوفها يقول تعالى:

"الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله ثم لا يتبعون ما أنفقوا من أجلهم لجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون" (البقرة : ٢٦٢) .

ثم قال بعد ذلك أنه لا يحب أن يكون ما تنفق هو أقل الأشياء بحيث يظهر دناءة النفس بدلاً من عظمته قال تعالى :

"يا أيها الذين آمنوا أنفقوا من طيبات ما كسبتم ومما أخرجنا لكم من الأرض، ولا تيمموا الخبيث منه تنفقون ولستم بآخذيه إلا أن تغمضوا فيه" (البقرة : ٢٦٧) .

بمعنى أن الشيء الذي تحبون أخذه راضين فرحين عليكم أن تنفقوه أيضاً راضين فرحين، وطالما لم تفعلوا ذلك فإنكم لن تستطيعوا الفوز بهذا الجوهر الأخلاقي الذي يسمى الخير والكرم. قال تعالى :

"لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون، وما تنفقوا من شيء فإن الله به عليم" (آل عمران: ٩٢). أي أن الله عليم بحال القلوب، ويعلم نيتكم وأي نوع من المال تبذلونه، وإن كانت حقيقة كل هذا خافية على الآخرين، إلا أنها لا تخفى على العليم بذات الصدور، ولهذا فإنه ينعم بالأجر والثواب كامليين، وهكذا يعود ما تبذلونه في الصدقات عليكم بالنفع وعلى المستوى الدنيوي فإن ما تبذلونه لتقوية أعمال المجتمع ومساعدة المحتاجين والمساعدة في الجهاد بكل هذا يقوى به المجتمع بل إن فيه حياته وأنتم عضو في هذا المجتمع، ومعلوم في الدين أن ثواب الخير يكون لمن يقوم به قال تعالى: "وما تنفقوا من خير فلا أنفسكم وما تنفقون إلا ابتغاء وجه الله، وما تنفقوا من خير يوف إليكم وأنتم لا تظلمون" (البقرة: ٢٧٢). ولهذا فإن ما ينعم الله به من ثواب في الدنيا ينعم به في الآخرة مكتملاً وزيادة، وقد عبر الله تعالى عن هذا الأمر في القرآن الكريم بالقرض فقال:

"من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً فيضاعفه له أضعافاً كثيرة" (البقرة : ٢٤٥) .

"من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً فيضاعفه له، وله أجر كريم" (الحديد : ١١) .

ثم يقول تعالى بعد ذلك :

" إن المصدقين والمصدقات وأقرضوا الله قرضاً حسناً يضاعف لهم ولهم أجر كريم " (الحديد: ١٨).

وأحياناً يأتي هذا الأمر في صورة الأمر: "وأقرضوا الله قرضاً حسناً" (المزمل: ٢٠).

وقال القرض الحسن لأنه يعطى بإخلاص، ولا يطالب المقرض من اقترض منه بأية مصلحة دنيوية في مقابل هذا الأمر، ولا يمن عليه أن أقرضه بل ولا نية لديه في ذلك. وقد كرر القرآن الكريم للمسلمين ذلك العهد الذي كان الله قد قطعته على بني إسرائيل، وتأتي فيه الزكاة بعد الصلاة والإيمان، وآخر ما جاء فيه قوله تعالى: "وأقرضتم الله قرضاً حسناً" (المائدة: ١٢). وبالتالي تكون نتيجة هذه الأمور كلها :

" لأكفرن عنكم سيئاتكم ولأدخلنكم جنات تجري من تحتها الأنهار " (المائدة : ١٢) .
وذلك النبوي الذي آمن على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكان ينفق في أعمال الخير بحسن نية محبة الله تعالى بقوله :

" ومن الأعراب من يؤمن بالله واليوم الآخر ويتخذ ما ينفق قربات عند الله وصلوات للرسول " (التوبة: ٩٩).

وقد بشر الله تعالى أمثال هؤلاء للحكماء بقوله :
" ألا إنها قريبة لهم، سيخلهم الله في رحمته، إن الله غفور رحيم " (التوبة : ٩٩) .
وقد وعد الله تعالى المتقين الأسخياء بمغفرته وجنته الواسعة، وحثهم على المسارعة إليها :

" وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السماوات والأرض أعدت للمتقين الذين ينفقون في السراء والضراء " (آل عمران: ١٣٣). وضرب الله مثلاً في سورة (البقرة) لما ينفق في سبيل الله لزال فيه للتعجب من أن ثواب صدقة بسيطة يكونضاعفاً مضاعفة هكذا فقال :

" مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبة أنبئت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة، والله يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم " (البقرة : ٢٦١) .

ومتلما أن حبة واحدة تصير مئات للحبات، فإن ثواب بذرة واحدة تنبت مئات الحبات، والله هو الواسع وليس من الصعب عليه أن تصبح الواحدة عنده مائة، وهو العليم أيضاً بمن أنفق بنية حسنة وفي نهاية هذا الركوع من السورة ضرب الله مثلاً آخر لمن

ينفقون ابتغاء مرضاته بنية حسنة فقال: "ومثل الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضات الله وتثبيتاً من أنفسهم كمثل جنة بربوة أصابها وابل فأنت أكلها ضعفين فإن لم يصبها وابل فطل والله بما تعملون بصير " (البقرة : ٢٦٥) .

والمراد من الربوة المرتفعة في هذا المثال النية الحسنة ومن المطر للزيادة ومن الطل القليل الإنفاق ومن الأكل الثواب، وكأن الحديقة إن كانت في أرض صالحة ولم تلق الماء الكافي فإنها بالرغم من ذلك تنبع بقليل من الرطوبة والطل، وهكذا فإن القليل الذي ينفق في سبيل الله يكون ثوابه مئات مثله، والله يعلم كل شيء، ويعلم بالتالي نوايانا وخفائهما .

وقد أوضح الله تعالى في سورة الليل المستوى للرفع من الإنفاق ومدى طهارته ونقاؤه فقال :

" فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى " (الليل : ٧) .
" وسيتجنبها الأنقى الذي يؤتي ماله يتزكى، وما لأحد عنده من نعمة تجزى إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى، ولسوف يرضى " (الليل : ٢١) .

فالأية الأولى توضح أن التعود على الإنفاق في سبيل الله يخلق روح الطاعة والعبادة أو العمل الصالح، وكل هذا يبسر على الإنسان القيام بكل عمل صالح، أما مدى فائدة هذه العادة الطيبة فهو ما أوضحته الآية الثانية والتي قالت بأن المتقين الذين اعتادوا الجود والسخاء تحرم عليهم نار جهنم، ولكن بشرط أن لا يكون وراء هذا الجود والسخاء أي مصلحة دنيوية أو القصد إلى رد الإحسان إلى أحد ما، أو غير ذلك من الأعمال غير الخالصة لوجه الله، وإنما تلك التي يقصد بها الله فقط، والتطهر من دنس المال وسوف يجزيه الله تعالى لقاء هذا بأن يسعده وهناك إشارة في هذه الآية الثانية إلى أن أثر هذه العادة الطيبة أنها تطهر القلوب .

إن حب المال والثروة يعد بمثابة ذلك الغبار للكثيف الذي يلوث مرآة للقلب بعد الكفر والنفاق، ويمنع الإنسان من قبول الحق، وتاريخ الإصلاح في العالم كله يشهد بهذا، ولهذا عندما بدأ الإسلام دعوته وعمله الإصلاحي أراد أولاً أن يغسل القلوب من هذا الدنس، وأنتى صراحة على الجود والكرم والسخاء والإنفاق، وتم الحرص والطمع والبخل، وحاول أن يكون أثر تعاليمه هذه هو أن يزول حب المال والثروة تماماً من قلوب متبعيه :

" ويل لكل همزة لمزة، الذي جمع مالا وعدده، يحسب أن ماله أخذه " (الهمزة : ١-٣) .

وفي آية أخرى لهم الكافرين بحب المال: "وتحبون المال حباً جماً " (الفجر : ٢٠) .

وهذا الحب للمال هو الذي يمنع من السير على طريق الخير، ويظن الإنسان أنه إن اختار هذا الطريق فسوف تنقص ثروته، وينفق ماله، وقد أوضح الله تعالى هذه الوسوس للشيطنية فيما يتعلق بالإنفاق بقوله: "الشیطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء، والله يعدكم مغفرة منه وفضلاً، والله واسع عليم " (البقرة : ٢٦٨) .

وهناك ثروة عظيمة تسمى في الاصطلاح القرآني (الحكمة) وهي مفتاح القلب الذي تنفتح به خزائن العلم والعمل المغلفة، ولا يستطيع أحد الحصول على هذه الثروة طالما لم يتخلص قلبه من حب مال الدنيا وثروتها، ولهذا قال الله تعالى بعد الآية السابقة مباشرة :

" يؤتي الحكمة من يشاء، ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً " (البقرة : ٢٦٩) .

بمعنى أن هذا الوهم الشيطاني من أننا سنفقّر بالإنفاق لا يزيد عن كونه وهم، وأن وعد الله تعالى بأن يفتح أبواب فضله وكرمه صحيح صادق، وهذا كله من أمور الحكمة .

وقال تعالى في آية أخرى أن حب المال والثروة اختبار والنجاح في هذا الاختبار شرط للفلاح، ثم قال وعليكم أن تتخلصوا من شح أنفسكم، لأن الشرط الأول في تحقيق أي أمر عظيم هو التضحية بالمال والنفس، ومن يثبت في هذا الميدان فقد أفلح، ومن اهتزت قدماه فقد خاب :

" إنما أموالكم وأولادكم فتنة، والله عنده أجر عظيم، فأتقوا الله ما استطعتم، واسمعوا وأطيعوا وأنفقوا خيراً لأنفسكم، ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون، إن ترفضوا الله قرضاً حسناً يضاعفه لكم، والله شكور حلیم " (التباين : ١٧) .

وهكذا جاء في هذه الآيات أن الإنفاق وعمل الخير هو مفتاح الفلاح، وهو ما يتطابق حرفاً حرفاً مع تاريخ الإصلاح لدى الإنسانية، وورقي الأمم في جانب كبير منه يتوقف على إنفاق المال في أعمال الخير، وتقسيمه بين من هم في حاجة إليه، أي في حاجات المجتمع وأفراده الذين لا يقدرّون على الكسب، وفائدة هذا أن لا تتجمع الثروة عند شخص واحد فقط، وينجوا الناس من تضخم ثروات البعض، ولا يتردد الناس في

أعمال الخير بخلاً وطمعاً، وهذا أحد الأهداف الكبرى من تعاليم الإسلام حول الإنفاق. أما ما يمنع الإنسان من الإنفاق فهو أمران لا طائل من ورائهما :

* لماذا أعطي ما أملك للآخرين ؟. * إن أعطيت الآخرين قل مالي، وسأفقدته عند الحاجة فيؤذيني ذلك .

وقد قضى الإسلام بتعاليمه على هذه الوسوس بقال وأكد على متبعيه بأن هذا المال ليس ملكاً لأحد منا، وإنما هو ملك لله فقط، هو مالكه، ولهذا يجب أن ينفق في سبيله :

" وما لكم لا تتفقون في سبيل الله والله ميراث السماوات والأرض " (الحديد : ١٠) .

ونم البخل قائلاً :

" ولا يحسبن الذين يخلون بما آتاهم الله من فضله هو خيراً لهم، بل هو شراً لهم سيطوفون بما بخلوا به يوم للقيامة، والله ميراث السماوات والأرض " (آل عمران : ١٨٠) . كما جاءت الآية التالية في مواضع متعددة في القرآن الكريم بتغيير طفيف في الألفاظ :

" والله ما في السماوات والأرض " .

ونفس الشيء بالنسبة للآية التالية : " له ملك السماوات والأرض " .

وقد أراد المنافقون أن يوقفوا مساعداتهم المالية لرسول الله صلى الله عليه وسلم وللإسلام بالحيلة والتأمر حتى يتفرق المسلمون الذين تجمعوا إذا لم يجدوا مصادر إنفاق، وقد أطلع الله تعالى رسوله الكريم على مؤامرة المنافقين هذه، وبأنفس الوقت رد على المنافقين زعمهم الباطل من أنهم هم مصدر الإنفاق في الإسلام، فقال :

" هم الذين يقولون لا تتفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا، والله خزائن السماوات والأرض، ولكن المنافقين لا يفقهون " (المنافقون : ٧) .

وقد كان المنافقون يعتقدون أن هذه الأموال التي ينفق منها على الدعوة النبوية تعتمد عليهم، فقال الله بأن هذا الاعتقاد خاطئ، وأن ما في السماوات والأرض من ثروات هي لله، وهو يعطي من يشاء، وقد أبطل الله تعالى فكرتهم هذه مرات عديدة قائلاً :

" له مقاليد السماوات والأرض، يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر، إنه بكل شيء عليم " (الشورى : ١٢)

ومن المسلم به أن سعة الرزق وضيقه ما هما إلا طريقين متوازيين لابتلاء الإنسان، فإذا كان الأول امتحاناً للسخاء والإيثار وعدم التعلق بالمال والشكر فإن الثاني اختبار للقناعة وعدم الطمع والصبر قال تعالى :

" فأما الإنسان إذا ما ابتلاه ربه فأكرمه ونعمه فيقول ربي أكرمن، ولما إذا ما ابتلاه فقصر عليه رزقه فيقول ربي أهانن، كلا " (الفجر : ١٧) .

للمهم أن سعة الرزق و ضيقه كلاهما من الله تعالى، وله في ذلك حكمة، وقد يعتقد الغني أن به ميزة خاصة هي السبب فيما هو فيه من غني، أو أنه يعرف طريقة وفن الحصول على الثروة التي تحيط به، ويكفي لإزالة هذا اللغيم للخطي أن تلقى نظرة متأنية على أحداث الدنيا بعيداً عن التعاليم الدينية، لكن قصيري النظر من البشر لا يلتفتون إلى هذه الناحية، وقد رسم القرآن الكريم خريطة لهذه الجبلية الإنسانية وأثبت خطأها :

" فإذا مس الإنسان ضرر دعائهم إذا حولناه نعمة منا قال إنما أوتيته على علم بل هي فتنة، ولكن أكثرهم لا يعلمون، قد قالها الذين من قبلهم فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون فأصابهم سيئات ما كسبوا، والذين ظلموا من هؤلاء سيصيبهم سيئات ما كسبوا وما هم بمعجزين. أو لم يعلموا أن الله ييسر الرزق لمن يشاء ويعسر، إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون " (الزمر: ٤٩) .

ورزق كل حي على الله، فإذا ما تيقن الإنسان من ذلك صار من السهل عليه أن يكون سخيّاً كريماً، وقد أكد الإسلام هذه الحقيقة للبشرية قائلاً :

" وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها ويعلم مستقرها ومستودعها، كل في كتاب مبين " (هود: ٦) .

والأمر الثاني أن تيقن الإنسان أن ما يناله الآخرون من أرزاقنا إنما هو مكتوب لهم وهو لهذا لهم وليس لنا، وقد أراد الإسلام أن يتشرب متبعوه هذه المسلمات لكي يخلق بداخلهم جوهر الكرم والسخاء، إذ أن الله تعالى هو الذي يرزق الجميع، والله تعالى يتساعل قائلاً :

" ومن يرزقكم من السماء والأرض، أعله مع الله " (النمل : ٦٤) .

وهو الذي يمنح الرزق : " إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين " (الذاريات : ٣) .

وقد شرح رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه التعاليم بطرق مختلفة ومؤثرة، وأكد عليها، فقال: "لا تقتروا وإلا قتر الله عليكم" ^(١) (بمعني أنه عليكم أن لا تتوقفوا عن الإنفاق وإعطاء الآخرين، وإلا منعكم الله ولم يعطكم، وذات مرة سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم الصحابة قائلاً: "من منكم يحب مال ورثته أكثر من ماله؟" فقال للناس: لا أحد منا يا رسول الله يحب مال ورثته أكثر من ماله، فقال صلى الله عليه وسلم: إذا فمالك هو ما ترسله أمامك، وما تركت خلفك هو مال الورثة " .

وذات مرة قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية: "ألهاكم التكاثر"، ثم قال: إن ابن آدم يقول مالي مالي، ومالك هو الذي تصدقت به لو أكلته فأفنيته، لو لبست فأبليتة". وقال صلى الله عليه وسلم لأبي ذر رضي الله عنه: "يا أبا ذر، ما أحب أن يكون لي مثل أحد ذهباً، وأن يبقى منه لدي دينار واحد بعد يومين، ولكني أتركه لسوء دين، وأنا سأقول قسموه بين عباد الله يمناً ويسرة"، ثم قال صلى الله عليه وسلم: نعم من كان لديه هنا سيكون لديه هو يوم القيامة أقل، لكنه يقول: قسموه هكذا يمناً ويسرة".

وقال صلى الله عليه وسلم لا حسد إلا في اثنين: رجل آتاه الله مالاً فهو ينفقه في الحق، ورجل آتاه الله علماً فهو يعمل به ويعلمه " .

ويعلم من الجزء الأول من هذا الحديث أن السخاء اسم للإعطاء في الحق، وأن ما لا يكون في مصرفه الصحيح أو يزيد عن حده فهو إسراف وتبذير، نمة الله تعالى في القرآن وقال إن خطي المسلم معتلة لا تخرج عن الاعتدال، وسوف يأتي بيان هذا تفصيلاً عند الحديث عن الإسراف واليخل .

وليس من السخاء أن تبقي ملتصقاً بما جمعه طيلة العمر، فإذا ما جاء الموت وتيقنت أن العمر قد انتهى فتضرب عندئذ كفاً بكف وتتمني لو أعطيت فرصة فتتفق هذا المال في عمل الخير، وقد صور القرآن الكريم هذا للعجز لدى الإنسان بأسلوب مؤثر، ونصح المسلمين بأن ينفقوا حال حياتهم :

" وأنفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتي أحدكم الموت فيقول رب لولا أخرتني إلى أجل قريب فأصدق وأكن من الصالحين " (المنافقون : ١٠) .

وأجاب الله تعالى عليه بقوله :

^١ صحيح البخاري-كتاب الرقاق-باب قول النبي صلى الله عليه وسلم: (ما يسرني أن أعدي مثل أحد

هذا ذهباً)

" ولن يؤخر الله نفساً إذا جاء أجلها والله خير بما تعملون " (المنافقون : ١١) .

ولهذا فإنه ينبغي إتفاق ما تريد إنفاقه في وقته الصحيح وقد سأل رجل رسول الله صلى الله عليه وسلم قائلاً: أي الصدقات أعظم؟ فقال صلى الله عليه وسلم أن تتصدق ولنت بصحة جيدة ولديك رغبة في المال وأمل في الحياة ولا تتأخر في الإنفاق إلى أن تبلغ الروح الحلقوم فتقول أعطوا فلاناً كذا بينما سوف يصير هذا فلان هذا بعد موتك . (١)

وقال صلى الله عليه وسلم يا بن آدم الإنفاق خير لك وجمع المال وتركه شر لك .

العفة والطهارة

العفة والطهارة هما روح كل تلك المميزات الأخلاقية التي تتعلق بالشرف والكرامة، ولهذا عدهما الإسلام من المحاسن الأخلاقية التي هي بمثابة النور لوجه المسلم، ولهذا جاء ذكر هذه الصفة الأخلاقية مع الصفات المميزة للمسلمين في سورة (المؤمنين) :

" والذين هم لفروجهم حافظون إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون " (المؤمنون : ٥-٧) .

كما جاءت صفة العفة والطهارة أيضاً ضمن التعريف الذي ورد في سورة (المعارج) للمسلمين :

" والذين هم لفروجهم حافظون " (المعارج : ٢٩) .

والذين يتسمون بالعفة وطهارة الذل تضمنهم قائمة الذين وعدهم الله بعفوه وأجره العظيم :

" والحافظون فروجهم والحافظات " (الأحزاب : ٣٥) .

ويعلم من الآيتين السابقتين أن القرآن الكريم قد استخدم مصطلح (حفظ الفروج) للتعبير عن العفة والشرف والحفظ بمعنى الرعاية والحراسة، والفروج تحمل في معناها استعمالاً مجازياً، وكم من الألفاظ التي تستخدم في بداية أمرها بشكل مجازي

^١ صحيح مسلم - ٣٠١ - باب بيان الفضل الصدقة - حدثنا زهير بن حرب، حدثنا جرير عن عمارة بن القعقاع، عن أبي زرعة، عن أبي هريرة، قال: أتى رجل رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله أي الصدقة أعظم؟ فقال: أن تصدق وأنت صحيح شحيح، تحشى الفقر وتأمل الغنى، ولا تهمل حتى إذا بلغت الحلقوم قلت: فلان كذا، وفلان كذا، ألا وقد كان لفلان.

لتجنب ما فيها مما قد يستحي منه الإنسان، ثم بعد ذلك لم يعد لها هذا الأثر لكثرة استعمالها، والمعنى الأصلي للفروج هو الفراغ والخلاء بين شيئين، ولهذا يطلق أيضاً على تلك المناطق الحنودية التي يخشى من غارات الأعداء من خلالها، ويطلق هذا اللفظ في الأعضاء الإنسانية على ذلك الخلاء الموجود بين الرجلين، والذي يخشى عليه من هجوم الأعداء، ويحتاج إلى حراسة وحفظ دائم، ويتضح من هذا الأسلوب في التعبير أن تصور العفة والشرف المرتبط بهذه الألفاظ يحمل معنى عميقاً ورفيعاً .

وقد استخدم القرآن الكريم لفظاً آخر للعفة والشرف وهو (الإحصان) وهو مشتق من (حصن) والذي يعني القلعة ومنه ألفاظ (حصان، إحصان، محصن) ولم يرد اللفظ الأول في القرآن الكريم لكنه جاء في أشعار العرب، ويعني المرأة العفيفة، ومعنى اللفظ الثاني هو الحفاظ على والحماية، وقد جاء هذا اللفظ في ثلاثة مواضع في القرآن الكريم مرتين فيما يتعلق بالسيدة مريم رضي الله عنها، وجاء في صيغة الماضي المعروف :
" ومريم ابنة عمران التي أحصنت فرجها " (للتحريم : ١٢) .
" والتي أحصنت فرجها فننفخنا فيها من روحنا " (الأنبياء : ٩١) .

أما المرة الثالثة التي ورد فيها هذا اللفظ فجاءت بصيغة المبني المجهول، وتعني أن الزوج بزواجه منها حافظ عليها وحماها، وفيما يتعلق بالإماء أن من ارتكبت الفاحشة منهن بعد زواجها فمأذاً يكون عقابها، قال تعالى: " فإذا أحصن " (النساء : ٢٥) .
ومن هذا اللفظ يأتي اسم الفاعل (محصن) أي الذي ينشر ويوفر حمايته لأحد واسم المفعول (محصنة) وهي التي تظللها حماية آخر، وجاء فيما يتعلق بالنكاح قوله تعالى :
" محصنين غير مسافحين " (النساء : ٢٤) .
" محصنات غير مسافحات " (النساء : ٢٥) .

بمعنى أن الهدف من النكاح هو أن تظل المرأة بالحماية والعصمة، وليس الهدف من النكاح قضاء الشهوة الحيوانية، ولهذا جاء لفظ (محصنات) في القرآن الكريم في معنيين، الأول النساء المتزوجات مثل " والمحصنات من النساء " (النساء : ٢٤) .
والثاني الفتيات الشريقات العفيفات مثل :
" ومن لم يستطع منكم طويلاً أن ينكح المحصنات المؤمنات " (النساء : ٢٥) .
وقد استعمل القرآن الكريم محاوره أخرى في بيان عصمة النساء بقوله :
" حافظات للغيب " (النساء : ٣٤) .

يعني اللاتي يحافظن على شرف وعرض أزواجهن في غيابهم .
والحقيقة أن مكانة العفة والشرف في الإسلام كبيرة بحيث أنها تمثل جزء لا يتجزأ من النبوة والرسالة، والأنبياء ونسبهم وآل بيتهم طاهرون دائما من مثل هذه الأمور، وقد اتهم اليهود أم سيدنا عيسى عليه السلام زورا، ورد القرآن الكريم -إيهم هذا الاتهام وشهد بعفتها وطهارتها، وصرح بهذه الشهادة في موضعين :
" ومريم ابنة عمران التي أحصنت فرجها " (التحريم : ١٢) .
" والتي أحصنت فرجها فنفخنا فيها من روحنا " (الأنبياء : ٩١) .
وقد شهدت زوجة عزيز مصر بعة يوسف عليه السلام:
" ولقد راودته عن نفسه فاستعصم " (يوسف : ٣٢) .
وقال تعالى "لنصرف عنه للسوء والفحشاء إنه من عبادنا المخلصين" (يوسف : ٢٤) .
ويعلم أن العباد الذين يختارهم الله تعالى ويصطفيهم يكونون أطهارا دائما من مثل هذه الأمور، وقد جاء في شأن سيدنا يحيى :
" وسيدا وحسورا ونبييا من الصالحين " (آل عمران : ٣٩) .
أما في الإسلام فقد كانت حياة آل بيت النبي صلى الله عليه وسلم مثالا للعصمة والعفة والطهارة، وقد شهد عالم الغيب بذلك فقال :
" أولئك مبرأون مما يقولون لهم مغفرة ورزق كريم " (النور : ٢٦) .
وقد جاء في القرآن الكريم عكس العفة والشرف وهو الفاحشة، وتعني أمرا سيئا عظيما مثل قوله تعالى: "إلا أن يأتين بفاحشة مبينة" (الطلاق:١).
" واللاني يأتين للفاحشة من نساءكم " (النساء : ١٥) .
والاسم العربي المعروف لهذا السوء هو (الزنا)، وقد منع القرآن الكريم المسلمين من ارتكاب هذا الإثم في الآيات التالية :
" ولا تقربوا الزنا إنه كان فاحشة ومقتنا وساء سبيلا " (الإسراء : ٣٢) .
والطريقة التي قدمت بها هذه النصيحة تعد روحا للبلاغة، فلم يقل الله تعالى (ولا تزنا)، وإنما قال "ولا تقربوا الزنا"، وهذا الأسلوب لم يؤكد على منع فعل الزنا فقط، وإنما منع الاقتراب منه أيضا، ويعلم من هذا أنه مثلما أن الابتعاد عن الزنا شرف، فإن الابتعاد عن مقدماته وما يقرب منه شرف أيضا، مثل النظر إلى غير محرم بعيون طامعة، أو برغبة محرمة، أو الخلوة به أو لمس بدنه بغير سبب أو الاستمتاع بمحادثته ومجيئه

وذهابه، أو ما شابه ذلك من الحركات غير الشريفة بكل هذا ينافي الكرامة الإيمانية والشرف الأخلاقي .

ولهذا حرم الإسلام كل تلك الأمور التي تقرب إلى الفاحشة وتمهد لها، والنظر هو أول رسول للعلاقة والحب غير الشرعي بين الرجل والمرأة وقد أمر الله تعالى المسلمين رجالا ونساء أن يغضوا من أبصارهم :

" قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم ذلك أزكى لهم إن الله خبير بما تعملون " (النور : ٣٠) .

والتهاون من المرأة ولو قليل يجرئ الرجل على التماذي، ولهذا جعلت عليهن بعض قيود من الشرف مثل أن يغضضن أبصارهن، وأن لا يرى زينتهن من ليس بمحرم لهن، وأن لا يسمع أحد صوت ما تنتزين به من الحلي، ولهذا أمرن بأن يمشين بهدوء، أو لا يلبسن من الحلي ما يصدر عنه صوت، وأن يغطين صدورهن فإذا ما خرجت من البيت أرخت الرداء على جسدها كله، وعليها أن لا تتعطر عند خروجها، ولا تمشي في وسط الطريق وإنما في جانب منه، وأن لا يتحدث الرجال والنساء أثناء سيرهن في الطريق، وأن لا يحدث اختلاط في جلساتهن، وأن لا يختلي غير محرم بامرأة، وأن لا يسمح لأحد بدخول البيت بغير إذن، وهذه الأمور كلها في الحقيقة بمثابة شرح لقوله تعالى "ولا تقربوا الزنا". قال تعالى :

" وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ويحفظن فروجهن ولا يبدن زينتهن إلا ما ظهر منها^(١)، ولا يضربن بخمرهن على جيوبهن ولا يبدن زينتهن إلا لبعولتهن أو آبائهن أو آباء بعولتهن أو أبنائهن أو إخوانهن أو بني إخوانهن أو بني أخواتهن أو نسائهن^(٢)، أو ما ملكت أيمانهن أو التابعين غير أولي الإربة من الرجال أو الطفل الذين لم يظهروا على عورات النساء. ولا يضربن بأرجلهن ليعلم ما يخفين من زينتهن، وتوبوا إلى الله جميعا أيها المؤمنون لعلكم تفلحون " (النور : ٣١) .

وفي الآيات التالية تعاليم لزوجات النبي صلى الله عليه وسلم، ومع ذلك يمكن أن يحتذى بها :

^١ مثل كحل العين والحنه في اليد أو الخاتم في الإصبع، ولهذا لا يدخل الوجه ولا اليدين في السر

^٢ يعني صديقاقن و الخادما لدهن وأولئك اللاهي يكثر معهن جلوسهن (روح المعاني) ١٢ .

" يا نساء النبي لستن كأحد من النساء إن اتقيتن فلا تخضعن بالقول فيطمع الذي في قلبه مرض (١) وقلن قولا معروفا، وقرن في بيوتكم ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى (الأحزاب: ٣٢). ولا يدخل أحد في بيت آخر إلا بإذنه :

" يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوت النبي إلا أن يؤذن لكم " (الأحزاب : ٥٣) .
ورغم أن الحكم هنا خاص بجانية معينها، إلا أن هدف الحكم ليس بيوت النبي صلى الله عليه وسلم فقط. وهكذا جاء هذا الحكم لبيوت للمسلمين عموما فيما يتعلق بالعفة والطهارة في سورة (النور):

" يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتا غير بيوتكم حتى تستأنسوا وتسلموا على أهلها ذلكم خير لكم لعلكم تذكرون " (النور : ٢٧) .

فإذا ما طلب رجل غير محرم أمرا من المكان الذي يجلس فيه النساء فعليه أن يطلبه من وراء حجاب، لا أن يدخل هكذا عليهن، ولهذا جاء فيما يتعلق ببيوت النبي صلى الله عليه وسلم:

" وإذا سألتهم من متاعا فاسألوهن من وراء حجاب، ذلكم أطهر لقلوبكم وقلوبهن " (الأحزاب: ٥٣).

ورغم أن هذا الحكم نزل في أزواج النبي صلى الله عليه وسلم المطهرات، لكنه نموذج من حسن الأدب يمكن أن تحتذيه بيوت المسلمين جميعا .

وحين تخرج المرأة المسلمة من بيتها يجب أن تغطي نفسها بردائها حتى تخفي زينتها وجمالها عن المارة في الطريق، ويعرف الجميع أنها امرأة حرة شريفة، وأن النظر إليها وليس معاكستها فقط جريمة في الشريعة الإسلامية بحال تعالى:

" يا أيها النبي قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين يدنين عليهن من جلابيبهن ذلك أدنى أن يعرفن فلا يؤذين، وكان الله غفورا رحيما، لمن لم يفته المنافقون والذين في قلوبهم مرض والمرجفون في المدينة لنغرينك بهم ثم لا يجاورونك فيها إلا قليلا " (الأحزاب : ٦٠) .

والإشارة في هذه الآيات الكريمة إلى بعض أشرار المدينة ومنافقيها الذين كانوا يضايقون نساء المسلمين اللاتي كن يخرجن لبعض ضرورتهن، وحين كانوا يعانون على ذلك كانوا يقولون حسبناهن إماء، وللغرض على هذا السوء الاجتماعي أمر الله

^١ أي لا يتجرا عليكن ويطمع بكن .

الطرفين بنفس الحكم، فقال فيما يخص الأشرار إن لم يرجعوا عن هذه الحركة فسوف يعاقبون بل سوف ينفون من المدينة، وقال فيما يخص نساء المسلمين أنهن حين يخرجن من بيوتهن لضرورة لا بد أن يبدو من مظهرهن أنهن حرائر شريقات، ولا بد أن يتميزن في ملابسهن عن النساء الأقل درجة في المجتمع، وقد وضح ذلك قائلًا بأنهن حين يخرجن من البيت عليهن أن يلتحفن برداء كبير يخفي ما تحته من ملابس ملونة وحلي وما شابه ذلك مما تتجمل به المرأة، وهكذا يظهر للناظرين أنهن حرائر شريقات، واحترامهن فرض على كل شريف .

وكان العرب قبل الإسلام يتاجرون ببيع الإماء^(١)، وكانوا يأكلون من كسبهن، ولا يعدون ذلك عيبًا، وكان هناك أحد مناققي المدينة المعروفين وهو عبد الله بن أبي سلول، وكان يجبر إماءه على هذا العمل البغيض، ومع ذلك فقد كان ينظر إليه باحترام في مجتمع المدينة قبل الإسلام، حتى كانوا يروونه مستحقًا لتاج المدينة وأنه شرف لها، وكانت النساء تتزين وتخرج من البيوت، ولا تهتم بتغطية صدورهن، وكانت العاهرات تقدمن الشراب في مجالس الخمر وصدورهن ظاهرة فيتناول من يريد^(٢)، وكان يضعن رايات على بيوتهن كعلامة عليهن، فلما جاء الإسلام أصلح هذه العادات وكان لا بد للقضاء على هذا العهر ونشر العفة والشرف أن يتم للقضاء على هذه المهنة الوضيعة، ولذا نزلت هذه الآية :

" ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء إن أردن تحصننا لتبتغوا عرض الحياة الدنيا ومن يكرههن فإن الله من بعد إكراههن غفور رحيم " (النور : ٣٣) .

ولهذا قرر الإسلام أن المردود للمادي من هذا العمل حرام^(٣)، كما أشار إلى أنه ليس من المستحسن للرجل المسلم أن يتزوج من مثل هؤلاء النساء المنحرفات قبل أن يتبين مما هن فيه^(٤)، إذ أنه إن فعل فإنه يلوث بيئة المجتمع الإسلامي ويسممه، وقد جاء

^١ تفسر الطبري - تفسير سورة النور - ص ٩٣ - مصر ، و صحيح مسلم و سنن أبي داود .

^٢ اقرأ هذا البيت في قصيدة طرفة من السبع المعلقات :

رحيب قطاب الحبيب منها رقيقة بحس الندامى بضة المتجرد .

^٣ صحيح مسلم - باب تحريم مطل الغني وغيره .

^٤ يرى جمهور العلماء أن زواج الزاني من غير الزانية أو الزانية من غير الزاني صحيح قانونًا، لكن ينبغي تجنبه أخلاقًا، وحرمة التي تظهر من هذه الآية تحمل على ذمه، أو على أنه لا يليق بشأن المؤمنين أن يقدموا على مثل هذا الزواج، أو أن قوله تعالى "انكحوا الأيامى منكم" أو قوله تعالى " فانكحوا ما طاب لكم من النساء" قد نسخته، أو أنه كان

في منن أبي داود (كتاب النكاح) أن صحابيا أراد أن يتزوج من امرأة من هذا النوع، يطلب الإذن بذلك من رسول الله صلى الله عليه وسلم، ورد الوحي الإلهي على طلبه هذا بقوله تعالى :

"الزاني لا ينكح إلا زانية أو مشركة، والزانية لا ينكحها إلا زان أو مشرك، وحرم ذلك على المؤمنين" (النور : ٣) .

ونجد في هذه الآية صورة للفطرة الإنسانية، إذ لا يفكر في الزواج من عاهرة إلا عاهر مثلها، ولهذا قال الله تعالى بعد ذلك :

"الخبثات للخبثين والخبثون للخبثات والطيبات للطيبين والطيبون للطيبات" (النور: ٢٦).

ولهذا لا تحبب الشريعة الإسلامية زواج عفيف من فاجرة ولا زواج عفيفة من فاجر، ويرى بعض العلماء أنه لا يجوز أصلا، ودليله بالإضافة إلى آية سورة (النور) السابقة حديث رواه أبو داود وأحمد عن النخاعة، يقول أبو هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "إن من يثبت عليه الزنا ويقام عليه الحد يكون نكاحه من مثله" (١).

وباختصار فإن شأن أهل الإيمان هو الطهارة والعفة، ولا يدور بخلد هم مثل تلك الأفكار السيئة، ولهذا وصف الله تعالى عباده للمقربين الذين ذكرهم في سورة (الفرقان) بثلاث صفات، وهي أنهم لا يشركون مع الله إلها آخر، ولا يقتلون النفس بغير حق، ولا يزنون، قال تعالى :

"والذين لا يدعون مع الله إلها آخر، ولا يقتلون النفس التي حرم الله إلا بالحق، ولا يزنون" (الفرقان: ٦٨).

حكما خاصا، لكن هناك بعض الصحابة والعلماء الذين يرون حرمة مثل هذا الزواج، بل ويرون أنه إذا ما ارتكب أحد الزوجين هذا الفعل يفرق القاضي بينهما، ولهذا روي أن عليا رضي الله عنه قد حكم بذلك في زمان خلافته، ويؤيده حديث أبي داود، وقال بعض الفقهاء أن الكفاءة شرط في الزواج، والزانية ليست كفؤا للشريف، ولهذا لا يتم هذا الزواج ولا يستمر، وهناك مسلك آخر بأن هذه الحرمة تظل قائمة طالما لم يثبت الزاني أو الزانية عن إثمهما، فإذا ما تمت التوبة جاز الزواج، وانظر أحكام القرآن، والجصاص والرازي وتفسيرات أحمدية لملا جيون والتفسير الكبير للرازي، وروح المعاني- تفسير الآية المذكورة .

^١ أبو داود - كتاب النكاح. حدثنا مسدد، وأبو معمر قالنا: ثنا عبد الوارث، عن حبيب، حدثني عمرو بن شعيب، عن سعيد القبري، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: لا ينكح الزاني المجلود إلا مثله.

ومما يدعو إلى التمعن في هذه الآية أن أول أمر ورد ذكره في الآية من الأمور الممنوعة يختص بتلك الحقيقة الكبرى التي يعد إنكارها كفر بواح ثم جاء بعده أمر يتعلق بالروح، والآخر بالعرض والشرف .

إن الخطوات الاحتياطية التي ذكرها القرآن الكريم للقضاء على الفاحشة وسد الثرائع أمامها هي في الحقيقة شرح لقوله تعالى "ولا تقربوا الزنا" موضحاً رسول الله صلى الله عليه وسلم بأحد أصحابه إن وقع نظرك بغير قصد منك على غير ذات محرم فإن النظرة الأولى يعفو الله عنها بسبب عدم القصد فيها ولكن ليس بعد ذلك^(١)، وقد جاءت السيدة أسماء رضي الله عنها، الأخت الكبرى للسيدة عائشة رضي الله عنها ذات مرة عند رسول الله صلى الله عليه وسلم في ثياب رقيقة، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لها: يا أسماء إذا بلغت المرأة المحيض لا يجوز أن يظهر منها شيء ما عدا الوجه والكفين^(٢)، ولا يدخل المختن على النساء^(٣)، وقال صلى الله عليه وسلم، وإذا ذهبت إلى بيت أحد فلا تنظر بداخله قبل أن يؤذن لك، فإن ذلك يعد كشفاً لعورات أصحاب البيت^(٤)، وقال صلى الله عليه وسلم لا تخرج المرأة من بيتها متعطرة^(٥)، والسبب واضح

^١ الترمذي-كتاب الاستئذان-باب ما جاء في نظر المفاجأة. حدثنا علي بن حجر. أخبرنا شريك عن أبي ربيعة عن ابن بريدة عن أبيه قال: يا علي لا تبص النظرة النظرة فإن لك الأولى وليست لك الآخرة.

^٢ أبو داود-كتاب اللباس-باب فيما تبدي المرأة من زينتها. حدثنا يعقوب بن كعب الأنطاكي ومؤمل بن الفضل الحسائي قال: ثنا الوليد، عن سعيد بن بشر، عن قتادة، عن خالد، قال يعقوب: ابن ذر، عن عائشة رضي الله عنها أن أسماء بنت أبي بكر دخلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم وعليها ثياب رقاق، فأعرض عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال: يا أسماء إن المرأة إذا بلغت المحيض لم تصلح أن يرى منها إلا هذا وهذا، وأشار إلى وجهه وكفيه.

^٣ أبو داود-كتاب الأدب-باب في المختن. حدثنا مسلم بن إبراهيم، ثنا هشام، عن يحيى، عن عكرمة، عن ابن عباس أن النبي صلى الله عليه وسلم لعن المختن من الرجال والمترجلات من النساء وقال: أخرجوهم من بيوتكم، وأخرجوا فلانا وفلانا يعني المختن.

^٤ الترمذي-كتاب الاستئذان-باب في البيت. حدثنا قتيبة. حدثنا ابن ليعبة عن عبيد الله بن أبي جعفر عن أبي عبد الرحمن الحبلي عن أبي ذر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: من كشف سترها فادخل بصره في البيت قبل أن يؤذن له فرائى عورة أهله فقد أتى حدا لا يحل له أن يأتيه، ولو أنه حين أدخل بصره استقبله رجل ففقد عينه ما غيرت عليه، وإن مر الرجل على باب لا ستر له غير مغلق فنظر فلا خطيئة عليه، وإنما الخطيئة على أهل البيت.

^٥ أبو داود-كتاب الرجل-باب في المرأة تطيب عند الخروج. حدثنا مسدد، ثنا يحيى، أخبرنا ثابت بن عمار، حدثني غنيم بن قيس، عن أبي موسى عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: إذا استعطرت المرأة فمرت على القوم ليجدوا ريحها فهي كذا وكذا قال قولاً شديداً .

وهو أن رائحتهما تثير المارة، وورد عنه صلى الله عليه وسلم أن المرأة لا تسير في وسط الطريق إنما على جانبه بعيدا عن المارة^(١) حتى تتجنب زحام الطريق وتراحم الناس، كما أكد صلى الله عليه وسلم على أن لا يأتي أحد بيت امرأة وحده في غير وجود زوجها، إذ أن ذلك يهيئ فرصة للشيطان^(٢)، كما وردت النصيحة بالإبقاء على ستارة على باب البيت، فإذا لم يكن باب البيت مغلقا، أو ليس عليه ستارة وحجابا، فإن مسئولية تسلل أحد إلى داخله تقع على أصحاب هذا البيت^(٣).

وقد جاءت كل هذه الإرشادات حتى تصبح بيوت المسلمين صورة مجسمة للعفة والطهارة، ولكن لم يتم الاكتفاء بهذه الإرشادات فقط، وإنما قرر عقابا في الدنيا لمن يضع كرامة المجتمع وحرمة في خطر وذلك بعد ثبوت الدليل الشرعي عليه، حتى يكون الخوف من العقاب سببا في أن يعيش الناس حياة شريفة.

" الزانية والزاني فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة " (النور : ٢) .

وجاء في الأحاديث أن من يرتكب الزنا من المحصنين رجالا ونساء^(٤) فإنه يرحم، وموقف النساء في هذه الجريمة أكثر حساسية لهذا جاء في القرآن الكريم أنه من الأمور التي تباعد النساء على الالتزام بها أن تحافظ على عرضها وشرفها، قال تعالى:

^١ أبو داود - كتاب الأدب - باب في مثي النساء في الطريق. حدثنا عبد الله بن مسلمة، ثنا عبد العزيز يعني ابن محمد عن أبي اليمان، عن شداد بن أبي عمرو بن حسان، عن أبيه، عن حمزة بن أبي أسيد الأنصاري، عن أبيه أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول وهو خارج من المسجد، فاختلط الرجال مع النساء في الطريق، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم للنساء: استأخرن، فإنه ليس لكن أن تحققن الطريق، عليكن بمحالات الطريق فكانت المرأة تلتصق بالجدار حتى إن ثوبها ليلمس بالجدار من لصوقها به.

^٢ مسلم - كتاب السلام - باب تحريم الخلوة بالأجنبية والدخول عليها. حدثنا هرون بن معروف، حدثنا عبد الله بن وهب، أخبرني عمرو حدثني أبو الطاهر، أخبرنا عبد الله بن وهب، عن عمرو بن الحارث: أن بكر بن سوادة حدثه: أن عبد الرحمن بن جبير حدثه: أن عبد الله بن عمرو بن العاص حدثه: أن نفرا من بني هاشم دخلوا على أسماء بنت عميس، فدخل أبو بكر الصديق، وهي تحته يومئذ، فرآهم، فكره ذلك، فذكر ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم وقال: لم أر إلا خيرا، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إن الله قد برأها من ذلك، ثم قام رسول الله صلى الله عليه وسلم على المنبر فقال: لا يدخلن رجل بعد يومي هذا، على مغية، إلا ومعه رجل أو اثنتان.

^٣ الترمذي - كتاب الاستئذان - باب الاستئذان قبالة البيت. حدثنا قتيبة. حدثنا ابن لحيعة عن عبيد الله بن أبي جعفر عن أبي عبد الرحمن الحبلي عن أبي ذر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: من كشف سترا فأدخل بصره في البيت قبل أن يؤذن له فرأى عورة أهله فقد أتى حدا لا يحل له أن يأتيه، لو أنه حين أدخل بصره استقبله رجل ففقا عنه ما غوت عليه، وإن مر الرجل على باب لا ستر له غير مغلق ففطر فلا خطيئة عليه، وإنما الخطيئة على أهل البيت.

^٤ يعني الرجل الذي له زوجة والمرأة التي لها زوج.

"ولا يزني ولا يقتل أولادهن، ولا يأتين بيهتان يفترينه بين أيديهن وأرجلهن" (الممتحنة: ١٢).

أما عدم الزنا فهو واضح، فما المقصود بعدم قتل الأولاد التي أخذت بشأنها البيعة من النساء في حين أن هذا أمر يتعلق بالرجال أكثر، وربما يكون هذا إشارة إلى منع إسقاط الحمل^(١)، أو أن يكون الكلام في عموم للقتل، أما الإتيان بيهتان يفترينه بين أيديهن وأرجلهن خفية إشارة إلى تقليد من تقاليد الجاهلية حيث المرأة تعاشر من عدة رجال، وحين يولد لديها الولد فإنها هي التي تخبر هؤلاء الرجال بمن يكون هذا ابنه، وبعض النساء كن يحملن من غير أزواجهن وينسبن المولود إلى الزوج، وهذه كلها أمور تنافي العفة والشرف، ولهذا منعت، وأخذ العهد على الثبات بقوة على هذه المبادئ، وقد بايع النبي صلى الله عليه وسلم نساء قريش ونساء الأنصار عند فتح مكة على نفس الأمر^(٢)، كما بويع الرجال أيضا عليه، وبإيع الصحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم على ذلك^(٣).

وعلى الجانب الآخر وضعت بعض الأصول لحماية النساء من افتراء الرجال واتهامهن بالباطل، وهي أنه إذا اتهم رجل امرأة بارتكاب الزنا يصبح لزاما عليه أن يأتي بأربعة شهود، وإلا فإنه يجلد حدا لقذفه للنساء الشريقات، ثم لا تعد بشهادته بعد ذلك أبدا، فإذا ما كان القاذف هنا هو الزوج ولا شهود لديه فإن الرجل يقسم على صدق ما

^١ و يعتقد صاحب تفسير روح المعاني بأن هذا هو المقصود .

^٢ صحيح البخاري - فتح مكة. حدثنا علي بن عبد الله: حدثنا سفيان: قال: الزهري: حدثنا قال: حدثني أبو إدريس: سمع عباد بن الصامت رضي الله عنه قال: كنا عند النبي صلى الله عليه وسلم فقال: (أتبايعوني على أن لا تشركوا بالله شيئا، ولا تزنوا، ولا ترقوا، وقرأ آية النساء، وأكثر لفظ سفيان: قرأ الآية - فمن وى منكم فأجره على الله، ومن أصاب من ذلك شيئا فعوقب فهو كفارة له، ومن أصاب منها شيئا من ذلك فستره الله فهو إلى الله، إن شاء عذبه وإن شاء غفر له). تابعه عبد الرزاق عن معمر في الآية.

^٣ البخاري - كتاب الإيمان - باب حلاوة الإيمان. حدثنا أبو اليمان قال: أخبرنا شعيب، عن الزهري قال: أخبرني أبو إدريس عائذ الله بن عبد الله: أن عباد بن الصامت رضي الله عنه، وكان شهد بدرا، وهو أحد النقباء ليلة العقبة: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: وحوله عصابة من أصحابه: (بأيعوني على أن لا تشركوا بالله شيئا، ولا ترقوا، ولا تزنوا، ولا تقتلوا أولادكم، ولا تأتوا بيهتان تفترونه بين أيديكم وأرجلكم، ولا تعصوا في معروف، فمن وى منكم فأجره على الله، ومن أصاب من ذلك شيئا فعوقب في الدنيا فهو كفارة له، ومن أصاب من ذلك شيئا ثم ستره الله فهو إلى الله، إن شاء عفا، وإن شاء عاقبه). فبايعناه على ذلك.

يقول، وإلا تقسم المرأة على كذب اتهام زوجها لها، وإن تمسك كل منهما بموقفه فإن حكمها في الإسلام هو أن ينقسم هذا الزواج بناء على تمسك كل منهما بموقفه (١) .

إن أكبر نذير في التقصير في حق الله هو الشرك، وأكبر نذير في حقوق العباد هو قتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، أما للذنب الذي يلي ذلك فهو الاعتداء على عفة وشرف أحد. وقد جاء في الحديث أن صحابيا سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم قائلًا: يا رسول الله ما هو أعظم الذنب؟ فقال صلى الله عليه وسلم: أن تشرك بالله وهو الذي خلقك، فقال الرجل: ثم ماذا؟ فقال صلى الله عليه وسلم: أن تقتل ولدك خوفاً من أن يشاركك طعامك، فقال: ثم ماذا؟ فقال صلى الله عليه وسلم: أن تزني بحليلة جارك. وهكذا نزلت الآية تصديقاً لكلام رسول الله صلى الله عليه وسلم (٢):

"والذين لا يدعون مع الله إلهاً آخر، ولا يقتلون النفس التي حرم الله إلا بالحق ولا يزنون" (الفرقان: ٦٨).

وقد خص الحديث الشريف قتل الولد والزنا بزوجة الجار بالذكر باعتبار أن هاتين الجريمتين من أكثر الجرائم التي تبتعث على العار، إذ أنه لا يتوقع من هذين الاثنتين صدور هذا الأمر الذي يصيب الثقة الإنسانية المتبادلة في مقتل. وجاء في حديث آخر "لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن ولا يشرب الشارب خمرًا حين يشرب وهو مؤمن، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن ولا ينهب الناهب حين ينهب أمام الناس وهو مؤمن" (٣). وذلك لأن الإيمان اسم لليقين، ولا يمكن لأحد لديه يقين على الله وأحكامه أن يتمرد على هذه الأحكام، إذ في مثل هذه الحالة أي حالة ارتكاب الجرم

^١ تفصيل هذا في سورة النور، ولم يرد الحكم بنسخ النكاح، ولكن العمل على هذا منذ البداية - البخاري - باب اللعان .
^٢ البخاري - كتاب الأدب - باب قتل الولد خشية أن يأكل. حدثني عثمان بن أبي شيبة: حدثنا جرير، عن منصور، عن أبي وائل، عن عمرو بن شرحبيل، عن عبد الله قال: سألت النبي صلى الله عليه وسلم: أي الذنب أعظم عند الله؟ قال: (أن تجعل لله نداً وهو خلقك). قلت: إن ذلك لعظيم، قلت ثم أي؟ قال: (وأن تقتل ولدك تخاف أن يطعم منك). قلت: ثم أي؟ قال: (أن تزنّي حليلة جارك).

^٣ البخاري - كتاب الحدود - باب الزنا وحرب الخمر. حدثني يحيى بن بكر: حدثنا الليث، عن عقيل، عن ابن شهاب، عن أبي بكر بن عبد الرحمن، عن أبي هريرة: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن، ولا يشرب الخمر حين يشرب وهو مؤمن، ولا يسرق حين يسرق وهو مؤمن، ولا ينهب نهباً، يرفع الناس إليه فيها أبصارهم، وهو مؤمن).

ينطفئ مصباح إيمان المجرم بفعل عاصفة الانفعالات وينسى كل شيء للحظات، ثم يعود إلى رشده و صوابه بعد أن تزول نشوة الذنب .

وعقاب الزناة في الإسلام يكون بالجلد مائة جلدة أحياناً وأحياناً أخرى بالرجم، لكن العذاب الذي سيلقونه في الآخرة سيكون أشد تنكيلاً من هذا، ولقد رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم في أحد أحلامه للروحانية صوراً من للعذاب الأخروي المؤلم الذي يلقاه كثير من الناس، وكان من بين هذه الصور العذاب الذي يلقاه الزناة بما يليق بفعلهم الشنيع هذا هو فتحة مثل للتور ضيقة من فوق ومتسعة من أسفل، وتشتعل تحتها نار، وبها كثير من الرجال والنساء العربا، وعندما كانت شعلات للهب ترتفع كان يعلم بأن هؤلاء سيخرجون من داخل هذا للتور، ولكن عندما كانت للنار تنطفئ كان هؤلاء الناس يدخلونه ثانية^(١)، وكان هذا هو عذاب البرزخ الذي سيستمر حتى يوم القيامة .

على العكس من ذلك فإن فضائل من يتسمون بالعفة والشرف قد ذكرت بأسلوب مؤثر للغاية، فقد جاء في الحديث أن هناك سبعة يظلهم الله يوم القيامة يوم لا ظل إلا ظله، من بين هؤلاء رجل دعت امرأته ذات منصب وجمال إلى نفسها، ولكنه يرفض قائلاً أنه يخاف الله^(٢)، وهذا هو الشرف الذي سيلقاه الشرفاء يوم القيامة، ولكن بركات هذه العفة والطهارة في الدنيا ليست أقل من ذلك أيضاً، فقد جاء في الحديث الشريف أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قص حكاية ثلاثة من الزمن القديم كانوا في سفر معاً إذ نزل المطر فجاء، فلجأ الثلاثة إلى غار في جبل نجا من الماء، وسقطت صخرة من فوق الجبل فدرا فأغلقت مدخل الغار، ولم يعد لديهم طريقة للنجاة غير أن يعد كل منهم أعماله للصالحه، ويتوسل إلى الله بها، وهكذا فعل الثلاثة ودعوا الله فرفع للصخرة من على مدخل الغار، وكان ما قاله الرجل العفيف من بينهم هو أنه: كانت لي ابنة عم، أحبها كثيراً ولقد أبدت لها رغبتى فيها لكنها رفضت إلا أن أعطيها مائة دينار، وبالفعل جمعت مائة دينار وأعطيتها لياها، وأردت أن أقضي حاجتي منها، لكنها قالت لي: اتق الله، فترأجت على الفور، يا إلهي، إن كنت تعلم أنني فعلت ذلك من أجل مرضاتك فقط فارفع عنا هذه

^١ البخاري - كتاب الجنائز .

^٢ البخاري - كتاب الحدود - باب فضل من ترك الفواحش .

الصخرة، فرفعها الله^(١) وهذه الرواية تشمل العفة والشرف من بين تلك الأعمال التي تقرب إلى الله، وتؤدي إلى قبول الدعاء .

الأمانة

تحتل الأمانة كجوهر أخلاقي مكانة مركزية في تعاملنا مع بعضنا البعض، والمقصود من الأمانة أن يكون الإنسان أميناً في عمله، وأن يؤدي ما عليه للناس بأمانة كاملة، ولقد أطلق الله تعالى لفظ الأمانة على التكليف الشرعي الذي كلف به البشر: " إنا عرضنا الأمانة على السماوات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها، وحملها الإنسان إنه كان ظلوماً جهولاً " (الأحزاب : ٧٢) .

ويعلم من هذا أن الشريعة كلها أمانة إلهية عهد الله بها إلينا، ولهذا يكون من الفرض علينا أن نؤدي حق مالك هذه الأمانة كاملاً، وإن لم نفعل نكون من الخائنين، وقد اتصف الملاك الذي كان ينزل بأحكام الله على خاصة عباده بالأمانة، حتى يصل إليهم حكم الله كما هو دون زيادة أو نقصان، ولهذا أطلق الله تعالى في القرآن اسم (الأمين) على هذا الملاك :

" نزل به الروح الأمين " (الشعراء : ١٩٣) .

^١ البخاري-كتاب الأدب-باب إجابة دعاء من ير والديه. حدثنا سعيد بن أبي مريم: حدثنا إسماعيل بن إبراهيم بن عقبة قال: أخبرني نافع، عن ابن عمر رضي الله عنهما، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (بينما ثلاثة نفر يتماشون أخذهم المطر، فمالوا إلى غار في الجبل، فامطحت على فم غارهم صخرة من الجبل فأطبقت عليهم، فقال بعضهم لبعض، انظروا أعمالاً عملتموها لله صالحة، فادعوا الله بما لهله بفرجها. فقال أحدهم: اللهم إنه كان لي والديان شيخان كبيران، ولي صبية صغار، كنت أرعى عليهم، فإذا رحل عليهم فحلبت بدأت بوالدي أسقيهما قبل ولدي، وإنه نأى بي الشجر يوماً، لما أتيت حتى أمسيت فوجدتهما قد ناما، فحلبت كما كنت أحلب، ففجئت بالحلاب فقممت عند رؤوسهما، أكره أن أوقظهما من نومهما، وأكره أن أبدأ بالصبية قبلهما، والصبية يتضاغون عند قدمي، فلم يزل ذلك دأبي ودأبهم حتى طلع النجم، فإن كنت تعلم أني فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافرج لنا فرجة تری منها السماء. ففرج الله لهم فرجة حتى يرون منها السماء. وقال الثاني: اللهم إنه كانت له ابنة عم أحبها كأشد ما يحب الرجال النساء، فطلبت إليها نفسها، فبأبت حتى أتيتها بمائة دينار، فبعت حتى جمعت مائة دينار فلقيتها بها، فلما قعدت بين رجلها قالت: يا عبد الله اتق الله، ولا تفتح الحاتم إلا بحقه، فقممت عنها، اللهم فإن كنت تعلم أني قد فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافرج لنا منها، ففرج لهم فرجة. وقال الآخر: اللهم إني كنت استأجرت أجراً بفرق أرز، فلما قضى عمله قال: أعطني حقي، فعرضت عليه حقه فتركه ورغب عنه، فلم أزل أزرقه حتى جمعت منه بقراً وراعيها، فجاءني فقال: اتق الله ولا تظلمي، وأعطني حقي، فقلت: اذهب إلى تلك البقر وراعيها، فقال: اتق الله ولا تقرأ بي، فقلت: إني لا أقرأ بك، فخذ تلك البقر وراعيها، فاخذه فانطلق بها، فإن كنت تعلم أني فعلت ذلك ابتغاء وجهك، فافرج ما بقي. ففرج الله عنهم).

" مطاع ثم أمين " (التكوير : ٢١) .

وكانت صفة الأمانة أكثر الصفات التي وردت في القرآن الكريم للأنبياء، وكان كل واحد منهم يقول لأمنته: "إني لكم رسول أمين" (الشعراء: ١٦٢). يعني أن الرسالة التي جاءتني من الله تعالى أبلغها لكم بغير زيادة أو نقصان، ولم أضف إليها شيئاً، وقد لقب الناس نبينا الكريم صلى الله عليه وسلم قبل البعثة النبوية بـ (الأمين)، لأنه كان أميناً في تعاملاته، وكان يرد الأمانة إلى من لئنمته كاملة دون نقصان. ومن صفات المؤمنين الذين يعملون الصالحات :

" والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون " (المؤمنون : ٨) .

وجاء في بعض الروايات أن مفتاح للكعبة كان عند عثمان بن طلحة بن عبد الدار السبيعي، وقد أخذ منه هذا للمفتاح عنوة عند فتح مكة فنزلت هذه الآية :
" إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها " (النساء : ٥٨) .

وهكذا ردت إليه الأمانة طبقاً لهذه الآية، وحين سأل عن السبب في ذلك قال له علي رضي الله عنه: "لقد أمر الله بهذا"، ولم يكن هذا الرجل قد أسلم حتى وقت فتح مكة، وقد أثر فيه هذا الأمر بالعدل والأمانة في الإسلام فأسلم (١) .

على أي حال تعتبر هذه الواقعة من أسباب النزول، ويمكن إطلاقها من حيث المعنى على كل جزئيات و تفاصيل الأمانة، ولهذا فإنه طبقاً لأقوال أهل التفسير تدخل في وسعتها الأمانة الإلهية التي تسمى على سبيل العموم (بالتكليف الشرعي) (٢)، كما تدخل فيها الأمانة المسماة بالعدل والإنصاف والتي تجبر الحكام على أداء حقوق رعاياهم، كما تدخل فيها أيضاً كل الأمانات التي يجب ردها لأصحابها .

ويعلم من هذا التفصيل أن دائرة الأمانة ليست مقصورة على التعاملات المادية في الأموال والممتلكات فقط، مثلما يفهم عامة الناس، وإنما تتسع لتشمل كل المعاملات المالية والقانونية والأخلاقية، فإذا كان لأحد عندك شيء فإن رده إليه عند طلبها أمانة، وأن تؤدي ما بقى عليك لأحد من حق أمانة، وإن جلست في مجلس وسمعت شيئاً يقال عن شخص ما فلم تنم إليه بما قيل عنه خوف الفتنة، وأبقيت الأمر محدوداً على الجلسة التي كنت فيها، فذلك من الأمانة، وأن استشارك أحد في أمر يخصه فأشرت بالمشورة

^١ تفسير الكشاف للزمخشري .

^٢ المرجع السابق .

للصحيحة ولم تنش سره لأحد كذلك من الأمانة وإذا أدى أحد ما تتطلبه الوظيفة التي يشغلها بإحساس بالمسئولية فذلك من الأمانة وإذا كان أحد يعمل لدى أحد ثماني ساعات في اليوم فينقص منها بغير إذن صاحب العمل أو يتكامل عن عمله، أو يأتي إليه متأخراً، أو ينصرف قبل الموعد المحدد فإن هذا ينافي الأمانة وقد جاء تفصيل كل هذا في القرآن الكريم والأحاديث الشريفة وقد بشر القرآن الكريم أولئك المسلمين بالفلاح لأنهم :

" والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون " (المؤمنون : ٨) .

وكذلك أولئك الذين سيدخلون الجنة مكرمين معززين قال عنهم :

" والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون " (المعارج : ٣٢) .

ولو وضع أحد عند أحد أمانة، أو أخذ منه رهناً لسداد قرض لم يتيسر له مبن يكتبه أو يشهد عليه لسفر :

" فليؤدي الذي أؤتمن أمانته، وليتق الله ربه " (البقرة : ٢٨٣) . .

أي لا ينكر الأمانة التي لديه أو يحتال في أدائها أو يتصرف فيها بغير إذن صاحبها أو يأتهمنا أحد على كلام قاله فنستغل نحن ثقته هذه ونتأمر عليه فإن هذه الأمور كلها خيانة منعها الإسلام صراحة :

" وتخونوا أماناتكم وأنتم تعلمون " (الأنفال : ٢٧) .

ولقد سقى سيدنا موسى عليه السلام في سفره إلى مدين شياء فتاتين ولم يأخذ منهما أجراً وعادت الفتاتان فأثبت إحداهما لأبيها على سيدنا موسى، وطلبت منه أن يستأجره، وجاء هذا الأمر في الآية الكريمة التالية :

" يا أبت استأجره إن خير من استأجرت القوي الأمين " (القصص : ٢٦) .

وقد وصفت هذه الآية أفضل من نستخدمهم في عمل بأن تكون لديه القدرة والكفاءة على القيام بالعمل، وأن يؤديه بأمانة كاملة، ونعرف من هذا أن من يعهد إليه بعمل باعتبار أنه أهل له عليه أن يقدم الدليل على هذه الثقة، وأن يؤدي عمله هذا بكل أمانة، فإذا ما جاء شخص يعمل في وظيفة لست ساعات، وجلس لساعتين هكذا كسلا دون أن يؤدي عملاً، فإنه في نظر الإسلام ليس أميناً وإن لم يعتبره عامة الناس خائناً، أو يأتي شخص ويدعي أنه أهل لعمل ما حتى يحصل عليه، ولكنه في الحقيقة ليس أهلاً لهذا العمل فإن هذا ينافي الأمانة .

وقد عدت الأحاديث الشريفة جزئيات الأمانة وتفاصيلها، ونكرت كثيراً من الأمور التي لا بعدها الناس خيانة، بينما هي خيانة، وإذا تعمد فيها أحد لعلم أنها خلاف للأمانة من الناحية الأخلاقية .

ومتلما ذكرت آية في القرآن الكريم بأن الإنسان حمل عبء أمانة الله تعالى، فقد أشار حديث شريف إلى نفس الأمر أيضاً يقول أمين سر النبي صلى الله عليه وسلم سيدنا حذيفة رضي الله عنه لقد سمعنا شيئين من رسول الله صلى الله عليه وسلم رأيت أحدهما بعيني، والثاني هو أنه صلى الله عليه وسلم قال: إن الأمانة في فطرة للبشر وفي أعماق قلوبهم، ثم عرفوا شيئاً من القرآن وتعلموا بعضاً من السنة (بمعنى أن جوهر الأمانة لدى الإنسان يرتقي ويصقل بالتعليم الجيد) يقول سيدنا حذيفة: ثم ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم حال ثلاثي الأمانة فقال: ثم يكون الحال أن يمسي الرجل وقد أتت من قلبه الأمانة، ولا يبقى إلا أثر يدل عليها كأثر الجرح فرغ مما فيه، وسيصبح الناس هكذا، يتعاملون فيما بينهم ولكن بغير أمانة، ومستقل الأمانة حتى يضرب بها الناس المثل فيقولون كان هناك رجل أمين في القوم الفلاني، وسيمدح الإنسان بعقله وطبيعته الحسنة وشجاعته، في أنه ليس في قلبه متقال ذرة من الإيمان " (١) .

وقد جاء في الجزء الأول من الحديث أن الأمانة موجودة في فطرة الإنسان، وإنها تزيد بالتعليم، ثم ذكر تراجع هذه الفطرة بالصحة السيئة، وقال بأنه في آخر الزمن سيكون أمر الأمانة كمثل جرح فرغ مما فيه ولم يبقى إلا أثره .

وجاء في للطبراني الكبير أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: لا إيمان لمن لا أمانة له، ولا دين لمن لا عهد له، والذي نفس محمد بيده لا يصح قلب امرؤ حتى يصح لسانه، ولا يصح لسانه حتى يصح قلبه، ومن كسب مالا حراماً وافق منه لا بورك له

^١ صحيح البخاري، باب رفع الأمانة وكتاب الفتن والرقائق، وصحيح مسلم ومسنود أحمد والترمذي وابن ماجه. حدثنا محمد بن كثير: أخبرنا سفيان: حدثنا الأعمش، عن زيد بن وهب: حدثنا حذيفة قال: حدثنا رسول الله حديثين، رأيت أحدهما وأنا أنظر الآخر: (أن الأمانة نزلت في جدر قلوب الرجال، ثم علموا من القرآن، ثم علموا من السنة). وحدثنا عن رفاعها قال: (يتام الرجل النومة، فيقبض الأمانة من قلبه، فيظل أثرها مثل أثر الوكت، ثم يتام النومة فيقبض فيبقى أثرها مثل المجلس كجمر دحرجته على رجلك فقط، فحراه متبراً وليس فيه شيء، فيصبح الناس يتبايعون، فلا يكاد أحدهم يؤذي الأمانة، فيقال: إن في بني فلان رجلاً أميناً، ويقال الرجل: ما أعقله وما أظفره وما أجملده، وما في قلبه مثقال حبة خردل من إيمان) .

فيه، وإن تصدق منه لا يقبل منه، وما تبقى منه يكون زلذه إلى جهنم، ولا يمكن أن يكون الشيء السيئ كفارة للشيء السيئ، ولكن الشيء الطيب يكون كذلك" (١) .

وجاء في عدة كتب من كتب الأحاديث أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "لا إيمان لمن لا أمانة له" (٢). وهذا واضح، لأن القلب إن خدع في موضع ما فإنه يستطيع أن يخدع في كل المواضع .

وإذا ما استشار أحد أحدًا فإن على من استشير أن يعطي رأيه ومشورته . بأمانة، وقد استشار أحد الصحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات مرة فقال صلى الله عليه وسلم: "من استشرته فقد استأمنته" (٣)، ولهذا قال صلى الله عليه وسلم إن كلام المجلس أمانة، بمعنى أنه لا يجب نقل كلام من مكان إلى آخر فيكون سببا في الفتنة، إلا أن يستفاد منه في القضاء على فتنة، وقد قال صلى الله عليه وسلم "المجالس بالأمانة" إلا في ثلاثة مواضع أن يكون هناك تأمر على قتل نفس بغير حق (٤)، أو انتهاك عرض أو أخذ مال الغير بغير حق، عندئذ يجب إخبار أصحاب الشأن بالأمر .

وإفشاء السر ينافي الأمانة، بل إن ما يدور بين الرجل وزوجته في الخفاء يعد سرا يبعث إفشاؤه على العار، ويكون انتقاء للأمانة (٥) ، والسر ليس هو الذي يقول لنا صاحبه أنه سر فقط، وإنما من السر أيضا كل ما لا يريد أن يخبر به غيرنا، وقد قال صلى الله عليه وسلم: عندما يتحدث شخص مع آخر وينظر حوله وقت الحديث لئلا يراه

^١ كرو العمال - الجزء الثاني - ص ٥ - حيدر آباد - من الطبراني الكبير عن ابن مسعود .

^٢ كرو العمال - الجزء الثاني - ص ١٥ - من الطبراني الأوسط و الطبراني الكبير و ابن عدي في الكامل و البيهقي في شعب الإيمان .

^٣ أدب المفرد - البخاري - باب المستشار مؤتمن . حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة، حدثنا يحيى بن بكير عن شيان، عن عبد الملك بن عمر، عن أبي سلمة عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال "المستشار مؤتمن"

^٤ أبو داود - باب في نقل الحديث . حدثنا أحمد بن صالح قال: قرأت على عبد الله بن نافع قال: أخبرني ابن أبي ذئب، عن ابن أخي جابر بن عبد الله، عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "المجالس بالأمانة إلا ثلاثة مجالس: سفك دم حرام، أو فرج حرام، أو اتطاع مال بغير حق."

^٥ أبو داود - كتاب الأدب . حدثنا محمد بن العلاء وإبراهيم بن موسى الرازي قالا: أخبرنا أبو أسامة، عن عمر، قال إبراهيم هو عمر بن حنظلة بن عبد الله العمري، عن عبد الرحمن بن سعد قال: سمعت أبا سعيد الخدري يقول: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إن من أعظم الأمانة عند الله يوم القيامة الرجل يقضي إلى امرأته وتفضي إليه ثم ينشر سراها.

أو يسمعه أحد فإن هذا الكلام يعد أمانة^(١)، وقد أخبرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن الخيانة في الأمانة من علامات النفاق^(٢) .

وعندما يتزوج رجل امرأة فإنه يتزوجها طبقاً لشروط الله تعالى في هذا الأمر، لكن إذا تزوج رجل امرأة وقصر في أداء حقوقها أو لم يؤد إليها حقوقها أصلاً فكانه خان أمانة الله تعالى، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في خطبة الوداع المشهورة: "اتقوا الله في النساء" وقال: "لأنكم استحللتم فروجهن بكلمة الله وعهده وأمانته"^(٣).

وجاء في علامات الساعة أن أول شيء ينتهي من هذه الأمة هو الأمانة بآخر شيء يبقى منها هو الصلاة، يركم من مصل ليس لله شيء من صلاته^(٤)، وقال صلى الله عليه وسلم "ستبقى أمتي على الفطرة طالما لم تعتبر الأمانة غنيمة، والزكاة عبثاً" بمعنى أنه طالما لم ينظر المسلمون إلى الأمانة على أنها كسب لهم يؤولى أعمال الخير على أنها عبء عليهم فإن صلاحيتهم وقابليتهم الفطرة مستظل باقية قائمة .

الحياء

الحياء فطرة إنسانية يحاول من خلالها الإنسان أن يتجنب كل ما يسيئ إليه، ليس هذا فحسب بل إن المروءة بين الإنسان والآخر هي بدافع الحياء كما أن اجتناب الكثير من المعاصي لا يكون وراءه إلا الحياء .

وأول من اتصف بهذه الصفة هو الخالق سبحانه وتعالى ولكن معناه هنا يناسب ذاته العلية فمثلاً يرى عباده المنذرين ولكن يسترهم كما أن من يمد يده لله فلا يخفيه الله

^١ المرجع السابق. حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة، ثنا يحيى بن آدم، ثنا ابن أبي ذئب، عن عبد الرحمن بن عطاء، عن عبد الملك بن جابر بن عتيك، عن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إذا حدث الرجل بالحديث ثم انطت فهي أمانة.

^٢ صحيح البخاري - باب علامات المنافق حدثنا سليمان أبو الربيع قال: حدثنا إسماعيل بن جعفر قال: حدثنا نافع بن مالك بن أبي عمر أبو سهيل، عن أبيه، عن أبي هريرة، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا أؤتمن خان).

^٣ صحيح مسلم - حجة الوداع، فاتقوا الله في النساء، لأنكم استحللتم فروجهن بأمان الله، واستحللتم فروجهن بكلمة الله...

^٤ كرم العمال - الجزء الثاني - ص ١٥ من سنن سعيد بن منصور .

في أمله وقد جاء في الحديث الشريف أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "عندما يمد العبد يده أمام ذي الجلال والإكرام فيستحي الله أن يخيب أمله" (١) .

وفي موضع آخر جاء ثلاثة نفر إلى المسجد النبوي وكان الصحابة يحيطون برسول الله صلى الله عليه وسلم فوجد أحدهم مكانا بين الصحابة وجلس بينهم خجل الآخر وجلس في الخلف وذهب الرجل الثالث، فقال للرسول صلى الله عليه وسلم ألا أخبركم عن هؤلاء الثلاثة، إن من جاء وجلس في خلقتنا فقد جاء في ملاذ الله فأعطاه الله ملاذا ومن خجل وجلس في الخلف فقد عفا الله عنه ومن تركنا وأدار وجهه عن الله فقد أدار الله وجهه عنه" (٢) .

"إن الله لا يستحي من الحق" (البقرة آية ٢٦). وجاء في موضع آخر يقول "والله لا يستحي من الحق" (الأحزاب آية ٥٣). وفي الحديث الشريف قوله صلى الله عليه وسلم "إن الله لا يستحي من الحق" (٣) .

ويظهر من الآيات الكريمة والحديث الشريف أن الإنسان لا يجب عليه أن يستحي من قول الحق كما أن الحديث الشريف يؤكد على أن الله غيور ولهذا حرم السيئات (٤) .

لقد التقى سيدنا موسى عليه السلام في مدين بفتاتين وبالرغم من أنهن كن بدويتين إلا أنهما كانتا لهما صفات ذكرها الله ومنها أنهما لا يسقيان ماشيتيهما حتى يسقي الناس مواشيهن ولا يزاحموا الرجال على الماء، وعندما جاءت لإحداهما تستدعي سيدنا

^١ البيهقي كتاب الأسماء والصفات ص ١٢ .

^٢ البخاري كتاب العلم وصحيح مسلم باب السلام. حدثنا إسماعيل قال: حدثني مالك، عن إسحق بن عبد الله بن أبي طلحة: أن أبا مرة مولى عقيل بن أبي طالب أخبره: عن أبي واقد الليثي: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بينما هو جالس في المسجد والناس معه، إذ أقبل ثلاثة نفر، فأقبل اثنان إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وذهب واحد، قال: فوقفا على رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأما أحدهما: فرأى فرجة في الحلقة فجلس فيها، وأما الآخر: فجلس خلفهم، وأما الثالث: فأدبر ذاهبا، فلما فرغ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (ألا أخبركم عن نفر الثلاثة؟ أما أحدهم فلقوى إلى الله فأواه الله، وأما الآخر فاستحيا الله منه، وأما الآخر فأعرض فأعرض الله عنه).

^٣ البخاري كتاب الأدب باب ما لا يستحي من الحق. حدثنا إسماعيل قال: حدثني مالك، عن هشام بن عروة، عن أبيه، عن زينب أبي سلمة، عن أم سلمة رضي الله عنها قالت: جاءت أم سليم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت: يا رسول الله، إن الله لا يستحي من الحق، فهل على المرأة غسل إذا اجتمعت؟ فقال: (نعم، إذا رأت الماء).

^٤ صحيح مسلم كتاب التوبة ومعنى الغرة في العربية هي الحياء ولكن المعنى في الحديث يقترب من الحياء والمعنى الأصلي للغرة هي الرقابة التي لا تريد أن تشارك أحدا في الحب .

موسى لوالدها فجاعته على استحياء هو ما ورد في القرآن الكريم: **تَجَاعَتَهُ إِذْهَامَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ** (القصص آية ٢٥) .

والمقصود من هذه الآية هو مدح حياء هذه الفتاة بهذا الوصف في الحقيقة يلحق الإنسان في طفولته لأنه أمر طبيعي ولو وجد الإنسان للتربية للصالحه فان تفرقه هذه الصفة وإذا ابتلى بصحبة السوء فلا شك أن هذه الصفة ستذهب عنه ولهذا حرص الإسلام على رعاية الحياء وطلب بستر العورة وغض الطرف وعدم الخوض في أحاديث مخجلة بومنع العري للدرجة أنه لا يجوز لأي إنسان أن يقتحم خلوة أحد ولهذا فالعين نفسها تخجل بولو رفع الإنسان برقع الحياء فتوقع من كل شيء .

عندما كان للرسول صلى الله عليه وسلم طفلاً وكان الناس في ذلك الوقت يبنون الكعبة فبينما للرسول صلى الله عليه وسلم يرفع الحجارة طلب منه عمه العباس أن يرفع لباسه ويضعه على كتفه حتى لا ينجرح كتفه ففعل للرسول صلى الله عليه وسلم هذا وأغمى عليه فلما أفاق سأل عن إزاره فربط له مبيدًا للعباس رضي الله عنه له لباسه ("وكان حاله صلى الله عليه وسلم بعد للبعثة كما يقول للصحابية رضوان الله عليهم" كان للنبي صلى الله عليه وسلم لشد حياء من العذراء في خدرها " .

كان للنبي صلى الله عليه وسلم يتعرض لكثير من الإيذاء ولكنه كان يستحي أن يقول شيئاً وهذا ما أكدته القرآن الكريم في سورة الأحزاب "إِنَّ ذَلِكَ كَانَ يُوْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ" (الأحزاب آية ٥٣). والحياء شيء فطري نمدحه ولكن أحياناً يكون الحياء ضرراً على الإنسان وذلك عندما يشمل الحياء عنصر اللجين والخوف ولا يستطيع الإنسان معه أن يفعل شيء في المجتمع بسبب الحياء والخجل ليس هذا فحسب بل أنه أحياناً يكون نقطة ضعف الإنسان ولهذا عالجت الشريعة الإسلامية عنصر اللجين والخوف في الحياء بمعنى أنه لا يجب على الإنسان أن يخشى في الحق لومة لائم ولكن إذا كان الحياء لا يقع ضرره على الآخر فهو شيء ممدوح .

^١ البخاري كتاب الحج باب فضل مكة وبيتها. حدثنا عبد الله بن محمد: حدثنا أبو عاصم قال: أخبرني ابن جريج قال: أخبرني عمرو بن دينار قال: سمعت جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: لما بنت الكعبة، ذهب النبي صلى الله عليه وسلم وعيس يقلان الحجارة، فقال العباس للنبي صلى الله عليه وسلم: اجعل إزارك على رقبك، فمكر إلى الأرض، وطمعت عيناه إلى السماء، فقال: (أرأي إزاري). فشده عليه.

وهكذا كان هناك رجل ذو حياء أمام الرسول صلى الله عليه وسلم يتحمل كثيرا من المتاعب بسبب هذا الحياء وكان أخوه يغضب منه كثيرا بسبب هذا الحياء فلما رآه الرسول صلى الله عليه وسلم قال لأخيه لا تغضب عليه فالحياء من الإيمان (١) .

والمقصود بالحياء جزء من الإيمان هو الحياء الشرعي بمعنى أن الحياء هو اجتناب المنكرات والفواحش فالحياء يمنع الإنسان من هذه الأشياء ولكن من يكون الحياء جزءا من فطرته وطبيعته لاشك أن الحياء الإيمانى يساعده في الامتناع عن هذه الأشياء ومن هنا لا نجد أن هذا الحياء لا يستحق الملامة ولكن يمكن إصلاحه والإصلاح يكون بالنهي عن المنكر والأمر بالمعروف وهذا يعالج هذا النقص ولقرآن الكريم قد عالج هذه الأمور في أماكن عدة وذلك عندما كان الكفار يعترضون على أشياء كثيرة فالحياء يقول لا تحتقروا أي شيء حتى ولو كان ناقصا :

" إن الله لا يستحي أن يضرب مثلا ما بعوضة فما فوقها " (البقرة آية ٢٦) .

كان الصحابة يجلسون لفترة طويلة يتحدثون في دعوة أعدتها السيدة زينب رضي الله عنها فتأذي الرسول صلى الله عليه وسلم لكن الحياء منعه من أن يظهر شيئا، وكان هذا معابا أخلاقيا في حضرة النبي صلى الله عليه وسلم فأنزل الله تعالى قوله: "إن نلكم كان يؤذي النبي فيستحي منكم والله لا يستحي من الحق " (الأحزاب آية ٥٣) .

إن إخراج الناس يعارض المروءة والأخلاق، في حين أن البقاء لفترة طويلة في المجلس يخالف أدب المجلس ولهذا نبه الله رسوله صلى الله عليه وسلم بأنه لا يخلل من للقيام بتعاليم الأخلاق .

هذا هو الحياء الذي حرر الصحابة للكرام من التردد والخوف فجاءت صحابية إلى الرسول صلى الله عليه وسلم تستفسر عن شيء وكانت تعتقد أن سؤالها ضد حياء المرأة لكنها قالت: "يا رسول الله إن الله لا يستحي من الحق" قبل سؤالها. هل يجب الاغتسال على المرأة للجنب ؟ .

ذات مرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم مثل المؤمن كالحجر المورقة التي لا يأتيها الخريف، وقد عجز الصحابة رضوان الله عليهم عن الإخبار باسم هذه الشجرة

^١ البخاري كتاب الأدب باب الحياء. حدثنا عبد الله بن يوسف قال: أخبرنا مالك بن أنس، عن ابن شهاب، عن سالم بن عبد الله، عن أبيه: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم مر على رجل من الأنصار، وهو يعط أمهات في الحياء، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (دعه فإن الحياء من الإيمان).

إلا أن سيدنا عبد الله بن عمر عرف هذه الشجرة وقال إنها شجرة النخل بالرغم من أنه كان أقل للصحابة سنا ولهذا كان يخجل من أن يقول وبما أن هذا كان مجلسا علميا فلماذا قال استأذن في الحديث من سيدنا عمر رضي الله عنه فقال له سيدنا عمر رضي الله عنه لو كنت تعرف اسم هذه الشجرة فأن هذا يسعدني^(١) .

كانت نساء الأنصار تأتي للاستنصار عن أمور المرأة وكانت هذه هي أخلاقهن فامتدحت السيدة عائشة رضي الله عنها موقفهن هذا وقالت نعم للنساء نساء الأنصار لم يكن يمنعهن الحياء أن يتفقهن في الدين^(٢) .

إن جوهر الإنسان هو الحياء هذا إلي جانب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وهذه هي الفائدة من الحياء ولهذا قال الرسول صلى الله عليه وسلم "الحياء لا يأتي إلا بخير".

إن الشخص الذي لا يخجل من فعل السيئات لا تستطيع أن تقول عليه بأنه شجاع بل إنه نوع من الوقاحة والبذاءة فالحياء هو أن يتجنب السيئات فإذا ذهب الحياء من الإنسان توقع منه أي شيء فقال الرسول صلى الله عليه وسلم "إن مما أدرك الناس من كلام النبوة الأولى إذا لم تستح فاصنع ما شئت". فقد وضع الإمام النووي^(٣) معنى آخر لهذا الحديث يقول إذا فعل الإنسان عملا يدعو للخجل فله مطلق الحرية في أن يفعل كل شيء .

وكل ما جاء من ألفاظ الفحش والمنكر وأمثالها في القرآن والحديث الشريف تعني أنها تأتي من عدم الحياء ولهذا جاء الحياء جزء من الإيمان في الإسلام وجاء في

^١ البخاري كتاب الأدب باب مالا يستحي من الحق في النفقة في الدين. حدثنا آدم: حدثنا شعبة: حدثنا معمر بن دينار قال: سمعت ابن عمر يقول: قال النبي صلى الله عليه وسلم: (مثل المؤمن كمثل شجرة خضراء، لا يسقط ورقها ولا يتحات). فقال القوم: هي شجرة كذا، هي شجرة كذا، فأردت أن أقول: هي النخلة، وأن غلام شاب فاستحييت، فقال: (هي النخلة).

^٢ صحيح مسلم كتاب الطهارة باب استحباب استعمال المغسلة من الحيض قرصه من مسك في موضع، والبخاري كتاب الأدب باب الحياء. حدثنا محمد بن المثنى، وابن يشار. قال ابن المثنى: حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبة عن إبراهيم بن المهاجر، قال: سمعت صفية تحدث عن عائشة قالت: نعم النساء نساء الأنصار لم يكن يمنعهن الحياء أن يتفقهن في الدين .

^٣ البخاري كتاب الأدب. حدثنا أحمد بن يونس: حدثنا زهير: حدثنا منصور، عن ربيع بن حراش: حدثنا أبو مسعود قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم: (إن مما أدرك الناس من كلام النبوة الأولى: إذا لم تستح فاصنع ما شئت).

الحديث أن لكل دين خلقا وخلق الإسلام الحياء ^(١) . وجاء أيضا " أن الإيمان سبعة شعب ، والشعبة والحياء شعبة من الإيمان " ^(٢) .

إن لا يجب على المسلمين ترك رداء الحياء حتى ولو كان في وحدة ولهذا السبب دعا الرسول إلى ترك العري لأن الملائكة تظل مع الإنسان فلا تتفصل عنه إلا في حالة دخول الغائط والجماع فاستحيوا منهم ^(٣) . والمقصود هنا أن لا يخلع الإنسان برقع الحياء .

للرحمة

الرحمة جزء أساسي من أخلاق الإنسان كما أن ما يقوم به الإنسان تجاه الآخرين في الدنيا يكون واقعه للرحمة وإذا لم يكن بالإنسان عاطفة للرحمة سيكون ظالما ووحشيا ينفر منه الجميع لهذا اهتم الإسلام بالرحمة في تعاليمه الأخلاقية فهي اسم من أسماء الله ولول صفات الله ويتردد ذكرها كثيرا في القرآن الكريم فهو الرحمن الرحيم حتى أن الإسلام حث المسلمين على أن يبذلوا أعمالهم ببسم الله الرحمن الرحيم هذا إلى جانب أن سور القرآن الكريم تبدأ بها وما نراه في الدنيا ما هو إلا رحمة من الله على عباده والملائكة يقولون في دعائهم: "ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلما" (غافر آية ٧) . وقد ملئ القرآن الكريم بهذه الرحمة: "هو الرحمن الرحيم" (الحشر آية ٢٢) . وقيل للمسلمين أن يقولوا في دعائهم: "وأنت خير للراحمين" (المؤمنون آية ١٠٩) .

كل ما في الدنيا من مظاهر ما هي إلا انعكاس لرحمة الله على عباده وجاء في الحديث الشريف: قسم الله الرحمة إلى مائة جزء فاحتفظ الله بتسع وتسعين منها ولم ينزل

^١ الموطأ للإمام مالك الكتاب الجامع باب ما جاء في الحياء . حدثني عن مالك ، عن سلمة بن صفوان بن سلمة الزرقني ، عن زيد بن طلحة بن ركانة يرفعه إلى النبي صلى الله عليه وسلم قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لكل دين خلق .

وخلق الإسلام الحياء

^٢ صحيح البخاري كتاب الإيمان . حدثنا عبد الله بن محمد قال : حدثنا أبو غانم العنبري قال : حدثنا سليمان بن بلال ، عن عبد الله بن دينار ، عن أبي صالح ، عن أبي هريرة رضي الله عنه ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (الإيمان بضع وستون شعبة والحياء شعبة من الإيمان) .

^٣ الترمذي كتاب الاستئذان والآداب باب ما جاء في الاستئذان عند الجماع . حدثنا أحمد بن محمد بن نيزك البغدادي ، حدثنا الأسود بن عامر . حدثنا أبو عبيدة عن ليث عن نافع عن ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : يا أيكم والنسوي لأن معكم من لا يفارقكم إلا عند الغائط وحين يقضي الرجل إلى أهله فاستحيوهم وأكرمهم .

على الأرض إلا واحدة وهي التي يرحم بها احنا الآخر لدرجة أن الخير لا يضع قدمه على صغيره حتى لا تؤذيه (١) .

إن أكبر مظهر من مظاهر الأخلاق للبشر هي ذات الرسل والفضل الرسل محمد صلى الله عليه وسلم حيث وصفه الله تعالى بقوله لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم " (للتوبة آية ١٢٨) .

وبأتي بعد الرسل الأمم السابقة وقد وصف الله أمة سيدنا عيسى بالرفقة والرحمة " وجعلنا في قلوب الذين اتبعوه رافة ورحمة " (الحديد آية ٢٧) . وهذا هو ما اتصفت به أمة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم " ولذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم " (الفتح آية ٢) ، وحتى أن العلاقات التي تقوم بين الأقارب وبعضهم لبعض قد عبر عنها بصلة الرحم، لأن القرابة تأتي من رحم الأم وللرحم من الرحمن وهذا يعنى أن الرحمة ما هي إلا صورة من صور الرحمن وقد جاء في الحديث الشريف : " الرحم شجنة من الرحمن " (٢) .

بمعنى أن عاطفة الشفقة لدى الأقارب ما هي إلا إحدى فروع الرحمة ويقول سيدنا أسامة بن زيد رضي الله عنه أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان يجلسني على إحدى ركبتيه ويضع على الأخرى الإمام الحسن رضي الله عنه وكان يقول اللهم ارحم هؤلاء فاني رحيم بهم (٣) .

^١ البخاري كتاب الأدب. حدثنا الحكم بن نافع البهراي: أخبرنا شعيب، عن الزهري: أخبرنا سعيد بن المسيب: أن أبا هريرة قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (جعل الله الرحمة في مائة جزء، فأمسك عنده تسعة وتسعين جزءاً، وأنزل في الأرض جزءاً واحداً، فمن ذلك الجزء يتراحم الخلق، حتى ترفع القرم حافرها عن ولدها، خشية أن تصيه) .

^٢ البخاري كتاب الأدب باب من وصل الله وصله. حدثنا خالد بن مخلد: حدثنا سليمان: حدثنا عبد الله بن دينار، عن أبي صالح، عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (إن الرحمن شجرة من الرحمن، فقال الله : من وصلك وصلته، ومن قطعك قطعت). .

^٣ البخاري كتاب الأدب باب وضع الصبي على الفخذ. حدثنا عبد الله بن محمد: حدثنا عارم: حدثنا المعمر بن سليمان: يحدث عن أبيه قال: سمعت أبا تيمجة يحدث، عن أبي عثمان النهدي: يحدثه أبو عثمان، عن أسامة بن زيد رضي الله عنهما: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يأخذني فيقعدني على فخذه، ويقعد الحسن على فخذه الآخر، ثم يضمهما، ثم يقول: (اللهم ارحهما فإني أرحهما).

جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم مع ولده فاحتضنه أمام الرسول فقال له الرسول: هل تعطف عليه، فقال الرجل: نعم، قال له الرسول: إن الله أكثر رحمة عليك فيقدر عطفك على طفلك فالله أرحم الراحمين (١) .

ذات مرة قبل رسول الله صلى الله عليه وسلم سيدنا الحسن رضي الله عنه وكان الأقرع بن حابس المعروف ببدائوته يجلس معه فقال: إن لي عشرة أطفال لم أقبل أحدا منهم فنظر إليه الرسول صلى الله عليه وسلم وقال: إن الله لا يرحم من لا يرحم . وهناك بدوي آخر قال للرسول صلى الله عليه وسلم إنكم تقبلون الأطفال ونحن لا نقبلهم فقال له الرسول صلى الله عليه وسلم لقد نزع الله من قلوبكم الرحمة فماذا نفعل (٢) .

إن العطف على الصغير هو صفة من صفات الأمة المحمدية لهذا قال الرسول صلى الله عليه وسلم "من لم يرحم صغيرنا فليس منا" ومن يتمن في الحديث يتضح له أن المقصود ليس صغارنا ولكن كل ما يكون تحت أيدينا .

إن عاطفة الأمانة والمحبة لدى القوم ما هي إلا عنصر من عناصر الأخلاق المهمة بين الأمم ولهذا نعت القرآن الكريم الصحابة رضوان الله عليهم بقوله "رحماء بينهم" وقد جاء الحديث الشريف بأمثلة عديدة منها "المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا إذا اشتكى منه عضو تداعت له سائر الأعضاء" (٣) بمعنى أن عاطفة الرحمة تتحد في المجتمع بحيث تكون منهم كالجسد الواحد إذا اشتكى أي عضو من هذا الجسد تشعر به كل أعضاء هذا الجسد وهكذا فإن أي شخص من المسلمين إذا أصابه ألم يجب على المسلمين جميعا مؤازرته.

^١ أدب المفرد باب رحمة العيال .

^٢ البخاري كتاب الأدب باب رحمة الولد وتقبيله ومعاقبته، الترمذي أبواب البر والصلة باب ما جاء في رحمة الصبيان. حدثنا محمد بن يوسف: حدثنا سفيان، عن هشام، عن عروة، عن عائشة رضي الله عنها قالت: جاء أعرابي إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: تقبلون الصبيان؟ لما تقبلهم، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: (أو أملك لك أن نزع الله من قلبك الرحمة).

^٣ البخاري كتاب الأدب باب رحمة الناس والبهائم. حدثنا خلاد بن يحيى قال: حدثنا سفيان، عن أبي بردة بن عبد الله بن أبي بردة، عن جده، عن أبي موسى، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (إن المؤمن للمؤمن كالبنيان، يشد بعضه بعضا). وشبك أصابعه. وحدثنا أبو نعيم: حدثنا زكرياء، عن عامر قال: سمعته يقول: سمعت النعمان ابن بشير يقول: (قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (ترى المؤمنين في تراحمهم، وتوادهم، وتعاطفهم، كمثل الجسد، إذا اشتكى عضو، تداعى له سائر جسده بالسهر والحمى) .

ولم يقتصر الإسلام في تعاليمه للمسلمين بأن تكون هذه العاطفة خاصة ببني البشر بل إن دائرتها تشمل غير البشر فقد جاء في الأحاديث "ارحموا من في الأرض يرحمكم الله" (١).

وهكذا فالرحمة تشمل الحيوانات وقال للرسول صلى الله عليه وسلم: "إن من يرحم للذبيحة فيسبحه الله يوم القيامة" وجاء شخص إلى الرسول صلى الله عليه وسلم وقال يا رسول الله إنني أشعر بالشفقة عندما أذبح شاة فقال له للرسول صلى الله عليه وسلم: إذا رحمت الشاة يرحمك الله .

إن سباق مصارعة للطيور التي تجري تتعارض مع عاطفة للرحمة لهذا حرم الإسلام هذه المسابقة وقد منعها الرسول صلى الله عليه وسلم وقد قال الرسول فيما يتعلق بالرحمة "من لا يرحم لا يرحم" وشرح هذه الجملة يحتاج إلى وقت طويل ولكن جامعيتها تكفي كل من أراد أن يتصف بالرحمة فالرحمة تكون لمن يرحم ومن لا يرحم لا يرحم . وقد كتب المحدث ابن أبي طالب في شرح هذا الحديث ما معناه أن المقصود بهذا هو رحمة جميع المخلوقات فهي تشمل للمسلم والكافر وما نملك من حيوانات سواء من إطعامها أو للتخفيف عنها وعدم ضربها كل هذا يدخل في باب الرحمة (٢) .

والخلاصة فإن العطف على اليتيم ومساعدة الفقير وزيارة المريض وحماية المظلوم ورعاية الضعيف كل هذا يدخل في نطاق الحديث فليرحم الله من يرحم .

العدل و الإنصاف

العدل في العربية يعني تساوي أي وزن من الأوزان (٣) نفهم من هذا أن معناه في لغتنا التي نتحدث بها هو أن أي عمل لابد وأن يوزن بميزان الصدق ولا يجب علينا الانحراف عنه، وهذا يوضح أن كفة العدل والإنصاف في ميزان الأخلاق يجب أن تكون متساوية .

١ سنن أبي داود أبواب البر والصلة باب ما جاء في رحمة الناس. حدثنا مسدد وأبو بكر بن أبي شيبة، المعنى قال: ثنا سفيان، عن عمرو، عن أبي قابوس مولى لعبد الله بن عمرو، عن عبد الله بن عمرو، يبلغ به النبي صلى الله عليه وسلم: الراحمون يرحمهم الرحمن، ارحموا أهل الأرض يرحمكم من في السماء .

٢ صحيح البخاري كتاب الأدب باب رحمة الناس والبهائم. حدثنا عمر بن حفص: حدثنا أبي: حدثنا الأعمش قال: حدثني زيد بن وهب قال: سمعت جرير بن عبد الله، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (من لا يرحم لا يرحم) .

٣ فتح الباري المجلد العاشر — ٣٦٨ مصر .

والعدل أولاً هو صفة من صفات الله، والروايات التي جاءت حول أسماء الله الحسنى التسع والتسعون تقول أن معنى العدل هو الحكم بالحق، وقد ورد ذكر الحق في القرآن الكريم بأشكال مختلفة (١): "والله يقضي بالحق" (غافر آية ٢٠)، وهذه إشارة إلى العدل العملي وفي آية أخرى: "والله يقول للحق" (الأحزاب آية ٤)، وهذه الآية تشير إلى العدل القولي، وكلاهما قد جمع في الآية التالية حيث يقول القرآن: "وتمت كلمة ربك صدقا وعدلا" (الأنعام آية ١١٥).

وللدنيا وما فيها كلها تقوم على العدل الإلهي الذي يشمل جميع المخلوقات، وهذا أكبر دليل على وحدانية الله: "شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائما بالقسط" (آل عمران آية ١٨).

يظهر من هذه الآية أن العدل لا يخص تنظيم للدولة فقط بل إنه يشمل جميع جوانب الحياة المختلفة، وللنظام العالمي لا يقوم إلا على العدل، وأول ما أمر الله به في محكم كتابه العزيز:

"إن الله يأمر بالعدل والإحسان" (النحل آية ٩٠). والعدل من مقتضيات القانون بينما الإحسان والعفو مطلب أخلاقي والله تعالى أمر بالعدل في الدنيا وأكد بعد ذلك على الإحسان حتى يكتمل به الجانب الروحي للإنسان.

وهذا يوضح أن فرض مراقبة للعالم أكثر أهمية من تكميل الجانب الروحي للفرد ولهذا جاء الحكم بالعدل أولاً حتى تستقيم جميع جوانب الحياة فمثلاً طلب القرآن الالتزام بالعدل لمن يتزوجون أكثر من امرأة بقوله: "فإن خفتن ألا تعدلوا فواحدة أو ما ملكت أيمانكم" (النساء آية ٣). وطالب المجتمع أيضاً مراعاة حقوق اليتامى وقال: "وأن تقوموا لليتامى بالقسط" (النساء آية ١٢٧) وفي المعاملات العامة ركز القرآن على العدل في الكيل والميزان:

"وأوفوا الكيل والميزان بالقسط" (الأنعام آية ١٥٢).

وقد جاء ذكر الكيل والميزان والعدل فيه في مواضع عدة من القرآن الكريم لأنها تغطي جوانب عديدة من حياة الإنسان، حتى أن العدل في المكاتبات أمر أقره الإسلام وأكد عليه:

"وليكتب بينكم بالعدل" (البقرة آية ٢٨٢).

^١ كتاب الأسماء و الصفات لله تعالى ص ٦١ إله آباد .

" فإن كان الذي عليه الحق سفيها أو ضعيفا أو لا يستطيع أن يمل هو فليمل وليه بالعدل " (البقرة آية ٢٨٢) .

وكثيرا ما يتذبذب الإنسان في قول العدل أو الشهادة عندما يكون أحد أقربائه طرفا فيها إلا أن الإسلام أمر بعدم التخلي عن قول الحق حتى ولو كان هذا ضد قريب أو صديق .

" وإذا قتلتم فاعلوا ولو كان ذا قرى " (الأنعام آية ١٥٢) .

" يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى " (المائدة آية ٨) .

ففي الآية الأولى نبه القرآن بأن لا نحابي صديقا أو قريبا في قول الحق وفي الآية الثانية أن لا نظلم عدوا، فالعدل هو أقرب للتقوى. ومعروف أن اليهود والنصارى هم أشد عداوة لنا، ورغم هذا فقد أمر الله رسوله بالعدل معهم:

" وقل آمنت بما أنزل الله من كتاب وأمرت لأعدل بينكم الله ربنا وربكم لنا أعمالنا ولكم أعمالكم ولا حجة بيننا وبينكم والله يجمع بيننا وإليه المصير " (الشورى آية ١٥) .

فالعدل والمساواة في هذه الآية الكريمة له جوانب عديدة أولها أن الصدق والحق الذي نزل على من عند الله أمرت أن أبلغه بالعدل والثاني أن العدل هو الأساس حتى وإن اختلفت في العقيدة، الأمر الثالث أنه لا تمييز في الحكم بين الأغنياء والفقراء فالجميع سواسية أمام القانون فאלله هو رب العالمين ونحن عباده، ولهذا يجب أن يكون القانون واحدا على الجميع لنا أعمالنا ولكم أعمالكم والجميع سيلتقي يوم القيامة ويأخذ جزاؤه طبقا لما قدم من أعمال في الدنيا .

وهناك أمر أصعب على الإنسان مما سبق عندما يتعلق الأمر بشخص الإنسان وأقربائه ولهذا أرشد الله رسوله الكريم بقوله: " يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين إن يكن غنيا أو فقيرا فالله أولى بهما فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا وإن تلوأ تعرضوا فإن الله كان بما تعملون خبيرا " (النساء آية ١٣٥) .

فالأيات هنا لم تترك شيئا يتعلق بالعدل إلا وأكدت عليه خاصة فيما يتعلق بالنفس والأعزاء والأقارب والأغنياء والفقراء، فالعدل يتطلب من الإنسان أن لا يخفي شيئا لإظهار الحق حتى ولو كان على نفسه ولا يجب أن تأخذ الإنسان لومة لائم أو

رأفة على فقير أو مسكين فالعواطف يجب أن لا تكون حائلا في طريق إقرار الحق والعدل .

كما أن الآيات أيضا تؤكد على الإنسان أن لا ينظر في إقرار الحق إلى منفعة أو خسارة فانه ينظر ويراقب الجميع فهو أولى من الجميع بعباده. وربما يعتقد الإنسان في أن الشهادة الباطلة ربما تفيد الإنسان وينصلح حاله في المستقبل، وهو لا يعلم أنه بهذا ربما يكون قد أذاه فلا يعلم الخير والشر إلا الله لهذا يجب علينا تحري الصدق والالتزام به لأنه هو الذي سيأخذنا على طريق العدل والإنصاف فالنافع والضار هو الله وحده، والعدل هو سر فلاح هذا العالم ونقمة .

إن رشوة الحكام للتأثير على آرائهم عدته للشرعية المحمدية نذبا عظيما، وبعض المفسرين يعتبرون أن هذه الآية ما هي إلا إشارة لتحريم الرشوة :

" وتلوا بها إلى الحكام لتأكلوا فريقا من أموال الناس بالإثم وأنتم تعلمون " (البقرة آية ١٨٨) .

إن إصلاح ذات البين هو نوع من العدل لهذا أمر الله عباده بأن لا يناصروا فئة على فئة أخرى وأن يحكموا بينهما بالعدل :

" وإن طائفتين من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء إلى أمر الله فإن فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا إن الله يحب المقسطين " (الحجرات آية ٩) .

إن العدل و الإنصاف هو أساس الملك ولهذا أكد عليه الإسلام في جوانب الحياة وإلا عم الفساد الدولة ولهذا كان العدل هو أول فروض الحاكم فانه يقول :

" إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل " (النساء آية ٥٨) .

وقد أشار أهل التفسير بأن المقصود بالأمانة في الآية هو قول العدل فواجب كل منا على الآخر أن نرد الحق لأهله ولا نفرق فيها بين صديق وعدو فالجميع سواسية، وهذا ما أمر الله به رسوله صلى الله عليه وسلم في التعامل مع اليهود :

" وإن حكمت فاحكم بين الناس بالقسط إن الله يحب المقسطين " (المائدة آية ٤٢) .

وأفضلية العدل والإنصاف تتضح من الله تعالى فقد بشر من يقوم بأدائها بأنه من أحبب الله .

والعدل لا يقتصر على الأمور الأخلاقية فقط بل يشمل السياسة أيضا حتى وإن كان القرآن الكريم لم يذكر هذا صراحة إلا أنه يتضح من الآيات القرآنية أن من يقوم بأداء هذا الواجب لابد وأن يتصف ببعض الصفات كأن يكون حرا ولديه القدرة على تنفيذ الحكم وأن يكون عالما يتمتع بنعمة الكلام. وهكذا أشار القرآن :

" وضرب الله مثلا رجلين أحدهما أبكم لا يقدر على شيء وهو كل على مولاه أينما يوجهه لا يأت بخير هل يستوي هو ومن يأمر بالعدل وهو على صراط مستقيم " (النحل آية ٧٦) .

ولقد كتب الإمام الرازي في تفسير هذه الآية بأن من يتولى القضاء يجب أن يكون قادرا على النطق وإلا فلن يستطيع للحكم لأن مرتبته ومكانته تعلو بالقضاء وطالما أنه لا يستطيع التحدث فلن يصل إلى كرسي القضاء، كما يجب أن يكون عالما حتى يستطيع أن يميز بين الظلم والعدل، وبناءا على هذا فإن العلم والقبرة على الحديث صفتان ضروريتان للقاضي. فإذا كان المدعي أبكم فلا يصح أن يكون القاضي مثله، وإذا كان المدعي أيضا جاهلا فلا بد وأن يكون القاضي عادلا حتى يستطيع أن يقوم بواجبه كما ينبغي .

يتضح من هذا أن الإسلام عندما أمر بالعدل فإنه يغطي به جميع جوانب الحياة الأخلاقية والاجتماعية والسياسية، وفي ضوء الآيات السابقة يجب على كل مسلم أن يكون عادلا وعلى الحاكم أو أولي الأمر أن يكون أكثر عدلا ولهذا جاء في الحديث النبوي أن للإمام للعادل فضيلة كبرى وقال الرسول صلى الله عليه وسلم: "سبعة يظلهم الله يوم القيامة في ظله يوم لا ظل إلا ظله منهم الإمام العادل " (١) .

الوفاء بالعهد

إن الوفاء بالعهد شعار كل موي، والله تعالى نفسه نسب الوفاء بالعهد إلى نفسه أكثر من مرة فقال :

" إن الله لا يخلف الميعاد " (آل عمران آية ٩) ، (الرعد آية ٣١) .

^١ البخاري كتاب المحاررين باب فضل من ترك الفواحش. حدثنا محمد بن بشر قال: حدثنا يحيى، عن عبيد الله قال: حدثني خبيب ابن عبد الرحمن، عن حفص بن عاصم، عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (سبعة يظلهم الله في ظله، يوم لا ظل إلا ظله: الإمام العادل، وشاب نشأ في عبادة ربه، ورجل قلبه معلق في المساجد، ورجلان تحابا في الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه، ورجل طلبه امرأة ذات منصب وجمال، فقال: إني أخاف الله، ورجل صدق، أعفى حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه، ورجل ذكر الله خاليا، ففاضت عيناه) :

- " لا يخلف الله الميعاد " (الزمر آية ٢٠) .
- " إنك لا تخلف الميعاد " (آل عمران آية ١٩٤) .
- " وعد الله لا يخلف الله وعده " (الروم آية ٦) .
- " ولن يخلف الله عهده " (الحج آية ٤٧) .
- " فلن يخلف الله عهده " (البقرة آية ٨٠) .
- " و من أوفى بعهده من الله " (التوبة آية ١١١) .

وبما أن الله صادق في عهده لهذا جعلها إحدى الصفات الجيدة في عباده، فكل من التزم بأمر يجب عليه الوفاء به مهما كانت الظروف فالباحر قد تغير مسارها والجبال قد تتحرك من مكانها إلا أن المسلم الحق يجب أن يكون متمسكا بقوله وعهده. وعامة الناس يعتبرون بأن العهد ما هو إلا الالتزام بالقول فقط إلا أن معناه في الإسلام يشمل جوانب عدة في الحياة سواء كانت عهود أخلاقية اجتماعية دينية اقتصادية تجارية أو غير ذلك من الأمور التي يجب على الإنسان احترامها ومن هنا وجدنا هذا اللفظ البسيط يشمل جميع الفضائل العقلية والشرعية والقانونية والأخلاقية والاجتماعية. وقد جاء ذكر كل هذه الأشياء في القرآن الكريم :

- " والموفون بعهدهم إذا عاهدوا " (البقرة آية ١٧٧) .
- وقد عد القرآن من يوفي بعهده كأنه كامل الإيمان .
- " والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون " (المؤمنون آية ٨) .
- وفي موضع آخر وبعد وصفه للمؤمن يقول :
- " والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون " (المعارج آية ٣٢) .

إن من يأخذ شيئا على سبيل الأمانة عليه أن يوفيه دون زيادة أو نقصان، وهو التزام يدخل في باب التعامل ولهذا جعل هذا الوفاء من صفات المسلم، وأمره بالالتزام به وذلك في قوله :

" وأوفوا بالعهد إن العهد كان مسئولا، وأوفوا بالكيل إذا كنتم وزنوا بالقسطاس المستقيم ذلك خير وأحسن تأويلا " (الإسراء الآيات ٣٤، ٣٥) .

إن كل مكيال ومقياس تعارف عليه الناس هو في الحقيقة بمثابة عهد أو اتفاق بين البائع والمشتري ولهذا جاء الإيفاء بالعهد العام أولا في الآية ثم أكد القرآن بعده

على العهد الخاص، كما أنه ليس من الضروري أن يكون الإيفاء بالعهد هو مجرد الإقرار به بل إنه عرف عام في المجتمع يجب إتباعه و العمل به .

يجب على الإنسان الالتزام بالعهد الأول الذي أبرم بين الله وعباده منذ أن قال الله ألسن بربكم، قالوا بلى، والعهد الثاني الذي يتم في شكل البيع والشراء بين الناس، والعهد الثالث يكون في شكل قول وإقرار بين البشر، والعهد الرابع هو الإيفاء بالمواثيق كما أشار بذلك القرآن الكريم :

" الذين يوفون بعهد الله وما ينقضون من ميثاق، والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل " (الرعد الآيات ٢٠، ٢١) .

ففي الآيات السابقة ذكر الله للعهد الفطري بين العبد وربه والعهد الثاني هو الوفاء بما يلتزم به الإنسان تجاه أخيه الإنسان من مواثيق ومعاهدات، وبهذا ذكرت الآيات العهد الطبيعي بين الإنسان وأقربائه، وقد جاء في سورة النحل التأكيد على هذه المعاهدات التي تتم بين الناس بعد الحلف بالله أو ما شابه ذلك من مواثيق فقال :

" وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها قد جعلتم الله عليكم كفيلا " (النحل آية ٩١) .

وتشمل المعاهدات هذه المعاهدة التي تمت بين الرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه عندما شرفوا بالإسلام هذا إلى جانب المعاهدات الطيبة التي كانت في الجاهلية بين المسلمين وغيرهم سواء عن طريق الحلف بالله أو بكتابة للمواثيق والعهود وهذا ما وصى به الله عباده بقوله :

" وبعهد الله أوفوا ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون " (الأنعام آية ١٥٢) .

ويدخل في باب للعهود كل ما أمر الله به عباده سواء كان هذا كتابة أو قولا .

لقد تعاهد المسلمون مع الكفار في صلح الحديبية وأراد الله للمسلمين أن يكونوا أقوياء وبالفعل ازدادت قوتهم في مقابل أعدائهم، وكان بإمكان المسلمين أن ينقضوا للميثاق إلا أن هذه المعاهدة كانت بمثابة اختبار لهم، ولهذا كان الله دائما يذكرهم بالالتزام بها رغم قوتهم لأن هذا ليس من صفات المسلم، وظل المسلمون ملتزمين بها إلى أن خرقها للكفار ورغم هذا أمر الله المسلمين بأن يمهلوهم أربعة أشهر :

" براءة من الله ورسوله إلى الذين عاهدتم من المشركين فسبحوا في الأرض أربعة أشهر واعطوا لكم غير معجزي الله " (التوبة آية ١) .

ليس هذا فحسب بل إن الله أمر المسلمين بأن يلتزموا بالمعاهدة مع المشركين الذين التزموا بها وقال :

" إلا الذين عاهدتم من المشركين ثم لم ينقصوكم شيئاً ولم يظاهروا عليكم أحداً فأتموا إليهم عهدهم إلى ميثهم إن الله يحب المتقين " (التوبة آية ٤) .

وقد عبر الله عن الوفاء بالعهد بالقوى ووصف من يقوم به بالمتقي، وتبرأ من المشركين الذين نقضوا عهدهم مع الله ورسوله، وبأنه الله للمسلمين أن لا يأخذهم الحماس وينقضوا عهدهم مع الذين أوفوا للعهد من المشركين، وقال:

" كيف يكون للمشركين عهد عند الله وعند رسوله إلا الذين عاهدتم عند المسجد الحرام فما استقاموا لكم فاستقيموا لهم إن الله يحب المتقين " (التوبة آية ٧) .

المقصود بالاستقامة هو الوفاء بالعهد ولهذا عبد الله من يقوم به من المتقين، ووفاء العهد يوجب الحب والسعادة وما ينعم الله به على عباده المتقين الذين يوفون بعهدهم، وقد وصف القرآن الكريم للعهد بالعقد في موضع آخر بقوله:

" يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود " (المائدة آية ١) .

ومعنى عقد هو العقدة لكن المقصود هنا هو عقود التعامل بين الناس. وهذا هو المعنى الاصطلاحي وقد كتب الإمام الرازي في تفسيره الكبير أن تعبير "أوفوا بالعقود" يشبه تعبير "أوفوا بالعقود" ويدخل تحت كلمة عقد كل عقود البيع واليمين والنذر والصلح والنكاح وغير ذلك من العقود بين الناس والخاصة أن ما يتم بين إنسان وآخر من عهد أو عقد يجب الوفاء به (١) .

ولكن لفظ العقد يتعلق أكثر بالمعاملات بينما لفظ العهد أشمل وأوسع من لفظ العقد، لدرجة أن حسن المعاملة بين الشخص والآخر تدخل في إطار العهد، فروي في صحيح البخاري عن السيدة (عائشة) رضي الله عنها أنها لم تكن تغير إلا من السيدة (خديجة) رضي الله عنها رغم أن زواجها من الرسول قد تم بعد وفاتها بثلاث أعوام ورغم هذا كان الرسول صلى الله عليه وسلم دائم الحديث عنها، فكان عندما يذبح شاة يرسل لصديقاتها هدية منها بمعنى أنه ظل يحافظ على علاقته بصديقاتها بعد

^١ تفسير الكبير المجلد الخامس ص ٥٥٥ .

وفاتها^(١). وقد عقد الإمام البخاري باباً في كتاب الأدب تحت عنوان "حسن العهد من الإيمان" وجاء ذكر الحديث السابق في هذا الباب. وقد روى (الحافظ بن حجر) في فتح الباري نقلاً عن (البيهقي) "أن عجوزاً جاءت للنبي صلى الله عليه وسلم فقالت له: يا رسول الله! كيف حالك بعد أن تركتينا؟ فقالت السيدة: الحمد لله كل خير، وعندما ذهبت هذه السيدة فسالت السيدة (عائشة) النبي صلى الله عليه وسلم من هذه السيدة التي أوليتها اهتمامك؟ فقال الرسول صلى الله عليه وسلم: إنها ميدة كانت تأتي لهم في عهد السيدة (خديجة) رضي الله عنها وقال: إن حسن العهد من الإيمان".

وقال الرسول صلى الله عليه وسلم في إحدى أحاديثه المعروفة عن سيدنا (أنس) رضي الله عنه أن للرسول صلى الله عليه وسلم كان يكرر هذا في كل خطبة يقولها "لا دين لمن لا عهد له" (أحمد الطبراني وابن حبان).

الإحسان

صفة الإحسان تعني عمل كل شيء طيب ولهذا تعددت صورته ولا يمكن إجمالها إلا أن هناك صورة يمكن أن نطلقها وهي حسن التعامل مع الآخرين وإسعادهم. ومن يكون أكثر إحساناً من الله؟ فلا حدود لإحسانه فكل ما نراه هو مظهر من مظاهر إحسان الله :

"وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها إن الإنسان لظلوم كفار" (إبراهيم آية ٣٤) .
 سيدنا (يوسف) عليه السلام شكر الله على إحسانه عليه إذ أخرجه من السجن وجاء بأهله من البدو إلى مصر وهو ما ذكره القرآن الكريم^(٢):
 "وقد أحسن بي إذ أخرجني من السجن وجاء بكم من البدو" (يوسف آية ١٠٠) .
 وهذا ما ورد في قصة (قارون) عندما قال له الله تعالى :
 "أحسن كما أحسن الله إليك" (القصص آية ٧٧) .

^١ البخاري كتاب الأدب باب حسن العهد من الإيمان. حدثنا عبيد بن إسماعيل: حدثنا أبو أسامة، عن هشام، عن أبيه، عن عائشة رضي الله عنها قالت: ما غرت على امرأة ما غرت على خديجة، ولقد هلك قبل أن يتزوجني ثلاث سنين، لما كنت أسمع يذكرونها، ولقد أمره ربه أن يشرها بيت في الجنة من نصب، وإن كان ليلج الشاة ثم يهدي لي خلتها منها.

^٢ يجب أن نذكر شيئاً هنا هو أن معنى الإحسان في العربية هو حسن أداء الواجب، أما في اللغة الأوردية فمعناه فضل الذي هو أحد مشتقات اللفظ العربي وهذا هو المعنى الذي تدل عليه الآيات التالية في القرآن الكريم: "إن الله لا يضيع أجر المحسنين" (التوبة آية ١٢٠). "لو أن لي كرة فأكون من المحسنين" (الزمر آية ٥٨). "والله يحب المحسنين" (آل عمران آية ١٣٤).

وهكذا نجد أن الإحسان ضروري في الدنيا بوجاهة التعاليم المحمدية لتكتمل هذا الأساس والقرآن الكريم أكد عليه في أكثر من موضع كما جاء في سورة النحل :
" إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى " (النحل آية ٩٠) .

والإحسان لا يبنى على راحة ومثقة أحد بل هو واجب على كل فرد إلا أن الله جاء به في الآية السابقة بعد العدل والإحسان يعني للفضل ومساعدة الآخرين، كما أن الإحسان لا يقتصر على المساعدة المالية للأقارب فقط بل أن معناه أوسع من هذا فكل مساعدة ليقيم أو قريب أو محتاج أو جار أو غابر سبيل وغير ذلك ممن يستحقون الإحسان والآيات القرآنية في سورة البقرة والزخرف والأنعام والإسراء تؤكد على هذا .
والخلاصة أن الإحسان واجب على كل فرد وكلما اتسعت قدرة الإنسان المالية كلما كانت دائرة إحسانه أوسع وهذا ما طالب به أهل قرون :

" وأحسن كما أحسن الله إليك " (القصص آية ٧٧) .

وأفضل صور الإحسان هي أن تتخذ أي شخص من مصيبة حلت به مفقداً أنتقد الله سيدنا (يوسف) عليه السلام من السجن واعتبره سيدنا (يوسف) عليه السلام فضلاً كبيراً :
" وقد أحسن بي إذ أخرجني من السجن " (يوسف آية ١٠٠) .

والمساعدة المالية تعد من أهم صور الإحسان أيضاً هذا إلى جانب مئات الأفعال الحسنة التي عبر الله عنها بالإحسان فمثلاً تغيب النساء بحيل للقانون يعد أمراً سيئاً ولهذا طالب الله الزوج أن يمسك على زوجته بالمعروف وإلا فتسريح بإحسان :
" الطلاق مرتان فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان " (البقرة آية ٢٢٩) .
والعادة جرت على أن الزواج أمر بالمعروف فيجب على كل إنسان أن يلتزم بهذا ولا يماطل فيه :

" فمن عفى له من أخيه شيء فاتباع بالمعروف وأداء إليه بإحسان " (البقرة آية ١٧٨) .
فالعفو أيضاً درب من دروب الإحسان والله يحب من يتحلى به :
" والله يحب المحسنين " (آل عمران آية ١٣٤) .

والإحسان جاء في القرآن الكريم بلفظ آخر وهو للفضل فمثلاً للمرأة المتروجة ولم يدخل بها نصف المهر^(١) فإذا تركته المرأة فيعد هذا فضلاً منها ولو أعطى الرجل المهر كله فهذا أيضاً فضل وحسن خلق منه والله يقول :

^١ يعني أن يكون للمهر قد حدد بين الطرفين ولا فيمضي للامس تكفي .

• ولا تتسوا الفضل بينكم إن الله بما تعملون بصير " (١) (البقرة ٢٣٧) .

ولو حدث من أي فقير أو مسكين ما يوجب الغضب فيجب على المحسنين أن يعفوا ويصفحوا (٢) .

• ولا يأتل أولوا الفضل منكم والسعة أن يؤتوا أولى القربى والمساكين والمهاجرين في سبيل الله وليعفوا وليصفحوا " (النور آية ٢٢) .

وهناك ضمن المعاني الواسعة للإحسان معنى المعروف، فكل شيء معلوم من الدين بالضرورة يدخل في باب المعروف: "وأمر بالمعروف" (لقمان آية ٢٧) وهو ما أكده الرسول صلى الله عليه وسلم بقوله: كل معروف صدقة.

والصدقة هنا لا تقتصر على الفقير والغني بل هي واجب على كل مسلم لهذا قال الرسول صلى الله عليه وسلم: للصدقة واجبة على كل مسلم، فقال له الناس يا رسول الله لو كان الإنسان ليس له مال، فقال صلى الله عليه وسلم: على الإنسان أن يعمل ويكسب ويتصدق، فقال له الصحابة رضوان الله عليهم: إذا كان هذا ليس في مقدوره، فقال صلى الله عليه وسلم: على الفقير أن يعين المحتاج، فقال الصحابة: إذا لم يستطع، فقال الرسول صلى الله عليه وسلم: عليه فعل الخير، فقال الصحابة: إذا لم يستطع، فقال الرسول صلى الله عليه وسلم: الكف عن الأذى صدقة.

وفهم من هذا الحديث أن الاتفاق على الأسرة بمثابة الصدقة والابتسامة في وجه أخيك صدقة (٣). وجاء معنى آخر للإحسان في القرآن الكريم وهو معنى البر، فكلمة البر تشمل الكافر والمسلم :

• لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين " (الممتحنة آية ٨) .

^١ روى عن سعيد أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: "لا تتسوا الفضل بينكم" ابن جرير الطبري الجزء الثاني ٣٢١ مصر .

^٢ جاء في تفسير الآية المذكورة في كشاف الزمخشري أن المقصود بالفضل هنا هو المساعدة المالية .

^٣ صحيح البخاري كتاب الأدب باب كل معروف صدقة مع فتح الباري. حدثنا آدم: حدثنا شعبة: حدثنا سعيد بن أبي بردة بن أبي موسى الأشعري، عن أبيه، عن جده قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم: (على كل مسلم صدقة). قالوا: فإن لم يجد؟ قال: (فيعمل يديه فينفع نفسه ويتصدق). قالوا: فإن لم يستطع أو لم يفعل؟ قال: (فيعين ذا الحاجة الملهوف). قالوا: فإن لم يفعل؟ قال: (فليأمر بالخير، أو قال: بالمعروف). قال: فإن لم يفعل؟ قال: (فليمسك عن الشر فإنه له صدقة) .

كان هناك بعض من الصحابة لا يعتبرون البر على غير المسلمين حقة، فجاء الحكم الإلهي بأن هذا الأمر يخص الله سبحانه وتعالى فالخير يجب أن يفعله الإنسان دون تمييز بين مسلم وغير مسلم والله كئيل بثواب هذا العمل (١) :

" ليس عليك هدام ولكن الله يهدي من يشاء وما تتفقوا من خير فلا تفسدكم وما تتفقون إلا ابتغاء وجه الله وما تتفقوا من خير يوف إليكم وأنتم لا تظلمون " (البقرة آية ٢٧٢) .

فالإحسان يشمل كل شيء في الدنيا وفعل الخير من المبادئ الأساسية في الإسلام وثوابه لا بد وأن يكون بمثله :

" هل جزاء الإحسان إلا الإحسان " (الرحمن آية ٦٠) .

ورغم أن الآية تشير إلى أن ثواب الإحسان بالإحسان سيكون في الآخرة إلا أن المعنى العام للفظ الإحسان يعني أن من يفعل خيراً سواء في الدنيا أو الآخرة فسيكون جزاءه فيهما .

الدين هو من أكثر الأعباء في الدنيا والإسلام يحث الناس على تخفيف هذا العبء وألا يجبر المقرض المقرض على سداد الدين إذا لم يكن في استطاعته الوفاء به وبالتالي فمن يعفو يأخذ ثوابه من الله .

لقد كبل الربا العرب لدرجة أن من لم يوف بدينه كان يباع ويشترى كالعبيد وفي أيامنا هذه نجد أن الدين أصبح عبئاً كبيراً على الناس والنظام للرأسمالي يقوم على هذا، ومن هنا وجدنا القرآن الكريم ينكر هذا النظام بقوله :

" وإن كان ذو عسرة فنظرة إلى ميسرة وأن تصدقوا خير لكم " (البقرة آية ٢٨٠) .

والرسول يبين في حديث على لسان ربه يقول: "سيكون يوم القيامة ثلاثة أصناف من الناس من بينهم رجل باع حراً وانفق قيمته ولهذا وجدنا الرسول يؤكد على الإحسان بأشكاله المختلفة سواء بإمهال المقرض فرصة من الوقت أو إعفاء من القرض وهذه هي الإنسانية، لدرجة أن الرسول صلى الله عليه وسلم جعل أن الإنسان إذا لم يفعل في دنياه إلا مثل هذا الأمر فإنه سيغفر له يوم القيامة " .

وجاء في الحديث الشريف أن رجلاً لم يكن قد عمل طيباً في الدنيا إلا العفو عن من لم يكن بمقدوره سداد دينه وكان يقول: لتركوه عسى الله أن يغفر لنا بسببه وهكذا عفا الله عنه .

١ ابن جرير وابن كثر نقلوا عن السائي .

وفي حديث آخر كان هناك شخص قبلكم سأله الملائكة عن خير فعله في الدنيا فقال لهم ليس عندي فقال له الملائكة تذكر فقال للرجل لقد كنت أقرض للناس فإن كان المقرض كريماً سهلت له القرض، وإن كان فقيراً أمهلته حتى يسدد دينه (١) .

وهناك أحاديث كثيرة في هذا الشأن ففي حديث شريف أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: من أراد الله أن ينجيهِ من عذاب القيامة فعليه بأن يمهّل الفقير أو يغفوَ عنه (٢) .

وهذه رواية أخرى جاءت في مسند ابن حنبل من أمهل مدينه أو عفا عنه فإنه سيكون يوم للقيامة في ظل الله * (٣) .

الخلاصة أن الإسلام لم يحصر فعل الخير مع الآخرين في دائرة واحدة بل أطلقه ولم يجعل له حدوداً معينة والرسول صلى الله عليه وسلم يقول: إن الله فرض الإحسان على كل شيء حتى مع الحيوان فلو نبح أحدكم نبيحة فليحسن نبحها بأن تكون أدوات النبح حادة حتى لا تؤلم الذبائح (٤) .

ومن الواجب علينا أن نحسن إلى من أحسن إلينا لأن عكس هذا يخالف أخلاق التعاليم النبوية الشريفة، ذات مرة جاء شخص إلى الرسول صلى الله عليه وسلم يسأله: يا

^١ صحيح مسلم كتاب البيوع باب فضل إنظار المعسر. حدثنا أحمد بن عبد الله بن يونس، حدثنا زهير، حدثنا منصور، عن ربيع بن جراح: أن حذيفة حدثهم قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (ثلث الملائكة روح رجل ممن كان قبلكم، فقالوا: أعملت من الخير شيئاً؟ قال: لا، قالوا: تذكر. قال: كنت أدين الناس، فأمر فيأتي أن ينظروا المعسر ويتجاوزوا عن المؤسر، قال: قال الله عز وجل: تجوزوا عنه) .

^٢ للمرجع السابق. حدثنا أبو الهيثم خالد بن خدّاش بن عجلان، حدثنا حماد بن زيد، عن أيوب، عن يحيى بن أبي كثير، عن عبد الله بن أبي قتادة: أن أبا قتادة طلب غريماً له فتواري عنه ثم وجده، فقال: إني معسر. قال: الله؟ قال: الله. قال: فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (من سره أن ينجيهِ الله من كرب يوم القيامة فلينفس عن معسر، أو يضع عنه) .

^٣ مسند ابن حنبل المجلد الخامس ص ٣٠٨. حدثنا يعقوب بن إبراهيم النورقي، حدثنا إسماعيل بن إبراهيم، عن عبد الرحمن بن إسحاق، عن عبد الرحمن بن معاوية، عن حنظلة بن قيس، عن أبي اليسر صاحب النهي صلى الله عليه وسلم قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: من أحب أن يظله الله في ظله، فلينظر معسراً أو ليضع له.

^٤ صحيح مسلم كتاب الصيد والذبائح. حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة، حدثنا إسماعيل بن علية، عن خالد الحذاء، عن أبي قلابة، عن أبي الأخعث، عن شداد بن أرس، قال: الثمان حفظتهما عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: إن الله كب الإحسان على كل شيء، فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبائح، وليحد أحدكم شفرته، فليرح ذبيحته .

رسول الله لقد مررت على شخص فلم يستصغني فهل عندما يمر علي افعل مثلما فعل معي؟ فقال له الرسول صلى الله عليه وسلم: لا بل يجب أن تستصغيه (١) .

وجاء في موضع آخر يقول الرسول صلى الله عليه وسلم: لا تكن كمن فقد عقله وأن تفعل ما يفعله الآخرون وتقول نحسن لمن يحسن إلينا ونظلم من ظلمنا؛ بل أن تشهدا وتطمئن وتحسن لمن أحسن إليك ولا تنسيء إلى من ظلمك (٢) .

ومن الخطأ أن يحصر الناس الإحسان في الثروة والأمور الكبيرة ويقول هل يستطيع الفقير أن يحسن ولكن الأمر غير ذلك إذ ليس من الضروري أن تكون الثروة والمال هي الأساس في فعل الخير والتعامل مع الآخرين فالأمر أعمق من هذا، وسيدنا (البراء بن عازب) رضي الله عنه يقول: جاء بدوي إلى الرسول صلى الله عليه وسلم وقال: يا رسول الله أي الأعمال تؤدي إلى الجنة؟ فقال له الرسول صلى الله عليه وسلم: قولك مختصر ولكن سؤالك أكبر فعليك بتحرير الإنسان وعتق الرقاب، فقال البدوي: أليس الاثنين بمعنى واحد؟ فإن عتق الرقبة هو تحرير الإنسان! والاشترائك مع الآخرين في دفع القيمة لتحرير رقبة، وأحسن إلى من أساء إليك من الأقارب فإن لم تستطع فإطعام مسكين وإرواء عطشان وقل الخير وتجنب سوء فإن لم تستطع فامنع نفسك عن فعل سوء (٣) .

^١ جامع الترمذي باب ما جاء في الإحسان والعفو. حدثنا بندار وأحمد بن منيع ومحمود بن غيلان قالوا: حدثنا أحمد الزبيري عن سفيان عن أبي إسحاق عن أبي الأحوص عن أبيه قال: قلت يا رسول الله الرجل أمر به فلا يقربني ولا يصغني فيمروني أفأقربه؟ قال: لا، أقره .

^٢ جامع الترمذي أيضا انظر المعسر. حدثنا أبو هاشم الرفاعي محمد بن يزيد. حدثنا محمد بن فضيل عن الوليد بن عبد الله بن جميع عن أبي الطفيل عن حذيفة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: لا تكونوا إعة تقولون إن أحسن الناس أحسنًا وإن ظلموا ظلمنا ولكن وطنوا أنفسكم إن أحسن الناس أن تحسوا وإن أساءوا فلا تظلموا.

^٣ مستدرک الحاكم الجزء الثاني كتاب المكاتب. حدثني محمد بن صالح بن هاني، ومحمد بن عبد الله بن دينار العدل قالوا: ثنا أحمد بن محمد بن نصر، ثنا أبو نعيم الفضل بن دكين، ثنا عيسى بن عبد الرحمن السلمي، ثنا طلحة البامي، عن عبد الرحمن بن عوسجة، عن البراء بن عازب رضي الله عنه قال: جاء أعرجي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله علمني شيئاً يدخلي الجنة. فقال: لئن أقصرت الخطبة لقد أعرضت المسألة أعنى النسم وفك الرقبة قال: أو ليما واحداً؟ قال: لئن عتق النسم أن تفرد بعقها وفك الرقبة أن تعين في ثمنها واخنة المؤكولة والفهي على ذي الرحم الظالم فإن لم تطق ذلك فاطعم الجائع واسق الظمآن وأمر بالمعروف وأنهى عن المنكر فإن لم تطق ذلك فكفك لسانك إلا من عسر. هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه .

وسأل سيدنا (أبو ذر) رضي الله عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم: يا رسول الله أي الأعمال أفضل بعد الإيمان؟ فقال للرسول صلى الله عليه وسلم: أعطي مما أعطاك الله، فقال: يا رسول الله لو كان الإنسان مفلساً، فقال للرسول: فعليه ألا يقول إلا خيراً، فقال: يا رسول الله لو كان معذوراً ولا يستطيع أن يتحدث، فقال للرسول صلى الله عليه وسلم: فعليه بمساعدة المظلوم، فقال: يا رسول الله لو كان ضعيفاً، فقال للرسول صلى الله عليه وسلم: أن يساعد من لا يعرف شيئاً، فقال: يا رسول الله لو لم يكن في مقدوره هذا، فقال للرسول صلى الله عليه وسلم: عليه ألا يؤذي أحداً (١) .

العفو و التسامح

العفو من صفات الله تعالى، ولو لم يكن عفو الله في الدنيا لما بقى شيء للحظة واحدة، وغافر وغفور و غفار كل هذا من صفاته عز وجل .

" وهو الذي يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات " (التورى آية ٢٥) .

ولو أراد الله أن يهلك الناس بذنوبهم لهلكهم أو يعفو عنهم :

" أو يوبقهم بما كسبوا ويعف عن كثير " (التورى آية ٣٤) .

والله يغفر لمن يطلب التوبة من عباده فيقول :

" وإني لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحاً ثم اهتدى " (طه آية ٨٢) .

وقد جاء لفظ "غافر" في القرآن مرتين ولفظ "غفار" خمس مرات ومرة واحدة جاء لفظ "عفو" وأكثر من سبعين مرة جاء لفظ "غفور" تستنتج من هذا أن بحر عفو كبير يتجلى هذا في دعوته لعباده للتائبين فيقول :

" لو تعفوا عن سوء فإن الله كان عفواً قديراً " (النساء آية ١٤٩) .

ليس في مقدور الإنسان أن يعفو عن كل من يسئ إليه، إلا أن بحر مغفرة الله أوسع وأشمل وبما أن الله يعفو عن كثير لذا يليق بنا أن نعفو عن ظلمنا (٢) .

ونستخرج أيضاً من الآية السابقة أن الإنسان لو عفا عن ظلمه فإن الله يغفر له ذنوبه وهو ما صرحت به الآية التالية :

" وليعفوا وليصغروا ألا تحبون أن يغفر الله لكم والله غفور رحيم " (النور آية ٢٢) .

^١ مستدرک الحاکم الجزء الثاني کتاب الإيمان الجزء الأول ص ٦٣ .

^٢ تفسير ابن جرير الطبري والبحر المحیط لابن حبان .

والآية تحثنا على العفو والمغفرة فالعفو والمغفرة من صفات الله التي يجب أن نتحلى بها وهكذا وصف الله عباده المؤمنين بالغافرين :
" وإذا ما غضبوا هم يغفرون " (لقورى آية ٣٧) .

فالعفو في حالة الهدوء أمر طبيعي أما العفو في حالة الغضب فهذا أمر شاق على الإنسان لهذا وجدنا الآية تقول بأن جوهر الإنسان المؤمن لا يظهر إلا في السيطرة على الغضب والعفو لمن أساء إليه، ليس هذا فحسب بل إنه في حالة الاختلاف العقائدي فما تملك إلا أن تخاطب هؤلاء للجهال بالمعروف فإن لم يؤمنوا فاعرض عنهم :
" وإن تدعوهم إلى الهدى لا يسمعون وتراهم ينظرون إليك وهم لا يبصرون، خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلین " (الأعراف الآيات ١٩٨، ١٩٩) .

وفي هذه الحالة لا يبقى إلا أمرين إما أن نتوقف عن الدعوة أو نتحمل مضايقات هؤلاء المعاندين ونأمر بالمعروف ليس هذا فحسب بل يجب علينا أن نتبع قوله تعالى :
" ادفع بالتي هي أحسن السيئة نحن أعلم بما يصفون " (المؤمنون آية ٩٦) .
حتى لو أن جماعة دينية ارتكبت فإله يطالبنا بالتعامل مع هذه الجماعة بالمعروف فيقول:
" ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعدى إيمانكم كفاراً حسداً من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحق فاعفوا واصفحوا حتى يأتي الله بأمره " (البقرة آية ١٠٩) .

وهكذا لو أن المشركين الذين لا يؤمنون بيوم القيامة قالوا شيئاً يدعو إلى الغضب فيجب الصّبح عن هؤلاء الجاهلین، وبما أنكم تؤمنون بيوم القيامة فيجب أن تعلموا أن عقابهم عند الله في الآخرة :

" قل للذين آمنوا يغفروا للذين لا يرجون أيام الله ليجزي قوما بما كانوا يكسبون، من عمل صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها ثم إلى ربكم ترجعون " (الجاثية الآيات ١٤، ١٥) .
وقد كتب في نزول هذه الآية أنها نزلت بعد أن أساء كافر لأحد المسلمين فغضب وثار عليه بعض المسلمين فنزلت هذه الآية مطالبة المسلمين بالصّبح والعفو^(١). (تفسير الكبير للإمام الرازي الآية السابقة) .

^١ فيما يتعلق بالصّبح والعفو عن الكفار هناك نظرية لعامة المفسرين تقول بأن الجهاد قد نسخ العفو والتسامح مع الكفار إلا أن هناك بعض المفسرين يقول: أنه لا يوجد نسخ للعفو والتسامح مع الكفار كما صرح بذلك الإمام الرازي في تفسيره أن الله أمر رسوله في هذه الآية بقوله " واعرض عن الجاهلین " وهذا يعني أنه أمر بالصبر تجاه تجاوزات الجاهلین ولا يوجد في الآية ما يشير إلى الجهاد أو القتال. ولا يوجد تناقض بين الإعراض عن الجاهلین وقتل الكفار، ولا توجد ضرورة للذكر الناسخ والنسخ وإنما هذا نوع من الجدال لدى بعض المفسرين (المجلد الرابع ص ٤٩٦). ويكتب الرازي في تفسير " ادفع

متى يغضب الإنسان؟ يغضب الإنسان عندما يهينه إنسان آخر ولهذا فالإسلام أمرنا بالتحلي بالتسامح في هذه الحالة، وهكذا فلن سيدنا (مسطح) رضي الله عنه كان أحد أقرباء سيدنا (أبي بكر) رضي الله عنه، وكان سيدنا (أبو بكر) يتكفل به، ولكن عندما شارك في اتهام السيدة (عائشة) رضي الله عنها لوقف سيدنا (أبو بكر) رضي الله عنه مساعدته وكفالته وهنا نزلت هذه الآية. ومن هنا وجدنا أن الإسلام يحث على أن للتسامح لابد وأن يكون نابعاً من قوة وليس من ضعف وإلا اعتبر للتسامح مرادفاً للخنوع، ولم يقل الإسلام ما قال به الإنجيل :

" إذا لطمك شخص على خدك فأعطه الخد الآخر " لأن في هذا إذلال ومهانة نهى عنها الإسلام فيقول الله تعالى في القرآن الكريم :

" والذين إذا أصابهم البغي هم ينتصرون، وجزاء سيئة سيئة مثلها فمن عفا وأصلح فأجره على الله إنه لا يحب الظالمين " (الشورى الآيات ٣٩، ٤٠) .

فالرد على السيئة بسيئة قانون الجماعة إلا أن العفو والتسامح كمال أخلاق الأفراد. ويجب أن يكون العفو مثالا يحتذى بين الأفراد خاصة وأن الله قد تكفل بأجر هذا التسامح في الآخرة، والله لا يحب الظالمين، والعفو لا يتنافى مع الكرامة وهي صفة يتحلى بها أولو العزم الذين يملكون السيطرة على أنفسهم: "ولمن صبر وغفر إن ذلك من عزم الأمور" (الشورى آية ٤٣). وفي آية أخرى نرى تأثير التسامح كم يكون إيجابيا ويجعل العدو صديقا حميما :

بالي هي أحسن" أن هذه الآية منسوخة، وإنما غير منسوخة فأنه يطالب المسلمين باللين طالما أنه لم يفهم الدين (الجزء السادس ص ٣٠٠). أما تفسيره في آية "وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما" فيقول إن الكلبي وأبا العالية يقولون إن حكم القتال قد نسخ تلك الآية، وليس من الضروري أن نعمل بهذا النسخ لأن الإعراض عن الجاهلين أمر مستحسن في الشرع والعقل، ويبحث على السلام والعزة (الجزء السادس ص ٤٩٧ طبع دار الطباعة العامة، مصر). ويكتب في تفسير "يفغروا للذين آمنوا" (الجالية) أن أكثر المفسرين قالوا أنه طالما أن الله قد أمر بقتال المشركين فإن هذا يدخل في إطار العفو والكرم ويجب قتلهم، ولكن الأقرب إلى الصحة أن معنى هذه الآية بأن لا نقاتل الكفار على أبسط الأمور وأن نتسامح عن مساوئهم (المجلد السابع ص ٨٤ الطبعة المذكورة). ولكني أرى أن المعنى الظاهر لهذه الآية يقول بأن الله أمرنا نحن المسلمين بالصفح والعفو عن المذنبين والمشركين والكفار بمعنى أنهم قصروا في حق المسلمين أنفسهم فيجب على المسلمين أن يعفوا عنهم ولكن لا يعني هذا أن نعفو عن حق من حقوق الله فالجهاد والقتال أمر مشروع ولا يجب التفریط فيه، وقد نقل ابن عساکر عن سيدنا أبي مسلم الخولاني رضي الله عنه قد عفا عن جاريته الكافرة، وهذا يؤيد ما ذهبنا إليه (الجزء السادس ص ٣٩٠ مصر).

" ولا تستوي الحسنة ولا السيئة ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم، وما يلقاها إلا الذين صبروا وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم، وإما ينزغك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله إنه هو السميع العليم " (فصلت الآيات ٣٤، ٣٥، ٣٦) .

يتضح من نهاية هذه الآيات أن ما يقوم به الإنسان من غضب وثورة إنما هو نزغ من الشيطان، فيجب على الإنسان أن يستعذ بالله من هذا ويقول سيننا (ابن عباس) في تفسيره لهذه الآية: (إن الله أمر عباده المؤمنين بالتحلي بالصبر عند الغضب وبال حلم عند الجهالة، وبالعفو عند الإساءة فإذا فعل الإنسان هذا سيكون محفوظاً من أثر الشيطان) (١). ويقول (ابن مسعود) للصحابي للجليل بذات مرة كنت أضرب خادمي فجاء صوت من خلفي يقول: فلتعرف، فظنرت ورائي فرأيت الرسول صلى الله عليه وسلم يقول: يا ابن مسعود، فبقدر مالك من سيطرة وقوة على غلامك، فإله أقوى منك بكثير. ومن يومها وأنا أتذكر نصيحة الرسول صلى الله عليه وسلم ولم أضرب خادماً أبداً .

ذات مرة جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يسأله: يا رسول الله كم مرة أعفو عن خادمي، فصمت الرسول صلى الله عليه وسلم لفترة، ثم سأله الرجل مرة أخرى فقال الرسول صلى الله عليه وسلم: سبعون مرة في اليوم (٢). وليس المقصود في الحديث النبوي هو العدد بذاته ولكن يفيد الإكثار من التسامح .

يظن بعض الناس أن العفو والتسامح قد يكونا سبباً في ذهاب الهيبة والوقار ولكن هذا ليس صحيحاً فالانتقام ربما يكون علاجاً مسكناً لحظة وقوعه ولكن العفو من شيم للكرام ويزيد الهيبة والوقار في النهاية ولهذا قال الرسول صلى الله عليه وسلم: وما زاد الله رجلاً يعفو إلا عزاً (٣) .

^١ ابن كثير تفسر الآية المذكورة .

^٢ الترمذي أبواب البر والصلة باب ما جاء في أدب الخادم. حدثنا قتيبة. حدثنا زهير بن سعد عن أبي هاشم الخولاني عن عباس المجري عن عبد الله بن عمر قال: جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله كم أعفو عن الخادم؟ فصمت رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم قال: يا رسول الله كم أعفو عن الخادم؟ فقال: كل يوم سبعين مرة .

^٣ الترمذي أبواب البر والصلة وباب ما جاء في التواضع. حدثنا قتيبة. حدثنا عبد العزيز بن محمد عن العلاء بن عبد الرحمن عن أبيه عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ما نقصت صدقة من مال. وما زاد الله رجلاً يعفو إلا عزاً أو ما تواضع أحد لله إلا رفعه الله .

الحلم

إن معنى الحلم هو العفو عند المقدرة، وهذه صفة من صفات الله سبحانه وتعالى
فبالرغم من قدرته إلا أنه يعفو عن عباده للمذنبين ولهذا لازمت المغفرة صفة الحلم حتى
يعرف العباد أن كل ما يحدث هو نتيجة لعفو الله ومغفرته :

" والله غفور حلیم " (البقرة آية ٢٢٥ ، المائدة آية ١٠١) .

" إن الله غفور حلیم " (آل عمران آية ١٥٥) .

" إنه كان حلیمًا غفورًا " (الإسراء آية ٤٤ ، فاطر آية ٤١) .

نجد أن الله سبحانه وتعالى في كل هذه الآيات السابقة قد وصف نفسه بالغفور
إلى جانب صفة الحلیم لكي لا يعتقد أحد أن الحلم نعوذ بالله ناتج عن ضعف بل إن هذا
نتيجة لغفرانه لعباده، ونجده في موضع آخر يأتي بصفة العلیم إلى جانب صفة الحلم
فيقول :

" والله علیم حلیم " (النساء آية ١٢) .

" وإن الله لعلیم حلیم " (الحج آية ٥٩) .

" وكان الله علیمًا حلیمًا " (الأحزاب آية ٥١) .

يظهر من هذه الآيات السابقة أن علمه يسبق حلمه وأنه يعلم بكل ما يصدر عن
العباد، وفي موضع آخر من القرآن نجده ينكر صفة الاستغناء إلى جانب صفة الحلم :
" والله غني حلیم " (البقرة آية ٢٦٣) .

وقد جاءت هذه الآية في ذكر الصدقة لهذا فهو غني وحليم، أما الحلم في الإنسان
فغالبًا ما يكون نتيجة ضعف، وعدم القدرة على الانتقام وأن المصلحة تقتضي ذلك، إلا أن
هذا يعد ضعفًا وليس حلمًا، أما حلم الله ففيه استغناء ومبرأ من كل مصلحة .

الحلم بشكل عام جدير بالاحترام ولكن عند قصيري النظر يعد الحلم أحيانًا نوعًا
من الضعف ولهذا نجد عدم العمل به، والله يعلم نقاط ضعف عباده ومن هنا جاء بالعفو
والمغفرة إلى جانب الحلم حتى لا ييأس الناس من رحمة الله: "واعلموا أن الله يعلم ما في
أنفسكم فاحذروه، واعلموا أن الله غفور حلیم " (البقرة آية ٢٣)

وهذه الآية نزلت في الزواج الثاني للمرأة بمعنى أنه لا يجوز نكاحها إلا بعد
انتهاء العدة، ولكن لا حرج من أن تكون نية الزواج قبل انقضاء العدة، ولهذا جاءت الآية
توضح للنساء بأن الله يعلم ما في قلوبكم ولكن نجد الله يحذرهن من ناحية وينكرهن

بمغفرته وحلمه من ناحية أخرى. إن الإتفاق في عمل الخير أمر يقدره الله ويكفر السيئات عن من يقوم به، فيقول الله في هذا الشأن: "إن تقرضوا الله قرضاً حسناً يضاعفه لكم ويغفر لكم والله شكور حلیم" (التغابن آية ١٧)

ف نجد التقدير في الآية السابقة هو مضاعفة الحسنات، والحلم هو العفو عن السيئات، وهنا نكتة فلسفية مهمة، وهي أننا عندما نغضب ممن أساء إلينا لا ننظر في هذه اللحظة إلا إلى سيئاته وأخطائه ولهذا نصب عليه جام غضبنا، ولكن إذا وضعنا أمامنا حسنات ومزايا من يسيء إلينا ففي هذه اللحظة نجد أن للتسامح والعفو يسبق غضبنا، ففي هذه الآية نجد أن الله سبحانه وتعالى يخبرنا بأن الله يقدر إخلاص من ينفق أمواله في أعمال الخير، فتكون النتيجة أن يعفو الله عن سيئاته .

لقد وصف الله الأنبياء الكرام بالحلم خاصة سيدنا (إبراهيم) وسيدنا (إسماعيل) عليهم السلام، لقد حاول سيدنا (إبراهيم) أن ينحي والده عن عبادة الأصنام وأن ينقذه من عذاب الله، وتحمل في سبيل هذا الكثير من الصعاب والمظالم إلى أن تبرأ منه في النهاية، ورغم هذا ظل يدعو له بالخير والاستغفار عسى الله أن يهديه سواء السبيل :

" وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياه فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه إن إبراهيم لأواه حلیم " (التوبة آية ١١٤) .

وفي موضع آخر عندما علم بحلم آل لوط فقال له عنه :

" إن إبراهيم لحلیم لأواه متیب " (هود آية ٧٥) .

ولو أمعنا النظر في الآيات القرآنية لوجدنا أن الحلم هو اسم لمجموعة من الصفات كالصبر والرفق والاستقلال، ولهذا وجدنا الله يأتي غالباً بصفة الغفار مع صفة الحلم، وجاء بوصف أواه مع سيدنا (إبراهيم) إلى جانب الحلم ليوضح لنا أن العفو والمغفرة أمر ضروري للحلم، ونجده في آية أخرى ينسب إلى سيدنا (إسماعيل) قوله :

" فبشرناه بغلام حلیم " (الصافات آية ١٠١) .

وبعدها نجده يقول بعد أن سمع أمر الله فيما يتعلق بنبحه :

" قال يا أبت أفتل ما تؤمر ستجني إن شاء الله من الصابرين " (الصافات آية ١٠٢) .

يُتَخَضَّرُ مِنْ هَذَا أَنَّ الصَّبْرَ أَمْرٌ خِزْرُورِيٌّ لِلْحَلْمِ وَالْحَلْمُ صِفَةُ مُحِبِّةٍ لِلَّهِ مَسْبُوحَانِهِ
وَتَعَالَى، وَهَكَذَا نَجِدُ لِلرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ فِي شَخْصٍ مَا: "إِنَّ فِيكَ خَصْلَتَيْنِ
يُحِبُّهُمَا اللَّهُ الْحَلْمُ وَالْثَّانِي" (١) .

طَلَبَ رَجُلٌ مِنَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَكْثَرَ مِنْ مَرَّةٍ أَنْ يَنْصَحَهُ فَقَالَ لَهُ
"رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: لَا تَغْضَبْ وَتَحْلَى بِالصَّبْرِ عِنْدَ الْغَضَبِ. وَلِهَذَا يَقُولُ الرَّسُولُ
صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: لَيْسَ الْقَوِيُّ هُوَ مَنْ يَهْزِمُ الْآخَرِينَ إِنَّمَا الْقَوِيُّ مَنْ يَمْلِكُ نَفْسَهُ عِنْدَ
الْغَضَبِ" (٢) .

وَفِي حَدِيثٍ آخَرَ يَقُولُ الرَّسُولُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "إِنَّ مَنْ يَمْلِكُ نَفْسَهُ عِنْدَ
الْغَضَبِ رَغِمَ قَدْرَتُهُ فَإِنَّ اللَّهَ سَيَكْفِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ" (٣) .

يَقُولُ سَيْنَا (أَبُو هُرَيْرَةَ) رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إِنَّ رَجُلًا جَاءَ إِلَى الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ
وَسَلَّمَ يَقُولُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ لِي أَقْرَبَاءَ كُلَّمَا أَتَقَرَّبْتُ إِلَيْهِمْ يَبْتَغِدُونَ عَنِّي، وَكُلَّمَا لَحَسَنْتُ إِلَيْهِمْ
يَسْتَبْشِرُونَ إِلَيَّ، وَأَتَحَمَّلُ كُلَّ هَذَا، فَقَالَ لَهُ الرَّسُولُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: بَعْدَ أَنْ سَمِعَ مِنْهُ: لَوْ
كَانَ هَذَا مِثْلًا قُلْتُ فَاذَرِ الرَّمَادَ فِي وَجُوهِهِمْ، وَطَالَمَا بَقِيَتْ عَلَى هَذَا فَإِنَّ اللَّهَ مَيِّسَاعُكَ
دَائِمًا (٤) .

^١ الترمذي أبواب البر والصلة باب ما جاء في الثأني والعجلة. حدثنا محمد بن عبد الله بن بزيع. حدثنا بشر بن المفضل عن
قرة بن خالد عن أبي حمزة عن ابن عباس أن النبي صلى الله عليه وسلم قال الأشج عبد القيس: إن فيك خصلتين يحبهما
الله: الحلم والأناة .

^٢ البخاري كتاب الأدب والخبر من الغضب. حدثنا عبد الله بن يوسف: أخبرنا مالك، عن ابن شهاب، عن سعيد بن
المسيب، عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (ليس الشديد بالصرعة، إنما الشديد الذي
يملك نفسه عند الغضب) .

^٣ الترمذي أبواب البر والصلة باب ما جاء في كثرة الغضب. حدثنا عباس الدوري وغير واحد قالوا. حدثنا عبد الله بن
يزيد المقرئ. حدثنا سعيد بن أبي أيوب. حدثني أبو مرحوم عبد الرحمن بن ميمون عن سهل بن معاذ بن أنس الجهني عن
أبيه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: من كظم غيظاً وهو يستطيع أن ينفذه دعاه الله يوم القيامة على رؤوس الخلائق
حتى يخرجوه في أي الحور شاء .

^٤ صحيح مسلم باب الرحم وأدب المفرد والإمام البخاري باب فضل صلة الرحم. حدثني محمد بن الحسن وعمر بن
بشار، واللفظ لابن المنذر، قالوا: حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبه قال: سمعت العلاء بن عبد الرحمن يحدث، عن أبيه، عن أبي
هريرة: أن رجلاً قال: يا رسول الله إن لي قرابة، أصلهم ويقطعوني، وأحسن إليهم ويسيئون إلي، وأحلم عنهم ويجهلون
علي، فقال: (لئن كنت كما قلت، فكأنما تسفهم المل، ولا يزال معك من الله ظهير عليهم، ما دمت على ذلك) .

للفرق وللطف

إن معنى الفرق هو عدم استعمال الشدة في معاملتنا، ونستطيع من خلال الفرق واللين أن ننجز كل مطالبنا مهما كانت صعوبتها والله وصف نفسه في أكثر من آية وحديث قنسي باللطيف الرفيق (١). فالله تعالى ترفق بسيننا (يوسف) عليه السلام وأوصله لأعلى المناصب رغم أنه كان لا يملك شيئاً، ومن الله على أسرته وجاء بهم إلى مصر وجاء أخوته أمامه وأعلنوا ندمهم وتوبتهم مما فعلوا، فجاء على لسانه قول تعالى:

"إن ربي لطيف لما يشاء إنه هو للعليم الحكيم" (يوسف آية ١٠٠) .

ومن هنا نجد أن للصعوبات التي واجهها سيننا (يوسف) كانت سبباً في نجاحه ووصوله إلى ما أراد الله له أن يكون، فهو للعليم للخبير، ونجد الله تعالى في آية أخرى يصف طريقة تعامله مع عباده بقوله: "الله لطيف بعباده يرزق من يشاء وهو القوي العزيز" (الشورى آية ١٩)

وقد ذكر الله في الآية السابقة لهذه الآية المؤمنين والكافرين يوم القيامة، ثم جاء بالآية السابقة واتبعها بآية تتعلق بالمؤمنين والكافرين أيضاً، ويتضح منها أن لطف الله يشمل المؤمن والكافر، فهو يرزقهم جميعاً (٢)، ولهذا فإن جعل يوم القيامة سرا هو لطف من الله على عباده، وسيننا (إبراهيم) عليه السلام عندما دعا لوالده بالمغفرة لم يستجب لدعائه (٣) إلا أن الله مدح طيبة ورقة قلب سيننا (إبراهيم) عليه السلام بقوله :

"إن إبراهيم لأواه حلیم" (التوبة آية ١١٤) .

وهكذا عندما طلب للمغفرة لقوم لوط للمذنبين ولم تقبل وساطته فمدحه الله أيضاً بقوله :

"إن إبراهيم لحليم أواه منيب" (هود آية ٧٥) .

^١ الراغب الأصفهاني، وقد ذكر معنى آخر من معاني اللطيف وهو الفرق فالله رفيق بعباده. وقد نقل الإمام البيهقي في كتابه الأسماء والصفات أن اسم الله اللطيف لأنه يريد أن يلطف بعباده، ولكي يهيئ لهم أسباب الفلاح والصلاح بما لا يحسبون، ويقول ابن الأعرابي أن معنى اللطيف هو كل من يهيئ لك أسباب الراحة دون مشقة ص ٤٧، إله آباد. ويقول الإمام الغزالي أن من يوصف هذه الصفة هو الذي يعرف دقائق الأمور والفلاح وينهيها للآخرين بما يخدم مصالحهم وهنا يتجلى معنى اللطيف. روح المعاني تفسير سورة الشورى (لنقط لطف).

^٢ صحيح مسلم كتاب البر والصلة باب فضل الفرق .

^٣ هذا هو قول مقاتل في تفسير روح المعاني ، وكذلك الإمام الفخر الرازي .

ويختلف المفسرون في معنى كلمة "أواه" فبعضهم يقول أنها تعني كثرة النداء، والبعض الآخر يقول إن معناها هو رقة القلب، ورأي ثالث يقول بأنها تعني الذاكر، ولو تمعنا في الآية سنجد إمكانية تطابق هذه الصفات الثلاثة على سيدنا (إبراهيم) فهو يدعو لكل شخص ومواس، وكل من يملك قلبا عطوفا لابد وأن يتعاطف مع الآخرين بسرعة ولهذا وجدنا سيدنا (إبراهيم) يريد أن يضم كل شخص إلى الدين الحنيف ومن هنا وجدنا سيدنا (موسى) و(هارون) عليهم السلام عندما ذهبوا لتبليغ الفرعون الظالم والجابر، اتبعوا نفس الطريقة وهذه هي آداب الدعوة :

" فقول له قولا لينا لعله يتذكر أو يخشى " (طه آية ٤٤) .

يتضح من هذه الآية أن اللين شرط أساسي من شروط نجاح الدعوة ولهذا كان الخطاب لسيدنا (محمد) صلى الله عليه وسلم هكذا :

" فيما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك " (آل عمران آية ١٥٩) .

وكان هذا من أهم عناصر الدعوة المحمدية لكي يرغب الناس الدعوة ويقبلوا عليها، ولهذا كانت هذه الصفة من أهم مقومات سيدنا (محمد) صلى الله عليه وسلم التي أودعها الله، فهو رحمة الله المهداة .

والحقيقة أن الحلم والرفق واللين وكل هذه الأخلاق الحميدة ما جاءت في شيء إلا زانته، كما أنها من حسن أخلاق المرء، وهذا ما نراه في قول الرسول صلى الله عليه وسلم للسيدة (عائشة) رضي الله عنها عندما كان يوضح لها حقيقة هذه الخصال: "إن الرفق لا يكون في شيء إلا زانه ولا ينتزع من شيء إلا شانه " (١) .

فلو تمعنا في كلمة "في شيء" فسنجد أن كل شيء يمكن أن يقوم باللين ويفسد بالشدّة إلا في الشريعة أو القانون فقد تقتضي المصلحة العامة الشدة .

^١ صحيح مسلم كتاب البر والصلة باب في فضل الرفق. حدثنا عبد الله بن معاذ العنبري، حدثنا أبي، حدثنا شعبة، عن المقدم، وهو: ابن شريح بن هانئ، عن أبيه، عن عائشة، زوج النبي صلى الله عليه وسلم، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (إن الرفق لا يكون في شيء إلا زانه، ولا يورع من شيء إلا خاله) .

وروي عن السيدة (عائشة) رضي الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: الله رفيق ويحب الرفق، وما يعطيه في الرفق لا يعطيه في شيء آخر (١) .
ويقول سيدنا (جرير) رضي الله عنه: "إن من حرم من الرفق حرم من الخير" (٢) .
وقال الرسول صلى الله عليه وسلم أيضاً: "ما من شخص فيه هذه الخصال الثلاثة إلا أظله الله بظله وأدخله الجنة: للرفق بالضعيف، وبير الوالدين، والرفق بالعبيد" (٣) .
وقد وصفه الرسول صلى الله عليه وسلم بألفاظ أخرى بقوله: "ألا أخبركم بمن يحرم على النار وتحرم عليه النار، على كل قريب هين سهل" (٤) .

جاء جماعة من اليهود إلى الرسول صلى الله عليه وسلم ذات مرة وقالوا: اللسام عليكم، ففهمت السيدة (عائشة) ماذا يقصد اليهود بقولهم هذا للرسول فأجابتهم: وعليكم السلم واللعنة. فقال لها الرسول صلى الله عليه وسلم: انتظري يا عائشة فإن الله أمرنا بالرفق، فقالت: يا رسول الله إنك لم تسمع ما قالوا، فقال لها: لقد قلت وعليكم (٥) .
والشيء الجميل في إجابة الرسول صلى الله عليه وسلم أنه لم يستعمل الشدة معهم، وهكذا فإن هؤلاء عندما يتذكرون ويتدبرون إجابته فإنهم سيخجلون من أنفسهم .
والشدة في الشريعة أو القانون تكون عندما يتجاوز أي شخص حداً من حدود الله وإيذاء الآخرين، وهكذا عندما أصر الكفار والمنافقون على عنادهم وأرادوا أن يؤذوا

^١ المرجع السابق. حدثنا حملة بن يحيى التميمي، أخبرنا عبد الله بن وهب، أخبرني حيوة، حدثني ابن الحاد، عن أبي بكر بن حزم، عن عمرة، يعني: بنت عبد الرحمن، عن عائشة زوج النبي صلى الله عليه وسلم: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (يا عائشة إن الله رفيق يحب الرفق، ويعطي على الرفق ما لا يعطي على العنف، وما لا يعطي على ما سواه) .
^٢ المرجع السابق. حدثنا محمد بن المثنى، حدثني يحيى بن سعيد، عن مغيان، حدثنا منصور، عن نعيم بن سلمة، عن عبد الرحمن بن هلال، عن جرير، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (من يحرم الرفق، يحرم الخير) .
^٣ الترمذي أبواب الزهد .

^٤ المرجع السابق. حدثنا هناد. حدثنا عبدة بن هشام بن عروة عن موسى بن عقبة عن عبد الله بن عمرو الأودي عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ألا أخبركم بمن يحرم على النار أو بمن تحرم عليه النار: على كل قريب هين سهل .

^٥ البخاري كتاب الأدب باب الرفق في الأمر كله. حدثنا عبد العزيز بن عبد الله: حدثنا إبراهيم بن سعد، عن صالح، عن ابن شهاب، عن عروة بن الزبير، أن عائشة زوج النبي صلى الله عليه وسلم قالت: دخل رهط من اليهود على رسول الله، فقالوا: اللسام عليكم، قالت عائشة: ففهمتها فقلت: وعليكم السلم واللعنة، قالت: فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (مهلاً يا عائشة، إن الله يحب الرفق في الأمر كله). فقلت: يا رسول الله، أو لم تسمع ما قالوا؟ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (قد قلت: وعليكم) .

"مسلمين أمر الله رسوله بقمعهم ومحاربتهم بقوله: يا أيها النبي جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم" (التحريم آية ٩) .

وفي موضع آخر يقول: يا أيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار وليجدوا فيكم غلظة" (التوبة آية ١٢٣) .

ونكأ: عندما يعاقب الكفار والمنافقين وأصحاب السوء يجب أن لا يأخذ المسلمين بهم رافة :

"ولا تأخذكم بهما رافة في دين الله إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر" (النور آية ٢) .
إن مكارم أخلاق الرسول التي رويت عن السيدة (عائشة) رضي الله عنها توضح فيها الفرق بين اللين والشدّة، فأما المؤمنون يقولون: إن الرسول لم ينتقم لنفسه من أحد إلا أنه في حالة تنفيذ لأوامر الله لا يجامل أحداً (١) .

وقد نقل الإمام البخاري في باب خاص العديد من الأحاديث في هذا الشأن والتي من بينها أنه التزم الشدة فيها مع المسلمين بل مع أزواجه الطاهرات (٢)، وقد شرح الحافظ بن حجر ما قاله البخاري في هذا الصدد بقوله :

"يشير الإمام البخاري في هذا الباب أن الأحاديث التي استعمل فيها الرسول صلى الله عليه وسلم اللين تتعلق بذاته وشخصه، ولكن ما يتعلق بأوامر الله فقد استعمل فيها الرسول صلى الله عليه وسلم الشدة كما أمره الله بها" (فتح الباري المجلد العاشر ص ٤٢٩ مصر) .

وكان الرسول صلى الله عليه وسلم يقول لأصحابه: "يسروا ولا تعسروا" (٣)، وقد وضع شارحو الحديث أن الشريعة لم تضيق في النوافل والمباحات، وذات مرة أخطأ أحد الصحابة وهو صائم فقال لأهله: خذوني عند رسول الله صلى الله عليه وسلم، فرفض أهله الذهاب معه لصعوبة الأمر، فذهب الصحابي إلى الرسول صلى الله عليه وسلم وحيدا وأخبره بما صدر عنه، فقال له الرسول صلى الله عليه وسلم: عليك بعتق رقبة، ووضع الرجل يده على رقبتة وقال: يا رسول الله لا أملك إلا هذه الرقبة، فأمره الرسول صلى الله

^١ البخاري باب ما يجوز من الغضب والشدّة لأمر الله تعالى .

^٢ صحيح البخاري كتاب الأدب باب يسر ولا تعسر .

^٣ صحيح البخاري كتاب الأدب باب يسر ولا تعسر. حدثنا إسحق: حدثنا النضر: أخبرنا خزيمة، عن محمد بن أبي بردة، عن أبيه، عن جده قال: لما بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعاذ بن جبل قال لهما: (يسرا ولا تعسرا، وبشرا ولا تنفرا، وتطاولا).

عليه وسلم بصيام شهرين متتابعين، فقال له الصحابي: لقد حدث مني ما حدث يا رسول الله في الصيام فكيف أصوم، فقال له الرسول صلى الله عليه وسلم: أطعم ستين مسكيناً، فقال الصحابي: أقسم يا رسول الله بالذي بعثك بالحق لقد قضيت الليلة جائعاً، فقال له الرسول: اذهب إلى بيت المال وخذ من القائم على بيت المال شيئاً من التمر ووزعها على ستين مسكيناً وأطعم نفسك ما تبقى من التمر، فذهب الصحابي إلى قومه سعيداً وأخبرهم بما حدث مع الرسول صلى الله عليه وسلم وقال لهم: لقد وجدت عندكم الضيق والسوء ووجدت عند رسول الله السعة والمشورة الحسنة (١) .

التواضع

التكبر أو الكبرياء صفة خاصة بالله تعالى لا يشاركه فيها أحد: "وله الكبرياء في السماوات والأرض وهو العزيز الحكيم" (الجاثية آية ٣٧) .
ولا يليق بالعباد أن يتكبروا وواجب عليهم أن يتحلوا بالتواضع، والتواضع له مظاهر عدة، وقد ذكر في القرآن في بعض مواضعه حيث أمر الرسول في البداية أن يعفو عن الكفار وأن يخفض جناحه للمؤمنين من أتباعه :
"واخفض جناحك للمؤمنين" (الحجر آية ٨٨) .
وفي موضع آخر : "واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين" (الشعراء آية ٢١٥) .
كما ينبغي على الأولاد أن يعاملوا آباءهم وأمهاتهم بكل رفق وتواضع حيث قال :
"واخفض لهما جناح الذل من الرحمة" (الإسراء آية ٢٤) .

^١ سنن أبو داود باب في الظهار. حدثنا عثمان بن أبي شيبة ومحمد بن العلاء، المعنى قال: ثنا ابن إدريس، عن محمد بن إسحاق، عن محمد بن عمرو بن عطاء، قال ابن العلاء: ابن علقمة بن عياش، عن سليمان بن يسار، عن سلمة بن صخر، قال ابن العلاء البياضي قال: كنت امرأة أصيب من النساء ما لا يصيب غيري، فلما دخل شهر رمضان خفت أن أصيب من امرأتي شيئاً يتابع بي حتى أصبح، فظاهرت منها حتى ينسلخ شهر رمضان، فبينما هي تحممني ذات ليلة إذ تكشف لي منها شيئاً، فلم ألبث أن تزوت عليها، فلما أصبحت خرجت إلى قومي فأخبرتهم الخبر، وقلت: امشوا معي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم قالوا: لا والله، فانتظمت إلى النبي صلى الله عليه وسلم فأخبرته فقال: أنت بذلك يا سلمة؟ قلت: أنا بذلك يا رسول الله مرتين، وأنا صابر لأمر الله عز وجل فأحكم في بما أراك الله، قال: حرر رقية قلت: والذي بعثك بالحق ما أملك رقية غيرها، وضربت صفحة رقبتي قال: فصم شهرين متتابعين قال: وهل أصبت الذي أصبت إلا من الصيام؟ قال: فأسأطعم وسقاً من تمر بين ستين مسكيناً قلت: والذي بعثك بالحق، لقد بتنا وحشين ما لنا طعام، قال: فانتظني إلى صاحب صدقة بن زريق فليدفعها إليك، فأطعم ستين مسكيناً وسقاً من تمر، وكل أنت وعيالك بقيتها، فرجعت إلى قومي فقللت: وجدت عندكم الضيق وسوء الرأي، ووجدت عند النبي صلى الله عليه وسلم السعة وحسن الرأي، وقد أمر لي أو أمرني بصدقكم

والمقصود بخفض الجناح هنا هو للتواضع على سبيل الاستعارة لأن معنى الجناح في العربية هو جناح الطائرة حيث يخفضه عندما يهبط إلى الأرض أو يحل به التعب، فاستعملها القرآن على طريق الاستعارة بأن ينزل الإنسان عن كبريائه إلى للتواضع (١) .

"وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا، وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما" (الفرقان آية ٦٣) .

ومن بلاغة القرآن أن يعلم الله عباده التواضع ويرشدهم إلى توخي للرحمة، فإذا كان الله رحيمًا فلا بد وأن تظهر صفاته على عباده :

"ولا تصعر خدك للناس ولا تمش في الأرض مرحا، إن الله لا يحب كل مختال فخور، واقصد في مشيك واغضض من صوتك، إن أنكر الأصوات لصوت الحمير" (القمان الآيات ١٨، ١٩) .

فقد وضحت هذه الآية أشكالاً عديدة للتواضع منها أن لا يدير الإنسان وجهه عندما يتحدث إليه الآخرون، أو ألا يختال في مشيته، وأن لا يرفع صوته تكبرا وفخرا، ولكن يجب علينا أن نفرق بين التواضع ولذل بالتواضع ينشأ عن قوة ليس فيها غرور أو تكبر، والدناءة أو الذل هي أن يفقد الإنسان لحرمله وكبريائه نتيجة لمصالحه الشخصية ومن هنا وجدنا الله يأمر عباده بأن يظهروا تكبرهم وقوتهم عندما يفهم الآخرون أن تواضعهم هذا ضعفا، ولهذا عندما جاء للصحابية للعمرة وكان وياها الحمى قد أضعف المسلمين جسمانيا فاعتقد للكفار أن أصحاب (محمد) صلى الله عليه وسلم لا يستطيعون الطواف حول الكعبة لأنهم ضعفاء، وعرف للرسول صلى الله عليه وسلم أن الكفار يسخرون منهم فأمرهم بالطواف حول الكعبة ثلاث مرات حتى يظهروا قوتهم للكفار (٢)

١ المثل السائر باب نوع والضمير الكبير للرازي تفسر آية "جناح الذل" الجزء الخامس ص ٧٤ دار الطباعة العامة .
٢ صحيح مسلم كتاب الحج باب استحباب في الطواف، وصحيح البخاري عمرة النبي صلى الله عليه وسلم. حدثني أبو الربيع الزهراني، حدثنا حماد يعني: ابن زيد، عن أيوب، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، قال: قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه مكة، وقد وهتهم حتى يثرب، قال المشركون: إنه يقدم عليكم غدا قوم وهتهم الحمى، ولقوا منها شدة، فجلسوا مما يلي الحجر، وأمرهم النبي رضي الله عنه أن يرملوا ثلاثة أشواط، ويمشوا ما بين الركبتين، ليرى المشركون جلدكم، فقال المشركون: هؤلاء الذين زعمتم أن الحمى قد وهتهم، هؤلاء أجلكم من كذا وكذا. قال ابن عباس: ولم يمنعه أن يأمرهم أن يرملوا الأشواط كلها، إلا الإبقاء عليهم.

والمكان الأساسي لإظهار القوة هو الجهاد، والإسلام في هذا المكان يفضل الكبير والغرور على للتواضع، وهكذا جاء في الحديث أن الله يحب بعض الخيلاء ولا يحب البعض الآخر، فمثلاً نجد أن الله يحب الخيلاء والغرور في الحرب والصدقات، ويكره للكبر في الظلم والتفاخر (١) .

على أية حال فالإسلام يعد للتواضع خلقاً شريفاً، والضعف والهوان مذلة وتؤدي بالإنسان إلى أخطأ الدرجات، أما التواضع فيذهب بالإنسان إلى الدرجات العلاء، والرسول صلى الله عليه وسلم يقول: "من تواضع لله رفعه" (٢)، وفي حديث آخر يقول: "من يستطيع أن يلبس حلة قيمة ولا يتكبر فيها فإن الله سيناديه يوم القيامة أمام الجميع ويخيره في أن يختار ما يشاء من حلل الإيمان لكي يرتديها" (٣) .

والخلاصة أن الهدف من التواضع هو أن لا يسيء الإنسان استعمال قوته وثروته مع الفقراء والضعفاء، وقال الرسول صلى الله عليه وسلم: "إن الله أمرنا بالتواضع حتى لا نتظلم أحداً ولا يتكبر أحد على أحد" (٤) .

يتضح من هذه الأحاديث أن التواضع جاء لإصلاح للمجتمع وهذه الصفة يجب أن يتحلّى بها الإنسان سواء في مشيه أو في صوته .

القول الحسن

المقصود بالقول الحسن هو أن يراعي الإنسان في حديثه مع أخيه الإنسان كل الحب والاحترام حتى تنشأ العلاقات الطيبة بينهما، ليس هذا فحسب بل يجب على الإنسان أن يسأل عن أخيه وأن يدعو له بالخير، كل هذا يأتي تحت صفة القول الحسن، فقد أمر الله بني إسرائيل أن يتحلوا بالقول الحسن مع الناس فقال لهم في

^١ أبو داود كتاب الجهاد باب الخيلاء في الحرب. حدثنا مسلم بن إبراهيم وموسى بن إسماعيل، المعنى واحد قالوا: لنا أبان قال: لنا يحيى، عن محمد بن إبراهيم، عن ابن جابر بن عتيك، عن جابر بن عتيك أن نبي الله صلى الله عليه وسلم كان يقول: من الغيرة ما يحب الله، ومنها ما يفيض الله؛ فالأما التي يحبها الله عز وجل فالغيرة في الريّة، وأما الغيرة التي يفيضها الله فالغيرة في غير ريّة، وإن من الخيلاء ما يفيض الله، ومنها ما يحب الله؛ فالأما الخيلاء التي يحب الله فالخيال الرجل نفسه عند القتال، وافياله عند الصدقة، وأما التي يفيض الله عز وجل لافياله في البغي قال موسى: والفخر.

^٢ الترمذي أبواب البر والصلة باب ما جاء في التواضع. حدثنا قتيبة. حدثنا عبد العزيز بن محمد عن العلاء بن عبد الرحمن عن أبيه عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ما نقصت صدقة من مال. وما زاد الله رجلاً بقض إلا عزاً أو ما تواضع أحد لله إلا رفعه الله .

^٣ الترمذي أبواب الزهد .

^٤ أبو داود كتاب الأدب باب في المواخاة .

القرآن: "وقولوا للناس حسناً" (البقرة آية ٨٣) وفي آية أخرى أمر الله عباده بقوله: "وقل لعبادي يقولوا التي هي أحسن إن للشيطان ينزغ بينهم إن للشيطان كان للإنسان عدوا مبينا" (الإسراء آية ٥٣) .

والآية توضح أن القول للحسن ينتج عنه علاقات طيبة بين الناس والقول للمسيئ ينتج عنه الفرقة والخصام وعن طريقه يأخذ للحسد والنفاق طريقه بينهم ولهذا أمر الله عباده بإتباع القول للحسن واجتناب التنازع بالألقاب وقول للمساء لأن هذا بلا شك سيخلق الكراهية والبغض .

" ولا تلمزوا أنفسكم ولا تتنازروا بالألقاب بئس الاسم للفسوق بعد الإيمان " (الحجرات آية ١١) . والله لا يحب للمساء والجهر به فيقول :

" لا يحب الله الجهر بالمساء من القول إلا من ظلم " (النساء آية ١٤٨) .

والرسول صلى الله عليه وسلم يقول: "المسلم ليس بطعان ولا لعان ولا يقول إلا الطيب من القول" (١) .

نفهم من الحديث أن المسلم يجب أن يترفع عن كل هذه المساوئ ولا يخرج من لسانه إلا الحق والصدق والخير والفلاح، والرسول صلى الله عليه وسلم يقول: "من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يقل إلا خيرا ومن كان يؤمن بالله ويوم القيامة حتى لو أساء إليه أي شخص فلا يقول له شيئا فتؤايبه عند الله" ، وذات مرة ذكر النبي صلى الله عليه وسلم جهنم أكثر من مرة، وكان أثر ذكر جهنم يظهر على وجهه الشريف ويقول تجنبوا النار حتى ولو بشق تمره فإن لم تستطع فبقول الخير (٢) .

وذات مرة تحدث النبي صلى الله عليه وسلم عن الجنة ومحاسنها وكان أحد الصحابة البنو يجلس مع الرسول فقال بلهفة: يا رسول الله للجنة لمن؟ فقال له

^١ سنن الترمذي باب ما جاء في اللعنة. حدثنا محمد بن يحيى الأزدي البصري. حدثنا محمد بن سابق عن إسرائيل عن الأعمش عن إبراهيم عن علقمة عن عبد الله قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ليس المؤمن بالطعان ولا اللعان ولا الفاحش ولا البذيء .

^٢ صحيح البخاري باب: اتقوا النار ولو بشق تمره والليل من الصدقة. حدثنا سليمان بن حرب: حدثنا شعبة، عن أبي إسحاق، قال: سمعت عبد الله ابن معقل قال: سمعت عدي بن حاتم رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (اتقوا النار ولو بشق تمره) .

الرسول: لمن يقول الخير ويطعم الفقراء ولمن يصوم كثيرا ويؤدي الصلاة والناس نيام^(١) .

وجاء في حديث آخر أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: قول المعروف صدقة^(٢)، وهكذا فكما أن الصدقة تسعد للفقير، كذلك قول المعروف يكون له أثره الطيب على الآخرين و يساعد في إنجاز الكثير من الأعمال .

وقد سأل أحد الصحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم: كيف النجاة يا رسول الله؟ فقال له الرسول صلى الله عليه وسلم: أن تسيطر على لسانك وليسعك بيتك ولتبك على ذنوبك^(٣) .

وفي موضع آخر سأل أحد الصحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم: يا رسول الله أي الأشياء تخاف علينا منها؟ فأمسك الرسول بلسانه الشريف وقال صلى الله عليه وسلم: الخوف من هذا^(٤) .

الإيثار

الإيثار الآخرين من أنبل الصفات وأعلاها لأن تقديم حاجة الآخرين على حاجة النفس أمر فيه مشقة على الإنسان كأن يظل الإنسان جوعانا لكي يطعم الآخرين فيه تكليف للنفس وراحة الآخرين .

كانت هذه الصفة من خلق الأنصار، وقد تجلّى هذا عندما جاء المهاجرون من مكة إلى المدينة فاستضافهم الأنصار وأعطوهم منازلهم وحدائقهم ومزارعهم كما أنهم شاركوهم مصائبهم وتحملوا كل الآلام من أجل راحتهم^(٥) .

^١ الترمذي باب ما جاء في قول المعروف .

^٢ صحيح البخاري كتاب الأدب باب : طيب الكلام.

قال أبو هريرة، عن النبي صلى الله عليه وسلم : (الكلمة الطيبة صدقة).

^٣ الترمذي باب حفظ اللسان. حدثنا صالح بن عبد الله. حدثنا ابن المبارك. وحدثنا سويد. أخبرنا ابن المبارك عن يحيى بن أيوب عن عبيد الله بن زحر عن علي بن يزيد عن القاسم عن أبي أمامة عن عتبة بن عامر قال: قلت: يا رسول الله ما النجاة؟ قال: أمسك عليك لسانك، وليسعك بيتك، وأهلك على خطيئتك .

^٤ المرجع السابق. حدثنا سويد بن نصر. أخبرنا ابن المبارك عن معمر عن الزهري عن عبد الرحمن بن ماعز عن سفيان بن عبد الله الثقفي قال: قلت: يا رسول الله ما أخوف ما تخاف علي، فأخذ بلسان نفسه، ثم قال: هذا .

^٥ صحيح البخاري أول مناقب الأنصار. حدثنا إسماعيل بن عبد الله قال: حدثني إبراهيم بن سعد، عن أبيه، عن جده قال: لما قدموا المدينة آخى رسول الله صلى الله عليه وسلم بين عبد الرحمن بن عوف و سعد بن الربيع قال لعبد الرحمن: إني أكثر الأنصار مالا، فأقسم مالي لصقين، ولي امرأتان، فانظر أعجبهما إليك لمهما لي أطلقها، فإذا انقضت عدتها

وعندما استولى المسلمون على أراضي بني النضير ولم يعط الرسول صلى الله عليه وسلم الأرض إلا لاثنتين من الأنصار وباقي الأرض وزعت على المهاجرين لم يعترض الأنصار وقبلوا حكم الرسول بكل حب وسعة منحهم الله تعالى قائلا (١) :

"والذين تبوءوا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون" (الحشر آية ٩) .

عندما تم فتح البحرين نادى الرسول صلى الله عليه وسلم الأنصار وقال: أريد أن أقسمها على الأنصار، فقال الأنصار: يا رسول الله لن نأخذ حتى يأخذ المهاجرون مثلنا، فقال لهم الرسول صلى الله عليه وسلم: إذا لم توفقوا فاصبروا فلن يسألكم أحدا بعد (٢) .

ذات مرة جاءت امرأة برداء صنعتها بيدها وأعطته للرسول صلى الله عليه وسلم وكان الرسول صلى الله عليه وسلم في حاجة إليه فأخذه من المرأة، وفي نفس الوقت كان هناك أحد المسلمين الفقراء يجلس فطلب هذا للرداء من الرسول صلى الله عليه وسلم فأعطاه الرسول صلى الله عليه وسلم إياه، فلامه الصحابة رضوان الله عليهم وقالوا له: أيها الرجل ألا تعلم أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان في حاجة إليه وأنت تعلم أن الرسول صلى الله عليه وسلم لا يرد سؤال أحد فلماذا طلبته من الرسول؟، فقال الرجل: نعم لقد أخذته على سبيل البركة لأن هذا الرداء سيكون كفي (٣) .

فزوجها. قال: بارك الله لك في أهلك ومالك، أين سوقكم؟ فدلوه على سوق بني قينقاع، فما انقلب إلا ومعه فضل من أقط وسمن، ثم تابع العدو، ثم جاء يوما وبه أثر صفرة، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: (مهييم). قال: تزوجت، قال: (كم سقت إليها). قال: نواة من ذهب، أو وزن نواة من ذهب..

^١ تفسير ابن جرير الطبري الآية المذكورة. حدثني يونس، قال: أخبرنا ابن وهب، قال: قال ابن زيد، في قوله "ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا" المهاجرون، قال: وتكلم في ذلك (يعني أموال بني النضير) بعض من تكلم من الأنصار، فعاتبهم الله عز وجل في ذلك فقال: "وما آفأء الله على رسوله منهم فما أوجفتم عليه من خيل ولا ركاب ولكن الله يسلط رسله على من يشاء والله على كل شيء قدير" قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لهم: إن إخوانكم قد تركوا الأموال والأولاد وخرجوا إليكم فقالوا: أموالنا بينهم قطائع، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أو غير ذلك؟ قالوا: وما ذلك يا رسول الله، قال: هم قوم لا يعرفون العمل فكفؤهم وتقاسمؤهم الثمر، فقالوا: نعم يا رسول الله"

^٢ صحيح البخاري باب مناقب الأنصار .

^٣ صحيح البخاري باب حسن الخلق وباب من استعد للكفن. حدثنا عبد الله بن مسلمة: حدثنا ابن أبي حازم، عن أبيه، عن سهل رضي الله عنه: أن امرأة جاءت النبي صلى الله عليه وسلم بريدة منسوجة، فبها حاشيتها، أندرون ما

ذات مرة جاء رجل جائع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يكن في بيت النبوة إلا الماء ولهذا قال الرسول: إن من يستضيف هذا الرجل الليلة فإن الله سينزل رحمته عليه فأخذه أحد الأنصار إلى بيته وقال الأنصاري لزوجته: هل يوجد لدينا في البيت شيء؟ فقالت: لا يوجد إلا طعام الأطفال، فقال الرجل لزوجته: أطفئي المصباح واجعلي الأولاد ينامون، وبالفعل نام الرجل وزوجته وأولاده جائعين وجعلوا الضيف يظن أنهم يأكلون ولما جاء إلى الرسول صلى الله عليه وسلم في الصباح قال له الرسول صلى الله عليه وسلم: لقد أحب الله فعلتك هذه (١) .

وفي بعض الروايات قيل أن الآية السابقة جاءت في مدح الأنصار وإيثارهم (٢)، ولكن السياق القرآني يأتي عامة ولا يخص بها فئة معينة كبقية الأحداث الأخرى .

الاعتدال و الوسطية

الوسطية سمة خاصة في الأخلاق الإسلامية والتي بها يخرج المسلمون من الإفراط والتفريط وقد وصف القرآن المسلمين بأنهم " أمة وسطا " بمعنى أن عقيدتهم

الردة؟ قالوا: الشبهة، قال: نعم، قالت: نسجها بيدي فجئت لأكسوها، فأخذها النبي صلى الله عليه وسلم محتاجا إليها، فخرج إلينا ولما إزاره، فحبسها فلان فقال: إكسيتها، ما أحسنها، قال القوم: ما أحسن لبسها النبي صلى الله عليه وسلم محتاجا إليها، ثم سأله، وعلمت أنه لا يريد، قال: إني والله، ما سأله لألبسها، إنما سأله لتكون كفتي. قال سهل: فكأن كفته

^١ صحيح مسلم كتاب الأشربة باب إكرام الضيف وفضل إيثاره، وصحيح البخاري تفسير سورة الحشر. حدثني زهير بن حرب، حدثنا جرير بن عبد الحميد، عن فضيل بن غزوان، عن أبي جازم الأشجعي، عن أبي هريرة قال: جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: إني مجهد، فأرسل إلى بعض نسائه، فقالت: والذي بعثك بالحق، ما عندي إلا ماء، ثم أرسل إلى أخرى، فقالت مثل ذلك، حتى قلن كلهن مثل ذلك، لا، والذي بعثك بالحق، ما عندي إلا ماء، فقال: من يضيف هذا الليلة، رحمه الله. فقام رجل من الأنصار فقال: أنا، يا رسول الله، فأتوا به إلى رحله، فقال لامرأته: هل عندك شيء؟ قالت: لا، إلا قوت صبي، قال: ففعل بهم شيء، فإذا دخل خيفا فأطفئي السراج وأويه أنا نأكل: فإذا أهوى ليأكل فقومى إلى السرج حتى تطفئه، قال: فقعدوا وأكل الضيف، فلما أصبح غدا على النبي صلى الله عليه وسلم، فقال: وقد عجب الله من صنعكما بضيفكما الليلة .

^٢ المرجع السابق. حدثنا أبو كريب، محمد بن العلاء، حدثنا وكيع، عن فضيل بن غزوان، عن أبي حازم، عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رجلا من الأنصار بات به ضيف، فلم يكن عنده إلا قوته وقوت صبيانه، فقال لامرأته: نومي المصيبة وأطفئي السراج وقرري للضيف ما عندك، قال: فقلت هذه الآية: "ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة".

هي عقيدة الاعتدال (١). ولهذا جاءت أكثر للتعاليم الإسلامية تحمل هذه الصفة حتى في العبادات فنجد أن الدعاء في الصلاة يرشدنا الله بقوله :

" ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها ولبتغ بين ذلك سبيلا " (الإسراء آية ١١٠) .
وكذلك في مشيئنا وسيرنا جاء نكرها في القرآن ضمن نصائح سيدنا (لقمان) عليه السلام:

" واقصد في مشيك " (لقمان آية ١٩) .

بمعنى أن يكون مشي الإنسان فيه متانة ووقار وأن يبعد الإنسان في مشيئته عن الخيلاء والتكبر (٢). والكرم والعطاء صفة حثت عليها كل الأديان السماوية فكلما كان عطاء الإنسان أكثر كلما كان هذا قابلا للمدح والثناء إلا أن الإسلام أخذ طريق الاعتدال في هذا وأمرنا بأن ننفق ولكن لا ننسى أنفسنا ونصبح بعد ذلك من المحتاجين فقال:

" ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوما محسورا " (الإسراء آية ٢٩).

كما قال القرآن في وصفه لأخلاق المسلمين :

" والذين إذا انفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قولا " (الفرقان آية ٦٧) .
بمعنى أنه ينهي عن الإسراف والبخل في وقت واحد ولكن اتخذ طريق الوسط وهو ما أكده الرسول صلى الله عليه وسلم في حديثه: "كلفوا من الأعمال ما تطيقون " .
والمقصود بالأعمال هنا كل ما يقع تحت هذا المعنى إلا أن الشارحين اقتصروا على الصلاة والصوم وبقية العبادات الأخرى (٣) .

بمعنى أنه بعد أداء الفرائض يجب على الإنسان أن يقوم بالنوافل بقدر ما يستطيع ولا يكلف نفسه أعباء لا يستطيع أدائها ولكن هناك أحاديث أخرى لم تقصر الاعتدال والوسطية على العبادات بل شملت كل جوانب الحياة فمثلا في مسند البزار عن سيدنا (حنيفة) رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "ما أحسن القصد في الغنى، ما أحسن القصد في الفقر، ما أحسن القصد في العبادة " .

^١ الغدير الكبير للرازي تفسر الآية المذكورة في سورة البقرة .

^٢ ابن جرير الطبري (روح المعاني) .

^٣ فتح الباري المجلد الحادي عشر ص ٢٦٨ .

والخلاصة بأن لا يصل غنى الإنسان إلى ما وصل إليه (قارون) ويغفل عن ما يجب عليه من حقوق، كما أنه لا يجب على الإنسان أن يسرف في إنفاق أمواله حتى يصير معدما وبعدها يفقد كل كرامته وعزه وجاهه، فالحاجة تجعل الإنسان يتنازل عن كل ما آمن به وهذا إفراط وتطرف في نظر الإسلام .

أما الاعتدال فهو من تعاليم الإسلام وهو ما نلمسه ونراه في العبادات التي هي أفضل الأعمال فلا يجب على الإنسان أن يفرط فيها بحيث لا يصبح عبثا على الآخرين وألا يهملها بحيث يغفل الحقوق و للواجبات التي أمرنا الله بها .

وحادثة سيدنا (عثمان بن مظعون) رضي الله عنه مرت بنا في السيرة أكثر من مرة وذلك عندما بدأ يصوم النهار ويقوم لليل فمنعه الرسول صلى الله عليه وسلم من ذلك وطلب منه الاعتدال وقال له: إن لك حقوقا ومسئوليات أخرى .

عزة النفس

وهذه صفة أخلاقية يحافظ بها الإنسان على كرامته واحترامه ومقامه ومكانته، ونحتاج إليها في حياتنا كثيرا، يحتاجها الإنسان في كل جوانب الحياة ليحافظ من خلالها على مكانته وكرامته، يحتاجها في قعوده وقيامه، في مشيه وتجوّاله، في لقاءاته ومقابلاته، في شرابه وطعامه، في ملبسه وهندامه، ومن لم تكن لديه هذه الصفة فإنه يفترق إلى سمو للنظر ورفعة للخيال وراقي الأخلاق، ولن يحترمه الآخرون، ولن يحفلون بما يقول، ولن يهتمون بأمره، ولن يحظى باحترام في مجاله.

هذه العزة وهذا الوقار موجودان قبل كل شيء في ذات الله العلية، التي هي مركز العزة كلها، ولهذا ذكر الله تعالى باسم العزيز في القرآن الكريم في اثنين وسبعين موضعاً، ومعنى العزيز صاحب العزة والغالب^(١)، وأحيانا تأتي بمعنى القوي أو المقتدر. ولهذا فإن العزة في الأساس له هو، والعزة الحقيقية هي التي يحصل عليها الإنسان من الله تعالى، وعندما كان الإسلام ضعيفا كان المنافقون يظهرون صداقة

^١ جاء لفظ العزة في القرآن الكريم بمعنى متعددة منها الشدة والغلبة والعز والشرف والخوة والحمية، ولهذا يكون معناه طبقا لسياق الكلام، وأما المعنى المشترك بين هذه المعاني جميعا فهو أن يكون الشخص في منزلة لا يستطيع معها أحد أن يضغط عليه. انظر لسان العرب ومفردات الراغب الأصفهاني، وابن جرير الطبري، وآيات العزة في سورة البقرة والنساء وص والمنافقون .

للمسلمين من جانب ومن جانب آخر كانوا يطلبون صداقة للكفار لأجل العزة والجاه والعظمة الظاهرة، وقد كشف الله تعالى عن خداعهم هذا في ضوء هذه الحقيقة قائلا :
" أَيْتَنُونَ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةُ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا " (النساء : ١٣٩) .

وقال بأن من يريد العزة فإنها عند الله تعالى :
" مَنْ كَانَ يَرْيِدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا " (فاطر : ١٠) .
" تَعَزَّزْ مِنْ نَجْوَئِهِمْ وَتَتَلَّ مِنْ نَجْوَئِهِمْ " (آل عمران : ٢٦) .

وذات مرة في إحدى الغزوات قال رئيس المنافقين نعوذ إلى المدينة ويخرج أعزأوها أولئك الأذلاء (يعني للمسلمين) أو محمدا رسول الله صلى الله عليه وسلم نعوذ بالله فرد الله تعالى عليهم بقوله: "والله العزة ولرسوله وللمؤمنين ولكن المنافقين لا يعلمون"
" (المنافقون : ٨) .

وقد منحت هذه الآية الكريمة المسلمين عزة الإيمان التي لا يمكن لأحد أن يسلبهم إياها، ولهذا يجب أن تبقى رأس كل مسلم مرفوعة أمام الباطل، ويجب أن يشعر بعزته الدينية هذه دائما، ومن هنا يجب أن يكون المسلم نموذجا أخلاقيا رائعا أمام العالم، وقد كانت قلوب الصحابة عامرة بهذا الإحساس بالعزة بفضل تعاليم محمد صلى الله عليه وسلم، وعندما تجرأ سيدنا عمر رضي الله عنه في صلح الحديبية على الاعتراض على شروط الصلح التي كان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد وافق عليها فإن هذا الإحساس بالعزة هو الذي كان يدفعه، فقال عمر رضي الله عنه يا رسول الله، أو لسنا على الحق وهم على الباطل، فقال صلى الله عليه وسلم بلى، فقال عمر رضي الله عنه فلماذا نتحمل الذلة في ديننا إذن؟ فقال صلى الله عليه وسلم أنا رسول الله، ولا أستطيع أن أخالف حكمه. لقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أبعد نظرا من سيدنا عمر رضي الله عنه، وأثبتت الأحداث أن حكم الله كان مبنيا على مصلحة كبرى .

^١ صحيح البخاري - باب الشروط في الجهاد، حدثني عبد الله بن محمد، حدثنا عبد الرزاق: أخبرنا معمر قال: أخبرني الزهري قال: أخبرني عروة بن الزبير، عن المسور بن مخرمة ومروان، يصدق كل واحد من حديث صاحبه، فقال عمر بن الخطاب: فأتيت نبي الله صلى الله عليه وسلم فقلت: أأنت نبي الله حقا؟ قال: (بلى). قلت: أأنتا على الحق وعدونا على الباطل؟ قال: (بلى). قلت: فلم تعطني الدنيا في ديننا إذا؟ قال: (إني رسول الله، ولست أعصيه، وهو ناصري).

وفي غزوة الخندق أراد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يبعد شبح الحرب من على رؤوس الأنصار، فعزم على أن يرد قبيلة غطفان على شرط أن يغطيهم ثلث إنتاج المدينة من التمور، ولكن عندما استشار رسول الله صلى الله عليه وسلم سادة الأنصار قالوا له :

" يا رسول الله عندما كنا نعبد الأصنام، غافلين عن الله تعالى لم يكونوا يجربون على أن يأخذوا منا شيئاً، والآن بعد أن أعزنا الله بالإسلام، وأصبحنا أعراء بالله ورسوله نعطهم أموالنا هكذا، والله لا نحتاج إلى هذه المعاهدة (١) .

وحين خرج الصحابة في زمن الخلافة لقتال قيصر وكسرى كانت عزة نفوسهم مرتفعة إلى درجة تجعل المسلم العادي يدخل إلى بلاط كسرى ويقتصر بلا خوف أو تردد، ويسأله بشجاعة، وقد كانت هذه الصفة سبباً في إنجازات المسلمين وشجاعتهم حين كانوا مسلمين حقاً، وبعد مرور ثلاثة عشر قرناً ونصف يشعر كل مسلم بهذه العزة الدينية باعتبارهم مسلماً، ويشعر بعزة نفسه، وهو على يقين أن درجته رفيعة باعتباره مسلماً، وهذا الصوت يدوي في أذنيه دائماً :

" كنتم خير أمة أخرجت للناس " (آل عمران : ١١٠) .

قال رجل للإمام حسن بن علي رضي الله عنهما إن الناس يقولون إن بك غرور، فقال ليس بي غرور، ولكن عزة، وهي العزة التي لا ذلة معها، وهي الثروة التي لا فقر معها، تلا الآية السابقة .

قالت مسلمة صالحة: ألسنت مسلمة؟ إن هذه هي العزة التي ليس معها ذل أبداً، وهذه هي الثروة التي لا إفلاس معها أبداً .

ويقول الشيخ أبو حفص السهروردي إن عزة النفس تختلف عن الغرور لأن عزة النفس هي أن تعرف نفسك ومكانتك وتعزها بالألا تسقط في قعر الأمور الفانية، أما الغرور فهو أن تتسى مكانتك الحقيقية، وتمنحها مكانة أكبر من مكانتها (٢) .

وعزة النفس هي عين الشرف، ومن لا عزة له لا وقار له في نظر الناس، وإذا لم يكن في اليد حيلة لهذا الوقار وهذه العزة فإنه على الإنسان أن يتجنب أموراً كثيرة، وقد جاء في وصف المسلمين الصادقين في القرآن الكريم :

١ سيرة ابن هشام ، و تاريخ الطبري - ذكر واقعة الأحزاب بسند .

٢ هذه الأقوال ذكرها الإمام الرازي و صاحب روح المعاني في تفسيرهما لسورة المنافقين .

” وإذا مروا باللغو مروا كراماً “ (الفرقان : ٧٢) .

بمعنى أنهم يمرون فيه باحترام وعزة نفس بحيث لا يلتفتون إليه، ولا يلتفتون أنظار اللاعن لهم، وللحفاظ على عزة النفس هذه ينبغي على الإنسان أن يراقب نفسه في كل خطوة في مشيته وملبسه وكلامه بحيث يبدو شرفه في كل شيء، وفي نفس الوقت عليه أن ينتبه إلى أنه لا يجب أن يبدو كل هذا متصنعاً متكلفاً، لو ضيق أفق وغروراً، بمعنى أنه ينبغي أن تكون في هذه العزة تعظيماً لنفسه وتحقيراً للآخرين، وهذا هو الفارق بين عزة النفس والغرور، ولهذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات مرة: من كان في قلبه متعال ذرة من الغرور لا يدخل الجنة، فقال رجل يا رسول الله إنني امرؤ أحب أن تكون ملابسي جميلة وحذائي جميلاً، أي ألا يدخل ذلك في الغرور، فقال صلى الله عليه وسلم: إن الله جميل يحب الجمال، الغرور أن تتكر الحق وتحقر الناس (١)

والهدف من الحكم بالنظافة في الإسلام هو ألا يسقط المسلم من نظر الآخرين، هذا بالإضافة إلى النظافة والطهارة، لأن الناس ينفرون من الشخص القذر غير النظيف. ذات مرة رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم شخصاً أشعث الشعر فقال: أليس عنده ما يسوى به شعره، ورأى صلى الله عليه وسلم شخصاً ملابسه قذرة فقال له: هل عندك مال؟ قال: عندي الجمال والماعز والفرس وكل شيء، فقال له صلى الله عليه وسلم: إذا أعطاك الله مالاً فيجب أن يظهر أثر فضل الله على جسمك (٢) .

١ الترمذي - أبواب البر والصلة - ما جاء في الكبر. حدثنا محمد بن المثنى وعبد الله بن عبد الرحمن قالا: حدثنا يحيى بن حماد. حدثنا شعبة عن أبيان بن تغلب عن فضيل بن عمرو عن إبراهيم عن علقمة عن عبد الله عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر، ولا يدخل النار يعني من كان في قلبه ذرة من إيمان قال: فقال له رجل: إنه يعجبني أن يكون لوبي حسناً ولعلي حسناً، قال: إن الله يحب الجمال، ولكن الكبر من بطر الحق وغمض الناس.

٢ أبو داود - كتاب اللباس - باب في غسل الثوب الخلقان حدثنا الثعلبي، ثنا زهير، ثنا أبو إسحاق، عن أبي الأحوص، عن أبيه قال: أتيت للنبي صلى الله عليه وسلم في ثوب دون فقال: ألك مال؟ قال: نعم، قال: من أي المال؟ قال: قد أتاني الله من الإبل ولقمت والخيل والرقيق، قال: فإذا أتاك الله مالاً فليز أثر نعمة الله عليك وكرامته.

وأعظم مظاهر عزة النفس هو الوقار والجديّة ولهذا فإن الإسلام أمر بالتزام الوقار في كل حال، حتى في الصلاة التي هي أهم للعبادات، ولهذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

" إذا سمعتم الإقامة فامشوا إلى الصلاة، وعليكم بالسكينة والوقار ولا تسرعوا " (١) . ويتصور للناس أن عليهم أن يسرعوا إذا رأوا الإمام يدخل في الصلاة، أو ينزل إلى الركوع، حتى لا يفوتهم الركعة، لكن هذا يناقض الوقار، ولهذا منعه صلى الله عليه وسلم، والمشية الهادئة، وخفض للبصر، وخفض الصوت، وعدم الالتفات يمنة ويسرة، كل ذلك يدخل في الوقار .

والوقار لفظ جامع تدخل فيه أشياء كثيرة، وقد نقل أبو داود في كتاب الألب بلب الوقار الحديث التالي :

" الهدى الصالح، والسمت الصالح والاقتصاد جزء من خمسة وعشرين جزءاً من النبوة " وذلك لأن الإنسان يكتسب الوقار من خلالها، ويفضلها يخلق للشخص بداخله الإحساس الأخلاقي، ويصبح عزيز النفس .

وقد ورد لفظ (دل) في صحيح البخاري، وكلها ألفاظ تعني أن يعمل الإنسان على أن يتسم بالوقار في مشيته وحديثه وشكله وهندامه وسلوكه، وأن يتمثل بسلوك المسلمين الصالحين، وقد أمر الإسلام بخصال الفطرة، أي قص الأظافر وحف الشوارب والختان، والسبب في هذا أن الإنسان يبدو بها وقوراً، وكان سيدنا إبراهيم عليه السلام أول من اتبع هذا الطريق فسأل الله تعالى عنه فقال له إنه الوقار، فقال إبراهيم عليه السلام: ربي زني وقاراً " (٢) .

وفي أوقات الفقر والحاجة، أو الحرص والطمع تبدو عزة نفس الإنسان وهو ما يطلق عليه في اصطلاح الشريعة (التعفف) أو (الاستعفاف)، وهي صفة مدحها الشريعة، وقد أثنى الله تعالى على أصحاب للصفة لاتصافهم بهذه الصفة :

١ البخاري - كتاب الصلاة - باب إلى الصلاة وليأتم بالسكينة والوقار. حدثنا آدم قال: حدثنا ابن أبي ذئب قال: حدثنا الزهري، عن سعيد بن المسيب، عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم. وعن الزهري عن أبي سلمة، عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (إذا سمعتم الإقامة فامشوا إلى الصلاة، وعليكم بالسكينة والوقار، ولا تسرعوا، فما أدركتم فصلوا، وما فاتكم فاتوا).

٢ البخاري - أدب المفرد - باب الختان للكبر .

" للفقراء الذين أحصروا في سبيل الله لا يستطيعون ضرباً في الأرض يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف تعرفهم بسيماهم، لا يسألون الناس إلحافاً " (البقرة : ٢٧٣) .

ونستطيع أن نتصور مدى عزة النفس التي ظهرت في حالة الفقر والعوز من خلال هذه الآية في ثانياً تفسير بعض آيات القرآن الكريم، إذ يقول صاحب الكشف في تفسير آية " لا يسألون الناس إلحافاً " أنهم يسألون الناس ولكن لا يلحون عليهم في السؤال، وإنما يسألونهم في هدوء و لين .

أما الإمام الرازي فقد كتب في تفسيرها أن هذا ليس صحيحاً، لأنه إذا كان الله تعالى قد بين أن الذين لا يعرفون هؤلاء يظنونهم أغنياء من التعفف، بما معنى أنهم يسألون الناس، وقد كان أصحاب الصفة يتحاشون سؤال الناس برغم حاجتهم لأنهم كلنوا يستطيعون تحمل الآلام والمصاعب ولا يسألون أحداً، حتى ذلك الشخص الذي يصمت بلسانه ولكنه يظهر فقره وحاجته بشكل آخر فإن صمته هذا يكون بمثابة الإلحاح والإصرار، لأن ظهور علامات الحاجة يدل على الحاجة، والصمت يظهر أنه ليس لديه وسيلة ما يلبي بها احتياجاته، ولهذا عندما يرى الإنسان شخصاً في هذه الحالة يرق له قلبه ويضطر إلى إعطائه، ولهذا فإن مثل هذه الحالة تعد إلحاحاً وإصراراً، ولهذا عندما يقول الله تعالى عن أصحاب الصفة أنهم لا يسألون الناس إلحافاً فإن هذا يعني أنهم لم يكونوا يسألون الناس أصلاً، وفوق ذلك لم يكونوا يسمحون لأحوالهم السيئة أن تبدي حاجتهم وعوزهم مما يعد بديلاً عن السؤال، وإنما كانوا يظهرون أمام الناس في أحسن حال، ولا يجعلون أحداً غير الله يعرف بفقرهم حاجتهم (١) .

وأكثر أشكال السؤال ابتداءً هو التسول، ولقد منع الإسلام من التسول منعاً باتاً، حيث جاء في حديث عن النبي صلى الله عليه وسلم أن من يظل يتسول من الناس يأتي يوم القيامة وليس على وجهه قطعة من اللحم، وهذا تشبيه لحالته، إذ أنه لم تكن لديه في الدنيا عزة نفس، ففقد كرامته واحترامه. وكان هناك بعض الأنصار من الفقراء سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئاً فأعطاهم، ثم سألوه فأعطاهم، وعندما انتهى المال كله قال صلى الله عليه وسلم: لو كان عندي شيء لأعطيكم، ومن يطلب العزة من الله يعزه، ومن يطلب الاستغناء من الله يغنه الله، ومن يطلب الصبر يصبره الله، ولم يعط الله أعظم من الصبر .

١ الضمير الكبير - الجزء الثاني - ص ٥٢٦ ، ٥٢٧ .

بل إن سؤال عامة الناس وقت الفقر والفاقة ينافي عزة النفس، ولهذا منعه الإسلام، وقال صلى الله عليه وسلم من يحتج شيئاً فيعرض حاجته على الناس لا تنقضي حاجته، ومن يعرض حاجته على الله فإن الله قد يرضيه إما بالموت المفاجئ أو بالمال. هذا والناس لا يعدون سؤال أحدهم للآخر في أمور الحياة العادية أمراً سيئاً، ولكن كمال العزة هو في الاحتياط من مثل هذه الأمور أيضاً، على سبيل المثال إذا سأل شخص شخصاً أن ينأوله القبة، أو يضع للكتاب على المنضدة فإن هذا في الظاهر لا ينافي عزة النفس، ولكن إذا أنكر هذا الشخص للقيام بما سئل، أو أظهر امتعاضه فإن ذلك سيكون بمثابة الصدمة لعزة نفس الذي سأل، ولهذا فإن من كمال عزة النفس أن يتجنب الإنسان مثل هذه الأمور.

ذات مرة بايع رسول الله صلى الله عليه وسلم بعض الناس على بعض الأمور من بينها "لا تسألوا الناس شيئاً" وقد للترم بعض الصحابة بهذا الأمر التزاماً شديداً بحيث أنهم كانوا لا يطلبون من أحد أن يرفع ما يسقط منه من القمامة . ذات مرة جاء محتاج إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وسأله أن يسمح له بسؤال الناس فلم يسمح له النبي صلى الله عليه وسلم، وقال له: إذا كنت سائلاً فاسأل الصالحين" (١) .

وقد خصص الصالحين في الغالب لأن هؤلاء يعطون المسائل بعزة وكرامة، وإن لم يستطيعوا ردوه برفق ولين، ويتضح مما سبق أن الإيمان والإسلام هما للنعمة العظمى بالنسبة للمسلم، ولا تعادلها نعمة أخرى، والمسلم هو الذي لا يخشى إلا الله ولا ينحني أمام أحد، ولا يمد يده إلى أحد، وينظر إلى نفسه نظرة تقدير باعتباره مسلماً، ويتيقن من أن العزة لله فقط ولرسوله والمؤمنين، والحفاظ على هذه العزة والكرامة حفاظاً على عزة وكرامة الإسلام ، و كان من بركات هذه التعاليم أننا لازلنا حتى اليوم إذا أردنا أن نشير الحمية الإسلامية في شخص مسلم قلنا له: تفعل هذا ولنت مسلم، وكان كونك مسلماً هو

^١ أبو داود- كتاب الزكاة- باب كراهة المسألة، وجاءت كل هذه الأحاديث في باب في الاستعفاف حدثنا قتيبة بن سعيد، ثنا الليث بن سعد، عن جعفر بن ربيعة، عن بكر بن سواقة، عن مسلم بن عثمي، عن ابن القراسي أن القراسي قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم: أسأل يا رسول الله؟ فقال النبي صلى الله عليه وسلم: لا، وإن كنت سائلاً لا بد فاسأل الصالحين.

في ذاته عز وكرامة ينبغي من أجل الحفاظ عليها أن تتجنب كل أنواع للسوء والدنايا وأن ترتفع بنفسك عنها .

ونريد أن نختم هذه الباب بواقعة تظهر منها العزة والكرامة الإسلامية وحقيقتها وليس فيها من التصنع والتكلف أو للفخر والتفاخر شيئاً وإنما عزة الإسلام وفخر الحق هما اللذان يرفعان المسلم مع تواضع نفسه وانكسار قلبه حتى وإن كان فقيراً محتاجاً وضعيفاً فإنه لا ترعبه أية قوة ظاهرة ويقابل الباطل مرفوع الرأس وأما إن كان غنياً وصاحب نفوذ فإنه لا يحتاج إلى أن يبدي نفوذه وهيبته بأشياء ظاهرة استعراضية وإنما تكفيه قوة الحق في هذا .

كان سيدنا عمر رضي الله عنه ذاهباً إلى الشام لتسلم مفاتيح بيت المقدس من الروميين بعد فتحه فخرج القائد المسلم سيدنا أبو عبيدة مع بعض المسلمين لاستقباله وحين وصل هذا الموكب إلى مكان به ماء لابد أن يمرؤا منه نزل سيدنا عمر رضي الله عنه من على ناقته وخلع خفيه ووضعهما على كتفه وأمسك بزمام ناقته وخاض في الماء ثم تقدم هذا الخليفة العظيم وهو في هذه الحالة ليدخل مدينة الروميين المقدسة، عندئذ قال سيدنا أبو عبيدة رضي الله عنه يا أمير المؤمنين ما هذا لقد خلعت خفيك ووضعتهما على كتفك وأمسكت بزمام الناقة في يدك وتسير بها في الماء، والآن سيأتي أهل المدينة كلهم ليرونك فقال سيدنا عمر رضي الله عنه: لو قال غيرك هذا يا أبا عبيدة لعاقبته وجعلت منه عبرة لأمة محمد صلى الله عليه وسلم لقد كنا لأداء فأعزنا الله بالإسلام وإذا طلبنا العزة في شيء آخر وتركنا العزة التي منحنا الله إياها فصوف يذلنا الله (١) .

الشجاعة والإقدام

من صفات الله تعالى التقدير والقادر والمقتدر ولقوي والجبار والفاخر والغالب والعزیز فإذا ما أصاب ظل هذه الصفات أحداً تولدت فيه الشجاعة الأخلاقية والجسدية والإسلام هو الدين الوحيد من بين الأديان كلها الذي حاول خلق جوهر للشجاعة والإقدام في متبعيه، ولقد كان الناس قبل الإسلام ينظرون إلى أحوال الدنيا فيظنون أن كل ظلم في الدنيا وسفك دماء ما هو إلا نتيجة لهذه القوة ولهذا فإنها تستحق القضاء عليها لكن محمداً رسول الله صلى الله عليه وسلم أوضح أن القوة بذاتها ليست

١ مستترك الحاكم - الجزء الثاني - ص ٦٢ - كتاب الإيمان على شرط الصحيحين .

شيئاً سنياً وإن الحالات التي تستخدم فيها هذه القوة هي السنية ولهذا امتنحت للتعاليم
المحمدية الشجاعة والإقدام، وحدثت المواضع التي تستخدم فيها وهي إعانة للحق
والقضاء على الباطل، لأن هذه القوة إن لم تكن لدى الخير فلن يستطيع السيطرة على
الباطل ومواجهته بشجاعة، ولن يستطيع القضاء على الظلم والجور وبالتالي لن تتجح
فريضة الجهاد المقدسة في الإسلام. وقد مدح الله تعالى أولئك الذين يتحملون المصائب
بشجاعة ويحاربون في المعارك ببسالة فقال: "والصابرين في البأساء والضراء وحين
البأس أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المفلحون" (البقرة : ١٧٧) .

ويعلم من هذا أن الشجاعة وثبات القدم في الحرب صفة تساعد من يتصف بها
على التقوى والاستقامة، لأنه من الفرض على من ينتمي إلى جماعة معينة أو ملة بعينها
أن يحافظ عليها ويفتديها بروحه، وإذا ما فعل ذلك فإنه يصبح في نظر الله والأمة صادقاً
مستقيماً، والعاطفة التي تحته على ذلك هي أصل التقوى، وقد جاءت التعاليم بالشجاعة في
مواضع متعددة في القرآن الكريم منها :
"ومن يولهم يومئذ دبره إلا متحرفاً للقتال أو متحيزاً" .

بمعنى أننا إذا اضطررنا إلى لقاء العدو فعلى أهل الإيمان أن يثبتوا في
مواجهتهم، ولا يجبنوا في الميدان، ويظهروا الشجاعة والثبات، وقد خاطب الله تعالى في
هذه الآية أهل الإيمان، ويفهم منه أن هذا الإيمان هو روح شجاعتهم وأصل إقدامهم لأن
الله تعالى يقول إن المسلم الذي يجبن في مثل هذا اليوم أمام العدو فإنه يستحق غضب
الله تعالى :

"ومن يولهم يومئذ دبره إلا متحرفاً لقتال أو متحيزاً إلى فئة فقد باء بغضب من
الله، ومأواه جهنم وبئس المصير" (الأنفال : ١٦) .

لقد كان من الأمور السلبية أن لا يثبت المسلم في ميدان الحرب ولهذا أمرهم الله
بالأمر الإيجابي وهو: "يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا" (الأنفال : ٤٥) . أي
اثبتوا، وواجهوا، ولا يتحزح منكم أحد عن موقعه إلا أن يكون في ذلك مصلحة
للمعركة، ولهذا مدح الله تعالى المسلمين بأنهم لا ترعيبهم قوة الكفار وقال عنهم :
"أشداء على الكفار" (الفتح : ٢٩) .

ويمكن أن يكون معنى أشداء في هذه الآية (الأقوياء) أيضاً، ويعلم منه أنه على
المسلم أن يكون قوياً في مواجهة خصوم الحق وخصوم دينه بشكل خاص، قال تعالى :

" وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم " (الأنفال : ٦٠) .

وقد فسرت هذه القوة بمعدات الحرب وآلاته في ذلك الزمان مثلاً بناء للقلاع والتدريب على الرمي ولكن هذا للتخصيص باعتبار الزمن فقط وإلا فإن المفسرين قد أطلقوا معناها وأخطوا فيها كل أنواع الأسلحة^(١) . المهم أن الله تعالى في هذه الآية قد أرشد المسلمين إلى إعداد الأسلحة الحزبية والتدريب على القتال ومعرفة كيفية استخدام المعدات والأسلحة حتى يخالفهم أعداء الحق عندما يرون استعدادهم ولا يجرعوا على خرق للمعاهدة التي يوقعونها معهم .

وعلى العكس من ذلك فإن الجبن رذيلة وكذلك للضعف وقد كان بعض المسلمين الذين يحاربون لأول مرة باسم الإسلام في معركة بدر يشعرون بوحشة من هذا القتال فذمهم الله تعالى بآيات من عنده فقال : كَأَنَّمَا يَسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ^(٢) (الأنفال : ٦) . ورسم القرآن الكريم صورة ضعف قلوب المنافقين في سورة الأحزاب فقال :

" فإذا جاء الخوف رأيتهم ينظرون إليك تدور أعينهم كالذي يغشى عليه من الموت " (الأحزاب : ١٩) .

وعبر عن ضعف القلب هذا في سورة محمد بقوله :

" فإذا أنزلت سورة محكمة وذكر فيها القتال رأيت للذين في قلوبهم مرض ينظرون إليك نظر المغشي عليه من الموت فأولى لهم " (محمد : ٢٠) .
وفي آية أخرى قدم صورتهم كما يلي :

" وإذا رأيتهم تعجبك أجسامهم وإن يقولوا تسمع لقولهم كأنهم خشب مسندة يحسبون كل صيحة عليهم هم العدو " (المنافقون : ٤) .

وقد وضحت هذه الآية أن الشجاعة والإقدام ليسا بضخامة البدن أو كثرة لحمه وإنما هي قوة القلب التي حرم منها المنافقون حتى وإن بنوا ضخام الجثة أقوىاء الأبدان لكن ضعف قلوبهم وصل إلى درجة أنهم يرتعدون خوفاً إذا صاح أحد فيهم فهم كمثل تمثال ضخّم توقفه بغير تثبيت فإنه يبدو من بعيد ضخماً قوياً ولكن لأنه ليس مثبتاً بقوة فإنه يسقط بقوة أيضاً مع أية هزة ولو ضعيفة .

^١ تفسر الطبري - الآية المذكورة .

والإسلام يخلق في متبعية جوهر الشجاعة والإقدام، ورغم أنه لا يتغاضى عن الشجاعة الجسمانية والمادية تماماً، ولكنه لم يؤسس في متبعية الشجاعة على أساسها، ولهذا سخر القرآن في الآية السابقة من ضخامة أبدان المنافقين، لأنه لا شجاعة في هذه الأبدان، ولهذا يريد الإسلام أن يكون أساس جوهر الشجاعة والإقدام الذي يخلقه في المسلمين على العقيدة القوية، والتي تنتج بشكل حتمي عن الإيمان الصحيح واليقين الراسخ بأن :

١- أي شيء يحدث هو بأمر الله، ولا يمكن أن يحدث شيء بغير أمره، ولهذا فإن الأمر لا يكون بالقلة أو للكثرة، وإنما بفضل الله وتصره .

٢- لكل واحد وقت معين يموت فيه، فإذا ما جاء هذا الأجل لا يمكن تأخيرته، وطالما لم يحن هذا الوقت لا يستطيع أحد أن ينيته .

٣- الموت في سبيل الله هو أفضل مصرف للحياة، إذ أن هذه الدماء تغسل كل ذنوب للشخص، ومن لم يمت في المعركة له ثواب عظيم كذلك .

قلة العدد وكثرته:

إن حصر الفشل والنجاح في المعركة على الكثرة أو القلة العددية وهم وخداع، إذ أن النجاح والفشل لا يكون تبعاً للعدد، وإنما يكون تبعاً للحالة الإيمانية والأخلاقية لمن يجتهدون، ومهما كان العدد صغيراً لكن إن كانت لديه قوة الإيمان واليقين فإن هذا العدد الصغير يغلب بفضل الله أكبر الأعداد. وقد بين القرآن الكريم هذه الفلسفة باختصار فيما يتعلق بجيش طالوت الصغير فقال :

" كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله " (البقرة : ٣٣) .

وحين كان سيدنا موسى عليه السلام يحث بني إسرائيل على الجهاد وكان ضعاف القلوب منهم يقولون "إننا لن نحارب:" "إن فيها قوما جبارين" (المائدة : ٢٢) . وكان شخصان من أمته يفهمانهم قائلين :

" فإذا دخلتموه فإنكم غالبون، وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين " (المائدة : ٢٣) .

وقد شرح الله تعالى السر في النجاح في بدر وأحد قائلاً :

" ولن تغني عنكم فتنتكم شيئاً ولو كثرت، وإن الله مع المؤمنين " (الأنفال : ١٩) .

"إذا عزم فتوكل على الله إن الله يحب المتوكلين، إن ينصركم الله فلا غالب لكم، وإن يخذلكم فمن ذا الذي ينصركم من بعده، وعلى الله فليتوكل المؤمنون" (آل عمران: ١٦٠).

والنصر والهزيمة موقوفان على الأمر الإلهي، ومنه يكون المدد :

" وما النصر إلا من عند الله، إن الله عزيز حكيم " (الأنفال : ١٠) .

وتعويض قلة العدد يكون بقوة الإيمان، ولقد أخبر الله تعالى المسلمين بهذا السر ليس باعتباره نظرية نقال، وإنما جعل منه قاعدة يوزف إليهم للبشرى فقال إن المسلم الحق يواجه عشرة أضعافه، وأن عشرة جنود من مثله يغلبون مائة، وعشرين يغلبون مائتين .

" يا أيها النبي حرض المؤمنين على القتال إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا ألفا من الذين كفروا بأنهم قوم لا يفقهون " (الأنفال : ٦٥) .

وقد وضع الله تعالى سببا آخر لتغلب المسلمين الشجعان وهزيمة الكفار وهو أن قوة الصبر والتوكل على الله تملأ قلوب المسلمين، أما قلوب الكفار فهي محرومة من هذا الفهم للإيمان وبصيرته .

وبعد ذلك جاء بعض التخفيف في شدة هذا الابتلاء، ومع ذلك فإن هذا التخفيف هو معيار الشجاعة والمروءة اليوم، يعني أن المسلم يواجه ضعف عدده بقدم ثابتة :
" فإن يكن منكم مائة صابرة يغلبوا مائتين، وإن يكن منكم ألف يغلبوا ألفين بإذن الله، والله مع الصابرين " (الأنفال : ٦٦) .

وانظر إلى قوة هذه التعاليم وتأثيرها، إذ تجد اليقين في قلوب المسلمين اليوم على أن المسلم الواحد يغلب كافرين اثنين في المعركة، وبفضل هذا اليقين تجد المسلم لا يبالي بضعف عدده من الكفار، ويعتمد على مدد الله تعالى له، ولهذا تولد الرعب في قلوب الكفار من المسلمين، وهو الوعد الذي وعد الله به قبل ثلاثة عشر قرن ونصف :

" سنلقي في قلوب الذين كفروا الرعب " (آل عمران : ١٥١) .

" سألقي في قلوب الذين كفروا للرعب " (الأنفال : ١٢) .

وقد وفى الله وعده هذا، فجعل اليهود الذين كانوا يفخرون بقلاعهم وعيادهم الحربي يستسلمون أما المسلمين خوفا منهم :
" وقذف في قلوبهم الرعب " (الأحزاب : ٢٦) .
" وقذف في قلوبهم الرعب " (الحشر : ٢) .

وسيطر الله تعالى في بوعده هذا طالما بقيت قلوب المسلمين هذه القوة الإيمانية .

الموت وقت محدد :

والسبب الأساسي في ضعف الإنسان هو خوف الموت، وترياق هذا السم نجده في العقيدة الإسلامية التي تقول بأن لكل أجل كتاب وموعد لا يمكن تقديمه أو تأخيره، ولهذا ليس هناك سبب للهرب من مكان الخطر .

وقد لقن الوحي المحمدي هذه العقيدة للمسلمين مراراً حتى سرت في عروق المسلمين فقد اهتزت لأقدام المسلمين في غزوة أحد، فنبههم الله تعالى وذكرهم بهذه العقيدة:

" وما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله كتاباً مؤجلاً " (آل عمران : ١٤٥) .

أي أن الإنسان يموت حين يأتي أمر الله، فلماذا الخوف من الموت، ولماذا نجبن بسببه، وحين اضطرب المسلمون في غزوة الأحزاب قال الله لهم :

" قل إن ينفعكم الفرار إن فررتم من الموت أو القتل " (الأحزاب : ١٦) .

والتصور بأن الإنسان إذا لم يشارك في المعركة فلن يموت تصور خاطئ، إذ سوف يموت الإنسان في المكان المحدد له، وسيأتي بنفسه إلى هذا المكان المحدد :

" قل لو كنتم في بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم " (آل عمران : ١٥٤) .

وبنفس الطريقة فإن التصور بأن فلاناً قتل لأنه اشترك في المعركة تصور خاطئ أيضاً إذ أن الموت بيد الله تعالى فمن شاء أماته، ومن شاء ظل حياً، وقد قيل للمسلمين لا تكونوا مثل الكفار في عقيدتهم الخاطئة هذه من أن :

" لو كانوا عندنا ما ماتوا وما قتلوا ليجعل الله ذلك حسرة في قلوبهم والله يحيي ويميت " (آل عمران : ١٥٦) .

ويقول بعض الضعفاء أنه لو لم يذهب هذا المقتول إلى المعركة لما قتل، فقال الله تعالى لو أن كلامهم هذا صدق، ويستطيعون تأجيل وقت الموت فليفعلوا :

" قل فادعوا عن أنفسكم الموت إن كنتم صانعين " (آل عمران : ١٦٨) .

وضرب الله تعالى المثال ببعض المسلمين ضعاف القلوب فهذا من روعهم :

" فلما كتب عليهم القتال إذا فريق منهم يخشون الناس كخشية الله أو أشد خشية، وقالوا ربنا لم كتب علينا القتال، لو لا أخرتنا إلى أجل قريب قل متاع الدنيا قليل، والآخرة خير لمن اتقى ولا تظلمون فتيةً، أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم في بروج مشيدة " (النساء : ٧٧) . المهم أنكم لن تستطيعون النجاة من الموت أينما ذهبتم، فلماذا إذا

تخافون من ميدان الحرب، ينبغي أن تكونوا مثل أولئك للمجاهدين الذين يتجدد إيمانهم كلما سمعوا عن الجهاد:

"والذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيماناً وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل" (آل عمران : ١٧٣) .

مقام الشهادة والمشاركة في الجهاد:

والشيء الآخر الذي يمنع من المشاركة في ميدان الجهاد هو التفكير في رفاهية الحياة وراحتها، وقد قضى الإسلام على هذا التفكير، وأكد أن المجاهدين باعوا أموالهم وأنفسهم لله تعالى مقابل رضائه وجنته، وهناك أعد الله لهم من النعيم ما يجعل نعيم الدنيا لا يساوي شيئاً أمامه :

"إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة، يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون" (التوبة : ١١١) .

وقبل ذلك جاء في سورة (النساء) إعلان عن أهل الإيمان الذين باعوا دنياهم بآخرتهم :

"فليقاتل في سبيل الله الذين يشرون الحياة الدنيا بالآخرة، ومن يقاتل في سبيل الله فيقتل أو يغلب فسوف نؤتيه أجراً عظيماً" (النساء : ٧٤) .
وسوف يغفر الله كل ذنوبهم :

"فالذين هاجروا وأخرجوا من ديارهم وأولادهم في سبيلي وقاتلوا وقتلوا لأكفرن عنهم سيئاتهم ولأدخلنهم جنات" (آل عمران : ١٩٥) .

وأثنى ما بذله الشهداء في هذا الطريق هو أرواحهم، وهي تعاد إليهم من جديد في الوقت نفسه، وقد قضت هذه العقيدة على ذلك للتصور الباطل الذي كان يقول بأن الشهداء يموتون، فقضت بأنهم أحياء عند الله وليسوا أمواتاً :

"ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون، فرحين بما آتاهم الله من فضله" (آل عمران : ١٦٩) .

ولا يستطيع الناس في هذه الدنيا التعرف على حياة هؤلاء، ومع ذلك لا يجب أن يقال عنهم أنهم أموات، ولو باللسان :

"ولا تقولوا لمن يقتل في سبيل الله أموات، بل أحياء ولكن لا تشعرون" (البقرة : ١٥٤) .

لم يمض ذلك الذي بعث قلبه بالعشق ونحن باقون على صفحة الدنيا

لكن صفات الجهاد هذه وجزاءه يكون لأولئك الذين يجاهدون في سبيل الله ومن أجل رضائه، وقد أعلنت هذه التعاليم من شأن المجاهدين فطهرتهم من الأنانية والغضب الشخصي وحب التظاهر بالشجاعة، فإن قتل أحد لأجل المال كان ذلك جهل يشبه جهل الكفار، قال تعالى :

" تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعندَ اللَّهِ مَغَافِرٌ كَثِيرَةٌ، مِثْلُ ذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنْ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَيَّنُوا " (النساء : ٩٤) .

وقد سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم أن شخصاً يحارب من أجل مال الغنيمة، أو الآخر من أجل الشهرة، وشخص يقاتل حمية، وآخر تظاهراً، وثالث يقاتل انتقاماً وغضباً، فأجاب رسول الله صلى الله عليه وسلم إجابة للجميع قائلاً: "من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله " (١) .

وفي حديث "آخر أن رجلاً سيسأل عن أعماله يوم القيامة فيقول يا إلهي لقد جاهدت في سبيلك، واستشهدت، فيقول الله إنك تكذب، لقد قاتلت لشجاع وقد قيل" (٢) .
المهم أن الإسلام قد ذم تلك الشجاعة التي يقصد بها الرياء والتفاخر، ولكن إذا كان هناك نوع ما من الفخر عرضاً مع قصد إعلاء كلمة الله في الجهاد فإن الإسلام لم ينمه (٣)، لأن هدف هذا الفخر هو إعلاء كلمة الحق .

وهذا هو السبب في أن الإسلام أحب الفخر والخيلاء بالشجاعة في ميدان الجهاد، وقد جاء في الحديث "إن الله يحب بعض الفخر والخيلاء ويبغض بعضه، فأما ما

^١ صحيح مسلم وصحيح البخاري - كتاب الجهاد - باب من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله. حدثنا سليمان بن حرب: حدثنا شعبه، عن عمرو، عن أبي وائل عن موسى رضي الله عنه قال: جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: الرجل يقاتل للمغنم، والرجل يقاتل للذكر، والرجل يقاتل ليرى مكانه، فمن في سبيل الله؟ قال: (من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا، فهو في سبيل الله).

^٢ صحيح مسلم - كتاب الجهاد - باب من قاتل للرياء والسعة استحق النار - جامع الترمذي. حدثنا يحيى بن حبيب الحارثي، حدثنا خالد بن الحارث، حدثنا ابن جريج، حدثني يونس بن يوسف، عن سليمان بن يسار، قال: تفرق الناس عن أبي هريرة، فقال له نائل أحد أهل الشام: أيها الشيخ! حدثنا حديثاً سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: نعم. سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: إن أول الناس يقضي يوم القيامة عليه، رجل استشهد، فأتي به فرفعه نعمه فرفها، قال: فما عملت فيها؟ قال: قاتلت فيك حتى استشهدت، قال: كذبت، ولكنك قاتلت لأن يقال جريء، فقد قيل، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار.

^٣ فتح الباري - المجلد السادس - ص ٢٣ - شرح الحديث المذكور .

يحبّه الله فهو ما يكون عند المعركة" (١)، إذ أن ذلك يلقي بالرعب في قلوب الأعداء، ويولد الاستعداد والحماس في قلوب الأصدقاء، وذلك مرة هجم أحد الصحابة على كافر، وقال متفائلاً: "ها أنا ابن الأكوع" وقد شرح الحافظ بن حجر هذه الفقرة قائلاً:

" هذه الفقرة تختلف عن ذلك الفخر الذي منع الله منه، لأن هذه للحالة كانت تقتضي هذا، وهو أقرب إلى ذلك الفخر والخيلاء الذي يجوز في المعارك ولا يجوز في غيرها" (٢).

وعندما أحاط المشركون برسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة حنين قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في ثبات وعزم: "أنا للنبي لا كذب، أنا ابن عبد المطلب". يعني أنني نبي صادق، ولن أفر من الميدان، ولن أترجع، ورغم أن كثيراً من المسلمين تراجعوا أمام وطأة سهام الأعداء إلا أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يتحرك من مكانه" (٣).

يقول الصحابة أن أشجع واحد منا كان ذلك الذي يقف عند رسول الله صلى الله عليه وسلم (٤)، وقالوا إن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان في غاية الشجاعة، وذلك مرة خاف أهل المدينة من أن يهجم الأعداء عليهم من ناحية ما. من نواحي المدينة، فكان أول من تقدم إلى تلك الناحية هو رسول الله صلى الله عليه وسلم، إذ امتطى رسول الله صلى الله عليه وسلم فرسه، وطاف بالمدينة كلها ثم عاد قائلاً: "ليس هناك ما

^١ أبو داود - كتاب الجهاد - باب الخيلاء في الحرب. حدثنا مسلم بن إبراهيم وموسى بن إسماعيل، المعنى واحد قالوا: ثنا أبان قال: ثنا يحيى، عن محمد بن إبراهيم، عن ابن جابر بن عتيك، عن جابر بن عتيك أن نبي الله صلى الله عليه وسلم كان يقول: من الغيرة ما يحب الله، ومنها ما يفيض الله: فأما التي يحبها الله عز وجل فالغيرة في الريّة، وأما الغيرة التي يفيضها الله فالغيرة في غير ريّة، وإن من الخيلاء ما يفيض الله، ومنها ما يحب الله: فأما الخيلاء التي يحب الله فالخيال الرجل نفسه عند القتال.

^٢ فتح الباري - الجزء السادس - ص ١٤ .

^٣ صحيح البخاري - غزوة حنين - كتاب الجهاد - باب النبي صلى الله عليه وسلم. حدثنا قتيبة: حدثنا سهل بن يوسف، عن أبي إسحق: قال رجل للبراء بن عازب رضي الله عنهما: أفررت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم حنين؟ قال: لكن رسول الله لم يفر، إن هوازن كانوا قوما رماة، وإننا لما لقيناهم حملنا عليهم فأقمزوا، فأقبل المسلمون على الغنائم واستقبلونا بالسهام، فأما رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم يفر، فلقد رأيته وإنه على بقلته البيضاء، وإن أبا سفيان أخذ بلجامها والنبي صلى الله عليه وسلم يقول: (أنا النبي لا كذب، أنا ابن عبد المطلب).

^٤ صحيح مسلم - باب غزوة حنين .

يخيف" (١). وذات مرة عندما أحاط الأعراب برسول الله صلى الله عليه وسلم من أجل العطاء، فقال صلى الله عليه وسلم "لن تجدوني بخيلاً ولا كذلياً ولا جباناً" (٢).

والجبن في نظر الإسلام عيب أخلاقي لا بد من التخلص منه، وقد استعاذ النبي صلى الله عليه وسلم من العجز والكسل والجبن والشيوخوخة التي تعد نوعاً من العجز، وفي رواية أخرى أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يستعيز من هذه الأشياء بعد كل صلاة (٣)، وفي رواية أخرى أن أكبر عيب أخلاقي في الإنسان هو البخل الشديد والجبن الذي يربع القلب (٤).

وقد أرسل سيدنا عبد الله بن أبي أوفى رسالة جاء فيها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "إذا قابلتم العدو فاثبتوا" (٥)، ويورد في هذه الرسالة تلك الفقرة البليغة التي قالها رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل ألف وثلاثمائة وخمسين عاماً، ولا تزال تتردد على لسان أطفال المسلمين :

^١ صحيح البخاري - كتاب الجهاد وكتاب الحمايل وتعليق السيف بالعنق. حدثنا سليمان بن حرب: حدثنا حماد بن زيد، عن ثابت، عن أنس رضي الله عنه قال: كان النبي صلى الله عليه وسلم أحسن الناس، وأشجع الناس، ولقد فرغ أهل المدينة ليلة، فخرجوا نحو الصوت، فاستقبلهم النبي صلى الله عليه وسلم وقد استبرأ الخبر، وهو على فرس لأبي طلحة عري، وفي عنقه السيف، وهو يقول: (لم تر أعوا، لم تر أعوا). ثم قال: (وجدناه بجراً). أو قال: (إنه لبحر).

^٢ البخاري - كتاب الجهاد - باب الشجاعة في الحرب والجبن. حدثنا أبو اليمان: أخبرنا شعيب، عن الزهري، قال: أخبرني عمر بن محمد بن جبير بن مطعم: أن محمد بن جبير قال: أخبرني جبير بن مطعم: أنه بينما يسير هو مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعه الناس، مقفلة من حنين، فعلقه الناس يسألونه، حتى اضطروه إلى سمرة فخطفت رداءه، فوقف النبي صلى الله عليه وسلم فقال: (أعطوني رداءي، لو كان لي عدد هذه العضاء لعمت لقسمة بينكم، ثم لا تجدوني بخيلاً، ولا كذلياً، ولا جباناً).

^٣ البخاري - كتاب الجهاد - باب ما يعوذ من الجبن. حدثنا موسى بن إسماعيل: حدثنا أبو عوانة: حدثنا عبد الملك بن عمير: سمعت عمرو بن ميمون الأودي قال: كان سعد يعلم بنيه هؤلاء الكلمات، كما يعلم المعلم الغلمان الكتابة، ويقول: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يعوذ متهم دبر الصلاة: (اللهم إني أعوذ بك من الجبن، وأعوذ بك أن أزدل العمر، وأعوذ بك من فتنة الدنيا، وأعوذ بك من عذاب القبر). فحدثت به مصعب لصدقه.

^٤ أبو داود - كتاب الجهاد - باب في الجرأة والجبن. حدثنا عبد الله بن الجراح، عن عبد الله بن يزيد، عن موسى بن علي بن رباح، عن أبيه، عن عبد العزيز بن مروان قال: سمعت أبا هريرة يقول سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: شر ما لي رجل شح هالغ وجبن خالغ.

^٥ صحيح البخاري - كتاب الجهاد - باب الصبر عند القتال. حدثنا عبد الله بن محمد: حدثنا معاوية بن عمرو: حدثنا أبو إسحق، عن موسى بن عقبة، عن سالم أبي النضر: أن عبد الله بن أبي أوفى كتب، لفراته: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (إذا لقيتموهم فاصبروا).

"واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف " .

الاستقامة

ومنى الاستقامة باعتبار اللفظ أن تكون مستقيماً منتصباً وأن تسير منتصباً، وباعتبار المقصود هنا فالاستقامة هي أن تثبت على ما تعتقده حقاً، حتى ولو واجهت في سبيل ذلك مشكلات وعداوات، أو ظلمت في سبيله، فإنك تتحمل كل خطر تواجهه، ولكن لا تحيد عن الحق، وتثبت قدمك على طريق الحق، وقد أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بأن يعلن هذا :

" إنما إليكم إله واحد فاستقيموا إليه واستغفروا " (فصلت : ٦) .

أي أن عبادتنا كلها له سبحانه وتعالى، وهو محور اهتمامنا، ولا نزيغ عنه بأي حال من الأحوال، وإنما نتوجه إليه مباشرة، وقد جاء في آية أخرى الأمر من الله تعالى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وصحابته الكرام بأن يستقيموا على هذا الطريق ولا يحيدون عنه، ولا يخالفوا الأمر بذلك :

" فاستقم كما أمرت ومن تاب معك ولا تطغوا، إنه بما تعملون بصير " (هود : ١١٢) .
وكانت الصحراء العربية الملتهية رمالها قد تحولت إلى تنور يفور غيظاً وغضباً في مخالفة دين الحق، وكل نرة فيها كانت تنطق بعداوتها لرسول الله صلى الله عليه وسلم، وأخذت هذه الأرض المترامية الأطراف تضيق لحظة بعد لحظة على المسلمين، وفي مثل هذه الظروف يأتي حكم الله تعالى لرسول الإسلام صلى الله عليه وسلم وصحابته أن استقيموا على الحق، وأن ادعوا الناس جميعاً إلى هذا الدين الحق، واثبتوا عليه، ولا تتبعوا أي هوى يخالف ذلك :

" فلذلك فادع واستقم كما أمرت ولا تتبع أهواءهم " (الشورى : ١٥) .

هؤلاء المستقيمون اعترفوا بالله رباً، وأخرجوا من قلوبهم كل المخاوف والمخاطر، والبشرى تأتيهم قائلة أن النجاح لكم، وسيأتي يوم لا تخافون شيئاً، ولا يحزنكم شيء :

"إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون" (الأحقاف: ١٣).

ومصير هؤلاء الذين استقاموا في الدنيا الاطمئنان والسكينة في الآخرة يوم ترتعد القلوب خوفاً، وسوف تبشر الملائكة هؤلاء للمستقيمين بأجر استقامتهم: "إن الذين

قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون" (فصلت: ٣٠).

وهناك حديث يمكن أن نعتبره شرحاً لهذه الآيات حيث سأل صحابي رسول الله صلى الله عليه وسلم قائلاً: يا رسول الله، قلني على أمر استقم عليه، فقال صلى الله عليه وسلم: قل لا إله إلا الله ثم استقم^(١).

وقد كان التزام الصحابة بالعمل باستقامة طبقاً لهذه النصائح، وما قدموه من أعمال عظيمة بشجاعتهم وأخلاقهم الإيمانية بدرجة لا يزال معها تاريخ حتى يومنا هذا يثني عليهم ويمتدحهم، بالرغم من مرور ألف وثلاثمائة وخمسين عاماً، وقد قدم الله تعالى صورة لاستقامتهم في ثلثيا حديثه عن غزوة الأحزاب فقال: "إذ جاءكم من فوقكم ومن أسفل منكم، وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا، هنالك ابتلى المؤمنون وزلزلوا زلزالاً شديداً" (الأحزاب: ١١).

وفي نفس السورة فصل الله تعالى ضعف المؤمنين في هذا الخصوص فقال: "ولما رأى المؤمنون الأحزاب قالوا هذا ما وعدنا الله ورسوله، وصدق الله ورسوله وما زادهم إلا إيماناً وتسليماً" (الأحزاب: ٢٢).

ثم أتى الله تعالى على أولئك المسلمين الذين عاهدوا الله بالاستقامة والثبات الكامل في كل المخاطر، ونفذوا ما عاهدوا الله عليه فقال: "من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه، فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر، وما بدلوا تبديلاً" (الأحزاب: ٢٣).

بمعنى أن بعضهم قد بذل روحه في سبيل الله وأدى ما عليه، ولا يزال البعض الآخر حياً ينتظر ذلك اليوم الذي تمتحن فيه استقامته، وبالرغم من كل هذه المخاطر فإنهم لم يبدلوا دينهم وإيمانهم مثلما فعل المنافقون، ولم يحطمووا العهد الذي عاهدوا الله عليه.

^١ - الرمزي - باب ما جاء في حفظ اللسان.

حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة، وأبو كريب، قالوا: حدثنا ابن ميمر، حدثنا قتيبة بن سعيد وإسحاق بن إبراهيم، جميعاً عن جرير، وحدثنا أبو كريب، حدثنا أبو أسامة، كلهم عن هشام بن عروة، عن أبيه، عن سفيان بن عبد الله الثقفي، قال: قلت: يا رسول الله قل لي في الإسلام قولاً لا أسأل عنه أحداً بعدك - وفي حديث أبي أسامة: غيرك - قال: قل: آمنت بالله ثم استقم.

إن مواجهة المشاكل في سبيل الحق، وابتلاء رجال الله واستقامتهم فيها مبدأ إلهي قائم وسيظل قائماً، ولن يحقق فرد أو أمة نجاحاً طالما لم يكن على المستوى المطلوب فيه، قال تعالى: "أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم البأساء والضراء وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله، ألا إن نصر الله قريب" (البقرة: ٢١٤).

وقد بين القرآن الكريم موضعين من الموضع التي ابتلي فيها المؤمنون بخصوص الاستقامة الأول ما يتعلق بجيش طالوت للقليل والذي واجه جيشاً ضخماً للأعداء على الرغم من قلة عدده والعطش الذي حل بهم، لكنهم نجحوا في نهاية الأمر، وكان لسان حالهم في ذلك الوقت يدعو الله قائلاً: "ربنا افرغ علينا صبراً وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين" (البقرة: ٢٥٠).

أما الموضع الآخر فهو ما يتعلق بأصحاب الأخدود، فقد جاء في الأحاديث وكتب السير^(١) أنه كان في اليمن بعض من المؤمنين المخلصين لسيدنا عيسى عليه السلام، وقد أذاهم اليهود بشتى الطرق، وفي النهاية حفروا لهم حفرة عظيمة أشعلوا فيها النار وألقوا بالمؤمنين فيها، ومع ذلك فإنهم لم يحدوا عن إيمانهم ولم يتحولوا عنه :

" قتل أصحاب الأخدود، النار ذات الوقود، إذ هم عليها قعود، وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود، وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد " (البروج : ٨) .

ومن بين صور استقامة السابقين والتي قدمها محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم كنموذج لأمته ما ذكره البخاري في صحيحه يقول خباب بن الأرت الصحابي إننا ذات مرة كنا نعرض على رسول الله صلى الله عليه وسلم ما يعرض لنا من مضائب، وطلبنا منه أن يدعو لنا الله، إذ أن هذا يعد نوعاً من التعبير عن القلق والاضطراب، ولهذا قال صلى الله عليه وسلم: لقد كان فيمن قبلكم رجل دفن حياً، ورجل شق بالمنشار، ولكنه لم يحد عن الدين الحق، ومنهم من كان لحمه وعظامه بمشطان بمشط من حديد ويقطع لحمه، ولكنه لم يحد عن الحق " (١) .

^١ صحيح مسلم و سيرة ابن هشام - قصة أصحاب الأخدود .

^٢ صحيح البخاري - باب علامات النبوة في الإسلام .

حدثنا محمد بن المثنى: حدثنا يحيى، عن إسماعيل: حدثنا قيس، عن خباب بن الأرت قال: شكونا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهو متوسد بردة له في ظل الكعبة، فقلنا له: ألا تستنصر لنا، ألا تدعو

ولا يخفى على أهل التاريخ أثر هذه التعاليم النبوية على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، وما هو خباب بن الارت روي هذه الواقعة والذي أودي بإذاء شديداً بسبب إسلامه، فلقد أضجعه على فحم مشتعل ذات يوم، ووطأ رجل صدره بقممه حتى لا يتحرك من فوق الفحم المشتعل حتى لتطفأ للفحم المشتعل في جسده، وبعد زمن طويل كشف خباب بن الارت عن جسده أمام سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه فكانت هذه الحروق التي أحدثها الظالمون على جسده تلمع مضيئة على ظهره (١) .

وكان سيدنا بلال رضي الله عنه يلقي فوق الرمال للملتهبة وتوضع الصخرة الثقيلة فوق صدره، ويربط بحبل من عنقه، ويضرب على الأرض، حتى يعود عن الإسلام، ومع ذلك فلم يكن يتقوه بغير (أحد، أحد) وكان سيدنا خبيب يعلق على المشنقة، ولكنه مع ذلك كان يحب هذه التضحية بالروح ويشكر الله عليها شكراً مضاعفاً، بل إن تلك الفقرة التي قالها رسول الله صلى الله عليه وسلم في رده على عمه أبي طالب سبقت أثرها ما بقيت الشمس والقمر مضيئان في السماء، فلقد قال: "والله يا عم، لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الدين أو أهلك دونه ما تركته" .

وقد خاطب الله تعالى المسلمين قائلاً أنه على فرض أن رسول الله مات في سبيل دعوته أو قتل، أكنتم تواصلون سيركم على طريقه أم تعودون عنه؟ فإن الحق ليس مرتبطاً بوفاء أحد أو حياته، وأنتم معه لأنه على الحق :

"وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم، ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئاً" (آل عمران : ١٤٤) .

وكان الله يقص عليهم حال الأمم السابقة ويطمئنهم، ويحثهم على الصبر والثبات والاستقامة :

الله لنا؟ قال كان الرجل فيمن قبلكم يحفر له في الأرض، فيجعل فيه، فيجاء بالمنشار فيوضع على رأسه فيشق بالثنتين، وما يصده ذلك عن دينه، ويمشط بأمشاط الحديد ما دون لحمه من عظم أو عصب، وما يصده ذلك عن دينه، والله ليتمن هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت، لا يخاف إلا الله، أو الذئب على غنمه، ولكنكم تستعجلون).

١ ابن سعد - الجزء الثالث - ترجمة خباب بن الارت .

"وكان من نبي قاتل معه ربيون كثير فما وهنوا لما أصابهم في سبيل الله وما ضعفوا وما استكانوا والله يحب الصابرين، وما كان قولهم إلا أن قالوا ربنا اغفر لنا ذنوبنا وإسرافنا في أمرنا وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين" (آل عمران : ١٤٧) .
ويجب أن يكون المسلم المخلص من حيث الاستقامة وثبات القدم هكذا، وهناك أمر آخر وهو استقامة العمل التي تتوازي مع الاستقامة سابقة للذكر، وهو ما نطلق عليه المداومة بمعنى المداومة والمواظبة على عمل الخير الذي يتم اختياره، فيستمر عليه في أي حال وفي كل حال، لا أن يقوم به في بعض الأحيان ويتركه في البعض الآخر، إذ أن ذلك يدل على ضعف في الفطرة وعدم الميل إلى هذا العمل، والصلاة هي أفضل الأعمال الحسنة، لكن الله تعالى مدح أولئك الذين يداومون عليها، قال تعالى: "إلا المصلين الذين هم على صلاتهم دائمون" (المعارج: ٢٣).

إن التجانس الأخلاقي والثبات على الخلق الطيب جوهر أخلاقي عظيم، وهو أمر لا يتأتى إلا بدوام القيام عليه، ولهذا أكد عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم مراراً، وقد سئلت السيدة عائشة رضي الله عنها عن أي الأعمال الطيبة كان محبباً إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقالت: ذلك العمل الطيب الذي يدوم عليه" (١)، وقد قال صلى الله عليه وسلم: أفضل العمل عند الله ما قل واتصل" (٢).

قول الحق

وهذه الصفة الأخلاقية تتعلق في الحقيقة بالشجاعة، ومثلما أن الجيوش المسلحة للفريقين المتحاربين في ميدان المعركة يظهر أن كل ما يملكان من الشجاعة والرجولة في مواجهة بعضهما البعض، فإن هذا يكون حال الحق والباطل حين يتواجهان في المعركة، والصوت الذي يخرج من القلب واللسان بغرض حماية الحق يسمى قول الحق، وأفضل الأوقات لقول الحق عندما يكون الحق ضعيفاً باعتبار القوة المادية بينهما

^١ صحيح البخاري - باب القصد ومداومة العمل .

حدثنا قتبية، عن مالك، عن هشام بن عروة، عن أبيه، عن عائشة أنها قالت: كان أحب العمل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي يدوم عليه صاحبه.

^٢ المرجع السابق .

حدثني محمد بن عروة: حدثنا شعبة، عن سعد بن إبراهيم، عن أبي سلمة: عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: سئل النبي صلى الله عليه وسلم: أي الأعمال أحب إلى الله؟ قال: (أدومها وإن قل). وقال: (اكلفوا من الأعمال ما تطيقون).

يكون الباطل قوياً وقد حض الإسلام على قول الحق في مثل هذا الوقت وأتسى عليه وأكثر من هذا أن الله تعالى أمر رسوله الكريم صلى الله عليه وسلم قائلاً :
" فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين، إنا كفيناك المستهزئين الذين يجعلون مع الله إلهاً آخر " (الحجر : ٩٤) .

بمعنى أن وقت الدعوة إلى التوحيد في السر قد انتهى، وحين وقت الدعوة جهراً، ولهذا عليك أن تجهز بحكم الله ولا تبالي بسخرية المشركين واستهزائهم أبداً، بل ولا تبالي بقوتهم وطاقتهم، فالله كافيك في مواجهتهم جميعاً .

ويعلم من هذه الآية أن الخوف هو الشيء الذي يمنع الإنسان من قول الحق، وللخوف أقسام عدة منها خوف اللوم والعتاب وهو ما قررت هذه الآية بأنه لا أثر له، وفي آية أخرى عد وصفاً أخلاقياً من أوصاف للمسلمين :
" ولا يخافون لومة لائم " (المائدة : ٥٤) .

بمعنى أن أهل الإيمان لا يبالون باللوم والعتاب في سبيل إظهار الحق .
وبالإضافة إلى اللوم والعتاب فهناك الخوف من أشياء أخرى تتعلق بالنفس والروح وغيرهما مما يمنع الإنسان من قول الحق، لكن الإسلام أبطل كل أثر لكل خوف في سبيل قول الحق، فقد ورد في الحديث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم وقف ذات مرة ليخطب في الناس وقال: إذا عرف الإنسان الحق فلا ينبغي أن يمنعه خوف من قوله، وذات مرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يحقرن أحد منكم نفسه، فقال الصحابة يا رسول الله وهل فينا من يحقر نفسه؟ فقال صلى الله عليه وسلم: أن تكون هناك ضرورة لقول كلمة حق ولا يقولها، وسيقول الله لمثل هذا الشخص يوم القيامة: ما الذي منعك من قول الحق عني؟ فيقول: خوف الناس، فيقول الله تعالى: كان عليك أن تخافني أنا .

وأكثر من يخيف الناس السلطان الظالم، ولهذا فإن قول الحق أمامه يعتبر جهاداً عظيماً، قال صلى الله عليه وسلم: "أفضل الجهاد كلمة عدل عند سلطان جابر". وفي رواية أخرى جاءت كلمة (حق) بدلاً من كلمة (عدل).

ويحتل قول الحق المرتبة الثانية بين المراتب التي تقررت في الإسلام للأجر بالمعروف والنهي عن المنكر، ولهذا أخرج (مروان) ذات عيد المنبر وخطب في الناس قبل الصلاة فقال واحد من الناس: يا مروان لقد خالفت السنة، لقد أخرجت المنبر والمنبر لا

يخرج في مثل هذا اليوم وخطبت قبل الصلاة مع أن الخطبة لا تكون قبل صلاة العيد، قال أبو سعيد الخدري: لقد أدى للفرض الذي عليه، فلقد سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "من رأى منكم منكراً فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان" (١).

وقد كانت مكانة سيدنا أبي ذر بين الصحابة جميعاً عظيمة في ميدان قول الحق، فهو الذي ذهب بعد إسلامه إلى حيث يجتمع كفار قريش وأعلن للتوحيد أمامهم، ولم يصمت إلا بعد أن أنهكوه ضرباً، ومع ذلك لم يتخل عن مبدئه، وفي اليوم التالي ذهب إليهم ثانية وأعلن الحق أمامهم، فضربوه ثانية، وقد قال صلى الله عليه وسلم في منحه: لا يوجد تحت السماء ولا فوق الأرض من يقول الحق أكثر من أبي ذر (٢). وعندما كان أبو ذر في الشام أيام خلافة عثمان رضي الله عنه هاجم تلك النزعة الرأسمالية التي لاحظ نموها بين الناس هناك، ولم يبال أبداً بأن ذلك قد يغضب الأمير معاوية.

يقول سيدنا أبو سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خطب ذات مرة خطبة طويلة قال فيها: احذروا أن يمنعكم خوف أحد من قول الحق الذي تعرفونه، فلما سمع سيدنا أبو سعيد هذا بكى وقال: لقد رأينا أموراً ومنعنا الخوف (٣).

^١ سنن ابن ماجه ، باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وفيه ذكرت الأحاديث كلها .

حدثنا أبو كريب، حدثنا أبو معاوية، عن الأعمش، عن إسماعيل بن رجاء، عن أبيه، عن أبي سعيد الخدري، وعن قيس بن مسلم، عن طارق بن شهاب، عن أبي سعيد الخدري قال: أخرج مروان المنبر في يوم عيد فبدأ بالخطبة قبل الصلاة، فقال رجل: يا مروان خالفت السنة، أخرجت المنبر في هذا اليوم، ولم يكن يخرج، وبدأت بالخطبة قبل الصلاة، ولم يكن يبدأ بها، فقال أبو سعيد: أما هذا فقد قضى ما عليه، سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: من رأى منكم منكراً فاستطاع أن يغيره بيده فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان.

^٢ جامع الترمذي - مناقب سيدنا أبي ذر .

حدثنا محمود بن غيلان، حدثنا ابن نمير عن الأعمش عن عثمان بن عمرو، عن أبيه، عن أبي سعيد الخدري، عن أبي الأسود الدبلي عن عبد الله بن عمرو قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: ما أظنك الخضراء ولا أظنك الغبراء أصدق من أبي ذر.

^٣ الترغيب والترهيب للمنزوي - باب الترهيب من الغضب - نقلاً عن الترمذي .

الاستغناء

الاستغناء يعني عدم الاحتياج وعدم الاحتياج إلى أي شيء هو من صفات الله تعالى فقط :

" ومن كفر فإن الله غني عن العالمين " (آل عمران : ٩٧) .

أما عدم الاحتياج بالنسبة للإنسان فهو أن لا يحتاج إلا إلى الذات العلية وهذا هو الذي يميز الاستغناء الإسلامي عن غيره، وتقوم تعاليم الاستغناء هذه في الدستور الأخلاقي الإسلامي على مبدئين أولهما أن الله تعالى هو المعطي الحقيقي ولهذا لا يجب أن نمد أيدينا إلى أحد غيره ومن آيات القرآن الكريم التي نرددها في صلواتنا كثيراً قوله تعالى :

" والله الغني و أنتم الفقراء " (محمد : ١٠) .

وقد قال الله عن نفسه في مواضع متعددة أنه المتصرف الحقيقي وأنه الوكيل الحقيقي فمنح بذلك السكينة لقلوب عباده المضطربة، قال تعالى :

" ونعم الوكيل " (آل عمران : ١٧٣) .

" وكفي بربك وكيلاً " (الإسراء : ٦٥) .

" أليس الله بكاف عبده " (الزمر : ٣٦) .

" وكفي بالله و كيلاً " (النساء : ٨١) .

وفي آية منها يسأل الله تعالى عباده قائلاً :

" أليس الله بكاف عبده " (الزمر : ٣٦) .

ولهذا فلا حاجة لأن نقف على أبواب الملوك والأمراء والأثرياء. أما المبدأ الثاني والذي يقوم عليه الاستغناء الإسلامي فهو القناعة، بمعنى أن نطمئن بأقل ما أعطاه الله لك، وأن لا نطمع في زيادته :

" ولا تتمنوا ما فضل الله به بعضكم على بعض " (النساء : ٣٢) .

" ولا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجاً منهم " (طه : ١٣١) .

وهناك بعض الناس يتسمون بغاية الطمع بالرغم من كونهم أغنياء، فهم لا يشبعون من المال والثروة، ويعملون على الحصول عليها بطرق شرعية وغير شرعية، ولهذا فإنهم محتاجون برغم ما يملكون، ولكن من الناس من لا يكون ثرياً، ولكنه قانع بما أعطاه الله له، ولا يحرص على الزيادة، ولهذا فإنه مستغن ولا حاجة له برغم قلة

ما يملك، وبناء عليه فإن الاستغناء لا يكون بكثرة للمال لو بقلته وإنما يرتبط بالقلب والروح وقد شرح رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا الأمر في قوله :

" ليس الغنى عن كثرة العرض، ولكن الغنى غنى للنفس " .

وقد ترجم الشيخ سعدى هذا الحديث بقوله: الغنى بالقلب لا بالمال .

وفي حديث آخر زاد رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا الأمر وضوحاً فقد قال سيدنا أبو ذر رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لي: يا أبا ذر ألتظن أن الاستغناء يكون بكثرة المال؟ قلت: نعم يا رسول الله فقال: ألتظن أن الاحتياج يكون بقله المال؟ قلت: نعم يا رسول الله فقال: الاستغناء استغناء للقلب والاحتياج احتياج للقلب (١).

وبناءً على هذا فإن الاستغناء في الحقيقة يأتي من الرضا والتسليم وليس من المال والثروة بمعنى أنه لو رضي الإنسان بما أعطاه الله له لكان استغناءً، ولو على الأقل يتولد بذلك جوهر الاستغناء في النفس، ولهذا أرشد رسول الله صلى الله عليه وسلم سيدنا أبا هريرة رضي الله عنه إلى هذا فقال له: لو رضيت بما قسمه الله لك تكن أغنيى للناس (٢). وذات مرة طلب بعض الأنصار من رسول الله صلى الله عليه وسلم ما لاوأعطاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم مؤلهم، لكنهم لم يقتنعوا به وسألوه ثانية فأعطاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم مؤلهم ثانية، وظل يعطيهم حتى انتهى ما لديه فقال: لن أمنعكم ما يأتيني من مال يومن أولاد عزة للنفس منحه الله ليأها، ومن أراد الاستغناء أغناه الله (٣) .

^١ فتح الباري - الجزء الحادي عشر - ص ٢٣٢ ، نقلاً عن صحيح ابن حبان و موارد الظنن إلى زوائد ابن حبان للهيمى - نسخة مخطوطة بدار المعنيين - باب الغنى غنى النفس. وأصله في مسلم، ولا ابن حبان من حديث أبي ذر قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم: يا أبا ذر أتري كثرة المال هو الغنى؟ قلت: نعم. قال: وترى قلة المال هو الفقر؟ قلت: نعم.

يا رسول الله قال: إنما الغنى غنى القلب، والفقر فقر القلب

^٢ فتح الباري - الجزء الحادي عشر - ص ٢٣٤ .

^٣ أبو داود - كتاب الزكاة - باب الاستغفار . .

حدثنا عبد الله بن يوسف: أخبرنا مالك، عن ابن شهاب، عن عطاء بن يزيد الليثي، عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه : إن ناساً من الأنصار سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فأعطاهم، ثم سألوه فأعطاهم، حتى نفذ ما عنده، فقال: (ما يكون عندي من خير فلن أخبره عنكم، يومن يستغف بعفه الله، ومن يستغف يقه الله، ومن يتصبر يصبره الله، وما أعطي أحد عطاء خيراً وأوسع من الصبر).

وهكذا سأل سيدنا حكيم بن حزام رضي الله عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم مراراً، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعطيه في كل مرة، وفي النهاية قال صلى الله عليه وسلم: يا حكيم، هذا المال يحبه للجميع، فمن أخذه بقلب راغب بآرك الله له فيه، ومن أخذه حرصاً عليه لا تكون فيه بركة، ويكون مثل ذلك الشخص الذي يأكل ولا يشبع، وقد أثر هذا الكلام فيه رضي الله عنه حتى أنه لم يقبل عطاءً من أحد أبداً بعد ذلك. (١)

وقد روي عن فضالة بن عبيد رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: بشرى لمن هدي إلى الإسلام، وكان لديه قوت يومه وأرضاه الله به (٢). ويقول سيدنا سهل بن سعد أن جبريل الأمين قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم: أن شرف المؤمن صلاة الليل، وعزة المؤمن في الاستغناء عن الناس (٣).

الردائل

معنى الردائل:

الردائل تعني العادات والخصال السيئة، وهي الأخلاق الذميمة التي يبغضها الله تعالى، وأمر عباده أن يجتنبوها، ويصير آثماً من يرتكبها، ويعرف سوءها كل عاقل، ويسلم به، وهي التي تؤذي الإنسانية أفراداً وجماعات روحانياً ومادياً، وتحطم المجتمعات، بل إنها

^١ الترمذي - كتاب الزهد.

حدثنا سويد: أخبرنا عبد الله عن يونس عن الزهري عن عروة وابن المسيب أن حكيم بن حزام قال: سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم فأعطاني، ثم سألته فأعطاني، ثم سألته فأعطاني، ثم قال: يا حكيم إن هذا المال خضرة حلوة، فمن أخذه بسخاوة نل من يورك فيه، ومن أخذه بإشراف نفس لم يبارك له فيه، وكان كالذي يأكل ولا يشبع، واليد العليا خير من اليد السفلى، فقال حكيم: فقلت: يا رسول الله والذي بعثك بالحق لا أرأى أحد بعدك شيئاً حتى فارق الدنيا.

^٢ زوائد صحيح ابن حبان - نسخة مخطوطة بدار المصنفين - باب في القناعة.

^٣ مستدرک الحاكم - الجزء الرابع - ص ٣٥٢ - كتاب الرقاق.

حدثنا محمد بن سعيد المنكر الرازي، ثنا أبو زرعة عبيد الله بن عبد الكريم، ثنا عيسى بن صبيح، ثنا زافر بن سليمان، عن محمد بن عيينة، عن أبي حازم قال مرة، عن ابن عمر، قال مرة عن سهل بن سعد قال: جاء جبريل عليه السلام إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: يا محمد عش ما شئت فلك ميت، وأحب من أحببت فلك مفارقة، وأعمل ما شئت فلك مجزي به، ثم قال: يا محمد شرف المؤمن قيلم الليل وعزه استغناؤه عن الناس.

إذا شاعت في أمة فإنها تصبح سبباً في تكفير هذه الأمة فهي تقف عقبة في طريق تقدمها الدنيوي وتغلق أمامها أبواب السعادة وحسن اللطالع .

الاسم القرآني للردائل:

وقد جاءت الردائل بأسماء وصفية متعددة في القرآن الكريم مثلاً سميت كثيراً (المنكر) و (الفحشاء) وأحياناً سميت بالفاحشة والسيئة وكذا السوء والمكروه والخطأ والإثم والعدوان وغيرها من الأسماء الوصفية ويتضح من هذه الألفاظ مدى سوء الشخص الذي يتصف بها ولأنه يستحق أن ينفر منه الناس وأن للردائل أمور لا يقبلها العقل لو للشرع قال تعالى :

" ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق نحن نرزقهم وإياكم إن قتلهم كان خطيئاً كبيراً ولا تقربوا الزنا إنه كان فاحشة وساء سبيلاً " (الإسراء : ٣١ ، ٣٢) .

" ولا تمس في الأرض مرحاً إنك لن تخرق الأرض ولن تبلغ الجبال طولا كل ذلك كان سيئه عند ربك مكروهاً " (الإسراء : ٣٧ ، ٣٨) .

وأكثر الألفاظ المستخدمة في القرآن الكريم للدلالة على الردائل هو لفظ (منكر) ولهذا أطلق الله تعالى لفظ (منكر) على تلك المساوي التي ورد ذكرها في سورة المائدة والتي عوقب بنوا إسرائيل بسبب عدم التخلص منها :

" كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه فلئیس ما كانوا يفعلون " (المائدة : ٧٩) .

وقد عدد الله تعالى مساوي ذلك الشعب العرييد ، فقال :

" وتأتون في ناديكم المنكر " (العنكبوت : ٢) .

بينما ذكر أن صفة الصالحين هي :

" ولناهون عن المنكر " (التوبة : ١١٢) .

" وينهون عن المنكر " (آل عمران : ١٠٤ ، التوبة : ٧١) .

وفي مكان آخر جاء لفظ للفحشاء ملازماً للفظ المنكر :

" فإنه يأمر بالفحشاء والمنكر " (العنكبوت : ٩٠) .

ومن فضائل الصلاة أنها :

" تنهى عن الفحشاء والمنكر " (العنكبوت : ٩٠) .

الفحشاء والمنكر والبغي:

وفي آية أخرى اجتمع الألفاظ الثلاثة الفحشاء والمنكر والبغي :

" إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى، وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون " (النحل : ٩٠) .

وهذه الآية أحاطت بكل أقسام الفضائل والردائل، يقول سيدنا عثمان بن مظعون رضي الله عنه: لقد أسلمت في بداية أمري حياءً من رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يكن الإسلام قد تمكن من قلبي، ولكن عندما نزلت هذه الآية تمكن منه (١) .

ويقول سيدنا ابن مسعود أن أكثر آية في القرآن جمعت الخير والشر هي هذه الآية (٢)، ويقول قتادة رضي الله عنه إن الأخلاق الحسنة التي كانت سائدة أيام الجاهلية، وكان يحبها الجميع ليس من بينها خلق لم يأمر به الله في هذه الآية، وليس هناك خلق سيء لم ينه الله عنه في هذه الآية (٣). وقد جاء بخصوص الأمور المنهي عنها في هذه الآية ثلاثة ألفاظ هي للفحشاء والمنكر والبغى، وكل واحد من هذه الألفاظ يحتاج إلى بعض الشرح .

معنى الفحشاء:

وأول لفظ من هذه الألفاظ هو (الفحشاء)، بوله صورة أخرى هي (الفاحشة)، وهو مشتق من لفظ (فحش) والذي يعني أصلاً تعدي الحد (٤)، ومعناه الآخر الملازم لمعناه هذا هو القبح، إذ أن تعدي حد شيء مما حده خالق الفطرة قبح وسوء، أو أن معناه هو أن يزيد السوء عن الحد، وهو ما يسمى (الفحشاء) وقد استعمل القرآن الكريم تعدي الحدود الإلهية وتجاوزها في معنى الذنب. وعلى سبيل المثال فإن الله تعالى قد قرر بعض الحدود لقوة الشهوة لدى الإنسان وإشباعها، فإذا ما تعدى أحد هذه الحدود فإنه يكون عندئذ متعد للحدود ومرتكباً للفاحشة، قال تعالى: "والذين هم لفروجهم حافظون، إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين، فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون" (المؤمنون: ٦٠).

ويطلق هذا اللفظ أيضاً ليشمل كل فحش وسوء أكد الله تعالى على عباده أن يتجنبوه .

^١ مسند أحمد بن حنبل عن ابن عباس .

^٢ مستدرک الحاكم - الجزء الثاني - ص ٢٥٦ - ، و ابن جریر الطبری - تفسیر الآية المذكورة .

^٣ ابن جریر الطبری - تفسیر الآية المذكورة .

^٤ الصحاح للجوهري - لفظ فحش ، و لسان العرب لفظ فاحش تحت فحش .

معنى المنكر :

واللفظ الثاني هو (المنكر) ومعناه اللغوي هو غير المعروف، وهذا يعني أن الأمور الذي يحبه الناس بصفة عامة، ويمدحون من فعله يكون أمراً معروفاً، ويطلق عليه (معروفاً)، وعندما حضر إلى إبراهيم عليه السلام بعض الضيوف غير المعروفين له قال: "قوم منكرون" (الحجر: ٦٢، الذاريات: ٢٥)، وحين دخل أخوة سيدنا يوسف عليه السلام عرفهم، لكنهم لم يعرفوه، وقد عبر القرآن عن هذا بقوله: "فعرّفهم وهم له منكرون" (يوسف: ٥٨).

وفي حالة الاستياء يبدو وجه الإنسان لمن يراه متغيراً، ويبدو الاستياء من تصرفاته بدهاء، وقد أطلق على هذه الحالة أيضاً لفظ (منكر)، قال تعالى :

" وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات تعرف في وجوه للذين كفروا المنكر يكدون يسطون بالذين يتلون عليهم آياتنا " (الحج : ٧٢) .

وقد أطلقت هذه الآية لفظ (منكر) على ذلك للتغير السيئ الذي يلحق الوجه بسبب الاستياء، وبالتالي يعلم من هذه الآيات أن المنكر هو ذلك العمل الذي لا يحبه أي أحد بالفطرة وبغير تردد، وأن سوءه يكون ظاهراً بحيث لا يحتاج إلى دليل، وهذا هو السبب في أن المنكر يعد سوءاً في كل حضارة ومدنية طيبة مستقيمة .

معنى البغي:

واللفظ الثالث هو (البغي)، والذي يعني لغوياً ظلم أحد أو للتطاول عليه :

" خصمان بغى بعضنا على بعض " (ص : ٢٢) .

ويقول تعالى أنه لو أعطى للناس مالا لا حدود له فإنهم سيظلمون بعضهم البعض :

" ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا في الأرض " (الشورى : ٢٧) .

وجاء في هذه السورة كذلك :

" إنما السبيل على الذين يظلمون الناس ويبغون في الأرض بغير الحق " (الشورى: ٤٢).

ويعلم من هذه الآيات أن للبغي يعني ظلم الآخرين وللتعدي عليهم .

لماذا تكون الأخلاق النميمة سيئة:

ويظهر من هذا التفصيل أن الرذائل تنحصر في ثلاثة أشياء هي للفحشاء والمنكر والبغي، وأن الفحشاء هي الصفات النميمة التي تتجاوز كل حد في القبح وعدم

الحياة، وأنها أمور لا يحبها الإنسان بفطرته، وتؤدي إباحتها إلى التعدي على حقوق الآخرين بالضرورة، وقد جاء في سورة (الأعراف) قوله تعالى :

" قل إنما حرم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن والإثم والبغي بغير الحق" (الأعراف: ٣٣) وقد حصرت هذه الآية أيضاً الفواحش في ثلاثة ألفاظ، واحد هو الفواحش، أي كل الأفعال السيئة التي تنافي الحياة سواء كانت في السر أو في العلن، والثاني هو الذنب، والثالث البغي بغير حق، فإذا ما حللنا هذه الأخلاق الذميمة التي حرمها كل دين واستناعت منها المجتمعات الإنسانية لعلنا أنها في الحقيقة أفعال سوء ومنافية للحياة، وأنها في نظر الدين والشرف أمور غير محبوبة، ولو أبيحت فلن يكون هناك أمان بين الأفراد فيما يتعلق بالحقوق، ولن يسلم مال أحد أو روحه أو عرضه^(١).

ترتيب الرذائل:

ويمكن ترتيب هذه الرذائل طبقاً لنظريتين أحدها إلى أي مدى تكون دائرة تأثير السيئة متمسكة، والثانية مدى تعلقها بسخط الله تعالى وعدم رضاه. وقد قسمت الآية السابقة الرذائل إلى ثلاثة عناوين كبيرة بالإضافة إلى الترغيب الموجود بها، أول هذه للعلولين هو الفحشاء، ثم المنكر، ثم البغي .

أما السوء الذي أشير إليه في الفحشاء فهو الذي ينحصر في ذات فرد واحد، مثل العري وارتكاب الفاحشة وغير ذلك، وأما المنكر فإنه يؤثر على الحياة الاجتماعية للجماعة كلها، مثل ظلم الزوج وقسوة الأب وعدم كفاءة الأولاد، وأما البغي فإنه يتعدى الجماعة إلى الدولة والأمة كلها مثل السرقة والقتل والسلب والنهب وغيرها .

وهذا ترتيب للرذائل طبقاً لإحدى النظريتين، أما فيما يتعلق بالنظرية الثانية فهي أن الصفات الذميمة تعذب رحمة الله، وهي المساوي التي تحرم من حب الله، وهي المساوي التي تخلو من رضا الله .

الكذب

إن أسوأ عادات الإنسان ضمن الأخلاق الذميمة هو الكذب، سواء كان الكذب باللسان أو بالفعل، لأن أفعالنا كلها مبنية على مطابقتها للواقع، والكذب نقيضها تماماً، ولهذا

^١ الفحشاء والمنكر في الاصطلاح المنطقي مانعة الحل، بمعنى أنه من الممكن أن تجمع هذه الأشياء الثلاثة في خلق سيء، لكن لا يوجد خلق سيء يخلو من أحدها، أي أن كل خلق سيء توجد فيه هذه الأمور الثلاثة أو أحدها .

فإن هذه السبئية هي أصل كل الأعمال السبئية الأخرى، ولا يعلم أحد غير الله ما بداخل الإنسان، وعن كان هناك من يستطيع أن يعرف هذا لو يؤكد عليه، فإن ذلك لا يكون إلا في صورة واحدة وهي أن يظهر هذا الشخص بقوله أو بعمله ما بداخله، فإذا ما تعدد أن لا يظهر (بقوله أو بفعله) الحقيقة التي بداخله، أو يظهر خلاقها فإنه بذلك يخدع للعالم كله، وليس هناك أسوأ من مثل هذا الشخص، لأنه في الحقيقة حطم المرأة التي تظهر وجه الحقيقة، ولهذا فإن أول صفة من صفات النبي هي أن يكون صادقا. ولهذا استخدم الصدق كصفة للدلالة على بعض الأنبياء، قال تعالى:

" وانكر في الكتاب إدريس أنه كان صديقاً نبياً " (مريم : ٥٦) .

ولهذا لا يمكن لكاذب أن يكون نبياً، إذ كيف سيثق الآخرون في دعواه ورسالته، وعندما أرسل الله تعالى سيدنا موسى نبياً إلي فرعون، وكذبه فرعون، فإن أحد رجال بلاطه وكان قد أسلم سرا أكد علي صدق نبوة موسى عليه السلام أمام كل رجال البلاط اعتماداً علي اتسام النبي بالصدق، ولا يمكن أن يكون الكاذب نبياً :

" وإن يك كاذباً فعليه كذبه، وإن يك صادقا يصبكم بعض الذي يعدكم، إن الله لا يهدي من هو مسرف كذاب " (غافر : ٢٨) .

وهنا أيضاً تلميح خفي وهو أن فرعون كاذب ومتطاول في كل ما يقوم به، علي عكس هذا الذي يعلن نبوته، ويعلم من هذا أن الكذابين بعيدون عن طريق الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، ويسببون علي طريق وأعراف الكفار، وكان من بين الأسئلة التي وجهها قيصر الروم إلي سيدنا أبي سفيان في بلاطه هو هل كان هذا الذي يدعي النبوة (محمد صلى الله عليه وسلم) يكذب قبل أن يعلن دعوته، وقد أجابه أبو سفيان بالنفي، فقال قيصر: إن من لا يكذب علي الناس لا يكذب علي الله (١) .

وقد جاء الدليل علي صدق النبي في آية أخرى من القرآن الكريم :

" تنزل علي كل أفك أنثم، يلقون للسمع وأكثرهم كاذبون " (الشعراء : ٢٣) .

ويعلم من هذا أن الكذب ليس من شيم الأنبياء الكرام ولا من ملوكياتهم، ولهذا فإن نور هداية الله تتطفي في قلب للكذاب . قال تعالى :

" إن الله لا يهدي من هو كاذب كفار " (الزمر : ٣) .

^١ صحيح البخاري - بدء الوحي .

وقد قال صلى الله عليه وسلم "إن للكذب يهدي إلى الفجور، والفجور يهدي إلى النار، ولا يزال للرجل يكذب حتى يكتب عند الله كذاباً" (١) .

وقد روي عن سيدنا عبد الله بن عمرو بن العاص أن رجلاً جاء على النبي صلى الله عليه وسلم وقال: يا رسول الله ما هو العمل الذي يدخلني الجنة؟ فقال صلى الله عليه وسلم: قول الصدق، فعندما يقول العبد للصدق فإنه بذلك يعمل عملاً صالحاً، ويكون مليئاً بالإيمان، ومن يمتلئ بالإيمان يدخل الجنة، فسأل الرجل ثانية: يا رسول الله ما هو العمل الذي يدخل النار؟ فقال صلى الله عليه وسلم: للكذب، فعندما يكذب يرتكب الذنب ويكفر، ومن يكفر يدخل النار" (مسند أحمد - الجزء الأول - ص ١٧٦ - مصر) .
ويعلم من هذا الحديث أن دائرة الكذب متسعة حتى يدخل فيها الكفر أيضاً، وهو ما ليس هناك أسوأ منه، موت تعلق أمامه كل أبواب النجاة.

ودائرة رحمة الله واسعة للغاية، وتحيط بكل ذرة من ذرات الدنيا، والكائنات كلها تستظل بظل رحمته، إلا أن من يحترق فيه بريح الكذب السموم فإنه يخرج من هذا الظل الكثيف لرحمة الله تعالى.

أن أقسى لفظ في قاموس الإسلام هو لفظ (لعنة)، ومعناه الحرمان من رحمة الله والإبعاد عنها، وقد جاء في القرآن الكريم أن الشيطان يستحق هذه اللعنة، ثم يأتي بعده اليهود، والكفار والمنافقون الذين أنذرهم الله بهذه اللعنة، لكن الله لم يذكر فعلاً لأي مؤمن يستحق اللعنة سوى الكذب، وقد أنن الله تعالى في حالة الكذب أوتاهم الآخرين بالكذب بأن لعنة الله على الكاذبين، وقال بخصوص المباينة أن على الفريقين أن يدعوا الله أن يلعن الكاذب منهما:

ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين" (آل عمران : ٦١) .

^١ صحيح البخاري - كتاب الأئب - و جامع الترمذي - باب ما جاء في الكذب ، و أبو داود - كتاب الأئب - باب التشديد في الكذب .

حدثنا عثمان بن أبي شيبة: حدثنا جرير، عن منصور، عن أبي وائل، عن عبد الله رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (إن الصدق يهدي إلى البر، وإن البر يهدي إلى الجنة، وإن الرجل ليصدق حتى يكون صديقاً، وإن الكذب يهدي إلى الفجور، وإن الفجور يهدي إلى النار، وإن الرجل ليكذب، حتى يكتب عند الله كذاباً).

وفي حالة اللعان بين الرجل و زوجته إذا اتهم للرجل زوجته بالزنا و لم يكن عنده دليل على ما يقول أو شاهد عليه فإن عليه أن يقسم على صدقه أربع مرات، ثم يقول:

"أن لعنة الله عليه إن كان من الكاذبين" (النور: ٧).

ويعلم من هذا أن الكذب أمر سيء يستحق من يرتكبه سيئ الدعاء مثله مثل الكفار والمنافقين، وهناك نوع آخر من الكذب أن تتجاهل للصدق، وتتغاضى عن قوله عامداً، أمثال هؤلاء لعنهم الله تعالى:

"إن الذين يكتُمون ما أنزل من اللبينات والهدى من بعد ما بيناه للناس في الكتاب، أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون" (البقرة: ١٥٩).

وهذه هي الصورة السلبية للكذب، إذ يكون الهدف من هذا الصمت وهذا الكتمان هو أن لا يصدق الناس الحق، ويظنونه كذبا، ولهذا فرغم أنهم لم يقولوا كذبا، لكنهم ارتكبوا عملياً، وهذا يربي النفاق ويزرعه، إذ أن النفاق هو أن يكون ما على اللسان مغايراً لما في القلب، ولهذا فإن المنافق يكون كذاباً بالضرورة، وقد أكد القرآن الكريم هذا الأمر بقوله تعالى:

"والله يشهد إن المنافقين لكاذبون" (المنافقون: ١).

ولهذا عد رسول الله صلى الله عليه وسلم للكذب من علامات المنافق، فقال: آية المنافق ثلاث، إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا أؤتمن خان^(١)، وهذه الأمور من حيث اللفظ ثلاثة، لكنها في الحقيقة صور ثلاث مختلفة بشكل واحد، فقول الكذب كذب، ولكن خلف الوعد كذب أيضاً، وكذلك الخيانة فيما أؤتمن عليه كذب أيضاً من الناحية العملية، إذ أن معنى أن يؤتمن رجل على شيء أن هناك يقينا بأنه لن يخون هذه الأمانة، فإذا ما خلف هذا الأمر، فإنه بذلك كذب عملياً.

^١ صحيح البخاري - كتاب الأدب.

حدثنا سليمان أبو الربيع قال: حدثنا إسماعيل بن جعفر قال: حدثنا نافع بن مالك بن أبي عامر أبو سهيل، عن أبيه، عن أبي هريرة، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا أؤتمن خان).

وليس الكذب وحده سيئة وإنما يتولد عنه في الكذاب بالضرورة عشرات السيئات الأخرى، ولهذا وصف الله تعالى للكاتب بصفات سيئة أخرى جنباً إلى جنب مع الكذب مثل:

"أفكاً لئيم" (الشعراء: ٢٢).

"كاذب كفار" (الزمر: ٣).

"مسرف كذاب" (غافر: ٢٨).

وقد أوضحت هذه الآيات أن الكاتب غارق في الذنوب لأنه لا يتردد في ارتكاب أعمال سيئة أخرى بسبب تعوده على الكذب، لأنه يعتقد أنه بكنبه يخفي ما ارتكب، ولهذا فهو على استعداد لارتكاب أي عمل سيء هو الكاتب لا يحمل جميلاً أو معروفاً لأحد، لأن الكاتب يظن في الآخرين أنهم كاذبون في أعمالهم ونواياهم، حتى وإن أقر بلسانه أنه يعترف بجميل الآخرين، فكيف يصدقه الآخرون، ولهذا فإن من يكذب لا يتورع عن ارتكاب أسوأ الأفعال، فيتجراً على ارتكاب الذنوب ويتعدى الحدود.

والصورة المعروفة للكذب هي أن يقول بلسانه ما ليس في قلبه، أو يقول خلاف ما يعلمه ويعتقد بصحته، لكن هذا هو كذب القول، أي كذب اللسان، أما الكذب العملي، أو كذب العمل فهو أن يقول ما لا يفعل:

"بما اخلفوا الله ما وعده، وبما كانوا يكتبون" (التوبة: ٧٧).

وبسبب هذا الكذب تمكن النفاق من قلوبهم، والقسم على فعل شيء، أو الوعد بفعل شيء ثم مخالفة هذا ما هو إلا نوع من الخداع، ولكنه في الوقت نفسه كذب، وكذب مهلك وخطير:

"وسيحلفون بالله لو استطعنا لخرجنا معكم يهلكون أنفسهم، والله يعلم أنهم لكاذبون" (التوبة: ٤٢) وقد ذكر الله تعالى في سورة (الأحزاب) أولئك الصادقين الذين أعطوا الدليل العملي على صدقهم، وأطلق على من يكذب عملاً أنه منافق، قال تعالى:

"يجزي الله الصادقين بصدقهم، ويعذب المنافقين إن شاء أو يتوب عليهم" (الأحزاب: ٢٤).

ومتى ما يرتكب الإنسان الكذب فإن كل عضو من أعضائه أيضاً يرتكب الكذب، قال تعالى:

"ناصية كاذبة خاطئة" (الطوق: ١٦).

ورغم أن هذا مجرد استعارة فإن وصمة الكذب على اللجبيين لا تمحى أبداً، وهكذا فإن الرياء أما الآخرين يعد كذباً:

" قالوا لو نعلم قتالا لاتبعناكم هم للكفر يومئذ أقرب منهم للإيمان، يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم " (آل عمران : ١٦٧) .

وقد قال الله تعالى عن مرضى القلوب أولئك الذين كانوا يريدون مداينة المسلمين واليهود، ويخدعون المسلمين بأنهم أهل صلح وسلام:

" أولئك الذين يعلم الله ما في قلوبهم " (النساء : ٦٣) .

ومثل هؤلاء ذلك الذي يريد أن يظهر للناس ما ليس فيه، أو يؤكد لهم ما لا يتمتع به، مثل هذا الشخص يكون كذاباً، وقد جاءت امرأة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلت مرة وسألته قائلة: لي جارة يا رسول الله، فهل إذا أظهرت لها أن زوجي أعطاني كذا وكذا وهو لم يعطني شيئاً وإنما أريد أن أغيظها لا أكثر، هل أكون بذلك أرتكب ذنباً؟ فقال صلى الله عليه وسلم: من يظهر غير ما أعطى له فهو كمن يلبس سروالاً من الكذب^(١). يقول شراح الحديث أن للسروال رجلين، الأولى هي ما أخبر به كذا أن عنده كذا وليس عنده، والثانية هو ما أخبر به كذا من أنه أعطى كذا وهو لم يعط شيئاً. وهكذا فإن من يظهر أنه عالم وهو ليس كذلك، أو يظهر أنه غني وهو ليس كذلك، بمعنى أن من يظهر أن شيئاً ما عنده وهو ليس كذلك فإن ذلك يعد في الحقيقة خداعاً للآخرين، وربما كان هو السبب في منع المرأة ذات الشعر القصير بطبيعته من أن تطيله مستخدمة شعراً صناعياً، وقد أطلق رسول الله صلى الله عليه وسلم على مثل هذا زوراً^(٢).

والكذب مراتب عديدة، فهناك للكثير من الناس لا يعدون الكذب الذي لا يضُر أمراً مشيناً، مثلما نرى أكثر الناس يعدون الأطفال بعود كاذبة لمجرد تهدئتهم، ويظنون

^١ أبو داود - كتاب الأدب .

حدثنا سليمان بن حرب ثنا حماد بن زيد، عن هشام بن عروة، عن قاطمة بنت المنذر، عن أسماء بنت أبي بكر، أن امرأة قالت: يا رسول الله، إن لي جارة تعني ضرة هل علي جناح أن تشبعت لها بما لم يعط زوجي؟ قال: للمتبع بما لم يعط كلابس ثوبي زور.

^٢ صحيح البخاري - باب: الوصل في الشعر .

أخبرنا محمد بن المثنى ومحمد بن بشار عن محمد بن جعفر قال: حدثنا شعبة عن عمرو بن مرة عن سعيد بن المسيب قال: قدم معاوية المدينة فخطبنا ولخذ كبة من شعر قال: إنما كنت أرى أحداً يفعله إلا اليهود، وإن رسول الله صلى الله عليه وسلم بلغه فسماه الزور .

أن الأطفال لا يلبثون ينسون هذه الوعود بعد وقت بسيط، ورغم أن هذا يحدث كثيرا لكن الكذب كذب، وقد منع الإسلام من مثل هذا الكذب أيضا، يقول الصحابي الصغير عبد الله بن عامر رضي الله عنه أن أُمِّي استدعتني ذات مرة، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يجلس في بيتنا وقتها، فنادتني أُمِّي قائلة: تعالِ هنا وسأعطيك شيئا، فقال صلى الله عليه وسلم أنت تقولين ذلك، ولا تريدان أن تعطينه شيئا، فقالت أُمِّي: سأعطيه تمرا، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: نعم، لأنك إن لم تعطينه فسوف يكتب عليك كذبا^(١).

والهدف من هذه التعاليم هو أنه لا يلوث للمسلم شفتيه بالكذب في أي حال من الأحوال، ولكنه أكد على قول للصديق في مثل هذه الحالات أيضا: لأن هذا السلوك الخاطئ من الوالدين يؤثر تأثيرا سيئا على تعليم الطفل وتربيته، إذ أنه سوف يتشكل طبقا لما يسمعه في طفولته، ولهذا ينبغي على الناس أن لا يكذبوا على أطفالهم.

وقد اعتاد بعض الناس عندما يدعون إلى طعام أو ما شابه فإنهم يقولون بتكليف وتصنع أنهم لا رغبة لهم فيما دعوا إليه، على الرغم من أنه يرغب في ذلك فعلا، فهذا أيضا كذب. وذات مرة سألت الصحابية السيدة أسماء بنت يزيد رضي الله عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم قائلة أنه يكون من بيننا من يرغب في شيء ثم يقول إنني لا أرغب فيه، أبعاد ذلك كذبا، فقال صلى الله عليه وسلم: إن كل كذب يكتب مهما كان صغيرا^(٢).

ويعد أيضا من الكذب ذلك الكلام غير الصادق، أو المبالغ فيه، والذي يقال بقصد إضفاء السرور على الجلسة، ورغم أنه لا ضرر منه، ولكنه في بعض الأحيان يكون شيئا ممتعا، لكن الإسلام لم يسمح به، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إن للشخص الذي

^(١) أبو داود - كتاب الأدب - باب التشديد في الكذب .

حدثنا قتيبة بن شاذان، عن ابن عجلان، أن رجلا من موالي عبد الله بن عامر بن ربيعة العدوي حدثه، عن عبد الله بن عامر أنه قال: دعيت أُمِّي يوما ورسول الله صلى الله عليه وسلم قاعد في بيتنا، فقالت: ها تعال أعطيك، فقال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم: وما أردت أن تعطيه؟ قالت: أعطيه تمرا، فقال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم: لما أتاك لو لم تعطيه شيئا كتبت عليك كذبة.

^(٢) مسند أحمد والطبراني في الكبير (مجمع الزوائد للهيتمي - ص ٢٤٠ - باب في ذم الكذب) .

يكذب لإضحاك الآخرين أسف عليه ثم أسف عليه^(١)، لأن قيمة الشخص وقدره ينقصان بسبب ذلك، ويصبح حديثه لا وزن له، وبالتالي يظن كل شخص فيه أن كذبه مثل صدقه. وقد عين الإسلام درجات الكذب بصورة المخاطرة حسب الخطر الناتج عن هذا الكذب، فهناك صورة للكذب أن يظن رجل برجل أنه صادق وموثوق فيه، ولهذا فإنه يصدق كل ما يقول، لكن هذا الرجل يستغل ما يظنه به الآخرون استغلالاً سيئاً، ويكذب عليه بشكل يؤذيه ويخدعه، مثل هذه الصورة عدها الإسلام خيانة كبيرة، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم عن مثل هذه الصورة أن "هذه خيانة كبيرة يعني أن تكذب على أخيك وهو يظن أنك صادق"^(٢).

وأخطر من هذا ذلك الكذب الذي ينتج عنه أضرار كبيرة لحقوق الناس وكراماتهم وأعراضهم، ويحدث خلافاً في النظام الاجتماعي للناس، مثل هذا الكذب يختلف عن الكذب العادي لدرجة جعلت الإسلام يطلق عليه اسماً آخر وهو (الزور) أو (الإفك) وغير ذلك مما يعني الانحراف والتخريب.

وهذه الصورة من الكذب خطيرة لدرجة أن الله تعالى ذكرها مع الشرك بالله، وأمر المسلمين قائلًا:

"فاجتنبوا الرجس من الأوثان واجتنبوا قول الزور" (الحج: ٣٠).

ومع أن لفظ (الزور) لفظ عام يشمل الكذب والبهتان وغيرهما، لكن يعلم من الأحاديث أن المراد به شهادة الزور بصفة خاصة، وقد جاء في جامع الترمذي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال للصحابه: هل أخبركم بأعظم الذنوب؟ قالوا: نعم يا رسول الله، فقال صلى الله عليه وسلم: الشرك بالله وعقوق الوالدين. يقول الراوي، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم متكئاً فاعتدل وقال: "وشهادة الزور والكذب" وظل يردد هذا حتى قلنا لبيته صمت^(٣).

^١ سنن أبي داود - كتاب الأدب - باب التشديد في الكذب.

حدثنا مسدد بن مسرهد ثنا يحيى، عن بهز بن حكيم، قال: حدثني أبي، عن أبيه، قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: ويل للذي يحدث فيكذب ليضحك به القوم، ويل له، ويل له.

^٢ أدب المفرد - باب إذا كذب الرجل وهو بك مصدق.

^٣ أبواب البر والصلة - ما جاء في حقوق الوالدين.

حدثنا مسدد: حدثنا بشر بن الفضل: حدثنا الجريري، عن عبد الرحمن بن أبي بكرة، عن أبيه رضي الله عنه قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم: (ألا أتيناكم بالكبير الكبير). ثلاثاً: قلوا: بلى يا رسول

وبالتأمل في الآية السابقة والأحاديث التي تشرحها نعرف أن أعظم سيئة تستحق للذكر عند الله تعالى بعد الشرك به هي الكذب، وبالتالي نعرف مدى سوءه وفحشه. والإفك لفظ أكثر قسوة و شدة ومعناه أن تقتري على أحد كذبا، والمشركون يفترون على الله الكذب، وهو ما أطلق عليه القرآن لفظ (إفك) ويعلم منه أن حدوده ثلاثي أحيانا مع الشرك، وقد عبر الله تعالى عن ذلك الافتراء الذي لفتراه المنافقون على السيدة عائشة رضي الله عنها في سورة (النور)، ويتضح من القرآن الكريم أن الإفك من عمل للفطر للنتيجة قال تعالى :

" تنزل على كل أفك أثيم " (الشعراء : ٢٢) .

وهناك صورة أخرى للكذب أن يبلغ الشخص للناس بكل ما سمع دون أن يتحقق من صدقه أو كذبه، ويفقد الناس ثقتهم في مثل هذا الشخص، ويفقد مكانته في المجتمع، ولهذا قال عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم: كفى بالمرء كذبا أن يحدث بكل ما سمع" (مقدمة صحيح مسلم) .

وقد وصف الله تعالى أولئك الذين يصدقون كل ما يسمعون من شائعات أنهم (سماعون للكذب)، فقال عن فرقة من اليهود: "سماعون للكذب" (المائدة: ٤١).

الحلف كذبا

الحقيقة أن الحلف شهادة وللشخص الذي يقسم على شيء يقوله هو في الحقيقة يشهد الله على صدق قوله، وفي مثل هذه الحالة ينبغي أن نضع في اعتبارنا مدى أهمية هذا الأمر ومدى خطورته، لكننا كثيرا ما نرى أن الكذابين من الناس، والذين هم أكثر بعد عن الصدق يكثر من الحلف، فهم يعرفون أن الناس لا يصدقون قولهم، ومن هنا فإنهم يحلفون كذبا لخدعون الناس.

وبدائية فإن الحلف بغير ضرورة تدعوا إليه أمر غير مستحب، أما الحلف كذبا فهو أكثر سوءا، ولهذا وصف القرآن الكريم هؤلاء الذين يحلفون كذبا بصفات سيئة عديدة، فالحلف كذبا هو أسوأ أشكال الكذب حيث يشرك من يحلف كذبا بالله تعالى في كذبه، ولذا فإن من يقسم على شيء لا بد أن ينفذه، وإذا لم يستطع تنفيذه لسبب من الأسباب فإنه يأنم وتجب عليه الكفارة، وكفارته هي تحرير رقبة، أو إطعام عشرة مساكين أو

الله، قال: (الإشراك بالله، وعقوق الوالدين وجلس وكان متكئا، فقال ألا وقول الزور). قال: فما زال يكررها حتى قلنا ليته سكت. وقال إسماعيل بن إبراهيم: حدثنا الجريدي: حدثنا عبد الرحمن.

كسوتهم فإن لم يستطع ذلك يصوم ثلاثة أيام، وقد أجاز الإسلام عدم تنفيذ ما أقسم عليه من البداية وأداء الكفارة إذا ما تبين له أمر أفضل (١) .

" لا يؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم ولكن يؤاخذكم بما عقدتم الأيمان فكفارته إطعام عشرة مساكين من أوسط ما تطعمون أهليكم أو كسوتهم أو تحرير رقبة فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام. ذلك كفارة أيمانكم إذا حلفتم واحفظوا أيمانكم " (المائدة : ٨٩) .

ويجب أن يوضع في الاعتبار عند القسم أنه إذا كان الشيء الذي نقسم عليه لا يخالف الشرع، أو غير جائز فإن علينا أن نقدر مسئولية هذا القسم، وأن نعمل قدر استطاعتنا على تنفيذه، فإذا لم نستطع أدبنا الكفارة، وقد تقرر الكفارة لكي لا نسيء إلى مسئولية تنفيذ القسم ولا نقلل من أهميته.

لما إذا حلف على شيء يخالف الشرع، أو تبين فيما بعد أنه غير جائز فإنه في هذه الحالة لا ينفذه ويحنت فيه ويؤدي كفارته قال تعالى:

" قد فرض الله لكم تحلة أيمانكم " (التحريم : ٢) .

وقد جاءت الإشارة إلى هذا الأمر في الأحاديث للشريفة .

والحلف على أمور مضت أو أمور حادثة هو في الحقيقة شهادة، وكما علمنا فلين الكذب في الشهادة ذنب عظيم، ولهذا فإنه لا يوثق في الشخص الذي يكثر من الحلف، وقد أمر الله تعالى في القرآن الكريم بعدم الثقة في مثل هذا الشخص، وعد كثرة الحلف من أكبر عيوب الإنسان، فقال تعالى لنبيه الكريم: "ولا تطع كل حلاف مهين" (القلم: ١٠).

والذي ينبغي أن نفهمه هو أن الذي يحلف يقصد أن يصدق للناس ما يقول ويؤمن فيه، بينما يؤكد الله تعالى على عدم تصديق ما يقوله مثل هذا الشخص ويعلم أنه لا يوثق فيه. ولأن هؤلاء الذين يحلفون كذبا عامدون في كذبهم لهذا فإن فعلهم هذا آية كبرى من آيات النفاق، وقد ذكرها الله تعالى في القرآن الكريم كثيرا بهذا الاعتبار فجاء في ذكر المنافقين أنهم إذا نزلت بهم مصيبة أقسموا أنهم لم يقصدوا إلى ذلك، وأن نواياهم كانت حسنة، فيقول الله تعالى إن الله يعلم نواياهم تماما :

" فكيف إذا أصابتهم مصيبة بما قنمت أيديهم ثم جاءوك يحلفون بالله إن أردنا إلا إحسانا وتوفيقا، أولئك الذين يعلم الله ما في قلوبهم " (النساء : ٦٢) .

^١ أبو داود - كتاب الأيمان و النذور .

أي أن الله تعالى يعلم أن ما في قلوبهم يخالف ما هو على ألسنتهم، وهؤلاء الناس يريدون بحلفهم أن يجعلوا من الصدق كذبا ومن الكذب صدقا لإرضاء أناس بعينهم، فيقول الله تعالى إنهم إذا كانوا مؤمنين فعلا فإن عليهم أن يختاروا الصدق لإرضاء الله ورسوله :

"يحلفون بالله لكم ليرضوكم والله ورسوله أحق أن يرضوه إن كانوا مؤمنين" (التوبة: ٦٢).
ومثل هؤلاء المنافقين إن صرحوا بأمر سيء ثم سئلوا عنه تراهم ينكرون ما قالوه ويتمصلصون منه :

"يحلفون بالله ما قالوا ولقد قالوا كلمة الكفر" (التوبة: ٧٤) .

وفي مرة من المرات ارتكب المنافقون أمرا غير صحيح فقال الله تعالى عندما تسألونهم عما فعلوا فسيحلفون بالله: "سيحلفون بالله" (التوبة: ١٢) أن الأمر هكذا، ولهذا قال تعالى :

"يحلفون لكم لترضوا عنهم، فإن ترضوا عنهم فإن الله لا يرضى عن القوم الفاسقين" (التوبة: ٩٦).

ولهذا فإن من لا يؤمنون من قلوبهم بما يقوله الله تعالى، ويقسمون بألسنتهم أنهم يؤمنون به هم الفاسقون الباغون. وقد أقام بعض المنافقين بهذه المناسبة مسجدا مستقلا بغرض وضع بذور التفرقة بين المسلمين، فقال الله تعالى إنكم إذا سألتهم عن سبب فعلتهم هذه فسيحلفون لكم أن نبيتهم كانت حسنة، قال تعالى :

"وليحلفن إن أردنا إلا الحسنى والله يشهد إنهم لكاذبون" (التوبة: ١٠٧) .
وقال القرآن الكريم عن المنافقين :

"ويحلفون على الكذب وهم يعلمون" (المجادلة: ١٤) .

"اتخذوا أيمانهم جنة" (المجادلة: ٣ - المنافقون: ١) .

يعني أنهم يجعلون من الكذب صدقا ومن الصدق كذبا، ويتخونون من الحلف درعا بحميمهم، وقد أكد الله تعالى للمسلمين على لسان نبيه أن عليهم أن يتجنبوا هذا الذنب:

"ولا تقضوا الأيمان بعد تركيدها، وقد جعلتم الله عليكم كفيلا إن الله يعلم ما تفعلون، ولا تكونوا كالتّي نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثا، تتخذون أيمانكم دخلا بينكم أن تكون أمة هي أربى من أمة" (النحل: ٩٢) .

إذ أن الحلف بالله ونقض هذا الحلف هو بمثابة تحقير لاسم الله المقدس ولهذا قال تعالى إنا إذا حلفنا على أمر ما فإنا بذلك نجعل الله ضامنا لما نقول ولذا ينبغي أن لا نحنت في حلفنا وأن لا نخدع الناس ثم إن الحنت في اليمين عمل لأحمق يشبه حماقة تلك المرأة العربية التي تقوم بغزل الصوف ثم بعد أن تنتمه تنقضه ثانية .
 وإذا عاهد فريق فريقا على أمر ما باسم الله فكأنه يؤمن هذا الفريق بضمأن الله تعالى، فإذا ما نقض هذا العهد محاولا الانضمام إلى فريق آخر فإن ذلك ينم عن ضعف أخلاقي ظاهر .

وكذلك فإن الحلف كذبا لأخذ مال للغير هو في الحقيقة كذب على اسم الله تعالى، وهذا يعد ذنبين لا ذنبا واحدا، أي الغصب والكذب، وأكثر من هذا أنه يحدث باسم الله قال الله تعالى :

" إن الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمنا قليلا أولئك لا خلاق لهم في الآخرة ولا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم" (آل عمران: ٧٧).

وهذه الآية تصوير لسوء عمل اليهود باعتبار سياقها وسبب نزولها، لكنها باعتبار حكمها آية عامة، وذات مرة قال الصحابي سيدنا عبد الله رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال من حلف بالله كذبا ليأخذ مال الآخرين فإنه يبوء بغضب الله تعالى يوم القيامة. وقال الصحابي الأشعث بن قيس رضي الله عنه: والله لقد نزلت هذه الآية في حادثة وقعت لي، فقد كانت بيني وبين يهودي أرض، وقد أنكر هذا لليهودي ملكيتها لي، فذهبنا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فسالني رسول الله صلى الله عليه وسلم هل لديك دليل على ملكيتك لها؟ قلت: لا، فقال لليهودي: هل تحلف على ملكيتك لها؟ فقلت: يا رسول الله، محلف وسيأخذها. وعندئذ نزلت هذه الآية (١) .

^١ أبو داود - كتاب الإيمان والنذور ، وابن جرير .

حدثنا محمد بن عيسى، وهناد بن السري، المعنى قالنا: ثنا أبو معاوية قال: ثنا الأعشى، عن شقيق، عن عبد الله قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: من حلف على يمين هو فيها فلجأ ليقطع بها مال امرئ مسلم لقي الله وهو عليه غضبان فقال الأشعث: علي والله كان ذلك كان بيني وبين رجل من اليهود أرض فجددني، فقدمته إلى النبي صلى الله عليه وسلم، فقال للنبي صلى الله عليه وسلم: ألك بينة؟ قلت: لا، قال لليهودي: احلف قلت: يا رسول الله، إذا يحلف ويمالي، فأنزل الله تعالى: "إن الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمنا قليلا" إلى آخر الآية.

وجاء في بعض الروايات عن ابن جرير أن هذه الآية نزلت في شأن بعض التجار الذين يحلفون كذبا ليبيعوا بضاعتهم ويؤيد ذلك ما جاء عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال ذات مرة ثلاث مرات: ثلاثة لا ينظر الله إليهم يوم القيامة، ولا يزكيهم ولهم عذاب اليم^١ يقول الصحابي: قلت: من هؤلاء للخاسرون يا رسول الله، فقال صلى الله عليه وسلم من يرخي لباسه تحت ركبتيه (لأن هذا علامة على الغرور) ومن يمن على الناس إحسانه ومن يحلف كذبا ليبيع بضاعته. (مسلم وأبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه). على أية حال مثلما نعرف أن المراد بهذا طبقا لسبب النزول هو تلك الواقعة التي تصدق عليها الآية تماما ولهذا فإن حكم هذه الآية ينطبق على كل هذه الحالات .

وقد جاء في صحيح مسلم أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: إن من يحلف كذبا ليأخذ حق مسلم أوجب الله عليه ناز جهنم، فقال الصحابة: يا رسول الله حتى ولو كان شيئا بسيطا؟ فقال صلى الله عليه وسلم حتى ولو كان عود أراك^(١). وقال الصحابي سيدنا أنس رضي الله عنه إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: أعظم الذنوب أن تشرك بالله، وأن تعق الولدين، وأن تقتل النفس بغير حق، وأن تحلف كذبا^(٢). وفي حديث آخر قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: من استحلف وحلف كذبا فسوف يدخل النار بوجهه^(٣). وربما ذكر الوجه لأنه علامة على كرامة الإنسان وعزته، وقد خالف ذلك، ولظهر لا مبالاة بلا حدود مما يظهر أثره على الوجه .

^١ صحيح مسلم - كتاب الإيمان - باب وعيد من قطع حق مسلم يمين .

حدثنا يحيى بن أيوب، وكثير بن سعيد، وعلي بن حجر، جميعا عن إسماعيل بن جعفر، قال ابن أيوب: حدثنا إسماعيل بن جعفر، أخبرني العلاء - وهو ابن عبد الرحمن مولى الحرقة - عن معبد بن كعب السلمي، عن أخيه عبد الله بن كعب، عن أبي أمامة، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: من اقتطع حق امرئ مسلم بيمينه، فقد أوجب الله له النار، وحرم عليه الجنة، فقال له الرجل: وإن كان شيئا يسيرا يا رسول الله؟ قال: وإن قضيبا من أراك .

^٢ من النسائي - باب في ذكر الكبائر .

أخبرنا محمد بن عبد الأعلى قال: ثنا خالد قال: ثنا شعبة عن عبيد الله بن أبي بكر عن أنس عن النبي صلى الله عليه وسلم (ح) وأخبرنا إسحاق بن إبراهيم قال: أخبرنا للثضر بن شميل قال: أخبرنا شعبة عن عبيد الله بن أبي بكر قال: سمعت أنسا يقول: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: الكبائر أشرك بالله، وعقوق الولدين، وقتل النفس، وقول الزور .

^٣ من أبي داود - كتاب الإيمان .

وبصفة عامة فإن التجار يكتبون في الإخبار بالثمن الحقيقي للسلع التي يبيعونها ويحلفون كذبا ولهذا نبههم رسول الله صلى الله عليه وسلم بصفة خاصة إلى البعد عن هذا الأمر فقال: "إن الحلف كذبا قد يروج للسلعة ويؤدي إلى بيعها لكنه ينقص البركة منها" (١). ونقص البركة ليس بالاعتبار الروحي فقط فهو حادث لا محالة وإنما يكون من الناحية الظاهرية الملموسة أيضا، إذ يفقد الناس في نهاية الأمر الثقة بمثل هذه السلع فيعرضون عنها وتتعرض للخسارة ولهذا جاء توضيح لهذا الأمر في رواية أخرى يقول سيدنا قتادة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "تجنبوا كثرة الحلف في البيع والشراء، إذ قد تحقق نجاحا في البداية لكن تنعدم البركة في النهاية. كم هي فقرة بليغة (مسلم والنسائي وابن ماجه).

وبالإضافة إلى الحلف كذبا فإن التجروا على الحلف ينافي الشرف وقد مرت بنا سابقا الرواية التي ذكرت أن الحلف بغير سبب يؤدي إلى المنة. وقد جاء في الحديث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "إن الحلف يوجب الذنب إذا لم ينفذ أو يوجب الندم والخجل" (٢).

خلف الوعد

من الأمور المعيبة جدا أن تعد وتخلف وهذا في الحقيقة حلف كاذب، إذ أن كرامة أي أمة أو فرد تنحصر في مدى التزامها بما وعدت به وإيفائها به، إذ أن الشخص حين يعد أحدا فكأنما يلتحف بالمسؤولية قال تعالى: "إن الوعد كان مسئولا" (الإسراء: ٣٤). فما مدى خطورة الأمر الذي يسأل الله عنه. جاء في القرآن الكريم فيما يتعلق بالمنافقين أن النفاق قد تولد في قلوبهم بسبب عدم التزامهم بالعهد. قال تعالى: "فأعقبهم نفاقا في قلوبهم إلى يوم يلقونه بما أخلفوا الله ما وعدوه وبما كانوا يكتبون" (التوبة: ٧٧).

١ صحيح البخاري ومسلم وأبو داود والترمذي والنسائي والمنذري - باب ترغب التجار في الصدق .

حدثنا مسدد بن أبي معاوية، عن الأعمش، عن أبي وائل، عن قيس بن أبي غرزة قال كنا في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم نسمى المناسرة غمر بنا النبي صلى الله عليه وسلم فسمينا باسم هو أحسن منه فقال: يا معشر التجار، إن البيع يحضره اللغو والخلف بثوبه بالصدقة.

٢ ابن ماجه وصحيح ابن حبان المنذري - باب ترغب التجار في الصدق - ١٢ .

حدثنا علي بن محمد، حدثنا أبو معاوية، عن بشار بن كدام، عن محمد بن زيد، عن ابن عمر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إنما الحلف حنث لو ندم.

وجاء في الصحيحين أن آية المنافق ثلاث، إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا أؤتمن خان، وجاء في صحيح مسلم بعد هذا "وإن صلى وصام وقال إنه مسلم" وجاء في حديث آخر في الصحيحين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: أربعة أمور من كن فيه فهو منافق، ومن كانت فيه واحدة منهن كانت فيه آية من آيات النفاق حتى يدعها، وإذا أؤتمن خان، وإذا حدث كذب، وإذا عاهد أخلف، وإذا خاصم فجر" (١).

وذات مرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: اضمنوا لي ثلاثا أضمن لكم الجنة، أن تصدقوا إذا تحدثتم وأن توفوا إذا وعدتم، ألا تخونوا إذا أؤتمنتم .

الخيانة وعدم الأمانة

إن عدم الأمانة في أداء حق علينا لأحد يعد خيانة، فإذا ما كان لأحد أمانة عند أحد، وتصرف فيها بغير حق، أو لم يعدها إلى صاحبها عند طلبها، فإن ذلك يعد خيانة صريحة، كما أنه إذا علم أحد بسر رجل آخر، أو وثق رجل بآخر وأخبره بسرّه فأظهره على الآخرين فإن ذلك يعد خيانة أيضا، وإذا كلف أحد بعمل فلم يؤده على ما ينبغي فإن ذلك يعد خيانة أيضا، وعلى هذا فإن اتخاذ خطوة لا تتفق مع المصالح القومية المتفق عليها للأمة أو أئمة الوقت أو عموم المسلمين يعد خيانة، وعدم أداء حق الصداقة لمن صادقته خيانة، وعدم وفاء المرأة لزوجها خيانة، وأن يكون في قلبك شيء وتقول بلسانك شيئا آخر، ويثبت من سلوكك شيء ثالث فهو خيانة، وهذه الخيانات كلها ممنوعة تماما في الشريعة الأخلاقية للإسلام. قال الله تعالى:

"يا أيها الذين آمنوا لا تخونوا الله والرسول وتخونوا أماناتكم وأنتم تعلمون" (الأنفال: ٢٧).

وخيانة الله والرسول هي أن لا تعترف بهما، ولا تنفذ أحكامهما، وأن تخون مصالح الدين والأمة، وأن تساعد أعداء الله ورسوله خيفة، أو تقشي أسرار المسلمين لهم، وهكذا فإن الخيانة بين الناس بعضهم البعض أن يتصرف شخص بغير حق في أمانة لأحد لديه، وأن يفشي أحد سرا علمه عن أحد آخر .

وقد ورد أحد الأحاديث مرات كثيرة فيما سبق وهو أن إحدى علامات المنافق الثلاث أنه إذا أؤتمن خان (٢). وروى موقفا عن ابن مسعود أنه قال إن الموت في سبيل

^١ الترغيب والترهيب للمنذري - باب الترغيب في الصدق .

^٢ الصحيحين وغيرهما .

الله كفارة لكل الذنوب، إلا الأمانة فيأتي بها يوم القيامة ويأتي بمن استشهد في سبيل الله ويقال له أدي الأمانة فيقول يا رب كيف أؤدها فقد انتهت في الدنيا فيقال خذوه إلى الهاوية من جهنم وهناك تتجسد الأمانة لديه وتأتي في صورتها الأصلية فيعرفها ويتعقبها حتى يمسك بها ويحملها على أكتافه فإذا ما أراد للخروج من جهنم يسقط هذا الحمل من على كتفه فيتبعه ثانية وهكذا ثم قال صلى الله عليه وسلم: للصلاة أمانة وللوضوء أمانة وللوزن أمانة والمكيال أمانة واعد رسول الله صلى الله عليه وسلم أنبياء كثيرة ثم قال: بأصعب شيء في كل هذا هو الأمانة يقول الراوي: لقد سمعت هذا الحديث للصحابي البراء بن عازب فأكد عليه قائلا: ألم تسمع هذه الآية من القرآن الكريم:

" إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها " (النساء : ٥٨) (١) .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: خير القرون لقرني ثم الذي يليه ثم الذي يليه ثم يأتي زمان يشهد الناس دون أن يدعوا إلى الشهادة ويخونون ولا يؤمنون ولا يوفون بالنذر (٢) .

والخيانة من الأمور التي كان يستعيز منها رسول الله صلى الله عليه وسلم فكان يقول: اللهم نجني من الخيانة فهي رفيق سوء (٣) .

ومن بين معاني الخيانة أيضا أن تنتمي إلى جماعة ما ثم تفكر في القضاء على هذه الجماعة وهكذا فإن المنافقين الذين يريدون ما ليس في قلوبهم كانوا دائما يتآمرون ضد الإسلام لكن لم تتجح مؤامراتهم وانكشفت أسرارهم قال تعالى:

^١ وانظر مسند أحمد والبيهقي والمنذري - باب الرغبة في إنجاز الوعد .

^٢ صحيح البخاري وصحيح مسلم والمنذري - الباب المذكور .

حدثنا آدم حدثنا شعبة حدثنا أبو جمرة قال سمعت زهرا بن مضرب قال سمعت عمران بن حصين رضي الله عنهما قال قال النبي صلى الله عليه وسلم: (خيركم قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم) . قال عمران: لا أدري، أنكر النبي صلى الله عليه وسلم بعد قرنه قرنين أو ثلاثة قال النبي صلى الله عليه وسلم: (إن يحكم قوما يخونون ولا يؤمنون، ويشهدون ولا يستشهدون ويؤثرون ولا يوفون، ويظهر فيهم السمن) .

^٣ أبو داود والترمذي وابن ماجه والمنذري - الباب المذكور .

أخبرنا محمد بن المثنى قال: حدثنا عبد الله بن إدريس قال: حدثنا ابن عجلان وذكر آخر عن سعد بن أبي سعيد عن أبي هريرة قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: اللهم إني أعوذ بك من الجوع فإنه ينس الضجيع، ومن الخيانة فإنه ينس البطانة.

" ولا تزال تطلع على خائنة منهم " (المائدة : ١٣) .

بمعنى أن أخبار خيانتهم كانت تصل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أولاً بأول . ومن يعتمد عليه في أمر ما ، ولا يقوم بتنفيذ ما اعتمد عليه فيه فإن ذلك خيانة . وقد حاول سيدنا يوسف عليه السلام تبرئة نفسه أمام العزيز قدر استطاعته ثم قال بعدها إنني إنما فعلت كل هذا : " ذلك ليعلم أنني لم أخنه بالغيب " وأن الله لا يهدي كيد الخائنين " (يوسف : ٥٢) .

وقد خانت زوجة سيدنا نوح وزوجة سيدنا لوط زوجيهما للمقدسين ، وكانت خيانتهم تتمثل في أنهما على غير المتوقع لم يؤمنا بزوجهما ومساعدتا الكفار . فقال تعالى : " ضرب الله مثلا للذين كفروا امرأة نوح وامرأة لوط كانتا تحت عبدين من عبادنا صالحين فخانتاهما فلم يغنيا عنهما من الله شيئا " (التحريم : ١٠) .

لقد كانت خيانة القلب لكن الخيانة لا تكون بالقلب فقط وإنما يمكن أن تصدر من كل عضو من أعضاء البدن ، حتى أنها يمكن أن تصدر عن العين والرمش ، ولكن إن كان هناك يقين على تلك الذات الواحدة التي تعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور فإن الإنسان عندئذ لا يجزئ على ارتكاب خيانة والإسلام يخلق مثل هذا اليقين ويقضي على الخيانة ، قال تعالى :

" يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور " (غافر : ١٩) .

فكيف يستطيع أحد أن يتولّى بعيداً عن هذه الذات ويرتكب خيانة .

الغدر والخداع

ومعنى الغدر والخداع أن تطمئن أحداً باللسان ثم تخالف ما طمأنته به عندما تمنح لك الفرصة ، وقد أطلق القرآن الكريم على هذا العمل لفظ خيانة أيضاً ، ويطلقون عليه بالعربية بصفة عامة (غدرا) ، وقد نمة الإسلام بشدة ، ولهذا قال تعالى في نكر أولئك الكفار الذين كانوا يعدون بالصالح مرات ومرات ، وفي كل مرة يغيرون وعودهم وينقضونها :

" الذين عاهدت منهم ثم ينقضون عهدهم في كل مرة وهم لا يتقون ، وإما نتقنهم في الحرب فشرد بهم من خلفهم لعلهم ينكرونها ، وإما تخافن من قوم خيانة فانبذ إليهم على سواء ، إن الله لا يحب الخائنين " (الأنفال : ٥٨) .

ورغم أن هذه الآية ذكرت الكفار الذين كانوا ينقضون عهدهم كل مرة ويغدرون ، إلا أنها بينت بعض الأمور على العموم وهي أن نقض العهد ينافي التقوى

تماماً وإن هذا الغدر ونقض للعهد يحرم من محبة الله تعالى ويوجب سخطه ولهذا فإنه عندما سمح بأخذ الفدية من أسرى بدر وإطلاق سراحهم قيل أيضاً إنهم إن غدروا وخانوا فإن الله سوف يمكنكم منهم ثانية :

"وإن يريدوا خيانتك فقد خانوا الله من قبل فأمكن منهم والله عليم حكيم" (الأنفال: ٧١).

وخداع الله تعالى هو أن يكفر به والله تعالى يعلم جميع الأحوال وكل المصالح ويقدر على كل شيء، فإذا كان قد أذن بإطلاق سراحهم فلمصلحة يعلمها.

جاء في الحديث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: يكون لكل غدار يوم للقيامة راية^(١)، يعني أنه سيفضح غدرة وخيائنه، ومن بين النصائح التي كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ينصح بها قادة جيوشه عدم الغدر^(٢)، يعني عدم نقض العهد مع المشركين إن عاهدوهم، وكان من بين حيل الملوك الظالمين والحكام والقادة العسكريين المعروفة أن يعطوا الأمان لأحد ويأتون به وحين يتمكنون منه يقتلونه أو يعاقبونه، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم من أمن أحداً على نفسه ثم قتله فليس مني، حتى ولو كان للمقتول كافراً^(٣)، قال تعالى :

"يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود" (المائدة : ١) .

وَيَدْخُلُ فِي الْعُقُودِ كُلِّ الشُّرُوطِ وَالْوَعُودِ وَالْمُعَاهِدَاتِ الَّتِي يَبْرِمُهَا أَحَدٌ مَعَ اللَّهِ أَوْ مَعَ شَخْصٍ أَوْ مَا تَبْرِمُهُ جَمَاعَةٌ مَعَ أُخْرَى حَتَّى لَنْهُ إِنْ عَاهَدَ الْمُسْلِمُونَ أَعْدَاءَهُمْ فَعَلَيْهِمْ

١ صحيح مسلم - كتاب الجهاد والامير .

حدثنا محمد بن عبد الملك بن أبي الشوارب، حدثنا أبو عوف، عن عبد الملك بن عيسى، عن رفاعة بن شداد القتيبي، قال: غلوا كلمة سمعتها من عمرو بن الحقيق الخزاعي لمثيت فيما بين رأس المختار وجسده، سمعته يقول: غل رسول الله صلى الله عليه وسلم من أمن رجلا على يده فقتله، غلبه بحمل لواء غدر يوم القيلة.

٢ المرجع السابق .

حدثنا محمود بن غيلان حدثنا أبو داود قال أنبأنا شعبة قال أخبرني أبو الفيض قال سمعت سليم بن عامر يقول: كان بين معاوية وبين أهل الروم عهد وكان يسير في بلادهم حتى إذا تقضى العهد أغلر عليهم فبذل رجل على دابة أو على فرس وهو يقول: الله أكبر وفاء لا غر وإذا هو عمرو بن عبسة فسأله معاوية عن ذلك، فقال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: من كان بينه وبين قوم عهد فلا يحلن عهدا ولا يشدنه حتى يمضي أمده أو ينذر إليهم على سواء قال فرجع بالثامن.

³ سنن ابن ماجه و صحيح ابن حبان و المنذري - باب الترغيب في إكمال الوعد .

تنفيذ ما عاهدوا عليه بدقة ذات مرة عاهد الأمير معاوية رضي الله عنه أهل الروم لمدة معينة، ولما اقترب موعد انتهاء للمعاهدة خرج الأمير بجنوده إلى منطقة الحدود مع الروم، وما أن انتهى الموعد حتى هاجمهم فلما رأى الصحابي عمرو هذا ركب فرسه وخرج وهو يصيح: الله أكبر، الله أكبر، ليس هذا نقضا للعهد؟ فاستدعاه الأمير معاوية وسأله ماذا بك؟ فقال: لقد سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول إذا عاهدتم شعباً فلا تحلوا ولا تعقوا (بمعنى أن لا تنتقضوا فيه)، أو أن تخبروهم ثم ترفضوا معاهدتهم فلما سمع الأمير معاوية هذا عاد بجنوده^(١).

والأمر الذي ينبغي أن نتمعن فيه هو أن الأمير معاوية لم يخالف نص المعاهدة ولم يرد ذلك، لكن تصرفه هذا مخالف لروح للمعاهدة ومعناها وقد اعتبر صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا منه نقضا للعهد ومنعوا أمير الجيوش منه.

البهتان

والبهتان هو أن تتهم بريئاً بالإجرام عن عمد وتنتسب إليه من الذنب ما لم يفعله، وهو أيضاً صورة من صور الكذب، بل إن القرآن للكريم سماه خيانة، وبعض البهتان لا وجود له أصلاً، لكن يلصق بأحد على سبيل الإساءة إلى سمعة أحد، وقد سماه القرآن بهتاناً، وهاتان الصورتان بالإضافة إلى كونهما كذبا تتفايان مع الشرف، ولهذا فلن كل من يشارك في البهتان يعد خائناً وأثماً.

في زمن النبي صلى الله عليه وسلم قام أحد منافقي المدينة ويدعى طعمه بسرقة أحد الصحابة، ولما شك المسلمون فيه وسألوه أخبرهم أن الذي فعلها أحد المسلمين وسماه، ووصل الأمر إلى أن كاد للسيف يستخدم، وعلم رسول الله صلى الله عليه وسلم بالأمر ودافع أهل المنافق عنه وأكدوا على براءته، وكاد رسول الله صلى الله عليه وسلم يحكم بذلك، إلا أن الوحي الإلهي كشف الستار عن الأمر فجاءه وفي رواية أخرى أن أحد اليهود استأمن طعمه على درعه فخانه، وأنكر ما فعل، وألقي بالدرع في بيت رجل

^١ سنن أبي داود - باب الوفاء بالعهد .

كان بين معاوية وبين أهل الروم عهد وكان يسير في بلادهم حتى إذا انتقض العهد أغار عليهم فبدأ رجل على دابة أو على فرس وهو يقول: الله أكبر وفاء لا غدر وإذا هو عمرو بن عبسة فضله معاوية عن ذلك، فقال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: من كان بينه وبين قوم عهد فلا يحلن عهده ولا يشننه حتى يمضي أمده أو ينبذ إليهم على سواء قال فرجع بالناس.

آخر وأمعك الناس بهذا الرجل وفي النهاية وصل الأمر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأراد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يحكم بما هو ظاهر أمامه فنزل الوحي (١). على أية حال أيا كانت الواقعة التي حدثت فإن القاسم المشترك فيها هو أن هذه الآيات نزلت فيما يتعلق بتجريم للبريء وتبرئة المجرم:

"لأن أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله ولا تكن للخائنين خصيما واستغفر الله إن الله كان عفورا رحيمًا ولا تجادل عن الذين يختانون أنفسهم إن الله لا يحب من كان خولًا أثيمًا يستخفون من الناس ولا يستخفون من الله وهو معهم إذ يبيتون ما لا يرضى من القول وكان الله بما يعملون محيطًا" (النساء: ١٠٨). ثم يقول بعد ذلك :

"ومن يكسب خطيئة أو إثما ثم يرم به بريئا فقد احتمل بهتانًا وإثما مبينًا" (النساء: ١١٢). انظر كيف بين الله في هذه الآيات سر الخيانة وسوء البهتان وبأسلوب جميل، إذ أكد أولاً لرسول الله صلى الله عليه وسلم على العدل ثم أمره أن لا يحمي الخائنين وألا يدافع عنهم، ثم قال إن من يخون هكذا فقد ارتكب إثماً عظيماً، وحرم من محبة الله، إذ أن هؤلاء يريدون الاستخفاء عن أنظار الدنيا خجلاً مما فعلوا، فيلقون بذنوبهم على آخرين، ولا يستحيون من الله الذي هو معهم أينما كانوا، ويرى ما يفعلون، ولا تخفى عليه خافية مهما حاولنا إخفاءها، فإذا تأكد للناس من هذا لم يجرؤ أحد على اتهام أحد بهتاناً، ثم بعد ذلك أخبره أن من يفعل هذا فقد ارتكب بهتاناً وإثماً عظيماً.

كان من الرائج بين العرب قديماً أن المرأة التي تعاشر عدداً من الرجال تتخير أحدهم لتنسب إليه للطفل، أو ينسبون للطفل مجهول النسب للأزواج، وقد سمى الله هذا بهتاناً، وأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يبايع المرأة التي تريد أن تسلم على ألا ترتكب مثل هذا للجرم مستقبلاً :

"ولا يأتين بهتان يفترينه بين أيديهن وأرجلهن" (المتحنة : ١٢) .

إن مجرد إيذاء المسلم إيذاء ولو بسيطاً يعد أمراً سيئاً، فما بالك بالإقتراء عليه بهتان وإيذائه به. قال تعالى: "والذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات بغير ما اكتسبوا فقد احتملوا بهتاناً وإثماً مبيناً" (الأحزاب : ٥٨) .

^١ جامع الرمزي - تفسير سورة النساء .

ونستطيع أن نعرف مدى سوء هذا البهتان من أن الذي يفتريه يعد فاسقا عند الله تعالى، ولا تقبل شهادته أبدا.

روي عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: من اتهم غلامه بالباطل وهو بريء ولم يرتكب ما يتهمة به فإن الله تعالى سوف يجلد هذا السيد على ظهره يوم القيامة^(١)، وكان عقابه هو عقاب القنف بالباطل، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في حديث آخر أن من يتهم أحدا بما ليس فيه فقد بهته^(٢)، أي أنه يجب تجنب هذا الأمر.

النميمة

النميمة هي أن يتناول اثنان فيما بينهما الحديث عن شخص ثالث بالصدق والكذب بهدف تحريض كل منهما ضده، وتقوية موقفهما، ولأن مثل هؤلاء الناس ينقلون الكلام عن أحد ما إلى الآخرين بما يثيرهم ضده ويخلق بداخلهم كراهية تجاهه، لهذا فلين القرآن الكريم أطلق على هؤلاء الناس الذين لا ينبغي أن يسمع لهم (مشاء بنميم)، ومن هنا فقد وضع الله مبدأ هاما هو أنه عندما يأتيك شخص بخبر عن شخص آخر فإن علينا ألا نلاحظ في أمر من ينقل الخبر، فإن لم يكن مؤمنا صادقا لا نسمع لما يقول، فاربمما تسرعنا في تصديق قوله وبناء عليه يصدر عنا ما نندم عليه فيما بعد. قال تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جِئَكُمْ فَاسِقٌ فَبَيِّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ^(٣) (الحجرات: ٦٠).

والأمر الذي يتطلب للتمنع في هذه الآية هو أن الله تعالى قد أطلق لقب (فاسق) على الذي ينشر الأخبار للكاذبة، ولأن الهدف من هذا السوء الأخلاقي هو زرع الخلاف بين شخصين أو بين الأعزاء والأقارب والأصدقاء والأحباب في الغالب، لهذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في حديث عنه: "هل أخبركم بمن هم أسوأ الناس، إنهم

^١ مسند أبي داود - كتاب الأدب.

^٢ المرجع السابق حديثنا عبد الله بن مسلمة القعنبي ثنا عبد العزيز يعني ابن محمد عن العلاء، عن أبيه، عن أبي هريرة أنه قيل: يا رسول الله ما الغيبة؟ قال: ذكرك أخاك بما يكره قيل: أفرأيت إن كان في أخي ما أقول؟ قال: إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته، وإن لم يكن فيه ما تقول فقد بهته.

للمشاعون بالنميمة للمفسدون بين الأحبة (مسند أحمد - الجزء السادس - ص ٤٥٩ -
عن أسماء بنت يزيد).

وقد جاء في الصحيحين أن النبي صلى الله عليه وسلم مر ذات يوم بالقبور فقال
لأن واحدا منهم يعذب لأنه كان يمشي بين الناس بالنميمة.
"ألا أتيتكم ما الغصة، هي النميمة بين لقالة بين للناس".

والغصة في اللغة تعني التفريق والسحر بولها إذا أخذناها في هذا الحديث على
معنى التفريق فإنه يثبت منها بوضوح أن التفريق بين شخصين يدخل في حقيقة
النميمة، لكننا إن حملناها على السحر فإن هناك مشابهة أيضا بين السحر والنميمة، إذ أنه
عن طريق السحر يفرق بين شخصين وخاصة بين الزوجين بولها جاء في القرآن
للكریم:

"فيتعلمون منهما ما يفرقون به بين المرء وزوجه" (البقرة: ١٠٢) .

وعادة ما يقول المفسرون أن وسيلة هذا التفريق هو السحر الذي كان الناس
يتعلمونه من هاروت وماروت، لكن بعض العلماء يرون أن هذا الهدف يتحقق بالنميمة.
على أية حال يتحقق هذا الهدف بنقل كلام أحد إلى آخر، على سبيل المثال يقول له إن
فلانا يقول عنك كذا وكذا بولها قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لصحابته: "لا يبلغني
أحد من أصحابي عن أحد شيئا غائبي أحب أن أخرج إليكم وأنا سليم الصدر".

لكن هذا الكلام الذي ينقل عادة ما يكون سيئا وغير مقبول أو محبوب، وفي
بعض الأحيان يكون الذي ينقل الكلام معتقدا ومؤمنا بأنه كلام سيء، وفي بعض الأحيان
يتضايق الشخص الذي ينقل إليه الكلام منه، وفي بعض الأحيان يرى الناس هذا الكلام
سيئا، المهم أن هذا الكلام الذي يتم نقله يكون في نظر الآخرين بطريقة أو بأخرى كلاما
سيئا غير مقبول، والذين لبثوا بهذا الخلق السيئ يبحثون دائما عن الأمور الممقوتة حتى
ينشروها بين الناس ويشيرون الفتنة بولها يشبه العرب مثل هذا الشخص بحمال
الحطب، أي مثلما يجمع حمال الحطب الأخشاب والحطب ليبيعه للناس ليستخدموها في
الأغراض المختلفة، كذلك الشخص الذي يمشي بالنميمة بين الناس يبحث عن الأمور
الممقوتة ويجمعها ليبيئ بذلك وقودا لنار الفتنة والفساد. ولذلك يرى بعض المفسرين أن
الله تعالى قد أطلق على زوجة أبي لهب لقب حمالة الحطب لأنها كانت تمشي بالنميمة
بين الناس.

وبعض الناس يسترقون السمع، أي يتولرون هنا وهناك ليسمعوا ما يقوله الآخرون ثم ينقلونه لآخرين، ومثل هؤلاء يطلق عليهم في اللغة (قنات)، وقال عنهم رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لا يدخل الجنة قنات" (١).

وهؤلاء يضيفون على ما يسمعون من عند أنفسهم ما يجعله أكثر جاذبية، ثم يقصونه بأسلوب مؤثر حتى يؤثر في الآخرين، ولهذا يطلق على النميمة في اللغة العربية (وشاية) وهي أصلا تعني الزخرفة والنقش. هذا ويسعى للنامون مجتهدين من أجل نقل الكلام هنا وهناك، ولهذا يطلق على النميمة أيضا (سعاية) وتعني السعي مجتهدا. ورغم أن هذا العمل يتم باللسان غالبا لكنه ليس مقتصرا عليه، إذ يمكن أن تكون النميمة بالكتابة والرمز والإشارة، وهو أيضا ليس مقصورا على الأقوال فقط، وإنما يتعداه إلى العمل أيضا، بمعنى أنه لا يقال لشخص ما إن فلان يقول كذا وكذا عنك فقط، وإنما يقال له أيضا إن فلانا يقوم بالعمل الفلاني.

ويعلم من هذا التفصيل أن نقل الكلام من شخص إلى آخر باللسان ليس تعريفا كاملا للنميمة، وإنما التعريف الجامع لها هو نقل كلام شخص أو عمله إلى شخص آخر بقصد إساءة للظن به.

ولهذا فإن الطريقة الوحيدة لتجنب النميمة أن لا يتحدث شخص عن حالات شخص آخر طالما لم تكن هناك ضرورة جائزة لذلك، والعمل بما قاله رسول الله صلى الله عليه وسلم تركك ما لا يعينك يحقق هذا الغرض.

والنميمة فتنة تكون نتائجها في بعض الأحيان خطيرة للغاية، وقد تصل إلى القتل و سفك الدماء، وهي مجموعة من الذنوب، ففيها الغيبة والبهتان والتجسس والكذب والخداع والنفاق، وعناصر أخلاقية سيئة أخرى، ولهذا فإن النميمة تعتبر بناء على العناصر الداخلة فيها ونتائجها من للكبائر، ومع ذلك فقد صارت جزءا من المجتمع ومدنيته، فإذا كان بعض الناس يتملق الأمراء والحكام في أبلطتهم بالنميمة، فإن عامة الناس أيضا يشتغلون بالنميمة بين بعضهم البعض في مجالسهم على سبيل التفریح والترفيه، ولهذا فقد انتشر هذا المرض الأخلاقي بكثرة حتى أصبح أمرا

١ أبو دارد - كتاب الأدب - باب في القنات .

حدثنا مسدد وأبو بكر بن أبي شيبة قالوا: ثنا أبو معاوية، عن الأعمش، عن إبراهيم، عن حذيفة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: لا يدخل الجنة قنات .

عاديماولا يراه الناس كبيرة من الكبائر وهذه هي النقطة التي لكد عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات مرة حين خرج مرة من حديقة بالمدينة فسمع صوت رجلين يعذبان في قبريهما فقال: "أنهما يعذبان يوما يعذبان في كبير في حين أنهما لئنبا نذبا كبيرا، أما أحدهما فكان لا يستبرأ من بوله، ولما الآخر فكان يمشي بالنميمة بين الناس".^(١)

وقد أفاض المحدثون في شرح هذا الحديث الشريف حتى قال بعضهم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال إنها ليست كبيرة في البداية، ولكن للوحي أخبره فيما بعد أنها من الكبائر، ولأنها نسخت وأصبحت من الكبائر. وقد استنتج المحدثون كثيرا من مثل هذه الدقائق اللطيفة، في حين أن الحديث لا يعني أكثر من أن هذين العيبين الأخلاقيين قد انتشرا بشكل جعل الناس يعتقدون أنهما من الأمور للعادية، بينما هما ليسا كذلك، وإنما يخلان في الكبائر والموبقات.

ونجد مثل هذا في القرآن الكريم أيضا، ومنه ما أنزل رب العزة فيما يتعلق بحادثة الإفك التي رميت بها أم المؤمنين السيدة عائشة رضي الله عنها: "إذ تلقونه بالسنتكم وتقولون بأفواهكم ما ليس لكم به علم، وتحسبونه هينا، وهو عند الله عظيم" (النور: ١٥).

ويظهر من هذا أن الأحاديث التي تتعلق بإساءة سمعة الآخرين والتشهير بهم يتصورها الناس أمورا عادية بسبب الرغبة العامة فيها، بينما هي في الحقيقة ليست أمورا عادية.

كما يظهر من هذا الحديث ما يتعلق بكشف عورات الناس وإظهار عيوبهم، و مثل هذا السوء الأخلاقي نجده في الأشخاص أصحاب الطبائع الدنيئة المبتلين الذين لا همة لديهم ولا يستحقون الثقة بهم، فإذا لم يجدوا وسيلة للكراهية والانتقام، أو الحصول على مكانة معينة لدى الوجهاء، أو الاندماج مع المجتمع، فإنهم يلجأون إلى النميمة، و

^١ البخاري - كتاب الأدب - باب النيمة من الكبائر .

حدثنا عثمان قال: حدثنا جرير، عن منصور، عن جاهد، عن ابن عباس قال: مر النبي صلى الله عليه وسلم بحائط من حيطان المدينة، لومكة فسمع صوت إسماعيلين يعذبان في قبورهما، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: (يعذبان يوما يعذبان في كبير). ثم قال: (بلى، كان أحدهما يستتر من بوله، وكان الآخر يمشي بالنميمة).

لهذا فإن الطريقة الوحيدة لتجنب شرورهم وفسادهم هو أن لا يوثق فيما يقولون ، ولا يسمع له ، وقد أمر القرآن الكريم رسول الله صلى الله عليه وسلم بإتباع هذه الطريقة فقال: "ولا تطع كل حلاف مهين، همار مشاء بنميم مناع للخير معتد أثيم" (القلم: ١٢).

الغيبة وفحش القول

إن من أكبر مقاصد الشريعة هو الحفاظ على كرامة وأعراض المسلمين، والإبقاء على العلاقة الطيبة بينهم، ولهذا فإن المسائى الأخلاقية التي تمس أعراض المسلمين وتسئ إلى العلاقة فيما بينهم حرمتها للشريعة الإسلامية، وقد وضحاها الله تعالى في مكان واحد في القرآن الكريم بصفة عامة فقال: "يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيرا منهم، ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيرا منهن، ولا تلمزوا أنفسكم، ولا تنابزوا بالألقاب بئس الاسم الفسوق بعد الإيمان، ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون، يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيرا من الظن، إن بعض الظن إثم، ولا تجسسوا، ولا يغتب بعضكم بعضا، أحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتا فكرهتموه، واتقوا الله إن الله تواب رحيم" (الحجرات: ١٢).

ويثبت من كل هذه الأحكام الأخلاقية أنه يجب على المسلمين أن لا يعملوا على كشف عيوب إخوانهم، وأكثر الطرق التي يكشف بها عيوب المسلمين هو الغيبة، وقد كتب الإمام الغزالي يقول أنه من الممكن كشف عيوب الآخرين بالتعريض والتصريح والرمز والإشارة، والكتابة والمحاكاة والتقليد وغيرها من الطرق، ومن الممكن العيب على نسب الشخص وأخلاقه ودينه وديناه وجسمه وملابسه وغير ذلك، ولهذا فإن الله تعالى منع من كل هذا وشدد عليه، وشبهه بأكل لحم الأخ للميت، وهو تشبيه يظهر منه وجوه كثيرة من وجوه البلاغة:

١- إن لحم الإنسان حرام بسبب تكريمه وحرمة، ولهذا فإن كل ما يسيء إلى عرضه وكرامته وحرمة حرام مثل حرمة لحمه.

٢- في المواجهات أثناء المشاجرات و العراك ينهش بعض الناس في شدة غضبه لحم خصمه، ورغم أن هذا أيضا فعل سيء لكنه يحمل نوعا من الشجاعة، ولكن إذا قام أحد الخصمين بنهش لحم خصمه بعد موته فإن ذلك يعد تصرفا جباناً، بالإضافة إلى كونه أمر كريه، وبنفس الطريقة إذا قام شخص بتوجيه الإهانات المتواصلة إلى شخص آخر وجها لوجه فإن هذا أمر غير مقبول، إلا أنه لا جين فيه، ولكن إذا قام هذا الشخص بتوجيه

الإهانة إلى هذا الشخص من وراء ظهره وفي غيابه فإن هذا يعد تصرفا جباناً ومثله مثل نهش لحم الخصم بعد قتله .

٣- لا ينظر الناس عادة إلى جثة أخيه الميت من شدة حبه له ولا يتحملون ذلك ولهذا فإن الشخص الذي ينهش لحم أخيه للميت يدل على بغضه وعداوته وقسوة قلبه وهو ما ينقي العطف والرحمة التي يريد الإسلام أن يخلقها بين أتباعه .

٤- يجوز لكل لحم الميتة حين الضرورة للقوى في مثل هذه الحالة إذا وجد المضطر شاة ميتة فإنه يأكلها ولا يجب لكل لحم الإنسان ولهذا فإن الغيبة لا تكون جائزة أبداً إلا في وجود الضرورة الشرعية والأخلاقية أو السياسية وفي مثل هذه الحالة أيضاً ينبغي تجنب الغيبة علانية بقدر المستطاع، واللجوء إلى الرمز والإشارة فقط وطبقاً لهذا التشبيه لقرآني فقد وضع رسول الله صلى الله عليه وسلم في أحاديث متعددة سوء الغيبة بأسلوب غاية في البلاغة .

جاء في أحد الأحاديث أنه صلى الله عليه وسلم قال: مررت في ليلة المعراج بأناس أظافهم من حديد، وينهشون بها وجوههم وصنوبرهم، فسألت جبريل من هؤلاء؟ فقال هؤلاء هم الذين يأكلون لحوم الناس، وينهشون أعراضهم^(١).

وهناك تناسب بين الأعمال وثوابها أو عقابها، ولأن هؤلاء الناس كانوا ينهشون لحوم الناس، أي يفتابونهم، ولهذا كان عقابهم في عالم البرزخ أن ينهشوا لحوم أنفسهم ذات مرة فاحت رائحة كريهة، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأصحابه: أنعرفون ما هذه الرائحة، إنها رائحة الذين يفتابون المسلمين^(٢).

والتناسب بين الأعمال وعقابها وثوابها واضح في هذا الحديث أيضاً، إذ أن الميتة غالباً ما تكون رائحتها كريهة، وهؤلاء الناس كانوا يأكلون لحوم الناس، ولهذا فإن هذه الرائحة نتيجة لأكلهم للميتة.

^١ أبو داود - كتاب الأدب - باب في الغيبة .

حدثنا ابن المصطفى ثنا بقيق وأبو المغيرة قال: أنشأ صفوان قال: حدثني راشد بن سعد، وعبد الرحمن بن جبير، عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: لما عرج بي مررت بقوم لهم أظفار من نحاس يخمشون وجوههم وصنوبرهم، فقلت: من هؤلاء يا جبريل؟ قال: هؤلاء الذين يأكلون لحوم الناس ويقعون في أعراضهم.

^٢ أدب المفرد - باب الغيبة .

وهناك دقيقة أخرى في هذا الحديث وهي أن الهدف من الغيبة يكون التشنيع والتشهير بالآخرين وتتبع عيوبهم، ولهذا فإنه مثلما ينشر هؤلاء المغتابون عيوب الناس فإن راحة نجاسة عملهم وقذارته تفوح وتتفر الناس منهم في الدنيا، وقد وضع رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الدقيقة في حديث آخر بغير تشبيه أو تمثيل فقال: أيها الناس يا من آمنتم بلسانكم، لكن الإيمان لم يدخل إلى قلوبكم، لا تغتابوا المسلمين، ولا تبحثوا عن عيوبهم، لأن من يتتبع عيوب الناس يتتبع الله عيوبه، ومن يتتبع الله عيبه فضحه في عقر داره^(١).

والغيبة من الناحية اللغوية هي الحديث عن عيوب شخص في غير وجوده، ولكن ليس هناك قيد على اغتياب الشخص في غير وجوده في التعليم الديني، ولهذا يفهم الناس أنهم إذا كشفوا عيوب شخص ما ومساوئه فإن ذلك ليس بغيبة، لكن رسول الله صلى الله عليه وسلم في حديثه السابق يبطل هذا الكلام .

وفي حديث آخر أن الناس سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الغيبة فقال: أن تذكر أخاك بما لا يحب، فقيل: فإن كان فيه ما نقول، فقال: إن كان العيب فيه فقد اغتبتّه، وإن لم يكن فيه فقد بهتّه^(٢) .

ويعلم من هذا أن بيان عيوب أحد في غير وجوده ليس جزءاً ضرورياً من تعريف الغيبة، بل إنه إذا ذكرت عيوب للشخص أمامه فإنه من الغيبة أيضاً، ولكن من حيث اشتقاق هذا اللفظ فإن الغيبة في نظر أهل اللغة هي فحش القول الذي يكون عن أحد من خلفه، أي في غير وجوده، أما ذكر عيوب أحد أمامه فلا يعدونه غيبة، وإنما يدخل في السب و الشتم .

^١ أبو داود - كتاب الأدب - باب في الغيبة .

حدثنا عثمان بن أبي شيبة ثنا الأسود بن عامر ثنا أبو بكر بن عرش، عن الأعشى، عن سعيد بن عبد الله بن جريج، عن أبي هريرة الأسلمي قال: سألت أبا معشر من آمن بلسانه ولم يدخل الإيمان قلبه، لا تغتابوا المسلمين، ولا تتبعوا عوراتهم، فإنه من اتبع عوراتهم يتبع الله عورته، ومن يتبع الله عورته يفضحه في بيته.

^٢ أبو داود - كتاب الأدب - باب في الغيبة .

حدثنا عبد الله بن مسلمة القعنبي ثنا عبد العزيز يعني ابن محمد عن العلاء، عن أبيه، عن أبي هريرة أنه قيل: يا رسول الله، ما الغيبة؟ فقال: ذكرك أخاك بما يكره قيل: أفرأيت إن كان في أخي ما أقول؟ فقال: إن كان فيه ما تقول فقد اغتبتّه، وإن لم يكن فيه ما تقول فقد بهتّه.

وهكذا فإن الغيبة ليست مقصورة على اللسان فقط وإنما يمكن الاغتياب باليد والرجل والعين أيضا، فمثلا أن تقوم بتقليد شخص ما كأن يكون أعرجا فإذا قلت مشيته لإظهار عيبه فقد اغتبته، وذات مرة قلت للسيدة عائشة رضي الله عنها شخصا ما، فأظهر رسول الله صلى الله عليه وسلم امتعاضا شديدا^(١).

وكذلك فإن إظهار عيب شخص بإشارة للعين وللحاجب يعد غيبة، وقد بين القرآن الكريم في آيات عديدة هذه الغيبة الخفية فقال :

" هماز مشاء بنميم " (القلم : ١١) .

" ويل لكل همزة لمزة " (الهمزة : ١) .

وقد نّم الله تعالى في هذه الآيات تلك الطرق للخفية والجارحة للغيبة، ولا يمكن توضيح هذا كله بالترجمة وإنما ينبغي الاستعانة في هذا بما قاله أهل اللغة فيما يلي:

١- الهمز: الإساءة إلى أحد أمامه، واللمز: الإساءة إليه من خلفه.

٢- الهمز: الطعن في نسب للناس بصفة خاصة.

٣- الهمز: اغتياب أحد بإشارة اليد، واللمز: اغتيابه باللسان.

٤- الهمز: الاغتياب باللسان، واللمز: الاغتياب بإشارة للعين.

٥- الهمز: أن تجرح جلسك بألفاظ سيئة.

٦- اللمز: أن تجرح جلسائك بإشارات من عينك أو يدك أو حواجبك.

ويعلم من هذا الشرح إلى أي مدى تتمتع دائرة الغيبة .

إن بيان عيوب أحد يعد من الناحية الأخلاقية أمرا طيبا يمكن الأخلاق تقتضي أن يتم توضيح عيوب الناس حتى ينتبهوا ويندما، وإذا منعنا الحديث عن مساوئ السيئين منعنا تماما فلن نكون هناك طريقة للقضاء على مساوئهم، ولم يغفل الإسلام عن هذه النقطة، وقد بين القرآن الكريم مساوئ الكفار والمشركين والمنافقين علانية، لكن لم يذكروا أحدا باسمه، وإنما وضع صفاتهم بشكل عام ودون تصريح وبصيغة المجهول كأن يقول من يكذب أو يكفر سيكون مآله كذا وكذا، وفائدة التعبير بهذه الصورة أنه يتم إظهار مساوئ الأشرار من جانب، ومن جانب آخر لا يسيء إلى أحد بذكر اسمه لما كبر الكفار ورؤوسهم للذين ذكر القرآن الكريم فنلك لأن عيوبهم ومساوئهم كانت واضحة أمام الناس جميعا .

^١ المرجع السابق .

ومع ذلك فهناك بعض المواضع في المعاملات أحيانا يقتضي الأمر معها نوعا من التخصيص، ومثل هذه المواضع وضحها القرآن الكريم والحديث الشريف، ولهذا نرى الجزء السادس من القرآن الكريم يبدأ بقوله تعالى :

"لا يحب الله الجهر بالسوء من القول إلا من ظلم وكان الله سميعا عليما" (النساء: ٤٨).
والمراد أن الله تعالى لا يحب أن تجهز بعيب أحد وسوء أخلاقه، ولكن يحق للمظلوم أن يبين للظلم الذي وقع عليه للناس، وأن يفضح الأفعال الظالمة التي يرتكبها الظالم، والله يسمع ويعلم، وسوف يعاقب الظالم على سوء عمله.

وجاء في الحديث الشريف أن شخصا أُرِلَ للمثل عند رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلما رآه رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: تبئس أخو العشيرة هذا، ولكن عندما اقترب هذا الشخص تحدث معه رسول الله صلى الله عليه وسلم عليه وسلم بكل كرم ولطف^(١)، ويعلم من هذا أنه يجوز تعريف الناس بشر وقساد شخص ما وإنقاذهم منه، وذلك بتوضيح أحواله، إذا فإن إظهار العيوب بنية خدمة الناس وتقديم الخير لهم، أو لتحقيق أمر شرعي أو أخلاقي أو حضاري لا يتحقق بدونه لا يمكن أن نسميه غيبة، وإذا سميناه غيبة فإن الشرع يجيزها، وقد حدد الإمام الغزالي هذه الأهداف بستة صور هي:

١- الاستغاثة من ظلم الحاكم، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إن لصاحب الحق مقالا.

٢- القضاء على المفساد الدينية والأخلاقية، أي بهدف المحاسبة (ولهذا فإن القرآن الكريم فضح مساوئ الكفار والمنافقين علانية).

٣- طلب الفتوى، ولهذا فإن السيدة هند بنت عتبة اشكت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بخل أبي سفيان، واستمع إليها رسول الله صلى الله عليه وسلم وأجابها الإجابة المناسبة.

^١ البخاري - كتاب الأدب - ما يجوز من اغتياب أهل الفساد والريب .

حدثنا صدقة بن الفضل: أخبرنا ابن عيينة: سمعت ابن المتكدر يسمع عروة بن الزبير: أن عائشة رضي الله عنها أخبرته قالت: استأذن رجل على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: (اتنوا، بئس أخو العشيرة، أو ابن العشيرة). فلما دخل ألان له الكلام، قلت يا رسول الله، قلت: ثم أنت، له الكلام؟ قال: (أي عائشة، عن شر الناس من تركه الناس، أو ودعه الناس، لقاء فحشه).

٤- إنقاذ الناس من شرور ومفاسد أحد، ولهذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم عن شخص ما (بئس ابن العشرة).

٥- أن يشتهر أحد بلقب ما يظهر عيبه، ولكن نظرا لاشتهاره به لم يعد يغضبه، مثل الأعمش، الأعرج، ولأن الوصفين يميزانها فلا يستاءن منهما، وقد نادى رسول الله صلى الله عليه وسلم على أحد الصحابة بقوله: (تو للدين).

٦- إظهار مفاسد وعيوب أولئك الذين يجهرون بالفسق والفجور حتى ينتبهوا ويصبحوا عبرة لغيرهم، مثل أن تقول للمختل أنه مختل.

نو الوجهين

عندما يحدث خلاف بين شخصين فإن شخصا آخر يستطيع أن يحتفظ بعلاقات معهما بصدق وإخلاص، ولا يوجد في مثل هذه العلاقة ما نطلق عليه تعدد الوجوه (نو الوجهين) بمعنى أن يصبح صديقا للآخرين دون أن يعمل على تخريب العلاقة بينهما بنقل كلام كل منهما إلى الآخر، إذ أن مثل هذا العيب أسوأ من للنميمة، لأن للنمام ينقل كلام أحد إلى آخر فقط، أما نو الوجهين فإنه ينقل كلام الاثنين.

وتعدد الوجوه هذا ليس مقصورا على نقل كلام الأطراف المختلفة إلى بعضها، وإنما على سبيل المثال إذا مدح رجل آخر في وجهه، فإذا ما افترقا هجاه فإن هذا يدخل في باب تعدد الوجوه أيضا وهي واحدة من خصائص النفاق، ولهذا كان الصحابة الكرام يطلقون عليه نفاقا.

ذات مرة قيل لسيدنا عبد الله بن عمر رضي الله عنه إننا نذهب عند الحكام والأمراء فنقول شيئا، ونخرج من عندهم فنقول شيئا آخر، فقال: كنا على عهد الرسالة نعد هذا نفاقا^(١)، يبين القرآن الكريم أن هذه من علامات للنفاق فقال:

"وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا، وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معاكم إنما نحن مستهزون" (البقرة: ١٤).

ويقال لهؤلاء المنافقين أخلاقيا نوي الوجهين باعتبار الناحية الاجتماعية والدينية.

^١ صحيح البخاري - باب ما قيل في ذي الوجهين.

وقد جاء وعيد شديد في الأحاديث للشريفة لهؤلاء، على سبيل المثال يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: "أسوأكم عند الله يوم القيامة ذو الوجهين الذي يكون عند بعض الناس بوجه، وعند البعض الآخر بوجه آخر" (١).

وفي حديث آخر يقول صلى الله عليه وسلم: "من كان ذا وجهين في الدنيا يأتي يوم القيامة وفي فمه لسانان" (٢)، وهو تستل لعادته للزئمة، إذ يعيش مع الناس بوجهين ولونين.

سوء الظن

سوء الظن نوع من الوهم الكاذب الذي تكون نتيجته أن يشعر للشخص بشك وسوء نية فيما يقوم به الآخرون، ولا تبدو له حسن النية في تصرف أي شخص آخر، وينسب إلى الآخرين ما لم يقولوا، ويشعر به الآخرون أيضا فيخافونه، وتتشأ الكراهية والعداوة بين الطرفين، ولهذا أكد الله تعالى على عباده أن يرجعوا عن هذا السوء: "يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيرا من الظن أن بعض الظن إثم" (الحجرات: ١٢).

وحين أكد رسول الله صلى الله عليه وسلم على تجنب سوء الظن أكد معه على منع البغض والحسد، وعلى التجسس على حياة الآخرين، بل كل هذا يكون إما بمثابة أسباب في سوء الظن أو نتيجة له، قال صلى الله عليه وسلم: "تجنبوا سوء الظن، لأن سوء الظن أكبر الكذب، ولا يتجسس أحدكم على الآخر، ولا يتعدى أحدكم على الآخر أو يطمع فيه، ولا تحاسدوا ولا تباغضوا وكونوا عباد الله إخوانا" (٣).

^١ البخاري - كتاب الأدب - باب ما قيل في ذي الوجهين، وصحيح مسلم ومالك

حدثنا عمر بن حفص: حدثنا أبي: حدثنا الأصمعي: حدثنا أبو صالح، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم قال: (تجد من شرار الناس يوم القيامة عند الله ذا الوجهين، الذي يأتي هؤلاء بوجه، وهؤلاء بوجه).

^٢ أبو داود - كتاب الأدب - باب ذي الوجهين.

حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة، ثنا شريك، عن الزكري بن الربيع، عن نعيم بن حنظلة، عن عمار قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: من كان له وجهان في الدنيا كان له يوم القيامة لسانان من نار.

^٣ صحيح البخاري ومسلم وأبو داود والترمذي ومالك - باب تحريم الظن.

حدثنا بشر بن محمد: أخبرنا عبد الله: أخبرنا معمر، عن همام بن منبه، عن أبي هريرة، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (إياكم والظن، فإن الظن كذب، ولا تحسسوا، ولا تجسسوا، ولا تحاسدوا، ولا تدبروا، ولا تباغضوا، وكونوا عباد الله إخوانا).

ومن المناسب أيضا أنه إذا كان هناك شخص يقوم بعمل ما، لو هو في وضع ما يجعل الآخرين يسيئون به الظن، فإن عليه أن يعمل على إزالة سوء الظن هذا، حتى لا يقع الآخرون في فتنة، وقد قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم للمثال على هذا، ذات مرة كان رسول الله صلى الله عليه وسلم معتكفا، وفي الليل حضرت إحدى أمهات المؤمنين للقلته صلى الله عليه وسلم، فخرج رسول الله لتوصيلها، وفي الطريق مر به قدرا اثنان من الأنصار، فلما رأوا صلى الله عليه وسلم مع سيدة اعتقدا بأنهما جاءا في وقت غير مناسب، وأرادا العودة، لكن رسول الله صلى الله عليه وسلم ناداهما من فوره، وقال: هذه زوجتي فلاتة، فقالا: نيا رسول الله وهل نظن بك إلا خيرا، فقال صلى الله عليه وسلم: إن للشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم من العروق " (١)

للفلق والمداينة

للفلق والمداينة علامتان على انحطاط الأخلاق والدناءة والخلة، وهما في نفس الوقت صورة من صور الكذب، كما أنهما يضران من تتم منافقته ومداينته، والمنافق للمداهن يرتكب ثلاثة ذنوب معا، أولها أنه يمدح أحدا بما لا يطابق حقيقته، وهو كذب، وثانيها هو أنه في قرارة نفسه لا يعترف بصحة ما يقوله في مدح الآخر، وهذا نفاق، وثالثهما هو أن يذل نفسه ويسقط من نظر الآخرين بمداينة ومنافقة أصحاب النفوذ من أجل مصلحة دنيوية، وهو ما يتم عن دنايته وحقرته .

لما من يتم مدحه مدحا كاذبا فإنه يصاب بأمرين سيئين، أولهما الغرور، وثانيهما سوء الفهم فيما يتعلق بنفسه، فهو يفرح بسماع مدحه، ثم يغتر بما قيل فيه، ويتكبر على الآخرين، ولكنة ما يسمع من مدح لنفسه فإنه يصبح على يقين أنه بالفعل مثل ما يقال فيه، ويتوقع أن يعامله الآخرون على هذا الأسس، وهكذا فإن المساوئ المضحكة التي تتولد في الملوك والأمراء والأثرياء والوجهاء بسبب المنافقة والمداينة نجد لها نظيرا في كل الأنوار التاريخية .

١ صحيح مسلم - باب انه يستحب لمن رأى غاليا بامرأة يقول هذه فلانة - صحيح البخاري تفسير سورة آل عمران . حدثنا عبد الله بن مسلمة بن قعنب حدثنا حماد بن مسلمة، عن ثابت البناني، عن أنس: أن النبي صلى الله عليه وسلم كان مع إحدى نسائه، فمر به رجل فدعاه، فجاء، فقال: يا فلان اهذه زوجتي فلاتة. فقال: يا رسول الله! من كنت أظن به، فكم أكن أظن بك، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إن الشيطان يجري من الإنسان مجرى الدم.

وقد رسم القرآن للكریم صورة لفرقة من المنافقین والیهود وأخبر بمصیرهم:
 " لا تحسبن الذين يفرحون بما آتوا ويحبون أن يحمدا بما لم يفعلوا فلا تحسبنهم بمفازة
 من العذاب، ولهم عذاب أليم " (آل عمران : ١٨٨) .

وسبب نزول هذه الآيات خاص، لكنه عام باعتبار أثره^(١)، ويعلم منه أن الغرور
 بما تفعل، وحب المدح بما لم تفعل أمر متي، بحيث يصعب النجاة من عذابة بغير
 توبة، وطبقا لمبادئ القرآن فإن من يساعد أحدا أو يعاونه في ارتكاب ذنب يكون مذنباً هو
 الآخر، هؤلاء الذين يقبلون هذا المدح للكانب شركاء في الذنب بدرجة أو بأخرى، وهو
 ما نعرف تفصيله من أحاديث نبوية كثيرة، ذات مرة سمع رسول الله صلى الله عليه
 وسلم رجلاً يمدح آخر مبالغاً في مدحه فقال: لقد خطمته^(٢) .

وذات مرة امتدح رجل صاحبه فبالغ في مدحه، فقال صلى الله عليه وسلم: لقد
 ضربت عنق صاحبك، فإن كنت ولا بد ممتكحاً أحداً فقل له: إني أظن كذا بشرط أن يكون
 معلوماً له أنه هكذا فعلاً، وأن لا تحكم على الغيب حكماً قطعياً^(٣) .

والغرض من هذا أن لا يغتر أحد إذا ما مدح بشكل مبالغ فيه، إذ سيفسد كلیة
 بعدها، وينفس الطريقة لا يجب إصدار حكم قطعي فيما يتعلق بآخر، إذ أنه لا يعرف ما
 بداخل القلوب، ولا الغيب إلا الله .

وهناك أمر آخر هو أن مدح أحد في وجهه قد يؤدي إلى أن يداخله شيء من
 الغرور، ويتراجع لديه العین التي ترقب للعيوب والمخاسن، ذات مرة مدح رجل سيدنا
 عثمان بن عفان في وجهه فنثر سيدنا المقداد الصحابي للتراب في وجهه وقال: قال
 رسول الله صلى الله عليه وسلم: إذا لقيتم للملحين فأنثروا للتراب في وجوههم^(٤)، وجاء

^١ فتح القدير للشوكاني .

^٢ سنن أبي داود - كتاب كراهية التمدح .

حدثنا أحمد بن يونس ثنا أبو شهاب، عن خالد الحذاء، عن عبد الرحمن بن أبي بكرة، عن أبيه أن
 رجلاً أتى على رجل عند النبي صلى الله عليه وسلم فقال له: قطعت عنق صاحبك ثلاث مرات ثم
 قال: إذا مدح أحدكم صاحبه لا محالة فليقل: إني أحسبه كما يريد أن يقول: ولا أزيهه على الله .

^٣ صحيح البخاري ومسلم وأبو داود - الباب المذكور .

^٤ باب نخشى في وجوه المداحين .

حدثنا محمد بن المثنى، ومحمد بن بشر، واللفظ لابن المثنى قالوا: حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا
 شعبة، عن منصور، عن إبراهيم، عن همام بن الحارث: أن رجلاً جعل يمدح عثمان فغصده للمقداد، فجنأ

في ألب المفرد أن النبي صلى الله عليه وسلم ذهب إلى المسجد ذات مرة فرأى رجلاً يصلي، فسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم من هو؟ فأخذ المسئول يمدح في الرجل، فقال صلى الله عليه وسلم لا تقل هذا أمامه فتفسده .

البخل

والبخل كذلك أحد العيوب الأخلاقية الأساسية، أي أنه عيب أخلاقي تترتب عليه عيوب أخلاقية كثيرة، كالخيانة وعدم الأمانة وفقدان الشهامة والقسوة في بعض الأحيان، وسوء السلوك والدناءة تنتج عن البخل، والحرص والطمع وضيق الأفق وقلة الهممة ودناءة الطبع وغيرها من العيوب للكثيرة ما هي إلا أخصان مختلفة لجذع واحد، ولما جاء الإسلام كان أول شيء فعله بعد القضاء على الكذب هو قطع دابر البخل وفرض إطعام الجائع وكسوة العاري ومساعدة المحتاج ورعاية اليتيم ومساعدة المدينين من جميع المسلمين، وأطلق على مجموعة لفروض هذه الزكاة ومصارفها وهي الركن الثاني للإسلام بعد الصلاة. حين قص رسول الله صلى الله عليه وسلم على السيدة خديجة رضي الله عنها حال نزول جبريل عليه كان من بين الأئمة التي أكنت بها السيدة خديجة رضي الله عنها لرسول الله صلى الله عليه وسلم على يقينها بنبوته ما قالت: يا رسول الله، إنك تعطي القرابة حقها وتؤدي دين المدين وتعين الفقراء وتكرم الضيف، وتعين على مصائب الحق (صحيح البخاري، باب بدء الوحي).

وعند التمعن تجد أن الشيء الخاص في كل هذه الصفات المبدئية للنبوة أن النبي لا يكون بخيلاً، وإلا لما كانت كل صفات الجود هذه من صفات النبوة .

والبخل واحد من العيوب الناتجة عن عدم الاعتقاد القلبي في الثواب والعقاب على الأعمال، لأن الذي لا يعتقد في الثواب والعقاب على الأعمال لا يمكن أن يعطي ماله الذي كسبه من جهده لأحد آخر بسهولة وسورة للمدثر من أوائل السور التي نزلت في بدايات النبوة وبها حوار مع أهل النار حين يسألون: لماذا أنخلتم النار؟ فيقولون: كنا لا نصلي ولا نطعم المسكين، وكنا نساعد المعارضين لدين الحق في الاعتراض عليه، وكان هذا كله لأننا لم نكن على يقين من الثواب والعقاب على الأعمال :

على ركبتيه، وكان رجلاً ضخماً فجعل يحثو في وجهه الحصباء، فقال له عثمان: ما شأنك؟ فقال: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: إذا رأيت المدلحين، فأحثوا في وجوههم التراب .

" ما سلككم في سقر قالوا لم نك من المصلين، ولم نك نطعم المسكين، وكنا نخوض مع الخائضين، وكنا نكذب بيوم الدين " (المنثر: ٤٦).

ويعلم من هذا أن صفة البخل تؤدي بصاحبها إلى جهنم، وأنها صفة تنتج بالضرورة عن عدم الاعتقاد بالثواب والعقاب على العمل، لأنه كما قيل من لا يعترف بالثواب والعقاب الديني لا يمكن أن يتعامل بكرم وسخاء مع الآخرين وهذا هو المعنى الذي جاء في سورة (الماعون) وهي من السور المكية الأولى، قال تعالى:

" أرأيت للذي يكذب بالدين فذلك الذي يدع اليتيم ولا يحض على طعام المسكين " (الماعون: ٤).

وهذا هو السبب في أنه لو تعامل أحد بكرم وسخاء دون أن يكون لديه يقين على الثواب والعقاب لا يقبل منه هذا، لأن هذا السخاء غير مبني على الإخلاص وحسن النية ولذلك يمثلان الشرط الأول للقبول، فلو أعطى الرجل البخيل لأحد شيئا فإنه يتوقع أن يحصل منه على شيء بالمقابل في هذه الدنيا، وحيثما يعلم أن توقعه هذا في غير محله لن يكون مستعدا لإنفاق مليم واحد، ومعنى هذا بوضوح أنه لا يقين في قلبه أن عند الله جزاء كل عمل طيب، وأنه لا يضيع أبدا.

وفي سورة مكية أخرى نكر الله تعالى رجلا رزقه قليل، وهو دائم الشكوى من الله بأنه يئله، فيقول الله: " كلا بل لا تكرمون اليتيم، ولا تحضون على طعام المسكين وتأكلون التراث أكلا لما، وتحبون المال حبا جما " (الفجر: ٢٠).

ونجد في الآيات السابقة عدة أمور يمكنها شرح لصور مختلفة من البخل، وقد رسمت سورة (الهمزة) صورة للبخل الذي يعد المال كأنه الإكسير للحياة الخالدة، ويتصور أنه بالثروة سينال الحياة الأبدية، وهذا الشيء لا يمكن أن يفارقه في حين أن هذا التصور غير ناضج، يقول تعالى :

"الذي جمع مالا وعدده، يحسب أن ماله أخذه، كلا لينبذن في الحطمة " (الهمزة: ٢-٤).

وهكذا فإن جمع المال وكنزه وعدم إنفاقه في طريق الخير يجعل صاحبه يقع تحت طائلة التهديد الذي جاء في القرآن بأن جلده سينزع من على جسده :

" كلا إنها لظى، نزاعة للشوى، يتدعون أدبر، وتولى، وجمع فأوعى " (المعارج: ١٨).

وينسى البخل أن المال والثروة ليعا مقصودين لذاتهما، وإنما هما وسيلة للحصول على الأشياء، فقوالب الذهب والفضة لا يمكن أن تتحول من نفسها إلى خبز وملابس

وبيوت، ولهذا فإن لا فائدة من كنزها وعدم إنفاقها في تحقيق الأهداف السامية، إنه لا يجمع لنفسه درهما ودينارا، وإنما يهيئ بذلك وصمة العار على صدره وجبينه. قال تعالى: "والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم يوم يحمل عليها في نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم هذا ما كنزتم لأنفسكم فنؤقوا ما كنتم تكنزون" (التوبة : ٣٤).

وهذا البخيل لا يرى أن الذهب والفضة ليسا ثروة للفرد وإنما ثروة للجماعة ويجب أن يستمر في الحركة والدوران، وأن يفاقهما وكنزهما يناقيا ما يريد الله تعالى، كما يضر بالجماعة التي هو أحد أعضائها :

"ولا يحسبن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله هو خيرا لهم بل هو شرا لهم، سيطوقون ما بخلوا به يوم القيامة" (آل عمران: ١٨٠).

أي أن الثروة التي جعل منها يبخله عقدا حول عنقه مستبدو في عالم المثال يوم القيامة كأنها عقد في عنقه حقيقة، وقد جاء في الحديث الشريف أن هذا المال سيكون بمثابة ثعبان سام حول عنقه "١).

والبخيل لا يحب الله ولا أعمال للخير أبدا، إذ أن محور حبه هو المال، ويعده هدف الحياة. يقول الله تعالى: إن أسأل هؤلاء للناس سيحرمون ثروة محبتي :

"والله لا يحب كل مختال فخور، للذين يبخلون ويأمرون للناس بالبخل" (الحديد: ٢٤).

والذي لا يحبه الله لا يحبه أحد أبدا، ولهذا فإن مثل هذا الشخص لا يحبه حتى أولاده وأهله وأقاربه وأصدقائه، وهؤلاء للناس كما قال الله تعالى كثيرا ما يكذبون معترزين بمالهم وثروتهم متفاخرين بها، ويعدون من سواهم أذلاء، وتكون النتيجة أن يصبحوا أذلاء حقيرين في نظر الله ونظر عباده، وكبر مثال على البخل جاء في القرآن الكريم كان لقارون، والتي وردت قصته في سورة (القصص)، كان قارون في عصر سيدنا موسى عليه السلام، وفردا من قومه، وكان غنيا حتى أنه في ذلك العصر الأول للمدينة كان

١ صحيح البخاري - كتاب الزكاة .

حدثني عبد الله بن مثير، سمع أبا التضر: تحدثنا عبد الرحمن، هو ابن عبد الله بن دينار، عن أبيه، عن أبي صالح، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (من آتاه الله مالا يؤد زكاته مثل له ماله شجاعا، لقرع به زبيبتان، يطوقه يوم القيامة يأخذ بلهزمتيه - يعني بشدقيه - يقول: أنا ملك أنا كنزك). ثم تلا هذه الآية: "ولا يحسبن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله". إلى آخر الآية.

يصنع للقلل الواحد مفتاح واحد، ويعلم الله كم يكون هذا المفتاح ثقيلاً وقبيحاً، أما مفاتيح خزائنه فكان يحملها عدة رجال مجتمعين وبصعوبة شديدة، وبدلاً من أن يشكر الله تعالى أن لنعم عليه من فضله وكرمه وجعله ثرياً، يراه يقول إن هذا المال وهذه الثروة نتيجة لجهده وعمله هو ولم يكن يدري أن كثيرين من الذين هم أغني منه في هذه الدنيا قد فارقوها، وكانت عاقبتهم سيئة وهكذا كانت عاقبة قارون وثروته بأن غاصت في الأرض، قال تعالى:

"لم يعلم أن الله قد أهلك من قبله من القرون من هو أشد منه قوة وأكثر جمعا" (القصص: ٧٨).

وكان قارون العصر النبوي هو أبو لهب وقد بشره الله تعالى بنفس ما سبق، وقال له في وضوح:

"ما أغني عنه ماله وما كسب" (سورة المناد: ١).

وكون بعض أفراد الأمة أغنياء لا يمكن أن يكون سبباً في الخير لهؤلاء أو لقومهم طالما لم ينفق هذا المال على الجماعة وفي تلبية احتياجاتها، والبخيل يريد أن يستفيد هو فقط من هذا المال كله، وتكون النتيجة أن يصبح هذا الجزء الذي يملكه من المال لا فائدة منه ويضر بالجماعة التي هو أحد أفرادها:

"ها أنتم هؤلاء تدعون لتنفقوا في سبيل الله، فمنكم من يبخل، ومن يبخل فإنما يبخل عن نفسه، والله الغني وأنتم الفقراء" (محمد: ٣٨). أي أنه سيعاني نتيجة بخله وشحه.

والرجل البخيل في هذه الحياة يظل في مشاكل ومصائب مستمرة فلا يتيسر له طعام جيد رغم أن لديه كل شيء، كما لا يتيسر له شراب جيد ولا ملابس جيدة ولا بيتاً جيداً، ولا عزة أو كرامة، ويعتبره الجميع ذليلاً، الجميع ينفر حتى من اسمه والفقراء يدعون عليه، بل إن زوجته وأولاده الذين يفعل ما يفعل من أجلهم لا يكونون سعداء معه، كل واحد يتمني ثروته، ويود لو تخلص من هذا الثعبان الذي يحرس الخزان حتى يستولي هو عليها، والصوص يتبعونه، وكذا قطاع الطرق، هناك من يريد أن يسمعه، ومن يريد قتله، ولكنه يتحمل كل هذه المصائب، ولا يسمح بالإنفاق من المال طالما كان حياً، ولهذا فبمجرد أن يموت يضيع وزنته كل ما جمع، بل إن الأكثر من ذلك أن أولاده الذين جمع كل هذا المال من أجلهم متحملاً كل المصائب في سبيل ذلك هم أول من يضيع هذا المال

في لحظات، بالإضافة إلى ما ينشأ فيهم من عادات وطبائع سيئة جنباً إلى جنب مع إفلاسهم. يقول تعالى لرسوله :

" وأما من بخل واستغنى وكذب بالحسنى، فسنبصره للعسرى، وما يغني عنه ماله إذا تردى " (الليل : ٨) .

هذا العمل الصعب الذي يسره الله له كعقاب هو تلك العادات والخصال السيئة التي يظل أسيراً لها طيلة حياته ولا تسمح له بأن ينفق شيئاً من ماله يقوم هو بهذا العمل وبسهولة ويسر، يظل جائعاً، عارياً، فقيراً، يتحمل المصائب، لا يستريح ليلاً ولا يستمتع بشيء من الدنيا، ولا يسعد بأقربيه وأعزائه ولا بأصدقائه وأحبائه، يشكو منه الجميع ثم عندما يقع في مشكلة، أو يموت، أو يدخل جهنم لا يفيد أعزؤه ولا أحبائه ولا ثروته شيئاً، وعندئذ يندم مع أن الله حذره قبلاً :

" وأنفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتي أحدكم الموت فيقول رب لولا أخرتني إلى أجل قريب فأصدق وأكن من الصالحين " (المنافقون : ١٥) .

ويجيبه الله تعالى أن هذا غير ممكن، فهذا ليس وقت التأجيل والتأخير، وكان يجب عليه أن يستعد لهذا من قبل. وهناك بعض الناس عندما يصيبهم الفقر تراهم يدعون الله تعالى أن يغنيهم، ويدعون أن أكرمهم الله من فضله، فيسفلون كذا وكذا، ولكن إذا أعطاهم الله تعالى المال والثروة نسوا كل ما قطعوا على أنفسهم من عهود، وغيضوا الطرف عن كل طرق الخير، أمثال هؤلاء رسم الله تعالى لهم صورة في القرآن هكذا :

" ومنهم من عاهد الله لئن آتانا من فضله لنصدقن ولنكونن من الصالحين، فلما آتاهم من فضله بخلوا به وتولوا وهم معرضون " (التوبة : ٧٥) .

ويقول تعالى أن بخلهم هذا أعقبهم نفقا في قلوبهم :

" فأعقبهم نفقا في قلوبهم " (التوبة : ٧٧) .

ويعظم من هذا أن شدة البخل تقسد الإيمان أيضاً وربما من أجل ذلك قال صلى الله عليه وسلم إن هناك خصلتين لا يجتمعان في مؤمن أبداً وهما البخل وسوء الخلق^(١)، ومن الصفات السيئة التي كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعو الله تعالى

^١ جامع الرمزي .

لأن ينجيه منها أي صفة للبخل فكان صلى الله عليه وسلم يقول: اللهم إني أعوذ بك من
البخل والكسل والهرم وعذاب القبر وابتلاءات الموت والحياة (١) .

وللزكاة أهمية كبيرة في الإسلام، وفرض الزكاة والترغيب في الصدقات من
الشريعة المحمدية، وكان ذلك حتى تظل القلوب طاهرة نقية من قذارة وندس كل الصفات
والخصال السيئة، ولتعلم كذلك أن البخل ليس مجرد عدم أداء الحق الظاهري للمال
والثروة فقط، بل يمتد ذلك إلى كل ما من الله به على الإنسان من فضله، على سبيل المثال
إذا من الله بالعلم على أحد، أو بالقوة الجسدية، ولم يؤد حق هذه النعم عليه فهو
بخيل، ويستحق العقاب على قدر بخله، فمن من الله عليه بالعلم عليه أن ينشر هذا
العلم، وأن يقول للناس أن من لم يفعل فهو بخيل في العلم، إذ أن كتمان العلم ذنب :
" ومن أظلم ممن كتم شهادة عنده من الله " (البقرة : ١٤٠) .

وجاء في الحديث الشريف أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: إن الأكثر
سخاء وجودا بعد الله تعالى هو الذي يتعلم العلم ويعلمه (٢)، ولهذا فإن من تعلم العلم ولم
يؤد حقه فهو لا محالة من البخلاء .

وقد قيل كثيرا إن الإسلام قسم الأعمال بعد الإيمان إلى قسمين هما: حقوق الله
وحقوق العباد، والصلاة تجمل حقوق الله بينما تجمل الزكاة حقوق العباد، بمعنى رعاية
المستحقين للرعاية والإحسان، ولتنتظر إلى الآيات التالية، وستجد أن عدم الوفاء بهذين
للقسمين من الحقوق سبب في دخول جهنم :

" ما سلكم في سقر، قالوا لم نك من المصلين، ولم نك نطعم المسكين " (المائدة : ٤٤) .
فالذنب الأول هو الاعتراف عن أداء حقوق الله بينما الذنب الثاني هو الإهمال في حقوق
العباد، وهذا هو ما جاء في آخر سورة (الماعون) :

" قول للمصلين الذين هم عن صلاتهم ساهون، والذين هم يراعون ويمنعون الماعون " .
الأمر الأول هو الغفلة عن الصلاة، فلا يؤدون الصلاة لوقتها، وإنما يؤدونها لمجرد
المراءاة، وهذا للتعاقل عن حقوق الله، الأمر الثاني هو البخل في تلبية مقتضيات الحياة

١ صحيح مسلم .

حدثنا خالد بن مخلد: حدثنا سليمان قال: حدثني عمرو بن أبي عمرو قال: سمعت أنسا قال: كان النبي صلى الله عليه وسلم
يقول: (اللهم إني أعوذ بك من الهم والحزن، والعجز والكسل، والجبن والبخل، وضلع الدين، وبلة الرجال) .

٢ المشكاة - كتاب العلم .

العادية فيما بين الناس حين يطلبونها مثل للملح والنار والماء وغيرها من الأشياء العادية، وهذا هو التغافل عن حقوق العباد. ويعلم من هذا الشرح أن البخل سبب في عدم تطبيق جزء كبير من الشريعة الإسلامية، ولهذا فإنه مهما قيل عن البخل فهو قليل .

الحرص والطمع

الحرص والطمع عيب يظهر من خلاله وبوضوح نداء النفس، وخاصة ذلك الطمع الذي يداخله بخل أيضا، وهو ما يطلقون عليه في العربية (شح) وقد تحدث القرآن الكريم عن مساوئه في مواضع عديدة منه، وأكثر للمشاكل العائلية تكون نتيجة لهذا العيب، فرب البيت لا يريد أن يعطى أكثر وأهل البيت يطلبون أكثر، الأزواج يحبون مالههم ولهذا لا ينفقون منه كثيرا، وللزوجات يطلبن بطمع كبير، أو يكون لشخص أكثر من زوجة فتحرص كل منهن على أن يكون لها أكثر للحقوق على زوجها، بينما يحرص الزوج على حقوق من يحبها، وهنا يحدث الشقاق في الأمور الزوجية، ويواجه البيت كله مشاكل نفسية وروحانية، وعلاج كل هذا أن يتبنى الجميع سلوك الإيثار والإحسان فيما بينهم، وأن يعتبر كل واحد من المجموع راحة الآخر وتعبه راحته هو وتعبه هو، عندئذ يتحول البيت الذي كان مقرا للأحزان إلى بيت سعيد، وقد قال القرآن الكريم فيما يتعلق بالاختلافات الزوجية:

"وأحضرنا الأنفس الشح، وإن تحسنوا وتتقوا فإن الله كان بما تعملون خبيرا" (النساء: ١٢٨).

أي أن يتخلى الزوج والزوجة عن الحرص والطمع، وسلكون طريق الإحسان والتقوى، وسوف يجازي الله تعالى الجميع حسب أعمالهم، وهو عالم بكل شيء. ولكل شيء في هذه الحياة عملية جانب اقتصادي، ولن يحقق أي إنسان نجاحا دينيا أو دنيويا طالما لم يتخل عن حرصه وطمعه وينفق ماله في الأعمال الصالحة، يقول تعالى: "وانفقوا خيرا لأنفسكم، ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون" (التغابن: ١١). وفي موضع آخر يصف الله سبحانه وتعالى أولئك المسلمين الذين يقدمون احتياجات الآخرين على احتياجاتهم فيقول: "ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة، ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون" (الحشر: ٩).

وهذا هو الإيثار الذي هو أساس النجاح الدنيوي والدنيوي لكل أمة، هو ما لن يتوفر لأحد طالما لم يتخلص من حرصه وطمعه، ولهذا قال تعالى أن الذين سيخلصون من طمعهم سينجحون، والطماع لا ينفق ماله فقط، وإنما يضع عينيه على مال الآخرين متمنيا لو امتلكه كله، وقد حرم الله مثل هذا التمني، إذ أن به عيبين أخلاقيين آخرين وهما البخل والحسد، قال تعالى:

"ولا تتمنوا ما فضل الله به بعضكم على بعض، للرجال نصيب مما اكتسبوا وللنساء نصيب مما اكتسبن، واسألوا الله من فضله، إن الله كان بكل شيء عليما" (النساء: ٣٢). أي إذا كان الله قد منح أحدا تميزا في أمر ما فلا يتمنى آخر هذا التميز طمعا فيه قائلا لنفسه كيف حصل هذا على التميز، وإنما يجب على الإنسان أن يمد يديه إلى الله تعالى طالبا من فضله وكرمه، فإن كان له فيه خير فسوف يمن الله عليه، واتباع هذا الأمر يخلق في النفس القناعة، ويخلصها من الحسد، ولهذا قال تعالى:

"ولقد آتيناك سبعا من المثاني والقرآن العظيم، ولا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجا منهم" (الحجر: ٨٨).

أي أن من كتبت له ثروة مثل القرآن فلا قيمة لأي شيء دنيوي آخر في نظره. والحرص والطمع هما اللذان يحرضان شخصا على قتل آخر أو سلبه ماله، وقد قال صلى الله عليه وسلم لأصحابه "تجنبوا الحرص والطمع فهو الذي حطم من كانوا قبلكم، هو الذي حرضهم على القتل، وتحريم الحلال" (١)، هذه رواية صحيح مسلم، وقد جاءت هذه الرواية أكثر تفصيلا في صحيح ابن حبان، والحاكم، فقال صلى الله عليه وسلم: "تجنبوا الطمع فهو الذي دعا من كان قبلكم إلى قتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، وهو الذي دعا من كان قبلكم إلى تحليل الحرام" (٢)، وقال - صلى الله عليه وسلم - في

١ - صحيح مسلم - باب تحريم الظلم.

حدثنا عبد الله بن مسلمة بن قعنب، حدثنا دلود يعني: ابن قيس، عن عبيد الله بن مقسم، عن جابر بن عبد الله: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "اتقوا للظلم، فإن الظلم ظلمات يوم القيامة، واتقوا الشح فإن الشح أهلك من كان قبلكم، حملهم على أن سفكوا دماءهم واستحلوا محارمهم".

٢ - صحيح ابن حبان ومستدرک الحاكم.

أخبرناه أبو الحسن محمد بن أحمد القطري، ثنا أبو قلابة، ثنا أبو عاصم، عن ابن عجلان، وحدثنا أبو بكر بن إسحاق - واللفظ له - أخبرنا أحمد بن إبراهيم بن ملحان، ثنا ابن بكير، حدثني الليث، عن محمد بن عجلان، عن سعيد بن أبي سعيد المقبري، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه

إحدى خطبه "تجنبوا الطمع، فقد هلك من كان قبلكم به، فهو الذي جعلهم يقطعون ما أمر الله به أن يوصل، وهو الذي جعلهم ييخلون، وهو الذي جعلهم يفسقون ويفجرون" (١) وقال صلى الله عليه وسلم: "أن أسوأ ما في الإنسان هو الطمع وعدم للشهامة والمروءة" (٢).

والإنسان الطماع يئن دائماً ويتألم لما لم يحصل عليه من الأشياء الموجودة عند غيره وليست عنده، ولهذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الحرص والطمع أنهما يسببان الهموم والآلام الدائمة للإنسان.

جاء في صحيح النسائي أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "لا يجتمع الإيمان والبخل في قلب مؤمن أبداً" (٣)، والسبب واضح وهو أن نتيجة الإيمان الكامل هي الصبر والتوكل والقناعة، أما الطمع نتيجة للقلق والاضطراب والهوس، وذات مرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "يشيخ الإنسان ولا يشيخ لديه شيان أبداً الرغبة في الحياة والطمع في المال" (٤)، وقال كثير من الصحابة أن للنبي صلى الله عليه وسلم قال: "إن المال والطمع فيه يهلكان دين الإنسان وإيمانه مثلاً يهلك ثوبان قطيعاً من الغنم" (٥).

وسلم: إياكم والفحش والتفحش، فإن الله لا يحب الفاحش المتفحش، وإياكم والظلم، فإنه هو الظلمات يوم القيامة، وإياكم والشح فإنه دعا من قبلكم فسلكوا دماءهم، ودعا من قبلكم فمستحلوا حرماتهم.

^١ صحيح ابن حبان و أبو داود - كتاب الجهاد - باب الجرأة و الجبن .

^٢ أبو داود و الحاكم .

^٣ النسائي .

أخبرنا إسحق بن إبراهيم قال: حدثنا جرير عن سهيل، عن صفوان بن أبي يزيد، عن القعقاع بن اللجلاج، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: لا يجتمع غبار في سبيل الله ودخل جهنم في جوف عبد أبداً، ولا يجتمع الشح والإيمان في قلب عبد أبداً.

^٤ - الترمذي .

حدثنا قتيبة حدثنا أبو عوانة، عن قتادة، عن أنس بن مالك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: يهرم ابن آدم ويشب منه ثنتان الحرص على العمر والحرص على المال.

^٥ - الترمذي و صحيح ابن حبان والطبراني وأبو يعلى ويزار المنذري.

عدم الضمير

تتفق شرائع الدنيا وقوانينها على أن كل شخص يملك ماله، وله الحق في التصرف فيه ولا يحق لأحد آخر أن يستغل ممتلكات الآخر دون إذن منه، وطبقاً لهذا المبدأ فإن ممتلكات الأشخاص محفوظة وأمنة، ونظام الأمن في الدنيا قائم، فإذا ما أراد شخص الاستيلاء على حق الآخرين بالسرقة أو الخداع أو عنوة فإنه بذلك يريد أن يربك نظام الفطرة في العدل، وقد وضع الإسلام نظام العدل هذا باعتباره مبدأ في آية مختصرة فقال:

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ^(١) (النساء: ٢٩).

فقد قصت هذه الآية في ألفاظها للقلائل على كل الوسائل التي تخالف الأمانة والضمير، والتي لا حد لجزئياتها وتفاصيلها، بمعنى أن هذه الآية تنطبق على كل من أراد الاستيلاء على مال الغير بطريقة غير جائزة سواء بالخداع والكذب، أو بالظلم والقوة أو بالغصب أو بالسرقة أو بالخيانة أو بالرشوة أو بالربا، أو بأي وسيلة أخرى غير جائزة. وقد قال صلى الله عليه وسلم: "من رفع السلاح علينا (على المسلمين) أو غشنا (نحن المسلمين) فليس منا (نحن المسلمين)"^(٢). والنفس والمال شيئان مهمان في المعاملات، وقد بين هذا الحديث المختصر لرسول الله صلى الله عليه وسلم أهمية الحفاظ عليها، ذات مرة كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يمر من السوق إذ رأى كومة من الحبوب ملقاة، فوضع رسول الله صلى الله عليه وسلم يده فيها فعرف أنها مبللة بالماء من الداخل، وجافة من الخارج، فسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم صاحبها ما هذا؟! فقال: يا رسول الله، بلله المطر، فقال صلى الله عليه وسلم: فلم لا تكشفه أمام الناس، حتى يزونه، من غش فليس مني^(٣)، وتقطع علاقته برسول الله صلى الله عليه وسلم.

^١ - صحيح مسلم - كتاب الإيمان - باب من حمل علينا السلاح فليس منا.

حدثنا قتيبة بن سعيد، حدثنا يعقوب وهو: ابن عبد الرحمن القاري وحدثنا أبو الأحوص محمد بن حبان، حدثنا ابن أبي حازم، كلاهما عن سهيل بن أبي صالح، عن أبيه، عن أبي هريرة: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: من حمل علينا السلاح فليس منا، ومن غشنا فليس منا.

^٢ - صحيح مسلم - كتاب الإيمان - باب من غش فليس منا.

وحدثنا يحيى بن أيوب وقتيبة وابن حجر، جميعاً عن إسماعيل بن جعفر، قال ابن أيوب: حدثنا إسماعيل، أخبرني العلاء عن أبيه، عن أبي هريرة: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم مر غني صبراً

وقال صلى الله عليه وسلم: "من حلف كذبا ليستولي على مال مسلم بغير حق فسيقتل الله وهو عليه غاضب" ^(١). وذات مرة أراد رجل أن يحلف في أمر مشابه لما ذكرنا فقال صلى الله عليه وسلم إن كان أقسم ليستولي على المال ظلما فسيعرض الله عنه حين يلقاه ^(٢).

والاستيلاء على مال وممتلكات لغير بالقوة يسمى غصبا، والغصب فعل ظالم، وقد ذكر أحد الملوك في قصة سيدنا موسى وسيدنا الخضر كان يستولي بالقوة على مراكب وسفن الصيادين، قال الله على لسان الخضر:

"أما السفينة فكانت لمساكين يعملون في البحر فأردت أن أعيبها، وكان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة غصبا" (الكهف: ٧٩).

هذا عيب واضح يكفينا بيانه، وليس هناك حاجة لكي نقول أنه عيب، يروي الصحابي سيدنا سعيد بن زيد أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "من استولى على قدر شبر من أرض آخر طوقه الله في سبع أراضٍ، وميقال له أحمل من كل طبقة من طبقات الأرض السبع قدر ما حملت مما استوليت عليه من الأرض، ومقصد هذا الحديث هو أن طبقات الأرض السبع مستحيط بعنقه مثل للعقد" ^(٣).

طعام ، فدخل يده فيها، فثالث أصابعه بثلاث، قال: ما هذا يا صاحب الطعام؟ قال: أصابعه السماء يا رسول الله! قال: أفلا جعلته فوق الطعام كي يراه الناس؟ من غش فليس مني.

^١ - مسلم - كتاب الإيمان - باب من قطع حق مسلم .

وحدثنا ابن أبي عمر المكي، حدثنا سفيان عن جامع بن أبي راشد، وعبد الملك بن أعين سمعا شقيق بن سلمة يقول سمعت ابن مسعود يقول: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "من حلف على مال امرئ مسلم بغير حقه، بلى الله وهو عليه غضبان".

^٢ - صحيح مسلم - كتاب الإيمان - باب من قطع حق مسلم .

حدثنا قتيبة بن سعيد، وأبو بكر بن أبي شيبة، وهناد بن عمار، وعاصم الحنفي، واللفظ لقتيبة قالوا: حدثنا أبو الأحوص، عن سماك، عن علقمة بن وائل، عن أبيه، قال: جاء رجل من حضرموت ورجل من كندة إلى النبي صلى الله عليه وسلم، فقال الحضرمي: يا رسول الله إن هذا قد غلبني على أرض لي كانت لأبي. فقال الكندي: هي أرضي في يدي أزرعها ليس له فيها حق. فقال النبي صلى الله عليه وسلم: ألك بينة؟ قال: لا. قال: فأك يمينه. قال: يا رسول الله إن الرجل فاجر لا يبالي على ما حلف عليه، وليس يتورع من شيء. فقال: ليس لك منه إلا ذلك فأتطلق ليحلف. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: لما أبصر: أما لأن حلف على ماله ليأكله ظلما، فيلقي الله وهو عنه معرض.

^٣ - صحيح مسلم - باب تحريم الظلم و غصب الأرض، وقد وردت هذه العبارة بأكثر من طريقة .

وأكثر أنواع عدم الضمير شيوعاً هو ما يتعلق بالقضايا في المحاكم، فكم من الناس يستولون على ممتلكات الآخرين ظلماً بقوة مرافعة المحامي، في حين أنهم يعرفون جيداً أن هذه ليست ممتلكاتهم. وقد قال صلى الله عليه وسلم: "قد يكون أحد الفريقين للسنن من الآخر و يعرض دعوته جيداً فأحكم له، فإذا كان ما حكمت به ليس من حقه فلا يأخذه لأنتي أعطيتَه قطعة من جهنم" (١).

وبعض الذين لا ضمير لهم يزعمون أن للفريق الآخر على حق، ولكن ليس لديه دليل أو شهادة أو وثيقة مكتوبة، فيرفعون القضية أمام الحاكم، ويثبتون بطلان ادعاء الفريق الآخر:

"ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل وتدلوا بها إلى الحكام لتأكلوا فريقاً من أموال الناس بالإثم وأنتم تعلمون" (البقرة: ١٨٨).

يعني أنتم تعرفون أن قرار الحاكم خاطئ طبقاً لدعواكم، وهكذا فإنه لا يجب الاستيلاء على أموال الضعفاء لكونهم ضعفاء، أو لأنهم تحت إمرتنا، ومن يفعل ذلك فكأنما يملأ بطنه بجمرات النار:

"الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً إنما يأكلون في بطونهم نارا وسيصلون سعيراً" (النساء: ١٠).

السرقة

السرقة هي اسم لتلك الحركة اللئيمة التي يتم بها إخفاء أشياء الآخرين والاستيلاء عليها دون إنهم يهوي أسوأ الأمور في هذا المجال، ولهذا كان جزاؤها عظيماً وهو قطع اليد:

"والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاء بما كسبا نكالا من الله والله عزيز حكيم" (المائدة: ٣٨).

والسبب في قبح السرقة ليس هو الاستيلاء على مال الغير خفية دون إذن من صاحبه فقط، وإنما أيضاً هو أن يأتي شخص دون تعب فيستولي على ما جمعه آخر بجهد

وحدثني زهير بن حرب، حدثنا جرير، عن سهيل، عن أبيه، عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: لا يأخذ أحد شبراً من الأرض بغير حقه، إلا طوقه الله إلى سبع أرضين يوم القيامة.

١ - شرح نوادي على مسلم - الحديث المذكور.

وتعجب، وإذا لم يتم التحكم في هذه الأمور وضبطها فلن يتمتع أحد بكسب يده، وبالإضافة إلى هذا فإن هذا العيب الخلقي يضم بداخله عيوباً عديدة.

والدخول إلى بيوت الآخرين بغير داعٍ والتفحص فيما تضمنه بداخلها يظهر مدى خبث باطن من يقوم بهذا، ومن الممكن أن تسفك الدماء في السرقة، وتضييع الأرواح البريئة، لأن اللص يستولي على أموال كثيرة ويغير جهد جائز حلال لهذا فإنه يضيعه وبنفس السهولة أيضاً ولا يستفيد منه إلا قليلاً، بل إن الجزء الأكبر من هذه الثروة الحرام تضيع في إخفاء معالمها.

وكان هذا العيب الأخلاقي منتشراً بين العرب، وربما كان ذلك بسبب الفقر المنتشر حينئذ، وكان منتشراً لدرجة أن الإسلام اعتبر أخذ البيعة على من يسلم أن لا يسرق، وقد جاءت عدة أمور في سورة (الممتحنة) كان يؤخذ للعهد على السيدات اللاتي يردن الدخول في الإسلام على ألا يأتينها يومنها (ألا يسرقن) وحين أرادت نسله مكة للدخول في الإسلام يوم فتح مكة أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم عليهن هذا العهد، وعندئذ سألت السيدة هند زوجة أبي سفيان رسول الله صلى الله عليه وسلم قائلة: يا رسول الله إن أبا سفيان رجل بخيل، ولا ينفق علي وعلى أولاده إنفاقاً معقولاً، فأخذ من ماله خفية، فقال صلى الله عليه وسلم: نخذي من ماله بقدر ما يكفيك أنت ولولائك^(١)، ويعلم من هذه الرواية أمران، أولهما أن للحماس للإسلام يخلق ثورة أخلاقية لدى المسلمين، ولا فكيف للسيدة هند أن تكشف أمر لرب بيتها بسهولة هكذا، والثاني هو أننا إذا لم ننفق على من تجب علينا نفقته فأخذ من مالنا بقدر حاجة لا يعد هذا سرقة.

ولم يأخذ النبي صلى الله عليه وسلم هذا العهد على النساء فقط، وإنما أخذه على الرجال أيضاً، يقول الصحابي سيدنا عباد بن الصامت رضي الله عنه ذات مرة كنا جلوساً عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: عاهدوني على ألا تشركوا ولا

^١ صحيح البخاري - كتاب النفقات .

حدثنا أبو نعيم: حدثنا سفيان، عن هشام، عن عروة، عن عائشة رضي الله عنها: قالت هند أم معاوية لرسول الله صلى الله عليه وسلم: إن أبا سفيان رجل شحيح، فهل علي جناح أن آخذ من ماله سرا؟ قال: (خذي أنت وبتوك ما يكفيك بالمعروف).

تسرقوا ولا تزنوا، ثم قرأ الآية، ثم قال: "فمن وفى بهذا العهد فأجره على الله، ومن خالف شيئاً فيه وعوقب عليه فإن أمره في يد الله إن شاء عفا عنه وعن شاء عقابه" (١).

ذات مرة لعن رسول الله صلى الله عليه وسلم السارق فقال: "لعن الله

السارق يسرق حبلاً فتقطع يده".

والعبد يرتكب السرقة لأنه لا يقين له على أن الله يراه، أو أن يقينه هذا يتوارى عند ارتكابه هذا الفعل، فيعتقد أنه طالما لا يراه الناس فإن الله لا يراه أيضاً، ولهذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: لا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن" (٢).

وقال صلى الله عليه وسلم في خطبة حجة الوداع الشهيرة: "إن أموالكم عليكم حرام إلا بالحق" (٣)، فإذا أخذنا من مال الآخرين لا بد أن يكون برضاهم، أو أن يكون مقابل عمل توديه، وهذا هو ما جاء في الآية القرآنية الكريمة:

١ - صحيح البخاري - كتاب الحدود.

حدثنا أبو اليمان قال: أخبرنا شعيب، عن الزهري قال: أخبرني أبو إدريس عائذ الله بن عبد الله: أن عبادة بن الصامت رضي الله عنه، وكان شهد بدر، وهو أحد النقباء ليلة العقبة: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال، وحوله عصابة من أصحابه: (يا أيها الناس، لا تشركوا بالله شيئاً، ولا تسرقوا، ولا تزنوا، ولا تقتلوا أولادكم، ولا تاكلوا بيهتان تفترونه بين أيديكم وأرجلكم، ولا تعصوا في معروف، فمن وفى منكم فأجره على الله، ومن أصاب من ذلك شيئاً فعوقب في الدنيا فهو كفارة له، ومن أصاب من ذلك شيئاً ثم ستره الله فهو إلى الله، إن شاء عفا، وإن شاء عقابه). فبإيضاؤه على ذلك.

٢ - المرجع السابق.

حدثني عمرو بن علي، حدثنا عبد الله بن داود، حدثنا فضيل بن غزوان، عن عكرمة، عن ابن عباس رضي الله عنهما، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن).

٣ - المرجع السابق.

حدثني عبد الله بن محمد، حدثنا أبو عامر، حدثنا قرّة، عن محمد بن سيرين قال: أخبرني عبد الرحمن بن أبي بكرة، عن أبي بكرة، ورجل أفضل في نفسي من عبد الرحمن، حميد بن عبد الرحمن، عن أبي بكرة رضي الله عنه قال: (إن دماءكم وأموالكم عليكم حرام، بحرمه يومكم هذا، في شهركم هذا، في بلدكم هذا، إلى يوم تلقون ربكم، ألا هل بلغت).

"يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل إلا أن تكون تجارة عن تراض منكم" (النساء: ٢٩).

وهذه الآية تعد أساسا ومبدءا، حيث حرمت كل مال يحصل عليه من طريق غير جائز. كانت هناك امرأة من قبيلة مخزوم للعربية، وكانت تأخذ الأشياء من الناس وتكرها، أخذتها، وعرض الأمر على رسول الله صلى الله عليه وسلم فأمر بقطع يدها، وكانت امرأة من عائلة كبيرة، فتوسط لها كبار القوم عند رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولكنه صلى الله عليه وسلم قال: "إنما هلك من كان قبلكم إذا سرق فيهم الضعيف عاقبه، وإذا سرق فيهم الأقوياء تركوه". ولذي نفس محمد بيده لو أن فاطمة بنت محمد سرت لقطع محمد يدها".

كان أحد الصحابة يضع رداءا تحت رأسه وهو نائم فجاء لص وسحب الرداء بخفة من تحت رأسه، فقبض على اللص وجيء به إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فتوسط الصحابي للص عند رسول الله صلى الله عليه وسلم قائلا: يا رسول الله، إن قيمة هذا الرداء ثلاثون درهما، هل ستقطع يده لقاء ثلاثين درهما، لقد بعته هذا الرداء، موثمه في نمته، فقال صلى الله عليه وسلم: لم لم تفعل هذا قبل أن يعرض الأمر علي".

وذات مرة كان رسول الله صلى الله عليه وسلم في الصلاة، فعرضت عليه الجنة والنار، فلما فرغ من الصلاة قال: لقد رأيت في جهنم ذلك الذي يسرق أشياء الحجيج إذا غفلوا، فإذا تنبهوا إليه قال إنما كان ذلك صدفة ودون قصد للسرق، فإذا ما غفلوا ذهب بما أخذ، قال صلى الله عليه وسلم: رأيت يجر لمعاه في جهنم".

التطفيف في الميزان

والقسم العام المعروف من السرقة هو ما تقطع بسببه يد السارق كحكم من أحكام الشريعة والذي نمه الدين ونمته الأخلاق على السواء، لكن تعاليم الإسلام تطرقت إلى أشياء دقيقة في المعاملات غير الشرعية والتي لا يعدها الناس سرقة، فشرحها الإسلام ووضح سوءها، وأظهر رسول الله صلى الله عليه وسلم بفعله أهميتها وأكد على تجنبها.

وأهم الأشياء في هذا السياق هو التطفيف في الميزان، وهو ما يواجهه الناس في كل وقت، ويقع فيه التجار والبائعون، وأكثر من يلحقهم الضرر في هذا الأمر هم

الفقراء، وهناك قانون العدل من بين قوانين الفطرة، ومبدؤه هو أن يعطي كل ذي حق حقه، وهذا هو الميزان الذي أقامه الله تعالى في الدنيا، والذي يجب أن ينال كل شخص حقه طبقاً له، فمن لم يعط الناس حقوقهم، أو انتقص منها فإنه بذلك يتجاهل هذا الميزان. قال تعالى: "واليساء رفعها ووضع للميزان، ألا تطفوا في الميزان، وأقيموا الوزن بالقسط ولا تخسروا الميزان" (الرحمن: ٧).

وهذا الميزان يزن أقوال الإنسان وأفعاله، والمساواة فيه تحافظ على نظام الدنيا، والحقيقة أن للتطفيف في الميزان هو عدول على حقوق الآخرين، فذلك الذي يزيد في الميزان حين يأخذ ويطلق فيه حين يعطي إنما يستولي على مال الآخرين بدون وجه حق، وهذا في ذاته سرقة، ولهذا أكد القرآن الكريم على ضرورة تجنب هذا الأمر، وكان قوم شعيب يعملون بالتجارة، ولهذا جاء تأكيد دائم في دعوته على مسألة الميزان هذه، فكان شعيب عليه السلام يقول لهم:

"أوفوا الكيل ولا تكونوا من المخسرين، وزنوا بالقسطاس المستقيم ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تعثوا في الأرض مفسدين" (الشعراء: ١٨٢).

وهذا هو ما كان يقوله سيدنا شعيب لأهل مدين الذي كانت ديارهم تقع في طريق القوافل التجارية من الشرق والغرب:

"ولا تنقصوا المكيال والميزان، إني أراكم بخير، وإني أخاف عليكم عذاب يوم محيط، وبما قوم أوفوا المكيال والميزان بالقسط ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تعثوا في الأرض مفسدين" (هود: ٨٤).

وتخبرنا هذه الآية أن للخير والبركة يزولان بسبب التطفيف في الكيل والميزان، أو إذا نظرت إلى الظاهر قل إن هؤلاء الذين يطففون في الميزان لا كرامة أو احترام لهم، ويصبحون في نهاية الأمر سبباً في خراب التجارة، وهم يريدون زيادة مكاسبهم بهذا الغش والتطفيف، لكن الذي يحدث أن عيبهم الأخلاقي هذا يكون مقنعة لمارهم اقتصادياً ومادياً.

وقد تكررت نصيحة سيدنا شعيب هذه في سورة (الأعراف)، قال تعالى: "فلوفوا للكيل والميزان ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تعسوا في الأرض بعد إصلاحها، فذلكم خير لكم إن كنتم مؤمنين" (الأعراف: ٨٥).

وقد بعثت تعاليم سيدنا شعيب هذه من جديد على يد سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، وقد جاء في الإسلام بعد الأشياء التي حرمها الله تعالى أن: "لوفوا للكيل والميزان" (الأنعام: ١٥٢).

ومن بين النصائح الأخلاقية التي وردت في سورة (الإسراء) هذه النصيحة: "لوفوا للكيل إذا كلتم وزنوا بالقسط لمن المستقيم ذلك خير وأحسن تأويلاً" (الإسراء: ٣٥).

والجزء الأخير من الآية يدلنا على أن التطفيف في الميزان وإن كان يؤدي إلى فائدة في بدلية الأمر، إلا أنه في النهاية يكون سبباً في بولر للتجارة.

وتأمل جيداً ترى أن السبب الأساسي في وجود هذا السوء الأخلاقي هو أن اليقين في القلوب بأن العين التي ترى تصرفاتهم ما خفي منها وما ظهر مفتوحة في كل مكان وسيأتي يوم يمثلون فيه أمام الله تعالى ويحاسبهم، وقد جاء ذكر هذا السوء الأخلاقي في سورة المطففين وتحريمه، وكذا علاجه. قال تعالى: "ويل للمطففين الذين إذا لكتالوا على الناس يستوفون، وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون، ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون ليوم عظيم، يوم يقوم الناس لرب العالمين" (المطففين: ٣).

للغلول

والغلول يطلق على إخفاء الأشياء المشتركة قبل تقسيمها بالعدل، وأكثر ما يطلق على السرقة من مال الغنائم، إذ أنه ليا كان للذي استولى على مال الغنائم فإنه حق لكل الجنود، وطالما لم يقسم الأمير هذا المال بالعدل، أو لم يسمح بالأخذ منه فإن إخفاء أي شيء منه يصبح غلواً، والغلول سوء أخلاقي تجتمع فيه السرقة وانعدام الضمير. ويظن من يرتكب هذا الفعل أنه إذا كان لكل واحد نصيب في هذا المال المشترك فإن أخذ شيء منه جائز، لكنه ينسى أنه طالما لم يتم تقسيمه فالجميع متساوون فيه، ولا يحل له أخذ شيء منه دون استئذان الجميع، الأمر الثاني هو أنه إذا أخذ أحد من هذا المال خفية فهذا يعني أن ضميره يقول له إن هذا المال ليس لك وحدك، ولهذا فهو يأخذه خفية، الأمر الثالث أن أخذ أي شيء خفية يهدف إلى الحصول على أكثر من النصيب المقرر، أي الجزء الذي يتم الحصول عليه خفية والجزء الذي يتم الحصول عليه بالتقسيم وهذه عدم أمانة واضحة.

وقد صرح القرآن الكريم أن من يرتكب هذا الفعل سواء كان جندياً أم أميراً فهو آثم، ولأن الأنبياء عليهم السلام يكونون أمراء، فهم معصومون من الذنوب، لذا لا يمكن لأحد أن يظن أنهم قد يرتكبوا مثل هذا الفعل: "وما كان لنبي أن يغفل" (آل عمران: ١٦١).

ثم قال: "ومن يغفل يأتي بما غل يوم القيامة ثم توفى كل نفس ما كسبت وهو لا يظلمون" (آل عمران: ١٦١).

وقد سرق غلام يدعى (مدعم) رداءً من مال الغنمية يوم خيبر، وحين غامر الناس خيبر ووصلوا إلى وادي القرى انطلق منهم قافلة فاصاب هذا الغلام هماً، فقال للمسلمون: هو في الجنة، فلما سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم ما قالوه قال: والذي نفسي بيده إن الرداء الذي أخذه في خيبر قبل التقسيم يشتعل فيه ناراً. فلما سمع الناس هذا فثر فيهم قوله صلى الله عليه وسلم حتى أن رجلاً كان قد أخذ رباطاً حذاه قال: حضره وأعادته فلما رآه صلى الله عليه وسلم قال هذا رباط من نار^(١).

وهناك واقعة أخرى حدثت في خيبر وهي أن أحد المسلمين مات، وحين تم تجهيزه للدفن أخبروا رسول الله صلى الله عليه وسلم ليصلي عليه، فقال: صلوا على صاحبكم، فلما سمع الناس هذا أصابتهم الدهشة وعلموا أن هناك أمراً ما، فقال صلى الله عليه وسلم: لقد أخذ صاحبكم شيئاً من مال الغنائم خفية يقول: الصحابة: لقد فتشنا بين أمتعتنا فوجدنا عقداً من اللؤلؤ للمقد لا يساوي شيئاً^(٢).

^١ - أبو داود - كتاب الجهاد - باب في تعظيم الغلول.

حدثنا القعنبى، عن مالك، عن ثور بن زيد الدبلى، عن أبي القيث مولى ابن مطيع، عن أبي هريرة أنه قال: خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم علم خيبر، فم نقيم ذهباً ولا ورقاً إلا الثياب والمتاع والأموال، قال: فوجه رسول الله صلى الله عليه وسلم نحو وادي القرى، وقد أهدى لرسول الله صلى الله عليه وسلم عبد أسود يقال له مدعم، حتى إذا كانوا بواي القرى، فبينما مدعم يحط رحل رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ جاءه سهم فقتله، فقال الناس: هتينا له الجنة، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: كلا والذي نفسي بيده إن المشقة طئي لأغذاها يوم خيبر من المقام لم تصبها المقاسم لتشتعل عليه ناراً، فلما سمعوا ذلك جاء رجل يشارك أو يشاركين إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: يشارك من نار أو قال يشاركين من نار.

^٢ - المرجع السابق.

وكانت القاعدة هي أنه حين تنتهي المعركة ينادي سيدنا بلال ثلاث مرات فيأتي الناس بما أصابوا من مال الغنيمة ثم يخرج خمسة ثم يقسم بينهم ما بقي فإذا ما جاء أحد بعد هذا بما أصاب لا يقبل منه ويعد مجرماً وأحياناً تحرق كل أمتعة عقاباً له ذات مرة جاء رجل بلجام من الشعر أصابه من الغنائم بعد أن تم التقسيم وقال يا رسول الله هذا ما أصبته فقال صلى الله عليه وسلم ألم تسمع نداء بلال قال سمعته فساله صلى الله عليه وسلم فلماذا لم تحضره عندها فاعتذر الرجل فقال صلى الله عليه وسلم سنأتي به يوم القيامة وإن أقبله^(١).

وقيل للوالة أن من يصيب شيئاً يأتي به إلى بيت المال قال صلى الله عليه وسلم: أيها الناس من يتولى أمراً ما فأخفى ولو خياطاً فإنه غلول يومئتي به يوم القيامة^(٢).

حدثنا مسدد، أن يحيى بن سعيد وبشر بن المفضل حدثاهم، عن يحيى بن سعيد، عن محمد بن يحيى بن حبان، عن أبي عمرة، عن زيد بن خالد الجهني، أن رجلاً من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم توفي يوم خيبر، فذكروا ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: صلوا على صاحبكم فتغيرت وجوه الناس لذلك فقال: إن صاحبكم غل في سبيل الله، فقتلنا متاعه فوجئنا خرزاً من خرز يهود لا يساوي درهمين.

^١ - أبو داود - كتاب الجهاد - باب في تعظيم الغلول.

حدثنا أبو صالح محبوب بن موسى قال: أخبرنا أبو إسحاق الفزاري، عن عبد الله بن عمرو قال: حدثني عامر بن يحيى بن عبد الواحد عن ابن بريدة، عن عبد الله بن عمرو قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أصاب غنيمة أمر بلالاً فنادى في الناس فيجيئون بقتلهم فيخمس ويقسمه فجاء رجل بعد ذلك بزملم من شعر فقال يا رسول الله، هذا فيما كنا أصبناه من الغنيمة فقال: أسمع بلالاً ينادي؟ ثلاثاً قال: نعم، قال: فما منك أن تجيء به؟ فاعتذر إليه فقال: كن، أنت تجيء به يوم القيامة فلو أن أقبله عنك.

^٢ - سنن أبي داود - كتاب الأضحية.

حدثنا علي بن محمد حدثنا أبو أسامة، عن - أبي منان عيسى بن منان، عن - يعلى بن شداد، عن عبادة بن الصامت قال: صلى بنا رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم حنين إلى جنب بعير من المقاسم ثم تناول شيئاً من البعير فلخذه منه قردة يعني: بورة فجعل بين إصبعيه ثم قال: يا أيها الناس، إن هذا من غنمكم أدوا الخيط والمخيط فما فوق ذلك فما دون ذلك، فإن الغلول عار على أهله يوم القيامة، فوشنار بونار.

الرشوة

وهي صورة عامة من صور استغلال أموال الغير بغير حق، ومعنى الرشوة هو أن يستميل أحد أحدا ذا سلطة أو مسئولاً بماله من أجل تحقيق غرض باطل، أو للحصول على ما لا حق له فيه^(١)، وقد كان الكهان العرب في القديم يحكمون في بعض القضايا اعتماداً على قوتهم الغيبية المزعومة، ولذا كان أصحاب القضايا هؤلاء يقدمون لهم أجراً أو رشوة كتدبير من الهدية وكانوا يسمون هذا (حلوان)، فلما جاء الإسلام طار فطر الأوهام هذا، ومنع رسول الله صلى الله عليه وسلم إعطاء ما يسمى بالحلوان هذا للكهان^(٢).

لما لليهود العرب فكان أحبارهم وسادتهم يحكمون في قضاياهم، ولأن المال والثروة جعلت منهم طبقات متفاوتة، لذا كانوا دائماً يتمنون مخالفة القانون من قلوبهم، ولإفلات من قبضة القانون كانوا يقدمون الرشوى، وكان كهانهم وقضايتهم يأخذونها علانية، ويعطون حقوق البعض لمن لا يستحقها من البعض الآخر، وبهذه الطريقة كانوا يوارون أحكام التوراة عندما تقتضي مصالحهم ومطالبهم ذلك^(٣). وهكذا كانت للرشوة سبب كبير في تحريف قوانين التوراة، وقد تحدثت الآية التالية عن تعاطيهم هذا للذنوب:

"إن الذين يكتُمون ما أنزل الله من الكتاب ويشترُونَ به ثمناً قليلاً أولئك ما يأكلون في بطونهم إلا النار ولا يكلمهم الله يوم القيامة ولا يزيكهم ولهم عذاب أليم" (البقرة: ١٧٤).

وقد قال الله تعالى أنهم يأكلون النار في بطونهم لأن لليهود كانوا يقدمون على تحريف أحكام الله وأوامره طمعاً في هذه الأمور الدنيوية من أجل بطونهم، ولهذا كان هذا جزاءهم.

^١ - مجمع التجار - العلامة فني.

^٢ - الترمذي - باب ما جاء في كراهية مهر البغي.

حدثنا قتيبة حدثنا الليث عن ابن شهاب، عن أبي بكر بن عبد الرحمن، عن أبي مسعود الأنصاري قال: في رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ثمن الكلب ومهر البغي وحلوان الكاهن.

^٣ صحيح البخاري - رجم الزاني.

و قد كتب ابن جرير الطبري في تفسير هذه الآية أن سادة اليهود كانوا يقدمون الرشوة لعلمائهم حتى لا يخبروا عامة الناس بأوصاف النبي - صلى الله عليه وسلم - التي وردت في التوراة ، لكن سياق القرآن الكريم يدل على أنهم كانوا يحرفون الأحكام الإلهية بصفة عامة ، و يحصلون على ثروات الدنيا عن طريق ذلك ، و لذا قال الله تعالى في سورة (المائدة) عن أكلهم للحرام هذا :

" و نرى كثيرا منهم يسارعون في الإثم و العدوان و أكلهم للسحت لبئس ما كانوا يعملون ، لولا بنهاهم للربانيون و الأحبار عن قولهم الإثم و أكلهم للسحت لبئس ما كانوا يصنعون " (المائدة : ٦٣) .

" سماعون للكذب أكالون للسحت " (المائدة : ٤٢) .
ويمكن الاستدلال هنا أيضا بالآية التي سبق ذكرها :

" ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل وتكثروا بها إلى الحكام لتأكلوا فريقا من أموال الناس بالإثم وأنتم تعلمون " (البقرة : ١٨٨) .

وتحمل هذه الآية بمعناها الذي قرره بعض المفسرين منعا واضحا وصريحا للرشوة. وقد لعن رسول الله صلى الله عليه وسلم من يعطي للرشوة ومن يأخذها على السواء^(١)، فلعن من يعطي الرشوة لأنه يساعد على ارتكاب الجريمة بالمساعدة في ارتكاب الجريمة ممنوع قانونا وأخلاقا .

كان المسلمون قد تصالحوا مع يهود خيبر على مناصفتهم في إنتاج الأرض فحين كان يحل وقت التقسيم يرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم سيدنا عبد الله بن رواحة فكان يقسم الإنتاج بالعدل إلى قسمين ويقول لهم اختاروا ما تشاءون من القسمين أو أريد لليهود تقديم الرشوة له كما اعتادوا في حياتهم فجمعوا التبرعات من بعضهم البعض وكذلك بعض حلي النساء وقالوا له اقبل هذا منا وزد في حصتنا فلما سمع ابن رواحة هذا منهم قال: أيها اليهود والله إنكم أبغض خلق الله لكن هذا لا يحملني على ظلمكم، وما تقدمونه لي من رشوة فهو حرام لا نأكله نحن المسلمين. عندئذ قال

^١ أبو داود - كتاب الأقضية .

حدثنا أحمد بن يونس ثنا ابن أبي ثنيب، عن الحارث بن عبد الرحمن، عن أبي سلمة، عن عبد الله بن عمرو قال لعن رسول الله صلى الله عليه وسلم قرشي وقرشي والمزني.

اليهود بعد ما سمعوا ما قال: هذا هو العدل الذي تقوم عليه السماء والأرض^(١)، وولـهـذا منع رسول الله صلى الله عليه وسلم عماله من قبول الهدايا والتحف من الرعايا^(٢). وذات مرة جاء عامل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال: هذا مال الصدقة، وهذا جاء لي هدية، فلما سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا منه صعد المنبر وخطب في الناس، فقال بعد حمد الله والثناء عليه :

" ما بال للعامل نرسله فيأتي ليقول هذا لكم وهذا لي، فليجلس في بيت أبيه وأمه ولينظر هل يهديه أحد شيئاً لم لا والذي نفسي بيده من أخذ منه شيئاً جاء به في عنقه يوم القيامة حتى وإن كان جملاً أو بقرة أو شاة، ثم جمع رسول الله صلى الله عليه وسلم بين يديه قائلاً ثلاث مرات: "اللهم هل بلغت" ^(٣)، وما قاله رسول الله صلى الله عليه وسلم في خطبته هذه إنما هو تفسير لآية الغلول.

^١ مواعظ الإمام مالك - كتاب المساقات .

وحدثني مالك عن شهاب، عن سليمان بن يسار، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يبعث عبد الله بن رولة إلى خيبر، فيحرص بينه وبين يهود خيبر، قال، فجمعوا له حلماً من حلي تسألهم. فقالوا له: هذا لك، وخفف عنا، وتجاوز في القسم. فقال عبد الله بن رولة: يا معشر اليهود، والله إنكم لمن أبغض خلق الله إلي وما ذاك بحاملي على أن أحيف عليكم. فلما ما عرضتم من الرشوة فإتباعها سحت. وإنا لا نأكلها. فقالوا: بهذا قامت السموات والأرض.

^٢ أبو داود - كتاب الأضحية وكتاب الجهاد .

حدثنا مسدد بن يحيى، عن إسماعيل بن أبي خالد، قال: حدثني قيس قال: حدثني عدي بن عسيرة الكندي: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: يا أيها الناس من عمل منكم لنا على عمل فكتمنا منه مخططاً فما فوقه فهو غل يأتي به يوم القيامة فقام رجل من الأنصار أسود ككتي أنظر إليه فقال: يا رسول الله، أقبل عني عملك، قال: وما ذلك؟ قال: سمعتك تقول كذا وكذا، وكذا قال: ولأنا أقول ذلك، من استعملناه على عمل قليلات بقليله وكثيره فما أوتي منه أخذه، وما نهي عنه أتته.

^٣ صحيح البخاري - باب هداية العمال .

حدثنا علي بن عبد الله: حدثنا سفيان، عن الزهري: أنه سمع عروة: أخبرنا أبو حميد الساعدي قال: استعمل النبي صلى الله عليه وسلم رجلاً من بني أسد يقال له ابن الأتبية، على صدقة، فلما قدم قال: هذا لكم وهذا أهدي لي، فقام النبي صلى الله عليه وسلم على المنبر - قال سفيان أيضاً: فصعد المنبر - فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: (ما بال العامل نبعثه، فيأتي فيقول: هذا لك وهذا لي، فهل جلس في بيت أبيه وأمه فينظر أيهدى له أم لا؟ والذي نفسي بيده، لا يأتي بشيء إلا جاء به يوم القيامة

أكل الربا

أكل الربا يجمع بداخله الحرص والطمع والبخل والظلم، ففيه الحرص والطمع لأن أكل الربا يريد أن يركز الثروة كلها لديه من خلال الربا، وفيه البخل لأنه لا يريد التسامح مع فقير مدين، كما لا يريد أن ينقص من ثروته بالإتفاق منها على عمل الخير، وهذا هو السبب في أن الله تعالى ذكر أكل الربا في مقابل الزكاة والصدقات، وفيه الظلم لأنه يريد أن يحرم الناس من ثمرة كفاحهم عن طريق الربا والربا المضلعف، ولا يرحمهم، ولهذا قال تعالى عندما منع الربا:

" لا تظلمون ولا تظلمون " (البقرة: ٢٧٩).

بمعنى أنكم إن أخذتم أكثر مما أعطيتم فإن ذلك ظلم منكم، وإن أخذتم أقل مما أعطيتم فإن ذلك ظلم عليكم، وكانت عادة أكل الحرام هذه منتشرة بين العرب بسبب اليهود، إذ كانت الثروة لديهم، وكان أكثر الفقراء العرب من الفلاحين والعمال يستدينون منهم، ومن أسباب إغلاق أبواب النعمة على اليهود:

" وأخذهم الربا وقد نهوا عنه وأكلهم أموال الناس بالباطل " (النساء: ١٦١).

فلما جاء الإسلام قضى تماما على لعنة رأس المال هذه والتي كانت الدنيا تعاني منها: "الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس، ذلك بأنهم قالوا إنما البيع مثل الربا، فمن جاءه موعظة من ربه فانتهى فله ما سلف وأمره إلى الله، ومن عاد فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون، يحق الله للربا ويربى الصدقات والله لا يحب كل كفار أثيم " (البقرة: ٢٧٥) .

والمجيء يوم القيامة مخبوط الحواس بسبب أكل الربا يعد تمثيلا كاملا لوضعه الذي كان عليه في الدنيا، إذ أن آكلي الربا (المرايين) في الدنيا يظلون منهمكين ليل نهار في سلب الآخرين أموالهم، بزيادة ثروتهم بطرق غير شرعية بحيث لا يخطر على بال أحد منهم أن يشارك في فعل خير، وهكذا يأتي يوم القيامة وكأنه فقد حواسه، وقد وصف الله تعالى المرايين في نهاية الآية بأنهم مجرمون ناكروا الجميل، لأن الثروة التي أنعم الله بها عليهم تقضي أن ينفقوا منها على الفقراء، والمستحقين، لكنهم بدلا من ذلك سلبوا للفقير ما يملك من لغات ظلما وعدوانا، وهذا جحود للنعمة .

يحمله على رقبته: إن كان بعيرا له رغاء، أو بقرة لها خوار، أو شاة تبهق. ثم رفع يديه حتى رأينا عفرتي يطيه ألا هل بلغت) ثلاثا .

وقد ظهر بين العرب سريعا بعض من أصحاب رؤوس الأموال أمام اليهود وكانوا يعملون بالربا مثل سيدنا عباس بن عبد المطلب، وبنو عمرو بن عمير وغيرهم، وحين أسلموا هم والمدينون لهم، وطالب الدائنون بالربا من المدينين فنزلت هذه الآيات وهي في سياق معنى الآيات السابقة:

" يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله واذروا ما بقى من الربا إن كنتم مؤمنين، فإن لم تعملوا فأننوا بحرب من الله ورسوله، فإن تبتم فلکم رؤوس أموالکم لا تظلمون ولا تظلمون، وإن كان ذو عسرة فنظرة إلى ميسرة، وأن تصدقوا خير لكم إن كنتم تعلمون، واتقوا يوما ترجعون فيه إلى الله ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون " (البقرة: ٢٨٠).

فقد أخبرت الآيات أنه سيأتي يوم يقف فيه الجميع أمام الله تعالى، وسوف يحاسب كل من أكل أموال الناس بالباطل، فإذا فعلتم الخير وعفوتكم عن المدينين فإن الله سيجازيكم بهذا كثيرا .

وكانت هناك صورة من صور الربا في الجاهلية أن الفلاحين الفقراء كانوا يقترضون من المرابين على المحصول الذي لم يخرج من الأرض بعد، وحين يأتي وقت الحصاد ولا يستطيع الفلاح سداد الدين فإن المرابي يقول له يمكن أن نمد الفترة، وعليك أن تزيد قيمة القرض من المحصول أيضا، على سبيل المثال يأخذ منه عدة كلوات من الحبوب مقابل كل روية من القرض، فإذا زادت الفترة عاما آخر ضاعف قيمة القرض وهكذا طالما لم يتم سداد القرض تزيد المدة ويزيد القرض حتى يزيد الربا على القروض ويصبح أضعاف أصل القرض، قال تعالى:

" يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا الربا أضعافا مضاعفة، واتقوا الله لعلكم تفلحوا، والنار التي أعدت للكافرين " (آل عمران : ١٣٥) .

وقد صرحت الآية الكريمة بأن عقاب أكل الربا هو جهنم، تلك التي أعدت للكافرين. وقد حكى رسول الله صلى الله عليه وسلم ما رآه في رؤيته الصادقة من أحوال آكلي الربا، فقال إنه رأي نहरًا من الدم يسبح فيه رجل، ورجل آخر يقف على شاطئ النهر يمسك بحجر في يده، وحين يشعر الرجل الأول بالإرهاق والتعب ويريد الخروج من النهر يقذفه الرجل الآخر بالحجر فيلقمه، ثم يعود إلى النهر ثانية، فقال جبريل عليه السلام إن هذا الرجل الذي يسبح في نهر من الدماء هو آكل الربا " (١) .

^١ صحيح البخاري - كتاب الجنائز - باب أولاد المشركين - وكتاب التعبير - باب تعبير الرؤيا بعد صلاة الصبح .

وسبب مثل هذا العقاب واضح، فالناس يجتهدون ليل نهار فيما يجمعون فيأتي أكل الربا ويستولي على أرزاقهم بسهولة فهو بذلك يسبح في دم الإنسان، أما الحجر الذي يلقيه فهو أموال الناس التي يأكلها بالباطل من خلال الربا.

ويشارك في عقاب الذنب من شارك في فعله أو أعان عليه، ولهذا لعن رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي يأكل الربا والذي يشهد عليه والذي يكتب ذلك ويوثقه^(١).

شرب الخمر

شرب الخمر من العادات الذميمة بمسوءها ووضوح مومع ذلك فما أعجب أن تبطل به أكثر الأمم في العالم، وقد بينت الأدیان التي جاءت قبل الإسلام عيوب ومسائير هذا الأمر، واعتبرت معاقرة الخمر أمراً سيئاً^(٢)، لكن الإسلام هو الدين الوحيد الذي حرمها تماماً، ولقد كان شرب الخمر من العادات الراسخة لدى العرب، وكان يعد من تقاليد العائلات الراقية ومميلة من وسائل الترفيه واللهو، وكانت للزوجات يسقين أزواجهن بأنفسهن^(٣)، وكذلك كان يفعل للصغار مع للكبار^(٤)، وإذا كان هناك بعض من المحظوظين الذين تخلوا عن شرب الخمر قبل الإسلام، إلا أن المجتمع كله كان مصاباً بهذا الداء، فكان الناس يعاقرون الخمر فيسكرون ويتشاجرون، ويصيبون بعضهم

حدثنا مؤمل بن هشام، أبو هشام: حدثنا إسماعيل بن إبراهيم: حدثنا عوف: حدثنا أبو رجاء: حدثنا سمرة بن جندب رضي الله عنه قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعني: مما يكثر أن يقول لأصحابه: (هل رأى أحد منكم من رؤيا). قال: فيقص عليه من شاء الله أن يقص، وإنه قال ذات غداة: (إنه لأتاني الليلة آتيان، وإني ابتهتني، وإنيها قالاً لي: انطلق، وإني انطلقت معها. قال: فأتنا، فأتينا على نهر - حسبت أنه كان يقول - أحمر مثل الدم، وإذا في النهر رجل ساج يسبح، وإذا على شط النهر رجل قد جمع عنده حجارة كثيرة، وإذا ذلك الساج يسبح ما يسبح، ثم يأتي ذلك الذي قد جمع عنده الحجارة، فيغفر له فاه، فليقمه حجراً فينطلق يسبح، ثم يرجع إليه كلما رجع إليه فغفر له فاه، فليقمه حجراً، قال: قلت لهما: ما هذان؟ وأما الرجل الذي أتيت عليه يسبح في النهر ويلقم الحجارة، فإنه أكل الربا.

^١ أبو داود - كتاب البيوع

حدثنا أحمد بن يونس، ثنا زهير، ثنا سفيان، حدثني عبد الرحمن بن عبد الله بن مسعود، عن أبيه قال: لعن رسول الله صلى الله عليه وسلم أكل الربا وموكله وشاهده وكتبه.

^٢ صحيح البخاري - كتاب الأشرطة .

^٣ لوقا - ١ : ١٥ .

^٤ قصيدة ألا هي يصحك من قصائد المعلقات السبع .

البعض، مما كان يزرع العداوة بينهم، وفي بعض الأحيان تصل بهم السكرة إلى درجة أنهم كانوا ينجحون أية ناقة تصانفهم دون للنظر إلى من يكون صاحبها (١)، ثم يصنعون من لحومها كبابا فيطعمونه أصدقاءهم، ويلعبون القمار، ويكون اللعب على المواشي، فيذبحونها ويقسمونها ثم يطعمونها سبوا، فإذا ما تبقى منها شيء أطعموه الفقراء.

ولما جاء الإسلام بدأ بتقليل قوة هذه للعادة، فقال بأن السكر ليس أمرا طيبا، وأن الله قد من عليكم بالتمور والأعناب، وهي نعم عظيمة، لكنكم تصنعون الخمر منها وتأكلونها أيضا، قال تعالى :
" ومن ثمرات للنخيل والأعناب تتخزون منه سكرا ورزقا حسنا، إن في ذلك لآية لقوم يعقلون " (النحل : ٦٧) .

ففي هذه الآية وضح الله تعالى (السكر) في مقابل (الرزق الحسن)، ويعلم منه أن السكر ليس رزقا حسنا، وأنا أرى أن هذه الآيات قدمت تشبيهات في الحقيقة للالتباس بين الخير والباطل، فذكرت اللبن والروث والدم، ثم الشهد والعسل باعتبار أنه نقي هو الآخر مثله مثل اللبن، ويخرج لا شوائب فيه، وهكذا للحال بالنسبة للتمر والعنب، إذ يخرج منها النجس مثل السكر، والظاهر مثل الغذاء. ثم تطورت مسألة تحريم الخمر في المدينة، فجاء الأمر:

" لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون " (النساء : ٤٣) .

وقد نبهت هذه الآية العقلاء، فتركها بعض الناس بينما حدد البعض الآخر وقت تناول الخمر في غير وقت الصلاة، وبعد كل هذه الاختبارات جاء وقت اتخذت فيه الكناية شكل التصريح، وثار في نفوس الناس سؤال عما سيكون آخر قرار للإسلام عن الخمر والميسر :

"يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس، وإثمهما أكبر من نفعهما " (البقرة : ٢١٩) .

وفائدتها هي أنها تنسي الناس همومهم لبعض الوقت، وتمتعهم بلهوهم ولعبهم، فيأكلون ويشربون، ويطعمون الآخرين أيضا، لكن مساوئها أكثر من هذه الفوائد القليلة لها، وقد نبهت هذه الآية الكثير من الناس فتأبوا من شرب الخمر، ولكن لأن الحكم

^١ صحيح البخاري - كتاب الأشربة .

لقاطع في أمر الخمر لم يكن قد نزل بعد لهذا كان بعض الناس يشربونها ترخصا في جانب الفائدة منها وفي النهاية نزلت هذه الآية :

" يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون، إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء في الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهل أنتم منتهون " (المائدة : ٩) .

فلما نزل هذا الحكم صاح بعض الصحابة: اللهم لقد رجعنا عنها (١)، وفي ذلك اليوم سكبت دنان الخمر في شوارع المدينة وحواريها ولقيت الخمر على الأرض (٢). وقد بين الله تعالى في هذه الآية أسباب تحريم الخمر بأنها من عمل الشيطان، هذا أولا، وثانيا أن الناس يعاقرونها فيتعاركون، وثالثا أنها تشغل للناس عن الأعمال الضرورية الكثيرة، وهذه الأسباب الثلاثة واضحة وضوح الشمس .

وهناك عدة مطالب لما ذكر في الآية السابقة من أن الخمر والميسر من رجس الشيطان، منها أنها عدت الخمر والميسر ومعاقرتها عند الأصنام من الأعمال النجسة للشيطان، ولا شك في قذارة كل هذا ونجاسته بالإضافة إلى ذلك فإن نسبة أي عمل من الأعمال إلى الشيطان يبين منتهى سوءه مثلما جاء في قصة سيدنا موسى عليه السلام حتى مات أحد الأقباط صدفة بوكزة منه فقال :

" هذا من عمل الشيطان " (القصص : ١٥) .

وكذلك ما جاء في الآية التي تقول :

" إن المبشرين كانوا إخوان للشياطين " (الإسراء : ٢٧) .

يتجه الذهن إلى أن شرب الخمر والتقرب إلى الآلهة ونبح الحيوانات بغير سبب وتقسيمها بما كان يعد في حينه من الجود والكرم، ونرى في هذه الآية أيضا إشارة إلى إنفاق المال بلا فائدة، ومن لا يعرف أن شرب الخمر ولعب القمار والتظاهر الكاذب بالكرم مما يهلك الشعوب والبلاد، هو ما نجده في صفحات التاريخ .

وبعد ذلك بين القرآن الكريم عييين من معاييب هذه الأعمال الشيطانية، أحدهما اجتماعي، والآخر ديني، والعيب الاجتماعي أنهم يشربون الخمر فيسكرون ويتعاركون، ويقومون بأعمال لم يكونوا ليقوموا بها وهم في وعيهم، وما أكثر الحوادث

^١ أبو داود - الأثرية .

^٢ صحيح البخاري - كتاب الأثرية .

التي ترتكب كل يوم بهذا السبب مثل القتل والانتحار وغيرهما. أما العيب الديني فهو أن الإنسان يشرب الخمر ويلعب للميسر وينهمك فيهما لدرجة تجعله يغفل عن ذكر الله وعن الصلاة التي هي أعظم فرض في الحياة، ليس هذا فقط، وإنما تجعله يغفل أيضا عن الأعمال الدنيوية التي تفيده هو، وبالتالي لا يصلح في أعمال للدين، وتفشل حياته ويصاب باليأس .

ولا ينبغي أن نفهم من لفظ (شراب) أن المراد به نوع خاص من الشراب، وقد استخدم القرآن الكريم لفظ (خمر) بالخمر يقال لعموم شيء وتسيده وتغطيته على الأشياء، ولهذا فإن كل شيء يغطي أكله أو شربه على العقل يدخل في عموم لفظ الخمر، وقد قال سيدنا عمر رضي الله عنه وهو على المنبر: "كل ما يسكر حرام" (١)، وقال من شرب الخمر في الدنيا ولم يتب منه حرم منه في الآخرة" (٢).

وحين كان رسول الله صلى الله عليه وسلم في رحلة المعراج قدمت أمامه يد الغيب كوبيين أحدهما فيه لبن وفي الآخر خمر، وتناول سيد الكائنات صلى الله عليه وسلم كوب اللبن، فقال له أمين الوحي سيدنا جبريل عليه السلام: الحمد لله الذي هداك إلى الفطرة، لو تناولت الخمر لضلت أمتك" (٣)، وكان الخمر في عالم المثال صورة للضلال. وجاء في الحديث الشريف أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "لا يشرب مؤمن الخمر حين يشرب وهو مؤمن" (٤)، وقال أيضا: "من علامات الساعة أن يزيد شرب للخمر" (٥).

١ الصحيحين - كتاب الأشربة .

٢ المرجع السابق .

٣ المرجع السابق .

٤ المرجع السابق .

٥ المرجع السابق .

حدثنا أحمد بن صالح: حدثنا ابن وهب قال: أخبرني يونس، عن ابن شهاب قال: سمعت أبا سلمة بن عبد الرحمن وابن المسيب يقولان: قال أبو هريرة رضي الله عنه: إن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن).

وتعد حرم الإسلام الخمر بحرم كل ما يؤدي إليه من وسائل سدا للذرائع، حتى أنه حرم في بداية الأمر الآنية التي يشرب فيها للخمر عموماً ثم حين اعتاد الناس على ترك شرب الخمر خفف الله من هذه الحدة^(١).

وقد جاء ذكر المبدأ التالي مرات عدة ولا تعاونوا على الإثم والحوول^(المائدة: ١).

وطبقاً لهذا المبدأ فإن شرب الخمر حرام وتقديمه للشاربين حرام وصناعته حرام وبيعه وشراؤه وحمله كله حرام. قال صلى الله عليه وسلم: لعن الله شارب الخمر وساقيه وبيّاعه وشاريه ومن يصنعه لنفسه أو لغيره ومن يحمله ومن يحمل إليه^(٢). كما قال صلى الله عليه وسلم: كل مسكر حرام، وما أسكر كثيره فقليله حرام^(٣).

الغيظ والغضب

وعدم الاعتدال في الغيظ والغضب يعد عيباً كبيراً، وكم من الأفعال الظالمة القاسية يرتكبها الإنسان في حالة الغيظ والغضب، ثم يندم بعدها، ولهذا يجب على المسلم أن يتحكم في غضبه، أو لا يغضب بغير سبب، وقد وصف الله تعالى المؤمنين الصالحين بقوله :

"والكاظمين الغيظ" (آل عمران : ١٤) .

وقال في موضع آخر : " وإذا ما غضبوا هم يغفرون " (الشورى : ٤) .

فما أسهل أن يغفو الإنسان وهو هادئ، ولكنه يخرج عن أطواره في حالة الغضب، فيصبح من الصعب أن يغفو، ولكن للمسلم ينبغي أن يتصف بالمقدرة على التحكم

^١ لرجع السابق .

^٢ أبو داود - كتاب الأشربة .

حدثنا عثمان بن أبي شيبة، قال ثنا وكيع بن الجراح، عن عبد العزيز بن عمر، عن أبي علقمة، مولاهم وعبد الرحمن بن عبد الله الغافقي، أنهما سمعا ابن عمر يقول: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: لعن الله الخمر وشاريها وساقيتها وبيّاعها ومبتاعها وعاصرها ومعتصرها وحاملها والمحوّلة إليه.

^٣ الصحيحين وأبو داود والترمذي - كتاب الأشربة .

وحدثني حرمة بن يحيى التميمي: أخبرنا ابن وهب، أخبرني يونس، عن ابن شهاب، عن أبي سلمة بن عبد الرحمن: أنه سمع عائشة تقول: سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن البتة؟ فقال: رسول الله صلى الله عليه وسلم: كل شراب أسكر فهو حرام.

في النفس عند الغضب، وأن يعفو، ولهذا قال صلى الله عليه وسلم: ليس القوي بالصرعة، وإنما القوي من يملك نفسه عند الغضب" (١).

وروي عن سيدنا أبي هريرة وميدنا عمر وسيدنا جارية بن قدامة، وسيدنا أبي درد وغيرهم من الصحابة رضي الله عنهم جميعاً: "أن رجلاً قال يا رسول الله لنصحني، فقال صلى الله عليه وسلم لا تغضب، فاعتقد للرجل أن هذا كلام عادي، فقال ثانية وثالثة لنصحني يا رسول الله، فوفي كل مرة كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: لا تغضب" (٢).

ويقول الصحابي المعروف سيدنا أبو سعيد الخدري: "ذات مرة أوقف رسول الله صلى الله عليه وسلم الصحابة بعد صلاة العصر ونصحهم، وكان مما قال: خلق ابن آدم في طبقات عدة، بعضهم لا يغضب سريعاً ويهدأ سريعاً، وبعضهم يغضب سريعاً ويهدأ سريعاً، وكل منهما يصلح الآخر، وبعضهم يغضب سريعاً ولا يهدأ سريعاً، وأفضلهم من لا يغضب سريعاً ويهدأ سريعاً، وأسوأهم من يغضب سريعاً ولا يهدأ سريعاً، والغضب شر في قلب ابن آدم، ألا ترون أن عينيه تحمران، ويبتلع أوداجه، فمن غضب عليه أن يجلس على الأرض" (٣).

وجاء عند أبي داود أن النبي صلى الله عليه وسلم قال الغضب من الشيطان، والشيطان من نار، والماء يطفئ النار، فمن غضب فليتوضأ" (٤).

^١ صحيح مسلم - باب فضل من يملك نفسه عند الغضب، والبخاري - كتاب الأدب - باب من يملك نفسه عند الغضب.

حدثنا عبد الله بن يوسف: أخبرنا مالك، عن ابن شهاب، عن سعيد بن المسيب، عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (ليس الشديد بالصرعة، إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب).

^٢ صحيح البخاري ومسنود أحمد وابن حبان والطبراني والمنذري - باب الترهيب من الغضب.

حدثنا يحيى بن يوسف: أخبرنا أبو بكر، هو ابن عياش، عن أبي حصين، عن أبي صالح، عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رجلاً قال للنبي صلى الله عليه وسلم: لو صني، قال: (لا تغضب). فردد مراراً، قال: (لا تغضب).

^٣ جامع الترمذي - المنذري - الباب المنكور.

^٤ سنن أبي داود - كتاب الأئب - باب من كتم غيظاً.

حدثنا بكر بن خلف والحسن بن علي، المعنى قالوا: ثنا إبراهيم بن خالد، ثنا أبو وائل القاص قال: دخلنا على عروة بن محمد السعدي فكلّمه رجل فأغضبه، فقلّم فتوضأ ثم رجع وقد توضأ، فقال: حدثني

ويقول سيدنا أبو ذر رضي الله عنه أن للنبي صلى الله عليه وسلم قال: "من غضب جلس إن كان واقفاً، وإلا فليستلقي" (١).

وجاء في الصحيحين أنه حدثت مشاجرة بين اثنين من الناس أمام رسول الله صلى الله عليه وسلم فغضب أحدهما حتى لَحمر وجهه وانتفخت أوداجه، فنظر إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قال: "إني أعرف كلمة لو قلتها لذهب غضبك وهي أن تقول أعوذ بالله من الشيطان الرجيم. وتؤيد الآية القرآنية للتأليّة هذا الحديث الأخير. قال تعالى :

" خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلِينَ، ولما ينزغك من الشيطان نزغ فاستعِذْ بالله إنه سميعٌ عَلِيمٌ" (الأعراف: ٢٠٠).

وهناك آية أخرى في سورة (المسجدة) في نفس للمعني، وهي الآية رقم ٥ :

وقد بين رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاثة أمور لعلاج الغضب، أحدهما روحاني، والآخران ظاهريان، أما الروحاني فهو ما ورد ذكره في القرآن الكريم، يعني أن الغضب من الشيطان، ولهذا على الإنسان حين يغضب أن يدعو الله فوراً ويستعِذ بالله من الشيطان الرجيم، وسيقبل الله دعاءه ويحفظه من نزغات الشيطان، وانظر إلى الناحية الظاهرية أيضاً، فإذا ما تيقن المسلم بأن الغضب من الشيطان فإنه سيذهب عنه بمجرد ذكر اسم الله .

أما الأمران الظاهريان لعلاج الغضب فهما أن يجلس الإنسان الغاضب إن كان واقفاً، وإن كان جالساً يستلقي، والهدف من ذلك أن يغير من وضعه الذي هو فيه، مما يبعد للذهن قليلاً عن الغضب فيقل الغضب، والعلاج الثاني هو أن يتوضأ، والهدف من ذلك أن للماء تتسارع في عروق الإنسان بسبب الحرارة التي يولدها الغضب، وتُحمر العينان ويحمر الوجه، وبالتالي فإن استخدام الماء يهدئ الإنسان، وتذهب حرارة الغضب .

أبي، عن جدي عطية قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إن الغضب من الشيطان، وإن الشيطان خلق من النار، وإنما تطفأ النار بالماء، فإذا غضب أحدكم فليتوضأ".
١ المرجع السابق .

حدثنا أحمد بن حنبل، ثنا أبو معاوية، ثنا دلود بن أبي هند، عن أبي حرب بن أبي الأسود، عن أبي ذر. قال: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لنا: إذا غضب أحدكم وهو قائم فليجلس، فإن ذهب عنه الغضب وإلا فليضطجع.

البغض والحقد

لأن تكن في قلبك عدوة مستمرة لأحد يقال له بغض وحقد، وهو أمر سيء للدرجة
أن الله يمتدح من يدعو له لينجي منه :

" ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان، ولا تجعل في قلوبنا غلا للذين آمنوا، ربنا
إنك رؤوف رحيم " (الحشر : ١٠) .

ومن مميزات الجنة أن الأخوة تسود بين أهلها، ولا مجال فيها للبغض والحقد. قال
تعالى :

" ونزعنا ما في صدورهم من غل إخوانا على سرر متقابلين " (الحجر : ٤٧) .

" ونزعنا ما في صدورهم من غل تجري من تحتهم الأنهار " (الأعراف : ٤٣) .

ويعلم من إشارات هذه الآيات أنه لن يذهب الأخوة إلى الجنة طالما بقي بينهم
بغض وحقد، والهدف من تعاليم النبي صلى الله عليه وسلم لنا هو أن نعيش في الدنيا
أيضا حياة أقرب ما تكون إلى حياة الجنة. قال صلى الله عليه وسلم: "أيها الناس لا
تحاسدوا ولا تباعدوا وكونوا عباد الله إخوانا، ولا يحل للمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاثة
أيام" (١) .

بمعنى أنه لو حدث بين أخين لسبب من الأسباب شقاق فلا يجب أن يبقى هذا
الوضع لأكثر من ثلاثة أيام .

يقول الصحابي أبو أيوب رضي الله عنه إن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "لا
يحل للمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث، يلتقيان فيعرض أحدهما عن الآخر، وبخيرهما من
بدأ بالسلم" (٢) .

^١ صحيح البخاري ومسلم ومالك وأبو داود والترمذي والنسائي .

حدثنا بشر بن محمد: أخبرنا عبد الله: أخبرنا معمر، عن همام بن منبه، عن أبي هريرة، عن النبي صلى
الله عليه وسلم قال: (إياكم والظن، فإن الظن كذب الحديث، ولا تحسسوا، ولا تجسسوا، ولا تحاسدوا، ولا
تدابروا، ولا تباعدوا، وكونوا عباد الله إخوانا).

^٢ مالك و البخاري و مسلم و الترمذي و أبو داود .

حدثنا عبد الله بن يوسف: أخبرنا مالك، عن ابن شهاب، عن عطاء بن يزيد، عن أبي أيوب
الأصباري: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (لا تحل لرجل أن يهجر أخاه فوق ثلاث
ليال، يلتقيان فيعرض هذا ويعرض هذا، وبخيرهما الذي يبدأ بالسلام).

وفي رواية أخرى قال صلى الله عليه وسلم: "لا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاثة أيام فإذا انقضت ثلاثة أيام فيلقى كل منهما الآخر ويسلم عليه، إذا رد عليه الآخر السلام كان لكل منهما أجر، وإن لم يرد السلام عاد هذا وقد حمل ثنبا" (١) ، وفي أحاديث أخرى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ترفع أعمال للناس يومي الاثنين والخميس فمن لم يشرك بالله غفر الله له، لكن الله يقول عن بينهما تباغض دعوهما" (٢) ، ويشرح رواية أخرى هذا الحديث فقد قال صلى الله عليه وسلم: "تعرض الأعمال يومي الاثنين والخميس فمن طلب المغفرة غفر له ومن تاب قبلت توبته، لكن أعمال المتباعدين ترد عليهم حتى يعودوا عن تباغضهم" (٣) ، وهناك حديث آخر جاء فيه أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: "ثلاثة لا يغفر لهم، أحدهم من يحمل للحقد في نفسه" (٤) .

عندما نتأمل هذه الأحاديث نجد أنها ساوت بين الشرك والبغض من جانب معين، فالدين عبارة عن شيئين هما حقوق الله وحقوق العباد، ولا يمكن أن يؤدي حق الله تعالى طالما كان هناك شرك به، وهكذا فإن المتباعدين لا يمكن أن يؤديا حقوق بعضهما طالما بقي البغض بينهما، وبالتالي فكما أن الشرك يمنع من حق الله فإن البغض والحقد يمنعان من حقوق العباد، والوفاء بهذين الحقين مفتاح الجنة.

الظلم

جاء لفظ الظلم في القرآن الكريم بعدة معانٍ وقد جاء بكثرة في معان الكفر والشرك والعصيان، لكننا هنا نعني ذلك الظلم الذي يوقعه العباد بالعباد، وقد استخدم القرآن لهذا المعنى لفظين هما (البغي) و(العدوان) ، وهذا للظلم حرام في الشريعة الإسلامية:

"وقل إنما حرم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن والإثم والبغي بغير الحق" (الأعراف: ٣٣) . وقال في موضع آخر:

^١ سند أبو داود .

^٢ مالك و مسلم و أبو داود و الترمذي و أدب المفرد للبخاري .

حدثنا قتيبة. حدثنا عبد العزيز بن محمد عن سهيل بن أبي صالح عن أبيه عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: تفتح أبواب الجنة يوم الاثنين والخميس فيغفر فيها لمن لا يشرك بالله شيئا إلا المتهجرين، يقال: ردوا هذين حتى يصطلحا.

^٣ الطبراني في الأوسط و المنذري - ص ١٦٤ - معر .

^٤ أدب المفرد للبخاري - باب الشقاء .

" وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى " (النحل : ١٣) .

والمراد بالبغى في هاتين الآيتين هو تعدي للحد والتعدي على حقوق الآخرين وظلمهم وهو أمر يمكن أن يهلك الأمة كلها ما لم يتم للتحكم فيه ممن ظلمه حتى يفكر الناس قبل أن يظلم أحدهما الآخر لكن سمح بإيذاء للظالم بقدر الإيذاء الذي أحقه حتى لا يتقضى هذا العيب . قال تعالى :

" والذين إذا أصابهم البغي هم ينتصرون ، جزاء سيئة سيئة مثلها " (الشورى : ٤) . بمعنى أن من يسيء يساء إليه بنفس القدر لكن إذا عفا للمظلوم عن الظالم رغم قدرته على القصاص منه فسوف يجد المظلوم حقه عند الله تعالى ، وسيحرم الظالم من محبة الله :

" فمن عفا وأصلح فأجره على الله إنه لا يحب للظالمين " (الشورى : ٤٠) .

فإذا لم يعف عنه واقتص منه فلا لوم عليه :

" ولمن انتصر بعد ظلمه فأولئك ما عليهم من سبيل " (الشورى : ٤١) .

بينما يكون اللوم على من بADE الناس بالظلم ، وعاث في البلاد فسادا :

" إنما للسبيل على الذين يظلمون الناس ويبيعون في الأرض بغير الحق أولئك لهم عذاب أليم " (الشورى : ٤٢) .

فإذا قتل أحد ظلما فلوليهِ الحق في طلب القصاص منه :

" ومن قتل مظلوما فقد جعلنا لوليه سلطانا فلا يسرف في القتل إنه كان منصورا " (الإسراء : ٣٣) .

والمقصود هو إعانة للمظلوم المقتول في مقابل الظالم القاتل حتى يقوم العدل في الدنيا ، ولكن يجب على أهل القتل أن لا يتعدوا حدودهم في حماس وثورة الانتقام ، فلا يلوثوا أيديهم بدماء أهل القاتل وأعزائه ، وإلا فلن تنتهي هذه السلسلة الجاهلية في الإسلام أيضا .

والمظلوم الحق في أن يفضح أفعال الظالم علانية ، ولذلك فاندتجان ، الأولى أن يتراجع الظالم عن الظلم مخافة سوء السمعة ، والثانية أن تتولد عاطفة المواساة للمظلوم لدى الناس . قال تعالى :

" لا يحب الله الجهر بالسوء من القول إلا من ظلم وكان الله سميعا عليما " (النساء : ١٤٨) .

فإذا لم يعد الظالم عما يفعل فللمسلمين قتاله ، وإخضاعه لقانون الله تعالى :

" فإن بغت إحداهما على الأخرى قاتلوا التي تبغي حتى تفيء إلى أمر الله" (الحجرات: ٩٠).

هذا فيما بين المسلمين بعضهم لبعض، فإذا كان الفريق المخالف كافرا لا يجب ظلمه، وإذا خالف أحد من المسلمين هذا لا ينبغي على المسلمين إعانتة على ذلك. قال تعالى:

" ولا يجرمنكم شنآن قوم أن صدوكم عن المسجد للحرام أن تعتدوا وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان ولتقوا الله إن الله شديد العقاب" (المائدة: ٢).

ويعلم من هذا أن أكثر الوسائل في للقضاء على الظلم تأثيرا في الدنيا هو ما نطلق عليه في أيامنا عدم التعاون، والإسلام أول من أتى بهذا للمبدأ وأمر صراحة أن لا نتعاون مع الظالمين فيما يرتكبون من ظلم وتعدي، وأن لا نشاركهم فيه، وإن كانت صور عدم المشاركة هذه تختلف من عصر إلى آخر.

جاء في الحديث الشريف أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمر المسلمين قائلا: "انصر أخاك ظالما أو مظلوما، فقال الصحابة: يا رسول الله، ننصره مظلوما، فكيف ننصره ظالما، فقال صلى الله عليه وسلم: بأن تمنعه من الظلم" (١)، ولنلق نظرة على هذا الأسلوب الجديد في التعليم، إذ بالترغيب في نصرة الظالم أثار في النفوس شيئا، فإذا ما انتبه السامع بقلبه إلى هذا التعليم العجيب تم استغلال هذا الانتباه، وإرشاده إلى أن نصرة الظالم هي أن تمنعه من الظلم.

ذات مرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في حديث قدسي عن الله تعالى، بأسلوب مؤثر للغاية أن الله تعالى يقول لعباده: "يا عبادي لقد حرمت الظلم على نفسي وعليكم فلا تظلموا" (٢).

١ - صحيح البخاري - أبواب المظالم - و صحيح مسلم - باب نصر الأخ ظالما و مظلوما .

حدثنا مسدد: حدثنا معتمر، عن حميد، عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (انصر أخاك ظالما أو مظلوما). قالوا: يا رسول الله، هذا ننصره مظلوما، فكيف ننصره ظالما؟ قال: (تأخذ فوق يديه).

٢ - صحيح مسلم - باب تحريم الظلم، والترمذي كتاب الزهد، ومسنود أحمد - الجزء الخامس - ١٥٤، ١٦٠، ١٧٧ - وأدب المفرد للبخاري - باب الظلم.

حدثنا عبد الله بن عبد الرحمن بن بهرام الدارمي، حدثنا مروان يعني: ابن محمد الدمشقي . حدثنا سعيد بن عبد العزيز، عن ربيعة بن يزيد، عن أبي إدريس الخولاني، عن أبي نر، عن النبي صلى الله

وفي رواية أخرى قال صلى الله عليه وسلم: "تجنبوا الظلم فالظلم ظلمات يوم القيامة" (١)، والظلمات في اللغة العربية تطلق على الظلم، ومادة الظلم والظلمات في العربية واحدة، ويمكن ترجمتها إلى لغتنا باعتبار هذا المعنى ما معناه أن تظلموا فإن هذا سيكون ظلاماً يوم القيامة ، وهذا عقاب مثالي ، إذ أن الإنسان تعميه بظلمه أو غضبه فيظلم الآخرين ، أو أن هذا العمى يظهر يوم القيامة في شكل ظلام دامس .

يقول سيدنا عبد الله بن عمر رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "المسلم أخ المسلم لا يظلمه ولا يسلمه" (٢) ، ويقول البراء بن عازب أن النبي صلى الله عليه وسلم أمرنا بسبعة أمور، ومن بينها نصرة المظلوم (٣).

وحين جعل رسول الله صلى الله عليه وسلم من سيدنا معاذ رضي الله عنه أميراً وأرسله إلى اليمن نصحه قائلاً: "تجنب دعوة المظلوم فليس بينها وبين الله حجاب" (٤).

عليه وسلم، فيما روى عن الله تبارك وتعالى أنه قال: يا عبادي! إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا،".

١ - صحيح مسلم - باب تحريم الظلم، وصحيح البخاري - أبواب المظالم.

حدثنا عبد الله بن مسلمة بن قعنب، حدثنا دلود، يعني: ابن قيس، عن عبيد الله بن مقسم، عن جابر بن عبد الله: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "اتقوا الظلم، فإن للظلم ظلمات يوم القيامة.....".

٢ - صحيح البخاري - أبواب المظالم.

حدثنا يحيى بن بكير، حدثنا الليث، عن عقيل، عن ابن شهاب: أن سألما أخبره: أن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أخبره: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (المسلم أخو المسلم، لا يظلمه ولا يسلمه،).

٣ - المرجع السابق.

أخبرنا سليمان بن منصور البجلي، قال: حدثنا أبو الأحوص وأخبرنا هناد بن السري في حديثه عن أبي الأحوص، عن أشعث، عن معاوية بن سعد، قال: هناد قال البراء بن عازب، وقال سليمان عن البراء بن عازب قال: (أمرنا رسول الله بسبع، وبتهاتها عن سبع، أمرنا بعبادة المريض، وبتشميت العاطس، وبإبراء القسم، ونصرة المظلوم،).

٤ - صحيح البخاري - أبواب المظالم.

حدثنا يحيى بن موسى، حدثنا وكيع، حدثنا زكريا بن إسحق المكي، عن يحيى بن عبد الله صيفي، عن أبي معاذ مولى ابن عباس، عن ابن عباس رضي الله عنهما: أن النبي صلى الله عليه وسلم بعث معاذاً إلى اليمن، فقال: (اتق دعوة المظلوم، فإنها ليس بينها وبين الله حجاب).

ويقول سينا أبو هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "من ظلم أخاه يجب عليه أن يرد إليه مظلمته قبل أن يأتي يوم لا ينفع فيه دينار ولا درهم، فيؤخذ من حسنات الظالم وتعطى للمظلوم، فإذا انتهت حسناته أخذ من سيئات المظلوم وألقي على الظالم" (١) وقال أيضا: "إن الله ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته" (٢).

وقال صلى الله عليه وسلم: "حين ينجو أهل الإيمان من جهنم يتوقفون عند جسر بين الجنة والنار، وهناك يتم رد المظالم ممن ظلم في الدنيا، وحين ينجون من هذا أيضا يسمح لهم بدخول الجنة عندئذ" (٣).

الفخر والغرور

عندما توجد في شخص ما صفة تميزه فمن الطبيعي أن ينشغل بها في قلبه، وهذا ليس عيبا أخلاقيا، ولكن عندما يزيد اهتمامه بما يميزه بدرجة تجعله يحتقر أولئك الذين لا يتمتعون بهذه الصفة ويظنهم أقل منه فإن هذا يعد كبرا، وإظهار هذا الكبر يعد تكبرا، وأول من ظهرت فيه هذه الصفة الأخلاقية السيئة في الدنيا هو الشيطان، فقد اعتبر نفسه أرقى وأعلى في مقابل آدم، وصاح قائلا: "أنا خير منه" (الأعراف: ١٢).

١ - المرجع السابق.

حدثنا آدم بن أبي إيس: حدثنا ابن أبي ذئب: حدثنا سعيد المقبري، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (من كانت له مظلمة لأحد من عرضه أو شيء، فليتحلله منه اليوم، قبل أن لا يكون دينار ولا درهم، إن كان له عمل صالح أخذ منه بقدر مظلمته، وإن لم تكن له حسنات أخذ من سيئات صاحبه فحمل عليه).

٢ - صحيح مسلم - باب تحريم الظلم.

حدثنا محمد بن عبد الله بن تمير: حدثنا أبو معاوية: حدثنا بريد بن أبي بردة، عن أبيه، عن أبي موسى، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إن الله عز وجل يملئ للظالم، فإذا أخذه لم يفلته".

٣ - صحيح البخاري - أبواب المظالم.

حدثنا إسحاق بن إبراهيم: أخبرنا معاذ بن هشام: حدثني أبي، عن قتادة، عن أبي المتوكل النخعي، عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "إذا خلص المؤمنون من النار بقطرة بين الجنة والنار، فينقلصون مظالم كانت بينهم في الدنيا حتى إذا نقوا وهذبوا، لأن لهم بدخول الجنة، فوالذي نفس محمد صلى الله عليه وسلم بيده، لأحدهم بمسكنه في الجنة أدل بمنزله كان في الدنيا".

لقد خلق آدم من طين بوانا خلقت من النار بواناء على تفاخره هذا جعله الله رجيمًا وقال: "قاهبط منها فما يكون لك أن تتكبر فيها فاخرج إنك من الصاغرين" (الأعراف: ١٣).

والكبر والغرور شيء نسبي لا يكفيه أن تتخيل ما في نفسك من عظمة فقط بولما يستدعي ذلك تحقير الآخرين بولهذا جاء في الحديث الشريف أن شخصًا جميلًا سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم قائلاً: "أنا رجل جميل وأحب للجمال بولأحب أن يتفوق أحد علي في الجمال، أليكون هذا تكبرًا؟ فقال صلى الله عليه وسلم: للتكبر هو أن لا تقبل الحق وتحقير الناس" (١).

وهذا الوضع الإضافي للتكبر هو الذي جعل منه منبعًا للمساوئ الدينية والأخلاقية والاجتماعية بولم يكن يعارض الأنبياء سوى أولئك الذين يعتبرون أنفسهم أفضل من الآخرين بولولا هؤلاء لقبل عامة الناس والفقراء دعوة الأنبياء: "وبرزوا لله جميعًا قال للضعفاء للذين استكبروا إنا كنا لكم تبعا فهل أنتم مغنون عنا من عذاب الله من شيء" (إبراهيم: ٢١).

لقد أعطى الله تعالى سيدنا موسى وسيدنا هارون معجزات كبيرة وأرسلها إلى فرعون وملأه ولكنهم لم يقبلوا الهداية التي أرسلها الله إليهم لأنهم يعتبرون أنفسهم الأعظم والأفضل: "فاستكبروا وكانوا قوماً عالين" (المؤمنون: ٤٦).

وبناء على هذا التكبر فإنهم لم يقبلوا أن يطيعوا شخصًا مثلهم يأكل ويشرب ويمشي في الأسواق فقد كان من العار لهم أن ينضموا إلى حلقة تجمعهم مع عامة الناس:

"فقال الملأ الذين كفروا من قومه ما نراك إلا بشرا مثلاً وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراملنا بادي الرأي وما نرى لكم علينا من فضل بل نظنكم كاذبين" (هود: ٢٧).

^١ - أبو داود - كتاب اللباس - باب ما جاء في الكبر

حدثنا أبو موسى محمد بن المثنى ثنا عبد الوهاب ثنا هشام، عن محمد، عن أبي هريرة، أن رجلاً أتى النبي صلى الله عليه وسلم وكان رجلاً جميلاً فقال يا رسول الله، إني رجل حبيب إلي الجمال، وعطيت منه ما ترى حتى ما أحب أن يفوقني أحد، إما قال بهشراك نعلي، وإما قال بهشسع نعلي، أفمن الكبر ذلك؟ قال: لا، ولكن الكبر من بطر الحق وغمط الناس.

المهم أن الذين أنكروا دعوة الأنبياء هم الذين يعتبرون أنفسهم لسبب ديني أو قومي أو سياسي أو لأي سبب آخر أفضل من الآخرين، أو أفضل من الأنبياء أنفسهم، ولهذا نم الله تعالى بشدة أمثال هؤلاء في القرآن الكريم وبأساليب مختلفة حتى تبدو للجميع كل مدارج الكبر والغرور، فإذا كان اللفظ العام في هذه الحالة هو الاستكبار ومشتقاته، فإنه عبر عنه في بعض المواضع بلفظ العزة:

"بل للذين كفروا في عزة وشقاق" (ص: ٢).

وفي بعض الأحيان استخدم لفظاً أقوى من ذلك:

"كذلك يطبع الله على كل قلب متكبر" (غافر: ٣٥).

وفي موضعين استخدم لفظ عم الحب للمختال للفخور المستكبر وهو المتكبر، وقال

تعالى أن مثل هذا المغرور محروم من عزة محبتي:

"إن الله لا يحب من كان مختالاً فخوراً" (النساء: ٣٦).

"إنه لا يحب المستكبرين" (النحل: ٣).

كما بشر أمثال هؤلاء بجهنم:

"أليس في جهنم مثوى للمتكبرين" (الزمر: ٦٠).

"فبئس مثوى للمتكبرين" (الزمر: ٧٦).

وجاءت هذه الشدة مع المغرورين لأن غرورهم يمنعهم من قبول الحق، ولا يمكن إحصاء المساوي التي تنتج عن الكبر والغرور من الناحية الأخلاقية والاجتماعية، على سبيل المثال فإن المتكبر يعتبر الجلوس مع عامة الناس واختلاطه بهم والحديث معهم أمراً يقلل من شأنه، ويرغب في أن يخضع الناس له، ويقفوا أذلاء أمامه، بل إنه لا يعتبر كثيراً من الناس جديرين بهذا الشرف، وحين يلتقي بالناس يريد أن يبدأه الناس بالسلام، ويريد أن يكون أمام الناس في كل طريق يمشون فيه، ويحاول أن يكون رئيساً للمجالس، المهم أن ثمرات هذا الكبر تظهر في آلاف الصور، ولهذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لن يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال حبة من خردل من الكبر" (١)، وقد شرح الإمام الغزالي فلسفة هذا الحديث بأن أخلاق المسلمين

^١ - أبو دارود - كتاب اللباس - باب ما جاء في الكبر.

هي أبواب الجنة، والغرور يغلق كل هذه الأبواب، ولذا فإن الشخص الذي يكون بداخله ولو ذرة من الغرور لن يدخل الجنة، بمعنى أنه سيكون في الآخرة منفصلاً عن الناس كما كان في الدنيا.

ولأن هذا العيب الأخلاقي موجود في كل طبقات الناس، وتظهر نتائجه في صور متعددة لذا يكون من الصعب استقصاؤه، إلا أن للشرعية وضحت بعض نتائجه، على سبيل المثال فإن مظاهر الكبر والغرور التي تتعلق بالأمراء والسلاطين يقول عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إن الشخص الذي يحب أن يقف الناس أمامه عليه أن يتبوأ مقعده من النار"، وذلك مرة خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم متكئاً على عصاه فوقف الصحابة تعظيماً له، فقال: لا تقفوا تعظيماً لي مثلاً يفعل العجم^(١).

ومما يعد كذباً إضافة ألقاب إلى الاسم دون أن تكون حقيقة في الواقع، فإن كانت حقيقة فإنها نزيعة إلى الفخر والغرور، وكان ملوك العجم يطلقون على أنفسهم لقب ملك الملوك من باب للفخر^(٢)، وقد ذكر الله تعالى بعض المظاهر السيئة للكبر والغرور في القرآن الكريم، فقال على سبيل المثال:

"ولا تمش في الأرض مرحاً، إنك لن تخرق الأرض ولن تبلغ الجبال طولا" (الإسراء: ٣٧). "ولا تصعر خدك للناس ولا تمش في الأرض مرحاً إن الله لا يحب كل مختال فخور" (لقمان: ١٨). كما وضع شأن للمنتب في قوله: "ثاني عطفه" (الحج: ١). وقال صلى الله عليه وسلم: "من جر ثوبه خيلاء لم ينظر الله إليه يوم القيامة"^(٣).

حدثنا أحمد بن يونس، حدثنا أبو بكر يعني ابن عياش، عن الأعمش، عن إبراهيم، عن علقمة، عن عبد الله قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال حبة من خردل من كبر، ولا يدخل النار من كان قلبه مثقال خردلة من إيمان.

^١ - أبو داود - كتاب الأدب - باب في قيام الرجل للرجل.

حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة، حدثنا عبد الله بن نمير، عن مسعر، عن أبي العباس، عن أبي العباس، عن أبي مرزوق، عن أبي غالب، عن أبي أمامة قال: خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم متوكئاً على عصاه، فقمنا إليه فقال: لا تقوموا كما تقوم الأعرج يعظم بعضها بعضاً.

^٢ - صحيح البخاري.

^٣ - أبو داود - كتاب اللباس - باب ما جاء في إسبال الإزار.

وجاء في حديث آخر أنه فيمن كان قبلكم شخص يلبس لباسا ويغتر به ،فأمر الله الأرض أن تبخله،ولا يزال يغوص في الأرض حتى يوم القيامة^(١) ،وعلى العكس من ذلك هناك كثير من الأفعال التي تدل على التواضع بوقال عنها الله تعالى أنها من صفات عباد الرحمن:

"وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما"^(الفرقان:٦٣).

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتناول طعامه وهو جالسا للقرفصاء ،وكان أحد البدو موجودا معه ،فسأله البدوي:ما هذه الطريقة في الجلوس؟قال صلى الله عليه وسلم: لقد خلقني الله شريفا،لا متكبرا ولا متردا^(٢).

وكان هناك أحد الصحابة للذين كان يعتبرهم للناس مغرورين متكبرين ،وكان يرد على الناس ما يظنون فيه يقول:يظن الناس أنني مغرور في حين أنني أركب الحمار والتحف بالرداء وأحلب للشاة،وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لي:أن الشخص الذي يفعل هذا لا غرور فيه^(٣).

وهناك أسباب كثيرة للكبر والغرور،ولكن الأشياء التي يتفاخر بها أهل الدنيا عادة هي الحسب والنسب والجمال والقوة وكثرة الأعوان ،وقد وضع

حدثنا الثعلبي، حدثنا زهير، حدثنا موسى بن عقبة، عن سالم بن عبد الله، عن أبيه قال:قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:من جر ثوبه خيلاء لم ينظر الله إليه يوم القيامة فقال أبو بكر:إن أحد جاتيبي إزار يسترخي،بني لأتعاهد ذلك منه،قال:لمست ممن يفعله خيلاء.

^١ -الترمذي - أبواب البر والصلة - باب ما جاء في الكبر.

^٢ -ابن ماجه - كتاب الأطعمة - باب الأكل متكئا.

حدثنا عمرو بن عثمان بن سعيد بن كثير بن دينار الحمصي،حدثنا أبي،أنبأنا محمد بن عبد الرحمن بن عرق،حدثنا عبد الله بن بسر،قال:أهديت للنبي صلى الله عليه وسلم شاة فحشا رسول الله صلى الله عليه وسلم على ركبتيه لكل فقال أعرابي:ما هذه الجمسة؟فقال:إن الله جعلني عبدا كريما،ولم يجعلني جبلا غفيدا.

^٣ -الترمذي - أبواب البر والصلة - باب ما جاء في الكبر.

حدثنا علي بن عيسى البغدادي،حدثنا شبابة بن سوار،حدثنا ابن بهي ثوب عن القاسم بن عباس عن نافع بن جبير بن مطعم عن أبيه قال:تكونون في التيه وقد ركبت الحمار ولبست الشملة وقد حلبت الشاة ،وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:من فعل هذا فليس فيه من تكبر شيء.

الإسلام رأيه في كل سبب منها في أن ليا منها ليس ذريعة للفخر والغرور: "يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا" (الحجرات: ١٣).

ثم قال بعد ذلك أن مدار العظمة والشرف ليس على الحسب والنسب، وإنما على الفضائل الروحانية: "إن أكرمكم عند الله لتقاكم" (الحجرات: ١٣).

وقد شرح رسول الله صلى الله عليه وسلم الأمر أكثر فقال: "لقد محا الله تعالى غرور جاهليتكم والتفاخر بالأباء والأجداد، وألغى هناك إلا قسمان من الناس هما المؤمن للمتيقن، والسيئ الفاسق، كلكم أيها الناس لأنتم، وأنتم من ترائب، فليترك الناس التفاخر على بعضهم البعض، فسيكون ذلك حطب جهنم، وهل هناك أكثر ذلا ممن يجر النجاسة بقمه" (١).

أما فيما يتعلق بالزينة الظاهرية للجسم والحفاظ على نظافته فإنه يعد أمرا من أمور الجمال الجديرة بالاحترام، وهكذا حين استفسر شخص جميل منه صلى الله عليه وسلم بأنني أحب أن تكون ملابسي نظيفة وممتازة فقال صلى الله عليه وسلم: "الله جميل يحب الجمال" (٢)، أي أن هذا ليس من الغرور، إلا أنه في الحالات التي يكون فيها الجمال ذريعة لإظهار الكبر والغرور فإن الشريعة منعها، وهكذا نصح رسول الله صلى الله عليه وسلم شخصا بنصائح أخلاقية منها أن لا تسبل ليزارك إلى أقصى حد، لأن هذا لون من الغرور، والله لا يحب المختالين للمغرورين" (٣).

١ - الترمذي - أبواب البر والصلة - باب ما جاء في الكبر.

٢ - أبو داود - كتاب اللباس - باب ما جاء في إسبال الإزار.

حدثنا أبو موسى محمد بن المثنى، حدثنا عبد الوهاب، حدثنا هشام، عن محمد، عن أبي هريرة، أن رجلا أتى النبي صلى الله عليه وسلم وكان رجلا جميلا فقال يا رسول الله، أتسي رجل حبيب إلي الجمال، وعطيت منه ما ترى، حتى ما أحب أن يفوقني أحد، إما قال يشاركني، وإما قال يشجعني، أفمن الكبر ذلك؟ قال: لا، ولكن الكبر من بطر الحق وغمط الناس.

٣ - الترمذي - كتاب الزهد - باب ما جاء في الزهادة في الدنيا.

حدثنا مسدد، حدثنا يحيى، عن أبي غفار، حدثنا أبو تيمية الهجيمي، وأبو تيمية اسمه طريف بن مجالد، عن أبي جري جابر بن سليم قال: رأيت رجلا يصدر الناس عن رأيه لا يقول شيئا إلا صدروا عنه، قلت: من هذا؟ قالوا: هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم، قلت: عليك السلام يا رسول الله مرتين، قال: لا تقل: عليك السلام فإن عليك السلام تحية للميت، قل: السلام عليك قال: قلت: أنت رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ قال: أنا رسول الله الذي إذا أصابك ضرر فدعوتك كشفه عنك، وإن أصابك عام

وقد أعطى الإسلام للمال والثروة أهمية من الناحية الاجتماعية والحياتية، وعبر بأنها قوام وخير، وحرّم تضييع المال، واعتبر للحفاظ عليها ضرورياً حتى قرر أن للشخص الذي يموت نفاعاً عن ماله فهو شهيد، ومع ذلك فلو جعل المال وسيلة للكبير والغرور فإن حقيقته لا تريد عن مراب:

"اعلموا إنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر في الأموال والأولاد" (الحديد: ٢٠).

ومن الأسباب التي جعلت للمال والثروة أمراً سيئاً أنه يصير وسيلة للكبير والغرور والتفاخر بين الناس، بينما لا تريد مكانته عن كونه يحقق و يلبى مطالب صاحبه والآخرين. جاء في الحديث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: لقد أغفلكم طلب المال والثروة، يقول ابن آدم مالي، في حين أن مالك هو الذي تصدقت به وأكلته ولبسته^(١).

والقوة شيء يمكن من خلالها تحقيق الأهداف السياسية والدينية والدنيوية، ولهذا فهي في مثل هذه الأحوال تستحق الثناء، وهذا هو السبب في أن الله تعالى قال عن موسى في القرآن الكريم أنه (قوي أمين)، وقد عبر سيدنا لوط في أحد المواقف عن حسرته قائلاً: قال لو أن لي بكم قوة أو آوى إلى ركن شديد" (هود: ٨٠).

كما وضع الله تعالى في آية أخرى فضله على الناس جميعاً قائلاً: "الله الذي خلقكم من ضعف ثم جعل من بعد ضعف قوة" (الروم: ٥٤).

وأمر المسلمين أن يجعلوا لأنفسهم قوة وعدة وعتاداً: "وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم" (الأنفال: ٦٠).

كما وردت الإشارة إلى فضيلة القوة في الأحاديث أيضاً، ففي الحديث "أن المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف"^(٢)، ورغم أن فضيلة الضعف وردت في

سنة فدعوته أنبتها لك، وإذا كنت بأرض قراء أو فلاة فضلت راحتك فدعوته ردها عليك قال قلت: أعهد إلي وإياك وإسبال الإزار فيتأمن من المخيلة، وإن الله لا يحب المخيلة

^١ - الترمذي - كتاب الزهد - باب ما جاء في الزهادة في الدنيا.

حدثنا محمود بن غيلان حدثنا وهب بن جرير حدثنا شعبة، عن قتادة، عن مطرف، عن أبيه أنه انتهى إلى النبي صلى الله عليه وسلم وهو يقول: "للهكم للتكثر قال يقول ابن آدم مالي مالي، وهل لك من مالك إلا ما تصدقت فأمضيت أو أكلت فالتفتيت لو لبست فلبيت.

^٢ - مسلم - كتاب القدر - باب في الأمر بالقوة وترك العجز.

أحاديث عدة، إلا أنه بالتأمل والتمعن يعلم أن للضعف ليس فضيلة في الحقيقة ، وإنما للفضيلة هي التواضع والانكسار ، وهو صفة تستحق الإشادة ، ولذلك جاء الضعف في بعض الأحاديث في مقابل للكبر والغرور .

جاء في الحديث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "ألا أخبركم بأهل الجنة ، كل ضعيف مستضعف ، ألا أخبركم بأهل النار ، كل عتل جواط متكبر" (١) .
وجاء في حديث آخر : "الجبارون للمتكبرون وقالت هذه : يدخلني للضعفاء والمساكين" (٢) .

ويعلم من هذه الأحاديث أن للضعف ليس صفة تستحق الإشادة بها في الإسلام ، ولكنها عدت فضيلة باعتبار التواضع والانكسار ومظهر من مثل هذه الصفات .
ولقد كانت كثرة الأعداء والأصدقاء دائما أمرا يتميز به الإنسان ، وخاصة في الأمم غير المتمدنية والتي تتفاخر دائما بكثرة المال والأولاد ، وفي نشوة هذا التفاخر كانوا يحتقرون الأمم الأخرى بل ويغفلون عن الله تعالى ، وكان في الزمن السابق رجل من هذا النوع يفخر كثيرا بكثرة ماله وأعدائه وأصدقائه ، وكان يتصور أن هذه الأشياء خالدة ، ولن تقوم الساعة ، وحتى لو قامت الساعة فسيكون هذا شأنه ، وبهذا السبب كان يحتقر شخصا آخر : "أنا أكثر منك مالا وأعز نفرا" (الكهف : ٣٤) .

حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة ، وابن نمير ، قالوا : حدثنا عبد الله بن إدريس ، عن ربيعة بن عثمان ، عن محمد بن يحيى بن حبان ، عن الأعرج ، عن أبي هريرة ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف) .

١ - البخاري - كتاب الأدب - باب الكبر .

حدثنا محمد بن كثير : أخبرنا سفيان ، عن معبد بن خالد القيسي ، عن حارثة بن وهب الخزاعي ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (ألا أخبركم بأهل الجنة ؟ كل ضعيف متضاعف ، لو أقسم على الله لأبره ، ألا أخبركم بأهل النار ؟ كل عتل جواط متكبر) .

٢ - مسلم - كتاب صفات المنافقين ، وأحكام باب النار يدخلها الجبارون .

حدثنا ابن أبي عمير ، حدثنا سفيان عن أبي الزناد ، عن الأعرج ، عن أبي هريرة ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : احتجت الجنة والنار ، فقلت هذه يدخلني الجبارون والمتكبرون ، وقالت هذه : يدخلني للضعفاء والمساكين ، فقال الله عز وجل لهذه : أنت عذابي أعذب بك من إنشاء وربما قال : أصيب بك من إنشاء ، وقال لهذه : أنت رحمتي أرحم بك من إنشاء ، ولكل واحدة منكما ملؤها .

أما الشخص الآخر فكان يقول له في لهجة ناصحة أن هذا القدر من الكبر والغرور لا يليق بالإنسان الضعيف: "أكفرت بالذي خلقك من تراب ثم من نطفة ثم سواك رجلاً" (الكهف: ٣٧).

وكانت النتيجة أن عذاب الله تعالى قضى على ثروته ومحاها بعندئذ علم أن الأشياء غير الخالدة لا تستحق للتفاخر بها، وكان للعرب كذلك يفخرون بهذه الأمور، وكانوا يفخرون دائما بكثرة أفراد القبيلة، وأكثر من هذا أنهم كانوا يتفاخرون بموتاهم جنباً إلى جنب مع الأحياء، وكانوا يتفاخرون فيما بينهم بهذا، ويظهر لفظ (التكاثر) ليدل على هذا التسابق في التفاخر، وهو الذي أغفلهم عن الأمور الدينية، ولهذا خاطب الله تعالى الإنسان في سورة خاصة وعاتبه قائلاً: "ألهاكم للتكاثر، حتى زرتم المقابر" (التكاثر). ومع ذلك فإن الإسلام لا يتجاهل هذا الأمر تماماً، وإنما يعتبر زيادة النسل أمراً يستحق الإشارة من الناحية الاجتماعية والحضارية بشرط أن يتم توظيف هذه الزيادة في نصرة الحق وليس في الفخر والغرور، ولهذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "تزوجوا الولود فإني مكاثر بكم الأمم" (١).

واليوم غيرت قضية الكثرة والقلة هذه وجهة السياسة لدى الشعوب والدول، ولم يغفل الإسلام عن هذا الأمر.

الرياء

للرياء من حيث اللغة معنى المراءاة والاستعراض، وحقبة الأعمال الإنسانية مبنية على النوايا والأغراض، ولهذا فإن أكثر مدار صلاح الأعمال وعدم صلاحها على الغرض والنية، وقد جاء في الحديث الصحيح "إنما الأعمال بالنيات".

والرياء يفسد أساس غرض وغاية الأعمال أي النية، وبذلك يخلخل للمبنى كاملاً ويضعفه، والهدف الأصلي للاستعراض والرياء هو أن يظهر الإنسان حسناته وسيئاته، ويخلق لنفسه ظناً حسناً بين الناس، وأن يظهر نفسه أعظم مما هو

١- أبو داود - كتاب النكاح - باب في تزويج الأبكار.

حدثنا أحمد بن إبراهيم، حدثنا يزيد بن هارون، أخبرنا مسلم بن سعيد بن أخت منصور زاذان، عن منصور يعني ابن زاذان عن معاوية بن قرة، عن معقل بن يسار قال: جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: إني أصبت امرأة ذات حسب وجمال، وإنها لا تكذب أفترؤها؟ قال: لا ثم أتاه الثانية فنهاه، ثم أتاه الثالثة فقال: تزوجوا الولود فإني مكاثر بكم الأمم.

عليه بالغرور كذلك أساسه هذه للرغبة، لأنه يهدف هو الآخر إلى تعظيم النفس ومראה الناس، ولهذا جمع القرآن للكرام بين هذين العيين في موضع واحد، وبين مساوءهما، وأمر الله للمسلمين في الجهاد أن يغتروا بقوتهم، وأن لا يكون الهدف من الجهاد هو استعراض هذه القوة، وإنما حماية الحق ورفع كلمة الله تعالى. قال تعالى: "ولا تكونوا كالذين خرجوا من ديارهم بطرا ورئاء للناس" (الأنفال: ٤٧).

ويظهر هذا الرياء والاستعراض في كل عمل لا يكون خالصا لوجهه تعالى، حيث يكون وراءه هدف دنيوي، ولهذا أطلق الإسلام على الرياء اسم الشرك الخفي والشرك الأصغر، لأنه يشرك في هذه الأعمال بخلطها بالأفراض الدنيوية شيئا آخر مع الله تعالى، ولهذا يقول تعالى: "أرأيت من اتخذ إليه واه" (الفرقان: ٤٣).

وجاء في الحديث أن الله تعالى يقول: "لنا أغني الشركاء عن الشرك، فمن عمل عملا أشرك فيه معي غيري فلا علاقة لي به، فهو لمن أشرك"، ويروي أحد الصحابة أنه حين يجمع الله الأولين والآخرين يوم القيامة ينادي مناد من عمل عملا لله أشرك فيه معه غيره، فيطلب أجره ممن أشركه، فإله غني عن الشرك.

وجاء في الحديث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: إن أخوف ما أخاف على أمتي من بعدي للشرك، لكنني لا أقول أنهم سيعبدون الشمس والقمر والأصنام، وإنما سيشركون مع الله في أعمالهم آخرين أو يقومون بها لرغبة خفية^(١).

وأما شيء في الإسلام بعد الكفر هو النفاق، فما هو النفاق؟ إنه أن يكون في القلب شيء وعلى اللسان شيء آخر، فتكون نتيجته أن إيمان المنافق وأعماله في الخير ليست إلا رياء واستعراضا ومראה، فهو ينكر وجود الله تعالى من قلبه، ولكنه يؤدي الأعمال الدينية خوفا من شيء، أو لتحقيق فوائد دنيوية، وبهذا الاعتبار بين الله صفات المنافقين في قوله: "يا أيها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم باليمن والأذى كالذي ينفق ماله رئاء للناس ولا يؤمن بالله واليوم الآخر" (البقرة: ٢٦٤).

^١ سنن ابن ماجه - باب الرياء والسمعة.

حدثنا محمد بن خلف الصنعاني، حدثنا رواد بن الجراح، عن عمر بن عبد الله، عن الحسن بن نكوان، عن عبادة بن نسي، عن شداد بن أوس، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إن أخوف ما أخوف على أمتي: الإشراك بالله، أما إني لست أقول يعبدون شمسا ولا قمرًا ولا وثنا، ولكن أصالا لغر الله وشهوة خفية.

ولأعمال الرياء لدى المنافقين صور مختلفة، منها أنهم يهدفون إلى الانضمام إلى جماعة ما، ومنها أنهم يهدفون إلى التأثير على الناس واستمالتهم إليهم، ولأن الهدف الأول يمكن تحقيقه من الأفعال بعامة لهذا فإنها تؤدي بغفلة وعدم اهتمام، على العكس من ذلك بالنسبة للهدف الثاني يضطر معها المنافق إلى لصطناع للخشوع والخضوع والاستغراق والانهماك في التقوى .

ولم يكن للمنافقين هدف في عهد النبوة سوى أن يكونوا منضمين في الظاهر لجماعة المسلمين، ولذا فإنهم كانوا يؤدون العبادات لليومية في الإسلام ولو بدون اهتمام أو تركيز، حتى يبقى للمسلمون على اعتقادهم بأنهم معهم ومنهم، ولهذا فإن أعمال مثل هذا الشخص تخلو من الإخلاص، ولا تكون لله تعالى :

" إن المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم، وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى، يراءون للناس ولا يذكرون الله إلا قليلاً " (النساء : ١٤٢) .

" فويل للمصلين الذين هم عن صلاتهم ساهون والذين هم يراءون " (الماعون : ٥) .
وجاء في سنن ابن ماجه أن الصحابة ذكروا ذات مرة المسيح الدجال إذ خرج عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال: هل أخبركم بشيء هو أخطر عليكم عندي من المسيح الدجال. قال الصحابة بلى يا رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: الشرك الخفي، وأن يقوم الشخص للصلاة متريناً لها لأن شخصاً آخر يراه " (١) .

ولأن الرياء يفسد أصل الأعمال وشكلها فإن الرسول صلى الله عليه وسلم جعل من الضروري القضاء عليه تماماً، وحذر أئمة من الوقوع فيه، ومن هنا منع رسول الله صلى الله عليه وسلم من كل صور الرياء التي يمكن أن تظهر طبقاً لفترة الإنسان وواضعاً في الاعتبار الحالة الأخلاقية الخاصة بالعرب في ذلك الوقت، على سبيل المثال كان أول شيء في هذا الخصوص الذي كان يعد في ذلك الوقت علامة على السمعة الطيبة والكرامة، وكانت له أهمية كبيرة بين الفضائل الأخلاقية عند العرب، وكان الناس

^١ ابن ماجه - باب الرياء و السمعة .

حدثنا عبد الله بن سعيد، حدثنا أبو خالد الأحمر، عن كثير بن زيد، عن ربيع ابن عبد الرحمن بن أبي سعيد الخدري، عن أبيه، عن أبي سعيد قال: خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ونحن نتذكر المسيح الدجال ، فقال : ألا أخبركم بما هو أخوف عليكم عندي من المسيح الدجال قال : قلنا : بلى ، فقال : الشرك الخفي أن يقوم الرجل يصلي فيزين صلاته لما يرى من نظر رجل .

ينفقون أموالاً طائلة لمجرد الشهرة، وقد أمر الله بالصدقات، وعندئذٍ لاح خطر ظهور هذا العيب، ولهذا بينت الآيات القرآنية والأحاديث النبوية فضيلة إخفاء الصدقات ما عدا الزكاة، وذلك حتى لا يمس أعمال الناس شيء من الرياء :

"إن تبدو للصدقات فتعماً هي وإن تخفوها وتؤتوها للفقراء فهو خير لكم" (البقرة: ٢٧١). وجاء في الحديث أن هناك سبعة يظلمهم الله بظلمه يوم لا ظل إلا ظله، ومن هؤلاء السبعة رجل أخفى صدقته حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه^(١).

ولقد كان أشهر ما عند العرب من الصفات الأخلاقية وأحسنها شجاعتهم، وفرض الإسلام الجهاد فهياً بذلك فرصة عظيمة لإظهار للشجاعة، وبالإضافة إلى ذلك فهناك العديد من الفوائد الشخصية والدينية التي يمكن تحقيقها عن طريق الجهاد، ولهذا فإن الجهاد معرض لأن يكون فرصة للرياء والتظاهر، لكن الإسلام نزه الجهاد عن كل هذه الأشياء وأخبر المسلمين عن حقيقته، وقد سأل رجل رسول الله صلى الله عليه وسلم قائلاً: شخص يحارب لمال الغنمية، وآخر يحارب للشهرة وثالث لإظهار الشجاعة، فمنهم من يكون جهاده في سبيل الله، فقال صلى الله عليه وسلم: ذلك الذي يجاهد لتكون كلمة الله هي العليا.

وجاء أيضاً أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سئل: شخص يحارب لإظهار الشجاعة، وشخص للحمية القومية وشخص يحارب رياء، فمنهم من يكون جهاده في سبيل الله، فأجابهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بالإجابة السابقة^(٢).

^(١) البخاري - كتاب الزكاة - باب الصدقة باليمين.

حدثنا مسدد: حدثنا يحيى، عن عبيد الله قال: حدثني خبيب بن عبد الرحمن، عن حفص بن عاصم، عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (سبعة يظلمهم الله تعالى في ظله يوم لا ظل إلا ظله: إمام عدل، وشاب نشأ في عبادة الله، ورجل كلبه معلق في المساجد، ورجلان تحابا في الله، اجتمعا عليه وتفرقا عليه، ورجل دعت امرأة ذات منصب وجمال، فقال: إني أخلف الله، ورجل تصدق بصدقة، فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه، ورجل نكر الله خالياً ففاضت عيناه).

^(٢) مسلم - كتاب الإمامة - باب من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله.

حدثنا سليمان بن حرب: حدثنا شعبة، عن عمرو، عن أبي وائل عن موسى رضي الله عنه قال: جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: الرجل يقاتل للمقيم، والرجل يقاتل للذكر، والرجل

وهناك مظهر أكثر وضوحاً للرياء وهو الفضيلة العلمية، وهذه الفضيلة العلمية خلقها الإسلام، ومن الممكن أن يظهر فيها الرياء، ولهذا فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم أخبرنا بالنتائج السيئة لهذا وبأسلوب مؤثر، فقال في الحديث: إن أول شخص يحكم عليه يوم القيامة هو ذلك الشخص الذي استشهد، فسوف يمثل أمام الله ويعرفه الله فضله وإحسانه عليه، ثم يسأله ماذا فعلت بكل هذا، فيقول لقد حاربت في سبيلك واستشهدت، فيقول الله: أنت تكذب لقد حاربت ليقال شجاع، ثم يسحب ويلقي في نار جهنم، ثم يؤتى بذلك الشخص الذي حصل للعلم وعلم للناس وقرأ القرآن، ويسأل فيجيب لقد تعلمت للعلم وعلمته، وقرأت القرآن لأجلك، فيقول الله: إنك تكذب، لقد حصلت للعلم ليقال عالم، وقرأت القرآن ليقال قارئ، ثم يسحب ويلقي به في نار جهنم، ثم يؤتى بذلك الشخص الثري، ويسأل فيقول: لقد أنفقت كل مالي فيما تحب أن ينفق فيه، فيقول الله: إنك تكذب، لقد أنفقت كل هذا ليقال مخي، ويسحب ويلقي به في جهنم^(١).

يقتل ليرى مكانه، فمن في سبيل الله؟ قال: (من قتل لتكون كلمة الله هي العليا، فهو في سبيل الله).
 ١ مسلم - كتاب الإمارة .

حدثنا يحيى بن حبيب الحارثي، حدثنا خالد بن الحارث، حدثنا ابن جريج، حدثني يونس بن يوسف، عن سليمان بن يسار، قال: تفرق الناس عن أبي هريرة، فقال له نقل أحد أهل الشام: أيها الشيخ! حدثنا حديثاً سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: نعم. سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: إن أول الناس يقضى يوم القيامة عليه، رجل استشهد، فأتى به فعرفه نعمه فعرفها، قال: فما عملت فيها؟ قال: قاتلت فيك حتى استشهدت، قال: كذبت، ولكنك قاتلت لأن يقال جريء، فقد قيل، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار، ورجل تعلم العلم وعلمه وقرأ القرآن، فأتى به، فعرفه نعمة فعرفها، قال: فما عملت فيها؟ قال: تعلمت للعلم وعلمته وقرأت فيك القرآن، قال: كذبت، ولكنك تعلمت للعلم ليقال عالم، وقرأت القرآن ليقال هو قارئ، فقد قيل، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار، ورجل وسع الله عليه وأعطاه من أصناف المال كله، فأتى به فعرفه نعمة فعرفها، قال: فما عملت فيها. قال: فما عملت فيها؟ قال: ما تركت من سبيل تحب أن ينفق فيها إلا أنفقت فيها لك، قال: كذبت، ولكنك فعلت ليقال هو جواد. فقد قيل، ثم أمر به فسحب على وجهه، ثم ألقي في النار.

العجب وحب الذات

ونعني بالعجب وحب الذات حب الشخص لنفسه بشكل غير طبيعي، والفرق بينه وبين الكبر هو أن الكبر أمر إضافي بمعنى أن المتكبر يعتبر نفسه أعظم من الآخرين، لكن الأثاني تكفيه ذاته فقط حتى أنه لو كان هو المخلوق الوحيد لتفاخر أيضا بصفاته ومميزاته .

والحقيقة أنه في بعض الأحيان يهيم الإنسان بما لديه من مميزات وأوصاف لدرجة يبدو له كل شيء آخر حقير، وتبدو له هذه الأوصاف التي يتميز بها وكأنه من اختياره هو ومن صنعه هو وهذا هو ما نسميه للعجب، ومنه يظهر حب النفس والأثانية، وفي أكثر الأحوال يكون العجب سببا في الكبر .

كان عدد المسلمين في غزوة حنين أكثر من للكفار، فلما رأى المسلمون هذا تولد لديهم العجب فقالوا من يستطيع مواجهة هؤلاء يحب الله تعالى هذا منهم، وعلى الفور بدأت آثار الهزيمة تظهر عليهم، وتعجب المسلمون كثيرا مما يحدث ثم نصرهم الله تعالى بنصره، وببدل هزيمتهم نصرا. قال تعالى :

" ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئا " (التوبة : ٢٥) .

ولهذا أرشد المسلمون إلى أنهم إذا خرجوا للقتال فعليهم أن يتجنبوا الغرور الكاذب، والعجب وحب الذات، وأن يصيروا مثالا للإخلاص والإيثار :

" ولا تكونوا كالذين خرجوا من ديارهم بطرا ورئاء للناس " (الأنفال : ٤٧) .

وهذه هي صورة قريش التي خرجت لمعركة بدر لاستعراض قوتهم وإظهار طاقتهم .

وعندما تعم المدنية أمة، وتزداد ثروتها، وتعمها الرفاهية فإن أفراد هذه الأمة يصابون ببعض الغرور، ويكون هذا وقت هلاكهم. قال تعالى :

" وكم أهلكنا من قرية بطرت معيشتها " (القصص : ٥٨) .

وكان هذا حال بعض القرى التي أهلكها الله، ولكنه سيأتي وقت عندما يتم إهلاك الدنيا جميعا دفعة واحدة، أي يوم القيامة، ومن علامات هذا الإهلاك التي أخبر بها رسول الله صلى الله عليه وسلم هي عندما يعجب كل شخص برأيه، ويفخر به، وهذا هو الوقت الذي ينبغي فيه أن يقلق بشأن نفسه (١) .

^١ أبو داود - كتاب الملاحم .

وهناك بعض الناس الذين يبدون في حالة طيبة من الناحية الدينية، هؤلاء يدعون التقوى بسبب العجب الذي أصابهم، لكن الله تعالى منع من هذا للعجب ومن هذا للغرور :

" فلا تركوا أنفسكم هو أعلم بمن اتقى " (للنجم : ٣٢) .

لقد ولد الفضل العلمي والديني القديم لدى اليهود والنصارى قدرا كبيرا من العجب وحب الذات حتى أنهم اعتبروا أنفسهم أحبب الله ولبناءه :

" وقالت اليهود والنصارى نحن أبناء الله وأحباؤه " (للمائدة : ١٨) .

" قل يا أيها الذين هادوا إن زعمتم أنكم أولياء لله من دون الناس " (الجمعة : ٦) .

وبالتمعن في هذه الآيات كلها يعلم أن العجب وحب الذات مجرد خداع، ويوحين ينكشف هذا الخداع يتأكد أن حقيقته ليست سوى سراب، وينكشف ستر هذا الأمر في الدنيا من الناحية السياسية والاجتماعية، أما من الناحية الدينية فإنه ينكشف في الآخرة .

وقد عمل الإسلام على سد باب للزئاع لظهور مادة هذا العجب، فقد جاء في الحديث أن رجلا كان يمتدح آخر بقدر من المبالغة، فلما سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك قال لقد أهلكته، وذلك مرة ذكر رجل عند النبي صلى الله عليه وسلم فامتحنه رجل آخر فقال صلى الله عليه وسلم لقد قطعت عنقه، إن كنت لا بد ما دحا أحدا فقل إنني لظنه هكذا " (١) .

وهذا المنع للمدح لأنه يولد العجب وحب الذات داخل للممدوح، ولكن أفضل علاج لهذا المرض أن لا يعتقد أحد أن ما به من مميزات هو نتيجة لعمله وجهده هو، وإنما عليه أن يعتقد أن ذلك هبة من الله وفضل من الله ونعمة عليه، ولهذا أوضح الله تعالى هذا الجانب مرارا عند ذكره لنعمه على عباده فقال: " لا تفرحوا بما آتاكم " (الحديد: ٣).

^١ البخاري - كتاب الأدب - باب ما يكره من الصادح .

حدثنا آدم: حدثنا شعبة، عن خالد، عن عبد الرحمن بن أبي بكر، عن أبيه: أن رجلا ذكر عند النبي صلى الله عليه وسلم فثنى عليه رجل خيرا، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: (ويحك، قطعت عنق صاحبك - بقوله مرارا - إن كان أحدكم ماحا لا محالة فليقل: أحسب كذا وكذا، إن كان يرى أنه كذلك، والله حسبي، ولا يزكي على الله أحدا).

التبذير

التبذير هو أن ينفق الشخص أكثر مما يحتاجه في وضعه ومكانته، ولأن الإسلام نزل في العرب وكان كرم العرب وسخاؤهم يصل إلى حد التبذير، فلين الإسلام هو الوحيد بين الأديان الذي منع من التبذير، وأمر بأن ينفق الشخص بما يتناسب مع وضعه، إذ إن عادة التبذير تكسر الثروة القومية بشكل مريع، ولا تستفيد الجماعة بهذا الإنفاق الذي لا محل له، كما أن الإسراف عموما يظهر في شكل غرور وتفاخر، وهذا مما لا يخفي من سوء هذه الصفة الأخلاقية.

وكان العرب في مجالسهم يتعاطون الخمر ويلعبون الميسر، ثم ينفقون كل ما يكسبون من لعب الميسر في نشوة سكرهم، فإذا ما طالت أيديهم حيوانا ذبحوه بغير سبب، ونجد في أشعار الجاهلية كثيرا من أشعار التفاخر بهذا الأمر، وكان من صور الحصول على الشهرة أن ينبج الشخص جملا تلو الآخر حتى يقضي على كل ما يملك من جمال، وحينئذ يعتبر الشخص المقابل له مهزوما، وكانوا يطلقون على مثل هذا السباق (معاقرة)، وقد منع رسول الله صلى الله عليه وسلم من هذا الكرم الذي يعتمد على الرياء. (١)

وقد كان الأساس الذي يقوم عليه الكرم عند العرب في الغالب هو الفخر والغرور، وقد ولد هذا في صفة الكرم والسخاء عندهم نوعا من الاعتدال، وكانت النتيجة الدينية لهذا أن كرمهم هذا لم يكن مقبولا عند الله نظرا لخلوه من الإخلاص، وفي بعض الأحيان كان الرجل ينفق كل ما يملك من ثروة حتى يعاني من الإفلاس في الدنيا، وفي مثل هذه الأحوال لا يكن المال كافيا لمثل هذا السخاء، وعندئذ كان الناس يحصلون على المال بالسلب والنهب، وينفقون هذا المال في سبيل التفاخر والتظاهر، وقد قرر الله تعالى حقوقا للقضاء على هذا النوع من عدم الاعتدال، ولقب للمبذر بأخي الشيطان:

"وَأْتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تَبْذِرْ تَبْذِيرًا، إِنَّ الْمُبْذِرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ، وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا" (الإسراء: ٢٧).

١- ابن دارة.

حدثنا هارون بن عبد الله، قال: حدثنا حماد بن مسعدة، عن عوف، عن أبي ربحانة، عن ابن عباس، قال: نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن معاقرة الأعراب.

ويثبت من الجزء الأخير في الآية السابقة أن التبذير جحود لله تعالى ويقول الإمام الرازي في تفسير هذه الآية أن بعض العلماء يقولون أن مفهوم هذه الآية ينطبق مع عادات العرب، لأنهم كانوا يجمعون المال من السلب والنهب ثم ينفقونه في سبيل الحصول على سمعة يتفاخرون بها. واليوم أيضا يرتكب للناس فعل التبذير هذا من خلال ما ينفقونه في مناسبات الأفراح والأحزان، هؤلاء في اصطلاح القرآن يطلق عليهم إخوة الشياطين، وهذه التعاليم لا تنافي للكرم والسخاء، إذ أن للكرم هو ما بين البخل والإسراف، وهو ما أمر الله تعالى به، وقال أن نتيجة هذا التبذير هي أنكم ستعلمون، ولا تصلحون بعدها لأي عمل مفيد، بل على العكس من ذلك سوف يلومكم الناس: "ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوما محسورا" (الإسراء: ٢٩).

ولأن الاعتدال خلفته التعاليم الإسلامية لهذا فإن الله تعالى جعله صفة مميزة للمسلمين فقال:

"والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما" (الفرقان: ٦٧). ولا ينبغي أن يفهم أحد أن نتيجة هذه التعاليم هي أن الإسلام يؤيد التقدير، وأنه يشجع على هذا في المأكل والمشرب والملبس وكل وجوه الإنفاق، وإنما ينبغي أن نفهم أنه على كل شخص أن ينفق في حدود وضعه ومقدرته، ولا يجب أن ينفق أكثر مما يستطيع، أي أن المقياس في مسألة التبذير هذه هو وضع الشخص نفسه، وقد قال الله تعالى في سورة الأعراف:

"وكلوا واشربوا ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين" (الأعراف: ٣١). وليس هناك أفضل من الصدقات والإنفاق في وجوه الخير، وبالرغم من ذلك فإن بعض المفسرين يرون أنه لا ينبغي أن ينفق في هذه الأمور أكثر من قدرته: "كلوا من ثمره إذا أثمر وأتوا حقه يوم حصاده ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين" (الأنعام: ١٤١).

الحسد

إذا أنعم الله على شخص كأن يرزقه العلم والفضل والمال والثروة والعزة والشهرة أو غيرها من النعم الدنيوية والدنيوية. ورأى شخص آخر هذه النعم فتمنى من قلبه أن يحصل على مثل هذه النعم فإن هذا يسمى غبطة ومنافسة، وهذا ليس أمرا سيئا،

على العكس من ذلك فهو أمر محبوب دينياً، لكنه إذا لم يحب هذه النعم لصاحبها، وتمنى أن تزول عنه هذه النعم فإن هذا يسمى حسداً، وهذا هو التعريف الذي نستنبطه من القرآن الكريم، إذ أن الله تعالى قد أسبغ على المسلمين في عهد الرسالة النبوية نعماً كثيرة فلأنعم عليهم بنعمة الإيمان و القرآن، وكان أعداء المسلمين من اليهود يفتاظون لكل هذا: "لم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله" (النساء: ٥٤).

وكانوا يتمنون لو أن هذه النعم زالت من عند المسلمين: "ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفاراً حسداً من عند أنفسهم" (البقرة: ١٠٩).

وللحسد ثلاثة أقسام ودرجات:

١- أن يتمنى شخص أن تزول النعمة من عند الآخر سواء حصل عليها هو، أو حتى لم يرد أن يحصل هو عليها، وهذا هو أسوأ أنواع الحسد، وبناءً عليها كان المنافقون يتمنون لو صار المسلمون كفاراً مثلهم: "وإذا لو تكفرون كما كفروا فتكونون سواء" (النساء: ٨٩).

٢- الثاني هو أن يتمنى شخص الحصول على هذه النعم، وفي هذه الحالة يكون هدفه هو الحصول على هذه النعم فقط، ولكن في بعض الأحيان يكون من غير الممكن الحصول على هذه النعم دون زوالها من عند الآخر، وبالتالي يتمنى أن تسلب هذه النعم من الآخر أيضاً.

الثالث أن يتمنى شخص الحصول على هذه النعم، لكنه لا يتمنى أن تسلب ممن هي عنده. والصورة الأولى من هذه الصور هي الأكثر سوءاً وبشاعة، أما الصورة الثانية فلا نستطيع أن نطلق عليها حسداً نظراً لأن ليس بها تمنى زوال نعمة الغير بشكل أساسي، لكن القرآن الكريم مع ذلك قال: "ولا تتمنوا ما فضل الله به بعضكم على بعض" (النساء: ٣٢).

ويثبت من هذا هو أن تمنى نعمة بعينها مما عند الغير أمر ليس محبباً، وبالتالي فهو مذموم، ولكن تمنى مثل هذه النعمة أمر ليس مذموماً، ولهذا قال تعالى: "واسألوا الله من فضله" (النساء: ٣٢).

أما الصورة الثالثة فليست مذمومة، بل أمر مستحب، وهي ما تسمى في الشريعة التسابق، وللحسد سبعة أسباب:

١-البغض والعداوة، إذ أنه من غير الممكن أن يستوي لدى شخص ما عيوب عدوه وحسناته،ولهذا يتمنى العدو أن تحل المصائب على عدوه،وحين تحل هذه المصائب يفرح بذلك،وعلى العكس من ذلك إذا أنعم الله على أحد فإنه لا يحب ذلك ولا يفرح به، وهذا هو الحسد.والعداوة التي كان للكفار والمنافقون يكونونها للمسلمين تظهر من هذه الطريقة المشوبة بالحسد:

"ودوا ما عنتم قد بدت للبغضاء من أفواههم وما تخفي صدورهم أكبر"(آل عمران:١١٨)
"إن تمسكم حسنة تسؤهم وإن تصبكم سيئة يفرحوا بها"(آل عمران:١٢٠).

والحسد الذي يتولد بسبب البغض والعداوة لا يشترط فيه التساوي حتى يحدث، إذ يمكن أن يتمنى أدنى شخص سوءا لأعظم شخص.

٢-والسبب الثاني هو الفكرة الخاطئة عن الفخر الشخصي، إذ عندما يفوز شخص ما من بين أقرانه بمنصب رفيع مثلا فإن هذا يكون صعبا عليهم،ولا يحبون هذا التقدم منه،ويتمنون لو زال هذا المنصب منه حتى يتساوى معهم.

٣-أما السبب الثالث في الحسد في أن يريد الحاسد أن يجعل من شخص آخر تابعا له،ولهذا عندما يتيسر لهذا الشخص المستهدف من الميراث ما يجعله يخرج عن دائرة الطاعة فإن الحاسد يتمنى لو تزول عنه هذه المميزات حتى يعود إلى طاعته،ولهذا السبب نفسه كان كفار قريش ينظرون إلى جماعة المسلمين باحتقار قائلين:

"أهؤلاء من الله عليهم من بيننا"(الأنعام:٥٣).

وهذا السبب من أسباب الحسد يتعلق بالأكابر والسادة،ويتلزم معه الكبر والغرور واحتقار الآخرين.

٤-والسبب الرابع من أسباب الحسد أن يحصل من يظنونه شخصا عاديا على شرف وفضل غير عادى فيتعجبون،وبناءا على هذا التعجب فإنهم ينكرون هذا الشرف الذي حازه،ولهذا السبب كان للكفار ينكرون رسالة الأنبياء،ويقولون متعجبين:

"ابعث الله بشرا رسولا"(الإسراء:٩٤).

٥-والسبب الخامس من أسباب الحسد عندما يكون لشخصين هدف واحد،عندئذ ينظر كل منهما للآخر بغيرة وحسد،وحين يحقق أحدهما هذا الهدف يسود ظن الآخر به بشكل فطري،والغيرة والحسد بين زوجات رجل واحد وأبناء رجل واحد إنما تكون بهذا السبب،وقد تأمر إخوة يوسف على قتله،لهذا السبب أيضا:

”إذ قالوا لـيوسف وأخوه أحب إلى أبينا منا ونحن عصبة“ (يوسف: ٨) .

٦- والسبب السادس من أسباب الحسد حب الشهرة والجاه والنفوذ وطلبها، وهذا فإن أولئك الذين يريدون التفرد بهذه الأشياء والافتداد بها حين يعلمون أن شخصا ما شاركهم هذه الأمور يتمنون لو زالت عن هذا الشخص تلك المميزات التي أتاحت له مشاركتهم.

وكان لليهود يحسدون المسلمين بنفس الطريقة، إذ أنهم كانوا متفوقين على العرب من الناحية الدينية والعملية قبل الإسلام، لكن هذا التفوق أخذ يزول بفضل الإسلام، ولهذا فإنهم كانوا يعملون على القضاء على الإسلام، وكان أهل المدينة يريدون أن يجعلوا عبد الله بن أبي من المنافقين سلطانا عليهم، لكن الإسلام قضى على هذا الأمر، وإذا لم يعجبه ما حدث، وبالتالي كان يتعامل مع رسول الله صلى الله عليه وسلم على الملأ بطريقة غير مهذبة.

٧- والسبب السابع من أسباب الحسد هو خبث النفس وموء الطوية، إذ أن هناك بعض الأشخاص تكون فطرتهم هكذا بحيث لا يتحملون رؤية شخص آخر في حالة أفضل، ويفرحون إذا ما حلت بالآخرين المصائب، وفي مثل هذه الحالة لا يكون هناك حاجة إلى نوع من التشارك في الهدف أو العلاقة أو الرغبة في شيء ما مثلا، لأن مثل هؤلاء الناس يحسدون الجميع.

وهذه الأسباب للحسد تتعلق في الغالب بأولئك الذين يكون بينهم هدف مشترك ولهذا لن تجد الأمر بين الأعراب، وإنما بين أولئك الذين بينهم تشارك وارتباط من نوع ما. وهكذا يحسد العالم عالما، والعباد عابدا لأن بينهما شيئا مشتركا وهو العلم والعبادة. وعلى العكس من ذلك فإن العالم أو العابد لا يحسد تاجرا لأنه لا اشتراك بينهما.

وقد خلق الإسلام قاسما مشتركا على نطاق واسع بين المسلمين حين أقام بينهم رباط الأخوة، ولذا فإن الحسد قد يظهر بينهم سريعا ولأبسط الأشياء، ومن الممكن أن تجتمع كل أسباب الحسد في هذا المجتمع الأخوي الكبير، ومن هنا فقد أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم المسلمين بتجنب كل المساوئ الأخلاقية التي ينفرط منها عقد المسلمين فقال:

"إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث، ولا تحسسوا ولا تجسسوا ولا تحاسدوا ولا تدابروا ولا تباعضوا وكونوا عباد الله إخواناً".

وقد نقل الحافظ ابن حجر في ثنايا شرحه لهذا الحديث قول القرطبي:

"المعنى كونوا كإخوان النسب في الشفقة والرحمة والمحبة والمواساة والمعونة والنصيحة".

لكن هذه الأخوة يمكن أن تستمر حين نتجنب كل هذه للمساوي الأخلاقية، وإن لم نفعل ستولد العدواة بدلا من الأخوة، وهذه وغيرها من المحاسن الأخلاقية التي تعد نتيجة حتمية للأخوة، أو التي تنتج عنها عاطفة الأخوة، كلها مستغني وتزول، وقد كتب الحافظ بن حجر في شرح هذا الحديث يقول:

"كأنه قال إذا تركتم هذه المنهيات كنتم إخوانا مفهومه إذا لم تتركوها تصيروا أعداء، والمعنى كونوا أخوانا اكتسبوا ما تصيرون به أخوانا مما سبق ذكره، وغير ذلك من الأمور المقتضية لذلك نفيا وإثباتا".

وأخطر هذه المساوي الخلقية الحسد، لأنه عاطفة لا يكاد يخلو منها قلب، وجاء في الحديث أنه لا يخلو شخص من الطيرة وسوء الظن والحسد، قيل: فما السبيل للتخلص منها؟ قال صلى الله عليه وسلم إذا تطيرت فلا تترك ما تريد أن تفعله تطيرا، وإذا ساء ظنك فلا تصنقه، وإذا شعرت بالحسد فلا تظلم^(١)، ولكن إذا تم إظهار هذا الحسد بصورة عملية فإنه يقضي على كل محاسن الأخلاق في الإسلام، وكان بمثابة الشرارة التي تحيل عن الإسلام تريبا، ولهذا أكد رسول الله صلى الله عليه وسلم على تجنب الحسد فقال:

"إياكم والحسد فإن الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب".

ويعلم من هذا أن للحسد أمر خطير من الناحية الأخلاقية، ولهذا أرشد الله تعالى رسوله والمسلمين جميعا إلى الاستعاذة من خطره:

"ومن شر حاسد إذا حسد".

فحش القول

ولفحش القول أقسام عدة، واحد منها يتعلق بالقوة الشهوانية، ومرتكب هذا النوع عادة يكون من الشباب الرقيق، كما يكون بين الأحباب والأصدقاء الذين لا كلفة بينهم، على سبيل المثال عندما تتشأ مثل هذه الصحبة الخالية من الكلفة يكون ذكر للنساء

^١ مصنف عبد الرزاق نقلًا عن فتح الباري - الجزء العاشر - ٤٠٣ - مصر .

وجمالهن من بين ما يدور في أحاديثهم، وفي مثل هذه الجلسات تقال أشياء تصل في بعض الأحيان إلى خدش الحياء، ويطلق على مثل هذه الأحاديث في اللغة العربية (الرفث) وقد منعه القرآن الكريم في الآية التالية :

" فلا رفث ولا فسوق ولا جدال في الحج " .

ولكن تم تخصيص وقت الحج بهذا لأن الرجال والنساء يجتمعن كثيرا في موسم الحج، ويكون من الصعب الالتزام تماما بالحجاب في هذا السفر، ولهذا فإن مثل هذا الرفث يمكن أن يتم بحرية كبيرة في حين أن هذا الوقت يكون وقت نكر الله فقط، ولا فلا تخصيص في هذا الموضوع للحج فقط. وفحش القول أو الرفث ممنوع تماما. وقد جاء في سنن أبي داود أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خطب ذات مرة في جمع من الرجال والنساء^(١)، وبعد أن حمد الله وأثنى عليه اتجه إلى الرجال وقال: هل يوجد بينكم من يذهب إلى زوجته ويغلق بابه ويستتره، وبذلك يكون في ستر الله تعالى؟ فقال الناس: نعم، فقال صلى الله عليه وسلم: ثم يجلس في صحبة الناس ويقول لهم: نقلت كذا وقلت كذا، فقصمت الناس، ثم اتجه إلى النساء فقال: هل تخبرن بمن هذا؟ فجلست امرأة القرقصاء وقالت: نعم يا رسول الله، المرأة والرجل يخبران بهذا، فقال صلى الله عليه وسلم: أتعلمون ما مثل هذا؟ إن مثله كمثل شيطان يواقع شيطانة أمام الناس^(٢).

^١ كانت مجالسهم متباعدة .

^٢ أبو داود - كتاب النكاح - باب ما يكره من ذكر الرجل .

حدثنا مسدد، حدثنا بشر بن الجريري، حدثنا مؤمل، حدثنا إسماعيل، وحدثنا موسى بن إسماعيل، حدثنا حماد، كلهم عن الجريري، عن أبي نضرة، قال: حدثني شيخ من طغاوة قال: بثبوت أبا هريرة بالمدينة، ظم أر رجلا من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم أشد تشميرا، ولا أقوم على ضيف منه، فيبسا أنا عنده يوما وهو على سرير له، يومعه كيس فيه حصى أو نوى، أو أمفل منه جارية له سوداء، وهو يصبح بها، حتى إذا نفذ ما في الكيس ألقاه إليها فجمعه فأعنته في الكيس، فدفعت إليه فقال: ألا أحتك عني وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ قال: قلت: بلى، قال: بينا أنا أوعك في المسجد، إذ جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى دخل المسجد، فقال: من أحس الفتى الدوسي ثلاث مرات، فقال: رجل يا رسول الله، هو ذا يوعك في جانب المسجد، فأقبل يمشي حتى تنتهي إلي فوضع يده علي، فقال: لبي معروفًا، فنهضت، فأتى مقامه الذي يصلي فيه، فأقبل عليهم ومعه صفان من رجال وصف من نساء أو صفان من نساء وصف من رجال، فقال: إن نسايتي الشيطان شينا من صلاتي فليسبح للقوم وليصفق النساء، قال: فصلنى رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم ينس من صلاته شينا، فقال: مجالسكم مجالسكم زاد موسى من ههنا ثم حمد الله تعالى وأثنى عليه، ثم قال: أما بعد ثم

المقصد هو أن الإعلان يمثل هذه الأمور والحديث عنها على الملأ أمر مخجل للثنتين، والحكمة وراء منع اللفظ أن تبقى فكرة حرمة الحدود الإلهية في الأذهان، وإلا فإن الكلام يفقد أهميته عندما يخرج من اللفظ، وسيفسح القول للفعل الطريق ذات يوم، وهذا هو السبب في أنه إذا ما دعت ضرورة لمثل هذه الأحاديث ينبغي أن تكون بالرمز والاستعارة حتى يظهر الهدف منها ولا يחדش الحياء، ولهذا أيضاً جاء ذكر مثل هذه الأمور في القرآن الكريم في سائر من للمجاز والاستعارة مثلاً:

"وقد أفضى بعضكم إلى بعض" (النساء: ٢١) .

"لو لاستم النساء" (النساء: ٤٣) .

ويقول سيدنا عبد الله بن عباس رضي الله عنه إن الله يخاطب الشرفاء ونوبي الحياء، ولهذا عبر عن الجماع كناية بلفظ (لمس) بوقد وضع الإسلام اللفظاً آخرى لهذه الأمور ترد بطبيعة الحال في شرح المسائل الفقهاء، وإن أصبحت لكثرة استعمالها مثل التصريح، ولكنها في الحقيقة كنايةات كلها، ويجب ذكر الأسماء المنفرة كالبول والبراز وغيرها وكذلك الأمراض المنفرة والمخجلة في شكل كنايةات طبقاً لتعاليم الإسلام، وقد استخدم لفظ (قضاء الحاجة) في الأحاديث للبراز والبول، وهو كناية، واستخدم لفظ (غائط) في القرآن الكريم لهذا الغرض، وهو يعني في اللغة الأرض المنخفضة :

"لو جاء أحد منكم من الغائط" (النساء: ٤٣) .

ولأن عامة الناس يستخدمون لقضاء الحاجة الأرض المنخفضة، لذا استعير اللفظ لها، وهنا ينبغي أن نؤكد على أن اللفظ المستخدم في اللغة الأردنية بمعنى مكان قضاء الحاجة وهو (بائخانه) هو الآخر استعارة، وهي بمعنى (جانب البيت - أحد جوانب البيت) ، ولأن للناس عموماً يعنون مكان قضاء الحاجة في أحد جوانب البيت، لذا استعير هذا اللفظ له، وهو في الأصل (بائتين خانه) ثم خفف إلى (بائخانه)، واليوم وبسبب كثرة

اتفقوا، ثم أقبل على الرجال فقال: هل منكم الرجل إذا أتى أهله فأغلق عليه باباً، وألقى عليه ستره، واستتر بستر الله، قالوا: نعم، قال: ثم يجلس بعد ذلك فيقول: ففعلت كذا، ففعلت كذا، قال: فصكوا، قال: فأقبل على النساء فقال: هل منكن من تحدثت ففعلت فتاة قال مؤمل في حديثه فتاة كعاب على إحدى ركبتيها، وتطلعت لرسول الله صلى الله عليه وسلم ليرأها، ويسمع كلامها، فقالت: يا رسول الله، إنهم ليتحدثن، وإنهن ليتحدثن، فقال: هل ترون ما مثل ذلك؟ فقال: إنما مثل ذلك مثل شيطانة لقيت شيطانا في السكة، ففوض منها حاجته، والناس ينظرون إليه، ألا وإن طيب الرجال ما ظهر ريحه ولم يظهر لونه، ألا وإن طيب النساء ما ظهر لونه ولم يظهر ريحه.

لستعمال اللفظ لم تعد له قيمة الاستعارة. وعلى نفس المنوال جاء في القرآن الكريم لفظ (سوء) للتعبير عن مرض (البرص):

"واضمم يدك إلى جناحك تخرج بيضاء من غير سوء أية أخرى" (طه : ٢٢) .

أما للنوع الثاني من فحش القول أو الرفث فيتعلق بقوة الغضب، وهو ما يسمى بالسب والشتم، وتكون هذه الصورة عموماً في مواضع الجدال والشجار، ولأن احتمال مثل هذا الأمر يكون بشكل أكبر في موسم الحج نظراً لأنه اجتماع عام، لهذا أطلق الله تعالى عليه لفظ (فسق) ومنعه :

"فلا رفث ولا فسوق ولا جدال في الحج" (البقرة : ١٩٧) .

والسب والشتم صور كثيرة، وفي بعض الأحيان يسب الشخص والذي شخص آخر، يقطع في نسبه، وأحياناً يصرح هو بعيوب هذا الشخص، فإن كان مصاباً بمرض منفر مثل البرص أو الجذام فإنه يسخر منه، وأحياناً يكون ذلك إذا ما أساء هذا الشخص إليه، أو سلك معه سلوكاً لم يعجبه. وقد منع القرآن الكريم كل هذه الصور بشكل إجمالي بلفظ واحد :

"لا يحب الله الجهر بالسوء من القول إلا من ظلم" (النساء : ١٤٨) .

هذا وقد جاء تفصيل الحكم في منع فحش القول والحكمة من ذلك في مواضع كثيرة في القرآن الكريم:

١- ومن الحكمة في هذا المنع من السب والشتم أن الناس عموماً يتعدون حدودهم ويظلمون الناس فيه، بمعنى أن رجلاً يشتم رجلاً مرة فيشتمه الآخر مرتين، وإذا ما سب رجل أباً رجل سب الآخر والديه، ولهذا فإن السبيل إلى البعد عن هذا التعدي هو ألا يشتم أحد أحداً وقد وضع الله تعالى هذا الأمر في القرآن الكريم بقوله :

"ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله عدوا بغير علم" (الأنعام : ١٠٨) .

كما وضع رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا الأمر في حديث شريف حين قال: "إن أعظم الذنب هو أن يلعن الشخص أبويه، فقيل: يا رسول الله وكيف يلعن الرجل أبويه؟" فقال صلى الله عليه وسلم: "أن يسب أباً الرجل فيسب هذا الرجل أبويه" (١).

^١ البخاري - كتاب الأدب - باب لا يسب الرجل والديه .

حدثنا أحمد بن يونس: حدثنا إبراهيم بن سعد، عن أبيه، عن حميد بن عبد الرحمن، عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إن من أكبر الكبائر أن يلعن الرجل

الله صلى الله عليه وسلم فقال: **لن فيك جاهلية**^(١)، وقد استنتج الإمام البخاري في كتابه أدب المفرد من ذلك أنه لا يجوز أن يسب الرجل عبده أو خدمه .

٥- ومن الحكمة في منع السب والشتم أنه يخرج من الإنسان في صورة ألفاظ تخدش الحياء ومخجلة وبسبب ذلك يعتاد الناس على التجرد للتقوى بمثل هذه الألفاظ وعلى سماعها أيضا وتتطور هذه الألفاظ إلى أفعال فيما بعده، وهذا هو السبب في أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ذكر فحش القول في مقابل للحياء، فقال: **ما دخل الفحش في شيء إلا شانه، وما دخل الحياء في شيء إلا زانه**^(٢). ويعلم من هذا أن الفحش في القول وسلطنة اللسان ضد للحياء .

٦- وتتأذى قلوب الناس من السب والشتم بينما أمر المسلمون بتجنب إيذاء المسلمين، ولهذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم **المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده**، وقد منع شتم الموتى بأن ذلك يؤذي ألقابيه وأعزائه من الأحياء^(٣).

٧- السب والشتم مقدمة للشجار والعراك، وقتال المسلمين كفر، ولهذا فإن كل ما يؤدي إليه فهو فسق إن لم يكن كفرا، ولهذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **"سباب المسلم فسوق وقتاله كفر"** .

٢ البخاري - كتاب الأدب - باب ينهي من السباب واللعن .

حدثنا عمر بن حفص: حدثنا أبي: حدثنا الأعمش، عن المغيرة، عن أبي تر قال: رأيت عليه بردا، وعلي غلامه بردا، فقلت: لو أخذت هذا فلبسته كانت حلة، وأعطيته ثوبا آخر، فقال: كان بيني وبين رجل كلام، وكانت أمه أعجمية، فنلت منها، فذكرني إلى النبي صلى الله عليه وسلم، فقال لي: (أسأبت فلانا). قلت: نعم، قال: (أفنت من أمه) قلت: نعم، قال: (إنك امرؤ فيك جاهلية). قلت على حين ساعتي: هذه من كبر السن؟ قال: (نعم، هم إخوانكم، جعلهم الله تحت أيديكم، فمن جعل الله أخاه تحت يده، فليطعمه مما يأكل، وليلبسه مما يلبس، ولا يكلفه من العمل ما يثقله، فإن كلفه ما يثقله فليعنه عليه).

^١ الترمذي - أبواب البر والصلة - باب ما جاء في الفحش .

حدثنا محمد بن عبد الأعلى الصنعائي وغير واحد قتلوا: حدثنا عبد الرزاق، عن معمر عن ثابت عن أنس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **ما كان الفحش في شيء إلا شانه، وما كان الحياء في شيء إلا زانه**.

^٢ مسلم - كتاب الإيمان - باب بيان تفاضل الإسلام وأي أموره الفضل .

حدثنا حسن الحلواتي، وعبد بن حميد، جميعا عن أبي عاصم، قال عبد: أخبرنا أبو عاصم، عن ابن جريج: أنه سمع أبا الزبير يقول: سمعت جابرا يقول: سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول: **المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده**.

ويتضح بعد كل هذا أن سلاطة اللسان والفحش في القول مما ينافي التعاليم والخصائص الإسلامية، ولذا فإن من يريد أن يحيا حياة إسلامية صحيحة لن يحب أن يبث في هذا العيب الأخلاقي، ولهذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

" ليس المؤمن بالطعان ولا اللعان ولا الفاحش ولا البذيء " .

وفي حديث آخر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم الفحش في القول من آيات النفاق. كل هذه الأسباب تتعلق بالسب والقتل وبذاءة الناس في تعاملهم فيما بينهم، وهذا الفحش في القول ليس مقصورا على الإنسان فقط بل إن الناس إذا أصابهم ضرر بسبب أضياء لا روح فيها أو لا عقل لها فإنهم يسبونهم أو يشتمونها. علي سبيل المثال عندما تسوء أحوال شخص ما فإنه يسب الزمَن ويشتمه ولا يسأل نفسه ما ذنب للزمن فيما هو فيه، إن كل شيء بمشيئة الله تعالى ولهذا منع الإسلام من سب وشتم هذه الأشياء، وقد شرح رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا المعنى فيما رواه عن الله تعالى من أن الله يقول: "الإنسان يسب للدهر ولأنا للدهر وفي يدي ثقل الليل والنهار" (١)، أي أن سب الزمان ما هو إلا سب الله تعالى .

ذات مرة سقط رداء رجل منه قلعه، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لا تلعه إنه مطيع لله" (٢) .

ولعن امرأة ناقتها وهي في سفر فأخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم منها الناقة كعقاب لها (٣) حتى لا تقدم على هذا مرة أخرى .

^١ أبو داود - كتاب الأدب - باب في الرجل يب الدهر .

حدثنا محمد بن الصباح بن سفيان وابن السرح قالنا ثنا سفيان، عن الزهري، عن سعيد، عن أبي هريرة، عن النبي صلى الله عليه وسلم يقول الله عز وجل: يؤذيني ابن آدم يسب الدهر، وأنا الدهر بيدي الأمر، أتقلب الليل والنهار.

^٢ أبو داود - كتاب الأدب - باب في اللعن .

حدثنا مسلم بن إبراهيم ثنا أبان ثنا زيد بن أرقم الطائي، ثنا بشر بن عمر، ثنا أبان بن يزيد الطائفي، ثنا قتادة، عن أبي العافية قال زيد: عن ابن عباس أن رجلا لعن الريح، وقال مسلم: إن رجلا نزعته الريح رداءه على عهد النبي صلى الله عليه وسلم فلعنها، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: لا تلعنها فلعنها مأمورة، وإنه من لعن شيئا ليس له بأهل رجعت اللعنة عليه.

^٣ أبو داود - كتاب الجهاد - باب النهي عن لعن البهيمة .

والسب والشتم في الإسلام لا يعني فقط أن تسمع أحدا ما لا يحب بل إن السب هو أن تهين أحدا وتخرج قلبه بأي قول فإذا ما قلت لأحد يا كافر أو يا فاسق فقد سببته سبابا مغلطا حتى وإن لم يكن كذلك في عرف الناس وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يقل أحدكم لأخيه يا كافر أو يا فاسق، لأنه إن لم يكن كذلك باء بها من قالها^(١). و نستنتج من هذا أن الشخص الذي قيل له كافر أو فاسق، إذا كان كذلك فلا يكن القاتل كافرا أو فاسقا لكنه مع ذلك إن كان يقصد إلى التشهير بهذا الشخص وفضحه فقد لُنب^(٢). على أي حال حفظ الإسلام كرامة المسلمين وعزتهم كما حفظ أولادهم وأموالهم وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم مرشدا للمسلمين في يوم مقيس وشهر مقيس ومدينة مقنسة، أي في خطبة حجة الوداع أن الله تعالى حرم أموالكم وماعكم على بعضكم البعض كحرمة يومكم هذا وشهركم هذا ومدينتكم هذه .

تعليق مختصر على الرذائل

وهناك مساوئ أخلاقية وعادات سيئة كثيرة وبسيطة بالإضافة إلى الرذائل الأخلاقية التي تعرضنا لها في الصفحات السابقة وقد منعها الإسلام، لكنها مع ذلك تقع بشكل أو بآخر ضمن رذيلة من الرذائل التي نكرناها، ولذا لم نحاول تفصيلها، ولأننا لم نتبع شكلا فلسفيا في الرد على هذه الرذائل فإننا لم نكتف ببيان تلك التي يعدها علماء فلسفة الأخلاق رذائل فقط وإنما أعدنا قائمة هذه للعادات والأخلاق النذيمة واضعين في اعتبارنا للتعاليم الدينية .

وبالنظر إلى هذه القائمة ينكشف لنا السر في أن الإسلام قرر أن الرذائل الأساسية ثلاث، وأن كل الرذائل الأخرى تقع كل منها تحت واحدة من هذه الثلاثة .

حدثنا سليمان بن حرب، ثنا حماد، عن أيوب، عن أبي قلابة، عن أبي المهلب، عن عمران بن حصين أن النبي صلى الله عليه وسلم كان في سفر فسمع لغة فقال: ما هذه؟ فقالوا: هذه فلاة لغت راحلتها، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: ضعوا عنها فإتباعها ملعونة فوضعوا عنها، قال عمران: فكأنني أنظر إليها ناقة ورقاء .

^١ البخاري - كتاب الأدب - باب ما ينهي من السباب واللعن - و مسلم كتاب الإيمان .

حدثنا أبو معمر: حدثنا عبد الوارث، عن الحسين، عن عبد الله بن بريدة، حدثني يحيى بن يعمر: أن أبا الأسود الدبلي حدثه، عن أبي تر رضي الله عنه أنه سمع النبي صلى الله عليه وسلم يقول: (لا يرعى رجل رجلا بالفسوق، ولا يرعى بالكفر، إلا ارتكت عليه، إن لم يكن صاحبه كذلك).

^٢ فتح الباري - كتاب الأدب - باب ما ينهي من السباب واللعن .

أما الرذيلة الأساسية الأولى فهي عدم الصدق، والمقصود منها أن لا يكون هناك تطابق بين القلب، واللسان، والكذب، والغيبة، والنميمة، وخلف الوعد، والكذب، والنفاق، وتعدد الوجوه، والحلف كذبا كلها فروع لجذع واحد. أما الرذيلة الأساسية الثانية فهي حب المال والمقصود بها حب ثروة الدنيا بشكل غير طبيعي، بالبخل والحرص والطمع والسرقة والغضب والخيانة والغلول والتطفيف في الكيل والميزان وغيرها فروع لأصل واحد. أما الرذيلة الأساسية الثالثة فهي حب الذات، والمقصود منها للشغف بالذات بطريقة غير طبيعية، بالاحسد والتكبر والعجب والتفاخر والغيظ والغضب والظلم والحقدها وغيرها كلها مظاهر مختلفة لحقيقة واحدة، ويظهر من هذا أن الشخص الذي يعمل على تجنب هذه الرذائل الثلاث الأساسية سيحمي نفسه من كل أنواع الرذائل، وهذه الرذائل الأساسية الثلاثة نتيجة عن إتباع هوى النفس، ومن يحمي نفسه منه ينال الجنة يوم القيامة .

وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فإن الجنة هي للمأوى (النارعات: ٤١).

آداب الحياة

ونقصد بآداب الحياة كل القواعد والأصول الرقمية التي تعد جزءا لا يتجزأ من الحياة المتحضرة للإنسان على مر الليل والنهار من قيام وجلس وذهاب وإياب وملبس ومأكل ومشرب ونوم وبقظة وغسل وما إلى ذلك، ويكون الفرق بين المتحضرين وغير المتحضرين في مدى الالتزام بهذه الآداب أو للتخل منها، مراعاة الرقي والجمال في هذه الآداب يعد حسن أدب، ويتولد بفضل الالتزام بها نوع من السهولة والبسر والرقى في الحياة الاجتماعية، فيصير الإنسان بها مهذبا وقورا .

وهذه الآداب في الحقيقة مؤسسة على مبدأ أن تريح أكبر عدد من الناس في كل أمور الحياة، والتي نواجهها يوميا، هكذا أن لا يكون العمل للذي يقوم به أحد سببا في إزعاج آخر ومضايقته، ويؤديه بإتقان وجمال، وقد قدم نبي الإسلام عليه الصلاة والسلام بإرشاداته الفعلية والقولية للمسلمين أفضل نموذج في هذا الخصوص .

وقد ظلت أمم العالم الأخرى تستقي دينها من مكان وآدابها من مكان آخر، فالمسيحيون أخذوا الدين من الإنجيل وآدابهم وقوانينهم من اليونان والروم، لكن نبع الدين في الإسلام هو نفسه نبع الآداب والقوانين والأعراف، ولهذا فإن الإسلام يدخل إلى أكثر الأمم همجية بالقرآن وسيرة النبي صلى الله عليه وسلم فقط فيحول هذه الأمة في أيام قلائل إلى أمة متحضرة مهذبة .

هذا وقد فصل أئمة الحديث للكرام رحمهم الله لجمعين نوعية هذه الآداب عن مكارم الأخلاق، وأرجوها تحت مسميات كتاب للطهارة، كتاب الأطعمة، كتاب الأشربة، كتاب اللباس، كتاب الاستئذان، كتاب الآداب، وكتاب للسلام، ونحن هنا ندرج هذه الآداب والتعليم معتمدين على الصحاح وكتب السنن وخاصة البخاري ومسلم ولترمذي وأبي داود وما ورد فيها من مثل هذه الأبواب .

الآداب للفطرية

الإسلام دين الفطرة ولهذا فإن الجزء الأكبر من آدابه فطري، بمعنى أنه مقبول فطرة، وقد اتبعها الأنبياء جميعا عليهم السلام، فهذه الآداب هي التي تميز الإنسان عن الحيوان، فيغطي الإنسان عريه، ويظهر لإصلاح لشعر والأظافر وقصهما وتنظيف البدن والملابس للفرق بين الإنسان المتحضر وغير المتحضر، ولهذا جاء في الحديث أن هناك أربعة أشياء هي من سنن الأنبياء جميعا: الحياء، العطر، المسواك، والزواج^(١)، وفي رواية أخرى زيد عليها (الختان).

ونتيجة الحياء هي إخفاء العري، أي ستر العورة والاستتار عند الضرورة، واستعمال العطر والمسواك ينم عن الطهارة والنظافة، أما الختان فهو سنة سيدنا إبراهيم عليه السلام ونسله من بعده، حتى أن للتوراة تقول أن الختان آية جسمانية للعهد الذي بين إبراهيم وربه^(٢) .

وسيدنا إبراهيم عليه السلام هو أول معلم للإنسانية، وقد وصلت الدنيا في عهده إلى مرحلة يمكن معها تعليمها آداب التحضر والوقار، ولهذا أرشد إبراهيم عليه السلام إلى آداب الطهارة والنظافة الجسمانية وطرقها المختلفة مما يسمى بخصال الفطرة، ويقول الإمام البخاري في أئمة المفرد أن سيدنا إبراهيم عليه السلام هو أول من اختتن وحف شواربه وقص أظافره^(٣)، وجاء في الحديث أن صحابيا قال إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال إن خصال الفطرة خمسة: الختان، وحلق للعانة وشعر الإبط وقص الأظافر

^١ الترمذي - أبواب النكاح .

حدثنا سليمان بن وكيع، حدثنا حفص بن غيث، عن الحجاج، عن مكحول، عن أبي الشمال، عن أبي أيوب قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أربع من سنن المرسلين: الحياء، والعطر، والمسواك، والنكاح .

^٢ التوراة - (الحلق) .

^٣ المرجع السابق .

وحف الشوارب^(١) وفي حديث آخر تصل هذه الآداب إلى عشرة: تحف الشوارب وإطالة اللحية، واستعمال المسواك والاستنشاق وقص الأظافر وغسل ما بين الأصابع وإزالة شعر الإبط وحلق العانة والاستنجاء بالماء، ويقول الراوي: ولقد نسيت الأمر العاشر وهو غالبا للمضمنة^(٢).

وقد أصبحت آداب الفطرة هذه أصولا للطهارة الإسلامية وهكذا فإن استخدم المسواك في الوضوء مستحب، وغسل الأصابع والاستنشاق والمضمضة واجبة فيه، وقص الأظافر وحلق الشعر وتهذيبه وقص الشوارب كلها من لوازم النظافة فمن طالت أظافره وشواربه فإنه يلوث ما يأكل أو يشرب، وهو ما ينفر منه الآخرون بل ويؤذيهم طبيا إذا ما تناول معهم طعاما أو شربا، وتعد إطالة الأظافر والحفاظ عليها من أمور الجمال، وهكذا يعتبر بعض الناس إطالة الشوارب، لكن هذين الأمرين يخالفان الفطرة صراحة، ويصبحان سببا في تلوث الأطعمة وقذارتها.

هذا وقد ترجعت تقليعة إطالة الأظافر في أوروبا بعد تغيير قوانينها، لكن حلق اللحية ما زال يقوم مقام إطالتها، بل إن حلق الشوارب وللحية معا في ترديد، وكل هذه الأشياء تخالف شعار الإسلام، وتخالف الشعار الذي قرره رسول الله صلى الله عليه وسلم لأمنته.

يقول سيدنا أبو هريرة رضي الله عنه إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "خالفوا المجوس وقصوا الشارب واعفوا اللحى"^(٣)، ويقول سيدنا عبد الله بن عمر

^١ صحيح البخاري - كتاب الإمتنان - باب الحتان بعد الكبر .

^٢ حدثنا يحيى بن قرعة، حدثنا إبراهيم بن سعد: عن ابن شهاب، عن سعيد ابن المسيب، عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (الفطرة خمس: الختان، والاستحداد، ونتف الإبط، وقص الشاربين وتقليم الأظفار).

^٣ صحيح مسلم - باب عمال الفطرة .

حدثنا قتيبة بن سعيد وأبو بكر بن أبي شيبة وزهير بن حرب، قالوا: حدثنا وكيع عن زكريا بن أبي زائدة، عن مصعب بن شيبة، عن طلق بن حبيب، عن عبد الله بن الزبير، عن عائشة، قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: عشر من الفطرة: تحف الشارب، وإعفاء اللحية، والمسواك، واستنشاق الماء، وقص الأظفار، وغسل البراجم، ونتف الإبط، وحلق العانة، وانتقاص الماء.

^٤ المرجع السابق .

رضي الله عنه إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "خالفوا المشركين وحفوا الشارب واعفوا للحي"^(١) وفي ضوء هذه التعاليم يصبح من المفروض الديني على المسلمين الغيورين الإبقاء على الصورة الإسلامية، والحقيقة أن تخيل الحسن والسبيى يعتمد على العادات والتقاليد، وسوف تبدو الدنيا أمامك بنفس لون النظارة التي تضعها على عينيك.

الطهارة وآدابها

إن أهم الأمور في موضوع التحضر والتمتع هو الطهارة والنظافة، ورغم أن الإسلام ظهر في بلاد نزل فيها الماء عموماً، ولكنه مع ذلك فرض الغسل في بعض الحالات الخاصة، فلا يمكن لزوجين تجمعا أن يؤديا للصلاة إلا بعد الاغتسال. قال تعالى: "وإن كنتم جنباً فاطهروا" (المائدة: ٦) .

ولا بد أن تكون الملابس طاهرة شرعاً . قال تعالى :

"وثيابك فطهر" (المدثر: ٤) .

فإذا لم يوجد الماء للتطهر، أو كانت هناك خطورة في استخدامه لمرض وغيره فإنه عندئذ يجب التيمم: فتميموا صعيداً طيباً^(المائدة: ٦).

فإذا أردنا للصلاة غسلنا أيدينا ووجوهنا وأرجلنا ومسحنا بأيدينا المبللة على رؤوسنا وهو ما نسميه الوضوء :

"إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا وجوهكم وأيديكم إلى المرافق، وامسحوا برؤوسكم وأرجلكم إلى الكعبين" (المائدة: ٦) .

وجاء الحكم بالاغتسال قبل صلاة الجمعة حتى يتطهر للناس ويتزبنون قبل المشاركة في الجماعة، وحتى لا يؤدي أحد أخطاءاً سيئة منه، يصبح الجمع كله مثلاً للنظافة، كما أوجب الاستجاء بالماء بعد قضاء الحاجة وتنظيف أعضاء الذكورة والأكثونة وإزالة الأوساخ عنها .

حدثنا أبو بكر بن إسحق، أخبرنا ابن أبي مريم، أخبرنا محمد بن جعفر، أخبرني العلاء بن عبد الرحمن بن يعقوب، مولى الحرقة، عن أبيه، عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: تجزوا الشولرب وأرخوا للحي. خالفوا المجوس.

^١ صحيح مسلم - خصال الفطرة .

حدثنا سهل بن عثمان، حدثنا يزيد بن زريع عن عمر بن محمد، حدثنا نافع عن ابن عمر، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: خالفوا المشركين. أحفوا الشولرب وأوفوا للحي.

ويعلم من هذه الأحكام أن الطهارة والنظافة لها أهمية خاصة في الإسلام، وأكثر من هذا أنها من وسائل الفوز بحب الله :
" ويحب للمتطهرين " (البقرة : ٢٢٢) .

وقد علمنا رسول الله صلى الله عليه وسلم سنتا كثيرة للالتزام بهذه النظافة والطهارة، ولخلق الإحساس بأهميتها في القلب، على سبيل المثال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه لا يضع الشخص الذي استيقظ من نومه يده في إناء للماء إلا بعد أن يغسل يده ثلاث مرات، لأنه لا يعرف أين وضع يده أثناء نومه^(١)، ويعلم من هذا الحديث أنه يجب علينا أن نهتم بطهارة كل عضو في جسدنا حال يقظتنا وحال نومنا وفي كل حال، فإذا ما أصابت الإنسان جنابة في نومه فلا بد أن يغتسل^(٢)، وقد ركز على طهارة اليد لأن إدخال اليد غير الطاهرة في الماء تتجس الماء ولذا يجب أن لا نضع أيدينا في إناء للماء ما لم نكن متأكدين من طهارتها .

٢- جعل من الضروري تنظيف الأسنان التي هي أساس كثير من الأمراض، وجعل من السنة استعمال السواك فقال صلى الله عليه وسلم لولا أن أشق على أمتي لأمرتهم بالسواك عند كل صلاة^(٣)، وذات مرة جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بعض المسلمين، وكانت أسنانهم صفراء بسبب عدم تنظيفها، فقال لهم صلى الله عليه وسلم: لماذا أرى أسنانكم صفراء، استعملوا المسواك^(٤) (مسند أحمد- الجزء الأول- ص ٢١٤).

٣- لا يجب أن يقضي الإنسان حاجته في الطرق العامة أو في ظل الأشجار، لأن الطريق للمسافرين وظل الأشجار لمن يستريح فيه من المارة، فلا يؤذنيهم أحد بنجاسة أو قذارة .

^١ مسلم - كتاب الطهارة .

حدثنا نصر بن علي الجهضمي ، و حامد بن عمر البكرابي ، قالا : حدثنا بشر بن المفضل عن خالد ، عن عبد الله بن شقيق ، عن أبي هريرة : أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : إذا استيقظ أحدكم من نومه ، فلا يغمس يده في الإناء حتى يغسلها ثلاثا ، فإنه لا يدري أين باتت يده .

^٢ أبو داود - كتاب الطهارة .

^٣ المرجع السابق .

حدثنا إبراهيم بن موسى ، أخبرنا عيسى بن يونس ، ثنا محمد بن إسحاق ، عن محمد بن إبراهيم التيمي ، عن أبي سلمة بن عبد الرحمن ، عن زيد بن خالد الجهني قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : لولا أن أشق على أمتي لأمرتهم بالسواك عند كل صلاة

٤- لا يجوز الاغتسال من ماء راكد بعد التبول فيه، ولا يجوز في مثل هذا الماء الراكد غسل الجنابة أيضاً، بل يجب على الجنب أن يأخذ منه للماء ويغتسل بعيداً عنه، إذ أننا بتكاسلنا نجعل الماء إذا اغتسلنا بداخله غير طاهر أو غير مقبول للآخرين، بل إننا في بعض الأحيان نعافه نحن أيضاً .

٥- لا يجوز بشكل عام للتبول واقفاً، إذ أن هناك احتمال تطاير رذاذ البول فيصيب الجسم، كما أن المكان الذي يتبول فيه قد يكون غير مستور، وهو أمر يتنافى مع الوقار والتحضر، فإن لم تكن هناك هذه الاحتمالات، أو كانت الأرض لا تصلح للجلوس فعندئذ يجوز للتبول من وقوف .

٦- يجب للتبول على أرض رطبة، لأن التبول على أرض صلبة يجعل رذاذ البول يتطاير ويصيب للجسم .

٧- لا يجب للتبول على أرضية الحمام، خاصة إذا كانت غير معبدة لأن الماء يتطاير من المكان غير النظيف ويصيب البدن فينجسه، أو يضع الإنسان في شك بأنه أصابته نجاسة .

٨- يجب الاستنجاء بعد التبول والتبرز، ويجب غسل هذه الأماكن بالماء بعد تنظيفها بشيء طاهر لين، ويتم الاستنجاء باليد اليسرى، ولا تستعمل اليد اليمنى في ذلك .

٩- بعد التطهر ينبغي غسل اليد بالتراب بعد الماء (١) .

١٠- من المستحسن لكل مسلم أن يغتسل مرة في الأسبوع ويغير ملابسه ويضع العطر على جسده والزيت في شعره، بل إن بعض المحدثين يرى وجوب الغسل بناء على ألفاظ الحديث .

ولهذا حدد الإسلام يوم الجمعة الذي يجتمع فيه المسلمون عموماً، وقد بين سيدنا عبد الله بن عباس رضي الله عنه سبب هذا بأن العرب كانوا يعيشون في ضيق من العيش، وكانوا يلبسون الصوف ويشغلون بالأعمال الشاقة، وكان مسجدهم غاية في الضيق، وسقفه غير مرتفع. وذات مرة جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المسجد لصلاة الجمعة فرأى الناس وقد تصيبوا عرقاً في ملابسهم الصوفية، ورائحة هذا العرق تؤذي الموجودين، ولما رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا الأمر قال: أيها

^١ راجع كل هذه المسائل في باب الطهارة من كتب السنن .

الناس، اغتسلوا يوم الجمعة، وليضع كل منكم أفضل زيت يتيسر له في رأسه^(١)). كما منع رسول الله صلى الله عليه وسلم من تناول أطعمة ذات روائح نفاذة كالبصل والثوم والحضور إلى المسجد^(٢) .

١١- بالإضافة إلى الجمعة فإنه ينبغي على الإنسان أن يحتفظ بجسده نظيفا، وقد رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم شخصا ذات مرة أشعث للرأس فقال: ألا يجد هذا ما يسوى به شعره. كما رأى شخصا ملابسه متسخة فقال: ألا يجد ماء يغسل به ملابسه^(٣). وقد راعى الإسلام في تعاليمه للنظافة والطهارة للبساطة وعدم التكلف ولم يلزم بأشياء فيها غلو أو تشدد، أو تصل بالشخص إلى درجة للوسوسة ولهذا فقد قضى الإسلام على بعض الصعوبات التي كانت توجد بالأديان الأخرى في هذا الخصوص، على سبيل المثال طبقا للدين اليهودي كان على الشخص غير الطاهر أن يستحم ثم ينتظر حتى غروب شمس هذا اليوم، وبالتالي يطهر بعدها، أما الإسلام فليس فيه سوى أن يحتاط الشخص من أن يتطأ رذاذ البول فيصيب ملابسه فقط، وإلا صار الاحتياط تشددا وغلوا. وقد كان سيدنا أبو موسى الأشعري رضي الله عنه يتبول في زجاجة من شدة الاحتياط، إذ أن بني إسرائيل كانوا إذا أصاب البول ملابهم قطعوا القماش الذي أصابه

^١ أبو داود - كتاب الطهارة .

حدثنا ابن أبي عقيل ومحمد بن سلمة المصريان، قالوا: ثنا ابن وهب قال ابن أبي عقيل أخبرني أسامة - يعني ابن زيد - عن عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن عبد الله بن عمر بن العاص: عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: من اغتسل يوم الجمعة، ومس من طيب لمرأته إن كان لها، وبس من صالح ثيابه، ثم لم يتخط رقاب الناس، ولم يلبس عند الموعظة، كانت كفارة لما بينهما، ومن لغا وتخطى رقاب الناس كانت له ظهرا.

^٢ مسلم - كتاب الصلاة .

حدثني أبو طاهر وحرمة، قالوا: أخبرنا ابن وهب، أخبرني يونس عن ابن شهاب، قال: حدثني عطاء بن أبي رباح: أن جابر بن عبد الله قال: قال نوفي رواية حرمة: نوزع أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: من أكل ثوما أو بصلا فليعتزلنا أو ليعتزل مسجدا، أو ليقعد في بيته .

^٣ أبو داود - كتاب اللباس - باب في غسل الثوب .

حدثنا النخيلي، ثنا مسكين، عن الأوزاعي، حدثنا عثمان بن أبي شيبة، عن وكيع، عن الأوزاعي نحوه، عن حسان بن عطية، عن محمد بن المنكر، عن جابر بن عبد الله قال: أثنى رسول الله صلى الله عليه وسلم فرأى رجلا شعنا قد تفرق شعره فقال: أما كان يجد ما يسكن به شعره؟ ورأى رجلا آخر وعليه ثياب وسخة فقال: أما كان هذا يجد ماء يغسل به ثوبه؟

البول وقصوه، لكن سيدنا حذيفة رضي الله عنه لم يستحسن هذا التشدد وقال: ليتهم لا يتشددون هكذا فقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يستجى بشكل عادي^(١).

وكان من أعراف اليهود أنه إذا حاضت المرأة تركوا مجالستها والطعام والشراب معها وعزلوها عن البيت تماماً وقد استفسر للصحابة رضي الله عنهم من رسول الله صلى الله عليه وسلم عن هذا الأمر فنزلت هذه الآية :

" ويسألونك عن المحيض قل هو أذى فاعزلوا النساء في المحيض ولا تقربوهن حتى يطهرن، فإذا تطهرن فأتوهن " (البقرة : ٢٢٢) .

وبناء عليه فقد أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بأن تسير الأمور بشكل طبيعي مع المرأة فيما عدا الجماع في أيام الحيض، وقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم النموذج بسلوكه هو، ولهذا تقول السيدة عائشة رضي الله عنها كنت وأنا في هذه الحالة (الحيض) أمشط شعر رسول الله صلى الله عليه وسلم وأغسل رأسه، وذات مرة طلب مني أن أتناوله شيئاً فاعتذرت له أنني حائض فقال ليس الحيض في يديك^(٢).

لكن لا نستطيع في حالة عدم الطهارة أن ندخل الأماكن المقدسة مثل المسجد، ولا نمس المصحف، وفي ضوء هذا تجنب بعض الصحابة مصافحة رسول الله صلى الله عليه وسلم ومجالسته عند جناباتهم، لكن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: المؤمن لا ينجس^(٣)، أي أن المسلم لا ينجس بالجنابة أو بما يحتاج إلى غسل حتى ينجس من يلمسه

^١ صحيح مسلم - كتاب الطهارة - باب المسح على الخفين .

حدثنا يحيى بن يحيى، أخبرنا جرير عن منصور، عن أبي وأبل، قال: كان أبو موسى يشدد في البول، ويبول في قارورة ويقول: إن بنى إسرائيل كان إذا أصاب جلد أحدهم بول قرضه بالمقاريض، فقال حذيفة: لو ددت أن صاحبكم لا يشدد هذا التشديد، فلقد رأيتني أنا ورسول الله صلى الله عليه وسلم نتماشى، فأتى سباطة خلف حائط، فقام كما يقوم أحدكم، فيأكل فاتتني منه، فأشار إلي فجلت، فقامت عند عقبه حتى فرغ.

^٢ صحيح مسلم - كتاب الطهارة - باب تناوله الخاتض الحمرة والثوب .

حدثني زهير بن حرب، وأبو كامل، ومحمد بن حاتم، كلهم عن يحيى بن سعيد، قال زهير: حدثنا يحيى عن يزيد بن كيسان، عن أبي حازم، عن أبي هريرة، قال: بينما رسول الله صلى الله عليه وسلم في المسجد، فقال: يا عائشة! اناوليني الثوب، فقالت: إني حائض، فقال: إن حيضتك ليست في يدك، فناولته.

^٣ البخاري - كتاب العسل - باب الجنب يخرج ويمشي في السوق وغيره، أبو داود - كتاب الطهارة .

حدثنا عياش قال: حدثنا عبد الأعلى، حدثنا حميد، عن بكر، عن أبي رافع، عن أبي هريرة قال: لقيني رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا جنب، فأخذ بيدي، فمشيت معه حتى قعد، فاستللت، فأتيت

وقد سألت إحدى السيدات للسيدة أم سلمة رضي الله عنها قائلة إنني امرأة بملابسي طويلة وأمر على أماكن ليست طاهرة بمعنى أن للنجاسة قد تصيب ذيل ثوبي لأنه يجر على الأرض لطوله فقالت أم سلمة رضي الله عنها إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: إن الأرض تطهره^(١) بمعنى أنه إذا أصابته نجاسة فإن الأرض تطهره.

وقد سألت امرأة رسول الله صلى الله عليه وسلم قائلة إن الطريق الذي نساكه إلى المسجد ذو رائحة كريهة فماذا نفعل إذا نزل المطر؟ فقال صلى الله عليه وسلم: ليس هناك طريق أفضل منه؟ قالت للمرأة: نعم، قال: فاسلكيه.

المهم أن مبدأ الإسلام هو أن الأرض الجافة طاهرة وهي في بعض الأحوال تتظف كالماء، ولهذا قال صلى الله عليه وسلم: جعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً، ولهذا أيضاً تقوم الأرض مقام الماء في حالة التيمم، والحذاء يطهر من احتكاكه بالأرض. وأكثر الأمور سهولة في هذا الخصوص هو أن التيمم يقوم مقام الغسل والوضوء، وقد اعتبره الصحابة نوعاً من البركة.

وقد علمنا رسول الله صلى الله عليه وسلم في الغسل بأن نغسل أيدينا أولاً ثم الوسط والظهر وننظف ما قد يكون عليها من نجاسة ثم نصب الماء على باقي الجسد وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يغتسل من الضرورة هكذا يغسل يديه أولاً ثم يصب الماء بيده اليمنى، ويغسل بيده اليسرى أسفل الوسط من الجانبين ثم يتوضأ، ولكنه لا يغسل قدميه ثم يصب الماء على رأسه ثلاث مرات ويخلل بأصابعه بين شعره حتى جذوره ثم يصب الماء على الجسد كله، وفي النهاية يغسل قدميه. (مسلم - باب صفة غسل الجنابة).

الرجل، فاغتسلت ثم جئت وهو قاعد، فقال: (أين كنت يا أبا هريرة) فقلت له: فقال: (سبحان الله يا أبا هريرة المؤمن لا يتجسس).

^١ أبو داود - كتاب الطهارة - باب في الأذى يصيب الذيل.

حدثنا عبد الله بن مسلمة، عن مالك عن محمد بن عمرو بن حزم، عن محمد بن إبراهيم، عن أم ولد لإبراهيم بن عبد الرحمن بن عوف: أنها سألت أم سلمة زوج النبي صلى الله عليه وسلم فقالت: إنني امرأة أطيل ذيلي وأمشي في المكان القذر، فقالت أم سلمة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: يطهره ما بعده.

وليس في الإسلام أمر بالاغتسال يومياً ولا يمكن أن يحدث هذا في بلاد مثل بلاد العرب لكن يجوز الاغتسال يومياً في بلاد يكثر فيها الماء والرسول صلى الله عليه وسلم يشبه الصلوات الخمس بنهر يجري من أمام باب أحدنا وهو يغتسل فيه خمس مرات في اليوم والليلة وبالتالي يزول الدرن من على بدنه .

آداب للطعام و الشراب

١- يجب غسل الأيدي قبل الأكل وبعده ورغم أنه ليس هناك حديث صحيح فيما يتعلق بغسل الأيدي قبل الطعام لكن مثلما أن وضع اليد دون غسلها في الماء بعد الاستيقاظ من النوم فإنه لا يستحسن وضع اليد في التطبيق دون غسلها وهناك حديث ضعيف عن أبي دلود فيما يتعلق بغسل اليدين قبل الأكل وبعده وقد جاء في الحديث أنه إذا نام أحدكم ودهن الطعام علق بيديه ثم جاء حيوان وعض يده فإن هذا يكون بسبب خطأ هذا الرجل ويجب أن يلام على تساهله ويعلم من هذا أن هذه للتعاليم لمن تعلق بيديه بقايا الطعام وأجزاءه .

٢- يجب أن يبدأ المسلمون كل عمل باسم الله مثلما ورد في الحديث، وما أعظم عمل مثل الطعام وهو الذي تقوم عليه الحياة ولذا لا ينبغي أن يبدأ مثل هذا العمل بغير اسم الله يقول الصحابة عندما كان يتفق لنا تناول الطعام مع رسول الله صلى الله عليه وسلم كنا لا نمد يداً إلى الطعام طالما لم يبدأ رسول الله صلى الله عليه وسلم بتناوله ولكن ذات مرة جاء أعرابي مهرولاً وهم بمد يده إلى الطعام فأمسك رسول الله صلى الله عليه وسلم بيده وهكذا جاءت أمة وهمت بمد يدها إلى الطعام فأمسك رسول الله صلى الله عليه وسلم بيدها وقال إن الطعام الذي لا يذكر اسم الله عليه يستحل الشيطان^(١) وإذا نسى أحدكم أن يسم الله في أول الطعام فليقل حين يذكر باسم الله أوله وآخره^(٢) .

^١ أبو داود - كتاب الأطعمة .

حدثنا عثمان بن أبي شيبة، ثنا أبو معاوية، عن الأعمش، عن خيثمة، عن أبي حذيفة، عن حذيفة قال: كنا إذا حضرنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم طعاماً لم يضع أحدنا يده حتى يبدأ رسول الله صلى الله عليه وسلم بولنا حضرنا معه طعاماً، فجاء أعرابي كأنما يدفع فذهب ليضع يده في الطعام، قال فأخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم بيدها وقال: إن الشيطان ليستحل الطعام الذي لم يذكر اسم الله عليه بولته جاء بهذا الأعرابي ليستحل به فأخذت بيده وجاء بهذه الجارية ليستحل بها فأخذت بيدها، هو الذي نفسى بيده إن يده لفي يدي مع أيديهما.

^٢ المرجع السابق .

٣- يضطر الإنسان طبقاً لضرورته إلى وضع يده في أشياء وأعمال طاهرة وربما غير طاهرة أيضاً والنظافة تقتضي أن يخصص لكل يد أمر تقوم به طبقاً لمبدأ تقسيم العمل، وهكذا اختصت اليد اليمنى بالأعمال التي لا نجاسة فيها بينما اختصت اليد اليسرى بدفع النجاسة وما شابهها، وهناك مصلحة طبية وفطرية في هذا التخصيص، إذ أن معظم أعمال الإنسان وأفعاله طاهرة ومباحة فطرياً، أما حاجته إلى دفع النجاسة فتحدث أحياناً، ولهذا خصص الجانب الأيمن، أي الجانب الذي ليس فيه القلب للأعمال الكثيرة حتى لا تؤذي القلب، وهذا هو السبب في أن الإنسان بالفطرة يقوم بأعماله باليد اليمنى بينما تكون اليد اليسرى لمساعدتها فقط، وهذا هو السبب أيضاً في أن اليد اليمنى أقوى من اليد اليسرى عموماً وأنشط، ومن هنا ينبغي أن يكون تناول للطعام والشراب باليد اليمنى^(١)، ولا ينحصر هذا على الطعام والشراب فقط بل إن الشريعة راعت مثل هذا في أكثر الأمور، وذات مرة قم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم لين، وكان أعرابي يجلس على يمين رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى اليسار كان سيدنا أبو بكر رضي الله عنه، فمد رسول الله صلى الله عليه وسلم للين بعد ما شرب منه إلى الأعرابي أولاً، وقال أنه يجب مراعاة للترتيب من اليمين^(٢) .

وذات مرة كان صبي يجلس إلى يمين رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى يساره رجال كبار في السن، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يشرب شيئاً فقال

حدثنا مؤمل بن هشام، قال: ثنا إسماعيل، عن هشام يعني ابن أبي عبد الله الدستوائي، عن بديل، عن عبد الله بن عبيد، عن امرأة منهم يقال لها لم كلثوم، عن علقمة رضي الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: إذا أكل أحدكم فليذكر اسم الله تعالى، فإن نسي أن يذكر اسم الله تعالى في أوله فليقل: بسم الله أوله و آخره.
^١ أبو داود - كتاب الأطعمة .

حدثنا أحمد بن حنبل، قال: ثنا سفيان، عن الزهري، قال: أخبرني أبو بكر بن عبيد الله بن عبد الله بن عمر، عن جده ابن عمر أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: إذا أكل أحدكم فليقل بيمينه، وإذا شرب فليشرب بيمينه، فإن الشيطان يأكل بشماله، ويشرب بشماله.
^٢ صحيح البخاري - كتاب الأضحية .

حدثنا إسماعيل قال: حدثني مالك، عن ابن شهاب، عن أنس بن مالك رضي الله عنه: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أتى بلبن قد شيب بماء، وعن يمينه أعرابي، وعن شماله أبو بكر، فشرب ثم أعطى الأعرابي وقال: (الأيمن الأيمن).

للصبي إن كنت أناول هؤلاء الناس، فقال الغلام لا أستطيع أن أعطي نصيبي لأحد، وهكذا ناوله رسول الله صلى الله عليه وسلم أولاً^(١).

٤- يجب تناول الطعام من جانب حافة الإناء وليس من وسطه، وبالتالي لا يتلوث ما سوف يبقى من الطعام، كما إن يتسخ الإناء أيضاً، وثالثاً إذا أكل أحد على عكس هذا فإنه ينم عن حرصه وطعمه، والحرص لا يشبع أبداً، وهذا هو ما عبر عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم بالبركة قائلاً: بأن البركة تنزل في وسط الطعام^(٢).

٥- لا ينبغي أن يتناول من الطعام أكثر ممن يأكلون معه إلا بأنهم كان يأخذ من العنب أو البلح ونحوه حبتين في اللقمة الواحدة مثلاً^(٣)، لأن هذا ينم عن عيب أخلاقي هو الحرص والطمع، ويظهر منه أن هدف هذا الشخص هو أن يملأ بطنه سريعاً من الطعام قبل أن يشاركه الآخرون فيه، وإذا كان يأكل مع آخرين فإن طريقته هذه تظهر أنه يريد أن يأكل أكثر منهم، وهذا يدل على الحرص والطمع ويتنافى مع الإيثار، ولهذا منع رسول الله صلى الله عليه وسلم من ذلك، وإذا اضطر أحد لمثل هذا فإن عليه أن يستأذن شركاءه أولاً.

٦- لا يجب أن يعيب على الطعام، لأن هذا يولد في قلوب أهل المضيف ومن قاموا بإعداد الطعام نفوراً تجاه هذا الشخص، ومثل هذا يخرّب العلاقات بدلاً من أن يصلحها، ولهذا إذا تصادف أن كان الطعام سيئاً فإن شئت أكلت منه، وإن شئت دعه^(٤).

٧- إن الاجتماع للقيام بعمل ما يعد وسيلة من وسائل التمدن وحسن التعايش، ولذا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحب أن يجتمع الأصدقاء والأحباب، أو أهل البيت جميعاً

^١ المراجع السابق.

حدثنا إسماعيل قال: حدثني مالك، عن أبي حازم بن دينار، عن سهل بن سعد رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أتى بشراب فشرّب منه، وعن يمينه غلام، وعن يساره الأشياخ، فقال للغلام: (أتأذن لي أن أعطي هؤلاء؟) فقال الغلام: والله يا رسول الله، لا لوثر بن نصيب منك أهدأ، قال: فقلته رسول الله صلى الله عليه وسلم في يده.

^٢ الترمذي - أبواب الأطعمة - باب ما جاء في كراهية لو أكل في وسط الطعام.

حدثنا أبو رجاء حدثنا جرير عن عطاء بن السائب عن سعد بن جبيرة عن ابن عباس أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: البركة تنزل وسط الطعام، فاكلوا من حالته، ولا تاكلوا من وسطه.

^٣ الترمذي - أبواب الطعام.

^٤ البخاري - كتاب الأطعمة.

على الطعام مثلما جاء في القرآن للكریم أن الأكل منفردا جائز وكذا الأكل جماعة^(١) لكن النبي صلى الله عليه وسلم أخبرنا أن البركة في الأكل جماعة وهكذا لا يتم استهلاك قدر كبير من الطعام فهناك من يأكل قليلا ومن يأكل أكثر، وبذا يستوي الأمر ويحصل كل من يتناول الطعام على نصيب منه، ويتضح منه أيضا الإيثار الذي يتصف به أصحاب البيت، ولا يبقى هناك ما يمكن أن يدل على تميز صاحب البيت وشخصيته أو غروره، ومنه تردد المحبة بين أهل البيت والأصدقاء. ذات مرة قال الصحابة: يا رسول الله نحن نأكل لكننا لا نشبع، فقال لرسول صلى الله عليه وسلم: ربما تأكلون منفردين، فقال الصحابة: نعم، فقال: كلوا جماعة وقولوا بسم الله تحل البركة^(٢).

٨- لا ينبغي تناول الطعام مستلقيا أو متكئا، لأن تناول الطعام على هذا الوضع مضر صحيا إضافة إلى الناحية الروحية أيضا، لأن الطعام بهذا الشكل لن يستقر في المعدة بشكل مريح، وللجلوس من أجل تناول الطعام صور مستوية هي إما أن تجلس على رجل وترفع الأخرى، أو تجلس متربعا، وإذا كان المكان غير متمتع وللناس كثيرون فيمكن أن تجلس للقرفصاء^(٣)، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: لا أكل متكئا، فإني عبد أكل مثل العبيد، أي بتواضع^(٤).

٩- يجب أن يأكل الإنسان مما يليه، ولا يتقل بيده في الطعام هنا وهناك، خاصة إذا ما كان عدة أشخاص يأكلون من إناء واحد، وسبب هذا أنه بهذه الطريقة لا يتلوث الطعام، ويتناول كل شخص نصيبه، فإذا اتفق أن كان أمام واحد منهم قطعة من الطعام أفضل أو أكبر فعلى الآخرين أن يتعاملوا مع الأمر بإيثار ويتجنبوا الطمع.

^١ أبو داود - كتاب الأطعمة .

^٢ المرجع السابق .

حدثنا الحسن بن علي الخلال، حدثنا الحسن بن موسى، حدثنا سعد بن زيد، حدثنا عمرو بن دينار قهرمان آل الزبير، قال: سمعت سالم بن عبد الله بن عمر، قال: سمعت أبي يقول: سمعت عمر بن الخطاب يقول: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: كلوا جميعاً ولا تفرقوا، فإن البركة مع الجماعة.

^٣ أبو داود - كتاب الأطعمة، وابن ماجه كتاب الأطعمة، وشرح سفر السعادة للشيخ عبد الحق محدث الدهلوي .

^٤ أبو داود وابن ماجه مع الزرقاني على السيرة - الجزء الرابع - ص ٣٩٨ .

حدثنا محمد بن كثير، قال: ثنا سفيان، عن علي بن الأقرم، قال: سمعت أبا جحيفة، قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم لا أكل متكئا.

١٠- بعد تناول الطعام ينبغي تنظيف الإثاء بالأصابع، وتنظيف الأصابع بالفم ثم تنظيف اليد بعد ذلك بالمنديل أو ما شابه .

١١- ينبغي شرب الماء على عدة دفعات^(١)، وبالتالي يشبع منه الإنسان ويلبي حاجته من الماء، وفي نفس الوقت لا يخرج نفسه من داخله إلى الإثاء الذي يشرب منه .

١٢- لا ينبغي أن يتنفس الإنسان في الإثاء الذي يشرب منه، لأنه من الممكن أن يتسرب لعاب اللفم أو ماء الأنف إلى الإثاء وهو ما يكرهه الناس ثم إن النفس الذي يخرج من داخل الإنسان (الزفير) يكون محملاً ببعض ما بالدخل وبالتالي لا يدخل منه شيء إلى الإثاء الذي يشرب منه .

١٣- لا ينبغي شرب الماء وفقاً لإلزامية، لأن هذا يناقض الوفاق ومضراً من الناحية الطبية أيضاً، لكن لو شرب أحد وفقاً في بعض الأحيان فلا حرج في ذلك، إذ إن النبي صلى الله عليه وسلم شرب وفقاً في بعض الأحيان^(٢)، ولكن لا يجب التعود على ذلك، إذ إن من ضرورات شرب الماء أن تستريح الأعصاب للدخلية وتسترخي، وهذا الأمر يتحقق من شرب الماء جالماً، إلا أن ماء زمزم يشرب وفقاً وربما كان ذلك مسنوناً للبركة والدعاء والتعظيم .

١٤- لا يجب شرب الماء من فم القربة، أو من ثقب الإثاء، وذلك لأنه لا يمكن أولاً من تقدير كمية الماء التي سيشربه، ثم إنه لا يمكن كذلك من رؤية ما قد يكون بالماء من أشياء ضارة .

١٥- يجب تغطية أواني الطعام والشراب^(٣) حتى لا يقع فيها تراب أو غبار أو ما ينجسها مثل الحشرات والديدان، أو يشرب منها حيوان^(٤) .

^١ البخاري - كتاب الأطعمة.

^٢ البخاري كتاب الأشربة .

حدثنا مالك بن إسماعيل حدثنا عبد العزيز بن أبي سلمة: أخبرنا أبو التضر، عن عمير مولى ابن عباس، عن أم الفضل بنت الحارث: أنها أرسلت إلى النبي صلى الله عليه وسلم بقدر لبن وهو واقف عذبة عرفة فآخذ به فشربه.

زاد مالك، عن أبي التضر: على بغيره.

^٣ أبو داود - كتاب الأشربة .

^٤ المرجع السابق ، و موطأ الإمام مالك .

١٦- يجب شكر الله وحمده بعد تناول الطعام على أنه أطعمنا وسقانا وهناك أدعية مختلفة وردت في الأحاديث للتبوية هذا واحد مختصر منها :
" الحمد لله الذي أطعمنا وسقانا وجعلنا من المسلمين "

آداب المجلس

من الأمور المبدئية في آداب المجلس أن يتسم بالتحضر والوقار وأن يكون لكل شريك في المجلس حقوق متساوية. إذ أنه يكون في الأصل لزيادة أوصال المحبة بينهم. ومن أجل تحقيق هذين الهدفين علما رسول الله صلى الله عليه وسلم في شريعته للغراء بعض آداب للمجلس :

١- أن يجلس الإنسان حيث انتهى المجلس وحيث يتيسر له مكان فيه ولا ينبغي أن يشق المجلس ليجلس في الأمام مثلاً، إذ أن هذا يؤذي للجالسين ومن جاءوا قبله، هذا من جانب ومن جانب آخر فإن هذا يولد نوعاً من الغرور لدى من يفعل ذلك ويجعله يركز اهتمامه على نفسه. وكان للصحابه للكرام يجلسون في مجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم بهذه الطريقة^(١)، وغاية ذلك أن لا يتخطى للذين جاءوا متأخرين إلى المسجد أولئك الذين سبقوهم ليجلسوا في الصفوف الأمامية ولهذا منع من تخطي الرقاب وخاصة في صلاة الجمعة .

٢- لا يجب أن يوقف أحداً ليجلس مكانه^(٢)، إذ أن في هذا نوعين من التمييز وهو ما يولد في قلوب الآخرين بعضاً من سوء الظن.

٣- إذا قام شخص من المجلس لضرورة عرضت له فإنه عند عودته يجلس في نفس المكان الذي قام منه، ولا يجلس أحد مكانه، لأنه هو الذي جلس فيه أولاً ولا يضيع حقه فيه لمجرد أنه قام منه بشكل مؤقت^(٣).

٤- إذا جلس لثان سواً في مجلس واحد فلا يحق لأحد للفصل بينهما إلا بإذنهما^(٤)، إذ أن الغالب أنه عندما يجلس لثان هكذا فإنما يكون ليتحدثا سواً، أو أن هناك مصلحة ما بينهما، وبينهما مودة وألفة، والتفريق بينهما يبعث على الضيق والوحشة.

^١ أدب المفرد - باب مجلس الرجل حيث انتهى .

^٢ الترمذي - أبواب الاستئذان - باب ما جاء في كراهية أن يقام الرجل من مجلسه ثم يجلس فيه .

^٣ الترمذي - أبواب الاستئذان - باب إذا قام الرجل من مجلسه ثم رجع هو أحق به .

^٤ الترمذي - أبواب الاستئذان - باب ما جاء في كراهية الجلوس بين الرجلين بغير إذنهما .

٥- إذا كان بعض الناس يجلسون متحلقين في مجلس فلا يجب أن يجلس أحد وسط حلقته هذه، فقد لعن رسول الله صلى الله عليه وسلم مثل هذا الشخص^(١)، لأنه في هذه الحالة سيكون وجهه قبالة بعض الناس، وظهره قبالة البعض الآخر، وهو ما يعد نوعاً من سوء الأدب، وربما كان المهرجون الذين يضحكون للناس يجلسون بهذه الطريقة، وهو على لية حال أمر مخالف للوقار.

٦- لا يجب أن يبقى أحد واقفاً أمام شخص آخر أو بالقرب منه وهم في المجلس^(٢)، إذ أن هذه كانت من عادات العجم حيث يقف الخدم والحشم أمام الملك، وهو تعظيم مبالغ فيه يصل إلى حد الشرك، وكان شخصاً جعل من نفسه إلهاً، يقضي على شخصية من هو أمامه، وهو ما لا يعتبر جيداً في الإسلام الذي يحب المساواة.

٧- لا يجب الجلوس في الطرقات، إذ أن هذا ينافي الوقار، ومن سوء الأخلاق التحديق في الراحين والغادين، ولكن إذا اضطررتك الظروف للجلوس فإن عليك الانتزاع بالأحكام التي أمر بها رسول الله صلى الله عليه وسلم في هذا الخصوص، أي غض البصر ورد السلام، وإمالة الأذى عن الطريق والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإرشاد من ضل الطريق، ومساعدة المنكوبين^(٣).

٨- إن أكثر ما يؤثر في الإنسان هو الصحبة، وهذا ينبغي التدقيق في اختيار الأصدقاء، فلا بد أن يكونوا ممن تقيد صحبتهم، وكل إنسان يستطيع أن يعرف فطرة الآخر وطبيعته من خلال معرفة أصحابه، وقد شرح رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا الأمر قائلاً: الأرواح جنود مجندة، فما تعارف منها ائتلف، وما تنكر منها اختلف^(٤)، وهناك

^١ الترمذي - أبواب الاستئذان - باب ما جاء في كراهية القعود وسط الحلقة .

حدثنا سويد أخبرنا عبد الله. أخبرنا شعبة عن قتادة عن أبي مجلز أن رجلاً قعد وسط حلقة فقال حذيفة: ملعون على لسان محمد، أو لعن الله على لسان محمد صلى الله عليه وسلم من قعد وسط الحلقة.

^٢ أبو داود - كتاب الأدب - باب في قيام الرجل .

^٣ أبو داود - كتاب الأدب - باب الجلوس في الطرقات .

وحدثنا عبد الله بن مسلمة، ثنا عبد العزيز يعني ابن محمد، عن زيد يعني ابن أسلم عن عطاء بن يسار، عن أبي سعيد الخدري، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: يا أيكم والجلوس بالطرقات قالوا يا رسول الله، ما بد لنا من مجالسنا نتحدث فيها فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إن أيكم فأعطوا الطريق حقها قالوا: وما حق الطريق يا رسول الله؟ قال: غض البصر، وكف الأذى، ورد السلام، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

^٤ أدب المفرد - باب الأرواح جنود مجندة .

قول مأثور وهو إذا أردت أن تعرف الشخص وأخلاقه فاعرف من يكون أصحابه وأخلاقهم، وقد شرح رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا الأمر بقوله "المرء على دين خليله، فلينظر أحدكم من يخالل" ثم قال "إن مثل للصحة الطيبة وصحة للسوء كبائع للمسك ونافخ الكير، ببائع للمسك إما أن تشتري منه، أو تجد منه ريحا طيبة، أما نافخ الكير فإما أن يحرق بيتك أو ملابذك، أو أن تؤذيك منه ريح نكته" (١).

٩- لا ينبغي أن تحاول الجلوس في أفضل أماكن المجلس، فإذا ما نزلت على أحد فلا يجوز لك أن تحاول الجلوس على أفضل مكان عنده إلا بإذنه، وقد قال صلى الله عليه وسلم: "لا يجلس أحدكم في أفضل أماكن أخيه إلا بإذنه" (٢)، وكثيرا ما يحدث أن يحاول الناس في المجلس أن يجلسوا في أقرب مكان لأفضل مكان على الأقل إن لم يستطيعوا الجلوس في الأفضل نفسه، وتكون نتيجة ذلك أن يضيق المكان حول رئيس الجلسة ويضجر الناس إذا طلب منهم الإصاح للأخريين، ولهذا علمنا الله تعالى هذه الآداب فقال:

"يا أيها الذين آمنوا إذا قيل لكم تفسحوا في المجالس فافسحوا ففسح الله لكم، وإذا قيل لكم انشزوا فانشزوا يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا للعلم درجات، والله بما تعملون خبير" (المجادلة: ١١) .

قال: قال الترمذي، عن يحيى بن سعيد، عن عمرة، عن عائشة رضي الله عنها قالت: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (الأرواح جنود مجندة، فما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف). وقال يحيى بن أيوب: حدثني يحيى بن سعيد بهذا.

١ البخاري - كتاب البيوع - باب في العطر وبيع المسك .

حدثنا محمد بن العلاء: حدثنا أبو أسامة، عن بريد، عن أبي بردة، عن أبي موسى رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (مثل للجلوس الصالح والسوء كحامل المسك ونافخ الكير، فحامل المسك: إما أن يحذيك، وإما أن تبتاع منه، وإما أن تجد منه ريحا طيبة، ونافخ الكير: إما أن يحرق ثيابك، وإما أن تجد ريحا خبيثة).

٢ الترمذي - أبواب الاستئذان .

حدثنا هذا: حدثنا أبو معاوية عن الأعمش عن إسماعيل بن رجاء عن أنس بن مالك عن أبي سعيد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: لا يؤم للرجل في سلطته، ولا يجلس على تكريمته إلا بإذنه.

قال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح.

١٠- لا يجب الثرثرة والأحاديث الجانبية في المجلس، حتى لا يظن الحضور أن هذه الأحاديث الجانبية عنهم وقد نم الله تعالى في القرآن للكريم سلوك المنافقين هذا فقال :
" إنما النجوى من الشيطان ليحزن الذين آمنوا " (المجادلة : ١٠) .

فإذا كان الناس يجلسون في مجلس ويتأجى لثتان فيما بينهما فإن هذا يضايق الآخرين باعتبار أنهما لم يعتبروا باقي الناس أهلاً لأن يطلعوا على ما يقولان، هذا من جانب، ومن جانب آخر يظن الناس أنهما يتحدثان عنهم، ولهذا قال صلى الله عليه وسلم:
" لا يتأجى لثتان من ثلاثة، إذ أن ذلك يحزن الثالث " (١) .

١١- لا ينبغي إفضاء أسرار المجلس، إذ أن للمجالس بالأمانة كما قال صلى الله عليه وسلم (٢) .

آداب للقاء والزيارة

إن لقاء وزيارة الأصدقاء من الناحية الاجتماعية في الإسلام من أعمال الخير، وقد جاء في الحديث من ذهب لعيادة مريض أو زيارة أخ في الله نادى مناد ما أطيبك، وما أطيب مجيئك، ولقد صنعت لنفسك مكاناً في الجنة (٣) ، وفيما يلي الآداب التي قررها الإسلام فيما يتعلق باللقاء والزيارة :

ينبغي أن يكون الوجه مبتسماً عند لقاء الأصدقاء، وأن تظهر الفرحة عليه، ولهذا قال صلى الله عليه وسلم: "بشك في وجه أخيك صدقة" (٤) ، وأول كلمة تخرج من الفم عند

^١ أبو داود - كتاب الأدب - باب في نقل الحديث .

حدثنا هناد قال: حدثنا أبو معاوية عن الأصم قال: تحدثني ابن أبي عمر حدثنا سفيان عن الأعشى عن شقيق عن عبد الله قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إذا كنتم ثلاثة فلا يتأجى لثتان دون صاحبهما. وقال سفيان في حديثه: لا يتأجى لثتان دون الثالث، فإن ذلك يحزنه.
^٢ المرجع السابق .

حدثنا أحمد بن صالح قال: قرأت على عبد الله بن نافع قال: أخبرني ابن أبي ذئب، عن ابن أخي جابر بن عبد الله، عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: المجالس بالأمته إلا ثلاثة مجلس: نفسك دم حرام، أو فرج حرام، أو لفتك مال بغير حق.

^٣ الترمذي - كتاب البر والصلة - باب ما جاء في زيارة الإخوان .

^٤ أبو داود - كتاب النكاح - باب في حق الزوج على المرأة .

حدثنا عباس بن عبد العظيم العبدي، حدثنا النضر بن محمد الجرجاني اليمامي، حدثنا عكرمة بن عمار، حدثنا أبو زميل عن مالك بن مرثد عن أبيه عن أبي ذر قال: قال رسول الله صلى الله عليه

اللقاء هي كلمة الأمن والسلام في الشريعة وهي (السلام عليكم) فإن أول ما يلقي الكبير على الصغير والصغير على الكبير هو هذه الرسالة .

وكان لدى كل أمة من الأمم من التعبيرات التي تظهر للحب والفرحة عند اللقاء وكان العرب يقولون عند اللقاء: أنعم الله بك علينا وأنعم صباحا، أي فلتنعم عينك، وليكن صباحك جميلا وكانت هناك بعض التعبيرات الخاصة بالأمراء والسلطين فكان الإيرانيون يقولون (عشت ألف عام) والأوريون يقولون (صباح طيب) و (مساء طيب) و (ليلة طيبة) وغيرها، أما الإسلام فكانت تحيته (السلام عليكم) وفيها للفوائد التالية :

١- هذه هي تحية الأنبياء جميعا عليهم السلام وهي التي كانوا يلقونها على غيرهم: والسلام على (مريم) أو كما جاء عن الأنبياء والمرسلين: والسلام على المرسلين (الصلوات) وصورتها هي الذكر والدعاء ولا علاقة لها بالمتنوعات دنيويا كطول العمر وغيره كما أنها ليست مقيدة بأوقات معينة، إذ يكمن فيها سر السلام الأبدي والمرمدي دائما ويتبدو فيها العظمة الدينية بشكل أكبر، إذ المقصود بالسلام الذي ورد فيها ذلك السلام الذي ينزل من الله على عباده والذي تشير إليه (الألف واللام) في (السلام).

لا يوجد بها التعظيم المبالغ فيه والذي نجده في الأدب والتحيات الأخرى غير المقشوعة وهذا هو السبب في أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يوافق على إرادة حينئذ قيس بن سعد رضي الله عنه حين قال له إني رأيت أهل الحيرة يسجدون لرؤسائهم وأنت أحق منهم بأن تسجد لك (") وقال رجل آخر يا رسول الله حين يلقي

وسلم تيمسك في وجه أخيك لك صدقة، وأمرك بالمعروف ونهيك عن المنكر صدقة، وإرشاك للرجل في أرض الضلال لك صدقة، وبصرك للرجل الذي في البصر لك صدقة، وإمطتك الحجر والشوكة والعظم عن الطريق لك صدقة، وإفراغك من دلوك في دلو أخيك لك صدقة.

قال وفي الباب عن ابن مسعود وجابر وحذيفة وعائشة وأبي هريرة.

١ أبو داود - كتاب النكاح - باب في حق الزوج على المرأة .

حدثنا عمرو بن عون، أخبرنا إسحاق بن يوسف الأرق، عن شريك، عن حصين، عن الشعبي عن قيس بن سعد قال : أتيت الحيرة فرأيتهم يسجدون لمرزبان لهم، فقلت: رسول الله أحق أن يسجد له، قال: فأتيت للنبي صلى الله عليه وسلم فقلت: إني أتيت الحيرة فرأيتهم يسجدون لمرزبان لهم، فأنت يا رسول الله أحق أن تسجد لك، قال: لو مررت بقبري لأنت تسجد له، قال: قلت: لا، قال: فلا

الرجل منا أخاه فهل ينحني له، فقال صلى الله عليه وسلم لا، فقال الرجل لو يمسك بيده ويصافحه، فقال صلى الله عليه وسلم نعم.

إن أفضل دعاء يمكن أن يدعو به للرجل في الدنيا هو الدعاء بالسلام والأمان وهو يشمل أمان الروح والمال والآل والأولاد وكل أنواع السلام في الدنيا والآخرة.

حين كان لثان يلتقيان فيما قبل كان كل منهما يشعر بغربة وتوحش عن الآخر، ويخاف أن تكون هناك عدوة في غفلة منه، أما وأن كلا منهما طبقا لقاعدة الإسلام يؤدي هذا اللفظ وينطبق به فإن معنى هذا أن كلا منهما يطمئن الآخر من ناحيته، وأن كلا منهما يدعو للآخر بالسلام والأمان.

جعل الإسلام من تحية السلام عليكم ما يظهر شخصية للمسلمين فيما بينهم، فإذا ما التقى لثان وحيا كل منهما الآخر بها فإنهما يشعران بنوع ما من القرب في قلوبهما حتى ولو كان كل منهما أجنبيا عن الآخر ولا يعرفه، كما يشعران بجاذبية المحبة فيما بينهما باعتبار أن كلا منهما ابن إيماني من أبناء الأمة للمحمدية، ولقد كانت أول تعاليم المصطفى صلى الله عليه وسلم حين هاجر إلى المدينة المنورة هي:

" يا أيها الناس أفسوا السلام، ولطعموا الطعام، وصلوا للناس نيام، تتخلوا الجنة بسلام" (١).

تفعلوا، لو كنت أمرا أحدا أن يسجد لأحد لأمرت النساء أن يسجدن لأزواجهن لما جعل الله لهم عليهن من الحق.

١ هذا المنع يرى في المواقف التي يكون فيها محظور شرعي كان يكون الرجل أمردا، أو في أي صورة أخرى من صور الشهوة.

٢ الترمذي - كتاب الاستئذان - باب ما جاء في المصالحة.

حدثنا يوسف بن حماد المعني البصري حدثنا عثمان بن عبد الرحمن الجمحي عن محمد بن زياد عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: أفسوا السلام، ولطعموا الطعام، واضربوا الهام، وتورثوا الجنان قال: وفي الباب عن عبد الله بن عمرو وابن عمر وأبي هريرة وعبد الرحمن بن عافصة وشريح بن هانئ عن أبيه.

قال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح غريب من حديث ابن زياد عن أبي هريرة.

وفي حديث آخر وضع رسول الله صلى الله عليه وسلم غرض السلام وغايته قائلا لن تدخلوا الجنة ما لم تؤمنوا ولن تؤمنوا ما لم تتحابوا، ألا هل أخبركم بشيء إن فعلتموه تحاببتم، أفشوا السلام بينكم تحابوا^(١).

وليس هناك تخصيص في مسألة إفشاء السلام بالمعرفة وغير المعرفة، أو بالقرب وغير القريب^(٢)، ولا فرق فيها بين رجل وامرأة^(٣)، أو بين صغير وكبير^(٤)، إلا أن الإسلام وضع مبدئين لمن يبدأ بالسلام وكانا معروفين عند كل الأمم للمتحضرة وهما أن يراعي الصغير أصول الأئب والاحترام وبناء عليه أرشدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أن الصغير يسلم على الكبير والماشي على الجالس والجماعة للصغيرة على الجماعة الكبيرة، لما الأمر الثاني فهو أن يبدو التواضع من السلام ويظهر منه وبناء عليه أرشدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أن الراكب يسلم على الماشي^(٥).

وفي ضوء كل هذا أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالسلام على الأهل والأولاد حين يدخل الرجل بيته وأكد أن هذا يوجب البركة^(٦)، وأن يسلم للرجل على من

^١ الترمذي - أبواب الزهد - ٤٠٩ .

حدثنا هذا حدثنا أبو معاوية عن الأعشى عن أبي صالح عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: والذي نفسي بيده لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا، ولا تؤمنوا حتى تحابوا، ألا أنلكم على أمر إذا أنتم فعلتموه تحاببتم؟ أفشوا السلام بينكم.

وفي الباب عن عبد الله بن سلام وشريح بن هاتئ عن أبيه وعبد الله بن عمرو والبراء وابن عمر. قال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح.

^٢ الترمذي - كتاب الاستئذان - باب ما جاء في إفشاء السلام، والبخاري - كتاب الاستئذان - باب السلام للمعرفة .

^٣ البخاري - كتاب الاستئذان - باب تسليم الرجال على النساء والنساء على الرجال .

^٤ البخاري - كتاب الاستئذان - باب التسليم على الصبيان .

^٥ كتاب الاستئذان - باب في تسليم الراكب على الماشي .

حدثنا محمد: أخبرنا خالد، أخبرنا ابن جريج قال: أخبرني زيد: أنه سمع ثابتاً مولى عبد الرحمن بن زيد: أنه سمع أبا هريرة يقول: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (يسلم الراكب على الماشي، والماشي على القاعد، والقليل على الكثير

^٦ الترمذي - كتاب الاستئذان - باب في التسليم إذا دخل يته .

حدثنا ابن عوف، ثنا محمد بن إسماعيل قال: حدثني أبي قال ابن عوف: رأيت في أصل إسماعيل قال: حدثني، عن شريح، عن أبي مالك الأشعري قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إذا

في المجلس إذا رحل عنهم^(١) وإضافة جملة ورحمة الله وبركاته إلى لفظ السلام يوجب مزيداً من الثواب وهكذا جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال: "السلام عليكم فقال صلى الله عليه وسلم: لقد نال عشر حسنات وجاء آخر وقال: "السلام عليكم ورحمة الله فقال صلى الله عليه وسلم: لقد نال عشرين حسنة وجاء ثالث وقال: "السلام عليكم ورحمة الله وبركاته فقال صلى الله عليه وسلم: لقد نال ثلاثين حسنة^(٢) .

ويجب على الشخص الذي يلقي عليه السلام أن يرد السلام بنفس الطريقة التي تلقى بها عليه أو أفضل منها بمعنى أن يضيف ألفاظاً مناسبة إلى الألفاظ التي قيلت له وإلا فليردّها كما هي ولهذا جاء في القرآن الكريم :

" وإذا حييتم بتحية فحيوا بأحسن منها أو ردوها " (النساء : ٨٦) .

ورغم أن الرد بالآفاظ أقل مما قيلت جائز لدى الفقهاء لكن المفهوم الظاهري للآية أنه ليس أفضل .

٢- والطريقة الثانية لإظهار الحب والسرور عند اللقاء هي المصافحة، وبها يكون تكميل أهداف الإسلام، ولهذا جعلها الإسلام جزءاً من السلام، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم إن تكملة الإسلام الإمساك باليد، أي المصافحة^(٣) وكانت أول هدية في المدينة

ولج للرجل بيته فليقل: اللهم إني أسألك خير المولج وخير المخرج، بسم الله ولجنا، وبسم الله خرجنا، وعلى الله ربنا توكلنا، ثم ليسلم على أهله.

^١ الترمذي - كتاب الاستئذان - باب التسليم عند القيام والقعود .

حدثنا قتيبة حدثنا الليث عن ابن عجلان عن سعيد المقبري عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: إذا انتهى أحدكم إلى مجلس فليسلم فإن بدا له أن يجلس فليجلس، ثم إذا قام فليسلم فليست الأولى بأحق من الآخرة. قال أبو عيسى: هذا حديث حسن، وقد روي هذا الحديث أيضاً عن ابن عجلان عن سعيد المقبري عن أبيه عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم.

^٢ الترمذي - كتاب الاستئذان - باب ما ذكر في فضل السلام .

حدثنا محمد بن كثير، قال: أخبرنا جعفر بن سليمان، عن عوف، عن أبي رجاء، عن عمران بن حصين قال: جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: السلام عليكم، فرد عليه السلام ثم جلس، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: عشر ثم جاء آخر فقال: السلام عليكم ورحمة الله، فرد عليه فجلس فقال: عشرون ثم جاء آخر فقال: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، فرد عليه فجلس فقال: ثلاثون.

^٣ الترمذي - كتاب الاستئذان - باب ما جاء في المصافحة .

حدثنا أحمد بن عبدة الضبي، حدثنا يحيى بن سليم الطائفي عن سليمان عن منصور عن خيثمة عن رجل عن ابن مسعود عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: من تمام التحية الأخذ باليد.

المنورة هي التي أحضرها أهل اليمن وقبلها رسول الله صلى الله عليه وسلم وجعلها وسيلة للحب والاتحاد بين المسلمين وفي بعض الأحوال يمنع التعانق أو التقبيل عند اللقاء كما سبق الإشارة إليه ولكن إن لم يكن هناك محظور شرعي فيجوز وذات مرة جاء سيدنا زيد بن حارثة رضي الله عنه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فعانقه رسول الله صلى الله عليه وسلم وقبله (١) .

ولا يمنع الوقوف كنوع من إظهار المحبة والحماس لمجيء شخص محترم ومحبوب وكانت السيدة فاطمة رضي الله عنها تأتي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فكان يقف ويقبل يدها ويجلسها مكانه يوحين كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يزورها كانت تقبل معه صلى الله عليه وسلم مثل ذلك بوذات مرة جاء سيدنا سعد بن معاذ وكان مريضاً وجريحا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأمر النبي صلى الله عليه وسلم الصحابة جميعاً أن يلقوا له ويستقبلوه ويحضروه إليه (٢) .

وهناك بعض التقاليد والأدب التي يدخلها الشرك عند الشعوب الأخرى فيما يخص اللقاء والمجالس بوذ ألغاه الإسلام تماماً ومن هذا أن الناس كانوا يقفون لأمرائهم وملوكهم بنوع من العبودية والخضوع بدلاً من للمحبة ويظلون واقفين بوذ منع رسول الله صلى الله عليه وسلم من هذا قائلاً: لا تقوموا لبعضكم مثل ما يفعل العجم (٣) .

^١ الترمذي - كتاب الاستئذان - باب ما جاء في التعانق والتقبلة .

حدثنا محمد بن إسماعيل، حدثنا إبراهيم بن يحيى بن محمد بن عبد المنعم، حدثني أبي يحيى بن محمد عن محمد بن إسحاق عن محمد بن مسلم القزهي عن عروة بن الزبير عن عائشة قالت: قدم زيد بن حارثة المدينة ورسول الله صلى الله عليه وسلم في بيتي فأتاه ففرع الباب فقام إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم عريفاً يجر ثوبه والله ما رأيت عريفاً قبله ولا بعده فاستقبلته وقبلته فقال أبو عيسى: هذا حديث حسن غريب لا نعرفه من حديث القزهي إلا من هذا الوجه .

^٢ الواقعيان مذكوران عند أبي داود - كتاب الأدب - باب ما جاء في القيام .

^٣ أبو داود - كتاب قيام الرجل للرجل .

حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة، ثنا عبد الله بن نمير، عن مسعر، عن أبي الطيب، عن أبي الطيب، عن أبي مرزوق، عن أبي غالب، عن أبي أمامة قال: خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم متوكفاً على عصا، فقمنا إليه فقال: لا تقوموا كما تقوم الأعرج، يعظم بعضها بعضاً .

من التعبيرات التي تدل على الترحيب في مثل هذه المواقع وأجازتها الشريعة الإسلامية^(١).

٣- لا بد من الاستئذان من صاحب البيت عند الذهاب للقاءه أو لعمل ما عنده، وقد أمر الله تعالى بذلك في القرآن الكريم فقال :

" يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتا غير بيوتكم حتى تستأمنوا وتسلموا على أهلها، ذلكم خير لكم لعلكم تذكرون، فإن لم تجدوا فيها أحدا فلا تدخلوها حتى يؤذن لكم، وإن قيل لكم ارجعوا فارجعوا هو أزكى لكم والله بما تعملون بصير " (النور : ٢٨) .

كما أنه لا بد من استئذان الزوج عند لقاء المرأة غير المحرم^(٢)، ورغم أن هناك فوائد كثيرة في الاستئذان من الرجل قبل دخول بيته لكن الهدف الأصلي منه هو أن الإنسان يكون في بعض الأوقات في حال لا يحب أن يراه أحد عليها، وهذا هو السبب في أن رسول الله صلى الله عليه وسلم حين كان يذهب إلى بيت أحد فإنه كان يقف على يمين الباب أو يساره نظرا لأنه لم يكن وضع ستائر على الأبواب أمرا معروفا عندئذ^(٣)، ولم يكن صلى الله عليه وسلم يقف في مواجهة الباب^(٤) حتى لا تقع عينه على شيء بالداخل، وذات مرة جاء شخص ووقف أمام باب بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال صلى الله عليه وسلم له: قف يمين الباب أو يساره، إذ أن الاستئذان شرع لأجل أن لا تقع العين على ما بداخل البيت^(٥)، وجاء في الحديث لا ينظر أحدكم في بيت أحد ويتلصص عليه فإذا فقا أحد عينه فلا عقاب عليه^(٦)، وذات مرة نظر شخص في حجرته

^١ الترمذي - كتاب الاستئذان - باب ما جاء في مرجها .

^٢ الترمذي - كتاب الاستئذان - باب ما جاء في النهي عن الدعول على النساء إلا بإذن أزواجهن .

^٣ أبو داود - كتاب الأدب - باب الاستئذان في العورات الثلاث .

^٤ أدب المفرد - باب كيف يقوم عند الباب .

^٥ أبو داود - كتاب في الاستئذان .

حدثنا عثمان بن أبي شيبة، ثنا جرير، حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة، ثنا حفص، عن الأعمش، عن طلحة، عن هزيل قال: جاء رجل، قال عثمان: سعد بن أبي وقاص: فوقف على باب النبي صلى الله عليه وسلم يستأذن، فقام على الباب، قال عثمان: مستقبل الباب، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم هكذا عنه أو هكذا، فقبما الاستئذان من النظر .

^٦ الترمذي - كتاب الاستئذان - باب الاستئذان قبالة البيت، والبخاري - كتاب الديات - باب من اطلع في بيت قومه فلقوا عينه فلا دية له .

صلى الله عليه وسلم، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ ذاك يمشط شعره بمشط حديدي، فقال صلى الله عليه وسلم لو أعلم أنك تنظر بلفقات عينك ثم قال صلى الله عليه وسلم إنما جعل الإن من قبل البصر، وإنما جعل الاستئذان من أجل البصر، أي أن الإن يكون لكي لا ترى شيئاً^(١).

وطريقة الاستئذان هي أن تسلم عائلًا هل أدخل^(٢)، ويكرر السلام ثلاث مرات، فإذا لم يؤذن له رجع^(٣)، لكن لو أن أحدا دعاه فلا يحتاج إلى الإن عندئذ^(٤)، ولكن إذا كان شخص يجلس في صحن للبيت، ولم يكن معه أحد آخر فإنه ليس من الضروري عندئذ أن يستأذن^(٥)، كما أنه ليس من الضروري الاستئذان عند الدخول إلى المحلات وغيرها من الأماكن العامة، ويجب أن يسلم الرجل على أهل بيته حين يدخله، فإن في ذلك

حدثنا موسى بن إسماعيل، ثنا حماد، عن سهيل، عن أبيه قال: ثنا أبو هريرة أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: من أطلع في دار قوم بغير إذنهم فقلوا عنه فقد هدرت عنه.

^١ جاءت ألفاظ هذا الحديث في — ٨٨ من هذا الكتاب غير ما هو هنا، لكن الصحيح هو هذا — انظر صحيح البخاري — كتاب الاستئذان — باب الاستئذان من أجل البصر، وكتاب النيات — باب من أطلع في بيت قوم.

حدثنا الربيع بن سليمان المؤذن، ثنا ابن وهب، عن سليمان يعني ابن بلال عن كثير، عن الوليد، عن أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: إذا دخل للبصر فلا إذن.

^٢ أبو داود — كتاب الأدب — باب في الاستئذان.

حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة، ثنا أبو الأحوص، عن منصور، عن ربعي قال: ثنا رجل من بني عامر أنه استأذن على النبي صلى الله عليه وسلم وهو في بيت فقال: أكلج فقال النبي صلى الله عليه وسلم لخادمه: أخرج إلى هذا فاعلمه الاستئذان فقال له: نقل السلام عليكم، أدخل فسمعه الرجل فقال: السلام عليكم، أدخل فقال له النبي صلى الله عليه وسلم فدخل.

^٣ أبو داود — كتاب الأدب — باب كم مرة يسلم الرجل في الاستئذان.

حدثنا مسدد، ثنا عبد الله بن داود، عن طلحة بن يحيى، عن أبي بردة، عن أبي موسى أنه أتى عمر فاستأذن ثلاثا فقال: يستأذن أبو موسى يستأذن الأشعري، يستأذن عبد الله بن قيس فلم يؤذن له، فرجع فبعث إليه عمر بما ركب فقال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: يستأذن أحدكم ثلاثا، فإن أذن له، وإلا فليرجع قال: انتهت بيئته على هذا، فذهب ثم رجع فقال: هذا أبي، فقال أبي: يا عمر، لا تكن عذابا على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: عمر: لا أكون عذابا على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم.

^٤ أدب المفرد — باب دعاء الرجل إذن.

^٥ أدب المفرد — باب ما لا يستأذن فيه.

بركة وفوائد منها إذا كانت النساء في البيت يجلسن دون تكلف وكيفما اتفق، أو أن هناك غير المحارم من النساء في البيت فإنهن ينتبهن عندئذ.

كل هذه الآداب تكون للأجنبي والذين لا تعرفهم، لكن هناك بعض الناس الذين لا يحتجب منهم، ويدخلون البيت كثيرا وبشكل متكرر مثل الأطفال الصغار والخدم والإماء والجواري، فإذا ألزمنهم بالاستئذان كلما دخلوا كان في ذلك تعب لهم وإرهاق ومع ذلك فهناك بعض الأوقات يحتجب فيها الناس عادة، وعليهم في مثل هذه الأوقات أن يستأنزوا، وقد حدد القرآن الكريم هذه الأوقات، أي من بعد صلاة العشاء وحتى صلاة الصبح، إذ يخلع الإنسان ملابسه عند النوم، وعند الظهيرة وقت القيلولة، حيث يختلي الناس وينامون، قال تعالى :

" يا أيها الذين آمنوا ليستأذنكم الذين ملكت أيمانكم والذين لم يبلغوا الحلم منكم ثلاث مرات من قبل صلاة الفجر وحين تضعون ثيابكم من الظهيرة ومن بعد صلاة العشاء ثلاث عورات لكم ليس عليكم ولا عليهم جناح بعدهن طوافون عليكم بعضكم على بعض كذلك يبين الله لكم الآيات والله عليم حكيم، وإذا بلغ الأطفال منكم الحلم فليستأذنوا كما استأذن الذين من قبلهم " (النور : ٥٩) .

آداب الحديث

وأول أمر في آداب الحديث أن نتحدث بهدوء ولين، وقد أمر الله تعالى سيدنا موسى وسيدنا هارون عليهما السلام أن يذهبا إلى فرعون ويتحدثا معه بهدوء ولين :

" فقولاً له قولاً لينا " (طه : ٤٤) .

وينبغي أن يكون القول حسناً مفيداً فيه نفع لقائله أو لآخر، ولذا قال تعالى :

" وقولوا للناس حسناً " (البقرة : ٨٣) . فإذا ما جلس في مجلس ينبغي أن لا يقول شيئاً يكون فيه تجريح لآخر أو تحقير له، وكان اليهود يأتون إلى مجلس النبي صلى الله عليه وسلم فيقولون مثل هذا الكلام يقولون (راعنا) بدلاً من (انظرنا) ، وهو ما يبدو منه بعض التخفيف، ولهذا منع الله تعالى المسلمين من مثل هذا القول فقال :

" يا أيها الذين آمنوا لا تقولوا راعنا وقولوا انظرنا " (البقرة : ١٠٤) .

ونجد تفصيل ذلك كله في سورة (النساء) الركوع السابع .

هذا وينبغي أن يكون الحديث منصفاً وصريحاً، ولا يؤدي إلى مزيد من الجدل والعراك، ولا يزرع العداوة والبغضاء بين الناس. قال تعالى :

"يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولا سديدا يصلح لكم أعمالكم ويغفر لكم ذنوبكم" (الأحزاب: ٧٠).

فإذا ما تحدثت النساء مع غير المحارم من الرجال فينبغي أن لا تكون هناك ليونة وخضوع ورقة في الحديث، حتى لا يظن السامع سوءا بمن يتحدث. قال تعالى :
" فلا تخضعن بالقول فيطمع الذي في قلبه مرض، وقلن قولا معروفا" (الأحزاب: ٣٢).
كما أكد الله تعالى على الرجال أن يتحدثوا بلين ولطف ومعقولة، وجعل ثواب هذا يعدل ثواب الصدقة. قال تعالى :

" قول معروف ومغفرة خير من صدقة يتبعها أذى " (٢٦٣) .

ويجب أن يكون الحديث ببطء، والصياح أثناء الحديث دليل الحمق، قال تعالى :
" واغضض من صوتك إن أنكر الأصوات لصوت الحمير " (لقمان : ١٩) .
وينبغي تجنب الأحاديث التي لا داعي لها فذلك من علامات الوقار، وهي صفة المسلمين :

" والذين هم عن اللغو معرضون " (المؤمنون : ٣) .

لأن للكلام الذي يخرج من فم الإنسان تشهد عليه ملائكة الله، قال تعالى :
" ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد " (ق : ١٨) .

ولهذا ينبغي على الشخص أن يفكر جيدا قبل أن يتحدث، وقد جاء في الحديث الشريف أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرا أو ليصمت^(١)، واشترط الإيمان بالله واليوم الآخر يشتر إلى أن لا تغفل عن عاقبة عملنا، لأننا حين نسيء القول فسوف ننال جزاءه، وفي حديث آخر قال صلى الله عليه وسلم من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه^(٢)، وهذا الحديث من جوامع الكلم الذي

^١ كتاب الإيمان - باب الحث على إكرام الجار والضيف .

حدثنا قتيبة بن سعيد: حدثنا أبو الأحوص، عن أبي حصين، عن أبي صالح، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذ جاره، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرا أو ليصمت).

^٢ الموطأ و شرعة المباحي - باب ما جاء في الصدق والكذب ، و الترمذي - كتاب الزهد .

وحدثني عن مالك، عن ابن شهاب عن علي بن حسين بن علي بن أبي طالب، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه.

يبدو مختصرا في ألفاظه، لكن يجمع النهر في كوز كما يقولون، ولو طبق الناس هذا الحديث لاستفاد المسلمون كثيرا .

ولقد منح الله تعالى للسان للإنسان ليعبر عن نفسه، ولذا فإنه من الضروري أن يكون هدف للكلام ومعناه صحيحين، بطريقة للتعبير عنه مناسبة، وهذان الأمران يخلان في باب الإعراض عن اللغو، فإذا قصر متحدث في أمر من هذين الأمرين فإن الإسلام يأمر أن لا نرد على هذا الجاهل بمرارة، أو لا نسمح لزمام الأمر بأن يقلت من أيدينا :
" وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما " (الفرقان : ٦٣) .

وينبغي للحديث عند الضرورة، وجاء في الحديث ثم أولئك الذين يلغون في أحاديثهم، فقال صلى الله عليه وسلم أن هؤلاء أسوأ أفراد الأمة^(١)، كما قال أيضا قد يكون الكلام سببا في رضا الله تعالى حتى يوم القيامة أو غضبه حتى يوم القيامة^(٢)، وهذا الحديث يلفت نظرنا إلى كل كلمة نقولها إذ أن إضاعة كثير من أمور الدين والدنيا بسبب اللسان، إذ أنه وسيلة الخير وآلة الشر أيضا، به ينصلح الدين والدنيا، وبه أيضا يفسدان، ولهذا جاء في الحديث اضمن لي ما بين فكيك يعني اللسان اضمن لك الجنة^(٣) فإذا أردنا إفهام للمخاطب جيدا فإن علينا أن نجعل كلامنا سهلا بعيدا عن التعقيد، بل ونكرره إذا اقتضى الأمر حتى يفهم عنا جيدا، ولهذا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا قال شيئا أعاده ثلاث مرات^(٤)، ولم يكن يتحدث سريعا حتى يفهم للمخاطب كل لفظ يقوله، وذات مرة جلس سيدنا أبو هريرة رضي الله عنه بجانب حجرة السيدة عائشة الصديقة رضي الله عنها وأخذ يشرح حديثا مسرعا في الكلام، فاعتضت

^١ أدب المفرد - فضول الكلام .

^٢ موطأ الإمام مالك - باب ما يؤمر به من التحفظ في الكلام .

حدثني مالك عن محمد بن عمرو بن علقمة، عن أبيه، عن بلال بن الحارث المزني، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال إن الرجل ليتكلم بالكلمة من رضوان الله ما كان يقن أن تبلغ ما بلغت يكتب الله له بها رضوانه إلى يوم يلقاه. وإن الرجل ليتكلم بالكلمة من سخط الله ما كان يقن أن تبلغ ما بلغت يكتب الله له بها سخطه إلى يوم يلقاه.

^٣ موطأ الإمام مالك - باب ما جاء فيما يخاف من اللسان .

^٤ أبو داود - كتاب العلم - باب تكرير الحديث .

حدثنا عمرو بن مرزوق، أخبرنا شعبة، عن أبي عقيل هاشم بن بلال، عن سابق بن ناجية، عن أبي سلام، عن رجل خد النبي صلى الله عليه وسلم أن النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا حدث حديثا أعاده ثلاث مرات.

عائشة الصديقة رضي الله عنها وأخذ يشرح حديثا مسرعا في الكلام، فاعتضت عليه السيدة عائشة رضي الله عنها قائلة: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يكن يتحدث بهذه السرعة، وإنما كان يتحدث بهدوء وببطء حتى لو أراد شخص أن يعد كلماته لاستطاع ذلك، يقول سيدنا جابر رضي الله عنه أنه كان في حديث للنبي صلى الله عليه وسلم ترتيل وترسيل، أي أن كل لفظ منفصل عن الآخر، ولا يتعجل في حديث، وقد أوضحت السيدة عائشة رضي الله عنها هذا في قولها :

" كان كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم كلاما فصلا يفهمه كل من يسمعه " .

وينبغي أن يكون الكلام مختصرا، ذات مرة تحدث شخص حديثا طويلا، أو خطب خطبة طويلة، يسمعه سيدنا عمرو بن العاص رضي الله عنه فقال: لو اختار الاعتدال والتوسط لكان أفضل، فلقد سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: أمرت أن أتحدث باختصار، لأن الاختصار أفضل^(١).

وفي بعض الأحيان يكون التفاخر والمباهاة ونيل الشهرة هي الهدف من الحديث أو الخطبة، وفي بعض الأحيان يكون لجذب الناس إليه، وأحيانا يكون بهدف الترفية، ولتحقيق مثل هذا يكون للكلام متكلفا مسجعا وطويلا، ويصيب السامعين بالملل، وقد منع رسول الله صلى الله عليه وسلم من كل هذا وقال: إن الله يفض ذلك للبايع الذي يلف لسانه بالكلام، مثلما يفعل الثور عند تناول العشب، وقال أيضا: لن يقبل الله ثوبة أو فدية يوم القيامة من رجل يغير ويبدل في كلامه، ليجنب الناس إليه وليهموا به^(٢).

^١ أبو دود - كتاب العلم - باب في سرد الحديث .

حدثنا سليمان بن عبد الحميد البهراني، أنه قرأ في أصل إسماعيل بن عيسى، وحدثه محمد بن إسماعيل قال: حدثني أبي قال: حدثني ضميم، عن شريح بن عبيد قال: ثنا أبو ظبية أن عمرو بن العاص قال يوما: وقلم رجل فأكثر القول فقال عمرو: لو قصد في قوله لكان خيرا له، سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: لقد رأيت أو أمرت أن أتجوز في القول، فإن الجواز هو خير.

^٢ أبو دود - كتاب الأدب - باب ما جاء في التشديق في الكلام .

حدثنا ابن المرحوم ثنا ابن وهب، عن عبد الله بن المسيب، عن الضحاك بن شريحيل عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: من تعلم صرف الكلام ليسبي به قلوب الرجال أو الناس، لم يقبل الله منه يوم القيامة صرفا ولا عدلا.

كما ينبغي عند الحديث أن لا نركز اتجاه وجوهنا إلى جانب واحد فقط من السامعين وإنما يجب أن نتنقل بين السامعين حتى لا يشعروا بعدم اهتمام من المتحدث^(١).

آداب الخروج والسير

يجب على الإنسان أن يخطو في طريقه بجدية ووقار وتواضع، وقد قال الله تعالى في مدح المسلمين الصالحين: "وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا" (الفرقان: ٦٣).

وينبغي ألا نسير بغرور أو تبختر، قال تعالى: "ولا تمش في الأرض مرحاً إنك لن تخرق الأرض ولن تبلغ الجبال طولا" (الإسراء: ٣٧). وقال في موضع آخر :

"ولا تمش في الأرض مرحاً إن الله لا يحب كل مختال فخور" (لقمان : ١٨) .
وينبغي أن لا تضرب المرأة الأرض بأقدامها بشدة حال سيرها إذا كانت تلبس من الزينة، والحلي ما يصدر أصواتاً كالخلاخيل وما شابهها، وكانت نساء العرب يمشين أمام الرجال بخلاخيلهن فيضربن الأرض بشدة ليعلم ما يخفين من زينتهن، وقد منع الله تعالى هذا فقال :

"ولا يضربن بأرجلهن ليعلم ما يخفين من زينتهن" (النور : ٣١) .
وعندما تخرج المرأة الشريفة من بيتها لضرورة فإنها تغطي جسدها كله من رأسها إلى أخمص قدميها برداء كبير حتى تخفي ملابسها الأصلية وكل ما تتزين به، ويتكلى جزء من النقاب على وجهها حتى يعرف الرجال أنها امرأة شريفة حرة وليست أمة، ثم تغض بصرها إلى الأرض:

"يا أيها النبي قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين يننين عليهن من جلابيبهن ذلك أدنى أن يعرفن فلا يؤنين" (الأحزاب : ٥٩) .

"وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ويحفظن فروجهن ولا يبدن زينتهن إلا ما ظهر منها وليضربن بخمرهن على جيوبهن ولا يبدن زينتهن إلا لبعولتهن" (النور: ٣١).

^١ أدب المفرد - باب إذا حدث الرجل لا يقبل على واحد .

وبناء على هذه المبادئ لا يجب أن تخرج المرأة متعطرة بعطر نفاذ، إذ أن ذلك يؤثر ميلا لدى الرجال ويبدو منه أن المرأة تريد أن يلتفت إليها الرجال ومثل هذا ينافي شرف النساء .

ولا ينبغي أن تسير المرأة والرجل سويا في الطريق ولهذا منع رسول الله صلى الله عليه وسلم للرجل من أن يسير بين امرأتين وعلى المرأة أن تسير في جانب الطريق وليس في وسطه .

ثالث مرة لخطئ الرجال والنساء أثناء سيرهم في الطريق فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بما سبق أن ذكرنا موبعدها أصبحت النساء يمشين في طريقهن بجانب الحائط (١) .

كما ينبغي مراعاة الأدب والوقار أثناء السير في الطريق حتى أنه إذا أراد الرجل تحقق بصلاة الجماعة فلا ينبغي أن يهرول في غير وقار وقد قال صلى الله عليه وسلم إذا كنز الأذن يرفع في المسجد أو الجماعة قائمة فلا تأتوها مهرولين وإنما في وفر (٢) .

وإن كنن في الاستطاعة فعلى الشخص أن يلبس حذاء وذلك حفاظا على قدميه ومن أجل طهرتهما أيضا وقد قال صلى الله عليه وسلم للباسوا الحذاء فلا يلبس الحذاء كأنه راكب أو متعليا شيئا (٣) .

وينبغي أن يكون الحذاء في القدمين معا، أو أن يسير حافي للقدمين معا، بمعنى أنه لا ينبغي أن يلبس الحذاء في قدم ويترك الأخرى (٤)، إذ أن ذلك ينافي الأدب

^١ أي يعرف الناس لقاء امرأة شريفة فلا يضايقها أحد في الطريق، وانظر أبو داود - كتاب الأدب - باب في مشي النساء في الطريق .

^٢ صحيح مسلم - باب استحسان إتيان الصلاة بوقار .

حدثنا يحيى بن أيوب، وفتية بن سعيد، وابن حجر، عن إسماعيل بن جعفر، قال ابن أيوب: حدثنا إسماعيل، أخبرنا العلاء عن أبيه، عن أبي هريرة: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: إذا ثوب للصلاة فلا تأتوها وأنتم تسعون، وأتوها وعليكم السكينة، فما أدركتم فصلوا وما فاتكم فلتموا، فإن لحكم إذا كان يعد إلى الصلاة فهو في صلاة.

^٣ أبو داود - باب الانتعال. حدثنا محمد بن الصباح البزري، ثنا ابن أبي الزناد، عن موسى بن عقبة، عن أبي الزبير، عن جابر قال: كنا مع النبي صلى الله عليه وسلم في سفر فقال: أكثروا من اللعنان، فإن الرجل لا يزال راكبا ما انتعل.

والوقار، ومثل هذا للشخص يعتبره الناس أحمقا وسفيا، أما إن كان في البيت واضطرب إلى ذلك أحيانا فلا حرج (١) .

آداب السفر

كانت الظروف والمواصلات في أيام رسول الله صلى الله عليه وسلم مختلفة عن أيامنا، وكانت آداب السفر تتناسب مع أرض العرب والطقس عندهم، وما هم عليه من أحوال، فقد كانت أرض العرب جافة صخرية، الماء بها قليل، والحرارة شديدة، ولا أمن فيها بسبب كثرة القتل والسلب والنهب، ولهذا أرشد رسول الله صلى الله عليه وسلم في ضوء كل هذه الأشياء إلى بعض الأمور المفيدة فيما يتعلق بالسفر، لم يعد الاستئجار ببعضها ضروريا في زماننا هذا بسبب تغير الظروف والأحوال، وما يتناسب منها مع الحياة المعاصرة فإنه ينبغي الاستفادة منها، وخاصة أن أهل القرى والأرياف سوف يستفيدون منها بشكل أكبر باعتبار أنهم يسافرون مشيا على الأقدام أكثر من غيرهم، ولا تيسر في الصحراء والقفار متطلبات الحياة الضرورية التي يمكن أن تتوفر في محطات السكك الحديدية والفنادق والمطاعم :

ينبغي توديع المسافرين، والدعاء له بالخير والعافية، وإن أمكن ندعو له بالدعاء الخاص الذي دعا به رسول الله صلى الله عليه وسلم حين كان يودع الجيش (٢): "استودع الله دينكم وأمانتكم وخواتيم أعمالكم".

ينبغي أن يكون السفر في الصباح الباكر (٣)، إذ أن ذلك يحفظ على الإنسان وقته، فيستفيد باليوم كله، ويتجنب حرارة الشمس وشدة الهواء، ويستطيع أن يطوي مسافة معقولة من سفره حتى الظهر ثم يستريح عند القيلولة .

لا ينبغي أن يسافر الشخص منفردا، وإنما ينبغي أن يكونوا ثلاثة على الأقل (٤)، إذ أن ذلك يجنب الإنسان كثيرا من المخاطر، ويمكنه من الحفاظ على أدوات سفره

^١ المرجع السابق .

^٢ الترمذي - كتاب اللباس - باب المشي في ليل واحد .

^٣ أبو داود - كتاب الجهاد - باب في الدعاء عند الوداع .

حدثنا مسدد ثنا عبد الله بن داود، عن عبد العزيز بن عمر، عن إسماعيل بن جرير، عن قزعة قال: قال لي ابن عمر: هلم أودعك كما ودعني رسول الله صلى الله عليه وسلم: أستودع الله دينك وأمانتكم وخواتيم عملك.

^٤ أبو داود - كتاب الجهاد - باب في الإبحار في السفر .

وأمتعته. فإذا سافر ثلاثة سوا لمروا عليهم واحد منهم^(١)، ويطلق على هذا الشخص أمير للقافلة .

لا ينبغي أن يدخل الشخص إلى البيت مباشرة عند عودته من السفر وإنما ينبغي عليه أن يعطي أهله وقتاً يستريحون فيه لاستقباله^(٢)، وينبغي استقبال الإنسان العزيز والصديق عند عودته من سفره^(٣) .

يمكن أن يكون السفر ليلاً، إذ جاء في الحديث أن المصلحة في ذلك هي أن يطوي المسافر مسافة كبيرة ليلاً^(٤)، إذ أن الإنسان في الحقيقة يستطيع أن يسير سريعاً عندما يكون الجو معتدلاً غير حار ولا رياح فيه، على أية حال أشار الإسلام بوقتَيْن مناسبين للسفر في ضوء أحوال أرض العرب، أي وقت الصبح ووقت الليل، وينبغي أن يهتم المسافر بالمطية التي يمتطيها من الحيوانات خلال سفره .

ينبغي أن لقلم في الليل أثناء السفر أن يقيم بعيداً عن الطريق، إذ تخرج فيه الحيوانات المؤذية وهو ما يمثل خطراً عليه^(٥) .

إذا ما حقق الإنسان ما هو مستهدف من سفره عليه أن يعود فوراً، لأن السفر على أية حال فيه تعب ونصب وقلق^(٦) .

آداب النوم

تعد عدا الله تعالى للنوم من بين نعمه وإحساناته، فقال :

" ومن آياته منامكم بالليل " (الروم : ٣) .

وقال في سورة الفرقان :

" وهو الذي جعل لكم الليل لباساً والنوم سباتاً وجعل النهار نشوراً " (الفرقان : ٤٧) .

وقال في سورة النبا :

" وجعلنا نومكم سباتاً وجعلنا الليل لباساً وجعلنا النهار معاشاً " (النبا : ١١) .

^١ أبو داود - كتاب الجهاد - باب في الرجل يسافر وحده .

^٢ أبو داود - كتاب الجهاد - باب في القوم يسافرون فيؤمرون أحدهم .

^٣ أبو داود - كتاب الجهاد - باب في الطروق .

^٤ أبو داود - كتاب الجهاد - باب في التلقي .

^٥ أبو داود - كتاب الجهاد - باب في سرعة السير .

^٦ مسلم - كتاب الإمارة - باب مراعاة مصلحة الدواب في السير، والنهي عن التعريس في الطريق .

^٧ مسلم - كتاب الإمارة - باب السفر قطعة من العذاب .

وهذه الآية تشير إلى أن وقت للنوم هو لليل، أما النهار فهو للعمل والاجتهاد بمعنى أن يمضي الجزء الأكبر من النهار في العمل والسعي، وكان العرب يستريحون قليلاً عند الظهيرة وهو ما يسمى بالقيلولة التي ورد ذكرها في سورة النور: "حين تضعون ثيابكم من الظهيرة" وأن يمضي الليل في الراحة وإن أمكن يقضي جزءاً منه في ذكر الله مثلما ورد في الآيات الأخرى ولكن الكسالى المحبون للراحة يجعلون من النهار ليلاً وأهل اللهو والعبث يجعلون من الليل نهاراً، وكلاهما يخالف أحكام الفطرة بل إن قضاء الليل كله في العبادات أمر غير مستحب، وقد قال صلى الله عليه وسلم إن لعينك عليك حقاً^(١) وهذا لعامة الناس لكن للخاصة من عباد الله يمكنهم ذلك وهم الذين أنثى الله عليهم الله تعالى في هذه الآية :

" كانوا قليلاً من الليل ما يهجعون " (الذاريات : ١٧) .

حددت السنة النبوية أوقات للنوم واليقظة وطرقهما فلا ينبغي النوم قبل صلاة العشاء، لأن هذا من علامات الغفلة كما لا ينبغي الدخول في أحاديث لغو بعد صلاة العشاء بل يجب إتمام ما بقي من أعمال لم تتم بعد ثم للنوم فوراً^(٢)، وذلك حتى يستطيع الاستيقاظ في الصباح الباكر ولا يشعر بإرهاق أو تعب في عبادة الله بسبب قلة النوم .

أما إن كان هناك أمر ضروري، أو عمل مفيد فلا مانع من الكلام فيه بعد صلاة العشاء ولهذا ذهب سيدنا أبو بكر الصديق رضي الله عنه إلى رسول الله صلى الله عليه

^١ البخاري - كتاب النكاح .

حدثنا ابن مقاتل: أخبرنا عبد الله: أخبرنا الأوزاعي قال: حدثني يحيى بن أبي كثير قال: حدثني أبو سلمة بن عبد الرحمن قال: حدثني عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما: قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم: (يا عبد الله، ألم أخبر أنك تصوم النهار وتقوم الليل) قلت: بلى يا رسول الله، قال: (فلا تفعل، صم والظرويقم، وتم، فإن لجسدك عليك حقاً، وإن لعينك عليك حقاً، وإن لزورك عليك حقاً، وإن نياماً، فإن لحشدك عليك حقاً، فإن لم تنم، فإن لك بكل حسنة عشر أمثالها، فإن ذلك صيام الدهر كله) فحدثت فشد عليّ، قلت: يا رسول الله، بقي أجد قوة، قال: (فصم صيام نبي الله داود عليه السلام ولا ترد عليه) قلت: وما كان صيام نبي الله داود عليه السلام؟ قال: (تصم الدهر) فكان عبد الله يقول بعدما كبر: يا ليتني قبلت رخصة النبي صلى الله عليه وسلم.

^٢ أبو داود - كتاب الأدب - باب النهي عن السر بعد العشاء .

وسلم بعد صلاة العشاء واستشاره في الأمور للضرورة وحدثه رسول الله صلى الله عليه وسلم فيها^(١).

ويقتضي الاحتياط أن ينظف الشخص فراشه قبل للنوم، ثم ينام على جنبه الأيمن^(٢). ولا ينبغي للنوم فوق سطح منزل ليس عليه شبكة أو سور يحميه^(٣)، لأن ذلك يعرضه للمقوط على الأرض .

ينبغي أن ينام للشخص على طهارة يبل فيه من الأفضل أن يتوضأ للشخص قبل النوم^(٤). ولا ينبغي أن ينام على بطنه وذات مرة رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم شخصاً ينام بهذه الطريقة فقال له إن الله لا يحب هذه الطريقة في النوم^(٥) .

لا ينبغي أن ينام للشخص وضعا قديما فوق أخرى^(٦)، لأن في ذلك احتمالا لاكتشاف العورة فإذا انتفى هذا الاحتمال فإنه يجوز، إذ جاء في حديث أن النبي صلى الله عليه وسلم نفسه كان ينام بهذه الطريقة^(٧) .

يجب إغلاق باب البيت عند النوم، وتغطية ألواني الطعام والشراب وإطفاء المصباح، إذ أنه في بعض الأحيان يمكن أن يرفع الفأر فتيل المصباح ويمشي به طمعا في الزيت، مما يعرض للبيت لمخاطر اشتعال النيران، وذات مرة اشتعلت النيران في بيت

^١ صحيح مسلم - باب إكرام الضيف .

^٢ أبو داود - كتاب الأدب - باب ما يقال عند النوم .

^٣ أبو داود - كتاب الأدب - باب في النوم على سطح غير محجر .

^٤ أبو داود - كتاب الأدب - باب ما يقال عند النوم ، و باب النوم على طهارة .

^٥ أبو داود - كتاب الأدب - باب في الرجل يبتلع .

حدثنا محمد بن القاسم ثنا معاذ بن هشام قال: حدثني أبي، عن يحيى بن أبي كثير، قال: ثنا أبو سلمة بن عبد الرحمن، عن يعقوب بن طخفة بن قيس الغفاري قال: كان أبي من أصحاب الصفة، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: تطلقوا بنا إلى بيت عائشة رضي الله عنها فاطلقوا فقال: يا عائشة أطعينا فجاءت بجيشة فلكتنا ثم قال: يا عائشة أطعينا فجاءت بحيسة مثل اللقطة فلكتنا ثم قال: يا عائشة اسقينا فجاءت بص من لبن فشرينا ثم قال: يا عائشة اسقينا فجاءت بقدح صغير فشرينا ثم قال: إن شئتم يتمون شئنا فطلقتم إلى المسجد قال: فبينما أنا مضطجع في المسجد من السحر على بطني إذا رجل يحركني برجله فقال: إن هذه ضجعة يبغضها الله قال: فتنظرت فإذا رسول الله صلى الله عليه وسلم.

^٦ الترمذي - أبواب الامتنان - باب ما جاء في كراهته ذلك .

^٧ الترمذي - أبواب الامتنان - باب ما جاء في وضع إحدى الرجلين على الأخرى مستلقيا .

رجل في المدينة المنورة فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم النار عدوكم فأطفئوها قبل نومكم (١) .

ينبغي قراءة الدعاء المسنون عند النوم وعند الاستيقاظ وأكثر الأدعية اختصاراً في هذا الخصوص هو أن تقول عند النوم "اللهم باسمك أحيى وأسوت" وعند الاستيقاظ "الحمد لله الذي أحيانا بعدما أماتنا وإليه للنشور". وقد وردت أدعية أخرى كثيرة ومؤثرة في الأحاديث النبوية .

آداب الملابس

للملبس هدفان رئيسيان أحدهما جسماني والآخر أخلاقي، أما الجسماني فهو حماية الجسم من الحرارة والبرودة ومناعهما، ولما الأخلاقي فهو ستر أجزاء البدن التي لا يجب أن يراها الآخرون، وربما لم يعترض دين آخر غير الإسلام على العري مثلما فعل الإسلام، فالإسلام هو أول دين يجعل ستر العورة جزءاً من الدين، حتى أن الصلاة لا تجوز بغير ذلك إلا لضرورة .

وبالنسبة للرجال فإن العورة هي ما بين السرة والركبة، وبالنسبة للمرأة الحرة من أعلى رأسها إلى أخمص قدميها، وبالنسبة للأمة من البطن والظهر وحتى الركبتين (٢)، وهو ما لا يجوز أن تكشفه أمام الآخرين بل لا يجوز كشفها في خلوتها إلا لضرورة، وقد سأل أحد الصحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم قائلاً: فإن كنا في خلوة ولا يرانا أحد، فقال صلى الله عليه وسلم فإن الله يراك، وهو أحق أن تستحي منه (٣)، وفي حديث آخر قال صلى الله عليه وسلم لا تتعروا أبداً فإن الملائكة تعيش معكم، ويترككم إذا تعريتم، فاستحيوا منهم (٤) .

^١ البخاري - كتاب الاستئذان - باب لا يترك النار في البيت عند النوم، وباب إغلاق الأبواب بالليل، لكن هذا عندما يكون صف البيت منخفضاً والمصباح مهالكا .

حدثنا محمد بن العلاء حدثنا أبو أسامة، عن بريد بن عبد الله، عن أبي بردة، عن أبي موسى رضي الله عنه قال: احترق بيت بالمدينة على أهله من الليل، فحدثت بشأتهم النبي صلى الله عليه وسلم قال: (إن هذه النار إنما هي عدو لكم، فإذا نعمت فإطفئوها عنكم) .

^٢ لا يدخل وجه المرأة ولا قنماها وراحاها في العورة .

^٣ سنن الترمذي - أبواب الاستئذان والآداب - باب ما جاء في حفظ العورة .

حدثنا محمد بن بشر حدثنا يحيى بن سعيد حدثنا بهز بن حكيم حدثني أبي عن جدي قال: قلت: يا رسول الله عوراتنا ما نأتي منها وما نذر؟ قال: احفظ عورتك إلا من زوجتك أو مما ملكت

وحين سقط لباس الجنة عن سيدنا آدم وحواء بسبب عصيانهما الله تعالى أسرع
فورا إلى ستر عورتها بأوراق الأشجار :

"فلما ذاقا الشجرة بدت لهما سوءاتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق
الجنة"(الأعراف: ٢٢).

ويعلم من هذا أن الله تعالى جعل ستر العورة من فطرة الإنسان ولكن هذه الفطرة
تتشوه في الدنيا أحيانا وينتج عنه أن تقصر الأمم البربرية والصحراوية وغير
المتحضرة ستر العورة على مكان العورة فقط وكان هذا حال العرب أيضا بل إنه كان
لهم تقليد في موسم الحج وهو أن ينزع كل أبناء القبائل ما عدا قريش ملابسهم عند
الطواف حول الكعبة، فإذا أعطتهم قريش ملابسهم لبسوها^(١) وإلا طافوا هكذا عرايا، وقد
علم الوحي الإلهي الإنسان التخصر وحسن السليقة :

" يا بني آدم قد أنزلنا عليك لباسا يوارى سوءاتكم وريشا ولباس التقوى ذلك خير "

(الأعراف : ٢٦)

" يا بني آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد " (الأعراف : ٣١) .

" قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده " (الأعراف : ٣٢) .

" قل إنما حرم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن " (الأعراف : ٣٣) .

والإشارة التي وردت في هذه الآيات إلى مسألة عدم الحياء يقصد بها
العري والأمر الذي جاء باتخاذ الزينة هو ستر العورة، ويعلم من هذه الآيات أيضا أن
المقصود من الاستتار بالملابس الزينة أيضا، وقد وردت في آخر الآية الأولى فقرة بليغة
في شكل قاعدة كلية لما يتعلق باللباس، وهي تضم جزئيات كثيرة بداخلها:

" ولباس للتقوى ذلك خير " (الأعراف : ٢٦) .

فما المقصود بلباس للتقوى؟ فهم البعض هذه الفقرة على سبيل المجاز، وأن
المقصود هو الإيمان، بينما فهمها الآخرون على أنها الأعمال للصالحه والحياء، ولكن
الحقيقة هي أنه علينا أن نتأملها باعتبار الحقيقة قبل أن نتأملها باعتبار المجاز، وهذا

يمينك، فقال: الرجل يكون مع الرجل؟ قال: إن استطعت أن لا يراها أحد فافعل، قلت: والرجل يكون
خاليا، قال: غايبه أحق أن يستحيا منه.

^١ المرجع السابق - باب ما جاء في الاستار .

^٢ صحيح مسلم والطبري تفسر الآيات التالية فيما بعد .

أخذها بعض المفسرين على محمل الحقيقة، وقد فسرهما التابعي المعروف ابن زيد على أنها مطلق اللباس، بينما فهمها آخر على أنها ملابس الحرب من دروع وقلنسوات وما إلى ذلك، وفهمها آخر على أنها ملابس الزهد والورع للصوفية^(١)، لكن هذا أيضا بعيد عن الحقيقة، صحيح أن لباس التقوى مراد منه لباس التقوى، يعني ذلك اللباس الذي يظهر التقوى، وقد وضعه رسول الله صلى الله عليه وسلم بأقواله وأفعاله، وقد كتب شاه عبد القادر محدث الدهلوي في حواشي ترجمته للقرآن عند هذه الآية قائلا :

" الآن لبسوا ذلك اللباس الذي يتسم بالتقوى، فلا يلبس الرجل ملابس حريرية، ولا يسبل ملابس، ولا يرتكب ما منع منه، ولا تلبس المرأة ملابس رفيقة كاشفة تبدي ما تستر للناس، ولا تظهر زينتها " (تفسير الأعراف - الآية المذكورة) .

وليس في الإسلام تحديد للملابس سوى هذا، وهذا التحديد طبقا لما جاء في الأحاديث هو كالتالي :

١- لا ينبغي للرجال أن يلبسوا الملابس الحريرية إلا لضرورة واضطرار، إذ أنها توحى بنسوانية، وتذكر بحياة الترف التي تنافي حياة الجد والاجتهاد والسعي للرجال، أما الضرورة والاضطرار فهو كأن يكون في الحرب فيلبس الجنود تحت الدروع ملابس حريرية حتى لا تؤذي حلقات الحديد أجسادهم، أو أن يصاب أحد بالجرب، فإن الملابس القطنية الخشنة قد تزيد إصابته، ولهذا يمكن للإنسان في هاتين الحالتين أن يلبس الملابس الحريرية، ويجوز أن يكون في اللباس قطعة صغيرة من الحرير .

٢- لا يجوز للرجال أن يلبسوا ملابس نمائية، ولا يجوز للنساء أن يلبسن ملابس رجالية، إذ ينم هذا عن محدودية أخلاقهم، وقد لعن رسول الله صلى الله عليه وسلم للرجال الذين يتشبهون بالنساء في الملابس والتصرفات، والنساء اللاتي يتشبهن بالرجال في الملابس والتصرفات .

٣- كانت إطالة اللباس أو إرخاء الإزار إلى أسفل حتى يجر على الأرض علامة على العظمة عند العرب، فكان سادتهم وأمرؤهم يلبسون الملابس الطويلة جدا، ويرخون إزارهم، فقال صلى الله عليه وسلم من أرخى إزاره فخرا وغرورا فإن الله لا ينظر إليه يوم القيامة، ولهذا لا ينبغي للرجل أن يرخي سرواله أو إزاره إلى درجة تخفي كعبه، بل أحب رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يصل السروال، أو الإزار حتى نصف

^١ روح المعاني - تفسير الآية المذكورة .

الساق، أو على الأقل إلى ما فوق الكعبين، فقال إن إرخاء الإزار علامة على الغرور، والله لا يحب الغرور، لكن السيدات يسبلن ملابسهن ويرخينها إلى أسفل للكعبين بعض الشيء .

٤- لا يستحب ارتداء الملابس التي تشير إليها أصابع الناس إعجاباً، سواء كانت ملابس الأمراء المزركشة البرلقة، أو عباءة وجبة للمشايخ التي يتظاهرون بها، أو ملابس الصوفية، لأن هدف هؤلاء من ارتداء مثل هذه الملابس هو الرغبة الكامنة في التمييز عن الآخرين، وهذا الهوس بالتمييز غرور مسافر من النفس .

٥- لا ينبغي أن يرتدي الرجل أو للمرأة ملابس كاشفة، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم للنساء بشكل خاص كم من كاسيات هن عاريات .

٦- لا يجوز ارتداء الملابس التي لا تستر العورة كاملة، وقد ارتدت السيدة أسماء رضي الله عنها^(١) الأخت الكبرى للسيدة عائشة رضي الله عنها ملابس كهذه ذات مرة وجاءت عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال صلى الله عليه وسلم يا أسماء إذا بلغت المرأة لا يجوز أن يظهر منها إلا هذا وذلك، وأشار إلى الوجه والكفين .

٧- لا ينبغي للرجل أن يرتدي ملابس ذات ألوان فاقعة، وخاصة اللون الأحمر، لكن يجوز ارتداء الملابس التي تدخل فيها بعض الخيوط الحمراء، وقد ارتدى رسول الله صلى الله عليه وسلم مثل هذا الرداء، ويمكن ارتداء الملابس ذات اللون الأصفر، وكان صلى الله عليه وسلم في بعض الأحيان يرتدي ملابس صفراء كلها، لكن الملابس الزعفرانية اللون ليست مستحسنة، ولا يجوز للرجال وضع الزعفران على الجسم بقصد التعطر كما كان يفعل العرب، وقد ارتدى رسول الله صلى الله عليه وسلم رداء أخضر اللون أيضاً، وربط إزاراً أخضر أيضاً، كما كان يربط على رأسه صلى الله عليه وسلم عمامة سوداء اللون .

٨- أحب للنبي صلى الله عليه وسلم الملابس البيضاء بصفة عامة للرجال .

٩- عند ارتداء الملابس ذات الكمين ينبغي لبس الكم الأيمن أولاً .

١٠- كان صلى الله عليه وسلم عند ارتداء الملابس الجديدة يدعو الله بدعاء يشكره فيه على نعمته فيقول :

^١ وردت الأحاديث الخاصة بهذا الباب في الصحيح وكتب السنن باب اللبس، وأما مني منها الآن أبو داود والترمذي، والتفصيلات في كتب الفقه .

” الحمد لله الذي كساني هذا ورزقنيه من غير حول مني ولا قوة “.

آداب الفرح و السرور

لا حصر للأشياء التي يسعد بها الإنسان، فالمال والثروة والعلم والفضل، والمنصب والجاه والزواج والأعياد والاحتفالات، وغيرها من المناسبات التي يظهر فيها الإنسان فرحه وسعائه، ولكن عندما يزيد هذا الفرح عن حده فإنه يلامس حدود الفخر والغرور، وحين أظهر قارون فرحه في تفاخر لكثرة ماله وثروته قال له قومه بامتعاض :

” إذ قال له قومه لا تفرح إن الله لا يحب الفرحين “ (القصص : ٧٦) .

ولأن الإسلام يحب أن يخلق الاعتدال في العواطف، لذا نراه يقرر أن هذا النوع من الفرح ما هو إلا ضعف أخلاقي في الإنسان :

” ولئن أنقنا الإنسان منا رحمة ثم نزعناها منه إنه ليئوس كفور، ولئن أنقناه نعماء بعد ضراء مسته ليقولن ذهب السيئات عني، إنه لفرح فخور “ (هود : ١٠) .

وبالتالي منع من هذا الفرح قائلا :

” ولا تفرحوا بما آتاكم والله لا يحب كل مختال فخور “ (الحديد : ٢٣) .

ولكنه مع ذلك لم يخلق الكآبة في قلوب المسلمين، وإنما سمح لهم بالتعبير عن فرحهم بشكل معتدل، وأخبرهم بكيفية وماهية هذه الطرق المعتدلة .

عندما يحدث للإنسان ما يفرحه عليه أن يشكر الله أنه أنعم عليه بهذا الفرح من فضله وكرمه، وإن حدث له شيء يفرحه فرحا عظيما عليه أن يسجد شكرا لله حتى يعبر عن امتنانه لله بدلا من أن يغتر ويتفاخر في مثل هذه الأحوال، وكانت طريقة رسول الله صلى الله عليه وسلم في ذلك هي أنه عندما كان يقع له ما يفرحه فإنه كان يخر ساجدا لله .

ذات مرة كان رسول الله صلى الله عليه وسلم في طريقه من مكة إلى المدينة، وحين وصل إلى مكان (غروراء) نزل من على مطيته، ودعا الله لفترة، ثم خر ساجدا، وبعد ذلك دعا الله لفترة طويلة، ثم خر ساجدا لله، وهكذا فعل في المرة الثالثة، ثم قال لقد دعوت الله بالشفاعة لأمتي فقبل شفاعتي لثلاث أمتي، ولهذا شكرت ربي وسجدت له، ثم رفعت رأسي والتمست الشفاعة لأمتي، فقبل الله شفاعتي لثلاث آخر من أمتي، فشكرت الله

وسجدت له بثم التمسست للشفاعة لأمتي فقبل الله شفاعتي للثلاث الأخير من أمتي فشكرت الله وسجدت له " (١) .

وكان هذا هو أسلوب الصحابة رضوان الله عنهم، ولهذا عندما قبلت توبة سيدنا كعب بن مالك رضي الله عنه وبشر بذلك خر ساجدا، ويفترض أخلاقيا على باقي المسلمين في مثل هذه للمواقع العسارية أن يهتفوا لأخاهم ويشاركوه فرحه ومسروره، ولهذا فإن الصحابة للكرم ذهبوا إلى سيدنا كعب بن مالك رضي الله عنه أفولجا وهنئوه بذلك (١) .

والإنسان يسعد بعودته من سفره إلى وطنه، في مثل هذه المناسبة يمكن دعوة الأصدقاء والأحباب حتى يشاركوه في فرحه، ولهذا فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم عندما عاد من سفره ذات مرة إلى المدينة المنورة نبح جملا أو بقرة وأطعم الناس (٢)، ويصبح من الفرض على الآخرين أن يستقبلوا العائد من السفر حتى يعبروا له عن معادتهم، ولهذا عندما عاد رسول الله صلى الله عليه وسلم من غزوة تبوك خرج الناس حتى (ثنية اللوداع) واستقبلوه، وكان الأطفال أيضا ضمن المستقبليين (٣) .

^١ أبو داود - كتاب الجهاد - باب في سجود الشكر .

حدثنا أحمد بن صالح ثنا ابن أبي فديك، حدثني موسى بن يعقوب، عن ابن عثمان، قال أبو داود: وهو يحيى بن الحسن بن عثمان، عن أشعث بن إسحاق بن سعد، عن عامر بن سعد، عن أبيه قال: خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم من مكة نريد المدينة، فلما كنا قريبا من عروز نزل ثم رفع يديه فدعا الله ساعة ثم خر ساجدا فمكث طويلا، ثم قام فرفع يديه فدعا الله تعالى ساعة ثم خر ساجدا فمكث طويلا، ثم قام فرفع يديه ساعة ثم خر ساجدا، ذكره أحمد ثلاثا قال: إني سألت ربي، وشفعت لأمتي، فأعطاني ثلاث أمتي، فخررت ساجدا لشكري، ثم رفعت رأسي فسألت ربي لأمتي، فأعطاني ثلاث أمتي، فخررت ساجدا لشكري، ثم رفعت رأسي فسألت ربي لأمتي، فأعطاني الثلاث الآخر فخررت ساجدا لربي.

قال أبو داود: أشعث بن إسحاق أسقطه أحمد بن صالح حين حدثنا به فحدثني به عنه موسى بن سهل الرملي .

^٢ البخاري - كتاب المغازي - حديث كعب بن مالك .

^٣ أبو داود - كتاب الأطعمة - باب الإطعام عند القنوم من السفر .

حدثنا عثمان بن أبي شيبة، قال: ثنا وكيع، عن شعبة، عن محارب بن نثار، عن جابر قال: لما قدم النبي صلى الله عليه وسلم المدينة نحر جزورا أو بقرة.

^٤ أبو داود - كتاب الجهاد - باب في التلقي .

وهناك مناسبات يتم فيها إظهار السرور بشكل عام وعلى الملأ مثل مناسبات الزواج، وقد سمح الإسلام بضرب الدفوف والطبول للتعبير عن الفرح في مثل هذه المواقف، حتى يعرف الجميع بها، ويعلم الجميع بأمر الزواج، ولهذا قال صلى الله عليه وسلم:

“ فصل ما بين الحلال والحرام الدف والصوف ” (١) .

يعني أن الفرق بين الزنا والنكاح هو إعلان الزواج بالدفوف والأنشيد حتى يعلم الجميع أن فلانا وفلانة تعاهدا على أن يعيشا زوجين، بينما الزنا يكون خفية حتى لا يعلم أحد به. وحين تزوجت السيدة ربيع بنت معوذ بن عفراء ذهب إليها رسول الله صلى الله عليه وسلم، فغنت بعض الفتيات وهن يضررن الدفوف لشعرا يمدحن فيها أبناء قبيلة السيدة ربيع بنت معوذ الذين استشهدوا في غزوة بدر، ومن بين ما تغنوا به قولهن: “وفينا نبي يعلم ما في غد” فقال صلى الله عليه وسلم: دعكم من هذا، وغنوا ما كنتم تغنون (٢). وذات مرة زوجت السيدة عائشة رضي الله عنها إحدى قريباتها، وودعتها فقال صلى الله عليه وسلم يا عائشة، أليست لديكم أغنية، فإن الانتصار يحبون الغناء، وفي رواية أخرى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: لماذا لم ترسلوا معها جارية تضرب الدف وتغني (٣).

١ الترمذي - كتاب النكاح - باب ما جاء في إعلان النكاح .

حدثنا أحمد بن منيع، حدثنا هشيم، أخبرنا أبو بلج عن محمد بن حاطب الجمحي قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فصل ما بين الحرام والحلال الدف والصوت، قال: وفي الباب عن عائشة وجابر وربيعة بنت معوذ.

قال أبو عيسى: حديث محمد بن حاطب حديث حسن. وأبو بلج اسمه يحيى بن أبي سليم، ويقال ابن سليم، ومحمد بن حاطب قد رأى النبي صلى الله عليه وسلم وهو غلام صغير.

٢ البخاري - كتاب النكاح - باب ضرب الدف في النكاح والوليمة .

حدثنا مسدد: حدثنا بشر بن المفضل: حدثنا خالد بن نكوان قال: قالت الربيع بنت معوذ بن عفراء: جاء النبي صلى الله عليه وسلم فدخل حين بنى علي، فجلس على فراشي كمجلسك مني، فجعلت جوهرات لنا يضررن بالدف وينبذن من قتل من آبائي يوم بدر، إذ قالت إحداهن: وفينا نبي يعلم ما في غد، فقال: (دعي هذه، فقولني بالذي كنت تقولين).

٣ البخاري - كتاب النكاح - باب النسوة يهدين المرأة إلى زوجها ودعائهن .

وذات مرة كانت هناك مناسبة زواج وكان قرظة بن كعب وأبو مسعود الأنصاري رضي الله عنهما جالسين يستمعان إلى غناء الفتيات في تلك الأثناء جاء التابعي عامر بن سعد رضي الله عنه فرأهما واعترض عليهما قائلاً أنتما صحابييان بدریان وهذا يحدث أمامكم فقالا له: إن شئت فاجلس واستمع أنت أيضاً فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم سمح لنا بذلك في مناسبات للزواج (النسائي باب اللهو والغناء عند العرس).

وكان من بين تقاليد العرب في مناسبات الزواج أن يقولوا للعريس (بالرفاء والبنين) ثم يدعون له بالرفاهية والأولاد الذكور، ولما جاء النبي صلى الله عليه وسلم علم الناس هذا الدعاء بدلاً مما كانوا يدعون به :

" بارك الله لك وبارك عليك وجمع بينكما في خير " (١) .

ويسن في الزواج دعوة الأصدقاء والأحباب وهو ما نطلق عليه (وليمة) وفيها نحاول بقدر الإمكان إطعام الأصدقاء والأعزاء، وقد قال صلى الله عليه وسلم أولموا ولو بشاة (٢)، وكان هو نفسه صلى الله عليه وسلم يطعم الناس الجبن والسمن والبلح (٣)، وهكذا يمكن أن نهدي إلى الأصدقاء والأعزاء في زواجهم (النسائي باب الهدية لمن عرس).

حدثنا الفضل بن يعقوب: حدثنا محمد بن سابق: حدثنا إسرائيل، عن هشام بن عروة، عن أبيه، عن عائشة أنها زفت امرأة إلى رجل من الأنصار، فقال نبي الله صلى الله عليه وسلم: (يا عائشة ما كان معكم لهو؟ إن الأنصار يعجبهم اللهو).

^١ أبو داود - كتاب النكاح - باب ما يقال للزوج .

حدثنا قتيبة بن سعيد، ثنا عبد العزيز يعني ابن محمد عن سهل، عن أبيه، عن أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا رفا الإنسان إذا تزوج قال: برك الله لك وبارك عليك، وجمع بينكما في خير.

^٢ البخاري - كتاب النكاح - باب الوليمة ولو بشاة .

حدثنا علي: حدثنا سفيان قال: حدثني حميد أنه سمع أنسا رضي الله عنه قال: سأل النبي صلى الله عليه وسلم عبد الرحمن بن عوف، وتزوج امرأة من الأنصار: (كم أصدقتهما). قال: وزن نواة من ذهب. وعن حميد: سمعت أنسا قال: لما قمنا المدينة، نزل المهاجرون على الأنصار، فنزل عبد الرحمن بن عوف على سعد بن الربيع، فقال: أأسمعك مالي، وننزل لك عن إحدى امرأتي، قال: برك الله لك في أهلِكَ ومالك، فخرج إلى السوق فباع واشترى، فأصاب شيئا من أقط وسمن، فتزوج، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: (أولم ولو بشاة).

^٣ النسائي - كتاب النكاح - باب البناء في السفر .

ولدى المسلمين مواقع ومناسبات أكبر من الزواج يظهرون فيها سعادتهم بشكل جماعي، وهي عيد الفطر وعيد الأضحى، وكان العرب في الجاهلية قد حددوا يومين في العام يحتفلون فيهما، فلما جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة قال كنتم تحتفلون في اليومين، والآن أبدلكما الله بيومين أفضل منهما، يعني عيد الفطر وعيد الأضحى^(١)، ولا يحتفل في هذين لليومين بتخليد بعض المظاهر البعيدة عن التوحيد مثلما كانت تفعل الأمم المشركة مثل فصول ومواسم الحصاد وغيرها، لكن الإسلام جعل هذين اليومين للتعبير عن الفرح تخليداً لواقعتين عظيمتين، أما عيد الأضحى فتخليد لسعادة سيدنا إبراهيم وسيدنا إسماعيل عليهما السلام وبناء للكعبة وفتحها، وأما عيد الفطر فهو تخليد لظهور الإسلام ونزول القرآن .

وبمن في هذين لليومين ارتداء الملابس الجديدة الجيدة وللتعطير تعبيرا عن الفرح والسعادة، ومن للمستحب أيضا للتغني بأغاني الفرح والسرور، وكذلك الألعاب المشروعة وغيرها، يقول السيدة عائشة كان عندي في يوم العيد جاريتان من الأنصار ليسا من محترفي الغناء، وكانتا تغنيان عندي بأشعار عن حرب (البعث)، وفي تلك الأثناء جاء سيدنا أبو بكر الصديق رضي الله عنه فقال: أمز أمير الشيطان في بيت رسول الله، لكن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: يا أبا بكر، لكل قوم عيد، وهذا يوم عيدنا^(٢)، بمعنى أن للغناء في ذلك اليوم مباح^(٣).

حدثنا محمد بن سلام: أخبرنا إسماعيل بن جعفر، عن حميد، عن أنس قال: أقام النبي صلى الله عليه وسلم بين خيبر والمدينة ثلاثا، بينى عليه بصفية بنت حيي، فدعوت المسلمين إلى وليمته، فما كان فيها من خبز ولا لحم، أمر بالأنطاع فألقى فيها من التمر والأقط والسمن، فأكات وليمته، فقال المسلمون: إحدى أمهات المؤمنين، أو مما ملكت يمينه، فقالوا: إن حبيبها فهي من أمهات المؤمنين، إن لم يحبيبها فهي مما ملكت يمينه، فلما ارتحل وطى لها خلفه، ومذ الحجاب بينها وبين الناس.

^١ النسائي - كتاب صلاة العيدين .

أخبرنا علي بن حجر قال: حدثنا إسماعيل قال: حدثنا حميد عن أنس بن مالك قال: كان لأهل الجاهلية يومان في كل سنة يلعبون فيهما، فلما قدم النبي صلى الله عليه وسلم المدينة قال: كان لهم يومان تلعبون فيهما، وقد أبدلكم الله بهما خيرا منهما، يوم الفطر ويوم الأضحى.

^٢ البخاري - باب سنة العيدين لأهل الإسلام .

حدثنا عبد الله بن إسماعيل قال: حدثنا أبو أسامة، عن هشام، عن أبيه، عن عائشة رضي الله عنها قالت: دخل أبو بكر، وعندي جاريتان من جوارى الأنصار، تغنيان بما تقولن الأنصار يوم

وكان الأحباش يقدمون عروضاً عسكرية يوم العيد، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحب ذلك، وذات مرة كان هؤلاء يقدمون عروضهم فسمح رسول الله صلى الله عليه وسلم للسيدة عائشة رضي الله عنها بمشاهدتها وقال للأحباش ما يشجعهم ويخلق فيهم مزيداً من النشاط ولما تعبت السيدة عائشة رضي الله عنها قال لها صلى الله عليه وسلم كفى؟ قالت نعم، فقال صلى الله عليه وسلم إذا لذهبوا^(١).

وكانت هذه الطريقة من التعبير عن الفرح والسرور تسمى (تقليس) وتعني للضرب بالدفوف والغناء والتبارز بالسيف والرمح كنوع من اللعب ويرى البعض أنها تعني أن يقف الأولاد والبنات على الطريق ويضربوا الدفوف ويتقافزون ويلعبون، وقد كان هذا النوع من التفريح في الأعياد منتشراً على عهد الرسالة النبوية بدرجة كبيرة حتى أن الصحابة الكرام كانوا يعجبون إذا جاء يوم العيد ولم تكن فيه مظاهر التعبير عن الفرح هذه ولهذا حضر سيدنا عياض الأشعري رضي الله عنه العيد ذات مرة في الأثبار فقال لماذا لا تقومون بالتقليس مثلما كان يفعل الناس على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم.

ويقول سيدنا قيس بن سعد رضي الله عنه لقد رأيت في زماني هذا كل الأشياء التي كانت في زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم سوى شيء واحد وهو (التقليس) الذي كان على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم^(٢) والحكمة من وراء السماح بهذه

بعثت ثلاثاً وليساً بمعتين، فقال أبو بكر: أمزلمير الشيطان في بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقلت في يوم عيد فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (يا أبا بكر، إن لكل قوم عيداً، وهذا عيدنا).

^١ لكن بشرط أن لا يصد موضوعات هذا الغناء عن الأخلاق أو تخالف الدين.

^٢ البخاري - باب الحراب و الدرق يوم العيد.

حدثنا أحمد قال: حدثنا ابن وهب قال: أخبرنا عمرو قال: إن محمد بن عبد الرحمن الأمدي حدثه، عن عروة، عن عائشة قالت: تدخل رسول الله صلى الله عليه وسلم وعندي جاريتان يتغنيان بقاء بعثت خاضطجع على الفرائش وحول وجهه، ويدخل أبو بكر فأتتهرني، وقال: نمزمار الشيطان عند النبي صلى الله عليه وسلم، فقبل عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: (دعهما). فلما غفل غمزتها فخرجتا. وكان يوم عيد يلعب السودان بالدرق والحراب، فقاما سألت النبي صلى الله عليه وسلم وإيما قال: (تشتهين تنظرين). فقلت: نعم، فقامني وراءه مخدي على خده، وهو يقول: (دونكم يا بني أرفده). حتى إذا مللت، قال: (حسبك). فقلت: نعم، قال: (فذهب).

^٣ ابن ماجه - كتاب الصلاة : باب ما جاء في التقليس يوم العيد.

المظاهر من التعبير عن الفرح في العيدين هو أن الفطرة تقتضي أن تكون هناك بعض المناسبات الدينية والقومية في حياة الأمم على مر العلم يسعد فيها للناس بلا تردد أو تحرج، ويعبر فيها حتى أكثر الناس جدية ووقارا عن فرحه ومعلنته لفطرة، ولهذا لا يجوز الصيام في العيدين، وقال صلى الله عليه وسلم إن هذه الأيام أيام طعم وشراب وملاطفة الأهل والأولاد ونكر الله (١) .

وقد حرص الإسلام أن لا يغفل القلب عن ذكر الله تعالى حتى في مواقع الفرح والسرور، ولهذا سن الإسلام صلاة ركعتي العيد، ولأن نذهب إلى صلاة العيد من طريق ونحن نكبر الله، ونعود من طريق آخر مكبرين أيضا، حتى تظهر عظمة الإسلام وقوته، ويتحقق قوله تعالى :
" لتكبروا الله على ما هداكم " .

آداب النغم والأهازج

الفرح والحزن توأمان، ومثلما يخرج الإنسان في فرحه عن اعتداله، يخرج في حزنه كذلك عن اعتداله، وقد كانت لدى العرب في القديم طقوس عجيبة للمأتم و التعازي بسبب حبهم للفخر والغرور وجهالتهم وبربريتهم، فلا تذهب فكرة للفخر عنهم حتى بعد الموت، ولهذا ظهرت لديهم عدة طرق للتفاخر، ولولها أن يكون مأتم الميت والحزن عليه بما يتطابق مع مكانته ودرجته، ولهذا عندما يموت الصلابة الكبار فيهم كانوا يوصون أن يكون مأتمهم بما يتناسب مع مكانتهم وقدرهم، ويقول أحد الشعراء لزوجته :

إذا مت فابكيني بما أنا أهل له وشقي علي الحبيب يا ابنة معبد .

وكان لطم الوجه وشق الجيب ونشر الشعر أمرا شائعا بين العرب في أحزانهم

ومأتمهم، وكان الشعراء يعبرون عن هذا بفخر:

من كان مسرورا بقتل حالك :: فليأت نسوتنا بوجه نهار

يجد للنساء حواسرا بئدبه :: يطمئن وجههن بالأسحار .

وقد منع النبي صلى الله عليه وسلم من هذه الطقوس منعاً باتاً، قال صلى الله عليه وسلم ليس منا من لطم الخدود، وشق الجيوب، ودعا بدعاء الجاهلية (٢)، بمعنى أن هذا ليس من عمل أمتي .

١ شرح معاني الآثار للطحاوي - ص ٤٢٩، وقد ترجمنا لفظة (عالم) هنا بملامحة الأهل والعيان .

٢ الترمذي - كتاب الجنائز - باب ما جاء في النهي عن ضرب الخدود .

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحب سيدنا جعفر الطيار كثيرا، وحين جاء
خير مشهد حدث له عفته تتوحضنهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وأمرهن
بلمعونهم في بحر في المرة الأولى منعهم صلى الله عليه وسلم ثانية فلما لم يمتثلن
بعد في المرة رسول الله صلى الله عليه وسلم أن ضعنوا في أفواههن التراب^(١).

وكان من بحر في الفخر أيضا أن يكثر عدد الباكين على الميت، ولذا كانوا
يمسحون الماء من كل مكان ليشاركوا في البكاء والنواح وتدرجيا تحول هذا الأمر إلى
تعذيب متكرر بمعنى أن تكرر نساء تلك القبيلة على ميت هذه القبيلة فتبكي نساء هذه القبيلة
على ميت هذه القبيلة وتتوح عليه وتصبح هذا الأمر ضروريا لا بد من القيام به وذات
مرة مات مرة رسول الله صلى الله عليه وسلم وما هو الأمر الذي لا ينبغي أن نخالفك
فيه فإنا نعلم من نساء هذه القبيلة لا تتحفظات عندما مات عمي جاءت نساء القبيلة
لعليه وبكبه وعي في وقت هذا العرض لكن النبي صلى الله عليه وسلم منعها من
تكرار ذلك في بحر فوفى نهية سمح لها بسبب إصرارها ولكن المرأة فهمت مقصد
لنبي صلى الله عليه وسلم وهتفه ولهذا لم تشارك بعدها في النواح على أحد أبدا^(٢).

حدثني أبو نعيم حدثنا زيد القلمي، عن إبراهيم، عن مسروق، عن عبد الله رضي الله عنه
قال: دخلتني مرة في عليه ومنه: (ليس منا من لطم الخدود، وشق الجيوب، ودعا بدعوى الجاهلية).
صحيح بخري - كس خري - باب من جلس عند الميتة لعرف فيه الحزن.

حدثنا محمد بن الحسين حدثنا عبد الوهاب قال سمعت يحيى قال: أخبرتني عمرة قالت: سمعت عائشة
رضي الله عنها قالت: لما جاء النبي صلى الله عليه وسلم قتل ابن حارثة وجعفر وابن رولة يجلس
يعرف فيه الحزن وقتا نظر من صقر الباب شق الباب فأتاه رجل فقال: إن نساء جعفر بوذكر
بك من خمره أن ينهمن خدب ثم أتاه الثانية فلم يطعه فقال: (إنهن). فأتاه الثالثة، قال: نوال الله غلبتنا يا
رسول الله فخرجت ثم قال: (فإن في أفواههن التراب). فقلت: أرغم الله أنك لم تفعل ما أمرك رسول
الله صلى الله عليه وسلم ولم تترك رسول الله صلى الله عليه وسلم من العناء.
^٢ صرمي - كسر سورة شحة.

حدثنا عبد بن حيد حدثنا أبو نعيم حدثنا يزيد بن عبد الله الشيباني قال سمعت شهر بن حوشب
قال حدثنا أم سلمة الأنصورية قالت: سألت امرأة من النسوة بما هذا المعروف الذي لا ينبغي لنا أن
نصبر فيه، قال: لا تتحنن يا رسول الله إن بني فلان قد أسعوني على عمي ولا بد لي من
قضائهم فأبى علي فأتيت مرارا فأتني في قضائهم فلم أتح بعد على أخواتهن ولا غيره حتى
الساعة ولم يبق من النسوة امرأة إلا وقد تلحت غيري.

وكان من الرائج أيضا أنه عندما يموت أحد ينادي المنادي ليأت الناس بكثرة للمشاركة في الأحزان وهو ما يطلقون عليه في العربية (نعى) وقد منع منه النبي صلى الله عليه وسلم أيضا، وحين حضرت سيدنا حذيفة رضي الله عنه للوفاة (كان الأمر للنبي في اعتباره إلى درجة أنه وصى أن: لا تخبروا أحدا بموتي، فقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يمنع من إعلان الوفاة وربما كان الإخبار بالوفاة داخل في الإعلان عنه^(١)).

وكان النائحون والباكون يمشون مع الجنازة ويشعل للناس البخور ويصحبونها وقد أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن لا تشعل نار خلف الجنازة وألا يغني خلفه، وذلك مثلما يفعل كفار الهند، وبالتالي لا يكون خلف الجنازة نار ولا غناء^(٢). وذات مرة كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يشارك في جنازة، فأحضرت امرأة ناراً فزجرها رسول الله صلى الله عليه وسلم بشدة حتى هربت من المكان^(٣). وكانوا عندما يسيرون وراء الجنازة يخلعون رداءهم، ولا يبقى على أجسامهم سوى القميص، وذات مرة رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم الناس على هذه الصورة فقال: أتسيرون على عادة الجاهلية، لو بددت أن أدعو عليكم أن تبدل صوركم، فالتحف الناس فوراً بأرديتهم، ولم يفعل أحد مثل هذا بعدها أبداً^(٤).

قال أبو عيسى: هذا حديث حسن وفيه عن أم عطية رضي الله عنها: قاتل عبد بن حميد: أم سلمة الأنصارية هي أسماء بنت يزيد بن السكن.

^١ الترمذي - كتاب الجنائز - باب كراهية النعي.

^٢ باب الإسلام يهدم ما قبله - ص ١٩٩.

حدثنا هارون بن عبد الله، ثنا عبد الصمد، ثنا ابن المثنى، ثنا أبو داود قال: ثنا حرب يعني ابن شداد، ثنا يحيى، حدثني باب بن عمير، حدثني رجل من أهل المدينة عن أبيه، عن أبي هريرة، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: لا تتبع الجنازة بصوت ولا نار.

قال أبو داود: نزله هارون ولا يمشى بين يديها.

^٣ أبو داود - الجزء الثاني - باب في النار يتبعها الميت، مع بذل المجهود في شرح أبي داود.

^٤ أسد الغابة - الجزء الرابع - ص ٣٩٥ - مصر.

وقد حدد رسول الله صلى الله عليه وسلم مدة الحداد وقال لا يجوز لمؤمن أن يحد على أحد أكثر من ثلاثة أيام، إلا أنه أمر المرأة بالحداد على زوجها أربعة أشهر وعشرة أيام لا تلبس فيها ملابس ملونة، ولا تتعطر، ولا تتزين بحلي أو غيرها^(١).

وليس بعيب أن تبكي العيون على عزيز مات فهو أمر فطري، لكن الصراخ بشدة والتوايح والندب كله ممنوع، وقد توعّد رسول الله صلى الله عليه وسلم من يفعله، وعندما مات ابنه إبراهيم نرفت عيناه صلى الله عليه وسلم بعض الدموع فقال: إنا لفراقك يا إبراهيم لمحزونون، لكن لا نقول إلا ما يرضي الرب^(٢).

وقد قال صلى الله عليه وسلم إن للميت يعذب بسبب بكاء أهله عليه، وهناك اختلاف بين الصحابة والمحدثين في مفهوم هذا الحديث، والذي اتفقوا عليه هو أن العرب كما سبق أن ذكرنا كانوا يوصون بمآتمهم فخرا وغرورا، والميت يعذب بقدر ما يبكي عليه طبقا لوصيته^(٣).

والمواساة تقتضي أنه إذا مات أحد أن يرسل أصداؤه وأعزّاءه وأهمل الحي بالطعام إلى بيت هذا الميت، إذ يكون من الصعب على أهل الميت أن يطبخوا الطعام بسبب ما هم فيه من حزن، ولهذا أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بإرسال الطعام إلى بيت سيدنا جعفر رضي الله عنه عندما استشهد، وقال إن أهل بيته لن يتمكنوا من طبخ الطعام اليوم^(٤).

^١ ابن ماجه - كتاب الجنائز - باب ما جاء في النهي عن التسلب مع الجنائز .

^٢ الترمذي - كتاب الطلاق - باب ما جاء في عدة التول عنها زوجها، ومسلم - كتاب الفضائل - باب رحمة صلى الله عليه وسلم بالميت والعيال .

حدثنا الحسن بن عبد العزيز: حدثنا يحيى بن حسان: حدثنا قريش، هو ابن حيان، عن ثابت، عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: تدخلنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: أبي سيف القين، وكان ظمرا لإبراهيم عليه السلام، فأخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم إبراهيم فقبله وشمه، ثم دخلنا عليه بعد ذلك، وإبراهيم يوجد بنفسه، فجعلت عينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ترفان، فقال له عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه: وأنت يا رسول الله، فقال: (يا ابن عوف، إنها رحمة) ثم أتبعها بأخرى، فقال صلى الله عليه وسلم: (إن العين تدمع، وإن القلب يحزن، ولا نقول إلا ما يرضى ربنا، وإنا بفراقك يا إبراهيم لمحزونون). رواه موسى، عن سليمان بن المغيرة، عن ثابت، عن أنس رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم .

^٣ فتح الباري - الجزء الثالث - ص ١٢٢ .

^٤ أبو داود - كتاب الجنائز - باب صفة الطعام لأهل الميت .

ومن الفرض على المسلم أن يستعين بالله تعالى وبالصبر في المشكلات والمصائب والصبر والدعاء هما تلك الوصفة التي قدمها القرآن للمسلمين :
 " واستعينوا بالصبر والصلاة " (البقرة : ٤٥) .

ومقام الصبر مع بداية وقوع المصيبة، إذ لا يعني هذا أن يبكي وينوح في بداية المصيبة، ثم في النهاية يضطر إلى الصبر .

وقد بين رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا الأمر لامرأة كانت تبكي على موت طفلها، لكنها لم تطعه، وحين علمت بعد ذلك أنه كان رسول الله صلى الله عليه وسلم جاءت لتعتمر إليه، وذكرت الصبر فقال صلى الله عليه وسلم إنما الصبر عند الصدمة الأولى (١) .

ويقول الله تعالى إن المسلم للصالح هو ذلك الذي حين تحل به مصيبة يقول: "إن الله وإنا إليه راجعون" قال تعالى: " قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون " (البقرة: ١٥٦)، ولهذا إذا سمع المسلم بخبر حزين فإنه يقول: "إنا لله وإنا إليه راجعون"، وهو تصرف مستحسن .
 وعقيدة القدر هي الدواء للأحزان، أي الإيمان بأن ما حدث إنما كان بأمر الله وبحكمة منه، وهذا هو تعليم الإسلام، وقد بين القرآن الكريم فائدة هذا التعليم فقال :
 " لكيلا تأسوا على ما فاتكم " (الحديد : ٢٣) .

آداب متفرقة

هناك بعض الحالات الجسمانية للإنسان تنافي الأدب والتحضر والوقار، إذ يشمئز الإنسان حين يراها، مثلاً فتح الغم عن آخره عند التناوب فيخرج صوت من التآوه حينذاك، ويتغير شكل الوجه فيصير على هيئة مضحكة، وقد أوضح رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا المعنى في قوله: "التناوب من الشيطان، وحين يتأوه أحد وهو يتناعب فإن الشيطان بداخله يضحك عليه، فإذا تناعب أحدكم فليغلق فمه لأن الشيطان يتسلل

حدثنا مسددنا سفيان محدثي جعفر بن خالد، عن أبيه، عن عبد الله بن جعفر، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : اصنعوا لآل جعفر طعاماً فإنه قد أتاهم أمر شقيلهم .

^١ الترمذي - كتاب الاستئذان - باب ما جاء أن الله يحب المطاس ويكره التناوب .

حدثنا محمد بن بشار، حدثنا محمد بن جعفر، عن شعبة، عن ثابت البناني، عن أنس بن مالك، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال الصبر عند الصدمة الأولى، قال: هذا حديث حسن صحيح.

منه^(١)، وسيدنا شاه ولي الله الدهلوي يطبق الحقيقة والمجاز على هذا الأمر، لأن الشيطان يدخل إلى الفم عن طريق ذنابة أو بعوضة يدخل فيها ويدخلها إلى خلق الإنسان^(٢)، ولهذا قضى الإسلام على كل صور هذا المنظر غير المرغوب فيه :

١- الحكم الأول هو أن التناوب شيء يمكن إيقافه، وإذا ينبغي إيقافه كلما أمكن، ولا ينبغي إخراج أصوات من التناوب معه، وإذا لم يمكن ذلك ينبغي أن يضع يده على فمه .

٢- لم يأمر الإسلام بإيقاف العطس، على عكس التناوب، وقال بأن العطس من الله^(٣)، ويكتب شراح الحديث السبب في ذلك قائلين أن العطس يكون بسبب انفتاح مسامات الجسم الصغيرة، وعدم الزيادة في الطعام، لكن التناوب ينتج عن ثقل البدن وكسله وتعاونه، ولهذا فإن العطس يخلق النشاط في العمل، بينما يخلق التناوب للكسل، ويكتب شاه ولي الله الدهلوي قائلًا: أن أبخرة المخ تخرج مع العطس، وبالتالي يصير العطس وسيلة للشفاء، ولهذا أمرت الشريعة من يعطس بأن يحمده الله ويقول "الحمد لله" ومن يسمعه يرد عليه قائلًا: رحمك الله^(٤) .

٣- ولأن العطس شيء قبيح فإن الأنف قد يخرج منه شيء في بعض الأحيان، ولهذا يجب على العاطس أن يغطي فمه وأنفه بيده، أو بقطعة من القماش، وبهذا ينخفض صوت العطس أيضًا، وكانت هذه هي طريقة رسول الله صلى الله عليه وسلم^(٥).

٤- رغم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يأمر بشيء بخصوص التكبرع والتمطي، إلا أننا لا نستطيع أن ننكر أن وقوعهما على الملاء أمر ينافي للتحضر، وجاء في بعض كتب الخصائص أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يكن يتعاب أو يتمطي، وقد نقل الحافظ بن حجر في فتح الباري هذه الأحاديث ولم يضعفها أو يرفضها، وإنما أيد

^١ أبو داود - كتاب الأدب - باب ما جاء في التناوب .

حدثنا آدم بن أبي إياس: حدثنا ابن أبي ذئب: حدثنا سعيد المقبري، عن أبيه، عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم: (إن الله يحب العطاس، ويكره التناوب، فإذا عطس فحمد الله، فحق على كل مسلم سماعه أن يشمته، وأما التناوب: فبما هو من الشيطان، فليرده ما استطاع، فإذا قال: ما ضحك منه الشيطان)

^٢ حجة الله البالغة - أدب .

^٣ الترمذي - كتاب الاستئذان - باب ما جاء في أن الله يحب العطاس ويكره التناوب .

^٤ المرجع السابق .

^٥ الترمذي - كتاب الاستئذان - باب ما جاء في كيف يشمت العاطس .

بعضها^(١)، على أية حال سواء كانت هذه الأحاديث صحيحة أم لا، لكن يثبت منها على الأقل أن الصورة التي يكون عليها الجسم عند التمطي قبيحة ولذا ينبغي تجنبها على الملأ .

وجاء في صحيح الترمذي فيما يتعلق بالتكرع أن شخصا تكرع أمام رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال له أوقفوا تكرعكم، لأن الذين يأكلون في الدنيا كثيرا هم أكثر الناس جوعا في الآخرة، وقد جاء في هذا الحديث المنع من كثرة الطعام، وكره التكرع ضمنا .

حكمة الآداب و فلسفتها :

وقد علق شاه ولي الله الدهلوي في كتابه حجة الله للبالغة على خصائص هذه الآداب تعليقا رائعا هذا خلاصته .

إن الأمم المتحضرة راعت بعض الآداب الفطرية في النواحي الاجتماعية كالطعام والشراب والجلوس والقيام والملبس والهيئة وغيرها، واتخذت في ذلك طرقا عدة :

١- بعض الناس وضعوا هذه المبادئ على قواعد الحكمة الفطرية، واختاروا الآداب المفيدة من وجهة النظر الطبية والمعتمدة على التجربة .

٢- بعض الناس أقام آدابه على الأصول الدينية، والتزم فيها بالدين .

٣- بعض الناس قام بتقليد ملوكهم وحكمائهم ورهبانهم .

وبالإضافة إلى ذلك هناك بعض الأصول والقواعد بعضها مفيد وبعضها ضار، وبعضها لا ينفع ولا يضر، فما كان منها مفيدا استحق أن يتبع، وما كان ضارا استحق أن يمنع، وما خلا من النفع والضرر ظل مباحا، وبناءا على ما سبق فإن الشريعة ناقشت هذه الأمور، ووضعت في الاعتبار الأمور التالية :

١- في بعض الأحيان يشغل الالتزام بهذه الآداب عن ذكر الله، ويفقد القلب صفاؤه ونقاءه، ولهذا سنت الشريعة بعض الأدعية قبل هذه الآداب ومعها ربهدها مما يذكر بالله تعالى .

٢- بعض الأفعال والأشكال تتناسب مع طبائع الشياطين مثل المشي بحذاء في قدم وحدة، وتناول الطعام باليد اليسرى، ولهذا لم تجزها الشريعة، وعلى العكس من ذلك فإن

^١ أبو داود - كتاب الأدب - باب في العطس .

بعض الآداب تقرب من طبائع الملائكة مثل الدعاء عند دخول البيت وعند الخروج منه، ولهذا رغبت الشريعة فيها .

٣- بعض الأشياء مرهقة عمليا مثل النوم على سطح لا يحيط به سياج أو سور، أو ترك المصباح مشتعلا وقت النوم، ولهذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إن للفران تشعل النار في البيوت بقتيل المصابيح .

٤- هناك بعض الآداب يقصد بها مخالفة إسرارف الأعاجم ولهوهم مثل منع لبس الحرير والملابس التي عليها صور والأكل والشرب في ألوان من ذهب وفضة .

٥- بعض الأشياء تنافي الوقار والتعذيب وتدخل الإنسان في زمرة الهمجيين والبدو، ولذا منعها رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى يبقى الإنسان في طريق الاعتدال لا إفراط ولا تفريط (١) .

وبعد هذا التفصيل نعرف أن كل الأدب والأصول الاجتماعية والحياتية التي وضعتها الأمم المتحضرة لنفسها مرعية في أحكام الإسلام وتعاليم رسول الأنام صلى الله عليه وسلم، التي تنفع وتفيد دينيا وأخلاقيا وحضاريا وطبيا وغيرها، بمعنى أن إتباع هذه المبادئ والآداب الإسلامية يجعل الإنسان ينال رضا الله تعالى وإتباع رسوله صلى الله عليه وسلم كما يؤدي إلى طهارة الروح والجسم ونظافة البيت ورفعة الأخلاق ورفي المجتمع والحفاظ على الصحة ومعرفة مبادئ الأسلاف العظام التي جربوها، والوصول إلى طريق الحياة الصحيح، وهذه كلها عبارة عن مدنية الإسلام وحضارته .

وقد راعى الإسلام في هذه الأدب كلها نوعا من المرونة، بمعنى أن الأمور الأصلية والأساسية فيها أكد عليها القرآن والحديث النبوي بما يظهر أهميتها، لكن بعض هذه الآداب يراعى مصلحة الوقت وأحوال المجتمع العربي، ويمكن أن يتغير بتغير الزمان والمكان، ولهذا لم يتم التأكيد عليها بما يجعلها من مظاهر الإسلام، وليس هناك ومعيد لمن لا يتبعها (٢)، ولهذا تم توضيح فوائدها ومنافعها النبوية، وهذا يعني أنه إن حدث فيها تغيير بما لا يهدم هدفها الأصلي، وإنما يزيد من فائدتها فأمر مستحسن، مثلا الهدف من غسل الأيدي هو نظافتها، فإذا استخدمنا الصابون بدلا من الطين واستخدمنا المناشف، والملاعق بدلا من الأيدي في الطعام، والسكين للذبح والأطباق وغيرها فلا

١ حجة الله البالغة - ص ٣٦٣ .

٢ عبر عنها فقهاؤنا بسنة الهدى وغيرها .

مانع ويمكن اختيار طرق أخرى للنظافة والطهارة وأن يلبس أهل كل بلد ما يناسبهم من الملابس ويأكلون الحلال، ويستعملون أدوات وأمتعة مناسبة للجلوس والنوم فأمر جائز تماماً، ولكن بالرغم من هذا الجواز فإن هناك تقديراً للعشق والمحبة بمعنى أن من أراد تقليد رسول الله صلى الله عليه وسلم في هذا الأمر مهما تغير الزمان وتبدل فإنه يتعلق بالمحبيب، ويرى كل ما عليه المحبوب يستحق الحب والتقليد فهذا له .

نبيع للنور للحكمة الربانية

" يعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم " (البقرة : ١٢٩) .

أيها القارئ لقد قرأت كل صفحة من صفحات الكتاب، وتعرفت على التعاليم الأخلاقية للإسلام، وعلى إرشادات النبي صلى الله عليه وسلم الأخلاقية، ورأيت كم أن فلسفة الأخلاق في الإسلام مكتملة، وتعاليمها كاملة، ومبادئها الحضارية والمدنية رفيعة سامية، ونظرياتها في التربية راقية، وكل هذا تحقق على أرض الواقع على لسان النبي صلى الله عليه وسلم عن طريق الوحي الإلهي، ولو لم يكن هناك دليل على صدق النبي صلى الله عليه وسلم سوى هذا لكفانا أن نبينا صلى الله عليه وسلم المعلم الأمي وصل إلى حيث لم يستطع حكماء الزمان وفلاسفة العصور ومعلموا الأمم، وبدون أية معاونات إنسانية .

ورغم عظمة هذا الكلام في حد ذاته، لكن أعظم منه أنه صلى الله عليه وسلم علم تلك الأمة التي لم تكن تعرف شيئاً عن الحضارة، وتجهل الأخلاق السامية ولا علم لها بالسليقة والشعور، علمها أرقى نظريات الأخلاق والتقدم وأحكم مبادئها، ليس هذا فقط، وإنما خلق في هذه الأمة بالتعليم والتربية جوهر أخلاقياً أصاب الدنيا بالدهشة والحيرة حين رأوه، وهكذا استجاب الله لدعاء سيدنا إبراهيم عليه السلام، أو قل إن النبوة التي ظهرت بقدم خاتم الأنبياء والمرسلين من نسل إسماعيل عليه السلام وهي "يعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم" قد تحققت يعني ذلك للنبي الذي يعلم الأميين أحكام الله والأخلاق والحكمة، ويزكيهم بتربيتهم ويطهرهم بتعليمهم، هذا الذي طهرهم وزكاهم أحل الدنيا إلى ربيع دائم، صلى الله عليه وسلم.

الطامع في رحمة الله

سيد سليمان ندوي

٢٩ ذي القعدة سنة ١٣٥٧ هـ .

الفهرست

٥	١. الأخلاق
١٨	٢. تميز النبي صلى الله عليه وسلم بين معلمي الأخلاق
٢٤	٣. فلسفة الأخلاق في الإسلام
٦٢	٤. معجزة لأكمل للتعليم الأخلاقية
٩٩	٥. أسلوب وطرق تعليم الأخلاق
١١١	٦. أقسام التعليم الأخلاقية
١١١	٧. الحقوق والواجبات
١١٦	٨. حقوق الوالدين
١٢٣	٩. حق الأولاد
١٣٣	١٠. حقوق الزوجين
١٤٢	١١. حقوق القرابة
١٤٥	١٢. حقوق الجار
١٥٠	١٣. حق اليتيم
١٥٤	١٤. حسن معاملة الأرملة
١٥٦	١٥. حقوق المحتاجين
١٥٩	١٦. حقوق المريض
١٦٢	١٧. حقوق العبيد
١٦٤	١٨. حقوق الضيف
١٦٧	١٩. حقوق المسلمين فيما بينهم
١٧٦	٢٠. حق الأخوة الإسلامية
١٧٩	٢١. حقوق الحيوان
١٨٥	٢٢. فضائل الأخلاق
١٨٨	٢٣. الصدق
١٩٧	٢٤. السخاء
٢٠٦	٢٥. العفة والطهارة
٢١٨	٢٦. الأمانة

٢٢٣	٢٧. الحياء
٢٢٨	٢٨. الرحمة
٢٣٢	٢٩. العدل والإنصاف
٢٣٥	٣٠. الوفاء بالعهد
٢٣٩	٣١. الإحسان
٢٤٥	٣٢. للعفو والتسامح
٢٤٩	٣٣. الحلم والمغفرة
- ٢٥٢	٣٤. الرفق واللطف
٢٥٦ -	٣٥. التواضع
٢٥٨	٣٦. القول الحسن
٢٦٠	٣٧. الإيثار
٢٦٢	٣٨. الاعتدال والوسطية
٢٦٤	٣٩. عزة النفس
٢٧١	٤٠. الشجاعة والإقدام
٢٨١	٤١. الاستقامة
٢٨٥	٤٢. قول الحق
٢٨٨	٤٣. الاستغناء
٢٩١	٤٤. الرذائل
٢٩٤	٤٥. الكذب
٣٠٣	٤٦. الحلف كذباً
٣٠٧	٤٧. خلف الوعد
٣٠٨	٤٨. الخيانة وعدم الأمانة
٣١٠	٤٩. الغدر والخداع
٣١٢	٥٠. البهتان
٣١٤	٥١. النميمة
٣١٨	٥٢. الغيبة وفحش القول
٣٢٣	٥٣. ذو الوجهين

٣٢٤	٥٤. سوء الظن
٣٢٥	٥٥. النفاق والمداينة
٣٢٧	٥٦. البخل
٣٣٣	٥٧. الحرص والطمع
٣٣٦	٥٨. عدم الضمير
٣٣٨	٥٩. السرقة
٣٤١	٦٠. التطفيف في الميزان
٣٤٣	٦١. الغلول
٣٤٦	٦٢. الرشوة
٣٤٩	٦٣. أكل الربا
٣٥١	٦٤. شرب الخمر
٣٥٥	٦٥. الغيظ والغضب
٣٥٨	٦٦. البغض والحقد
٣٥٩	٦٧. الظلم
٣٦٣	٦٨. الفخر والغرور
٣٧١	٦٩. الرياء
٣٧٦	٧٠. العجب وحب الذات
٣٧٨	٧١. التنبيه
٣٧٩	٧٢. الحسد
٣٨٤	٧٣. فحش القول
٣٩١	٧٤. تعليق مختصر على الرذائل
٣٩١	٧٥. آداب الحياة
٣٩٢	٧٦. الآداب اللطيفة
٣٩٤	٧٧. الطهارة وآدابها
٤٠٠	٧٨. آداب الطعام والشراب
٤٠٥	٧٩. آداب المجلس
٤٠٩	٨٠. آداب اللقاء والزيارة

٤١٦	٨١. آداب الحديث
٤٢٠	٨٢. آداب الخروج والسير
٤٢٢	٨٣. آداب السفر
٤٢٤	٨٤. آداب النوم
٤٢٦	٨٥. آداب الملبس
٤٣٠	٨٦. آداب الفرح والسرور
٤٣٦	٨٧. آداب الغم والأحزان
٤٤١	٨٨. آداب متفرقة
٤٤٤	٨٩. تبع النور للحكمة الربانية

رقم الإيداع : ٢١٩٧٤ / ٢٠٠٥